
ول وايريل ديورانت
قصة
الحضارة

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

قيصر والمسيح
أو
الحضارة الرومانية

ترجمة
محمد بدران

الجزء الثالث من المجلد الثالث

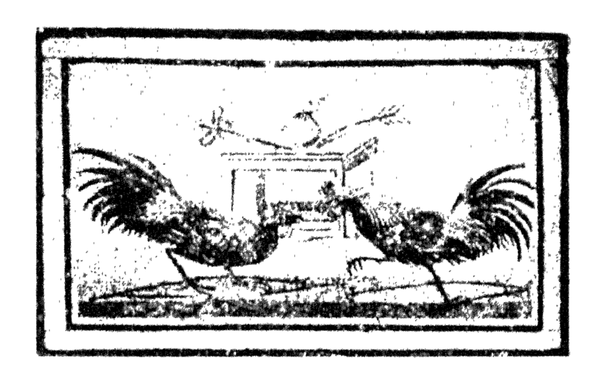






بيروت تونس

دار الجيل: ص.ب ٨٧٣٧ ، ت: ٣٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤١٥ ، تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار جيلاب - بيروت - لبنان





الفهرس

الكتاب الرابع – الإمبراطورية

الموضوع — الصفحة

الباب الخامس والعشرون : روما اليهوديه

الكتاب الخامس — شباب المسحية

الباب السادس والعشرون : عيسى أو يسوع (عليه السلام)

الباب السابع والعشرون : الرسل

الباب الثامن والعشرون : نمو الكنيسة

الباب التاسع والعشرون : انهيار الإمبراطورية

الباب الثلاثون : انتصار المسيحية

الخاتمة

الفهارس

فهرس الأشكال والصور

الكتابُ الرّابع

الامبراطورية

١٤٦ ق . م — ١٩٢ م

جدول بالحوادث التاريخية

مرتبة حسب تواريخها

ق . م

١٢٠٠ الكلت الجيد ليون يغزون إنجلترا .

٩٠٠ الكلت البريثونيون والبلجيون يغزون إنجلترا .

٣٥٠ بيثياس المرسيلي يرتاد بحر الشمال .

٢٤٨ بداية الأسرة الأرساسية في بارثيا .

٢٤١ – ١٠ صقلية تصبح ولاية رومانية .

٢٣٨ الاستيلاء على سردينية وكورسكا .

٢١١ – ١٩٠ أرسيس الثاني ملك پارثيا .

١٧٠ – ٣٨ مثرداتش الأول ملك پارثيا .

١٦٨ الاستيلاء على مقدونية .

١٦٨ إلبريكم .

١٤٦ آخية ، « أفريقية » ، إبيروس .

١٤٥ – ١٣٠ بطليموس السابع .

١٣٥ – ١٠٥ يوحنا هركانس ، ملك اليهود .

١٣٥ – ٥١ پوسيدونيوس .

١٣٣ أتلس الثالث يوصي لرومة ببرجم .

١٢٤ – ٨٨ مثرداتس الثاني ملك پارثيا .

١٢١ چاليانا ربننسس .

١١٢ – ٥ الحرب الجوجرثية .

١١٠ فيلو البيزنطي ، العالم الطبيعي .

١٠٤ – ٧٨ الكسندر جانيوس ملك اليهود .

١٠٢ قليقية ؛ بمفيليا .

٨٨ – ٤ الحرب المثرداتية الأولى .

٨٨ مذبحة الرومان في الشرق الأدنى .

٨٣ – ١ الحرب المثرداتية الثانية .

٧٨ – ٦٩ الكسندره ، ملكة اليهود .

٨٦ تيوماكس البيزنطي ، المصور

٧٥ – ٦٣ الحرب المثرداتية الثالثة .

٧٤ بيثينيا .

٧٤ – ٦٧ قوريني وكريت .

ق . م
٦٩ — ٦٣ أرستو بولس الثانى ملك اليهود .
٦٤ سوريا .
٦٣ بنتس وبلاد اليهود تصبحان ولايتين رومانيتين .
٦٣ — ٤٠ هركانس الثانى ، ملك اليهود .
٥٨ قبرص .
٥٨ — ٥٠ قيصر يفتح غاله .
٥٥ — ٥٤ قيصر فى بريطانيا .
٥٠ هيرو الإسكندرى ؛ مليجر الجدرانى .
٤٦ نوميديا .
٤٠ البارثيون يغزون سوريا .
٣٧ — ٤ هيرود الأكبر .
٣٠ مصر .
٢٥ جلاتيا .
٢٥ — ٤ حملة إيليوس جالس على بلاد العرب السعيدة (اليمن) .
١٧ الأستيلاء على ألمانيا العليا والسفلى
١٥ نوركم ، ريتيا .
١٤ جبال الألب البحرية .
١١ موسيا .
٧ وما بعدها : استرابون الجغرافى .
٤ ؟ مولد المسيح .
٤ق . م — ٦ م : أركلوس ملك اليهود ، هيرود انتيباس ، تترارك الجليل .
١٧ م كبدوكيا .
٤٠ موريتانيا .
٤٣ بريطانيا .
٤٧ ثورة كركتاكس .
٥٠ ديوسكريدس ، الصيدلى .
٥١ ٦٣ حرب بارثيا ورومة .
٥٥ — ٦٠ كربولو يخضع أرمينية .
٦١ ثورة بودكا .
٦٤ جبال الألب الكتية .
٧٠ — ٨٠ فتح الرومان البلاد ويلز .
٧٧ — ٨٤ أجركولا حاكم بريطانيا .
٧٢ انقراض الأسرة السلوقية .
٨٩ أفلوطرخس فى روما ؛
٩٠ إبكتتس .

٩٥ ديوكريسسم .
١٠٠ أبلودورس الدمشقى ، المهندس المعارى .
١٠٥ بلاد العرب الشمالية .
١٠٧ داشيا .
١١٤ أرمينية ، أشور ، أرض الجزيرة .
١١٥ سورانس الإفسوسى ، الطبيب .
١١٧ هدريان يتخلى عن أرمينية وسورية .
١٢٠ مارنيس الصورى الجغرافى .
١٢٢ سور هدريان فى إنجلترا .
١٣٠ إيليا كپتو لينا تشاد فى موضع أورشليم ، بثون الأزميرى العالم الرياضى ؛ أريان النقوميدى المؤرخ ؛ كلوديوس بطليموس الفلكى .
١٤٢ سور انطونينس پيوس فى إنجلترا .
١٤٧ – ٩١ فلوجيسس الثالث ملك بارثيا .
١٥٠ لوشيان ؛ إيليوس أرستيديز .
١٦٠ جالينوس الطبيب ؛ پوسنياس الجغرافى .
١٩٠ سكستس إمبركس الفيلسوف .
٢٢٧ نهاية الأسرة الأرساسية .

الباب الحادي والعشرون

إيطاليا

الفصل الأول

المدن

فلنقف قليلا عند هذا المجد المزعزع ونحاول أن ندرك أن الإمبراطورية كانت أعظم شأناً من مدينة رومة ؛ ذلك أننا قد أطلنا الوقوف عند هذا المنظر الباهر الذى استحوذ على عقول المؤرخين كما خلب ألباب سكان الولايات ؛ لكن الواقع الذى لا مناص من الاعتراف به أن حيوية الدولة العظيمة لم يعد مقرها فى عاصمتها الفاسدة المحتضرة ؛ بل إن ما بقى لهذه الدولة من قوة وحيوية ، وكثيراً مما كان فيها من جمال ، ومعظم ما كانت تحتويه من نشاط عقلى ، إن هذا كله كان فى الولايات وفى إيطاليا ؛ ومن أجل هذا فلن نستطيع أن نكوّن لأنفسنا فكرة صحيحة عن رومة ، وعما قامت به من جلائل الأعمال فى الإدارة والسلم ، حتى نترك العاصمة نفسها ونطوف بالمدائن الألف التى كان يتكون منها العالم الرومانى(*) .

قال پلنى الأكبر لما أن بدأ يصف إيطاليا : ترى كيف أبدأ هذا العمل ؟ ألا ما أكثر ما هنالك من بلدان ! — ومن ذا الذى يستطيع أن يحصيها كلها ؟ وما أعظم شهرة كل بلد بمفرده ! » لقد كان حول رومة وجنوبها إقليم

(*) فى وسع القارئ أن يتتبع هذا الطواف على الخرائط التى فى هذا الكتاب .

لا تيوم ، الذى كان فى بادئ الأمر أمها ، ثم صار عدوها ، ثم هُرِبها ، ثم جنة من الضواحى والقصور يقيم فيها الرومان أصحاب المال والذوق السليم . وكان إلى جنوبى العاصمة وغربيها نهر التيبر وطرق برية صالحة تربطها بالمرفأين المنافسين لها وهما پورتس Portus وأستيا على البحر الترهينى . وقد وصلت أستيا إلى أوج عزها فى القرنين الثانى والثالث من التاريخ الميلادى ، فكانت شوارعها غاصة بالتجار وصائدى السمك ، ودور تمثيلها مزدحمة بهم ؛ وكانت بيوتها ومساكنها ذات الشقق الكثيرة شبيهة كل الشبه بأمثالها فى رومة الحاضرة ؛ وقد تحدث عنها سائح من فلورنس فى القرن الخامس عشر حديث المعجب بثروتها وزينتها العظيمة . وتدل بعض الأعمدة الباقية منها إلى اليوم ، ويدل أحد المذابح البديع التصميم والذى نقشت عليه أزهار جميلة دقيقة ، على أن سكانها التجار أنفسهم كانوا يدركون معنى الجمال الحق .

وكان إلى جنوبى أستيا على شاطئ البحر مدينـــة أنتيوم Antium (أنزيو Onzio) حيث كان لأغنى الرومان ، ولكثير من الأباطرة ، وللمحبوبين من الآلهة قصور أو هياكل تمتد إلى شاطئ البحر الأبيض لتستقبل ما يسرى فيه من نسيم عليل . وقد وجدت فى خرائبها التى تمتد نحو ثلاثة أميال ، تماثيل ذات روعة وجمال ، منها تمثال المجالد البرغيزى وتمثال أپلو بلفدير . وبالقرب منهما أثر باق إلى اليوم كان يذكر « المواطنين العظام » الذين مضى عليهم الآن ثلاثة عشر قرناً من الزمان أنهم كانوا من عهد قريب يستمتعون برؤية أحـــد عشر مجالداً يموتون وهم يقاتلون عشرة دببة ضارية[٢] . وكان إلى شمالها ومن وراء التلال الساحلية مدينة أكوينم مسقط رأس چوڤنال وأرپينم Arpinum التى كانت تفخر بابنيها ماريوس وشيشرون . وعلى بعد عشرين ميـــلا من رومة كانت تقوم مدينة پرانستى Praeneste القديمة (پلسترينا الحديثـــة Palestrina) ، وكانت بيوتها الجميلة مشيدة على شرفات مدرجة على سفح الجبل ، وحدائقها

تشتهر بوردها ، وقلة جبلها يتوّجها هيكل ذائع الصيت للإلهة فورتونا بريمجينيا Fortuna Primigenia التي كانت تحيط النساء برعايتها وقت المخاض ، وتنال منهن المال نظير ما تنطق به من النبوءات . وكانت تسكيولم Tusculum التي تبعد عشرة أميال عن رومة غنية مثلها بالحدائق والقصور ، وفيها وُلد كاتو الكبير ، واحتفظ شيشرون بكتابة « المجادلات التسكيولانية »(*) . وكانت أعظم ضواحي رومة شهرة ضاحية تيبور (ترڤولى) التي مد إليها هدريان قصره الريفي والتي قضت فيها زنوبيا ملكة تدمر سني أسرها .

وإلى شمال رومة تقع إتروريا التي بُعثت في عهد الزعامة بعثاً جديداً متواضعاً : وفيها بلدة پروزيا Perusia التي خرب أغسطس معظمها وجدد بناء بعضها ، وجمل فنانوه فيها قوسا تسكانيا قديما : وأنجبت أريتيوم Arretium ميسناس Maecenas وبعثت به إلى رومة ، وأخرجت خزفاً للعالم القديم ، وكانت مدينة پيسى Pisae في ذلك الوقت قد عمرت طويلا ، وتعزو هذه المدينة اسمها ومنشأها إلى جماعة من المستعمرين اليونان جاءوا من پيزا Pisa في البلوپونيز وكانوا يكسبون عيشهم فيها بنقل الخشب في نهر أرنس Arnus . وقامت على هذا النهر نفسه على مسافة من هذه المدينة في اتجاه منبعه مستعمرة رومانية ناشئة تدعى فلورنتيا Florentia ، يندر وجود مثلها بين المدن لأنها في أغلب الظن لم تقدر مستقبلها حق قدره : وكان إلى الطرف الشمالي الغربي من إتروريا محاجر كرراز Carrara التي كان ينقل منها أجمل رخام رومة إلى ثغر لونا Luna ثم تحمله السفن إلى العاصمة ؛ وكانت جنوى من زمن بعيد هي المرفأ الذي تصدر منه غلات شمالي إيطاليا الغربي . ونسمع من زمن بعيد ، أي من عام ٢٠٩ ق . م ، أن القرطاجنيين قد دمروا تلك المدينة في حرب تجارية ضروس ، وأنها دمرت بعد

(*) ولا تزال فرسكاتى Frascati وارثة تسكيولم ملجأ أثرياء الإيطاليين . وفيها قصور الدبرتديني ، وترلونيا ، ومندوجونى وغيرها .

ذلك مراراً كثيرة ولكنها كانت فى كل مرة تبعث بعثاً جديداً وتعود أكثر مما كانت رخاء وازدهاراً .

وعند قاعدة جبال الألب كانت أوغستا تورنورم Augusta Taurinorum التى أنشأها الغاليون التوريثيون Touurini Gauls ، والتى جعلها أغسطس مستعمرة رومانية ؛ وفى مقدور الإنسان أن يرى الآن أرصفتها ومجاريها القديمة تحت أرض شوارع تورين ، وقد بقى فيها من أيام أغسطس باب ضخم يذكرنا بأن المدينة كانت فى يوم من الأيام حصناً يصد عن البلاد المغيرين عليها من الشمال . وهنا ينثنى نهر پدوا (الپو) الكسول الذى ينبع من جبال الألب الكتية Cottian ويجرى نحو الشرق مائتى ميل وخمسين ميلا ، ويقسم الجزء الشمالى من إيطاليا قسمين كانا يعرفان فى عهد الجمهورية بغالة ما قبل الپو وغالة ما وراء الپو . وكان وادى الپو أخصب أقاليم شبه الجزيرة كلها ، وأكثرها سكانا ، وأعظمها رخاء .

وكان — عند سفح جبال الألب تلك البحيرات العظيمة — ڤربانس Verbanus (مجيورى Maggiori) ، ولاريوس Larius (كومو Como) ، وبناكس Benacus (جاردا Garda) ، التى كانت روعتها متعة العين والنفس لتلك الأجيال ولا تزال كذلك لنا نحن فى هذه الأيام . وكان يبدأ من كوم ، مدينة پلنى الأصغر طريق تجارى رئيسى يتجه جنوباً إلى مديولانم Mediolanum (ميلان) . وقد استقر الغاليون فى هذه المدينة فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم أضحت فى أيام ڤرجيل من الحواضر الكبيرة والمراكز التعليمية الهامة ؛ وقبل أن يحل عام ٢٨٦ صارت عاصمة الإمبراطورية الغربية بدل رومة . وكانت ڤيرونا وقتئذ تسيطر على التجارة التى تعبر ممر برنر Brenner ، وقد بلغت من الثراء درجة أمكنتها من أن تنشئ لها مدرجاً (جدد حديثاً) يتسع لخمسة وعشرين ألفاً من النظارة . وقامت على نهر البو الملتوى مدينة بلاسنتيا Placentia (بياسنزا

الحديثة Piacenza ، وكرمونا Cremona ، ومنتوا Mantua وفرارا Ferrara — وكانت فى أول أمرها رباطات على الحدود أقيمت لصد الغاليين .

وكان إقليم فنيشيا يقع شمال نهر البو وشرق الأديج Adige . وقد اشتق اسمه من الفنيتى Veneti ، المهاجرين الأولين من أليريا Illyria . ويصف لنا هيرودوت كيف كان زعماء تلك القبائل يجمعون فتيات قراهم اللاتى فى سن الزواج . ويقدّرون لكل فتاة ثمناً يتناسب مع جمـــالها ، ويزوّجونها ممن يؤدى ذلك الثمن ، ثم يتخذون تلك المهور بائنة مغرية للفتيات لمن كنّ أقل من هؤلاء جمالا وفتنة(٤) . ولم تكن مدينة البندقية (Venice) قد نشأت بعد ، ولكن مدناً كبيرة قامت عند پولا Pola على شبه جزيرة إستريا Istria ، وترجستى Tergeste (تريستة Trieste) وأكويليا Aquileia ، وپتڤيوم Patavium (پدوا Padua) تتوج رأس البحر الأدرياوى . وقد بقى فى پولا من أيام الرومان قوس نصر فخم ، وهيكل ظريف ، ومدرج لا يفوقه فى الروعة إلا الأصل الذى بنى على نمطه وهو الكلوسيوم . وكان يمتد إلى جنوب نهر البو سلسلة من المدن تبدأ من پلاسنتيا مخترقة پارما ، وموتينا (مودينا) ، وبونونيا Bononia (بولونيا) ، وفاڤنتيا Faventia (فينزى Faenze) وتنتهى عند أرمنيم .

وهنا عند رمينى Rimini يقوم جسر من الجسور التى لا حصر لها والتى أقامها المهندسون الرومان ، وهو أكثر الجسور احتفاظا بشكله الكامل القديم . وكان الطريق الفلامينى يمتد على هذا الجسر إلى المدينة مخترقاً قوساً يعادل الخلق الرومانى فى صلابته وسيطرته . ويتفرع منه طريق فرعى يصل بتونيا براڤنا بندقية الأيام الرومانية . وقد شيد هذا الطريق على قوائم فى المستنقعات التى لوثتها عدة أنهار تصب فى البحر الأدرياوى . ويصف استرابون مدينة راڤنا بأن « فيها شوارع واسعة مكونة من قناطر ومعديات »(٥) . وقد اتخذها أغسطس مقراً لأسطوله الأدرياوى ، واتخذها كثير من الأباطرة مسكناً رسمياً لهم فى القرن

الخامس . وقد كان تفوق شمالي إيطاليا على سائر أجزائها فى خصب التربة، وفى جوه الصحي المنشط الباعث على العمل ، وفى موارده المعدنية ، وفى صناعاته المختلفة المتنوعة ، وتجارته النهرية القليلة النفقة ،. كان تفوقه فى هذا كله مما سما به من الناحية الاقتصادية على وسط إيطاليا فى القرن الأول الميلادى ومن ناحية الزعامة السياسية فى القرن الثالث .

ولم ينشأ على الساحل الشرقى فى جزئه الممتـــد جنوبى أرمنيم وشمالى برنديزيوم إلا عدد قليل من المدن الهامة ، وذلك لأن هذا الساحل صخرى كثير العواصف قليل المرافئ . بيد أنه كان فى أمبريا Umbria ، وبسينم ، وسمنيوم ، وأبوليا ، بلدان صغرى كثيرة لا يستطاع الحكم على ثرائها وفنها إلا بدراسة أنقاض بمي . ومن هـــذه البلدان أسيسوم Assisium مسقط رأس پروپرتيوس والقديس فرانسيس ؛ ومنها سرسينا Sarsina التى ولد فيها بلوتس Plautus ؛ وامتيرنم Amiternum مسقط رأس سلست Sallust وسلمو Sulmo التى شهدت مولد أوفد ، وفنوزيا التى شهدت مولد هوراس . ولم تشتهر بنفنتم بهزيمة پرس فحسب بل اشتهرت كذلك بقوس النصر العظيم الذى أقامه فيها تراجان وهدريان . وقد قص هدريان فى نقوشه الواضحة على هذا العمود قصة أعماله الجيلة فى الحرب والسلم . وكانت برنديزيوم القائمة على الساحل الجنوبى الشرقى تشرف على طرق الاتصال فى دلماشيا وبلاد اليونان والشرق . وعند « عقب » إيطاليا كانت تقوم مدينة تارنتم ، وكانت من قبل دولة — مدينة عزيزة الجانب ، ولكنها لم تكن فى الوقت الذى نتحدث عنه إلا مشتى آخذاً فى الاضمحلال لكبار الموظفين والأشراف الرومان . وفى جنوبى إيطاليا استولى أصحاب الضياع الكبيرة على معظم الأراضى وحولوها إلى مراع للماشية ؛ ففقدت المدن من تعتمد عليهم من المزارعين ، واضمحلت طبقاتها من التجار وأرباب الأعمال ، وأفل نجم الشائر اليونانية التى كانت تنفق أموالها بسخاء فى الأيام السابقة ، وذلك بسبب تسرب

القبائل الهمجية إليها وبسبب قيام الحرب البونية الثانية ، فاضمحل شأنها حتى لم تعد أكثر من بلدان صغيرة أخذت اللغة اللاتينية تحل فيها ببطء محل اللغة اليونانية . وفى « إصبع » إيطاليا كانت مدينة رجيوم Rhegium (رجيو Reggio الحالية) ذات المرفأ الصالح . وقد أثرت هذه المدينة بفضل تجارتها مع صقلية وأفريقية . وعلى الشاطئ الغربى كانت تقوم ڤيليا Velia ولعلها لم يكن من السهل عليها أن تذكر أيامها السالفة حين كان اسمها إيليا ، وحين كان يتردد فى جنباتها أصداء أشعار پرمنيدز وزينون وأقوالها المتناقضة الخبيثة . وقد بدلت الجالية الرومانية التى استعمرت پوسيدونيا اسم هـــذه البلدة فجعلته بيستم Paestum ، ولا تزال تدهش زائرها بما فيها من هياكل فخمة . وكان أهلها اليونان فى الوقت الذى نتحدث عنه قد أخذوا يذوبون فى الدم « البربرى » — الإيطالى فى هذه المرة — الذى كان ينصب فيها من الريف القريب منها : ولم تبق الحضارة اليونانية حيـــة فى إيطاليا إلا فى كمپانيا .

وكانت كمپانيا — المكونة من الجبال ومن الساحل المحيطين بناپلى — من الناحية الجغرافية جزءا من سمنيوم . أما من الناحيتين الاقتصادية والثقافية فكانت عالما مستقلا بنفسه ، لأنها كانت من الوجهة الصناعية أكثر تقدماً من رومة ، وكانت قوية من الناحية المالية ، جمعت فى رقعة صغيرة من الأرض حياة مليئة بالاضطرابات السياسية ، والمنافسات الأدبية ، والازدهار الفنى ، والألعاب العامة المثيرة . وكانت أرضها خصبة التربة تنتج أحسن الزيتون والكروم فى إيطاليا ، وكان يصدر منها النبيذ السرنتى Surrentine والفالرنى Falernian الذائعا الصيت ، ولعل ڤارو Varro كان يفكر فى كمپانيا وهو يتحدى العالم بقوله : « يامن ضربتم فى أرضين كثيرة ، هل رأيتم فيها أرضاً زرعت أحسن من أرض إيطاليا ؟ ... أليست إيطاليا مليئة بأشجار الفاكهة امتلاء يخيل معه إلى من يراها أنها كلها بستان واحد عظيم ؟ »[٦] . وفى طرف كمپانيا الجنوبى شبه

جزيرة صخرية وعرة المنحدر تمتد ناتئة فى البحر من سالرنم Salernum إلى سرنتم Surrentum . وكانت القصور الصغيرة منبثة بين الكروم والحدائق المغروسة على التلال ، كما كانت تقوم بمحاذاة شاطئ البحر . وكانت سرنتم جميلة مثل سرنتو Sorrento فى هـــذه الأيام ، وقد لقبها بلنى الأكبر بأنها « بهجة الطبيعة » التى حبتها بكل ما لديها من هبات(٧) ؛ ويبدو أنه لم يكد يتغير فيها شىء فى خلال ألفى عام ، وأكبر الظن أن أهلها لا يزالون محتفظين بعاداتهم القديمة ، وأن آلهتهم فى هذه الأيام هى آلهتهم فى الأيام الحالية ؛ ولا تزال أجراف الصخور تحصر البحر حصاراً لا آخر له .

وكان فى مواجهة هذا اللسان البارز فى البحر جزيرة كپريا Capraea (كاپرى Capri) تلاطمها الأمواج من جميع الجهات . وكان بركان ڤيزوف المطل على الشاطئ الجنوبى للخليج يرسل دخانه فى السماء ، بينما كانت پمپى وهركيولانيم ترقدان تحت طبقات الحمم . ثم تلى هاتين المدينتين نيوپوليس Neopolis « المدينة الجديدة » أكثر بلاد إيطاليا اصطباغاً بالصبغة اليونانية فى عهد تراجان . وفى وسعنا أن نتبين من كسل نابلى فى هذه الأيام مدى انهماكها القديم فى الحب واللهو والفن . لقد كان أهلها إيطاليين ، ولكن ثقافتهم وعاداتهم ، وألعابهم كانت كلها يونانية . وكان فيها هياكل ، وقصور ، وملاه جميلة ؛ وكانت تقام فيها مرة فى كل خمس سنين مباريات فى الموسيقى والشعر نال استاتيوس فى واحدة منها جائزة . وفى الطرف الغربى من الخليج كان ثغر بتيولى Puteoli (پزيولى Puzzuoli الحديثة) التى اشتق اسمها من رائحة بركها الكبريتية(٨) . وقد ازدهرت هذه المدينة بفضل تجارة رومة وبفضل مصنوعاتها الحديدية ، وخزفها ، وزجاجها . وكان فيها مدرج تدل ممراته التى تحت الأرض والباقية إلى هذا اليوم على الطريقة التى كان يصل بها المجالدون والوحوش إلى المجتلد . وعلى الجانب الآخر من مرفأ بتيولى كانت تتلألأ قصور بايا Baiae التى

يزيد بهاءها وجاذبيتها قيامها بين الجبال والبحر . هنا كان يلهو قيصر وكلجيولا ونيرون ، وهنا كان الرومان المصابون بداء الرثية يأتون ليستحموا فى مياه عيونها المعدنية . وكانت المدينة تجنى فوائد كثيرة من اشتهارها بالقمار وبالفساد الخلقى ، وهاهوذا فارو Varro يقول إن فتياتها كن ّ ملكاً مشاعاً ، وإن كثيرين من فتيانها كانوا بنات[٩] ، وكان كلوديوس يرى أن شيشرون قد جلله عار لا يمحى أبد الدهر لأنه سافر مرة إلى هذه البلدة[١٠] . ويقول سنكا متسائلا : « أتظن أن كاتو كانت تحدثه نفسه بأن يقيم فى قصر ملىء بأسباب اللهو والسرور ، يستطيع وهو فيه أن يحصى عدد من يمر به أمام عينه من النساء القاصرات اللائى يملأن القوارب والسفن الكثيرة الأنواع المطلية بكافة الألوان ، والورود التى تتمايل حول البحيرة ؟ »[١١] .

وعلى بعد بضعة أميال قليلة شمال بايا ، فى فوهة بركان خامد ، كانت بحيرة أفيرنس Avernus تبعث فى الجو دخاناً كبريتياً بلغ من قوّته أن وصفته الأساطير بقولها إنه ما من طائر يطير فوقه ويبقى حياً ؛ وكان بالقرب من الكهف الذى شقّ فيـــه إنياس طريق السهل إلى الجحيم كما جاء فى ملحمة فرجيل .

وفى شمال البحيرة كانت مدينة كومى Cumae القديمة ، وكانت قد أخذت تحتضر فى ذلك الوقت بعد أن قامت إلى جانبها ابنتها مدينة نيوپوليس التى كانت أكثر منها جاذبية ، ولوجود مرفأين بجوارها أكثر أمناً من مرفئها وهما بتيولى واستيا ، ولتقدم الصناعة فى كپوا Capua . وكانت كپوا تبعد عن شاطئ البحر فى الداخل نحو خمسين ميلا وتقوم فى إقليم خصيب كان ينتج فى بعض الأحيان أربع غلات فى العام[١٢] ، ولم يكن فى إيطاليا كلها ما يضارع ما فيها من مصانع البرنز والحديد . وقد جازتها رومة على مساعدتها هنيبال جزاء أضرّ بها قرنين من الزمان عجزت فيهما عن أن تفيق من كبوتها ، ووصفها شيشرون

فى خلالها بأنها « مسكن من ماتوا سياسيا »[١٣]. وظلت كذلك حتى أعادها قيصر إلى سابق عهدها بأن جاء إليها بآلاف من المستعمرين الجدد ، وأضحت فى أيام تراچان مدينة مزدهرة مرة أخرى .

لقد يبدو لنا أن هذه المدن الكبرى التى كانت قائمة فى إيطاليا القديمة والتى سردناها على القارئ سرداً سريعاً ليست أكثر من أسماء . ولشد ما نخطئ إذ نظن أنها مجرد ألفاظ على خريطة ، أو لا نحس أنها كانت مساكن صاخبة لرجال مرهفى الحس يجدُّون فى طلب الطعام والشراب ، والنساء والذهب .

والآن فلنرفع الرماد عن إحدى المدائن الرومانية لنقف من آثارها التى احتفظت بها بأعجب الوسائل عن مجرى الحياة فى تلك الشوارع القديمة .

الفصل الثاني

بمبي

كانت بمبي إحدى البلدان الصغرى فى إيطاليا ، وقلما يرد لها ذكر فى الآداب اللاتينية إلا إذا ذكر حساء سمكها المتبل ، وكرنبها ، ودفنها تحت الرماد البركانى . وقد أنشأها الأسكانيون Oscans ، ولعلها تضارع رومة فى قدم عهدها ، وسكنها مهاجرون من اليونان ، واستولى عليها سلا ، وجعلها مستعمرة رومانية ، ودمر بعضها زلزال فى عام ٦٣ م . وكان بناؤها لا يزال يجدد فى الوقت الذى دمرها بركان فيزوف مرة أخرى . فقد ثار هذا البركان فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس عام ٧٩ م : وقذف من فوهته رماداً وصخوراً فى الهواء وعلته ألسنة من اللهب . وانهمر فوقها مطر غزير فاستحالت المواد التى قذفها البركان سيلا جارفاً من الطين والحجارة حط على بمبي وهركيولانيم ، فلم تمض إلا ست ساعات حتى غطاهما بطبقة يبلغ سمكها ثمانى أقدام أو عشر . وظلت الأرض تزلزل والمنازل تتداعى طوال ذلك النهار والليلة التى أعقبته . فدفن النظارة تحت أنقاض دور التمثيل[١٤] ، واختنق مئات من الأهلين بالتراب والدخان ، وثارت الأمواج فحالت بين من حاولوا النجاة بطريق البحر . وكان بلنى الأكبر وقتئذ يتولى قيادة الأسطول الغربى عند ميسينم Misenum القريبة من بتيولى . وتأثر قلبه باستغاثة أهل البلدة وطلبهم النجدة ، كما تأثر برغبته فى مشاهدة هذه الظاهرة عن كثب ، فركب سفينة صغيرة ، ونزل منها إلى البر على الشاطئ الجنوبى للخليج ، وأنجى عدداً من الأشخاص ؛ وبينما كانت تلك الجماعة تعدو خوفاً من البرد والدخان اللذين كانا يتقدمان نحوها ، خارت قوى العالم الشيخ ، فسقط فى

الطريق وقضى نحبه(*)(١٥) . وفى صباح اليوم التالى انضمت زوجته وابن أخيه إلى الجماعة اليائسة التى كانت سائرة بإزاء الساحل تحاول الفرار من الموت ، وكانت ثورة البركان وقتئذ لا تزال مستمرة ، وقد غطت السماء من نابلى إلى سرنتم بالحجارة والرماد حتى استحال النهار ليلا حالك السواد . واستولى الهلع على الفارين الذين افترقوا فى هذا الظلام الدامس عن أزواجهم وأبنائهم ، فعلا صراخهم وعويلهم وزادوا الموقف هلعاً ورعباً . وأخذ بعضهم يستغيث بمختلف الآلهة لتنجيهم من هول الكارثة ، وبعضهم ينادى بأن الآلهة كلها قد هلكت ، وأن نهاية العالم التى طالما تنبأ بها الناس قد حلت(١٦) . ولما صفت السماء آخر الأمر فى اليوم الثالث كانت الحمم البركانية وما اختلط بها من الطين قد غطت كل شىء فى پمپى إلا أعالى السقف ، وحتى كانت هركيولانيم قد اختفت عن آخرها من الوجود .

وأكبر الظن أن ألفين أو نحوهما من سكان پمپى البالغ عددهم عشرين ألفا قد قضوا نحبهم فى هذه الكارثة ؛ وقد حفظ الرماد البركانى أشكال عدد من الموتى ؛ ذلك بأن الأمطار وأحجار الخفاف التى سقطت عليها غطتها بطبقة سميكة صلبت حين جفت ، ولما ملئ فراغ هذه القوالب العاجلة خرجت منه أشكال بشعة . وعاد قليلون ممن نجوا إلى أنقاض المدينة يبحثون فيها عن بعض ما فقدوه من النفائس ، ثم تركوا هذا الموضع فيما بعد فغطته الأتربة على مر الأيام . وفى عام ١٧٠٩ احتفر قائد نمساوى حفرة فى موضع هركيولانيم ، ولكن الرواسب التى فوق المدينة والتى كان سمكها فى بعض المواضع يبلغ ستين قدماً بلغت من السمك درجة جعلت أعمال الحفر تسير ببطء شديد وتتكلف نفقات باهظة . أما پمپى فقد بدأ الكشف عنها فى عام ١٧٤٩ ، وظل حتى الآن يجرى فى فترات متباعدة . وقد كشف الآن عن الجزء الأكبر من المدينة ، فظهر عدد كبير من

(*) انظر وصف بلنى الأصغر لموت عمه فى هذه الثورة البركانية فى الجزء الأول من كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

البيوت ، والأدوات ، والنقوش ، فاستطعنا أن نعرف عن بمبي القديمة من بعض النواحي أكثر مما نعرفه عن رومه القديمة .

وكان محور حياة المدينة هو السوق العامة ، شأنها في هذا شأن سائر المدن الإيطالية . وما من شك في أن هذه السوق كانت في الزمن القديم ملتقى الزراع ، وحاصلاتهم في « يوم السوق » ؛ وكانت تقام فيها الألعاب ، وتمثل فيها المسرحيات ؛ وقد أقام فيها الأهلون أضرحة لآلهتهم ، فشادوا ضريحاً لجوبتر في أحد طرفيها وضريحاً لأبلو في الطرف الآخر ، وبالقرب من هذا الضريح الأخير أنشئوا ضريحاً لفينوس (زُهَرَة) بمبيانا Pompeiana راعية المدينة وحاميتها . ولكن أهل المدينة لم يكونوا قوماً متدينين ، فقد شغلتهم الصناعة ، والسياسة ، والألعاب ، والصيد فلم تترك لهم وقتاً للعبادة ، وكانوا إذا عبدوا عظموا عضو التذكير واتخذوه أهم الرموز لطقوسهم الديونيشية[١٧] . ولما أن زادت الشئون الاقتصادية والحكومية في مقدارها وخطرها ، وعلت قيمتها ، قامت أبنية عظيمة حول السوق اتخذت مراكز للأعمال الإدارية ، وللمساومات ، والمفاوضات ، وتبادل السلع .

وفي وسعنا أن ندرك مما نعرفه عن المدن الإيطالية الحديثة كيف كانت الشوارع المجاورة للسوق تعج بالبائعين الجائلين ، ويعلو فيها ضجيج البائعين والمشترين ، وعجيج الصناعات بالنهار والمرح بالليل . وقد عثر المنقبون في خرائب الحوانيت على بعض النُّقل ، والعيش ، والفاكهة ، المتفحمة أو المتحجرة التي لم تجد من يشتريها . وفي الشوارع على مسافة من السوق كانت الحانات ، ومحال الميسر ، وبيوت الدعارة ، كل منها يحاول أن يجمع هذه كلها فيه .

ولو لم يحرص أهل بمبي على أن ينقشوا عواطفهم على جدران المباني العامة لما استطعنا أن نتخيل ما كانت عليه حياتهم من حدة ومضاء . وقد نقلت ثلاثة آلاف من هذه النقوش ، وأكبر الظن أن آلافاً أخرى لم يتح لها البقاء ، وقد اكتفى ناقشوها في بعض الأحيان بذكر أسمائهم وفحشهم الجرىء ، الذي لا يزال

الناس يحبون أن يفعلوه ، ودون بعضهم الأوامر التي كانوا يصدرونها إلى أعدائهم مؤملين أن يطيعها هؤلاء الأعداء كقول واحد منهم « من ساميوس Samius إلى كورنليوس Cornelius : اشنق نفسك » . ومن النقوش ما هو رسائل حب كثيراً ما تكون شعراً : فقد كتبت رميولا Romula تقول إنها « وقفت هنا مع استفيلس Stephylus » ؛ وكتب شاب متيم : «وداعاً يا فكتوريا، وفي وسعك أياً كان مكانك أن تعطسي أحسن عطسة »[١٨].

وليست الحوادث العامة أو القرابين الخاصة المنحوتة أو المرسومة على الجدران بأقل عدداً من هذه الرسائل ، فترى الملاك يعانون أيام عطلتهم ، والذين فقد لهم متاع يعلنون عن فقده ، ونقابات أرباب الحرف وغيرها من الجماعات تعلن عن تأييـــد المرشحين الذين يؤمل نجاحهم في حملات الانتخابات للبلدية ؛ فهاهم أولاء « صائدو السمك يرشحون پوپديوس روفس Popfdius Rofus ليكون إيديلا Aadile » و « وقاطعو الأخشاب وبائعو الفحم النباتي يطلبون إليكم أن تنتخبوا مارسلينس »[١٩] ؛ وها هي ذي بعض النقوش الخشنة تعلن عن ألعاب المجالدة ، وبعضها الآخر يمتدح شجاعة بعض مشهوري المجالدين مثل سلادس Celadus ؛ وها هي ذي « العذارى تتحسر » أو تهيم بأحد الممثلين المحبوبين — « أي أكتيوس Actius ، يا حبيب الشعب عجل بالعودة ! »[٢٠] . لقد كانت پمپي تعيش لكي تتلذذ ، فقد كان فيها ثلاثة حمامات عامة ، وساحة للتدريب الرياضي ؛ ودار تمثيل صغيرة تتسع لألفين وخمسمائة من النظارة ، وأخرى كبيرة تتسع لخمسة آلاف ، ومدرج يستطيع عشرون ألفاً أن يستمتعوا فيه بآلام الموت يقاسيها غيرهم من الناس بدلا منهم . وهاهو ذا نقش يقول : « سيقتتل في پمپي في الرابع والعشرين ، والخامس والعشرين ، والسادس والعشرين ، من نوفمبر ثلاثون زوجاً من المجالدين . . . قدمهم حاكما المدينة . وسيكون هناك صيد ؛ مرحباً

بك يا ميوس Maius ، مرحى يا باريس ! » وكان ميوس هذا أحد حكام المدينة ، أما باريس فكان كبير المجالدين .

وتدل آثار داخل المنازل على أن الأهلين كانوا يحيون حياة مفعمة بالنعيم تجملها الفنون المختلفة . فأما البيوت فتكاد تكون خالية من النوافذ والتدفئة فيها نادرة ؛ ولا تظهر الحمامات إلا فى منازل الأغنياء ، وكان لبعض الدور بركة فى حديقة محاطة بالعمد . وكانت أرض الحجرات تصنع من الأسمنت أو الحجر ، أو من الفسيفساء أحياناً ، وقد نقش رجل صريح من طلاب المال على أرض داره هذه العبارة : « مرحباً بالكسب » ، ونقش آخر « الكسب لذة »[٢١] . ولم يعثر إلا على القليل من الأثاث ، فقد كان كله تقريباً من الخشب ، ولهذا لم يبق منه شىء يذكر ؛ غير أن عدداً قليلا من النضد ، والأسرة ، والكراسى ، ومصابيح الرخام أو البرنز قد نجت من التلف ؛ وفى وسع الإنسان أن يرى فى متحفى بمبى ونابلى مجموعة متنوعة من الأدوات المنزلية ، من أقلام ، ومحابر ، وموازين ، وأدوات المطبخ ، والزينة ، والآلات الموسيقية .

وتوحى القايا الفنية التى كشفت فى بمبى أو بالقرب منها بأن الأشراف الذين يسكنون فى القصور الصغيرة ذات الحدائق لم يكونوا هم وحدهم الذين يستمتعون بالمميزات الثقافية للحياة ، بل كان يشاركهم فيها تجار المدينة . فقد كشفت فى هركيولانيم مكتبة خاصة كانت تحتوى على ١٧٥٦ مجلداً أو ملفاً ؛ ولا داعى هنا لأن نعيد ما قلناه من قبل عن كؤوس البسكوزيالى Boscoreale أو المناظر الرائعة والنساء الرشيقات المصورة على جدران منازل بمبى . ولقد كان فى كثير من المساكن تماثيل ذات روعة ، وكان فى السوق العامة وحدها مائة وخمسون تمثالا . وقد عثر فى هيكل جوبتر على رأس لهذا الإله قد يكون فدياس نفسه هو الذى سواه ؛ فأنت ترى فيه القوة والعدالة ماثلتين فى ثنايا الشعر الغزير واللحية الكثة . وكان فى هيكل أبلو تمثال لديانا ثقب مؤخر رأسه حتى يستطيع كاهن

مختبئ أن يتحدث بالنبوءات . وقد عثر فى أحد قصور هركيولانيم الصغيرة على طائفة من التماثيل والأدوات البرنزية كانت من الكثرة بحيث امتلأت بها حجرة ذائعة الصيت فى متحف نابلى ؛ وأكبر الظن أن روائع هذه المجموعة — عطارد المستريح ، ونارسس أو ديونيشس ، والساتير السكران وإله الحقول الراقص — كانت يونانية بأصلها أو بصنعها ؛ وهى تكشف عن حذق فى الصنع ، وعن السرور غير المحتشم البادى فى الجسم الصحيح السليم ، وهما الخاصتان الماثلتان فى الفن البركستيلى . ومن هذه التماثيل تمثال نصفى من البرنز لأحد الدلالين فى مدينة بمبى ويدعى ل . كاسليوس أيوكندس L. Caacilius Iuocundus الذى وجدت حساباته منقوشة على ١٥٤ لوحاً من الشمع عثر عليها فى داره بمدينة بمبى . ويظهر فى هذا التمثال الرأس الأصلع والوجه الصارم غير المجرد من الحنو . فى هذا التمثال تمتزج الخشونة بالذكاء ، والحكمة بالتآليل الجلدية ، وهو من صنع مثال معاصر لصاحبه — ولعله مثال إيطالى — أظهر فيه شخصية صاحبه على حقيقتها وبأحسن ما تظهر الشخصيات .

والحق أن الإنسان لتستريح نفسه لوجود هذه الشخصية الواقعية إلى جانب ما يحيط بها فى متحف نابلى من تماثيل الآلهة والإلهات الخالية وجوهها من الغضون ، والتى تكاد تنطق معارفها الملساء الوديعة المستكنة لتخبرنا بأن أصحابها لم يعيشوا قط على ظهر الأرض .

الفصل الثالث

نظام البلديات وحياتها

لم تكن الحياة الخاصة والعامة ، حياة الأفراد وحياة الجماعات ، أحد وأقوى مما كانت فى إيطاليا القديمة ؛ غير أن حوادث هذه الأيام تبلغ من الحظر ومن استنفاد الجهود حداً لا نستطيع معه أن نولى تفاصيل نظام البلديات فى عهد القياصرة كثيراً من عنايتنا ، ومن أجل هذا لم تعد نظم الحكم المختلفة المميزة أو الحقوق السياسية المتتابعة التى كان الأهلون يعضون عليها بالنواجذ ، لم تعد هذه أو تلك جزءاً من ذلك الماضى الحى الذى هو موضوع بحثنا ومثار اهتمامنا .

لقد كان من الخصائص الأساسية للإمبراطورية الرومانية أنها تتألف من مجموعة من دول — المدن تحكم نفسها بنفسها إلى حد ما ، وتضم كل منها فى مؤخرتها أرضين واسعة تمتلكها وتسيطر عليها ، مع أن الإمبراطورية كلها كانت مقسمة إلى ولايات . وكان معنى الوطنية فى هذه الإمبراطورية حب الشخص لمدينته أكثر مما تعنى حبه للإمبراطورية . وكان الأحرار فى كل مدينة يقنعون فى الأحوال العادية بممارسة حقوقهم السياسية المحلية البحتة ؛ وقلما كان الذين نالوا حقوق المواطنية الرومانية من غير أهل رومة يذهبون إلى تلك العاصمة ليعطوا أصواتهم فى الانتخابات ؛ ولم يكن اضمحلال الجمعيات العامة فى العاصمة مصحوباً باضمحلال مماثل له فى مدن الإمبراطورية كما تدل على هذا بمبى نفسها . وكان لمعظم البلديات الإيطالية مجالس شيوخ Curia — ولمعظم المدن الشرقية مجالس boulé تشريعية — تسن قوانينها وجمعيات comitia ekklesia تختار حكامها ؛ وكان ينتظر من حاكم المدينة أن يهب مدينته مبلغاً كبيراً من المال Summa honoraria (والكلمة الثانية مشتقة من honas بمعنى المنصب) نظير تفضلها

عليه بأن يكون حاكماً لها ، وقد جرت العادة أيضاً أن يتبرع من حين إلى حين ببعض المال للأغراض أو الألعاب العامة . وإذ كان المنصب لا ينال عليه صاحبه أجرا فإن دمقراطية الأحرار — أو أرستقراطية الأحرار — قد استحالت فى كل مكان تقريباً ألجركية يتولاها ذوو المال والجاه .

وظلت البلديات مائتى عام من عهد أغسطس إلى عهد أورليوس فى رخاء وازدهار . ولسنا ننكر أن الكثرة الغالبة من أهلها كانت من الفقراء بطبيعة الحال ؛ فقد تكفلت الطبيعة والميزات المختلفة بإيجاد هذه الحال ؛ ولكن التاريخ لم يحدثنا قط عن عهد من العهود ، قبل هذا العهد أو بعده ، فعل فيه الأغنياء للفقراء قدر ما فعله أغنياء هذه المدائن لفقرائها : ذلك أن نفقات إدارة المدينة كلها تقريبا ، وما يلزم من المال لتمثيل المسرحيات ، وغير ذلك من ضروب التسلية ، والألعاب ، وتشييد الهياكل ؛ ودور التمثيل ، والملاعب ، ومدارس التدريب الرياضى ، والمكتبات العامة ، والباسلقات ، والقنوات التى تنقل ماء الشرب للمدن ، والقناطر والحمامات ، وتجميل هذه كلها بالأقواس والأروقة ذات العمد ، والصوَر ، والتماثيل ، كانت كلها يتحملها ذوو اليسار . وقد ظل الوطن طوال المائتى عام الأولى من عهد الإمبراطورية يدفع أولئك الأقوام إلى التنافس فيما بينهم للقيام بهذه الأعمال الخيرية تنافساً أدى فى بعض الأحيان إلى إفلاس عدد من الأسر التى كانت تمولها ، أو المدن التى تتكفل بها بعد إقامتها من مال الأغنياء . وقد جرت العادة فى أيام القحط أن يبتاع الأغنياء الطعام ويوزعوه من غير ثمن على الفقراء ، وكانوا فى بعض المناسبات يقدمون لجميع المواطنين ، ولجميع السكان أحياناً ، زيتاً أو خمراً بالمجان ، أو يقيمون لهم وليمة عامة ، أو يهبونهم قدراً من المال . وخلدت النقوش الباقية إلى الآن كثيراً من هذا السخاء . فها هو ذا مثرٍ من أصحاب الملايين يهب مدينة ألتينم فى فنيشيا ١٫٦٠٠٫٠٠٠ سسترس لإقامة حمامات عامة ، وها هى ذى سيدة تشيد هيكلا ومدرجا فى كسينم Casinum ؛

وهاهو دا ديسميوس تلس Decimius Tullus يهب تركوينياى Tarquinii حمامات تكلفت ٢٠٠,٠٠٠,٥ سسترس ؛ وهاهى ذى كرمونا Cremona التى دمرها جنود ڤسپازيان لا تلبث أن يعاد بناؤها من تبرعات المواطنين . وتذكر النقوش اسمى طبيبين قدما كل ما يملكان هبات لنابلى . وفى استيا التى كانت مزدحمة بالسكان دعا لوسليوس جمالا Lucilius Gemala جميع أهلها إلى الطعام ورصف فيها طريقاً طويلا واسعا ، ورمم سبعة هياكل أو أعاد بناءها ، وأعاد بناء حمامات البلدية ، ووهب خزانتها ثلاثة ملايين سسترس[٢٢] .

وكان من عادة بعض الأغنياء أن يقيم الواحد منهم وليمة يدعو إليها قسما كبيراً من المواطنين فى عيد ميلاده أو لمناسبة انتخابه إلى منصب عام ، أو زواج ابنته ، أو ارتداء ابنه الطوغة ، دليلا على بلوغه سن الرشد ، أو تدشين بناء أهداه إلى المدينة . وكانت المدينة تجزى هذا المحسن على إحسانه بأن تعينه فى منصب عام ، أو تقيم له تمثالا ، أو تمتدحه بقصيدة أو نقش . ولم يكن الفقراء يشعرون بالذلة حين ينالون هذه العطايا كلها ، ذلك بأنهم كانوا يتهمون الأغنياء بأنهم لم يحصلوا على هذا المال الذى يفعلون به الخير إلا من طريق الاستغلال ، ومن أجل هذا كانوا يتطلبون الاقتصاد فى المبانى الجميلة والتماثيل ، ويلحون فى تخفيض ثمن الحبوب والإكثار من الألعاب[٢٣] .

وإذا أضفنا إلى هبات الأفراد ، ما كان يهبه الأباطرة للمدن ، وما كان يقام فيها بأموالهم من مبانٍ ، وما يقدمونه لها من مال لتخفيف ما يحل بها من الكوارث ، فضلا عن الأعمال العامة والمناصب التى كانت تحول من خزائن البلديات ، إذا فعلنا هذا بدأنا نحس بفخامة المدن الإيطالية وعزها فى عهد حكومة الزعامة . لقد كانت شوارعها مرصوفة ، وكان فيها مجار لنقل المياه القذرة ، وشرطة لحماية الأمن ، وكثير من وسائل الزينة ، وخدمة طبية مجانية للفقراء من أهلها ، وماء نقى نظيف يصل إلى الدور فى أنابيب نظير أجر قليل ، وطعام يقدم



(شكل — ٢) جوهرة أغسطس (متحف ڤينا)

للفقراء بثمن بخس . وكانت الحمامات فى معظم الأحوال مباحة من غير أجر ينفق عليها من هبات المحسنين ، والمال يقدم للأسر الفقيرة مساعدة لها على تربية الأبناء والإكثار منهم ؛ وكانت المدارس ودور الكتب تنشأ للتعليم والمطالعة ، والمسرحيات تمثل ، والحفلات الموسيقية تقام ، والألعاب تنظم لتنافس بها تلك المدن رومة غير عابئة بما تنفقه فيها من مال . ولم تكن حضارة المدن الإيطالية حضارة مادية بالقدر الذى كانت عليه فى العاصمة ؛ فقد كانت هذه المدائن تتنافس فى إقامة المدرجات ، ولكنها أقامت كذلك هياكل فخمة ، يضارع بعضها أحسن ما كان منها فى رومة[٢٤] ، وجعلت شهورها مرحة بما كانت تقيمه من أعياد دينية ذات بهجة . وكانت تنفق بسخاء على الأعمال الفنية ، وتنشئ القاعات الرحبة للمحاضرات ، وللشعراء ، والسوفسطائيين ، والخطباء ، والفلاسفة ، والموسيقيين . وكانت تيسر لمواطنيها أسباب الصحة ، والنظافة ، والتنزه ، والحياة الثقافية القوية . ومنها ، لا من رومة ، خرج عظماء المؤلفين اللاتين ، وعدد كبير من أحسن ما فى متاحفنا من روائع النحت كتمثال نيكى (العدالة) فى متحف نابلى ، وتمثال پروس (الحب) فى سنتومسلا Centumecella ، وتمثال زيوس فى أتركولى Atricolic . وكانت تقوم بحاجيات عدد من السكان ، لا يقلون عن عددهم قبل هذا القرن ، فى المدن التى قامت مكانها وتؤمنهم من مصائب الحرب تأميناً منقطع النظير .

وقصارى القول أن القرنين الأول والثانى من التاريخ الميلادى قد شهدا ذروة مجد شبه الجزيرة العظيمة .

الباب الثاني والعشرون

تمـــدين الغرب

الفصل الأول

رومة والولايات

كانت الوصمة التي يوصم بها رخاء إيطاليا – إذا غضضنا النظر عن نظام الاسترقاق الذي كان نظاماً عاماً في الدول القديمة – هي اعتمادها إلى حد ما على استغلال الولايات . لقد كانت إيطاليا معفاة من الضرائب لأن الولايات كانت تؤدي لها الشيء الكثير نهباً أو خراجاً ، ومن ذينكما النهب والخراج كان أصل الثروة التي نشأ عنها ازدهار المدن الإيطالية . وكانت رومة قبل عهد قيصر تعدّ الولايات أقاليم تمتلكها بحق الفتح ، وتعد سكانها جميعاً رعايا رومانيين ، ولم يكن منهم إلا عدد قليل يعدون ضمن المواطنين الرومان ؛ وكانت أرض تلك البلاد بأجمعها ملكاً للدولة الرومانية ، يمتلكها أصحابها على أنها منحة لهم من قبل الحكومة الإمبراطورية ومن حقها أن تستردها منهم . وأرادت رومة أن تقلل من احتمال قيام الثورات في الأقاليم المفتوحة فقسمتها ولايات صغيرة وحرّمت على كل ولاية أن يكون بينها وبين غيرها من الولايات معاملات سياسية مباشرة ، وكانت تفضل رجال الأعمال على الطبقات الدنيا في جميع الولايات . وكان سر الحكم الروماني وشعاره هو فرّق تسد Divide et impera .

ولعل شيشرون كان يبالغ حين قال عن أمم البحر الأبيض المتوسط ، في

سياق تشهيره بفريس Verres ، إن بلادها كانت مقفرة فى عهد الجمهورية :
« إن كل الولايات تندب حظها ، وجميع الأحرار يصرخون ويعولون ، وجميع الممالك تحتج على قسوتنا وشرهنا ، وليس ثمة مكان فيما بين المحيطين ، مهما يكن قاصياً أو خافياً ، لم يشعر بوطأة جشعنا وظلمنا »[1] . أما الزعامة فكانت أكثر سخاء من الجمهورية فى معاملتها للولايات ، ولم يكن هذا كرماً منها بل كان حسن التدبير . فقد كانت الضرائب فى أيامها غير باهظة ، وكانت تحترم الأديان واللغات والعادات المحلية ، وكانت حرية الكلام مباحة إلا إذا كانت طعناً فى السلطة العليا ، وسمحت لها أن تحتفظ بقوانينها المحلية ما دامت هذه القوانين لا تتعارض مع مكاسب الرومان وسيادتهم . وقد اتبعت خطة مرنة حكيمة أمكنها بها تقسيم الولايات الخاضعة لسلطانها أقساماً متفاوتة فى المرتبة ، وتقسيم الأهلين فى داخل كل ولاية طبقات متفاوتة القدر كذلك . فقد كانت بعض البلديات كأثينة ورودس « مدنا حرة » ، تعطى جزية ، ولا تخضع لحاكم الولاية ، وتدير شئونها الداخلية بنفسها من غير أن تتدخل فيها رومة ما دامت تحتفظ بالنظام الاجتماعى والسلم . وقد سمحت رومة لبعض الممالك القديمة أمثال نوميديا وكپدوكيا أن تحتفظ بملوكها ، ولكن هؤلاء الملوك كانوا « أقيالا » لرومة يعتمدون على حمايتها وسياستها ، وكان يطلب إليهم أن يمدوها بالمال والعتاد إذا أرادت ذلك . وكان حاكم الولاية يجمع فى شخصه السلطة التشريعية والتنفيذية ، والقضائية ، ولم يكن يحد من سلطانه إلا المدن الحرة ، وحق المواطن الرومانى فى أن يلجأ إلى الإمبراطور ، وللرقابة المالية التى كان يقوم بها الكوستر أو الرقيب .

غير أن هذا السلطان المطلق كان يغرى الحكام بأن يسيئوا استخدام سلطتهم ، ومع أن المدة التى كان يتولى فيها الحاكم منصبه قد طالت فى عهد الزعامة ، ومع أن مرتبه ومخصصاته الأخرى قد زيدت زيادة كبيرة ، ومع أن مسئوليته عن أعماله المالية أمام الإمبراطورية قد قللت من فساد الحكم وسوء

استعمال السلطة ، فإن فى وسعنا أن نستدل من رسائل بلنى ومن فقرات كتاب تاستس ، على أن ابتزاز المال والفساد لم يصبحا من الأمور النادرة فى آخر القرن الأول .

وكانت جباية الضرائب أهم أعمال الحاكم وأعوانه . وكانت الدولة فى عهد الإمبراطورية تقوم بإحصاء عام فى كل الولايات ، ويقصد به فرض الضرائب على الأرض وعلى الأملاك — ومنها الحيوانات والعبيد . وأرادت الدولة أن تشجع زيادة الإنتاج فاستبدلت بالعشور خراجاً محدد القيمة ؛ ولم يعد الملتزمون هم الذين يجبون الضرائب ، وإن ظلوا يجبون بعض العوائد الجمركية فى الثغور ، ويشرفون على الأعمال الجارية فى غابات الدولة ومناجمها وعلى الأشغال العامة فيها . وكان ينتظر من الولايات أن تسهم عمل تاج من الذهب لكل إمبراطور جديد ، وأن تقوم بتكاليف إدارة الولاية ، وأن ترسل فى بعض الحالات سفناً محملة بالغلال إلى رومة . واحتفظ فى الشرق بالعادة القديمة ، عادة أداء الأفراد خدمات عامة للدولة ، ثم انتشرت فيما بعد من الشرق إلى الغرب . وكان للحكومة المحلية أو للوالى بمقتضى هذه العادة أن « يطلب » إلى الأغنياء أن يقدموا قروضاً للحرب ، وسفناً للأسطول ، ومبانى للأغراض العامة ، وطعاما لضحايا القحط ، ومغنين فى الأعياد والمسرحيات .

ويقول شيشرون ، وهو ممن تولوا بعض المناصب العامة فى الدولة ، إن الضرائب التى كانت تؤديها الولايات لا تكاد تكفى نفقات الإدارة والدفاع (٣) . وكان « الدفاع » عندهم يشمل القضاء على الفتن والثورات ، وأكبر الظن أن نفقات « الإدارة » كانت تشمل المطالب التى خلقت ذلك العدد الكبير من الرومان أصحاب الملايين . ومن واجبنا ألا نرى حرجاً فى أن ترسل أية سلطة يناط بها حفظ الأمن والنظام فى ذلك الوقت جباة يجمعون أكثر مما يكفى لهذين الغرضين . على أن الولايات قد عمها الرخاء فى عهد حكومة الزعامة على الرغم من

هذه الأعباء كلها . ذلك بأن الإمبراطور ومجلس الشيوخ قد فرضا رقابة شديدة على الموظفين فى الولايات ، وكانا يفرضان أشد أنواع العقاب على كل من يسرق من الأموال أكثر مما تبيحه له منزلته . وكان ما يؤخذ من الولايات أكثر مما يتطلبه الفرضان السابق ذكرهما يرد آخر الأمر إليها ثمناً لبضائعها . وبفضل هذا العون الذى كان يقدم للصناعات أصبحت الولايات أقوى من إيطاليا الطفيلية المزعزعة الكيان . وجدير بنا أن نختم هذا الفصل بالعبارة الآتية المنقولة عن أفلوطرخس ، وهى أن نعمتين يجب أن تضمنهما الدولة للشعب قبل كل شىء : وهما الحرية والسلام ؛ « فأما السلام فلسنا فى حاجة إلى أن نشغل أنفسنا به ، لأن الحروب كلها قد وضعت أوزارها . وأما الحرية فإن لنا منها ما تركته لنا الحكومة (رومة) ؛ ولعلها لو أبقت لنا أكثر مما فعلت لما كان ذلك من مصلحتنا »[٤] .

الفصل الثانی

أفريقيـــة

ضمت كورسكا وسردينيا معاً وتكونت منهما ولاية واحدة ، ليست جزءاً من إيطاليا ؛ وكان الجزء الأكبر من كورسكا أرضاً جبلية مقفرة ، يصيد فيها الرومان الأهلين بالكلاب ليبيعوهم عبيداً[٥] . أما سردينيا فكانت تمدهم بالعبيد ، والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والحبوب ؛ وكان فيها ألف ميل من الطرق الصالحة ومرفأ جيد ممتاز هو مرفأ كرالس Carales (كجلياری الحالية) . وكانت صقلية قد انحطت منزلتها حتى كادت تصبح ولاية زراعية محضة من الولايات التی تمد رومة الجائعة بالطعام . وكان الجزء الأكبر من أرضها الصالحة للفلاحة قد جعل ضياعا كبرى لتربية الماشية ، يرعاها عبيد لا ينالون إلا أقل الغذاء والكساء ، وكثيراً ما كانوا يفرون من عملهم لهذا السبب ويؤلفون عصابات للسلب والنهب . وكان سكانها فی عهد أغسطس يبلغون ٧٥٠٫٠٠٠ ، (وقد بلغوا فی عام ١٩٣٠ حوالی ٣٫٩٧٢٫٠٠٠) . وكانت أكثر مدنها الخمس والستين ازدهاراً هی قطانيا Catania ، وسرقوسة ، وتوروومينيوم Touromenium (تورمينا Taormina الحالية) ، ومسانا ، وأجرجنتم ، وپنورمس Panormus (پلرمو الحالية) . وكان فی سرقوسة وتورمينيوم ملهيان يونانيان فخمان ، لا يزالان يستخدمان لهذا الغرض حتى الآن . وكانت سرقوسة ، على الرغم مما أصابها من النهب على يدی ڤريس Verres مملوءة بالمبانی الرائعة ، والتماثيل الشهيرة ، والمواقع التاريخية بدرجة يسرت العيش للأدلاء المحترفين الذين كانوا يصحبون السياح الكثيرين الوافدين إلى تلك الجزيرة[٦] ، وكان شيشرون يحسبها أجمل مدينة فی العالم كله . وكان لمعظم الأسر الغنية ضياع أو بساتين فی

ضواحيها وكان جميع ريفها تعطره أشجار الفاكهة والكروم كما تعطره فى هذه الأيام .

وعاد على أفريقية كل ما فقدته صقلية بسيطرة الرومان عليها ، فقد أخذت تحل شيئاً فشيئاً محل تلك الجزيرة فى توريد الحبوب مكرهة إلى رومة ؛ ولكن الجنود ، والمستعمرين ، ورجال الأعمال ، والمهندسين الرومان جعلوا تلك الولاية جنة وارفة الظلال إلى حد لا يكاد يصدقه العقل . وما من شك فى أن الفاتحين الجدد قد وجدوا فيها حين قدموا إليها أصقاعاً خصبة غنية ؛ فقد كان بين الجبال العابسة المطلة على البحر الأبيض المتوسط وسلسلة جبال أطلس التى تصد عنها رمال الصحراء واد شبه مدارى يمده نهر بجرداس Bagradas (مجردا) بكفايته من الماء ؛ وكانت الأمطار تهطل فيها شهرين من السنة لتعوض الأهلين عن عملهم الزراعى الشاق الطويل الذى علمهم إياه ماجو Mago وأرعمهم عليه ماسينسا Masinissa . ولكن رومة أصلحت ما وجدته فيها من الأساليب الزراعية وزادت عليه . فقد شاد مهندسوها السدود على مجارى الأنهار التى تنحدر من التلال الجنوبية ، واختزنوا الزائد من المياه فى خزانات إبان موسم الأمطار ، وصبوه فى قنوات للرى فى الأشهر الحارة التى تجف فيها مياه الأنهار[٧] . ولم تكن رومة تفرض على هذه الولايات أكثر مما كان يجبيه منها رؤساؤها الوطنيون ، ولكن فيالق رومة وتحصيناتها كانت أقدر من حكوماتها الوطنية على حمايتها من القبائل البدوية التى تهبط عليها من الجبال ؛ وكان يضم إليها ميل بعد ميل من الصحراء أو الأراضى البور فتزرع أو تسكن . وكان الوادى ينتج كميات من زيت الزيتون بلغت من الوفرة حداً أدهش العرب حين قدموا إلى هذه البلاد فى القرن السابع ، إذ وجدوا أن فى وسعهم أن ينتقلوا من طرابلس إلى طنجة دون أن يبتعدوا عن ظلال أشجار الزيتون[٨] . وأخذت البلدان والمدن يتضاعف عددها ويرتفع شأنها بفضل ما اتبع فيها من الأساليب المعمارية ،

ووجدت الآداب فيها صوتاً جديداً يعبر عنها . وحسبنا دليلا على ما بلغته أفريقية الرومانية من الرقى والثراء أن نشاهد آثار ما خلفه الرومان من أسواق وهياكل وقنوات بجر مياه الشرب للمدن ، ودور للتمثيل فى أرض أصبحت الآن قفراً يباباً . ذلك أن هذه الحقول النادرة قد استحالت الآن صحارى رملية ، ولم يكن سبب هذا تغير الجو بل كان سببه تبدل الحكم — من دولة تضمن للبلاد الأمن الاقتصادى والنظام إلى أخرى تركت العنان للفوضى والإهمال يخربان الطرق والخزانات وقنوات الرى .

وكان على رأس هذا الرخاء المستعاد مدينة قرطاجنة التى بعثت وقتئذ بعثاً جديداً . ذلك أن أغسطس قد احتضن بعد موقعة أكتيوم مشروع كيوس وقيصر الذى أخفق من قبل ، وأرسل إلى قرطاجنة بعض الجنود الذين أراد أن يعوضهم عن إخلاصهم وانتصاراتهم أرضاً يهبها لهم ليستعمروها . وسرعان ما انتزعت قرطاجنة مرة أخرى من يتكا تجارة الإقليم الصادرة منه والواردة إليه ، وذلك بفضل موقعها الجغرافى الممتاز ، ومرفئها الجيد ، ودال نهر بجرداس الخصبة ، والطرق الصالحة التى أنشأها المهندسون الرومان أو أعادوا فتحها ؛ ولم يمض على تأسيس المدينة الجديدة قرن واحد حتى أضحت أكبر مدائن الولايات الغربية ، وأقام أغنياء التجار والملاك قصوراً فخمة على تل برسا Byrsa التاريخى ، أو بيوتاً صغيرة ذات حدائق فى الضواحى الشجراء ؛ أما الفلاحون الذين تركوا الأرض لعجزهم عن منافسة أصحاب الضياع الكبرى فقد انضموا إلى صعاليك المدن وإلى الأرقاء ، وعاشوا فى أحياء وبيوت قذرة حياة العدم والفاقة التى جعلتهم يرحبون فيما بعد بدعوة المسيحية إلى المساواة . وقامت البيوت فى المدينة من ست طبقات أو سبع ، وتلألأ الرخام فى المبانى العامة ، وغصت الشوارع والميادين بالتماثيل المنحوتة على الطراز اليونانى . وشيدت الهياكل من جديد لآلهة القرطاجنيين القديمة ، وظل ملكارت Melkart حتى القرن الثانى بعد الميلاد يستمتع بالضحايا

من أطفال الأحياء(٩) . وأخذ أهل البلاد ينافسون الرومان فى حب الترف ، وأدهان التجميل ، والحلى ، والشعر المصبوغ ، وسباق العربات ، وألعاب المجالدين . وكان من بين المناظر البارزة فى المدينة حماماتها العامة العظيمة التى وهبها لها ماركس أورليوس . وكانت فيها قاعات للمحاضرات ، ومدارس لتعليم البيّان ، والفلسفة ، والطب ، والقانون ، مما جعل قرطاجنة مدينة جامعية لا يفوقها من هذه الناحية إلا أثينة والإسكندرية ؛ وفد إليها أپوليوس Apuleius وترتليان Tertullian ليدرسا فيها جميع فروع العلم ، وقد دهش القديس أوغسطين من مرح الطلاب وفساد أخلاقهم ، فقد كان يحلو لهم أن يقتحموا قاعات المحاضرات ويخرجوا منها الأستاذ وتلاميذه(١٠) .

وكانت قرطاجنة حاضرة الولاية المسماة أفريقية ومحلها الآن شرق بلاد تونس . ونشأ من رواج التجارة فى جنوبى هذه المدينة على الشاطئ الشرقى طائفة من المدن أخذت ثروتها القديمة تعود إليها بعد اثنى عشر قرناً من الزمان حتى دهمتها الحروب فى هذه الأيام ، ومن هذه المدن القديمة حضرمنتم Hadrumentum (ومحلها الآن سوسة) ولپتس Leptes الصغرى ، وثپسوس Thapsus وتكاپى Tacapae (قابس الحالية) . وكان إلى شرقيها على البحر الأبيض إقليم يدعى تريپوليس Tripolis (طرابلس) وسمى كذلك لأنه حلف مكون من ثلاث مدن : أويا Oea (طرابلس الحالية) التى أسسها الفينيقيون قبيل عام ٩٠٠ ق . م ، وسبراتا Sabrata ولپتس مجنا (الكبرى) (لبدة الحالية) : وهذه البلدة الأخيرة هى مسقط رأس الإمبراطور سپتميوس سفيرس Septimius Severus فقد ولد فيها عام١٤٦م ؛ ووهبها فى حياته باسلقا وحماما عاما تدهش آثاره السائح أو المحارب فى هذه الأيام . وكانت طرق مرصوفة تسير عليها قوافل الإبل تصل هذه الثغور بالمدن الداخلية : سفتولا Safetula وهى الآن قرية صغيرة بها آثار هيكل رومانى عظيم ، وثسدروس Thysdrus (الجم) ، وكان فيها مدرج

يتسع لستين ألفاً ، وثجا Thugga (دجا) التي تشهد خرائب ملهاها ذي العمد الكورنثية الرشيقة بثراء أهلها وحسن ذوقهم .

وكانت فى شمال قرطاجنة أمها ومنافستها القوية يتكا Utica ، وفى وسعنا أن نلمح ما كانت عليه من ثراء فى عهد الرومان ، إذا عرفنا أن ثلثمائة من رجال المصارف وبائعى الجملة من الرومان كانت لهم فروع فيها عام ٤٦ ق . م . وكان الإقليم التابع لها يمتد شمالا إلى هپو ديرهيتس Hippo Diarhytus بنزرت الحيالية) ، وكان يمتد فيها طريق محاذ لشاطئ البحر متجه نحو الغرب يصلها بمدينة هبو رجيوس Hippo Regius (بونه) ، التى أضحت بعد زمن قليل كرسى أبرشية القديس أوغسطين . وكان إلى جنوبها فى الداخل مدينة سرتة Cirta (قسطنطينية) عاصمة ولاية نوميديا ، وفى غرب هذه المدينة الأخيرة بلدة ثمجادى Thomugadi (تمجاد) ، التى تكاد تحتفظ بآثارها احتفاظ پمپي ؛ ففيها الشوارع المرصوفة المعمدة ، والمجارى المسقفة ، وفيها قوس نصر ظريف ، وسوق عامة ، وبناء مجلس الشيوخ ، وباسلقا ، وهياكل ، وحمامات ، وملهى ، ومكتبة ، وبيوت خاصة كثيرة . وقد عثر فى أرض السوق على لوحة للعب الداما نقشت عليها هذه العبارة : Venari, lavari, ludere, rider, hoc est vivere — ومعناها : « الصيد ، والاستحمام ، واللعب ، والضحك ، هذه هى الحياة »[١٢] ؛ والفيلق الثالث الذى كان وحده يحرس الولايات الأفريقية هو الذى أنشأ ثمجادى حوالى عام ١١٧ م . ثم اتخذ فى عام ١٢٣ مركزاً بقيادته يقيم فيه أكثر مما يقيم فى ثمجادى ويبعد عنها بضعة أميال نحو الغرب ، وأنشأ فيه مدينة لمبسيس Lambaesis (لمبز) . وهنا تزوج الجنود واستقروا ، وعاشوا فى بيوتهم أكثر مما كانوا يعيشون فى المعسكر . ولكن معسكرهم نفسه كان مرحاً — فخماً ، جميل الزينة ، به حمامات لا تقل فى جمالها عن أية حمامات أخرى فى أفريقية . أما فى خارج المعسكر فقد أعانوا الأهلين فى بناء هيكل لجوپتر ، وعدد من الهياكل ، وأقواس النصر ، ومدرج

يقام فيه الصراع ويحدث فيه الموت فيخففان من ملل الحياة السلمية الرتيبة .

وكان الذى مكن فيلقاً واحداً من حماية أفريقية الشمالية من القبائل المغيرة الضارية فى الداخل هو إنشاء شبكة من الطرق ، كان الغرض الأول منها عسكريا ولكنها كانت عظيمة النفع من الناحية التجارية ، وكانت تربط قرطاجنة بالمحيط الأطلنطى ، والصحراء بالبحر الأبيض المتوسط . وكان الطريق الرئيسى يتجه نحو الغرب من سرتة إلى قيصرية عاصمة موريتانيا (مراكش) ؛ وهنا نشر الملك جوبا الثانى Juba II أساليب الحضارة بين المورى Mauri أى السود (المغاربة) الذين اشتق من اسمهم اسم الإقليم فى الزمن القديم واسمه فى هذه الأيام . وكان جوبا الثانى هذا ابن جوبا الذى مات فى ثبسوس ، وأخذ وهو طفل إلى رومة ليزدان به موكب قيصر ؛ ثم عنى عنه ، وأخذ يدرس فى رومة حتى أصبح من جهابذة العلماء فى أيامه . وعيّنه أغسطس قيلا على مورتانيا وأمره أن ينشر بين بنى وطنه الثقافة الرومانية التى جد فى تحصيلها . ونجح فى هذه المهمة ، وكان من أسباب نجاحه أن امتد حكمه ثمانية وأربعين عاما ؛ ولشد ما كانت دهشة رعاياه حين رأوا رجلا يكتب الكتب ويحكم . وجاء كلجيولا بابن جوبا هذا إلى رومة وأماته جوعاً ، وضم كلوديوس مملكته إلى رومة وقسمها ولايتين : موريتانيا سيزرينسس Caesariensis (موريتانيا القيصرية) وموريتانيا تنجتانا Tingitana (موريتانيا التنجتانية) نسبة إلى عاصمتها تنجيس Tingis وهى طنجة الحالية .

وكان فى هذه المدن الأفريقية مدارس كثيرة مفتحة الأبواب للفقراء والأغنياء على السواء . نسمع أنه كان يدرس فيها الاختزال[١٣] ، ويسمى جوڤنال أفريقية مربية المحامين[١٤] . وقد أنجبت فى هذا العهد مؤلفين أحدهما صغير والآخر كبير — هما فرنتو وأپوليوس . ولكن الأدب الأفريقى لم تكن له الزعامة على آداب العالم إلا أيام مجده فى عهد المسيحية . وكان اوسيوس أپوليوس شخصية غريبة جديرة بالتصوير ، أكثر من شخصية متنائى المتعدد الكفايات وكان مولده فى

مدورا Madaura من أسرة عريقة النسب (١٢٤ م) ، وقد درس فيها وفى قرطاجنة وأثينة ، وبدد ثروة كبيرة ورثها عن أسرته ، وأخذ يتنقل من مدينة إلى مدينة ومن دين إلى دين ، وانضم إلى الجماعات ذات الطقوس الدينية الخفية ومارس السحر وألف كتباً كثيرة فى موضوعات تختلف من اللاهوت إلى مسحوق الأسنان ، وألقى محاضرات فى الفلسفة والدين فى رومة وغيرها من المدن ، ثم عاد إلى أفريقية وتزوج فى طرابلس من سيدة تكبره وتفوقه فى الثراء . فلما فعل هذا رفع أصدقاؤها وورثتها المنتظرون الأمر إلى القضاء مطالبين بإلغاء الزواج ، واتهموه بأنه حصل على موافقة السيدة عليه بفنون السحر ؛ ودافع الرجل عن نفسه أمام المحكمة بخطبة وصلت إلينا بعد أن أدخل عليها بعد أيامه كثير من الصقل والتنميق ، وكانت نتيجتها أن كسب القضية والزوجة ، ولكن الناس أصروا على الاعتقاد بأنه ساحر ؛ ولما ظهر المسيح أخذ خلفاء هؤلاء القوم يحطون من قدره بتعداد معجزات أپوليوس . وقضى الرجل بقية حياته فى مدورا وقرطاجنة يمارس صناعتى المحاماة والطب ، وكتابة الرسائل والخطب ، ولكن معظم ما كتب كان فى الموضوعات العلمية والطبيعية ، وقد أقامت له مدينته نصباً تذكاريا نقشت عليه باللاتينية العبارة الآتية : **الفيلسوف الأفلاطونى** ، ولو أنه استطاع العودة إلى الحياة لساءه ألا يذكره الناس إلا بكتابه **الحمار الذهبى** .

وهذا كتاب شبيه كل الشبه بكتاب **ساتريكون** Satyricon لمؤلفه پترونيوس ، بل هو أكثر منه غرابة وشذوذاً . وكان الاسم الأول لهذا الكتاب هو **أحد عشر كتابا فى التحول** Metamorphoseon Lebri XI ، وهو توسع غريب فى قصة رواها لوسيوس الپتراسى عن رجل انقلب حماراً . ويتألف من سلسلة غير مرتبطة من المغامرات ، والوصف ، والحوادث المحشورة فيها حشراً ، يتخللها السحر ، والرعب ، والفحش فى القول ، والحديث عن التقوى المرجأة .

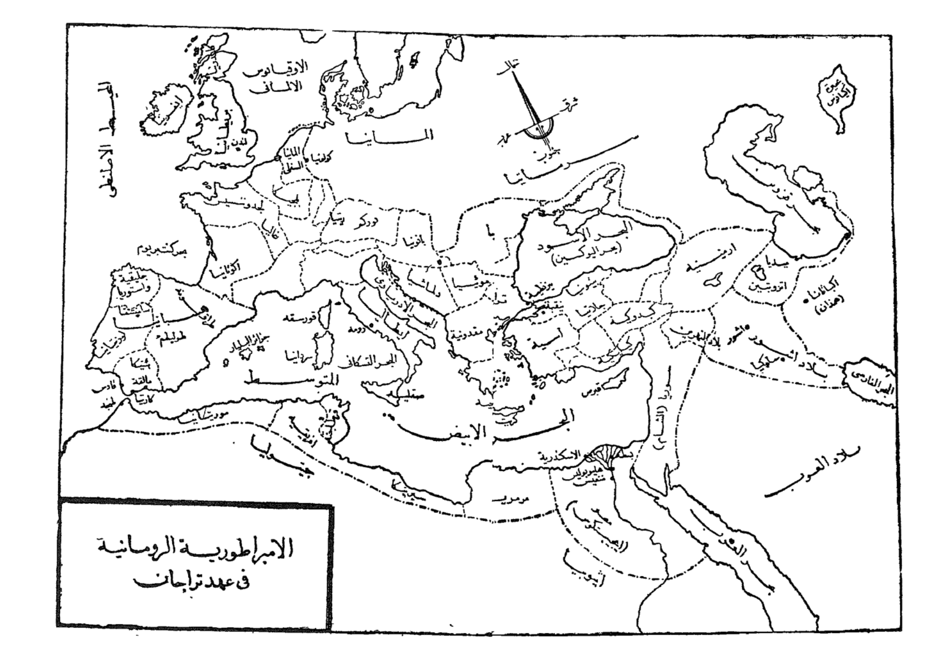
ويروى لوسيوس بطل القصة كيف طاف بتساليا واستمتع فيها بعدد من الفتيات وألفى نفسه أينما حل فى جو من السحر. ومما جاء فى هذا الكتاب :

« وما كاد الليل ينقضى ويبزغ فجر يوم جديد حتى كان من حظى أن أستيقظ ، وأن أقوم من فراشى وأنا نصف مذهول ، راغب حقاً فى أن أعرف وأرى أشياء عجيبة محيرة . . . والحق أنى لم أكن أرى شيئاً أعتقد أنه كما أراه فى الواقع ؛ بل إن كل شىء بدا لى أنه قد تحول إلى صور أخرى بتأثير قوة السحر الخبيثة . وبلغ من قوة اعتقادى هذا أن ظننت أن الحجارة التى قد تعثر بها قدماى تصلبت واستحالت من رجال إلى الصورة التى هى عليها ، وأن الطيور التى سمعتها تغرد ، والأشجار والمياه الجارية ، استحالت إلى هذا الريش والورق ومنابع الماء ، من صور أخرى غير هذه الصور . وكذلك ظننت أن التماثيل والصور ستتحرك فى مستقبل الأيام ، وأن الجدران ستتكلم وتروى أخباراً عجيبة ، وإنى سأسمع من فورى وحياً من السماء ومن شعاع الشمس[١٥] .

والآن وقد أصبح لوسيوس مستعداً لأية مغامرة يريدها ، يقول إنه يدلك جسمه بمرهم سحرى ، وهو شديد الرغبة فى أن يستحيل طائراً ؛ ولكنه حين يدلك نفسه بهذا المرهم يستحيل حماراً . وتروى القصة بعدئذ ما يلقاه من المحن ذلك الحمار « الذى له إحساس الإنسان وإدراكه » . وكانت سلواه الوحيدة هى « أذنى الطويلتين اللتين أستطيع بهما أن أسمع كل شىء ولو كان شديد البعد عنى » . وقد قيل له إنه سيعود إلى صورته الآدمية إذا عثر على وردة وأكلها ، وهى أمنية يدركها بعد أن يمر بطائفة كبيرة من الحظوظ الحمارية منها ما هو طيب ومنها ما هو سيئ . ثم كره الحياة ، فلجأ أولا إلى الفلسفة ، ثم إلى الدين ، وألف دعاء يشكر فيه إيزيس شكراً بينه وبين ابتهال المسيحيين إلى أم الإله شبه عجيب[١٦] . ثم يحلق رأسه ويقبل فى الطبقة الثالثة من أتباع إيزيس المبتدئين . ويرصف طريقاً يعود به إلى الأرض بعد أن يفسر حلماً يأمره فيه أوزريس « أعظم الآلهة » بأن يعود إلى وطنه ويشتغل بالقانون .

وما أقل الكتب التى تحوى كل ما يحتويه هذا الكتاب من السخف ، ولكن أقل منها ما يعبر عن سخفه بعبارة تماثل عبارة هذا الكتاب فى طلاوتها ؛ ذلك أن أپوليوس يحاول فيه كل أنواع الأساليب ، ويلبس كل أسلوب حاوله أجمل لباس ؛ وأكثر ما يحبه من الأساليب هو الأسلوب المطنب المنمق المسجوع المتجانس الأحرف فى بداية الألفاظ ، الملىء بالعبارات العامية الطريفة . والألفاظ القديمة المهجورة ، والكلمات المصغرة العاطفية ، والنثر الموزون والشعرى فى بعض المواضع . وقصارى القول أن الكتاب يضم إلى الأسلوب الشرقى القوى ما فى الشرق من غموض وشهوانية(*) . ولعل أپوليوس قد أراد أن يشير من طرف خفى ، مستنداً إلى تجاربه الخاصة ، إلى أن الانهماك فى الشهوة الجنسية يذهب بالعقل ويبدل الآدميين بهائم ، وإلى أن السبيل الوحيدة التى يعودون بها إلى آدميتهم هى اقتطاف زهرة الحكمة والصلاح . وهو يبدو أحسن ما يكون فى القصص العارضة التى يلتقطها بأذنيه القويتين الدوارتين ، كما نرى فى قصة العجوز التى تسلى فتاة بأن تروى لها قصة كيوپد وسيكى(١٧) — فتخبرها كيف وقع ابن الزهرة (ڤينوس) فى حب فتاة حسناء ، وهيأ لها كل أنواع السرور إلا سرورها برؤيته ، وأثار غيرة أمه الشديدة ، ثم نالت آخر الأمر سعادتها فى السموات العلى . ولسنا نعرف مصوراً ، بز بقلمه لسان هذا الأشيب السليط ، فى رواية هذه القصة القديمة .

(*) لسنا ندرى لم يصف المؤلف الشرق بالشهوانية وأية شهوانيـة فى الشرق تفوق ما وصف به هو نفسه عصر نيرون وغيره من الأباطرة فى هذا الكتاب . (المترجم)



الامبراطورية الرومانية
في عهد تراجان

الفصل الثالث

أسپانيا

إذا عبرنا المضيق من طنجة انتقلنا من ولاية من أقدم ولايات رومة إلى ولاية من أحدثها . وتقع أسپانيا فى موقع عظيم الخطر من الناحية الحربية ، عند مدخل البحر الأبيض المتوسط ؛ وفى جوف أرضها معادن ثمينة كانت نعمة عليها ونقمة روت أرضها بدماء الشره ، وتخترقها سلاسل الجبال التى تعوق سبل الاتصال ، وامتزاج السكان ووحدتهم . وقد أحست أسپانيا بحمى الحياة الشديدة من اليوم الذى كان فيه الفنانون فى العصر الحجرى القديم يصورون الثور الوحشى (البزون) على جدران الكهوف فى ألتميرا إلى أيامنا الحاضرة المضطربة . ولقد ظل الأسپان ثلاثين قرناً شعباً حربياً ذا عزة وأنفة ، وأجسام نحيلة قوية ، وشجاعة وجلد ؛ وكانوا ولا يزالون صلاب الرأى ، أقوياء العاطفة ، يمتازن بالزراعة والاكتئاب ، والاقتصاد وكرم الضيافة ، والمجاملة والمروءة ، يسهل استثارة بغضهم ، ويسهل أكثر من هذا استثارة حبهم ، ولما جاء الرومان إلى بلادهم وجدوا فيها سكانا يتألفون حتى فى ذلك الوقت البعيد من أجناس مختلفة يتعذر فصل بعضها عن بعض : منهم الإمبيريون من أفريقية ، واللجوريون من إيطاليا ، والكلت من غالة ، وعلى رأسهم طبقة من القرطاجنيين . وإذا جاز لنا أن نصدق الرومان الذين فتحوا بلادهم قلنا إن الأسپان كانوا قبل الفتح الرومانى شعباً قريبا من الهمجية ، يعيش بعضه فى مدن وبيوت ، وبعضه فى قرى وأكواخ وكهوف ، ينام على أرض الحجرات أو على الطين ، ويغسل أسنانه بالبول المعتق[١٨] . وكان الرجال يلبسون عباءات سوداء والنساء يرتدين « مآزر طوالا

وجلابيب زاهية الألوان » ، ويضيف استرابون إلى هذا قوله فى سياق اللوم والتأنيب « إن النساء يرقصن مع الرجال ويمسكنهم بالأيدى[١٩] » .

وقد أنشأ سكان جنوبى أسپانيا الشرقى — فى ترتسوس وهى ترشيش Tarshish الفينيقية — حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م صناعة البرنز ، وكانوا يبيعون منتجاتها فى جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط . وأنشأت ترتسوس على أساس هذه الصناعة ، فى القرن السادس قبل الميلاد ، أدبا وفنا قال أهلها إن عمرها كان فى ذلك الوقت يبلغ ستة آلاف عام . على أنه لم يبق من آثار هذا الفن سوى بضعة تماثيل فجة وتمثال نصفى متعدد الألوان منحوت من حجر الخرسان ، وتمثال إلكى Elche المشابه للتماثيل اليونانية والمنحوت على نمط كلتى قوى فياض . وشرع الفينيقيون حوالى عام ١٠٠٠ ق . م يبحثون عن ثروة أسپانيا المعدنية ، ولم يحل عام ٨٠٠ حتى استولوا على قادس ومالقه Malaga وشادوا فيهما هيكلين عظيمين . ثم استقر المستعمرون اليونان حوالى عام ٥٠٠ ق . م على الساحل الجنوبى الشرقى ، وفى ذلك الوقت عينه أو حواليه استعان الفينيقيون ببنى عمومتهم القرطاجنيين لإخماد ثورة فى البلاد ففتحوا ترتسوس وجميع أسپانيا الجنوبية والشرقية ، وكان من أثر استغلال القرطاجنيين لشبه الجزيرة استغلالا سريعا بين الحرب البونية الأولى والثانية أن فتح الرومان أعينهم على ما فى البلاد التى يسمونها « أيبيريا » من موارد ثروة غنية ، فكان تحرك سپيو إلى أسبانيا هو الذى قضى آخر الأمر على انقضاض هنيبال على إيطاليا . ودافعت القبائل الأسبانية المفككة عن استقلالها دفاع الأبطال ، فكان النساء يفضلن قتل أبنائهن على وقوعهم أسرى فى أيدي الرومان ، وكان الأسرى من الرجال ينشدون أغانيهم الحربية وهم يموتون مصلوبين[٢٠] . وتطلب فتح أسپانيا مائتى عام ، ولكنها بعد أن تم فتحها كانت دعامة للدولة أقوى من معظم الولايات : وأحل ولدا جراكس ، وقيصر ، وأغسطس سياسة المجاملة والاحترام محل سياسة القسوة التى كانت تجرى عليها الجمهورية

وأثمرت السياسة الجديدة أحسن الثمرات وأدومها ، فأخذت البلاد تصطبغ اصطباغاً سريعاً بالصبغة الرومانية ، واتخذ الأهلون اللاتينية لغة لهم بعد أن كيفوها بما يلائم طبيعتهم ، ونمت اقتصاديات البلاد واتسعت ، وأخذت تمد رومة بالشعراء ، والفلاسفة ، وأعضاء مجلس الشيوخ والأباطرة .

وظلت أسپانيا الدعامة الاقتصادية للإمبراطورية من أيام سنكا إلى عهد أورليوس ، فأغنت المعادن الإسپانية رومة كما أغنت من قبل صور ثم قرطاجنة ؛ وكانت لإيطاليا كما كانت بلاد المكسيك وبيرو لها هى فيما بعد . فاستخرج من أرضها الذهب ، والفضة ، والنحاس ، والقصدير ، والحديد ، والرصاص . وبذل فيها من العناية والدقة ما يبذل فى استخراجها فى هذه الأيام . ولا يزال وسع المرء أن يرى فى هذه الأيام مناجم عند ريو تنتو Rio Tinto بعيدة القرار محفورة فى صخور الكوارتز الصماء ، ويشاهد فضلات من الصخور باقية من أيام الرومان ولم يبق فيها إلا نسبة من النحاس يدهش الإنسان من ضآلتها . وكان الأرقاء والأسرى يعملون فى هذه المناجم يوما بعد يوم ، وكثيراً ما كانوا يقضون الشهور الطوال دون أن ترى أعينهم ضوء الشمس[٢٢] . ونشأت بجوار المناجم صناعات معدنية عظيمة . وكانت أرض أسپانيا فى هذه الأثناء رغم ما فيها من جبال وقنوات جدباء تخرج الحلفاء التى تصنع منها الحبال الرفيعة والسميكة ، والسلال ، والفرش ، والأخفاف ، وتغذى الضأن وتخرج صناعة الصوف الذائعة الصيت ، وتمد الإمبراطورية بأحسن ما عرفه الأقدمون من أنواع الخمور وزيت الزيتون . وكانت أنهار الوادى الكبير والتاجه والإبرة وغيرها من المجارى التى هى أصغر منها تساعد شبكة الطرق الرومانية على حمل غلات أسپانيا إلى ثغورها وإلى مدنها التى يخطئها الحصر .

والحق أن أعظم النتائج التى تمخض عنها الحكم الرومانى فى هذه البلاد نتيجة تمتاز بها الإمبراطورية الرومانية على سائر الإمبراطوريات وهى تضاعف عدد المدن أو اتساع رقعتها : فقد كان فى ولاية بيتكا Baetica (الأندلس Andalusia

الحديثة) مدائن كارتيا Carteia (الجسر) ومندا (Munda) ومالقة ، وإيطاليكا (مسقط رأس تراچان وهدريان) ، وقرطبة ، وهسپالس (أشبيلية) ، وقادس . ونشأت قرطبة في عام ١٥٢ ق . م ، وكانت مركزاً أدبياً عظيما واشتهرت بما فيها من مدارس لتعليم فنون البلاغة ، وفيها ولد لوكان ، وسنكا الأكبر والأصغر ، وجليو Gallio محرر القديس بولس . وقد احتفظت هذه المدينة بتقاليدها العلمية حتى العصور الوسطى ، وبفضلها كانت قرطبة أعظم مدن أوربا علما . وكانت قادس أكثر مدائن أسبانيا سكانا ، وكانت غنية غنى فاحشاً . ذلك أنها لوقوعها عند مصب نهر الوادى الكبير كانت تسيطر على تجارة المحيط الأطلنطى مع غرب أفريقية ، وأسبانيا ، وغاله ، وبريطانيا ؛ وقد أضافت فتياتها الراقصات الرشيقات قدراً لا بأس به إلى شهرتها .

وكانت بلاد البرتغال تعرف عند الرومان باسم لوزتانيا Lusitania . كما كانت لشبونة تعرف عندهم باسم أولزيپو Olisipo . وأقام مهندسو تراچان جسراً على نهر التاجة عند نوربا قيصرينة Norba Caesarena (التى أطلق عليها العرب اسمها الحديث القنطرة) هو أكمل جسر رومانى بقى على حالته حتى اليوم . ولا تزال عقوده الفخمة التى يبلغ اتساعها مائة قدم والتى تعلو مائة وثمانين قدما فوق قاع النهر ، تحمل طريقا من أربعة دروب كثير الحركة . وكانت عاصمة لوزتانيا هى مدينة إمريتا (مريده Mérida) وكانت تزهو بما فيها من تماثيل كثيرة ، وبثلاث قنوات لجر مياه الشرب ، وبحلبة للألعاب ، ودار للتمثيل ، وبحيرة لتمثيل المعارك البحرية ، وقنطرة طولها ٢٥٠٠ قدم . وكان إلى شرقيها فى ولاية تراكننسس Tarraconensis مدينة سجوڤيا Segovia التى لا تزال تستمتع بالمياه النقية تحملها إليها قناة أنشئت فى عهد تراچان . وكان إلى جنوبها مدينة طليطم (طليطلة الحديثة) Toledo التى اشتهرت فى عهد الرومان بما فيها من مصانع الحديد ، وقامت على الساحل الشرقى مدينة نوڤا كرثاجو Nova Carthago

« قرطاجنة الحديثة » التى أثرت من مناجمها ، ومصائد سمكها ، وتجارتها وكان فى البحر الأبيض بالقرب من أسبانيا جزائر البليار ، وكانت فيها مدينتا بلما Palma ، وپولنتا Pollentia . وكانتا فى ذلك العهد مدينتين قديمتين مزدهرتين . وكان على الساحل الشرقى نحو الشمال مدائن بلنسية ، وتراكو Tarraés (Tarragona) (طرقونة) وبرسينو (برشلونة) ، وكان إلى جنوب جبال البرانس مباشرة بلدة إمپوريا Emporiae القديمة : فإذا ما سار المسافر سفينته مسافة قليلة حول حافة الجبال الشرقية ألفى نفسه فى بلاد غالة .

الفصل الرابع

غالــة

لقد كان فى مقدور جميع السفن ذات الحمولة المتوسطة ، بما فيها سفن المحيطات ، أن تسير فى تلك الأيام فى نهر الرون من مرسيليا إلى ليون . أما القوارب الصغيرة فكانت تستطيع مواصلة السير إلى ما يقرب من أربعين ميلا من نهر الرون الأعلى . فإذا نقلت البضائع بعد ذلك مسافة قصيرة فوق أرض مستوية استطاع الناس بعدها أن ينقلوها بالسفن مارة بمائة مدينة وألف قصر صغير إلى بحر الشمال . وكانت قفزات أرضية شبيهة بهذه القفزة تؤدى من الرون والساؤون إلى اللوار وإلى المحيط الأطلنطى ، ومن الأود Aude إلى الجارون وبردو ، ومن الساؤون إلى السين وبحر المانش : وكانت التجارة تسير فى هذه الطرق المائية ، ونشأت بفضلها مدائن عند ملتقاها ، وكانت فرنسا ، كما كانت مصر ، هبة مجاريها المائية .

ويمكن القول إن الحضارة الفرنسية — بأحد المعانى التى يمكن أن تفهم من لفظ الحضارة — بدأت منذ أيام « الرجل الأورينياسى Ourignacian man » أى قبل ميلاد المسيح بثلاثين ألف عام ، فقد كان فى هذا الوقت البعيد ، كما تدل كهوف منتنياك Montignac ، فنانون يستطيعون أن يصوروا بالألوان الزاهية والخطوط الواضحة . ثم انتقلت فرنسا حوالى عام ١٢٠٠٠ ق.م من ذلك العصر الحجرى القديم ، عصر الصيد والرعى ، إلى حياة الاستقرار وفلح الأرض فى العصر الحجرى الحديث ، وانتقلت منه بعد عشرة آلاف عام طوال إلى عصر البرنز . وحوالى عام ٩٠٠ ق.م أخذ جنس جديد هو الجنس « الألبى » المستدير الرؤوس يتسرب إلى البلاد من ألمانيا ، وينتشر فى فرنسا ، ومنها إلى بريطانيا وأيرلندة ،

ثم ينزل إلى أسبانيا . وجاء هؤلاء « الكلت » معهم بثقافة هولستات Hallstatt الحديدية من النمسا . ثم استوردوا من سويسرا حوالى عام ٥٥٠ ق . م فن لاتين La Téne فى صناعة الحديد ، وكان قد تقدم تقدماً كبيراً فى سويسرا . وسمت رومة فرنسا أول ما عرفتها باسم كلتيكا Celtica ولم يتغير هذا الاسم إلى غالة Gallia إلا فى عهد قيصر .

وغلب المهاجرون أهل البلاد أو فاقوهم فى عددهم ، واستقروا قبائل مستقلة لا تزال أسماؤها تنم عليها المدن التى شادوها(*) . ويقول قيصر إن الغاليين كانوا قوما طوال القامة ، أقوياء الأجسام ظاهرى العضلات[٢٣] ، يمشطون شعرهم الغزير الأشقر ويرسلونه خلف رؤوسهم وعلى أقفيتهم ، وكان بعضهم يطيلون لحاهم ، والكثيرون منهم يتركون شواربهم تتثنى حول أفواههم . وقد نقلوا معهم من بلاد الشرق ، وربما كان ذلك عن الإيرانيين الأقدمين ، عادة لبس السراويل القصيرة ، وأضافوا هم إليها رداء مصبوغا بألوان كثيرة ومطرزا بالأزهار ، ومن فوقه عباءة مخططة تتدلى من الكتفين . وكانوا مولعين بالجواهر ، ويتزينون فى الحروب بالحلى الذهبية — إن لم يكن عندهم ما هو أثمن منها[٢٤] . وكانوا يكثرون من أكل اللحم ، وشرب الجعة ، والخمر غير المخفف بالماء ، لأنهم كانوا « سكيرين بفطرتهم » إذا جاز لنا أن تصدق أبيان[٢٥] . ويصفهم استرابون بأنهم قوم « سذج ، ذوو شمم وكبرياء . . . لا يطيقهم أحد إذا انتصروا ، وتطير نفوسهم شعاعا إذا غُلبوا »[٢٦] . ولكن علينا ألا نثق كل الثقة بهذه الأقوال لأنه ليس من الخير

(*) منهم الأمبيانى Ambiani فى أمين Amiens ، والبلوفاكى Bellovaci فى بوفيه Beauvais والبتيوريج Bituriges فى بورج Bourge والكرنوت Carnutes فى شارتر Oharteres والپاريسى فى باريس ، والبكتون Pictones فى پواتييه ، والريمى Remi فى ريمس Rheims والسنون Senones فى سن Sens والسوسيون Suessiones فى سواسون Soissons الخ .

فى كل الأحوال أن يكتب عن الناس أعداؤهم . وقد اشمأزت نفس پوسيدونيوس حين رآهم يعلقون رؤوس أعدائهم بعد فصلها عن أجسامهم فى رقاب جيادهم[٢٧] . وكان يسهل استثارتهم للجدل والقتال ، وكانوا فى بعض الأحيان يسلون أنفسهم فى المآدب بأن يتبارزوا حتى يقتل بعضهم بعضا . ويقول عنهم قيصر : « إنهم كانوا أكفاء لنا فى الشجاعة وفى التحمس للحرب[٢٨] » ، ويصفهم أميانس مرسلينس Ammianus Marcellinus بأنهم :

« مهما تكن سنهم يليقون للخدمة العسكرية ، فالشيخ منهم يخرج للحرب وهو لا يقل شجاعة عن الشاب فى مقتبل العمر . . . والحق أن سرية كاملة من الأجانب لتعجز عن الوقوف فى وجه غالى واحد إذا دعا زوجته إلى تأييده ، وهى فى العادة أشد منه بأساً وأعظم شراسة ، وخاصة إذا نفخت عنقها ، وعضت على أسنانها ، ولوحت بذراعيها الضخمتين ، وشرعت تكيل الضربات بيديها وقدميها كأنها حجارة تقذف من منجنيق » .

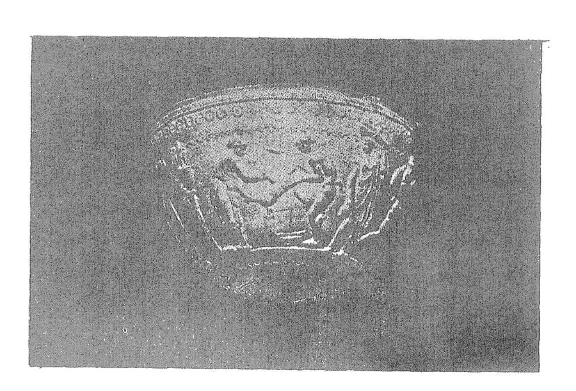
وكان الغاليون يؤمنون بآلهة كثيرة ، نسى الناس كل أمرها فلا ضير علينا إذا لم نذكر أسماءها . وكان إعتقادهم بحياة سعيدة فى الدار الآخرة قويا إلى حد حمل قيصر على الحكم بأن هذا الإيمان كان له أكبر الأثر فى شجاعة الغاليين . ويقول ڤاليريوس مكسمس : إن قوة هذه العقيدة كانت تدفع رجالهم إلى أن يقرضوا المال على أن يرد إليهم فى الدار الآخرة ، ويقول لسيدونيوس إنه رأى الغاليين فى إحدى الجنازات يكتبون الرسائل إلى أصدقائهم المتوفين ويلقون بها على كومة الحريق حتى يحملها الميت إلى المرسلة إليهم[٣٠] ؛ وليتنا نستطيع أن نستمتع برأى رجل غالى فى هذه القصص الرومانية . وكان كهنتهم يشرفون على جميع شئون التعليم ، ويعنون كل العناية بغرس العقيدة الدينية فى نفوس المتعلمين ؛ وكانوا يقومون بطقوس دينية ذات روعة ، يؤدونها فى الأيك أكثر مما يؤدونها فى الهياكل ، ويسترضون الآلهة بتقديم الضحايا البشرية

يأخذونها من المحكوم عليهم بالإعدام لجرائم ارتكبوها ؛ وقد تبدو هذه العادة همجية لمن لم يروا بأعينهم فى هـذه الأيام طريقة الإعدام بالكهرباء ؛ وكان الكهنة هم الطائفة الوحيدة المتعلمة — ولعلها كانت الطائفة الوحيدة غير الأمية — فى هذا المجتمع الغالى ؛ وكانوا يؤلفون الترانيم الدينية والقصائد ، ويكتبون السجلات التاريخية ، ويدرسون « النجوم وحركاتها ، وحجم الكون والأرض ، ونظام الطبيعة »[٣١] ، وقد وضعوا لأنفسهم تقويماً عملياً ؛ وكانوا قضاة لهم نفوذ كبير فى بلاط ملوك القبائل . وكانت غالة قبل عهد الرومان ، كما كانت فى العصور الوسطى ، تسير على النظام الإقطاعى المكتسى بثياب الحكم الدينى . وبلغت غالة الكلتية ذروة مجدها تحت حكم هؤلاء الملوك والكهنة فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وازداد عدد السكان لوفرة الإنتاج الناشىء عن أساليب لاتين La Téne الفنية ، فأدى ذلك إلى سلسلة من الحروب للاستيلاء على الأرض ، ولم يحل عام ٤٠٠ ق . م حتى كان الكلت الذين يمتلكون معظم أوربا الوسطى وغالة ، قد استولوا على بريطانيا ، وأسپانيا ، وشمالى إيطاليا . وفى عام ٣٩٠ اندفعوا جنوباً نحو رومة ، وفى عام ٢٧٨ نهبوا دلفى واستولوا على فريجيا ؛ وبعد قرن من ذلك الوقت أخذت قوتهم فى الاضمحلال ؛ وكان بعض السبب فى هذا لين طباعهم الناشىء من ثروتهم ومن تأثرهم بالأساليب اليونانية ، وبعضه الآخر قوة أمراء الإقطاع السياسية . فكما أن الملوك قد قضوا فى العصور الوسطى على قوة الأمراء وأنشئوا بعد القضاء عليها دولة موحدة ، كذلك قضى أمراء الإقطاع فى القرن السابق لظهور قيصر على سلطة الملوك ، وتركوا غالة مقطعة الأوصال أكثر من ذى قبل . وأخذ الكلت يُرَدُّون إلى الوراء فى كل مكان عدا أيرلندة ، وأخضعهم القرطاجنيون فى أسبانيا ، وأخرجهم الرومان من إيطاليا ، وفتح الرومان فى عام ١٢٥ ق . م جنوبى غالة لحرصهم على تأمين طريقهم إلى أسپانيا ، وجعلوا تلك البلاد ولاية رومانية . وفى عام ٥٨ ق . م استغاث زعماء الكلت بقيصر

ليساعدهم على صد غارة ألمانية ، فأجابهم قيصر إلى ما طلبوا وحدد هو ثمن هذه المعونة .

وأعاد قيصر وأغسطس تنظيم غالة فقسماها أربع ولايات : غالة النربونية الجنوب ، وهي المعروفة للرومان باسم پروڤنسيا Provincia ولنا باسم پروڤانس Provence ؛ وقد اصطبغت هذه الولاية إلى حد كبير بالصبغة اليونانية بسبب استيطان اليونان لشاطئ البحر الأبيض المتوسط ؛ وأكوتانيا فى الجنوب الغربى ، ومعظم سكانها من الأيبيريين ، وغالة اللدچونيــة Ludgonensis فى الوسط ، وكانت الكثرة الغالبة من أهلها من الكلت ، وبلجيكا فى الجنوب الشرقى وكثرة أهلها ألمان . وقد أقرت رومة هذه الأقسام العنصرية وزادتها حدة لتتقى بذلك ثورتها الجامعة ، فأبقت المقاطعات التى تسكنها القبائل المختلفة على حالها واتخذتها أقساماً إدارية . وكان الملاك هم الذين يختارون الحكام ، وقد ضمنت رومة ولاء هؤلاء الملاك بما كانت تقدمه لهم من عون ضد الطبقات الدنيا ، ومنحت حق المواطنية الرومانية مكافأة منها للغاليين الموالين لها الذين يؤدون لها خدمات قيمة . وكانت جمعية إقليمية تضم ممثلين يختارون من كل مقاطعة تجتمع كل عام فى مدينة ليون ؛ وقد قصرت وظيفتها فى أول الأمر على القيام بطقوس عبادة أغسطس ، ولكنها ما لبثت أن انتقلت من هذا إلى التقدم بملتمسات إلى الحكام الرومان ، ثم أصبحت هذه الملتمسات توصيات ثم مطالب . وانتزعت شئون القضاء من أيدى الكهنة ، وبُدِّد شملهم ، واتبع القانون الرومانى فى فرنسا ، وظلت غالة ما يقرب من قرن خاضعة مستسلمة للنير الجديد .

وحدث فى عام ٦٨ م وفى عام ٧١ م أن اندلع لهيب الثورة زمناً قصيراً بقيادة ڤندكس Vindex وسڤيلس Civilis ، ولكن الأهلين لم يقدموا إلا عوناً قليلا لهاتين الحركتين ، وفضلوا الاستمتاع بالرخاء ، والأمن والسلام على حب الحرية ؛





(شكل — ٤) مزهرية من أرتين من مجموعة لوب بجامعة هارڤرد

وأصبحت غالة فى ظل **السلم الرومانية** من أغنى أقسام الإمبراطورية ، وكانت رومة نفسها تعجب من ثراء الأشراف الغاليين الذين انضموا إلى مجلس الشيوخ فى عهد كلوديوس ، وأخذ فلورس Florus بعد مائة عام من ذلك الوقت بذكر الفرق بين ثراء غالة المزدهرة وضعف إيطاليا المضمحلة[٣٣]. فقد قطعت الغابات لتفسح الأرض للزراعة ، وجففت المستنقعات ، وارتقت أساليب الزراعة حتى لقد استخدمت حصادة آلية[٣٤] ، وانتشرت الكروم وأشجار الزيتون فى كل مقاطعة ، وكان پلنى وكولملا Columella فى القرن الأول الميلادى يمتدحان خمور برغندية وبردو . وكانت فى البلاد ضياع واسعة يفلحها العبيد وأقنان الأرض ويمتلكها أسلاف أمراء الإقطاع فى العصور الوسطى ؛ ولكن كان فيها أيضاً كثيرون من صغار الملاك ، وكانت الثروة فى غالة القديمة ، كما هى فى فرنسا الحديثة ، موزعة توزيعاً أقرب إلى المساواة منه فى أية دولة متمدينة أخرى . وتقدمت الصناعة بوجه خاص تقدما سريعاً ، فلم يحل عام ٢٠٠ م حتى أخذ صناع الفخار والحديد ينتزعون أسواق ألمانيا وأسواق الغرب من إيطاليا ، والنساجون الغاليون يقومون بالجزء الأكبر من صناعة النسيج فى الإمبراطورية ، وحتى كانت مصانع ليون تخرج الزجاج التجارى وأدوات زجاجية ذات روعة فنية ممتازة[٣٥]. وكانت البراعة الفنية فى الصناعة يتوارثها الأبناء عن الآباء ، حتى أضحت جزءاً ثميناً من التراث الرومانى ، وكانت الطرق التى أصلحها الرومان أو أنشئوها والتى يبلغ طولها ١٣٫٠٠٠ ميل غاصة بأدوات النقل وبالتجارة .

وأثرت بلدان كلتيكا القديمة بفضل هذه الحياة الاقتصادية المتسعة ، فأصبحت مدائن كبرى فى غالة الرومانية ، فكانت پردجالا Burdegala (هى بردو الحالية) عاصمة أكوتانيا من أكثر ثغور المحيط الأطلنطى حركة وتجارة ، وكانت ليمونم Limonum (ليموج) وأڤريكم Avaricum (بورج) وأغسطنمتم Augustonemetum (كليرمون — فران Clermont-Ferraand) مدائن غنية

حتى قد استطاعت هذه المدينة الأخيرة أن تقدم لزنودوتس Zenodotus أربعمائة ألف سسترس ليقيم بها تمثالا ضخما لعطارد[٣٦] . وفى غاليا النربونية بلغت المدن من الكثرة درجة جعلت پلنى يصفها بأنها « أشبه بإيطاليا منها بولاية من ولاياتها » . وكان فى الجهة الغربية مدينة طولوزا Tolosa (طولوز الحالية) التى اشتهرت بمدارسها ، وكانت ناربو Narbo نربونة (Narbonne) عاصمة الولاية فى القرن الأول الميلادى أعظم مدائن غالة ، وأهم الثغور التى تصدر منها غلاتها إلى إيطاليا وأسپانيا ، وقد وصفها سيدونيوس أپلينارس Sidonius Apollinaris بقوله إن «فيها أسوارا ، وطرقاً للتنزه ، وحانات ، وعقودا وأروقة ذات عمد ، وسوقا عامة ، وملهى ، وهياكل وحمامات ، وأسواقا للبيع والشراء ، ومراعى ، وبحيرات ، وقنطرة ، وبحراً »[٣٨] . وكان إلى شرق هذه المدينة على طريق دوميتيا العظيم الذى يصل أسپانيا بإيطاليا بلدة نموسس Nemousus (نيمز Nimes) ؛ وقد شاد أغسطس والمدينة بيتها المربع Maison Carrée الجميل تخليدا لذكرى حفيديه لوسيوس وكيوس قيصر ؛ ومما يدعو إلى الأسف أن أعمدته الداخلية داخلة فى جدران المحراب ، ولكن أعمدته الكورنثية المنفصلة لا تقل جمالا عن أية عمد فى رومة . ولا تزال الاحتفالات تقام من آن إلى آن فى مدرجها الذى كان يتسع لعشرين ألفا من النظارة . وتحولت القناة الرومانية التى كانت تنقل الماء العذب إلى رومة على مر الزمن إلى قنطرة نهر جار Gard ولا تزال العقود السفلى لهذه القنطرة قائمة إلى اليوم فى صورة آثار ضخمة محطمة فى الريف العابس القريب من المدينة تظهر بجلاء ما بينها وبين العقود الصغرى التى فوقها من اختلاف ، وتشهد هذه وتلك بعظمة فنون رومة الهندسية .

وأنشأ قيصر شرق هذه المدينة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط مدينة أرلات Arelate (آرل الحديثة Arles) ظنا منه أنها ستحل محل مساليا Massalia المشاكسة ، فتكون مركزاً لبناء السفن وثغراً تجاريا هاما . وكانت

مساليا (مرسيليا) مدينة قديمة حين ولد قيصر ، وبقيت يونانية بلغتها وثقافتها إلى آخر أيامه . وكانت فنون الزراعة ، وغرس الأشجار ، وزراعة الكروم ، والثقافة اليونانية قد دخلت بلاد غالة من مرفأ هذه الفُرضة البحرية . وفيها بنوع خاص كانت أوربا الغربية تستبدل بغلاتها حاصلات بلاد اليونان والرومان ، وكانت إلى هذا من أعظم مراكز الجامعات فى الإمبراطورية ، وكان أعظم ما اشتهرت به مدرسة الحقوق . وقد اضمحل شأنها بعد قيصر ولكنها ظلت كما كانت مدينة حرة مستقلة فى شئونها عن حاكم الولاية . وكان يليها من جهة الشرق فورم لولياى Forum Lulii (فريجو Frejus) ، وأنتيپوليس Antipolis (أنتيب Antibes) ونيسيا Nicaea (نيس) ، ويتألف منها كلها ولاية الألب البحرية الصغيرة . وإذا انتقل المسافر فى نهر الرون من أرلات وصل إلى أفنيو Avenio (أفنيون الحديثة Avignon) وأروسيو Arausio (أورانج Orange) وقد بقى فى هذه المدينة الأخيرة قوس عظيم من أيام أغسطس ؛ وفيها أيضاً ملهى رومانى ضخم لا تزال تمثل فيه مسرحيات قديمة .

وكانت أكبر ولايات غالة هى غالة اللجدونية ، وسميت كذلك نسبة إلى عاصمتها لجدونم Lugdunum (ليون الحالية) . وكانت هذه العاصمة تقع عند ملتقى الرون والساؤون وملتقى عدة طرق برية كبرى أنشأها أجرپا ، ولذلك أضحت المركز التجارى لإقليم غنى وعاصمة لغالة كلها . وقد استطاعت بفضل ما قام فيها من صناعات الحديد والزجاج والخزف أن تقبل فى القرن الأول الميلادى عدداً من السكان يبلغ حوالى مائتى ألف[٤٠] . وكان إلى شمالها بلدة كبيلونم Cabillonum (شالون — على — الساؤون Chalon-sur-Saône) وقيصردونم Caesarodunum (تور Tours الحالية) وأغسطدونم Augustodunum (أوتون Outun الحالية) وسنابوم Cenabum (أورليان الحالية Orleans) لوتيريا Luteria (پاريس الحالية) . وكتب الإمبراطور يوليان يصف هذه

المدينة الأخيرة فقال : « لقد قضيت الشتاء (٣٥٧ — ٣٥٨) فى لوتيريا مدينتنا المحبوبة ، لأن هذا هو الاسم الذى يطلقه الغاليون عن مدينة الباريزيين الصغيرة ، وهى جزيرة فى النهر . . . يعصر فيها الخمر الطيب »[٤١] .

وكانت ولاية بلجيكا التى تشمل أجزاء من فرنسا وسويسرا الحاليتين بلاداً لا يكاد أهلها يشتغلون بغير الزراعة ؛ وكان معظم ما فيها من صناعات قليلة متصلا بالقصور الصغيرة ذات الحدائق التى تدل بقاياها الكثيرة على أن أصحابها كانوا من الأشراف الذين يعيشون معيشة الدعة والترف . وفى هذه الولاية أنشأ أغسطس المدائن المعروفة الآن بأسماء سواسون Soissons ، وسان كنتن St Quentin ، وسنلى Senlis ، وبوفيه ، وتريف Treves . وازدهرت آخر هذه المدن ، وكانت تسمى أغسطا ترفرورم Augusta Trevirorum لأنها كانت مركز قيادة الجيش المدافع عن الرين ؛ وأصبحت فى أيام دقلديانوس عاصمة غالة بدل مدينة ليون ، وصارت فى القرن الخامس أكبر مدينة فى شمال جبال الألب ، ولا تزال حتى الآن غنية بآثارها الرومانية القديمة — فلا تزال البورتا نجرا PortaNigra محتفظة بأسوارها الرومانية ؛ ولا تزال فيها حمامات سانت بربارا ، وفى إيجل Igel القريبة منها مقبرة أسرة سكنديني ، وفى نوماجين Neumagen المجاورة لها النقوش الفجة التى كانت على كتل الحصن الحجرية .

وبدلت الحياة حول هذه المدن ظاهرها تبدلا بطيئاً وجددت عناصرها فى عناد شديد فاحتفظ الغاليون بخلقهم ، وسراويلهم القصيرة ، وظلوا ثلاثة قرون محتفظين بلغتهم ولكن اللغة اللاتينية غلبتهم على أمرهم فى القرن السادس . وكان أكبر السبب فى هذه الغلبة استخدامها فى الكنيسة الرومانية ، ولكنها كانت وقتئذ قد شذبت ورخمت حتى صارت فرنسية . ونالت رومة أعظم فوز لها فى غالة بنقل الحضارة الرومانية إليها . ويرى بعض كبار المؤرخين الفرنسيين أمثال چوليان وفنك برنتانو

Funck-Brentano[٤٣] أن فرنسا كانت تكون خيراً مما هى لو لم تفتحها رومة ، ولكن مؤرخا آخر أعظم من هذين المؤرخين يعتقد أنه لو لم تفتح رومة غالة لفتحتها ألمانيا حتما ، وأنه لو لم ينتصر قيصر فى تلك البلاد. كما يقول ممسن Mommsen :

« لحدثت هجرة الشعوب قبل حدوثها بأربعمائة عام ، وفى وقت لم تكن الحضارة الإيطالية قد تأقلمت فى غالة أو على ضفاف الدانوب ، أو فى أفريقية وأسپانيا . وبفضل ما كان للقائد والسياسى الرومانى العظيم من بصيرة نافذة أدرك بها أن القبائل الألمانية هى العدو المنافس للعالم الرومانى — اليونانى ، وبفضل قوته وشدة بأسه التى استطاع بها أن يضع للدولة نظامها الجديد نظام الدفاع الهجومى بجميع تفاصيله ودقائقه ، ويعلم الناس أن يحصنوا حدود الإمبراطورية بالأنهار والأسوار الاصطناعية . . . بفضل هذا كله كسب للثقافة اليونانية — الرومانية الفترة التى لم يكن منها بد لتمدين الغرب »[٤٤] .

لقد كان نهر الرين هو الحد الفاصل بين الحضارة الرومانية — اليونانية وبين الحضارة البدائية ؛ فأما غالة فلم يكن فى وسعها أن تدافع عن هذا الحد ، وأما رومة فقد دافعت عنه ، وكان دفاعها هذا هو الذى حدد مجرى تاريخ أوربا إلى يومنا هذا .

الفصل الخامس

بريطانيا

عبر البحر من غالة حوالى عام ١٢٠٠ ق . م . فرع من قبائل الكلت واستقر فى إنجلترا . وقد وجدوا فى تلك البلاد خليطا من شعب أسود الشعر لعله أيبرى ، وشعب أشقر الشعر اسكندناوى . وغلب الكلت هؤلاء الأهلين على أمرهم ، وتزوجوا منهم ، وانتشروا فى إنجلترا وويلز . وحوالى عام ١٠٠ ق . م (ونغفل تلك القرون الأحد عشر لأن أنانيتنا تحملنا على اختصار هذه الأحقاب المليئة بالحوادث وتمحو الأجيال الجليلة الشأن من الذاكرة المزدحمة لكى تقربنا من عصرنا الحديث) أقبل فرع آخر من الكلت من داخل القارة وطرد بنى عمومته من جنوبى بريطانيا وشرقيها . ولما جاءها قيصر وجد سكان الجزيرة يتألفون من عدة قبائل مستقلة لكل منها ملك يريد أن يوسع مملكته الصغيرة ، وأطلق على السكان كلهم اسم البريطانى Britanni نسبة إلى قبيلة غالية تسمى بهذا الاسم كانت تسكن جنوبى القناة الإنجليزية مباشرة ، ظنا منه أن هذه القبيلة نفسها تسكن كلا الشاطئين .

وكانت بريطانيا الكلتية شبيهة كل الشبه بغالة الكلتية فى عاداتها ولغتها ودينها ، ولكنها كانت متأخرة عنها فى حضارتها . وقد انتقلت من العصر البرنزى إلى العصر الحديدى قبل مولد المسيح بنحو ستة قرون أن بعد انتقال غالة إلى هذا العصر الأخير بثلاثة قرون . ولما عبر پيثياس Pytheas ، المرتاد الماسليوتى Massiliot المحيط الأطلنطى إلى إنجلترا حوالى عام ٣٥٠ ق . م وجد بلدة كنتياى Cantii فى مقاطعة كنت Kent غنية بزراعتها وتجارتها ، فقد كانت تربتها خصبة بفضل الأمطار

الجزيرة ، وكانت أرضها تحتوى على خامات غنية بالنحاس ، والحديد ، والقصدير ، والرصاص . وكانت صناعاتها المنزلية قبيل عهد قيصر تكفى لإيجاد تجارة ناشطة بين القبائل التى تسكنها ومع القبائل الأوربية ، وضربت فيها نقود من البرنز والذهب[٤٥] . وكانت غارات قيصر فى واقع الأمر غارات استكشافية ، عاد منها ليؤكد إلى رومة أن القبائل التى تسكن تلك البلاد عاجزة عن المقاومة المتحدة ، وأن غلاتها تكفى جيشاً غازياً يأتيها فى الوقت المناسب . وبعد مائة عام من ذلك الوقت (٤٣ م) عبر كلوديوس القناة ومعه أربعون ألفاً من الجنود كان نظامهم وتسليحهم ، ومهارتهم فوق طاقة السكان الأصليين ، فأخضعوا بريطانيا لرومة وأصبحت من ذلك الوقت ولاية تابعة لها . وفى عام ٦١ قادت ملكة لإحدى القبائل البريطانية تدعى بودكا Boudicca أو بوديسيا Boadicea ثورة شديدة ، وادعت أن ضباطاً رومانيين قد اعتدوا على عفاف ابنتيها ، ونهبوا مملكتها ، وباعوا كثيراً من رجالها الأحرار فى سوق الرقيق . وبينا كان الحاكم الرومانى پولينس مشغولا فى الاستيلاء على جزيرة مان Man هزم جيش بودكا الفيلق الوحيد الذى وقف فى وجهه ، وزحف على لندنيوم Londinium ، وكانت فى ذلك الوقت — على حد قول تاستس — « أهم مسكن للتجار ، كما كانت سوقاً كبرى للتجارة »[٤٦] . وقتل كل رومانى فى هذه المدينة أو فى فريولامنيوم Verulaminium (سانت أولبنز St. Aibans) ، وذبح سبعون ألف رومانى هم وحلفاؤهم قبل أن يلتقى پولينس وفيالقه بالثوار ، وحاربت بودكا وابنتاها فى عربة حربية بشجاعة نادرة فى أثناء هزيمتها ، ثم تجرعت السم ؛ وضربت بحد السيف رؤوس ثمانين ألفاً من البريطانيين .

ويحدثنا تاستس عن أجركولا زوج ابنته وحاكم بريطانيا (٧٨ — ٥٤ م) فيروى كيف نشر الحضارة بين « شعب فظ مشتت ذى نزعة حربية » بإنشاء المدارس ، وإذاعة استعمال اللغة اللاتينية ، وتشجيع المدن والأغنياء على تشييد

المعابد ، والباسلقات ، والحمامات العامة ، ثم يقول ذلك المؤرخ السليط : « واستحوذت مباهج الرذيلة شيئاً فشيئاً على قلوب البريطانيين ؛ فصارت الحمامات ، والحجرات الجميلة ، والمآدب الفخمة ، محببة إليهم ، وأخذ البريطانيون الغافلون يسمون الآداب الجديدة باسم فنون الإنسانية المهذبة ؛ وإن لم تكن فى حقيقة أمرها إلا ستاراً جميلا للاسترقاق » . واستطاع أجركولا بحملات حربية سريعة أن يحمل هذه الفنون والحكم الرومانى ، إلى ضفاف نهرى الكليـــد Clyde والفورث Forth وأن يهزم جيشاً من الأسكتلنديين مؤلفاً من ثلاثين ألفاً ، ولو لم يدعه دومتيان ليواصل الزحف . وشاد هدريان سوراً (١٢٢ — ١٢٧) طوله سبعون ميلا فى عرض الجزيرة يمتد من خليج ســـلواى Solway Firth إلى مصب التين Tyne ليصد الاسكتلنديين الذين كانوا يرتابون فى نواياه ؛ وبعد عشرين عاماً من ذلك الوقت أقام لوليوس Lollius فى شمال هـــذا السور سوراً آخر طوله ثلاثة وثلاثون ميلا يعرف بسور أنطونينس ويمتد بين مصبى الكليد والفورث . وبفضل هذين الحصنين استطاعت رومة أن تأمن على بريطانيا أكثر من قرنين من الزمان .

وكان حكم رومة يزداد ليناً ورحمة كلما زاد استقراراً ، فأصبحت المدن تشرف عليها مجالس شيوخ وجمعيات وطنية وحكام من أهلها ، وترك الريف كما ترك فى غالة إلى رؤساء القبائل الخاضعين لإشراف الرومان . ولم تكن الحضارة فى بريطانيا حضارة مدن كما كانت فى إيطاليا ، كما أنها لم تكن غنية غناء حضارة غالة ، ولكن المدن البريطانية أخذت وقتئذ أشكالا جديدة بفضل استنهاض رومة وحمايتها لها . وكانت أربع من هذه المدن مستعمرات يتمتع أهلها بحق المواطنية الرومانية وهى : كمولودونم Camulodunum (كلشستر Colchester) التى كانت أولى عواصم بريطانيا الرومانية ومقر مجلس الولاية ؛ ولندم Lindum التى يدل اسمها لنكولن الحديث Lincoln على ما كان لها من امتياز قديم ؛ وإبراكم Eboracum (يورك) وكانت وقتئذ مركزاً حربياً هاماً ؛ وجليفم Glevum ، التى

امتزج فى اسمها الحديث جلوسستر Gloucester لفظا جليقم وشستر وثانى اللفظين - هو اللفظ الإنجليزى السكسونى المقابل لكلمة مدينة(*) ؛ ويلوح أن تشستر ، وونشستر ، ودورشستر ، وشيشستر ، وليسستر (لستر) وسلشستر ، ومنشستر قد بدأت كلها فى القرنين الأول والثانى من حكم الرومان . وكانت فى أول الأمر بلدانا صغيرة يسكن كل منها حوالى ستة آلاف نفس ، ولكنها كانت تستمتع بشوارع مرصوفة ذات مجار ، وبأسواق عامة ، وباسلقات ، وهياكل ، وبيوت أسسها من الحجارة وأسقفها مغطاة بالقراميد ، وكان فى فركونيوم Virconium (ركستر الحالية Wroxeter) باسلقا تتسع لستة آلاف شخص ، وحمامات تتسع لاستحمام مئات من الأشخاص فى وقت واحد . وكان فى أكوا سالس Aquae Salis (المياه الملحة) ، التى تعرف باسم باث Bath عيون حارة أصبحت بفضلها ملاذا طبيا فى الزمن القديم كما يدل على ذلك ما بقى من آثار حماماتها الحارة إلى اليوم . وعلا شأن لندنيوم من الناحيتين الاقتصادية والحربية لحسن موقعها على نهر التاميز ولأهمية الطرق المتفرعة منها ، وزاد سكانها حتى بلغوا ستين ألفا ، وسرعان الطرق المتفرعة منها ، وزاد سكانها حتى بلغوا ستين ألفا ، وسرعان ما أضحت عاصمة بريطانيا بدل كولودونم(٤٩) .

وكانت البيوت فى لندن الرومانية من الآجر والمصيص أما فى البلدان الصغيرة فكانت من الخشب ، وكان الجو هو الذى يحدد شكلها ، فكان لها سقف هرمى يقيها المطر والثلج ، ونوافذ كثيرة لينفذ منها ما عسى أن يكون من أشعة الشمس ، « لأن الشمس » كما يقول استرابون « لم تكن ترى أكثر من ثلاث ساعات أو أربع حتى فى اليوم الصحو »(٥٠) . أما داخلها فكان على الطراز الرومانى :— أرضه من الفسيفساء ، وبه حمامات كبيرة ، وجدران قائمة عمودية وتدفئة مركزية .

(*) هفرفيلد Haverfield (٤٨) ، لكن أكثر من هذا قبولا أن اللفظ مشتق من كسترم Castrum اللاتينية ومعناها حصن ؛ أوكسترا Castra بمعنى معسكر . وقد خططت معظم المدن الرومانية — البريطانية على طراز رقعة الشطرنج كما كانت تخطط المعسكرات الرومانية .

« تزيد على ما كان منها فى البيوت الإيطالية) بأنابيب تحمل الهواء الساخن فى أرض البيت وجدرانه . وكان الفحم يستخرج من العروق القريبة من سطح الأرض ، ويستخدم فى تدفئة البيوت ، وفى الأغراض الصناعيه كصهر الرصاص . ويبدو أن مناجم بريطانيا القديمة كانت ملكا للدولة ، ولكنها كانت تؤجرها للأفراد يستغلونها[٥١] . وكان فى باث مصنع (فبريكا Fabrica لصنع الأسلحة الحديدية[٥٣] ، وأكبر الظن أن صناعات الخزف ، والآجر والقرميد قد ارتقت حتى كانت تصنع فى المصانع ، ولكن معظم الصناعات كانت فى البيوت ، والحوانيت الصغيرة ، والدور ذات الحدائق . وكان فى الجزيرة خمسة آلاف ميل من الطرق الرومانية ، وعدد لا يحصى من الطرق المائية تنقل عليها التجارة الداخلية النشيطة ، هذا فضلا عن تجارتها الخارجية المتواضعة التى كانت عكس تجارة بريطانيا فى هذه الأيام لأنها كانت تصدر المواد الأولية اللازمة للصناعة .

ترى إلى أى عمق نفذت الحضارة الرومانية فى حياة بريطانيا وروحها فى الأربعة القرون التى سيطرت فيها رومة على الجزيرة ؟ لقد صارت اللغة اللاتينية لغه السياسة ، والقانون ، والأدب ، والأقلية المتعلمة فى البلاد ، لكن اللسان الكلتى بقى سائداً فى الريف وبين عمال المدن ، ولا يزال يقاوم حتى الآن فى ويلز وفى جزيرة مان . ونشرت المدارس الرومانية القراءة والكتابة فى بريطانيا ، وعينت الصورة الرومانية لحروف الهجاء الإنجليزية ، وغمر اللغة الإنجليزية سيل من الكلمات اللاتينية وبنيت هياكل للآلهة الرومانية ، ولكن الرجل العادى ظل يمجد الأرباب والأعياد الكلتية ، وحتى المدن الكبرى نفسها لم تمد رومة فيها جذورا باقية ، وكل ما فى الأمر أن الأهلين خضعوا كارهين لحكم استمتعوا فى ظله بسلم مثمرة ورخاء لم تستمتع الجزيرة بمثله إلا أيام الانقلاب الصناعى .

الفصل السادس

البرابرة

كان ما قرره أغسطس وتيبيريوس من عدم السماح بفتح ألمانيا من بين الحادثات الهامة فى تاريخ أوربا . فلو أن رومة فتحت ألمانيا وصبغتها كما صبغت غالة بالصبغة الرومانية ، لكان لأوربا الواقعة فى غرب الروسيا كلها تقريباً نظام واحد ، ولربما قامت أوربا الوسطى فى هذه الحالة حاجزاً فى وجه تلك الجماعات الكبرى التى كان ضغطها على الألمان سبب غزوهم إيطاليا .

ونحن نسميهم الألمان ، وإن كانوا هم أنفسهم لم ينطقوا بهذا الإسم ، وليس ثمة من يعرف مصدره(*) ، ولقد كانوا فى الأيام القديمة خليطاً من قبائل مستقلة ضاربة فى ذلك الجزء من أوربا المحصور بين نهرى الرين والفستيولا Vistula ؛ وبين الدانوب وبحر الشمال والبحر البلطى . وتبدلت أحوالهم شيئاً فشيئاً فى القرنين الواقعين بين حكم أغسطس وحكم أورليوس فانتقلوا من حياة الهجرة للصيد والرعى إلى حياة الزراعة والقرى ، ولكنهم كانوا لايزالون على درجة من البداوة جعلتهم يستنفدون بسرعة خصب الأرض التى يفلحونها ، ثم يرحلون ليفتحوا بحد السيف أرضاً جديدة . ومن أجل هذا كانت الحرب طعام الألمانى وشرابه إذا جاز لنا أن نصدق قول تاستس :

« ليس شعار الألمانى هو أن يزرع الأرض وينتظر حتى يجنى المحصول فى موسمه ، بل إنك ليسهل عليك أن تقنعه بأن يهاجم عدوه ، ويتلقى فى جسمه الجراح الشريفة فى ميدان القتال . ويرى الألمانى أن كسبك بعرق الجبين ما تستطيع

(*) كان الرومان يستخدمون كلمة جرمانس Germanns الوصفية (المشتقة من Germen بمعنى النسل) ويعنون بها « أبناء نفس الأبوين » . ولعلهم حين أطلقوها على الألمان كانوا يفكرون فى نظام القبائل التيوتونية القائم على صلة القبائل .

أن تشتريه بدمك هو شعار العاجزين الخاملين وأنه لا يليق قط بالجندي »[٥٣]

ولقد تحدث المؤرخ الروماني عن صفات الألمان الحربية وعن حماسة النساء وهن يحرضن الرجال على القتال ، ويحاربن إلى جنبهم في كثير من الأحيان . وكان وهو يصفهم يتحسر على تدهور شعبه بفعل الترف والسلم ، ويغالي في هذا الوصف مغالاة الواعظ والمعلم الأخلاقي . ولقد كان الفرار من العدو يسربل من يرتكبه بعار لا يمحي مدى الحياة ، ويؤدي في كثير من الأحيان إلى الانتحار . وقد وصف استرابون الألمان بأنهم « أشد بأساً وأطول قامة من الغاليين »[٥٤] . وكأن سنكا قد قرأ تاستس فاستنتج من هذا نتائج منذرة بأسوأ النذر فقال : « إن الترف والثراء لا يزيدان هذه الأجسام القوية العنيفة ، وهذه التقوى التي لا تعنى قط باللذة ، إلا قليلا من التنظيم والحذق في الحركات العسكرية — وحسبي هذا . ولن تستطيعوا (أيها الرومان) أن تقفوا في وجههم إلا إذا عدتم إلى فضائل آبائكم »[٥٥] .

ويروي تاستس أن أولئك الأقوام كانوا في أيام السلم كسالى بلداء ، يقضي الرجال أوقاتهم (ولعل ذلك بعد الصيد أو موسم الحصاد) في ملء بطونهم باللحم وشرب أنهار من الجعة ، بينا تقوم النساء والأطفال بالأعمال المنزلية[٥٦]. وكان الألماني يشتري زوجته من أبيها بهدية من الماشية أو السلاح ، وكان له عليها وعلى أبنائهما حق الحياة أو الموت بشرط أن توافق على ذلك جمعية القبيلة . لكن النساء رغم هذا كانت لهن عندهم مكانة عالية ؛ وكثيراً ما كان يطلب إليهن أن يفصلن فيما يشجر بين رجال القبيلة من منازعات ، وكان من حقهن أن يطلقن أزواجهن ، كما كان من حق هؤلاء الأزواج أن يطلقوهن . وكان لبعض زعماء القبائل عدة أزواج ، ولكن الأسرة الألمانية العادية لم يكن فيها إلا زوجة واحدة ، ويؤكد لنا المؤرخون أنها كانت تراعي مستوى عالياً من الأخلاق الزوجية . « فالزنى قلما كان يسمع به » عندهم ؛ وإذا ارتكبته المرأة عوقبت بقص شعرها والحكم عليها بأن تسير عارية في الشوارع ، وأن تضرب بالسياط ، وهي تحاول

الفرار . وكان يسمح للزوجة أن تجهض نفسها إذا شاءت[٥٨] ، ولكنها كانت فى العادة امرأة ولودا . وكان يندر وجود رجال بلا أبناء ولهذا لم تكن عندهم وصايا ، وكان المفروض أن أملاك الأسرة يرثها الولد عن أبيه جيلا بعد جيل[٥٩] .

وكان السكان يتألفون من أربع طبقات : (١) طبقة المقيدين وبعضهم عبيد وكثرتهم من أقنان الأرض المرتبطين بها ، والمفروض عليهم أن يؤدوا التزاماتهم للمالك من غلتها ؛ (٢) والمحررين — وهم المستأجرون الذين لا يتمتعون بحقوق سياسة (٣) والأحرار — وهم الملاك والمحاربون ؛ (٤) والأشراف — وهم ملاك الأراضى الذين تتصل أنسابهم بالآلهة ، ولكنهم يقيمون سلطتهم على أساس أملاكهم الموروثة وحرسهم الخاص (Comites أى الرفاق ، ومنها اشتقت كلمة كونت) . وكانت الجمعية القبلية تتألف من الأشراف ، ورجال الحرس ، والأحرار ، يأتون إليها مسلحين ، ويختارون الزعيم أو الملك ، ويوافقون على ما يعرض عليهم من اقتراحات بضرب الحراب بعضها ببعض ، أو يرفضونها بزمجرة كثرة الحاضرين . وكان بعض أفراد الطبقتين الثانية والثالثة يشتغلون بالصناعات اليدوية والمعدنية التى برع فيها الألمان ؛ أما الطبقة الرابعة فكان منها النبلاء والفرسان ، وهى التى أنشأت نظام الفروسية فى ألمانيا الإقطاعية .

ولم يضف إلا قليل من البناء الثقافى فوق هذا النظام الاجتماعى الساذج . ولم يكد الدين وقتئذ ينتقل من عبادة الطبيعة إلى عبادة الأرباب المجسدة فى صورة الآدميين . ويسمى تاستس آلهتهم : المريخ Mars ، وعطارد Mercury ، وهرقل Herculies — والراجح أن الأسماء الحقيقية لهذه الآلهة هى تيو Tiu (تير Tyr) وودن Woden (أوودن Odin) ، ودونار Donar (تور) ؛ ولا تزال أربعة أيام من كل أسبوع تخلد ذكراها هى وفريا Freya إلاهة الحب ، على غير علم منا ، وكانت لهم إلاهة عذراء (هرثا Hertha) (الأم الأرض) ، التى حملت من أحد أرباب السماء ؛ كما أن كل حاجات الإنسان وكل ما يخطر بباله كانت تؤديه طائفة

مختلفة من الجنيات ، والعفاريت الصغار والكبار ، وجن البحار ، والمردة ، والأقزام . وكانت الضحايا البشرية تقرب إلى وودن ، وربما كانت الحيوانات الألذ طعما من الآدميين تقرب إلى غيره من الأرباب ، وكانت الصلوات تقام فى الخلاء فى الغابات والغياض ، لأن الألمان كانوا يرون أن من السخف حصر روح من أرواح الطبيعة فى مسكن تشيده الأيدى البشرية . ولم يكن عندهم طبقة دينية قوية شبيهة بالدرويد Driuds عند الغاليين أو البريطانيين ، ولكنهم كان لديهم كهنة وكاهنات ، يرأسون الاحتفالات الدينية ، ويجلسون للفصل فى القضايا الجنائية ، ويتنبئون بالمستقبل بدراسة مهبل الجياد البيض وحركاتها . وكان عندهم كما كان فى غالة شعراء يتغنون فى شعر فج بأقاصيص قبائلهم وتاريخها . وكان منهم أقلية تعرف القراءة والكتابة ، وكيفت الحروف الهجائية اليونانية فجعلت منها العلامات التى تطورت منها الحروف القوطية وهى الحروف الألمانية الحديثة . وكان الفن عندهم بدائيا ، ولكنهم أخرجوا تحفا جميلة من الذهب .

ولما أن سحبت رومة فيالقها من ألمانيا احتفظت بسيطرتها على نهر الرين من منبعه إلى مصبه ، وقسمت هذا الوادى الفخم ولايتين — ألمانيا العليا وألمانيا السفلى ، وكانت ثانيتهما تشمل هولندة وأرض الرين الممتدة جنوباً إلى كولونى . وكانت هذه المدينة الجميلة المعروفة عند الرومان باسم كولونيا أجرپننس Colonia Agrippinansis قد جعلت ولاية (٥٠ م) تكريما لأم نيرون التى ولدت فيها ؛ ولم يمض عليها أكثر من خمسين عاما حتى كانت أغنى المحلات القائمة على نهر الرين . أما ولاية ألمانيا الشمالية فكانت تمتد على نهر الرين نحو الجنوب مخترقة مجنتياكم Maguntiacum (ماينس Mayence) ، وأكوا أوريليا Aquae Aureliae (بادن — بادن Baden-Baden) وأرجنتراتم Argentoratum (استراسبورج Strasbourg) وأغسطا روركورم Ausgusta Rauricorum (أوغسط Augst) وتنتهى عند فندونسا VIndonissa (فندش Windisch) . وكان فى هذه المدن

جميعها تقريبا ما فى غيرها من الهياكل والباسلقات ، والملاهى ، والحمامات ، والتماثيل العامة . وكانت كثير من الفيالق التى ترسلها رومة لحراسة الرين تعيش خارج معسكراتها ، ويتزوج رجالها بفتيات ألمانيات ، ويعيشون مواطنين فى تلك البلاد بعد أن تنتهى مدة خدمتهم العسكرية . والراجح أن بلاد الرين لم تكن فى أيام الرومان أقل سكانا أو غنى منها فى أى وقت قبل القرن التاسع عشر .

ولقد سبق القول إن مهندسى رومة العسكريين قد أنشئوا بين نهرى الرين والدانوب طريقاً محصنا ، وأقاموا على جانبيه قلاعا تبعد كل منها عن الأخرى تسعة أميال ، كما أقاموا عليه سوراً يبلغ طوله ثلثمائة ميل . وأفاد هذا الطريق المحصن رومة مائة عام ، ولكنه لم يفدها شيئاً حين نقصت نسبة المواليد بين الرومان نقصاً كبيراً عما كانت عليه عند الألمان . وكان نهر الدانوب الذى يعده الأقدمون أطول أنهار العالم أضعف من نهر الرين حدا فاصلا بين الدولة الرومانية والقبائل الألمانية . وكان إلى جنوبه الولايات النصف الهمجية ريتيا ، ونوركم ، وپنونيا ، وهى الولايات التى تتكون منها البلاد التى كنا نعرفها فى شبابنا باسم دولتى النمسا والمجر والصرب . وقد أنشأ الرومان فى موضع أجزبرج Augsburg (أى بلدة أغسطس) الحديثة مستعمرة رومانية هى مستعمرة أغسطا فندلكورم Augusta Vindelicorum كانت هى المحطة الرئيسية على الطريق الممتد من إيطاليا فوق ممر برنر Brenner إلى نهر الدانوب . وشادوا على النهر نفسه مدينتين حصينتين عند ڤندوبونا Vindobona وهى مدينة ڤينا الحالية ، وعند أكونكم Aquincum على المرتفعات التى تشرف منها بوذا Buda على بست Pest . وقامت مدينة سرميوم Sirmium (متروڤيكا Mitrovica) فى پنونيا الجنوبية الشرقية على نهر الساف Save غرب موقع بلغراد الحديثة ، وصارت هذه المدينة فى أيام دقلديانوس إحدى عواصم الإمبراطورية الأربع . وقامت بفضل النشاط التجارى

لليونان ، والرومان ، والأهالى الوطنيين فى مقاطعة دلماشيا الواقعة جنوبى پنونيا ثغور البحر الأدرياوى وهى سالونا Salona (اسپلاتو Spalato الحديثة) وأپولونيا Appolonia (بالقرب من ڤالونا) ، وديرهكيوم Dyrrhachium (دورزو Durazzo الحديثة) . وكانت رومة الإمبراطورية تجند من هذه الولايات الواقعة جنوب الدانوب أقوى جنودها أجساما وأصلبهم عودا ، كما كانت تستمد منها فى القرن الثالث الأباطرة الحربيين الذين صدوا سيل البرابرة حوالى مائتى عام . وكان فى شرق پنونيا ولاية داشيا (رومانيا الحالية) ، وكانت عاصمتها سرمزجتوسا التى لم يعد لها الآن وجود . وكان فى جنوب هذه الولاية وشرقها ولاية مئيزيا (وتشمل أجزاء من يوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريا الحديثة) ، وكان فيها على الدانواب مدينتان كبيرتان هما سنجدنوم (بلغراد الحديثة) وترئزمس Troesmis (إجلتزا Iglitza) وثالثة بالقرب من نهر إسكر Isker وهى سرديكا Sardica (صوفيا الحالية) ، وثلاثة بلاد كبرى على البحر الأسود وهى إستروس Istrus ، وتومى Tomi (قسطنجة الحديثة) وأديسس Oddessus (وارنه Varna) . ولقد كافحت الحضارة اليونانية والجيوش الرومانية فى هذه المستقرات النكدة لكى تحافظ على كيانها ضد القوط ، والرومانيين ، والهون ، وغيرهم من القبائل المتبربرة التى أخذت تتكاثر وتتجول فى شمال النهر العظيم ، ولكن هذا الكفاح لم يجدهما نفعا .

وكان عجز رومة عن تمدين هذه الولايات الواقعة جنوب الدانوب هو الذى أدى إلى سقوطها . فلقد كان هذا الكفاح من أشق الواجبات على شعب يعانى آلام الشيخوخة ، وكانت حيوية الجنس السائد قد أخذت تضعف فى مهاد الراحة والعقم بينا كانت القبائل الضاربة فى الشمال تتكاثر وتقوى وتزداد جرأة وتهورا . فلما أن قدم تراچان المال للرومانيين ليجنحوا للسلم كان ذلك العمل منه بداية النهاية ، ولما أن جاء ماركس أورليوس بآلاف من الألمان وأسكنهم داخل

الإمبراطورية ، انهارت الحواجز التى كانت تفصل بينهم وبين الرومان ، واستقبل الجنود الألمان فى الجيش الرومانى بالترحاب ، وارتقوا إلى مناصب القيادة . وما لبثت الأسر الألمانية أن تضاعف عددها فى إيطاليا بينا كانت الأسر الإيطالية آخذة فى الانقراض . وهكذا انعكست الآية فى هذه الحركة ، فأخذ البرابرة « يبربرون » رومة بعد أن كانت رومة تصبغهم بصبغتها . لكن عجز رومة عن ضم الشمال لحظيرة التراث الرومانى واليونانى القديم لم يقلل من عظمة ضمها الغرب لهذا التراث أو من خطر شأنه . فنى هذا الغرب على الأقل برزت فنون السلم من بين عجاج الحرب ، وكان فى وسع الناس أن يستبدلوا بسيوفهم محاريث من غير أن تنحل قواهم فى نعيم المدن وأحيائها القذرة . ونبتت فيها بعـــد حضارة جديدة فى أرض أسبانيا وغالة القوية حين ضعف تيار البرابرة ، وأثمرت بذور قبور الطغيان ثمارها ، وعفا الدهر عن آثامها فى البلاد التى جاءت إليها الجحافل الغاشمة بقوانين رومة ونقلت إليها شعلة الحضارة اليونانية .

الباب الثالث والعشرون

بلاد اليونان الرومانية

الفصل الأول

أفلوطرخس

بذلت رومة جهدها لكي تكون كريمة فى معاملتها لبلاد اليونان ، ولم تخفق فى هذا الإخفاق كله ؛ فهى لم تضع حاميات من الجند فى ولاية آخية الجديدة ، وكان ما فرضته عليها من الخراج أقل مما كان ينتزعه جباتها من أهلها قبل مجىء الرومان إليها ؛ وتركت رومة دول المدن تحكم نفسها حسب دساتيرها وقوانينها القديمة ، وجعلت الكثير منها : كأثينة ، واسپارطة ، وپلاتية ، ودلفى وغيرها « مدناً حرة » ، تتمتع بحقوقها القديمة كلها عدا حقها فى أن تشن الحرب الخارجية أو حرب الطبقات .

لكن بلاد اليونان كانت تتحرق شوقاً إلى حريتها ، كما أن القواد الرومان ، والمرابين ، ورجال الأعمال الذين حذقوا أساليب شراء غلات البلاد بأبخس الأثمان وبيعها بأغلاها ، هؤلاء كلهم قد استنزفوا خيرات البلاد ؛ ومن أجل هذا انضمت إلى ثورة مثرداتس وعوقبت على انضمامها إليها أشد العقاب ، فحوصرت أثينة حصاراً أهلك فيها الحرث والنسل ، ونهبت كنوز هياكل دلفى ، وإليس ، وإيدورس .

وبعد جيل من ذلك الوقت تقاتل قيصر وبمپى ، ثم انطونيوس وبروتس ،

على أرض اليونان ، وجندوا أهلها فى جيوشهم ، واستولوا على محصولات البلاد وذهبها ، وجبوا فى عامين ضرائب عشرين عاماً ، وتركوا المدائن خاوية على عروشها . وانتعشت آسية اليونانية تحت حكم أغسطس ، ولكن بلاد اليونان نفسها ظلت فقيرة ، ولم يكن سبب فقرها هو الفتح الرومانى بل كان هو الاستبداد الذى خنق أرواح الأهلين فى اسپارطة ، والحرية التى انحطت حتى أصبحت فوضى فى أثينة ، وما جرّه على البلاد عقم الرجال وجدب التربة من وبال . ذلك أن أكثر أبنائها جرأة ومغامرة قد هجروها إلى الأراضى التى كانت أغنى منها وأحدث استقلالا . وأدى قيام دول جديدة فى مصر ، وقرطاجنة ، وروما ، وقيام الصناعة فى بلاد الشرق الهلنستى إلى ترك مواطن الروح اليونانية القديمة خاوية مهجورة . وكانت رومة تثقل اليونان بمديحها وتنهب روائع فنها : فقد أخذ منها اسكورس Scaurus ثلاثة آلاف تمثال ليزين بها ملهاه ، وأرسل كلجيولا زوج عشيقته لينقب فى بلاد اليونان عن التماثيل ، ونهب نيرون وحده نصف ما فى دلفى من روائع النحت ؛ ولم يبسم الحظ لأثينة مرة أخرى إلا حين تولى هدريان الملك .

وكانت إپيروس هى التى انصب عليها غضب رومة أول الأمر فى الحروب المقدونية ، وأباحها مجلس الشيوخ إلى الجند ينهبونها ويعيثون فيها فساداً ، وبيع من أهلها خمسة عشر ألفاً فى سوق الرقيق ؛ وبنى أغسطس عاصمة جديدة لإپيروس فى نيقوپوليس ليخلد ببنائها انتصاره فى أكتيوم القريبة منها . وما من شك فى أن الحضارة قد وجدت فيها ملجأ ومعتصما لأن « مدينة النصر » آوت إپكتتس ، واستمعت إلى تعاليمه . وكان حظ مقدونية خيراً من حظ جارتها الوفية ؛ فقد كانت هذه البلاد غنية بالمعادن والخشب ، وزادت حياتها التجارية نشاطا بفضل طريق إجناشيا Egnatia الذى كان يصلها هى وتراقية من أبلونيا ودير هكيوم إلى بيزنطية . وعلى هذا الطريق الرئيسى الذى لا يزال بعضه باقياً حتى الآن

كانت تقوم أهم مدن الولاية : إدسا ، وپلا ، وثسالونيكا . وكانت هذه المدينة الأخيرة التى نعرفها نحن باسم سلانيك والتى كان اليونان يعرفونها باسمها القديم « نصر تساليا » عاصمة الولاية ، ومركز مجالسها ، وإحدى الثغور التجارية الهامة بين بلاد البلقان وآسية . أما تراقية الواقعة فى شرقها فقد اختصت نفسها بالزراعة ، والرعى ، والتعدين ؛ ولكنها كانت تشتمل على مدن كبيرة أهمها سرديكا Serdica (صوفيا Sofia) ، وفلپوپوليس Philippopolis عاصمتها ، وأدريانوپل (أدرنه) ، وپرنثس Perinthus ، وبيزنطية (اسطنبول الحالية) . وهنا على القرن الذهبى ، كان التجار وصائدو السمك يجمعون ثروة طائلة بينا كان اليونان الذين يقطنون من ورائها فى الداخل يتقهقرون أمام البرابرة المعتدين . وكانت الحبوب الواردة من داخل البلاد تجىء إلى أرصفتها ، كما كانت جميع تجارة سكوذيا والبحر الأسود تؤدى المكوس وهى مارة بها ، ويكاد السمك لكثرته أن يقفز فى الشباك وهو يجتاز مضيق البسفور . ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى أدرك قنسطنطين قيمة هذا الموقع العظيم وعرف أنه مفتاح العالم اليونانى — الرومانى القديم .

وتخصصت تساليا الواقعة جنوب مقدونية فى إنتاج القمح وتربية الجياد الجميلة . وقد وصف ديوكريسستم[1] جزيرة عوبية العظيمة التى أطلق عليها هذا الاسم (كما أطلق اسم بؤوشيا على الجزيرة المسماة بهذا الاسم) لما فيها من الماشية الحسنة الشكل ، ووصفها بأنها تعود إلى البربرية فى القرن الثانى الميلادى . وقد تجمعت فى هذا الإقليم عدة عوامل كادت تمحو من الوجود سكانها الذين كانوا فى يوم من الأيام شعباً زراعيا مطرد النماء والرخاء . وأهم هذه العوامل هى ما لاقاه الفقراء من عنت لتركز الأرض الزراعية والثروة فى أيدى عدد قليل من الأسر ، وما لاقاه الأغنياء من عنت لثقل الضرائب والفروض الدينية المطردة الزيادة ، وقلة النسل لأنانية الرجال وحبهم الثراء أو لفقرهم المدقع . وكانت نتيجة

هذا كله أن تركت الأرض مراعى للماشية فى داخل أسوار خلقيس وإرتريا نفسهما . ولم تكن بؤوشيا قد فاقت مما حل بها من موت وما فرض عليها من الضرائب الباهظة أيام حروب سلا . ويقول استرابون « إن طيبة ليست إلا قرية صغيرة » ، قد انكمشت حتى لم تعد تشغل أكثر من الموضع الذى لم يكن قبل إلا قلعتها . على أن مائة عام من السلم قد أعادت بعض الرخاء إلى بلاتية ، واحتفظت قيرونية التى كسب فليپ سلا على سهولها إمبراطوريتين عظيمتين ما يكفى من الروعة لاستبقاء أشهر رجل من أبنائها فيها . ويقول عنها هذا الإبن — أفلوطرخس — إنها بلغت من الصغر حداً لا يجب أن تضغر عنه بتركه إياها . وإنا لنجد فى حياته الهادئة وتفكيره السار اللطيف ناحية مشرقة مبهجة من منظر نكد كئيب ، كما نجد فيه هو نفسه رجلا مهذباً من رجال الطبقة الوسطى مستمسكا بفضائل العهد القديم ، ينطوى قلبه على الإخلاص لبلده ، والوفاء لأصدقائه ، والحب لأبنائه .

وقصارى القول أنه ليس فى قصتنا كلها شخصية أظرف من شخصية أفلوطرخس القيرونيائى .

وكان مولده فى تلك البلدة حوالى عام ٤٦ م ووفاته فيها حوالى عام١٢٦ . وكان يطلب العلم فى أثينة حين كان نيرون يوالى انتصاراته فى بلاد اليونان . وما من شك فى أنه كان واسع الثراء لأنه رحل إلى مصر وآسية الصغرى ، وطاف مرتين بإيطاليا . وقد ألقى محاضرات باللغة اليونانية فى رومة ، ويبدو أنه خدم بلده فى بعض الشئون الدپلوماسية .وكان يحب العاصمة العظيمة ،وآداب أشرافها الجدد ،وحياتهم الرقيقة ،ويعجب بقانونها الصارم ،ويقول مع إنيوس إن رومة قامت على دعائم من الأخلاق الطيبة العالية . وبينا هو يفكر فى أمر هؤلاء النبلاء الأحياء والموتى خطر له أن يوازن بين أبطال رومة وأبطال اليونان . ولم يكن يقصد أن يكتب تاريخاً أو سيراً فحسب ، بل كان يعتزم فوق هذا أن يعلم

الناس الفضيلة والبطولة بضرب الأمثلة من التاريخ ؛ وحتى سيره المتماثلة Parallel Lives كانت فى ذهنه دروساً فى الأخلاق ، ولهذا تراه على الدوام معلماً لا يترك فرصة تمر دون أن يستخلص مغزى خلقيا من كل قصة ؛ وما من أحد قد قام بمثل هذا العمل أجمل مما قام به هو . وهو يحذرنا فى سيرة الإسكندر بقوله إنه يهتم بالأخلاق أكثر من اهتمامه بالتاريخ ، ويأمل أنه حين يجمع بين عظماء الرومان وعظماء اليونان ويوازن بينهم يستطيع أن يبعث فى نفوس قرائه دوافع للخلق الطيب وللبطولة . وهو يعترف اعترافاً صريحاً لا يسعنا معه إلا أن نعفو عن زلاته بأنه قد صلح حاله لطول صحبته لأولئك الرجال الممتازين[٣] .

وليس من حقنا أن نتوقع فى كتاباته دقة المؤرخ الحق ونزاهته ؛ فكتابه ملىء بالأغلاط فى أسماء الناس ، والأمكنة ، والتواريخ ؛ وتراه أحياناً (إذا جاز لنا أن نصدر حكما عليه) يخطئ فى فهم الحوادث ، بل إنه ليقصر فى واجبين كبيرين من واجبات كل كاتب سير — وهما أن يبين أن أى شىء فى أخلاق المترجم له وأعماله يرجع إلى الوراثة أو البيئة أو الظروف ، وأن يتتبع تطور أخلاقه خلال نموه ، وما يلقى عليه من التبعات وما يقع فيه من أزمات : بل إنا لنخرج من كتاب أفلوطرخس كما نخرج من كتاب هرقليطس بأن خلق الإنسان مقدر له . ومع هذا فما من إنسان قرأ كتاب « السير » ثم أحس بعد قراءته بما فيه من عيوب ، ذلك بأن هذه العيوب تختفى كلها فى روايته الواضحة ، وحوادثه المثيرة ، وقصصه الفاتنة الساحرة ، وتعليقاته الحكيمة ، وأسلوبه الجزل . وليس فى صفحاته البالغ عددها ألفاً وخمسمائة سطر واحد يحس القارئ أنه حشو لا ضرورة له ، بل إن كل جملة من جمله لها شأنها ومعناها . وقد شهد بفضل الكتاب مائة من عظماء الرجال — منهم قواد عسكريون ، ومنهم شعراء وفلاسفة ، فقالت عنه السيدة رولان Roland « إنه مَرْبَع النفوس العظيمة »[٤] . وكتب عنـــه منتانى يقول :

« إنى لا أستطيع الاستغناء عن أفلوطرخس فهو كتاب صلواتى »[٥] . وقد استمد منه شيكسپير كثيراً من قصصه ، وإن رأيه فى بروتس لمستمد عن طريق أفلوطرخس من أخلاق الأشراف الرومان الأقدمين . وكان نابليون يحمل كتاب « السير » أينما ذهب لا يكاد يفارقه أبداً . ولما قرأ هين Heine هذه التراجم لم يسعه إلا أن يقفز على ظهر جواد ويعدو به إلى فتح فرنسا . وقصارى القول أن بلاد اليونان لم تترك لنا كتاباً أثمن من هذا الكتاب .

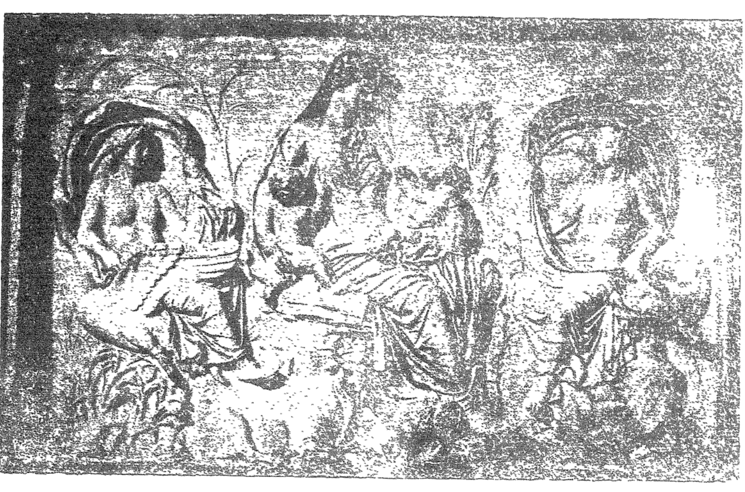
وبعد أن شاهد أفلوطرخس عالم البحر الأبيض المتوسط عاد إلى قيرونية ورزق فيها بثلاثة أبناء وبنت واحدة ، وألقى محاضرات ، وألف كتباً ، وسافر إلى أثينة من حين إلى حين ، ولكنه قضى معظم وقته فى مسقط رأسه وعاش فيه عيشة أهله البسيطة . وكان يرى أن من الواجبات المفروضة عليه لبلده أن يجمع بين المنصب الرسمى والحياة العلمية حياة الدرس والتحصيل ، واختاره مواطنوه مفتشاً للمبانى ، ثم كبير حكامها ثم بؤوتاركا Boeotarch أى عضواً فى المجلس الوطنى . وكان يرأس المواكب والاحتفالات البلدية ، وأصبح فى أوقات فراغه كاهناً فى مهبط الوحى فى دلفى ، وكان هذا المنصب قد عاد إلى الوجود . وكان يرى أنه ليس من الحكمة أن يرفض الدين القديم لما فيه من عقائد لا يقبلها العقل ، لأن أهم الأشياء فى رأيه ليست هى العقيدة ، بل هو التأييـد الذى تستمده منها أخلاق الإنسان الضعيفة ، وما توجده أعضاء الأسرة الأموات بين الأجيال المتعاقبة فى الأسرة والدولة من روابط تبعث فيهما المزيد من القوة ، وكان يعتقد أن نشوة العاطفة الدينية هى أعمق تجارب الحياة . ولقد كان بفضل تسامحه الدينى وتقواه مجتمعين أن يضع أسس دراسة الدين المقارن فى رسالته التى كتبها عن العبادات الرومانية والمصرية[٦] . ومما قاله فى هذه الرسالة أن الأرباب كلها مظاهر لكائن واحد أعلى ، لا يحده زمان ، يجل عن كل وصف ، بعيد عن الشئون الدنيوية والزمنية بُعداً يترك للأرواح الوسطى Daimones أن تخلق العالم

وتنظم شئونه . وكان يقول أيضاً بوجود أرواح خبيثة ، يسيطر عليها . برأسها شيطان هو مصدر الفوضى جميعها وروحها ، وأصل كل الخبائث وجميع ما لا ينطبق على العقل فى الطبيعة وفى بنى الإنسان .

ويرى أفلوطرخس أن من الخير أن يؤمن الإنسان بخلود الأشخاص — بجنة ينعم فيها الأخيار ، ومطهر ، وجحيم يعذب فيه الأشرار . وكان من أسباب سلواه أن الإقامة فى المطهر قد تطهر أى إنسان مهما خبث حتى نيرون نفسه ، وأنه قلما يوجد فى الناس من يعذبون عذاباً سرمدياً[٧] . وكان يندد بالخرافات ويرى أن أهوالها شر من الكفر نفسه ، ولكنه كان يقبل العرافة والنبوءات واستحضار الأرواح ويؤمن بأن الأحلام تنبئ عن المستقبل : ولم يكن يدعى أنه فيلسوف مبتدع ، بل كان يقول عن نفسه ، كما يقول أبوليوس وكثيرون غيره من فلاسفة ذلك العصر عن أنفسهم ، إنه يأخذ آراءه عن أفلاطون ويوفق بينها وبين زمانه . وكان يعيب على الأبيقوريين أنهم يستبدلون هول الفناء بالخوف من الجحيم ، وينتقد عيوب الرواقية ، ولكنه يرى ما يراه الرواقى من أن العمل بأوامر الله وإطاعة العقل شىء واحد[٨] .

وقد عنى المتأخرون بجمع محاضراته ومقالاته وأسموها **الآداب (Moralia)** لأن معظمها مواعظ بسيطة لطيفة تبين ما تنطوى عليه الحياة من حكمة : وهى تبحث فى كل شىء ، من الحث على استبقاء كبار السن فى المناصب العامة إلى البحث فى أيهما أسبق الكتكوت أو البيضة . وأفلوطرخس مغرم بمكتبته ، ولكنه يقر بأن الصحة الجيدة خير من الكتب القيمة :

« من الناس من يدفعهم الشره فيهرعون إلى الحانات يلتهمون ما فيها كأنهم يستعدون لحصار . . . إن أقل الأطعمة ثمناً هى على الدوام أكثرها نفعاً ... ولما عجز أردشير ممنون فى أثناء تقهقره السريع عن أن يجد ما يأكله غير خبز الشعير



(شكل — ٥) نقش مخص من مذبح "السلام"

والتين صاح قائلا : « ما ألذ هذا الذى لم يكن لى من قبل ! » . . . والنبيذ أفيد المشروبات على شريطة أن يكون فى مناسبة سعيدة وأن يمزج بالماء . . . وأكثر ما يجب أن يخشاه الإنسان هو سوء الهضم الناشئ من أكل اللحوم لأنها تخمد العزيمة فى أول الأمر ، وتترك بعدئذ رواسب ضارة بالجسم ، وخير ما يفعل الإنسان أن يعوّد جسمه عدم الحاجة إلى اللحم بالإضافة إلى غيره من الطعام ؛ ذلك بأن الأرض تخرج كميات موفورة من أشياء كثيرة لا تفيد فى التغذية فحسب ، بل تفيد كذلك راحة ومتعة أما وقد أصبحت العادة طبيعة ثانية غير طبيعية ، فإن تعاطى اللحوم يجب أن يكون . . . دعامة وسنداً لغذائنا ؛ وينبغى لنا أن نأكل غيرها من الأطعمة . . . التى هى أكثر منها موافقة للطبيعة ، وأقل منها كلالة على شعلة التفكير التى توقد من مواد سهلة خفيفة إذا صح هذه التعبير(٩) .

وهو يحذو حذو أفلاطون فى الدعوة إلى تكافؤ الفرص للرجال والنساء على السواء ، ويضرب أمثلة كثيرة للنساء المثقفات فى الأزمنة القديمة (ولقد كان هناك نساء مثقفات فى المحيط الذى يعيش فيه) ، ولكنه ينظر إلى زنى الرجل بنفس السهولة التى ينظر بها إليه الرجل الوثنى فيقول :

« إذا كان الرجل داعراً منهمكا فى ملذاته وزل مع عشيقة أو خادمة ، فلا يصح لزوجته أن تغتاظ لذلك أو تغضب ، بل يجب أن تعتقد أن احترامه لها هو الذى دفعه إلى أن يشرك فى فجوره امرأة غيرها »(١٠) .

لكننا مع هذا إذا فرغنا من قراءة هذه المقاولات الممتعة الساحرة أحسسنا بعد قراءتها ، بأنا كنا فى صحبة رجل رقيق القلب ، طيب فى جوهره ، كامل فى رجولته ، لا يسوءنا قط أن أفكاره عادية . وإن اعتداله لهو الترياق الشافى من الهوى الفكرى الذى يغلب على عصرنا الحاضر ، وإن عقله المتزن ، وفكاهته اللطيفة ، وإيضاحاته الجذابة لتدفعنا إلى القراءة دفعاً لا نقوى على مقاومته حتى فى المواضع المبتذلة منها . وإن الإنسان لترتاح نفسه حين يجد فيلسوفاً أوتى من

الحكمة ما يكفى لإسعاده ، وينصحنا بأن علينا أن نحمد الله على ما فى الحياة من بركات ونعم عادية ، وألا نجعل دوامها سبباً فى قلة ابتهاجنا بها :

« يجب علينا ألا ننسى تلك النعم وأسباب الراحة التى نشترك فيها مع الكثيرين من الناس ، بل يجب . . . أن نبتهج لأننا نعيش ، وأننا أصحاء الأجسام ، وأننا نبصر ضوء الشمس . . . أليس من واجب الرجل الصالح أن يعدّ كل يوم عيداً ؟ . . . ذلك بأن العالم هو أجل المعابد وأجدرها بسيدها . فى هذا المعبد يدخل الإنسان وقت مولده ، ولا تستقبله فيه تماثيل ساكنة من صنع الأيدى ، بل تستقبله مخلوقات أظهرها العقل الإلهى لحواسنا . . . من بينها الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والأنهار التى لا تنفك تصب الماء العذب صباً ، والأرض التى تخرج الطعام . . . وإذ كانت هذه الحياة هى أكمل إعداد لأسمى العبادات الدينية ، فإن علينا أن نكون على الدوام ممتلئين غبطة وبهجة » .

الفصل الثانى

صيف هندى

تتمثل فى أفلوطرخس حركتان قامتا فى عصره أولاهما العودة إلى الدين ، وثانيتهما انتهاء النهضة اليونانية فى الآداب والفلسفة . وعمت الحركة الأولى جميع بلاد اليونان ، أما الثانية فكانت مقصورة على أثينة والشرق اليونانى . وازدهرت فى هذه الأثناء ست مدن من مدائن البلوبونيز ، ولكنها لم تمد التفكير اليونانى إلا بالقليل . وهذه المدن هى مدينة باترى Patrae التى ظلت حية منتعشة خلال العصر الرومانى والعصور الوسطى إلى أيامنا هذه بفضل التجارة الغربية وصناعة النسيج النشيطة : ومنها أولمبيا التى أثرت من أموال السياح الوافدين إليها لزيارة تمثال زيوس الذى صنعه فدياس أو لمشاهدة الألعاب الأولمبية . ومن أكثر حوادث التاريخ اليونانية طرافة أن هذه المباريات التى كانت تقام مرة كل أربع سنين ، قد ظلت تقام من عام ٧٧٦ ق . م حتى عام ٣٩٤ م حين منعها ثيودوسيوس Theodosius . كذلك ظل الفلاسفة والمؤرخون يفدون إليها كما كانوا يفدون فى أيام پروذكس وهيرودوت ليخطبوا فى الجماهير المحتشدة لمشاهدة حفلات الألعاب . ويصف ديوكريسستم المؤلفين وهم يقرءون « مؤلفاتهم السخيفة » للمستمعين العابرين والشعراء وهم ينشدون أشعارهم ، والخطباء يملئون الهواء بصخبهم و « السوفسطائيين الكثيرى العدد كأنهم طواويس تزهو بنفسها » ، وقد جاءوا لينفخوا ريحهم على الجماهير (١٢) . وقد برهن ديو كريسستم بقوله هذا على أنه ليس أكثر صمتاً من سائر القادمين . ويصور إپكتتس النظارة وقد غصت بهم المواقف غير المظللة وهم يتصببون عرقا وتلفحهم الشمس أو يغرقهم المطر ، ولكنهم لا يعبئون بهذا ولا ذاك فى غمرة من الضجيج والعجيج التى كان ينتهى بها كل دور فى اللعب

أو شوط فى السباق[١٣]. وظلت الألعاب القديمة النيمية Nemean ، والبرزخية ، والبيثية Pythian ، والأثينية الجامعة تقام باستمرار ، وأضيفت إليها ألعاب جديدة كالألعاب الهلينية الجامعة التى أقامها هدريان ، وكان الكثير منها يشتمل على مباريات فى الشعر أو الخطابة أو الموسيقى . فها هى ذى شخصية من شخصيات لوشيان تسأل : « ألا نستطيع أن نسمع الموسيقى اليونانية القديمة فى الاحتفالات العظيمة ؟ »[١٤] وأدخلت الجالية الرومانية التى استوطنت كورنثة قتال المجالدين فى هذه الألعاب ، وما لبث هذا القتال أن انتشر من كورنثة إلى غيرها من المدن حتى تدنس ملهى ديونيشس نفسه بهذه المذابح . واحتج كثيرون من اليونان — ديوكريسستم ، ولوشيان ، وأفلوطرخس — على هذا التدنيس ، وتقدم ، دمناكس Demonax ، الفيلسوف الكلبى إلى الأثينيين يرجوهم ألا يسمحوا بهذه البدعة قبل أن يهدموا مذابح إلهة الرحمة فى أثينة[١٥] ، ولكن الألعاب الرومانية ظلت تقام فى بلاد اليونان حتى انتشر الدين المسيحى وكانت له السيادة فى تلك البلاد .

وكانت اسپارطة وأرجوس لا تزالان يسرى فيهما دم الحياة إلى حد ما ، وأثرت إپدورس من مال زوارها مرضى الأجسام والنفوس الوافدين إلى ضريح اسكليبيوس . ولم يكد يمضى على كورنثة ، بعد أن أعاد قيصر بناءها ، نصف قرن من الزمان حتى أضحت لحسن موقعها على البرزخ المسمى باسمها أغنى المدن فى بلاد اليونان . وكان يسكنها خليط من الرومان ، واليونان ، والسوريين ، واليهود ، والمصريين انتزع معظمهم من بلادهم ومن أخلاقهم الأولى ، وعرفوا بنزعتهم التجارية والأبيقورية ، وبفسادهم الخلقى . وكان هيكل أفرديتى بنديوس القديم سوقاً ذات تجارة رائجة ومركزاً للدعارة الكورنثية . ويصف أپوليوس Apuleius حفلة راقصة فخمة شهدها فى كورنثة مثلث فيها محاكمة پاريس و « ظهرت فيها ڤينوس عارية الجسم إلا من شعار رقيق يغطى خصرها النحيل الجميل ، وحتى هذا الشعار كانت الريح تعبث به فتدفعه تارة إلى اليمين وتارة إلى

الشمال »(١٦) . وهكذا لم تغير كورنثة أساليبها منـــذ أيام أسپازيا .

فإذا انتقل الإنسان إلى أنكا عن طريق مجارا بدا الريف فى فقر مدقع اجتمعت فيه عوامل التعرية ، وتقطيع الغابات ، واستنزاف الثروة المعدنية ، إلى الحروب ، والهجرة ، والضرائب الفادحة وقلة النسل ، فأحالته فى عصر السلم الرومانية صحراء مجدبة . ولم يكن فى أنكا كلها إلا اثنتان من المدن ذوات الرخاء : إليسيز التى كانت طقوسها الدينية الخفية تجتذب إليها الجماهير الغفيرة فى كل عام ، وأثينة المركز التعليمى والثقافى للعالم القديم . وكانت معاهدها ونظمها القديمة — المجلس ، والجمعية ، والأركونية — لا تزال تقوم بعملها ، كما أن رومة قد أعادت إلى مجلس الأريوبجس سلطته الأولى فجعلته مصدر الأحكام القضائية وحصن حقوق الملكية الحصين . وكان الحكام أمثال أنتيخوس الرابع ، وهيرود الأكبر ، وأغسطس ، وهدريان ينافسون أصحاب الثراء أمثال هيرودس أتكس Herodes Atticus فى هباتهم للمدينة ، فأعاد هيرودس بناء الملعب العظيم بالرخام حتى لم يكد يُبقى منه شيئاً فى بنتلكس ، وأقام قاعة للموسيقى فى أسفل الأكروپوليس . وتبرع هدريان بالمال اللازم لإتمام بناء الأولمپيوم Olympieum ، وشاد لزيوس ، وكان وقتئذ على حافة القبر(*) — بيتاً خليقاً به فى عنفوان شبابه ..

وفى هذه الأثناء كانت شهرة أثينة الفذة فى الآداب ، والفلسفة ، والتعليم ، وعلم وجود مدن أخرى تنافسها فى هذه الميادين ، قد جذبت إلى مدارسها عدداً جماً من الشبان الأغنياء والطلاب الفقراء المحتاجين ، وكانت جامعتها تضم عشرة كراسى للأساتذة ينفق عليها من مال المدينة أو الإمبراطور ، فضلاً عن جيش جرار من المحاضرين والمدرسين الخصوصيين . وكانت تلقى فيها دروس ومحاضرات فى الأدب ، وفقه اللغة ، والبيان ، والفلسفة ، والرياضيات ، والفلك ، والطب ، والقانون . وكانت تلقى عادة فى مدارس التدريب الرياضى أو دور التمثيل ، وأحياناً

(*) يقصد أن عبادته توشك أن تزول وأن تحل محلها المسيحية . (المترجم)

فى المعابد أو البيوت؛ ولم يكن يراعى فى منهاج هذه المواد بأجمعها ، عدا الخطابة والقانون ، أن يؤهل الطالب لكسب عيشه ، بل كان يهدف بدلا من هذا إلى شحذ ذهنه ، وتقوية إدراكه ، وإمداده بقانون أخلاق . وقد أثمرت هذه الدراسات ثمارها فأخرجت عدداً كبيراً من ذوى العقول النابهة ، ولكنها أخرجت أيضاً آلافاً من الجدليين الذين لا هم لهم إلا التلاعب بالألفاظ ، والذين حولوا الفلسفة والدين إلى نظريات جدلية لا يعرف لها أول ولا آخر .

وإذ كانت موارد أثينة تعتمد إلى حد كبير على طلابها ، فقد كانت صابرة على نزقهم وطيشهم . كان الطلاب الجدد يوجه إليهم مزاح عملى يسبب الأذى لغيرهم من المواطنين فى بعض الأحيان ؛ وكان طلبة الأساتذة المختلفين يتشيعون لأساتذتهم ، ويهاجم بعضهم بعضاً ، وينشأ من ذلك شغب كثير شبيه بالشغب الذى يحدثه شباب هذه البلاد وتستخدم فيه العصى . وكان بعض الطلبة يحسبون أن فى مقدورهم أن يتعلموا من العشيقات والمقامرين أكثر مما يتعلمون من جميع أساتذة الفلسفة ، ويشير ألسفرون Alciphron إلى أن أولئك النسوة كن ينظرن إلى الأساتذة نظرتهن إلى منافسين لهن بلداء عاجزين(١٧) . غير أنه كثيراً ما كانت تقوم بين الطلاب والأساتذة روابط قوية من الصداقة الطيبة الوفية ، فكان الكثيرون من الأساتذة يدعون الطلاب إلى الطعام ، ويرشدونهم إلى ما يقرءون ، ويعودونهم إذا مرضوا ، ويحرصون على أن يبقى آباؤهم مخدوعين فى مبلغ تقدمهم . وكان معظم المحاضرين يعيشون من الأجور التى يؤديها لهم طلبتهم ، وكان عدد قليل من الأساتذة يتقاضون مرتبات من الدولة ؛ فكان كل واحد من رؤساء المدارس الفلسفية الأربع يتقاضى عشرة آلاف درخمة (٦٠٠٠ ريال أمريكى) فى السنة من الخزانة الإمبراطورية .

ومن هذه الدوافع نشأ عصر « السوفسطائية الثانية » — الذى عاد فيه إلى الظهور الخطيب — الفيلسوف الذى يتنقل من مدينة إلى مدينة كلما دعاه داعى

الكسب ، يلقى الخطب ، ويعلم التلاميذ ، ويترافع فى المحاكم عن المتقاضين ، ويعيش فى بيوت الأغنياء مستشاراً روحيا ، ويكون أحياناً مبعوثاً مكرما لدولة — مدينته . وازدهرت هذه الحركة فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، وبخاصة فى العالم اليونانى ، فى خلال الثلاثة القرون الأولى من التاريخ الميلادى ، وقد وصفهم ديو بقوله إن الفلاسفة لم يكونوا وقتئذ يقلون عدداً عن الأساكفة(١٧) . ولم يكن هؤلاء السوفسطائيين الجدد ، كما لم يكن لإخوانهم الأقدمين ، مبادئ مشتركة بينهم ، وكانوا يصوغون تعاليمهم فى عبارات بليغة ، ويجتذبون إليهم عدداً كبيراً من المستمعين ، ويصلون فى كثير من الأحيان إلى مراكز عالية فى المجتمع . وينالون رضاء الأباطرة ، ويجمعون ثروات طائلة . وكانوا يختلفون عن السوفسطائيين الأقدمين فى أنهم قلما كانوا يتعرضون لشئون الدين أو الأخلاق ؛ بل كان همهم منصرفاً إلى الشكل والأسلوب ، والفن الخطابى والحذق فيه ، أكثر من انصرافه إلى المسائل الكبرى التى زعزعت عقائد العالم ومبادئه الأخلاقية . والحق أن السوفسطائيين الجدد كانوا من الأنصار المتحمسين للدين القديم ، ولقد احتفظ لنا فيلوستراتس Philostratus بتراجم زعماء السوفسطائيين فى ذلك العصر ، وحسبنا أن نضرب مثلا واحداً منهم . كان أدريان Adrian الصورى يدرس البيان فى أثينة وارتقى حتى صار فيها أستاذ البيان للدولة . وكان يبدأ خطبته الافتتاحية بتلك العبارة الدالة على الفخر والكبرياء : « ها قد عادت الآداب مرة أخرى من فينيقة » . وكان يأتى إلى محاضراته راكباً عربة تجرها جياد ذات عدة من الفضة ، وعليه ثياب غالية تتلألأ فيها الجواهر . ولما زار ماركس أورليوس مدينة أثينة أحب أن يمتحن أدريان فطلب إليه أن يرتجل خطبة فى موضوع صعب . واجتاز أدريان هذا الاختبار بنجاح جعل هدريان يخلع عليه كثيراً من أسباب التكريم ، من ذهب ، وفضة ، وبيوت وعبيد . ولما ارتقى أستاذا للبيان فى رومة ، كانت محاضراته جذابة مغرية إلى حد جعل أعضاء مجلس الشيوخ يؤجلون جلساته وجمهور السكان

يتركون دور التمثيل ، ويهرعون إلى سماعها مع أنه كان يلقيها باللغة اليونانية[١٩] . وتلك خطة تكاد تؤذن بموت الفلسفة ، فقد طغى عليها سيل البيان ، وغادرها التفكير حين تعلمت الكلام .

وكان الطرف الآخر جماعة الكلبيين . ولقد وصفناهم فى غير هذا المكان — وصفنا ثيابهم الممزقة ، وشعرهم الأشعث ، ولحيتهم الكثة ، وجعبتهم وعكازهم ، ونزولهم بالحياة إلى أبسط الأمور ، وإلى الفحش فى بعض الأحيان . وكانوا يعيشون معيشة الرهبان المتسولين ، فى ظل نظام كهنوتى فيه مبتدئون ورؤساء أعلون[٢٠] ، ولا يتزوجون ولا يعملون ، ويسخرون من تقاليد الحضارة ومظاهرها المصطنعة ، ويشهرون بالحكومات كلها على اختلاف أنواعها ، ويرون أنها ، بأجمعها عديمة النفع ، لا تعدو أن تكون تلصصاً سافراً ، ويستهزئون بالنبوءات ، و « الطقوس الخفية » والأرباب . وكان الناس كلهم يهجونهم ، وخاصة لوشيان ، فقد صب عليهم أقذع هجاء ، ولكن لوشيان نفسه كان يعجب بدموناكس Demonax ، الفيلسوف الكلبى المثقف الذى خرج عن كل ثروته ليعيش فى فقر فلسفى ، والذى وهب حياته الطويلة التى دامت قرناً كاملا (٥٠ — ١٥٠ م) لمساعدة غيره من الناس ، وإزلة الخلاف بين المتباغضين والمدن المتعادية ، حتى لقد عظمته أثينة رغم أنها كانت تسخر من كل شىء . ولما اتهم أمام محكمة أثينة بأنه يرفض تقريب القرابين للآلهة ، برأته المحكمة حين قال إن الآلهة لا حاجة لها بالقرابين ، وإن الدين لينحصر فى الحنو على جميع الخلق ، وكان هذا هو كل ما دافع به عن نفسه .

ولما أن تورطت الجمعية الأثينية فى نزاع حزبى كان ظهوره فيها كافيا لفض النزاع ، ولم يكن منه إلا أن غادرها دون أن ينطق بكلمة واحدة . وكان من عادته فى شيخوخته أن يدخل أى بيت من غير دعوة ، ويُطعم فيه وينام . وكان كل بيت فى أثينة يسعى لأن ينال هذا الشرف[٢١] . ويتحدث لوشيان بعطف

أقل من هذا العطف على پرجرينس Peregrinns الذى جرب المسيحية ثم خرج عليها وانضم إلى جماعة الكلبيين ، وندد برومة ، وحرض بلاد اليونان جميعها على الثورة ، وأدهش المجتمعين فى أولمبيا بأن جمع محرقته بنفسه ، وأوقد فيها النار ، وقفز إليها ، واحترق فى لهيبها (١٦٥م[٢٢]) . وبهذا الاحتقار للثراء وللحياة نفسها كان الكلبيون يمهـــدون السبيل لرهبان الكنيسة المسيحية .

ولما أنشأ ڤسبازيان ، وهدريان ، وماركس أورليوس كراسى للفلسفة فى أثينة ، أغفلوا الكلبيين والمتشككة ، ولم يعترفوا إلا بمدارس الفكر الأربع : الأكاديمية الأفلاطونية ، واللوقيون الأرسطوطبلية ، والرواقية ، والأبيقورية . وكانت الأكاديمية قد وسعت إيمان أفلاطون وافتخاره بالعقل الإنسانى حتى استحال إلى الشك العام الذى قال به كرنيديز Carneades ، فلما أن مات هذا الفيلسوف المتشكك عادت هذه المدرسة فالت إلى النزعة الأصلية ، ورجع أنتيخوس العسقلانى الذى كان يعلم شيشرون فى المجمع العلمى (٧٩ ق . م) إلى آراء أفلاطون فى العقل ، والخلود ، والله . وكانت اللوقيون وقتئذ قد قصرت بحوثها على العلوم الطبيعية جرياً على سنة ثيوفراسطس ، أو على كتابة الشروح والتعليقات فى ورع وخشوع على مؤلفات أرسطو . أما مدرسة أبيقور فكانت فى هذا العصر الدينى سائرة فى طريق الاضمحلال ، وقلما كان أحد من الناس يجرؤ على الجهر بعقائدها دون أن يشفع ذلك الجهر بتحفظات دبلوماسية . وكانت ألفاظ أبيقورى ، وكافر ، ومسيحى فى معظم بلاد آسية كلها ألفاظاً مترادفة ، تعبر عن الهلع والدنس[٢٣] .

وقد كانت الفلسفة الرواقية الغلبة على سائر الفلسفات من قبل ذلك الوقت بزمن طويل ، وكان ما اتصفت به صورها الأولى من صرامة وكمال قد خففت حدته على يدى پانيتيوس وپوسيدونيوس : وكلاهما من مواطنى رودس . فأما پانيتيوس Panaetius فإنه عاد إلى أثينة بعد موت سپيو (١٢٩ق . م) وأصبح

وقتئذ رئيس الاستوا Stoa ، وعرّف الله بأنه روح مادية أو نَفَس مادى (pneuma) ، يسرى فى الأشياء جميعها ، ويظهر فى النبات فى صورة قوة النماء ، وفى الحيوان على هيئة النفس psyche ، وفى الإنسان على هيئة العقل logos . وقد تطور هذا المذهب الغامض مذهب وحدة الله والكائنات إلى فلسفة أقرب إلى الفلسفة الدينية على أيدى خلفائه ، واقتربت نظرية التأديب الأخلاقى الرواقية من الزهد الكلبى حتى أضحت الكلبية فى القرن الثانى الميلادى وليس بينها وبين الرواقية فارق إلا فى ردائها المهلهل على حد قول أحد الكتاب . ونرى الحركتين كلتيهما تتقدمان نحو المسيحية على أيدى إپكتتس وماركس أورليوس .

الفصل الثالث

إبكتتس

وُلد إبكتتس فى هيرابوليس Hierapolis من أعمال فريجيا عام ٥٠م ، وكانت أمه جارية فكان هو لهذا السبب عبداً . ولم تتح له فرصة للتعلم لأنه صار يتنقل من سيد إلى سيد ، ومن مدينة إلى مدينة ، حتى وجد نفسه مملوكا لإيفروديتس Epaphroditus وهو معتوق ذو سلطة فى بلاط نيرون . وكان ضعيف الجسم أعرج ؛ ولعل سبب ضعفه وعرجه هو وحشية أحد أسياده ، ولكنه عاش السبعين عاما التى يعيشها الرجل العادى . وقد سمح له إيفرديتس أن يستمع إلى محاضرات موسنيوس روفس ، ثم حرره فيما بعد . وما من شك فى إن إبكتتس قد اشتغل معلماً فى رومة ، لأنه كان بين من فروا منها حين نفى دومتيان الفلاسفة . ثم استقر فى نقوبوليس واجتذب إلى محاضراته فيها طلاباً من جميع الأنحاء منهم أريان النيقوميدى الذى أصبح فيما بعد حاكم كپدوكيا . وقد دوّن أريان عبارات إبكتتس ، وأكبر الظن أنه دوّنها بطريقة الاختزال ثم نشرها باسم "Diatribai" أى عبارات « ممسوحة » أو نسخ — وهى التى تذكر الآن بين قوائم أحسن الكتب فى العالم بعنوان أحاديث Discourses(*) وليس هذا الكتاب رسالة ثقيلة مملة بل هى حديث بسيط جيد ، وفكاهة حلوة ، تكشف فى وضوح عن خُلق متواضع حنون ، ولكنه خلق قوى صارم . وكان إبكتتس يستخدم سخريته اللاذعة للاستهزاء بنفسه وبغيره على السواء ، ويسخر فى مرح من أسلوبه الجاف الخالى من التنميق . ولم يشك قط حين سمع دمناكس الأعزب العجوز ينصح الناس بالزواج ، وأراد أن يسخر منه فتقدم

(*) وأصدر أريان فيما بعد كتابا آخر باسم Encheiridion أى « الموجز » لإبكتتس .

إليه يخطب ابنته . وقد برّر عدم زواجه بحجة أن فى تعليم الفلسفة خدمة لا تقل عظمة عن ولادة « طفلين أو ثلاثة أطفال فطس الأنوف » . واتخذ لنفسه فى آخر أيامه زوجة تساعده على العناية بطفل أنجاه من الموت بسبب تعرضه لتقلبات الجو . وذاع صيته فى جميع أنحاء الإمبراطورية فى تلك الأيام ، وكان هدريان يعدّه من بين أصدقائه .

وكان إيكتتس شبيها بسقراط فى هذا وفى نواح أخرى كثيرة ، ولكنه لم يعن بالطبيعة أو بما وراء الطبيعة عناية تحمله على إنشاء نظام فكرى ، بل كان موضوعه الأوحد الذى يشغف به ويوجه إليه كل عنايته هو الحياة الصالحة . ومن أقواله فى هذا المعنى : « ماذا يهمنى من أن تكون الأشياء الموجودة على ظهر الأرض مكونة كلها من ذرات . . . أو من النار والتراب ؟ أليس يكفينى أن أعرف حق المعرفة ما هو الطيب وما هو الخبيث ؟ »(٢٥) . وليست الفلسفة فى رأيه هى قراءة ما فى الكتب من الحكمة ، بل هى تدريب الإنسان نفسه على اتباع الحكمة . وجوهر المسألة أن يشكل الإنسان حياته وسلوكه بحيث لا تتأثر سعادته بالظروف الخارجية إلا أقل التأثر . وهذا لا يتطلب منه أن يكون موقفه من الحياة موقف النساك ، بل إن « الأبيقوريين ، وأسافل الناس » ملومون لأنهم يحولون بين الناس وبين أداء الخدمات العامة ؛ والرجل الصالح يقوم بنصيبه فى الشئون المدنية ، ولكنه يرضى ، وهو هادئ مطمئن ، بجميع صروف الزمان : من فقر ، وحرمان ، وإذلال ، وألم ، ورق ، وسجن ، وموت . ويعرف كيف « يصبر ويتبذ » .

« لا تقل عن شىء ما » « إننى فقدته » بل قل فقط « إننى رددته » : هل مات لك طفل ؟ لقد رُدّ . هل ماتت لك زوجة ؟ لقد أعيدت . « لقد اغتصبت منى مزرعتى » . حسن جداً ، هذه أيضاً قد ردت . وما دام الله وهبك إياها فاعتن بها على أنها ليست لك . . . « أسفى على أننى أعرج ! » أيها العبد !

أتؤنّب الكون لأنك فقدت ساقاً حقيرة ؟ ألا يليق بك أن تنزل عنها هبة خالصة للكون كله ؟ . . . وإذا أرغمت على الخروج من بلدى منفيا ، فهل فى مقدور أحد من الناس أن يمنعنى أن أخرج مبتسما هادئا ؟ . . . « سألقيك فى السجن » . إنك لن تسجن إلا جسمى ، وسأموت حتما ، فهـل يجب إذن أن أموت شاكيا ؟ . . . تلك هى الدروس التى يجب أن تبدئها الفلسفة وتعيدها ، وتدوّنها كل يوم ، وتمارسها . . . ليست منصة الخطابة وليس السجن إلا مكانين ، أحدهما عال والآخر منخفض ، ولكن هدفك الأخلاقى يجب أن يكون واحداً فى كلتا الحالين[٢٧] .

« وفى مقدور العبد أن يكون حر الروح كابكتيتس ، وفى وسع السجين أن يكون حراً كسقراط ، وقـد يكون الإمبراطور عبداً كنيرون[٢٨] ؛ وليس الموت نفسه إلا حادثاً عارضاً فى حياة الرجل الصالح ، فى وسعه أن يستعجله إذا تبين أن الشر يرجح كثيراً على الخير[٢٩] . وخليق به على أية حال أن يستقبله فى هدوء ، وأن يرى فيه جزءاً من حكمة الطبيعة المكنونة .

« لو أن سنابل الحب كان لها إحساس ، فهل كانت ترجو ألا تحصد ؟ ... إنى أحب أن تعلم أنك لو عشت أبد الدهر لكان عيشك هذا نقمة . . . إن السفينة تغرق ، فاذا أفعل إذن ؟ مهما استطعت أن أفعل . . . فسأغرق دون أن أخشى شيئا أو أن أحجم أو أجدف فى حق الله ، بل أعتقد أن من يولد لا بد أن يهلك . ذلك أنى جزء من الكل كما أن الساعة جزء من اليوم . علىّ أن أجيء كما تجيء الساعة ، وأن أنقضى كما تنقضى[٣٠] . . . يجب ألا تعد نفسك أكثر من خيط واحد بين جميع الخيوط التى تتكون منها الثوب[٣١]... لا تسع لأن يكون ما يحـدث لك يحدث كما تحب ، بل أحب أن يحدث ما حدث كما حدث ، فإن فعلت وجدت الهدوء والطمأنينة »[٣٢]

وكثيراً ما يتحدث إبكتتس عن الطبيعة بوصفها قوة غير ذات شخصية ،

ولكنه فى كثير من الأحيان أيضاً يجعــل لفكرته عن الطبيعة شخصية ، وذكاء ، وعاطفة حب . وترى الجو الدينى الذى كان يسود عصره يغمر فلسفته ويحيلها تقوى مستسلمة شبيهة بتقوى الإمبراطور الذى قرأ فلسفته وردد صدى أفكاره بعد زمن قليل . فهو يتحدث حديثاً بليغاً رقيقاً عن النظام الفخم الذى يسود الزمان والمكان ، وعما فى الطبيعة من خطط موضوعة ، ولكنه ينتقل من هذا ليقول إن « الله قد خلق بعض الحيوانات لكى يُؤكل ، وبعضها الآخر لكى يعمل فى المزارع ، وبعضها لكى يخرج الجبن »[٣٣] ، وهو يعتقد أن العقل البشرى نفسه أداة عجيبة لا يستطيع أن يوجدها إلا إله خالق ؛ وإننا وقد وجدت لنا عقول لا بد أن نكون فى الواقع أجزاء من العقل العالمى . ولو أننا استطعنا أن نرجع بأنسابنا إلى الإنسان الأول لوجدنا أنه من أبناء الله ؛ فالله إذن أبونا جميعاً بالمعنى الحرفى للفظ الأبوة ، والناس كلهم إخوة[٣٤] .

« لم يحجم من راقب تصريف شئون العالم وفهمها وعرف أن أعظم المجتمعات وأوسعها هو نظام (سستما Systema أى الوقوف الإجماعى) الخلق والله ، وأن الله هو الذى انبعثت منه الأصول التى نشأت منها جميع الأشياء وخاصة الكائنات العاقلة ، لم يحجم عن أن يسمى نفسه مواطناً عالمياً . . . أو بعبارة أصح . ابن الله ؟ وإذا استطاع إنسان أن يؤمن بهذا المبدإ بقلبه وروحه . . . فأكبر ظنى أنه لن تخالجه قط فكرة دنيئة أو غير شريفة . . . فلا تنس إذن وأنت تأكل ، من أنت الذى يأكل ، ومن هو الذى تغذية ؛ وإذا ضاجعت النساء فاذكر من أنت الذى تفعل هذا . . . إنك تحمل الله معك . . . أنت أيها التعس المسكين ، وإن كنت لا تعرف ! »[٣٥]

ويحث إيكتتس طلابه فى فقرة خليقة بأن يكتبها القديس بولس أن يسلموا إرادتهم لله فى ثقة واطمئنان ، وألا يقتصروا على هذا بل يكونوا فضلا عن ذلك رسلا لله بين بنى الإنسان فيقول :

يقول الله : « اذهبوا وكونوا شهداء لى على الناس »[٣٦] . . . وفكروا فى المعنى الذى ينطوى عليه قولكم : « لقد بعثنى الله إلى العالم لأكون جند من جنوده وشاهداً من شهوده ، ولأخبر الناس أن أحزانهم ومخاوفهم عبث وبطلان ، وأن الشر لا يمكن أن يصيب الرجل الطيب ، حيا كان أو ميتاً . والله يبعثنى يوما هنا ويوما هناك ، ويؤدبنى بالفقر وبالسجن لكى أكون شاهداً حقاً له بين الناس . وإذا ما قمت بهذه الرسالة ، فهل يعنينى أى مكان أكون فيه ، أو مَن يكون رفاقى ، أو ماذا يقال عنى أجل ، ألا تكون فطرتى كلها منجذبة نحو الله ، ونحو شرائعه ووصاياه[٣٧]

أما هو نفسه فقد كان غموض الأشياء ولألاؤها يملآنه رهبة وشكراً . وهو يترنم للخالق بتسبيحة وثنية تعد من أورع الفقرات فى تاريخ الأديان :

« أية لغة نرقى إلى الثناء على جميع أعمال العناية الإلهية ؟ . . . أفما كان خليقاً بنا ، لو كانت لنا عقول ، أن نصرف وقتنا كله فى التغنى بمجد الإله والتسبيح بحمده ، والتحدث بنعمه ؟ أليس من واجبنا ونحن نحفر الأرض ونفلحها ، ونأكل من ثمارها ، أن تلهج ألسنتنا بالثناء عليه ؟ — وماذا بعد هذا ؟ — أما وقد أصبحت كثرتكم الغالبة عمياء ، أفلا يجب أن يكون هناك إنسان يؤدى هذا الواجب بدلا منكم ، وينوب عنكم جميعاً فى التغنى بمدح الله ؟ »[٣٨] .

إنا لنجد فى هذه الفقرات تشابها عجيباً بينها وبين كثير من أفكار المسيحية الأولى ، وإن كنا لا نرى فيها كلمة واحدة عن الخلود ، وإن كان فى وسعنا أن نرجع بها جميعا إلى عقائد الرواقيين والكلبيين . والحق أن إبكتتس ليتقدم أحيانا على المسيحية ؛ يتقدم عليها فى تنديده بالاسترقاق ، وفى وجوب تحريم عقوبة الإعدام ، وفى مناداته بأن يعامل المجرمون على أنهم مرضى يحتاجون إلى العلاج[٣٩] . وهو يدعو الناس إلى أن يحاسبوا ضميرهم فى كل يوم من

حياتهم[٤٠] ، ويضع لهم قاعدة من نوع القواعد الذهبية : « لا تكن سبباً في أن يتعذب الناس بما لا تحب أن تتعذب به أنت »[٤١] ، ويضيف إلى ذلك قوله : « إذا قيل لك إن إنسانا يتحدث عنك حديث السوء ، فلا تدافع عن نفسك بل قل : إنه لو عرف سائر عيوبي لما ذكر هذه وحدها »[٤٢] . وهو ينصح الناس بأن يجزوا الإساءة بالإحسان ، « وألا يردوا الشتم إذا شُتموا ! »[٤٤] ، وأن يصوموا من حين إلى حين ، وأن « يمتنعوا عما يشتهون »[٤٥] . وتراه أحيانا يتحدث عن الجسم باحتقار مزر كالذى يتحدث به عنه الناسك الذى لم يتطهر بعد من ذنوبه : « إن الجسم أقذر الأشياء جميعاً وأخبثها . . . ومن أغرب الأشياء أن نحب هذا الشيء ونؤدى له هذه الخدمات العجيبة فى كل يوم . أنا أملأ هذا الكيس ، ثم أفرغه ، فهل ثمة عمل أكثر من هذا مشقة ؟ »[٤٦] .

ومن أقوال إبكتتس فقرات تنطق بتقى أوغسطين وفصاحة نيومن Newman : « تصرَّف فيَّ يارب كما تشاء ؛ إن عقلى منك وإليك ؛ وأنا ملك لك . ولست أطلب أن أعفى من شيء ترى أنت أنه خير . اهدنى إلى حيث تريد ، واكسنى بما تشاء من الثياب »[٤٧] ، وهو يأمر أتباعه كما يأمرهم عيسى بألا يهتموا بأمر غد :

« إذا كان الله خالقنا ، وأبانا ، ووليناـ أفلا يكفى هذا لأن يرد عنا الحزن والخوف ؟ ويتساءل بعض الناس : من أين أُطعم إذا لم يكن عندى ما أُطعمه ؟ ولكن ماذا تقول عن الحيوانات التى يكتفى كل منها بنفسه ، ولا يعدم ما يصلح له من الطعام ، ولا ينقصه ما يوائمه ويتمشى مع طبقته من أساليب الحياة ؟ »

وهل من عجب بعد هذا أن يثنى عليه المسيحيون أمثال القديس يوحنا وكريسستوم وأوغسطين ، وأن يتخذ كتابه « الموجز » بعد تغيير طفيف قاعدة لحياة النساء فى الأديرة ومرشداً لهن ؟[٤٩] . ومن يدرى ، لعل إبكتتس قد قرأ أقوال عيسى فى صورة ما وأنه قد اعتنق المسيحية على غير علم منه .

الفصل الرابع

لوشيان والمتشككة

ومع هذا فقد كان فى هذه المرحلة الأخيرة من مراحل الثقافة الهلنستية متشككة يعيدون إلى الأذهان شكوك پروتجوراس ، وكان فيها لوشيان يسخر من العقائد الدينية بوقاحة كوقاحة أرستبس ، وبأسلوب لا يكاد يقل سحراً عن أسلوب أفلاطون . ولم تكن مدرسة بيرو Pyrrho قد ماتت بعد ، وقد أعاد إينسديمس Aenesidemus النسوسى صياغة أقوالها الإنكارية بمدينة الإسكندرية فى القرن الأول الميلادى ، وذلك فى « الأساليب » Tropoi العشرة أو المتناقضات التى تجعل المعرفة مستحيلة(*) . وفى أواخر القرن الثانى صاغ سكستس إمپركس Sextus Empiricus ، وهو رجل لا نعرف له تاريخاً ولا موطناً . فلسفة المتشككة فى شكلها الأخير وضمنها عدة مجلدات هدامة بقيت منها حتى الآن ثلاثة . ويتخذ سكستس العالم كله عدوًّا له ، ويقسم الفلاسفة أجناساً مختلفة ، ويقضى عليهم واحداً

(*) منها (١) أن أعضاء الحس (كالعينين) فى الحيوانات المختلفة ، بل وفى الآدميين المختلفين ، تختلف فى شكلها وتركيبها ، وأن المفروض فيها أنها تنقل لصاحبها صوراً للعالم مختلفة . وأنى لنا أن نعرف أى هذه الصور هو الصحيح ؟ (٢) وأن الحواس لا تنقل إلا جزءاً صغيراً من الجسم المحس كجزء محدد من الألون ، والأصوات والروائح ؛ وما من شك فى أن الصورة الذهنية التى تتكون لدينا عن هذا الجسم صورة جزئية غير موثوق بصحتها (٣) وأن هذه الحواس قد تتعارض إحداها مع حاسة أخرى (٤) وأن الجسم المحس يتلون ، وقد يتلون خطأ ، بحالتنا الجسمية والعقلية : حالة اليقظة أو النوم ، والشباب أو الشيخوخة ، والحركة أو السكون ، والجوع أو الشبع ، والكره أو الحب ، (٦) وأن مظهر الشىء المحس يختلف باختلاف حالة البيئة التى تحيط به — من ضوء ، وهواء ، وبرد ، وحر ، ورطوبة الخ ، فأى مظاهره هو الصحيح ؟ (٨) وأن لاشىء يمكن معرفته بنفسه أو بمعرفته معرفة مطلقة ، فهو لا يعرف إلا بصلته بشىء آخر أى بوصفه جزءاً من كل (١٠) وأن عقائد الفرد موقوفة على العادات ، والدين ، والنظم ، والقوانين التى نشأ فيها ، وما من فرد يستطيع أن يفكر تفكيراً موضوعياً .

بعد واحد ، ويكتب بالقوة الخليقة بالجلادين ، وبالترتيب الحسن والوضوح اللذين تمتاز بهما الفلسفة القديمة ، ولا يخلو أسلوبه من الفكاهة الساخرة ومن فتات من المنطق الكئيب .

ويقول سكستس إن كل حجة يمكن معارضتها بحجة مساوية لها ، ومن أجل هذا لن تجد فى آخر الأمر شيئاً لا ضرورة له أكثر من التعليل . والاستدلال لا يوثق به إلا إذا قام على أساس الاستقراء الكامل ؛ ولكن الاستقراء الكامل مستحيل ، لأنا لا نستطيع أن نتبين متى يظهر أمامنا « مثل سلبى »(٥١) . وليست « العلة » إلا سابقة منتظمة (كما يكرر هيوم Hume) ، والمعرفة كلها نسبية(٥٢) . كذلك لا يوجد خير أو شر موضوعى ، فالمبادئ الأخلاقية تختلف باختلاف البلاد(٥٣) ، وللفضيلة فى كل جيل تعريف يختلف عن تعريفها فى كل جيل آخر . وإنك لتجد فى أقوال هذا الفيلسوف جميع الحجج التى أدلى بها فى القرن التاسع عشر عن إمكان معرفة وجود الله أو عدم وجوده . كما تجد فيها جميع الأقوال المتعارضة بين قدرته العليا الخيرة والآلام الدنيوية(٥٤) . ولكن سكتس أكمل لاأدرية من اللاأدريين ، لأنه يؤكد أننا لا نستطيع أن نعرف أننا لا نعرف . ويقول إن اللاأدرية عقيدة(٥٥) ، ولكنه يواسينا بقوله إننا لسنا فى حاجة إلى الحقيقة المؤكدة ، وإن فى الترجيح ما يفى بجميع أغراضنا العملية ، وإن تعليق الحكم فى المسائل الفلسفية بدل إزعاج العقل به يهبه الهدوء الناشئ عن عدم الاهتمام (Atarasia)(٥٦) ، وإذ لم يكن ثمة شىء مؤكد فلنقبل عرف الزمان والمكان اللذين نعيش فيهما وعقائدهما ، ولنعبد أربابنا القدامى متواضعين(٥٧) .

ولو أن لوشيان قد أوتى من الحمق ما جعله يقيد عقله بالانتماء إلى طائفة خاصة من الفلاسفة لكان من طائفة المتشككة . وكان يكتب الفلسفة كما يكتبها فلتير الذى يشبهه فى كل شىء إلا فى عطف فلتير وحنانه ، يكتبها بأسلوب بلغ من

الإشراق والوضوح حداً لا يظن معه إنسان أنه يكتب الفلسفة . وكان مولده فى سموساتا Samosata من أعمال كمجينى Commagene البعيدة ، وكأنه قد ولد فى هذا المكان بالذات ليدلنا على مدى انتشار الهلنستية . وقد قال عن نفسه : « أنا سورى من بلاد الفرات » . وكانت لغته الأصلية هى السريانية ، وأكبر الظن أن الدم الذى كان يجرى فى عروقه هو الدم السامى(٥٨) . ثم ارسل ليتمرن على النحت عند مثال ، ولكنه ترك النحت وأخذ يدرس البلاغة ؛ وبعد أن أقام فى أنطاكية يمارس صناعة المحاماة شرع يتجول فى الطرقات كما يفعـــل « العالم المستقل » ، يكسب عيشه بإلقاء المحاضرات ، وخاصة فى رومة وغالة ؛ ثم ألقى عصا التسيار فى أثينة (عام ٥ ١٦م) ، وأنجاه ماركس أورليوس الورع المتسامح من الفقر فى آخر أيامه ، وعين المتشكك غير المحترم فى منصب رسمى فى مصر ، حيث مات فى تاريخ غير معروف .

وقد أبقت الأيام على ستة وسبعين كتاباً من كتب لوشيان الصغيرة ، وكثير منها لا يقل جدة ومناسبة لأحوال هذا العصر عما كانت عليه حين كان يقرؤها على أصدقائه ومستمعيه قبل ثمانية عشر قرناً من الزمان : وقد أخذ يجرب أفانين مختلفة من الكتابة حتى عثر أخيراً على أسلوب الحوار الممتع الظريف . وقد بلغ كتابه *محاورات الحظيات* من التحرر درجة جعلت له كثيرين من القراء ، ولكنه كان فى كتبه على الأقل أكثر انهما كا الآلهة منه فى الحظيات ؛ وهو لا يفرغ قط من الإساءة إليهن . ويقول فى كتابه هذا على لسان منپس Menippus : « كنت وأنا غلام أستمع إلى قصص هومر وهزيود عن الآلهة — الآلهة الزانين ، الآلهة الجشعين النهابين ، الآلهة العنيفين المتنازعين ، مرتكبي الفحشاء مع المحارم : ولم أكن أجد فى هذا كله مأخذاً ، بل إنى فى واقع الأمر وجدت فيه متعة عظيمة ؛ ولكنى حين بلغت سن الرشد وجدت الشرائع تناقض أقوال الشعراء مناقضة تامة ، فتحرم الزنى والسلب والنهب » :

وتحيّر منپس فذهب إلى الفلاسفة يستوضحهم الأمور ، ولكنهم كانوا مشغولين بأنفسهم يحاول كل منهم أن يفند حجج غيره ، فلم يزيدوه إلا حيرة واضطرابا ، ولم ير بداً من أن يصنع له جناحين ، ويطير بهما إلى السماء ، ويفحص عن الأمر بنفسه . واستقبله زيوس أحسن استقبال ، وأكرم وفادته ، وسمح له أن يراقب مجرى الأمور من فوق أولمپس . وكان زيوس نفسه يستمع إلى الصلوات وهى تأتى إليه من « صف من الفتحات لها أغطية كأغطية الآبار . . . وكان من بين الخلق الذين يعملون فى البحار رجل يطلب ريحاً شمالية وآخر يطلب ريحاً جنوبية . وكان الزارع يدعوه ليرسل إليه المطر ، والقصار يدعوه أن يرسل إليه الشمس . . . وخيل إلى الرجل أن زيوس قد تحير فى أمره ، لا يعرف أى دعاء يستجيب له ، فامتنع عن الحكم امتناع العلماء الحقيقيين ، وأظهر من التريث والاتزان ما هو خليق بپيرو نفسه »[٥٩] . ثم يرفض الإله بعض المطالب ، ويستجيب لبعضها الآخر ، ثم ينظم طقس اليوم : فيرسل المطر إلى سكوذيا ، والثلج إلى بلاد اليونان ، والعواصف إلى البحر الأدرياوى ، و « يصرخ صرخة تبعث بعشرين مكيالا من البرد إلى كپدوكيا » . ويغضب زيوس من الآلهة السمجة الغريبة التى تسللت إلى مجمع آلهته ؛ فيصدر أمراً يقول فيه إن جبل أولمپس قد ازدحم بالآلهة الأجنبية المتعددة الأجناس حتى ارتفع ثمن الرحيق الذى نشربه ، وأخرجت منه الآلهة القديمة ، التى هى دون غيرها الآلهة الحقة ؛ ولهذا فإن لجنة من سبعة ستشكل لتنظر فى مطالب الآلهة .

وفى كتاب *التحقيق مع زيوس* يسأله فيلسوف أبيقورى : هل الآلهة هى الأخرى خاضعة للأقدار ؟ فيجيب چوف الظريف بقوله : نعم . فسأله الفيلسوف : « ولم إذن يقرب الآدميون لك القرابين ؟ . وإذا كان القدر هو المسيطر على الآدميين والأرباب ، فلم نكون مسئولين عن أعمالنا ؟ » ، فيرد عليه زيوس بقوله : « يتبين لى أنك كنت مع تلك الجماعة اللعينة جماعة

السوفسطائيين »[٦٠] ؛ وفى *زيوس تراجودس* Zeus Tragoedus ترى الإله مكتئبا ساخطا لأنه يرى جمعا محتشداً فى أثينة يستمع إلى داميس Damis الأبيقورى ينكر وجود الآلهة واهتمامها بالخلق ، بينما يؤكد ذلك تمكليز الرواق Temocles . ثم ينهزم تمكليز ويفر من الميدان ، وييأس زيوس من مستقبله ، ولكن هرمس يواسيه بقوله : « لا يزال فى الأرض كثيرون من المؤمنين ، هم الكثرة الغالبة من اليونان ، أواسط الشعب وسفلته ، والبرابرة على بكرة أبيهم »[٦١] . ولم يتهم لوشيان بالكفر لقوله هذا ، وفى ذلك دليل إما على روح التسامح التى كانت تسود ذلك العصر وإما على قرب زوال الآلهة اليونانية من الوجود .

وكان لوشيان يتشكك فى قيمة البلاغة والفلسفة تشككه فى الدين القديم . ففى إحدى *محاورات الموتى* يأمر كارون Charon أحد البلغاء ، وهو ينقله إلى الدار الآخرة ، « أن تثير ما بلغك من طول الجمل الذى لا آخر له ، ومن الطباق والمقابلة والعبارات المتوازنة » — وإلا غرق القارب حتما[٦٢] . وفى *هرموتمس* Hermotimus ترى طالبا يبدأ دراسة الفلسفة متحمسا لها راجيا أن يستعيض بها بعض الاستعاضة عن الإيمان ، ولكنه يصطدم بما يتصف به المعلمون المتنافسون من غرور وشره ، ويتركه هؤلاء المعلمون عاريا ذهنيا وخلقيا ، لأن كل فريق منهم يقضى وقته فى دحض حجج الفريق الآخر ، ولهذا « سأبتعد عن الفيلسوف كما أبتعد عن الكلب » على حد قوله فى ختام حديثه[٦٣] . ويعرّف لوشيان نفسه الفلسفة بأنها محاولة « للوصول إلى مرتفع تتطلع منه إلى جميع الجهات »[٦٤] . وتبدو له الحياة من هذا المرتفع كأنها خليط مهوش سخيف ، أو جوقة مضطربة مختلة النظام ، يتحرك فيها الراقصون ويصرخون كل كما يريد حتى يطردهم رئيس الفرقة من فوق المسرح واحداً بعد واحد[٦٥] . ويصوّر

فى « كارون » منظر البشر ، كما تراهم عين فوق عين الآدميين من قمة سماوية عالية ، صورة حالكة السواد : صورة خلائق يفلحون الأرض، ويكدحون، ويتنازعون ، ويتقاضون فى المحاكم ، ويرابون ، ويَغشّون ويُغشّون ، ويجرون وراء الذهب أو اللذة . وفوق رؤوسهم سحابة من الآمال والمخاوف ، والحمق ، والكره ، ومن فوق هذه كلها تمتزل الأقدار خيط الحياة لكل ذرة بشرية ؛ فإنسان يرتفع من بين جمهرة الناس ثم يسقط إلى الحضيض ، وكل إنسان يسحبه بدوره رسول من رسل الموت . ويبصر كارون جيشين يقتتلان فى أرض البلوبونيز ، فيعلق على قتالهم بقوله : « ما أشد حمق هؤلاء ! إن كلا منهم لا يعرف أنه وإن كسب البلوبونيز وحده لن يكون له آخر الأمر إلا قدم واحدة من الأرض »[٦٦] . ولوشيان لا يحابى أحداً شأنه فى هذا شأن الطبيعة نفسها ، فهو يهجو الأغنياء لشرههم ، والفقراء لحسدهم ، والفلاسفة لشراكهم ، والآلهة لعدم وجودهم . ويختم حديثه فى آخر الأمر بما يختم به ڤلتير حديثه وهو أنه ينبغى للإنسان أن يزرع حديقته . فنبس Menippus يجد تيرسياس Teiesias فى الدار السفلى ويسأله : ما خير أنواع الحياة ؟ فيجيبه النبى الشيخ بقوله :

إن حياة الرجل العادى خير أنواع الحياة ، ومن اختارها كان أكثر الناس فطنة ؛ وإياك وسخف المجادلات فيما وراء الطبيعة والبحث فى أصول الأشياء وغاياتها ؛ ولا تحسبن هذا المنطق كله إلا هراء فى هراء ، ولا تسع إلا لغاية واحدة وهى كيف تعمل ما تجده يدك لتعمله ؛ وسر فى طريقك دون أن تنفعل قط وعلى فمك ابتسامة على الدوام[٦٧] .

وقصارى القول أن التفكير اليونانى فى القرنين الأولين من التاريخ الميلادى تطغى عليه النزعة الدينية على الرغم من لوشيان وآرائه . لقد خسر الناس قبل ذلك العهد إيمانهم وعمدوا إلى المنطق ؛ أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فقد كانوا يخسرون المنطق ويعودون سراعاً إلى الإيمان . ذلك أن الفلسفة اليونانية

كانت قد أتمت دورتها مبتدئة باللاهوت البدائى ، ثم انتقلت منه إلى تشكك السوفسطائيين الأولين ، ثم إلى كُفر دمقريطس ، فداهنة أفلاطون ومحاولته التوفيق بين النزعتين ، فنزعة أرسطو الطبيعية ، فعقيدة وحدة الله والكون التى كانت تنادى بها الاستواء ، فالعودة إلى فلسفة التصوف والاستسلام والتقوى . أما المجمع العلمى فقد انتقل من أساطير مؤسسة النفعية عن طريق تشكك كرنيديز Carneedes إلى خشوع أفلوطرخس القائم على العـلم . ولا يلبث أن يبلغ الذروة فى رؤى بلوتنس السماوية . لقد نسى الناس كشوف فيثاغورس العلمية العظيمة ، ولكن فكرته عن التجسد بدأت وقتئذ تحيا حياة جديدة ، فكان النيثاغوريون الجدد ينقبون فيما تنطوى عليه الأعداد من أسرار خفية ، ولا ينقطعون يوماً واحداً عن اختبار الضمير الإنسانى ، ويدعون الله أن ينتقلوا بعد أقصر فترة مستطاعة من التجسد إلى الاتحاد المبارك مع الله بعد أن يمروا بالمطهر — إن كان لا بد لهم أن يمروا به(٦٨) . وكانت الرواقية تبعد شيئاً فشيئاً عن أن تكون فلسفة الأشراف المفتخرة المستهزئة ، وقد وجدت آخر المعبرين عنها وأفصحهم لساناً فى عبد من العبيد . وكان إيمانها باللهيب الذى سوف يحرق العالم آخر الدهر ، ونبذها كل ملاذ الجسد ، واستسلامها فى خضوع وذلة إلى إرادة الله الخفية ، كان هذا كله يمهد السبيل إلى اللاهوت المسيحى والمبادىء الخلقية المسيحية . وملاك القول أن المزاج الشرقى كان وقتئذ سيستحوذ على القلعة الأوربية .

الباب الرابع والعشرون

اليقظة الهلنستية

الفصل الأول

مصر الرومانية

كان خليقاً بمصر أن تكون أسعد بلدان الأرض قاطبة ، لأن النيل يرويها ويغذيها ، ولأنها أكثر بلاد البحر الأبيض المتوسط قدرة على الاكتفاء بخيراتها — فهي غنية بالحب والفاكهة ، تنتج أرضها ثلاث غلات في العام ، ولم يكن يعلو عليها بلد آخر في صناعاتها ، وكانت تصدر الغلات والمصنوعات إلى مائة قطر وقطر ، وقلما كان يزعجها ويقلق بالها حرب خارجية أو أهلية . ولكن يبدو أن « المصريين » برغم هذه الأسباب — أو لعلهم لهذه الأسباب — « لم ينعموا بالحرية يوماً واحداً في تاريخهم كلهم »[1] على حد قول يوسفوس . ذلك أن ثروتهم كانت تغري بهم الطغاة أو الفاتحين واحداً في إثر واحد مدى خمسين قرناً من الزمان كانوا فيها يستسلمون لأولئك الطغاة والفاتحين(*) .

(*) هذه إحدى الأكاذيب التي يرويها المؤرخون دون تحقيق والتي يكذبها تاريخ مصر تكذيبا قاطعاً ، فلقد نعمت مصر في جميع أدوار تاريخها بعصور من الحرية طوال ؛ وإذا كانت قد خضعت في بعض أيامها لغيرها من الدول فإن معظم الأمم لم تسلم من هذا الخضوع ، وقد امتصت مصر الفاتحين فصرتهم أو أخرجتهم من أرضها واحتفظت بطابعها مع ما يقتضيه الزمن من تطور لا بد منه . وإذا كانت قد حكمها ملوك أو حكام وفد آباؤهم عليها من خارجها فإن هذا لا ينقص من استقلالها ، وقد حدث مثله في بلاد العالم . وليس صحيحاً أيضا أنهم مستسلمون إلى الحد الذي يصفه المؤرخ فلطالما ثاروا في جميع أدوار التاريخ على الطغاة والغاصبين . (المترجم)



(شكل — ٦) صورة فتاة

ولم تكن رومة تعد مصر ولاية تابعة لها ، بل كانت تعدها من أملاك الإمبراطور نفسه ، وكان يحكمها حاكم مسئول أمامه وحده . وكان موظفون من اليونان المتمصرين يديرون أقسامها الثلاثة — مصر السفلى ، ومصر الوسطى ، ومصر العليا ، ومقاطعاتها الست والثلاثين ، وبقيت اللغة اليونانية فى ذلك العهد هى اللغة الرسمية — ولم تبذل محاولة ما لتحضير السكان . فقد كانت وظيفة مصر فى الإمبراطورية أن تكون المورد الذى تستمد منه رومة مايلزمها من الحبوب . ولهذا السبب انتزعت من الكهنة مساحات واسعة من الأرض وأعطيت للممولين الرومان أو الإسكندريين ، وجعلت ضياعاً واسعة يعمل فيها الفلاحون ويستغلون بلا رحمة . وظلت الرأسمالية الحكومية كما كانت فى عهد البطالمة ، وإن كانت فى صورة أخف من عهدها السابق ؛ لقد كانت تنظم كل خطوة من خطوات الأعمال الزراعية وتشرف على تنفيذها : فكان موظفون حكوميون مطردو الزيادة يعينون ما يزرع من المحاصيل ، ومقدار ما يزرع منها ، ويوزعون البذور على الزراع فى كل عام ، ويستولون على المحصولات ويودعونها فى مخازن حكومية (thesauroi) ، ويصدرون منها حصة رومة ، ويقتطعون الضرائب منها عينا ، ويبيعون ما يتبقى بعد ذلك فى السوق . وكان القمح والكتان محتكرين للحكومة من البذر إلى البيع ؛ وكذلك كان شأن الطوب ، والروائح العطرية وزيت السمسم فى الفيوم إن لم يكن فى غيرها من الأقاليم ، أما غير هذه من الميادين الاقتصادية فكان يسمح فيها بمشروعات الاستغلال الخاصة ، على أن يكون هذا الاستغلال خاضعاً لأنظمة دقيقة شاملة . وكانت مصادر الثروة المعدنية كلها ملكاً للدولة ، وكان قطع الرخام واستخراج الحجارة الكريمة امتيازاً خاصاً للحكومة .

واتسع نطاق الصناعات المنزلية فانتشرت فى المدن — وكان قد مضى على قيامها فى مصر زمن طويل ، فاشتهرت بها مدائن بطليموثيس Ptolemais ، ومنفيس وطيبة ، وأكسيرهنكس Oxyrhynchus ، وصان ، وبسطة ، ونقراطيس ،

وهليوبوليس (عين شمس) ؛ وكانت هذه الصناعات فى الإسكندرية المورد الذى تعتمد عليه نصف حياة العاصمة الصاخبة . ويبدو أن صناعة الورق كانت قد بلغت وقتئذ المرحلة الرأسمالية ، فإن استرابون يحدثنا أن أصحاب مزارع البردى حددوا محصوله ليرفعوا سعره[٣] . وكان الكهنة يقيمون المصانع فى حرم الهياكل ، ويخرجون فيها نسيجاً رقيقاً من التيل ، يصنعون منه ملابسهم ، ويبيعون بعضه فى الأسواق . وقلما كان يوجد أرقاء فى مصر يعملون فى غير الخدمات المنزلية ، لأن العمال « الأحرار » لم يكونوا يؤجرون أكثر مما يكفى لستر عورتهم وسد رمقهم . وكان هؤلاء العمال يضربون عن العمل (anachoresis) فى بعض الأحيان — فكانوا يمتنعون عنه ويحتمون بالهياكل حتى يخرجوا منها بتأثير الجوع أو الألفاظ المعسولة . وكان يحدث أحياناً أن ترفع الأجور ، فترتفع الأثمان ، وتعود الأمور كما كانت من قبل . وكان يسمح بإنشاء النقابات الطائفية ، ولكنها كانت فى الأغلب الأعم خاصة بالتجار ومديرى الأعمال ، وكانت الحكومة تستخدمها فى جباية الضرائب وفى تنظيم أعمال السخرة كإقامة السدود ، وحفر الترع وتطهيرها ، وإقامة المبانى العامة .

وكانت التجارة الداخلية نشطة ولكنها بطيئة . فقد كانت الطرق رديئة ؛ وكانت وسائل النقل البرى هى الحمالين ، والحمير ، والجمال — التى حلت وقتئذ محل الخيل للجر والحمل فى أفريقية . وكان جزء كبير من التجارة الداخلية ينقل فى نهر النيل أو القنوات . وكانت قناة كبرى يبلغ عرضها مائة وخمسين قدماً وتمت فى عهد تراجان ، تربط البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الهندى عن طريق النيل والبحر الأحمر . فكانت السفن تخرج فى كل يوم من الثغور الواقعة على هذا البحر مثل أرسنوى ، وميوس هرموس Muos Hormos وبرنيس فى طريقها إلى أفريقية أو الهند . وكان النظام المصرفى الذى يمول الإنتاج والتجارة خاضعاً بأكمله للرقابة الحكومية ، وكان فى حاضرة كل إقليم

مصرف للدولة ، يتسلم الضرائب ، وتودع فيه الأموال العامة . وكانت القروض تعقد للزراع وتشجيع الصناعة والتجارة والأعمال المالية ، تقرضها الحكومة أو الكهنة من خزائن الهياكل ، أو هيئات الإقراض غير الحكومية[٤] . وكانت الضرائب تفرض على جميع المنتجات ، والعمليات الاقتصادية ، والبيع ، والإصدار ، والاستيراد ، بل وعلى القبور ودفن الأموات ؛ وكانت فروض إضافية تقرر من حين إلى حين ، وتجبى عينا من الفقراء أو خدمات من الأغنياء . وكانت البلاد — أو كان سادتها — من عهد أغسطس إلى تراجان فى رخاء ؛ ثم أخذ هذا الرخاء ، بعد أن وصل إلى ذروته فى ذلك العهد ، يفارقها بتأثير الخراج الذى لم يكن يعرف له حد ، والضرائب الفادحة ، وما يعقبهما من كساد ونضوب فى موارد البلاد ، وما يؤدى إليه الاقتصاد المجند من تراخ وإهمال .

وبقيت مصر فى خارج الإسكندرية ونقراطيس محتفظة بمصريتها عابسة صامتة ، وقلما اصطبغ فيها شىء بالصبغة الرومانية بعيداً عن مَصابّ النيل ؛ وحتى مدينة الإسكندرية نفسها ، التى كانت أعظم المدائن اليونانية ، أخذت فى القرن الثانى بعد الميلاد تصطبغ بصبغة الحواضر الشرقية فى أخلاق أهلها ولغاتهم وفى جوها الشرقى . وكان يسكن عاصمة مصر ٨٠٠ر٠٠٠ من جميع سكان البلاد البالغ عددهم ٨ر٥٠٠ر٠٠٠[٥] (وكان عدد سكانها فى عام ١٩٣٠ نحو ٥٧٣ر٠٠٠) ، ولم يكن يزيد عليها فى عدد السكان سوى رومة نفسها . أما من حيث الصناعة والتجارة فقد كانت أولى المدن فى الإمبراطورية . وقد ورد فى خطاب يعزى إلى هدريان — وإن كنا نشك فى صحة نسبته إليه — أن كل شخص فى الإسكندرية يعمل ، وأن لكل إنسان فيها حرفة ، وحتى العرج والعمى يجدون لهم عملا فيها[٦] ؛ وكان من بين مئات الصناعات القائمة فى المدينة صناعة الزجاج ، والورق ، ونسج الكتان . وكانت هذه المصنوعات موفورة الإنتاج ، وكانت الإسكندرية مركز صناعة الكساء والأزياء العصرية المستخدمة فى ذلك الوقت ، فكانت

هى التى تضع طراز الملابس وهى التى تصنعها . وكان لمرفئها العظيم تسعة أرصفة ، يخرج منها أسطولها التجارى ليمخر عباب عدة بحار . وكانت المدينة فوق ذلك مركزاً للسياح ، فيها الفنادق ، والأدلاء ، والمترجمون لاستقبال الزائرين القادمين إليها لمشاهدة الأهرام والهياكل الفخمة فى طيبة . وكان شارعها الرئيسى يبلغ عرضه سبعا وستين قدما ، وتقوم على جانبيه العمد ، والبواكى ، والحوانيت المغرية تعرض أجمل التحف التى تنتجها الصناعات القديمة . وكان عند كثير من ملتقى الشوارع ميادين واسعة أو دوائر يسمونها الطرق « الواسعة » (Plateai) — ومنها اشتقت الكلمة الإيطالية Piazza ، والكلمتان الإنجليزيتان Piaza ، Place . وكانت مبانى ذات روعة تزين الشوارع الرئيسية — دار تمثيل كبرى ، ومصفق ، وهياكل لبسيدن ، وقيصر ، وزحل ، وسرابيوم أو هيكل لسرابيس ذائع الصيت ، وطائفة من مبانى الجامعة التى اشتهرت فى العالم كله باسم المتحف (الميوزيوم Museum أو بيت ربات الفن Muses) . وكانت المدينة مقسمة خمسة أقسام ، خص قسم منها بأكمله تقريباً بقصور البطالمة ، وحدائقهم ، ومبانى الإدارات الحكومية ، وكان يقيم فيه فى العصر الرومانى حاكم المدينة . وفى هذا القسم دفنت جثة الإسكندر الأكبر مؤسس المدينة فى ضريح جميل الشكل ، وقد وضعت فى تابوت من الزجاج وحفظت من البلى فى العسل .

وكان سكان المدينة خليطا من اليونان ، والمصريين ، واليهود ، والإيطاليين والعرب ، والفينيقيين ، والفرس ، والأحباش ، والسوريين ، والليبيين ، والقليقيين والسكوذيين ، والهنود ، والنوبيين ، ومن شعوب البحر الأبيض كلهم تقريبا . وكان يتألف منهم جميعا خليط سريع الذوبان بعضه فى بعض ، سريع الالتهاب أيضا ، متشاحن ، سيئ النظام ، عظيم المهارة والذكاء ، فكه غير محتشم ، لا يستحى من فحش القول ، متشكك ، مخرّف ، غير مستمسك بالخُلق الكريم ، مرح ، شديد الولع بالتمثيل ، والموسيقى ، والألعاب العامة . ويصف ديوكريسستوم

الحياة فى المدينة بأنها « قصف دائم . . . للراقصات ، والمصفرين ، والقتلة »[٨] . وكانت القنوات غاصة على الدوام بمحبى المرح والطرب ، يستقلون القوارب الصغيرة أثناء الليل ، يقطعون فيها مسافة الأميال الخمسة التى توصلهم إلى كنوبس Canopus ضاحيتها المليئة بالملاهى وأسباب التسلية . وكانت تقام فيها مباريات موسيقية لا تقل عن سباق الخيل إثارة للمشاعر والتصفيق والضجيج .

وإذا جاز لنا أن نصدق فيلو[٩] فيما يقوله عن سكان المدينة ، فقد كان أربعون فى المائة منهم من اليهود ، وكانت كثرة يهود الإسكندرية تعمل فى الصناعة والتجارة ، وتعيش فى فقر مدقع[١٠] ؛ وكان كثيرون منهم تجاراً ، وعدد قليل منهم مرابين ، وبلغ بعضهم من الثراء درجة استطاعوا بها أن يحصلوا على مناصب يحسدون عليها فى الحكومة ؛ وبعد أن كانوا فى أول الأمر لا يشغلون إلا خمس مساحة المدينة أصبحوا فى الوقت الذى نتحدث عنه يشغلون خمسيها . وكانوا يحاكمون بمقتضى قوانينهم الخاصة على أيدى كبرائهم ؛ وأيدت رومة الامتيازات التى منحها إياهم البطالمة والتى يحق لهم بمقتضاها أن يتجاهلوا أى قانون يتعارض مع أوامر دينهم . وكانوا يفخرون بكنيسهم المركزى الفخم وهو باسلقا ذات عمد ، بلغ من الاتساع حداً كان لا بد معه من استخدام نظام للإشارات يضمن بها استجابة المصلين الذين لا يستطيعون — لبعدهم عن المحراب — أن يسمعوا أصوات الحاخام[١١] . ويستفاد من أقوال يوسفوس أن الحياة الأخلاقية ليهود الإسكندرية كانت مضرب المثل فى الاستقامة إذا قيست إلى حياة السكان « الوثنيين » الشهوانية الطليقة[١٢] . وكانت لهم ثقافة ذهنية نشيطة ، كما كان لهم حظ كبير من الدراسات الفلسفية والتاريخية والعلمية فى ذلك الوقت . وكانت المدينة تضطرب من حين إلى حين بالعداء العنصرى ؛ وشاهد ذلك أننا نجد فى النبذة التى كتبها يوسفوس ضد أبيون (وهو زعيم معاد للسامية) جميع الأسباب ، والحجج ، والخرافات التى تعكر العلاقات بين اليهود وغيرهم من أصحاب الأديان الأخرى فى

هذه الأيام . وقد حدث فى عام ٣٨ م . أن هاجم الغوغاء من اليونان معابد اليهود وأصروا على أن يضعوا فى كل منها تمثالا لكلجيولا ليتخذوه إلهاً . كذلك حرم أفليوس فلاكس حاكم المدينة الرومانى اليهود من حق المواطنية الإسكندرية وأمر من كانوا يعيشون منهم خارج القسم اليهودى الأصلى أن يعودوا إليه فى خلال بضعة أيام من صدور الأمر ، فلما انقضى الأجل المحدد لهذه العودة أحرق الغوغاء اليونان أربعمائة من بيوت اليهود ، وقتلوا من كان منهم خارج ذلك الحى ؛ وقبض على ثمانية وثلاثين من أعضاء الجروزيا (مجلس الشيوخ) اليهودى ؛ وجُلدوا علناً فى إحدى دور التمثيل ، وطرد آلاف من اليهود من بيوتهم أو من أعمالهم أو حُرموا ما كانوا يدخرونه من أموالهم . وعرض الحاكم الذى خلف فلاكس أمرهم على الإمبراطور ، وسافر إلى رومة (عام ٤٠ م) وفدان مستقلان — أحدهما يتألف من خمسة من اليونان والآخر من خمسة من اليهود — ليعرض كل منهما قضيته على كلجيولا ، ولكن الإمبراطور قضى نحبه قبل أن يصدر حكمه ، فلما جلس كلوديوس على العرش أعاد إلى يهود الإسكندرية ما كان لهم من حقوق ، وأكد لهم مواطنيتهم فى المدينة ، وأصدر أمراً مشدداً إلى الطائفتين المتنازعتين ألا تعكرا صفو السلام .

الفصل الثانى

فيـــلو

كان رئيس الوفد اليهودى إلى كليجيولا هو الفيلسوف فيلو ، وكان أخوه مدير تجارة الصادر اليهودية فى الإسكندرية . ويصـــفه يوسبيوس Eusebius بأنه من أسرة عريقة من رجال الدين[١٣] . ولا نكاد نعرف شيئاً غير هذا عن حياته ولكن تقواه وكرم أخلاقه يظهران واضحين فى فى المؤلفات الكثيرة التى وضعها فى شرح الدين اليهودى للعالم اليونانى . وقد نشأ الرجل فى جو دينى ، فكان شـــديد الوفاء لشعبه ، ولكنه افتتن بالفلسفة اليونانية ، فجعل هدفه فى الحياة أن يوفق بين الكتاب المقدس وعادات اليهود من جهة ، والآراء اليونانية وبخاصة فلسفة أفلاطون « أقدس القديسين » من جهة أخرى . ولكى يصل إلى غرضه هذا لجأ إلى المبدإ القائل إن جميع الحادثات ، والأخلاق ، والعقائد ، والشرائع المنصوص عليها فى العهد القديم ذات معنيين أحدهما مجازى والآخر حرفى ، وإنها ترمز إلى حقائق أخلاقية أو فلسفية ؛ وكان فى وسعه بهذه الطريقة أن يبرهن على صحة أى شىء يريد البرهنة على صحته . وكان يكتب باللغة العبرية بأسلوب لا بأس به . ولكن أسلوبه فى اليونانية بلغ من الجودة حداً جعل المعجبين به يقولون إن « أفلاطون كان يكتب كما يكتب فيلو »[١٤] .

وكان فيلسوفاً أكثر مما كان رجل دين ، وكان صوفياً استبقت تقواه الشديدة تقوى پلوتينس وعقلية العصور الوسطى . وكان الله فى كتابات فيلو هو الكائن الجوهرى فى العالم ، وهو كائن غير مجسد ، أزلى سرمدى ، يجل عن الوصف ؛ فى وسع العقل أن يدرك وجوده ، ولكنه لا يستطيع أن يخلع عليه صفة ما ، لأن كل صفة تعنى التحديد . الذين يتصورونه فى صورة بشرية إنما

يفعلون ذلك لتقريبه من خيال البشر الحسى . والله موجود فى كل مكان ، « وهل ثمة مكان يستطيع الإنسان أن يجده وليس الله فيه ؟ »(١٥) ولكنه ليس كل شيء ، فالمادة أيضاً سرمدية وغير مخلوقة ؛ ولكنها لا تكون لها حياة ، ولا حركة ، ولا صورة حتى تنبعث فيها القوة الإلهية .

ولكى يخلق الله العالم بأن يشكل المادة ، ويوجد الصلات بينه وبين الإنسان ، استخدم لذلك جمعا من الكائنات الوسطى يسميها اليهود ملائكة ويسميها اليونان شياطين diamones ويسميها أفلاطون أفكاراً . ويقول فيلو إن فى وسعنا أن نتصور هذه الكائنات فى صورة أشخاص ، وإن كانت فى واقع الأمر لا وجود لها إلا فى العقل الإلهى بوصفها أفكار الله وقواه(١٦). وهى مجتمعة تكون ما يسميه الرواقيون الكلمة أو العقل الإلهى خالق العالم وهاديه . وكان فيلو يتأرجح بين الفلسفة واللاهوت ، وبين التجسيد ، ولهذا كان يفكر فى العقل الإلهى مرة كأنه شخص وفى ساعة من ساعات نشوته الشعرية يسميه أول ما ولد الله »(١٧) . وابن الله من الحكمة العذراء(١٨) ، ويقول إنه عن طريق الكلمة كشف الله عن نفسه للإنسان . وإذ كانت الروح فى رأيه جزءاً من الله ، فإن فى وسعها أن تسمو عن طريق العقل فترى الكلمة رؤيا صوفية ، وإن كانت لا ترى الله نفسه ؛ وربما كان فى وسعنا إذا تحررنا من دنس المادة والحس ، وتدربنا على الزهد والتفكير الطويل ، أن نصبح فى ساعة من الساعات روحا خالصة ، وأن نرى الله نفسه فى لحظة من لحظات النشوة(١٩) .

ولقد كانت « عقيدة العقل الإلهى » التى يقول بها فيلو من الآراء ذات الأثر الأكبر فى تاريخ التفكير البشرى . ولرأيه هذا سابقات واضحة فى فلسفة هرقليطس وأفلاطون ، والرواقيين ؛ وأكبر الظن أنه كان يعرف الآداب اليهودية التى نشأت فى العصر القريب من عصره ، والتى جعلت من حكمة الله بوصفه خالق الكون شخصاً محدداً مميزاً ؛ وما من شك فى أنه قد انطبعت فى عقله

تلك العبارات الواردة فى سفر الأمثال (٨ : ٢٢) وما بعدها ، والتى تقول فيها الحكمة : « الرب قنانى أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم : منذ الأزل مسحت منذ البدء ، منذ أوائل الأرض . إذ لم يكن غمر أبدئت إذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه . من قبل أن تقروت الجبال قبل التلال أبدئت إذ لم يكن قد صنع الأرض بعد » .

وكان فيلو معاصراً للمسيح ويلوح أنه لم يسمع قط عنه ، ولكنه قد أسهم على غير علم منه فى تكوين اللاهوت المسيحى . ولم يكن أحبار اليهود راضين عن تفسيراته المجازية للكتاب المقدس ، لظنهم أن هذه التفسيرات قد تتخذ حجة لنبذ الطاعة الحرفية للشريعة اليهودية ؛ وكانوا يرتابون فى عقيدة الكلمة ويعدونها ارتداداً عن عقيدة التوحيد ، كما كانوا يرون فى هيام فيلو بالفلسفة اليونانية نذيراً بضياع ثقافتهم ، وفقدان الجزء الأكبر من خصائصهم العنصرية ، وما ينشأ عن هذا وذاك من اختفاء اليهود المشتتين فى بقاع الأرض . ولكن آباء الكنيسة المسيحية كانوا يعجبون بورع هذا الرجل اليهودى المنبعث عن تفكير عميق ، وكثيراً ما كانوا يلجئون إلى آرائه وتعبيراته المجازية ليردوا بها على من يتصدون لنقد التوراة العبرية ، وانضموا إلى جماعة العارفين(*) ورجال الأفلاطونية الحديثة فى القول بأن رؤيا الله الصوفية هى أسمى ما تصل إليه المحاولات البشرية . ولقد حاول فيلو أن يوفق بين اليهودية والفلسفة الهلينية ؛ فأما من وجهة النظر اليهودية فقد أخفق فى مسعاه ، وأما من وجهة النظر التاريخية فقد أفلح ، وكانت ثمرة فلاحه هى الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا .

(*) هم طائفة من المسيحيين يعتقدون بأن الخلاص يكون عن طريق المعرفة لا عن طريق الإيمان . (المترجم)

الفصل الثالث

تقدم العـــلوم

كانت الإسكندرية زعيمة العالم الهلنستى فى العلوم لا ينازعها فى هذه المكانة منازع ، ومن أكبر علمائها فى ذلك العصر كلوديوس بطليموس الذى يعد بلا جدال من أعظم علماء الفلك الأقدمين ، وذلك لأن العالم لا يزال على الرغم من كشوف كوپرنيق يتكلم فى الفلك بلغة بطليموس . وكان مولد هذا العالم فى بلدة بطليموثيس على شاطئ النيل (ومنها اشتق اسمه) ، ولكنه عاش معظم حياته فى الإسكندرية ، وظل يرصد فيها الأجرام السماوية من عام ١٢٧ م إلى عام ١٥١ . وأهم ما يذكره به العالم أنه رفض نظرية أرستاركس القائلة بأن الأرض تدور حول الشمس . وقد دونت هذه الفلســـفة الخالدة فى كتاب بطليموس المعروف باسم النظام الرياضى للنجوم Mathematiké Syntaxis . وكان العرب إذا تحدثوا عنه نعتوه باسم التفضيل اليونانى المجسطى Al-megisté « الأعظم » . وحرف الناس فى العصور الوسطى هذا اللفظ فصار الماجست Almagest وهو الاسم الذى يعرف به الكتاب فى التاريخ . وظلت لهذا الكتاب السيطرة على السماء حتى قلب كوپرنيق العالم رأساً على عقب . ومع هذا فإن بطليموس لم يدع أنه فعل أكثر من تنظيم أعمال من سبقوه من علماء الفلك وأرصادهم ، وأخصهم بالذكر هپاركس . وقد صور الكون فى شكل كرى يدور مرة فى كل يوم حول أرض كرية ثابتة لا تتحرك . ومع أن هذا القول يبدو لنا غريباً (وإن كنا لا نعرف ما سوف يفعله كوپرنيق آخر فى المستقبل ببطالستنا المحدثين) ، فإن النظرية القائلة بأن الأرض مركز الـــكون قد يسرت فى ضوء

المعلومات الفلكية المعروفة فى ذلك العصر تحديد مواضع النجوم والكواكب تحديداً أدق مما كانت تستطيعه النظرية القائلة بأن الشمس هى مركز العالم[٢٠].
وعرض بطليموس فوق هذا لنظرية « الانحرافات » ليفسر [بها أفلاك الكواكب ، واستطاع أن يكشف انحراف فلك القمر . وقاس بعد القمر عن الأرض بطريقة الزيغان(*) التى لا تزال مستخدمة إلى يومنا هذا ، وقدر هذا البعد بما يعادل نصف قطر الأرض تسعا وخمسين مرة ، وهو يعادل تقديرنا الحاضر بوجه التقريب ؛ وإن كان بطليموس قد اتبع پسيدونيوس فى تقدير طول قطر الأرض بأقل من طوله الحقيقى

وقد لخص بطليموس فى كتابه **الموجز الجغرافى** جميع ما كان يعرفه الأقدمون عن سطح الأرض ، كما لخص **فى نظام الرياضى** ما كانوا يعرفونه فى الفلك وصاغه فى صيغته الأخيرة . وهنا أيضاً أخطأ أخطاء جسيمه فى أزياجه التى بذل فيها جهداً كبيراً ، والتى حدد فيها خطوط الطول ودوائر العرض لكبريات المدن على سطح الأرض : وكان سبب هذا الخطأ قبوله تقدير پسيدونيوس حجم الأرض بأقل من حقيقته . ولكن هذه الغلطة المشجعة التى نقلها عنه بطليموس هى التى يرجع إليها الفضل فى اعتقاد كولمبس أن من المستطاع الوصول إلى جزائر الهند فى وقت قصير بالسير فى اتجاه الغرب[٢١] .وكان بطليموس أول من استعمل لفظى « متوازيات » (Rarallels) و « خطوط الزوال » merdians علم الجغرافية ، وقد نجح فى أن يصور على خرائطه جسما كرياً على سطح مستو . ولكنه كان فى الواقع عالماً رياضياً أكثر منه فلكياً أو جغرافيا ؛ وكان أهم جزء من عمله هو صياغته للقوانين الرياضية . وقد وضع فى كتاب **النظام** زيجا دقيقاً

(*) Parallax ويسميها اسماعيل الفلكى اختلاف المنظر وهو الانتقال الظاهر للكواكب إذا تغير موضع الناظر إليه على سطح الأرض . (المترجم)

لقياس الأقواس ، وذلك بأن قسم نصف قطر الأرض ستين قسما أولى صغيرة Partes minutae primal هى التى صارت الدقائق عندنا ، ثم قسم كل واحدة من هذه الدقائق « أقساماً صغيرة ثانية » هى « الثوانى » عندنا .

ووقع بطليموس فى أخطاء كثيرة ، ولكنه كان له بلا ريب مزاج العلماء الحقيقيين وصبرهم . وقد حاول أن يعتمد فى استنتاجاته على الأرصاد وقلما كان هو صاحبها . وقد قام فى أحد الميادين بسلسلة طويلة من التجارب ، ووُصف كتابه البصريات Optica — وهو دراسة فى انكسار الضوء — بأنه « أعظم البحوث التجريبية فى التاريخ القديم »(٢٢) . ومما هو جدير بالذكر أن هذا الرجل الذى يعد من أعظم العظماء فى الفلك والجغرافية والرياضيات فى عصره قد كتب أيضاً « أربعة كتب » Tetrabiblios فيما للنجوم من سلطان على حياة بنى الإنسان .

وفى هذه الأثناء كان أرخميدز أصغر يهيئ للعالم القديم فرصة ثانية للقيام بانقلاب صناعى . وكان هذا الرجل مخترعاً أو جامعاً بارعاً وإن كنا لا نعرف عنه إلا اسمه الوحيد هيرون Hero . وقد أصدر هذا الرجل وقتئذ(*) فى الإسكندرية سلسلة من الرسائل فى الرياضة والطبيعة ، بقى لنا عدد منها مترجماً إلى اللغة العربية . وقد حذر قراءه فى صراحة بأن النظريات والاختراعات التى يعرضها عليهم ليست كلها من اختراعه ، بل إنها قد تجمعت على مدى القرون الطوال . ووصف فى كتابه الديوبترا Dioptra آلة شبيهة بالمزواة theodolite وصاغ عدداً من القوانين لقياس الأبعاد التى بين الإنسان وبين النقط التى لا يستطيع الوصول إليها ومساحة هذه الأبعاد . وبحث فى كتابه الحيل Mechanica فى طريقة استخدام أدوات

(*) وهناك خلاف فى تاريخ هذا العالم ، فيولى — وسوفا Pauly-Wissowa يحدده بعام ٥٠ ق . م ، بينما يحدده هيبرج Heiberg ، وديل Diels ، وهيث Heath بحوال ٢٢٥ م (٢٣).

سهلة ، والجمع بينها ؛ ومن هذه الأدوات العجلة ، ومحورها ، والرافعة ، والبكرة والإسفين ، واللولب . ودرس في كتابة الهوائيات Pneumatica ضغط الهواء في سبع وثمانين تجربة معظمها من الحيل والألاعيب ؛ منها أنه عرض كيف يمكن جعل كل من النبيذ أو الماء يخرج من فتحة صغيرة واحدة في قاع وعاء وذلك بسد ثقب أو آخر في أعلى الوعاء المقسم قسمين .

ثم تدرج من هذه اللعب المسلية لصنع مضخة رافعة ، ومضخة لآلة إطفاء الحريق ذات مكبس وصمامات ، وساعة مائية ، وأرغن مائي ، وآلة بخارية . وفي هذا المخترع الأخير كان البخار الناشئ من المـــاء المسخن ينتقل من خلال أنبوبة إلى كرة تدور في اتجاه مضاد لاتجاه البخار المطرود . وقد حال إحساس هيرون الفكاهي الشديد بينه وبين ترقية هذا المخترع حتى يمكن الاستفادة منه في الأغراض الصناعية . ومن أعماله أيضا أنه استخدم البخار لوقف كرة في الهواء ومنعها من السقوط ، وجعل طائر آلي يغرد ، وتمثال ينفخ في بوق . ودرس في كتابه المرايا Catoptrica انعكاس الضوء ، وشرح كيف تصنع المرايا التي يستطيع الناظر فيها أن يرى ظهره ، أو يظهر فيها ورأسه إلى أسفل ، أوله ثلاث أعين ، أو أنفان الخ . وعلم المشعوذين كيف يقومون بالألعاب بأجهزة مخبأة عن الأعين . وقد جعل الماء يخرج من حوض إذا وضعت قطعة من النقود في فتحة فيه . وصنع آلة مخبأة تجعل الماء المسخن يفيض إلى جردل ، ويفتح أبواب هيكل بمايزيد من وزنه ، وبوساطة مكبرات . وبفضل هذه الأساليب ومائة أخرى من نوعها استطاع هيرون أن يكون مشعوذاً بارعا ، ولكنه عجز عن أن يكون مخترعا من طراز چيمس وت James Watt .

وكانت الإسكندرية منذ زمن بعيد أهم مركز لدراسة الطب . نعم إنه كانت في مرسيليا ، وليون ، وسرقسطة ، وأثينة ، وانطاكية ، وكوس ،

وإفسوس ، وأزمير ، وپرجوم مدارس طب شهيرة ، ولكن طلاب الطب كانوا يهرعون إلى الإسكندرية من جميع ولايات الإمبراطورية ، بل إنا لنجد أميانس مرسلينس Ammianus Marcellinus فى القرن الرابع الميلادى ، حين أخذت مصر تسير فى طريق الاضمحلال ، يتحدث عن الإسكندرية بقوله :

« حسب الطبيب تنويها ببراعته أن يقول إنه قد تعلم فى الإسكندرية »[٢٤] . وكان التخصص فى الطب يسير قدما ، وشاهد ذلك ما يقوله فلستراتس (حوالى ٢٢٥ م) : « لا يستطيع إنسان أن يكون طبيبا لكل مرض ، بل يجب أن يكون هناك إخصائيون فى الجروح ، والحميات ، والعيون ، والسل »[٢٥] . وكان تشريح الجثث الميتة يحدث فى الإسكندرية ، ويبدو أنه كان يجرى فيها أيضاً تشريح للأحياء[٢٦] .

ولم تكن الجراحة فى القرن الأول الميلادى أقل رقيا فى الإسكندرية منها فى أى مكان فى أوربا قبل القرن التاسع عشر . ولم تكن الطبيبات نادرات ؛ وقد كتبت واحدة منهن تدعى مترودورا Metrodora رسالة فى أمراض الرحم لا تزال باقية إلى اليوم[٢٧] . ويزدان تاريخ الطب فى هذا العصر بأسماء عظيمة : منها روفس الإفسوسى الذى وصف تشريح العين ، وميز أعصاب الحركة من أعصاب الحس ، وحسن طرق وقف النزيف فى الجراحة ، ومنها مرينس Marinus الإسكندرى الذى اشتهر بجراحات الجمجمة ، وأنتيلس Antylus أعظم الرمديين فى عصره . وقد كتب ديوسكريديز Dioscorides الفليقيانى (٤٠ — ٩٠ م) كتابا فى العقاقير وصف فيه وصفا علميا ستمائة من النباتات الطبية وصفاً بلغ من الدقة حداً جعل كتابه هذا أهم مرجع فى موضـوعه حتى عصر النهضة الأوربية . وقد أوصى فى هذا الكتاب باستخدام « الصوفات » لمنع الحمل[٢٨] . وقد استخدم للتخدير وصفه لنبيذ البيروح mandragora استخداماً ناجحا فى عام ١٨٧٤ .

ونشر سورانس الإفسوسى حوالى عام ۱۱٦م رسالة فى أمراض النساء، وفى مولد الأطفال والعناية بهم ، ولا يعلو عن هذه الرسالة من المؤلفات الطبية القديمة الباقية إلى اليوم سوى مجموعات أبقراط ومؤلفات جالينوس . ويصف المؤلف فيها منظاراً مهبليا وكرسيا للتوليد ، ويصف الرحم من الناحية التشريحية أجود وصف ، ويقـــدم نصائح عملية وغذائية لا تكاد تختلف عما يقدمه الأطباء فى هذه الأيام ، منها غسل عينى الطفل الحديث الولادة بالزيت[٣٠] ، ويذكر أسماء نحو مائة وسيلة لمنع الحمل معظمها أدوية للمهبل[٣١] ، وهو يجيز الإجهاض إذا كان الوضع يعرض حياة الأم للخطر (على عكس ما يراه أبقراط)[٣٢] .

وقصارى القول أن سورانس كان أعظم الإخصائيين فى طب النساء فى الزمن القديم ، ولم يفقه أحد فى هـــذا العلم حتى جاء باريه Parê بعده بخمسة عشر قرنا ؛ ولو أن رسائله الأربعين قد بقيت إلى هذه الأيام لوضعناه فى أكبر الظن فى منزلة جالينوس .

وكان أعظم أطباء ذلك العصر ابن مهندس معمارى من برجموم ، وقد سماه جالينوس Galenus أى الهادئ المسالم ، لأنه كان يأمل ألا يتخلق بأخلاق أمه[٣٣] . ولما بلغ الشاب الرابعة عشرة من عمره شغف لأول مرة بالفلسفة ، ولم يتحرر قط من غوايتها الخطرة ؛ وفى السابعة عشرة تحول عنها إلى الطب ، ودرسه فى قليقية ، وفينيقية ، وفلسطين وقبرص ، وكريد، وبلاد اليونان ، والإسكندرية (وكان هذا الانتقال فى طلب العلم من طبيعة العلماء الأقدمين) ، ثم اشتغل جراحا فى مدرسة المجالدين فى برجموم ، ومارس صناعته فترة من الزمن (١٦٤ — ١٦٨ م) فى رومة : وفى هذه المدينة أقبل عليه أغنياء المرضى انجاحه فى صناعته ، كما أقبل عليه كثيرون من علية القوم ليستمعوا إلى محاضراته ، وذاعت شهرته ذيوعا جعـــل الناس يكتبون إليه من كافة الولايات يطلبون إليه النصائح الطبية ، فكان يصف لهم العلاج الناجع بالبريد ، وكان والده الصالح قد نسى ما كان

يدور بخلده حين اختار له اسمه فنصحه ألا ينضم إلى شيعة أو حزب ، وأن يكون صادقا فى كل ما يقول ، وصدع جالينوس بأمر أبيه ، وأخذ يشهر بجهل كثيرين من أطباء رومة وشرههم حتى اضطر بعد سنين قلائل إلى الفرار من أعدائه . ولكن ماركس أورليوس استدعاه ليعنى بكمودس الصغير (١٦٩) ، وحاول أن يأخذه معه فى إحدى الحملات المركونية ، ولكن جالينوس كان من الدهاء بحيث استطاع أن يعود مسرعا إلى رومة . ومن هذا الوقت لا نعرف عنه غير مؤلفاته .

وتكاد هذه المؤلفات أن تبلغ من الكثرة ما بلغته مؤلفات أرسطو ، وقد بلغت خمسمائة أو نحوها ، وبقى منها ١١٨ كتابا تحوى عشرين ألف صفحة ، تشتمل على جميع فروع الطب وعلى عدد من ميادين الفلسفة ، وليس لهذه الكتب قيمة طبية فى هذه الأيام ، ولكنها تشتمل فى مواضع منها متفرقة على معلومات نافعة ، وتكشف عن روح قوية ذات حيوية عظيمة ، مولعة بالبحث والجدل . وقد عوده ولعه بالفلسفة عادة سيئة هى استخلاصه نتائج كبرى من معلومات قليلة ، وكثيراً ما ساقه إيمانه بعلمه وقواه إلى تعسف لا يليق بعقلية العلماء ، وكان سلطانه على من جاء بعده سببا فى بقاء أخطائه الشنيعة ذائعة قروناً عدة . لكنه كان على رغم هذه الأخطاء دقيق الملاحظة ، كما كان أكثر الأطباء الأقدمين اعتماداً على التجارب العملية . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إنى لأعترف بذلك المرض الذى قاسيت منه الأمرين طوال حياتى — وهو أنى لا أثق ... بأى قول حتى أجربه بنفسى على قدر استطاعتى »[٣٤] . ولما حرمت عليه الحكومة الرومانية أن يشرح أجسام الآدميين أحياء كانوا أو أمواتاً ؛ عمد إلى تشريح الحيوانات الحية والميتة ، وكثيراً ما كان يتعجل فيطبق على تشريح الجسم الآدمى ما تسفر عنه دراسته للقردة ، والكلاب ، والبقر ، والخنازير .

وقد أفاد علم التشريح من جالينوس رغم قصوره أكثر مما أفاده من أى

مشاهد آخر فى التاريخ القديم ؛ ذلك أنه وصف بغاية الدقة عظام الجمجمة والعمود الفقرى ، والجهاز العضلى ، والأوعية اللبنية ، والغدة اللسانية ، والغدة اللعابية تحت الفك الأسفل ، وصمامات القلب ؛ وأثبت أن القلب إذا فصل عن الجسم يمكن أن يظل ينبض فى خارجه ، وبرهن على أن الأوردة تحتوى دما لا هواء (كما ظلت مدرسة الإسكندرية تعلم الناس مدى أربعمائة عام) . لكنه قد فاته أن يسبق هارفى إلى كشف الدورة الدموية ، فقد ظن أن معظم الدم يسير فى الأوردة إلى أجزاء الجسم المختلفة ثم يعود فيها أيضاً ؛ وأن البقية الباقية منه التى تختلط بهواء الرئتين تسير فى الشرايين إلى أجزاء الجسم وتعود منها فى الشرايين نفسها . وكان هو أول من شرح الجهاز التنفسى ، ودل على حصافة وبراعة حين قال إنه يظن أن العنصر الفعال فى الهواء الذى نستنشقه هو نفسه العنصر الفعال فى الاحتراق[٣٥] ؛ وميز التهاب الرئة ، ووصف الورم الوعائى(*) ، والسرطان ، والتدرن ، وعرف ما فى ثانيهما من خطر العدوى . وأهم من هذا كله أنه وضع أساس مبحث الأعصاب التجريبى ؛ فهو أول من أجرى التجارب على قطاعات من النخاع الشوكى ، وعين الوظيفة الحسية والحركية لكل جزء منه ، وعرف الأعصاب السمبثاوية ، وميز سبعة أزواج من الاثنى عشر زوجاً من أعصاب الجمجمة ، وعرف كيف يستطيع حبس النطق بقطع عصب الحنجرة ، وبرهن على أن الضرر الذى يصيب أحد نصفى المخ يحدث اختلالا فى النصف المضاد له من الجسم ، وعالج السفوفسطائى پوسنياس من خدر فى خنصر يده اليسرى وبنصرها بتنبيه الضفيرة العضدية التى يخرج منها العصب الزندى الذى يتحكم فى هاتين الإصبعين[٣٦] . وقد برع فى بحث أعراض الأمراض براعة آثر معها أن يشخص علة المريض

(*) اتساع أو تمدد يشمل طبقة أو جميع الطبقات من محيط وعاء دموى (قاموس الدكتور شرف) . (المترجم)

دون أن يوجه إليه أسئلة[٣٧] . وكان كثير الاعتماد على التغذية ، والرياضة ، والتدليك ولكنه كان خبيراً فى العقاقير ، كثير الأسفار للحصول على الأدوية ، النادرة . وندد باستخدام البراز والبول فى العلاج ، وكان ذلك لا يزال شائعاً عند بعض معاصريه[٣٨] ، وأوصى باستعمال الكداس الجاف[*] لمعالجة المغص ، ووضع روث المعز على الورم ، وترك ثبتاً طويلا بالأمراض التى يمكن علاجها بالترياق[**] — وهو دواء ذائع الصيت فى ذلك الوقت صنع لمثرداتس الأكبر ليقاوم به السم ، وكان يقدم لماركس أورليوس كل يوم ويدخل فيه لحم الأفاعى[٣٩] .

لكنه لوث سجله الحافل بالتجارب وشهرته فيها بسبيل من النظريات التى تعجل فى وضعها . وكان يسخر من السحر والرقى ، ويقبل التنبؤ بالغيب عن طريق الأحلام ، ويظن أن أوجه القمر تؤثر فى أحوال المرضى ؛ وصدق فكرة أبقراط عن الأخلاط الأربعة (الدم ، والبلغم ، والسائل الصفراوى الأسود الأصفر)[†] ، وعمل على سرعة انتشار عقيدة فيثاغورس فى الأركان (العناصر) الأربعة (التراب ، والهواء ، والنار ، والماء) ، وحاول أن يرد الأمراض كلها إلى اختلال فى تلك الأخلاط أو هذه الأركان . وكان قوى الاعتقاد بوجود الروح ، مؤمناً بأن النفْس (pneuma) أو النَّفَس الحيوى أو الروح تسرى فى كل جزء من أجزاء الجسم ، وتبعث فيه النشاط والحركة . وكان كثيرون من الأطباء قد أخذوا يفسرون نظريات علم الأحياء تفسيراً آلياً ؛ ومن هؤلاء أسكليبياديز الذى كان يرى أن علم وظائف الأعضاء يجب أن ينظر إليه على أنه فرع من الطبيعة ؛ ولكن جالينوس اعترض على هذه الفكرة ؛ وقال إن الآلة ليست إلا مجموعة

(*) بق متجانس الأجنحة .

(**) يسمى أيضاً الدرياق ، والدرياج ، والطرياق واللفظ يونانى معرب (شرف) .

(†) لقد عاد الطب الحديث يؤكد شدة أهمية إفرازات الغدد

أجزائها ، وأما الكائن العضوى فإنه يشتمل أيضاً على الإشراف الغائى على جميع أجزاء الكل . وكما أن الغاية وحدها هى التى يمكن بها تفسير منشأ الأعضاء وتركيبها ، ووظيفتها ؛ فكذلك يرى جالينوس أن الكون لا يمكن أن يفهم إلا على أنه تعبير عن خطة إلهية وأداة لتنفيذ هذه الخطة . لكن الله لا يعمل إلا بوساطة قوانين طبيعية ، وعلى هذا ليس ثمة معجزات ، وخير وحى هو الطبيعة نفسها .

وأحب المسيحيون جالينوس لإيمانه بالغائية وبالوحدانية فى الدين ، كما أحبه المسلمون بعدئذ لهذا السبب عينه ؛ وقد فقدت أوربا كل كتاباته تقريباً فى أثناء الفوضى التى أعقبت غزوات البرابرة ، ولكن علماء العرب حفظوها لبلاد الشرق ، ثم ترجمت هذه المؤلفات من اللغة العربية إلى اللاتينية فى القرن السابع والقرون التى تلته ، وأصبح جالينوس بعدئذ المرجع المعترف به الذى لا يوجه إليه نقد ، فكان هو أرسطو الطب فى العصور الوسطى .

واختتم آخر عصر مبدع من عصور العلم اليونانى ببطليموس وجالينوس ، ومن بعدهما انتهى عصر التجارب وساد عصر العقائد التحكمية ، وانحط علم الرياضة فأصبح مجرد ترديد للهندسة ، كما انحط علم الأحياء فأصبح ترديداً لأقوال أرسطو ، وانحطت العلوم الطبيعية فأصبحت ترديداً لأقوال بلنى ، ووقف الطب جامداً حتى جاء أطباء العرب واليهود فى العصور الوسطى فجددوا هذا العلم الذى يعد أشرف العلوم على الإطلاق .

الفصل الرابع

الشعراء فى الصحراء

تقع بلاد العرب فى الناحية الشرقية من البحر الأحمر ، وقد عجز الفراعنة ، والأكمينيوم ، والسلوقيون ، والبطالمة ، والرومان عن فتح تلك الجزيرة الغامضة العجيبة ، ولذلك ظلت صحراء العرب لا تعرف إلا العرب البدو . لكن فى جزئها الجنوبى الغربى سلسلة جبلية تسيل فيها عدة مجار مائية فتلطف حرارتها ، وتنبت فيها أشجار الفاكهة وتخلق منها بلاد العرب السعيدة Arabia Felix أو بلاد اليمن كما يسمونها فى هذه الأيام . وقد قامت فى خبايا تلك البلاد مملكة سبأ الصغيرة التى ورد ذكرها فى التوراة(*) ، والتى يكثر فيها الكندر ، والمر ، والقشية (خيار شنبر) ، والقرفة ، والصبر ، والبردين ، والسنا المكى ، والصمغ ، والحجارة الكريمة . وقد استطاع أهلها أن يشيدوا عند مأرب وغيرها من الأماكن مدناً تزهو بهياكلها ، وقصورها ، وأروقتها المعمدة[٤٠] . ولم يكتف تجار العرب بأن يبيعوا محصولات بلادهم بأغلى الأثمان ، بل كانوا يسيرون فيها القوافل التجارية إلى بلاد شمالى آسية الغربى ، وكانت لهم تجارة بحرية نشيطة مع مصر ، وپارثيا ، وبلاد الهند . وبعث أغسطس إيليوس جالس فى عام ٢٥ ق . م ليضم تلك المملكة إلى الإمبراطورية الرومانية ، ولكن فيالقه عجزت عن الاستيلاء على مأرب وعادت إلى مصر بعد أن قضت الأوبئة وشدة الحرارة على عدد كبير من رجالها . وحينئذ اكتفى أغسطس بتدمير ميرفأ أدانا (عدن) العربى ، فأمن بذلك التجارة بين مصر والهند .

وكان أهم الطرق التجارية الممتدة من مأرب إلى الشمال يخترق الطرف الشمالى

(*) والقرآن . (المترجم) .

الغربى من جزيرة العرب ، المعروف عند الأقدمين باسم بلاد العرب البطرية نسبة إلى عاصمتها بطرة التى تبعد عن أورشليم بنحو أربعين ميلا جهة الجنوب . وكان السبب فى إطلاق هذا الإسم على المدينة أنها كانت قائمة وسط دائرة من الصخور الوعرة جعلتها أمنع من عقاب الجو . وفى هذا الجزء أقام العرب فى القرن الثانى مملكة أخذت تزداد ثراء على مر الأيام حتى امتد سلطانها من لوس كوم Leuce Come على البحر الأحمر إلى دمشق ، واشتملت على الجزء المصاقب لحدود فلسطين الشرقية وجراسا Gerasa وبُصرى . وبلغت هذه المملكة ذروة مجدها تحت حكم الملك أرتاس الرابع Aretas (٩ ق . م — ٤٠ م) ، وأضحت بطرة أيامه بلدة هلنستية ، لغتها آرامية ، وفنها يونانى ، وشوارعها فى عظمة شوارع الإسكندرية ؛ وتنتمى إلى هذا العصر القبور الضخمة المنقورة فى الصخور القائمة فى خارج المدينة ، وهى ذات واجهات ساذجة خشنة ولكنها تنبئ عن القوة ، وعمد يونانية مزدوجة ، يبلغ ارتفاعها فى بعض الأحيان مائة من الأقدام . وبعد أن ضم تراجان المملكة الشمالية إلى إمبراطوريته (١٠٦) جعل بُصرى عاصمة ولاية بلاد العرب ، فشادت تلك المدينة العمائر التى ترمز إلى ثرائها وسلطانها . واضمحلت بطرة بعد أن أصبحت طرق القوافل التجارية تلتقى عند بصرى وتدمر Palmyra ، وانحط شأن المقابر العظيمة حتى أضحت « مذاود ليلية لقطعان البدو »[٤١] .

وكان أبرز مظاهر الإمبراطورية العظيمة كثرة مدائنها العامرة بالسكان ، ولم تنشأ مدن فى عصر من العصور التالية لذلك العصر ، إذا استثنينا القرن الحالى ، بالكثرة التى أنشئت بها فى ذلك العهد ، فقد كان لوكلس ، وپمپى ، وقيصر ، وهيرود ، والملوك الهلنستيون ، والأباطرة الرومان يفاخرون بما ينشئون من المدن الجديدة وبتزيين المدن القديمة ، حتى لقد كان يصعب على الإنسان وهو ينتقل نحو الشمال محاذيا للشاطئ الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، أن يسير عشرين ميلا

دون أن تلقاه مدينة رفح (رافيا) ، وغزة ، وعسسقلان ، ويافا (چپا) ، وأپلونيا ، والسامرة ، وقيصرية . وكانت هذه المدن رغم وجودها فى فلسطين نصف يونانية فى سكانها ، تسودها لغة اليونان وثقافتهم وأنظمتهم . فكانت — والحالة هذه — بمثابة جسور تنتقل عليها الهلنستية فى غزوها الوثنى لبلاد اليهود . وأنفق هيرود أموالا طائلة فى جعل مدينة قيصرية خليقة بأغسطس الذى سميت باسمه ، فأنشأ لها مرفأ صالحا جميلا ، ومعبداً شامخاً ، وملهى ومدرجاً ، وأقام فيها قصوراً فخمة وصروحا كثيرة من الحجر الأبيض »(٤٢) . وأنشئت فى داخل البلاد مدن أخرى يونانية فلسطينية — ليڤياس Livias ، وفلادلفيا ، وچراسا ، وجندارا (قطرة Katra) : وفى چراسا مائة عمود هى كل ما بقى من العمد التى كانت قائمة على جانبى شوارعها الرئيسية ؛ وإن خرائب هياكلها ، وملهاها ، وحماماتها ، ومجرى مائها لتنطق بما كانت عليه المدينة من الثراء فى القرن الثانى بعد الميلاد .

وكانت جدارا ، التى تتردد فى خرائب ملهاها صدى ذكريات المسرحيات اليونانية ، تشتهر بمدارسها ، وأساتذتها ، ومؤلفيها . وفيها عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد منپس Menippus الفيلسوف والفكاهى الكلبى الذى يعلم بهجائه أن كل شىء عدا الحياة الصالحة باطل ، والذى كان مثالا احتذاه لوسليوس ، وڤارو ، وهوراس . وفى هذه المدينة « أثينة سوريا » أنشأ مليجر ، أنكريون زمانه ، قبل ميلاد المسيح بنحو ألف عام تلك المقطوعات الشعرية المصقولة التى كان يتغزل فيها بجمال النساء والغلمان . وظل يكتب قصائد الحب حتى كلَّ قلمه :

« ما أحلى ابتسام الكأس للحبيب العزيز ، بعد أن مسها فم زنوفيلا Zenophila الجميل . وما أسعدنى إذا وضعت شفتيها الورديتين على شفتى ، وعبت روحى عبا فى عناق طويل »(٤٣) .

وكان لهيب من هذا النوع ، خبا قبل الأوان ، يشتعل قويا فى ذاكرته . ذلك هو هليودورا Heliodora التى أحبها فى صور .

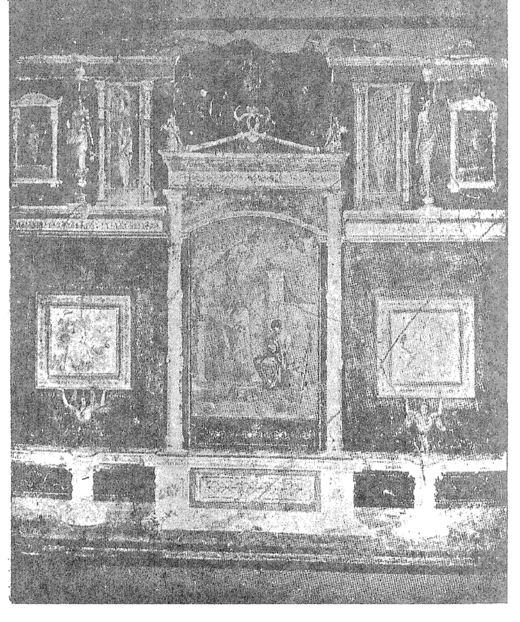
سأجدل البنفسج الأبيض ، والآس الأخضر ؛ سأجدل النرجس ، والزنبق اللامع ؛ سأجدل الزعفران الحلو ، والسنبل البرى الأزرق ؛ وسأجدل آخر الأمر الورد رمز الحب الأكيد ، حتى يتألف منها جميعاً تاج من الجمال خليق بأن يزين غدائر هليودورا الحلوة(٤٤) . والآن وقد اختطفها الموت ولوث الثرى زهرتها الناضرة ، فإنى أتوسل إليك يا أمنا الأرض أن نكونى رحيمة حين تضمينها إلى صدرك »(٤٥) .

وقد خلد مليجر اسمه بأن جمع فى « إكليل » (Sléphamos) ما قاله شعراء اليونان فى الرثاء من أيام سابفو Sapphs إلى أيام مليجر . ومن هذه المجموعة وأمثالها من المجموعات نشأت دواوين الشعر اليونانى(*) . وفيها نجد أحسن المقطوعات الشعرية وأسوأها ، فمنها ما هو مصقول كصقل الجواهر ، ومنها ما هو أجوف كالألغاز . ولم يكن من الحكمة أن تقطف هذه « الأزهار » الأربعمائة من غصونها ليصنع منها التاج الذابل .

ومن هذه الأبيات ما يحيى ذكرى بعض الموتى من عظماء الرجال ، ومنها ما يخلد ذكرى تماثيل مشهورة ، أو أقارب فارقوا هذه الدار . ومنها قبريات ذاتية ، إذا صح ذلك التعبير . فقد كتبت امرأة ، ماتت وهى تلد ثلاثة أطفال فى وقت واحد ، تقول تلك المقالة السديدة : « وبعد هذا فلتطلب النساء

(*) وقد ضم « إكليل » مليجر فى القرن السادس الميلادى إلى ديوان شعر كله تغزل فى الغلمان جمعه استرابون السرديسى (٥٠ ق . م) . وضمت إليه فيما بعد مقطوعات أخرى ، معظمها من أشعار المسيحين . وأخذ ديوان الشعر اليونانى شكله الذى هو عليه الآن فى القسطنطينية حوالى عام ٩٢٠ م .

الأبناء »(٤٦) . ومنها ما هو سهام موجهة إلى صدور الأطباء ، والنساء السليطات ، ومجهزي الموتى للدفن ، ومعلمى الأحداث ، والديوثين ؛ أو إلى صدر البخيل الذى أفاق من إغماءة لما شم رائحة فلس ؛ أو النحوى الذى ظهر حفيد له ذكراً ثم أنثى ثم شيئا آخر هو ذكر وأنثى معاً(٤٧) ؛ أو الملاكم المحترف الذى اعتزل حرفته ، وتزوج ، فكالت له زوجته ضربات أكثر مما كانت تكال له في حلبة الملاكمة ؛ أو القزم الذى اختطفته بعوضة فظن أنه يعانى الآلام من اختطاف جنميدى . وثمة مقطوعة تشيد بمدح « المرأة الشهيرة التى لم تضاجع إلا رجلاً واحداً » ؛ ومقطوعات أخرى تقدم بها القرابين للأرباب : ففى واحدة منها تعلق ليس Lais مرآتها بعد أن أصبحت عديمة النفع لأنها لا تظهرها بالصورة التى كانت عليها من قبل ؛ وفى أخرى نرى نيسياس Nicias تسلم راضية منطقتها إلى ڤينوس بعد أن قضت فى خدمة الرجال خمسين عاما . وتمجد بعض المقطوعات أثر النبيذ فى توسيع الشرايين وتقول إن هذا أحكم من الحكمة ؛ ومنها واحدة تمجد الزانى الذى يجمع فى وقت واحـــد بين اثنتين والذى دفن تحت الأنقاض بين ذراعى عشيقته ؛ ومنها مراثى وثنية تصف قصر الحياة ؛ ومنها توكيدات مسيحية ليوم البعث السعيد . ومعظمها، بطبيعة الحال ، يمتدح جمال النساء والغلمان ، ويتغنى بنشوة الحب الموجعة . وإنك لتجد هنا كل ما ورد فى الأدب بعد ذلك العصر عن آلام العاشقين وتجده موجزاً كاملا ، فيه من الأفكار أكثر مما فى الشعر الأنجليزى فى عصر إليزابث . من ذلك أن مليجر يتخذ بعوضة قوادة له ، ويحملها رسالته إلى الســيدة التى كان يحبها فى تلك الساعة . وهاهو ذا فلوديمس Philodemus ابن بلدته ، والفيلسوف الذى يســدى النصح لشيشرون ، يغنى لمحبوبته زنثو Xantho أغنية حزينة فيقول :



(شكل – ٧) نقش جداري من بيت فرنزيا الريفي (متحف ترمي بروما)

يا ذات الخدين الأبيضين كلون الشمع ، والصدر الناعم ذى العطر الشجى ، والعينين اللتين تعشش فيهما ربات الفن ، والشفتين الحلوتين اللتين تفيضـــان بأكمل اللذات . . . غنى لى أغنيتك يا زنثو يا ذات الوجه الشاحب غنى . . . ما أسرع ما تنقطع الموسيقى . أعيدى المنغمة الحلوة الحزينة مرة بعد مرة ، ومسى الوتر بأصابعك العطرة ؛ يا بهجة الحب ، يا زنثو الشاحبة ، غنى(٤٨) ..

الفصل الخامس

السوريون

تقوم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط فى جزئه الشمالى مدن فينيقية القديمة التى كانت هى وفلسطين جزءاً من ولاية سوريا الرومانية ؛ وقد ظلت هذه المدن حية طوال الحقبة التى دامت ألف عام مليئة بالأحداث الجسام وذلك بفضل عمالها المجدين البارعين فى الصناعات اليدوية ، وبفضل موقعها الذى جعل فيها على مر الأيام مرافئ تجارية هامة ، وتجارها المهرة الأغنياء الذين كانوا يرسلون سفنهم وعمالهم إلى كل مكان معروف على ظهر الأرض . وكان فى صور مبان أعلى من مبانى رومة(٤٩) . وأحياء أقذر من أحيائها ؛ تفوح منها روائح مصانع الصباغة الكريهة ؛ ولكنها كانت تعزى نفسها باعتقادها أن العالم كله يبتاع منسوجاتها ذات الألوان المتعددة الجميلة ، وبخاصة حريرها الأرجوانى . والراجح أن صيدا قد كشفت طريقة صنع الزجاج بالنفخ ، وأنها تخصصت وقتئذ فى صناعة الزجاج والبرنز ، واشتهرت برنيس (بيروت) بمدارس الطب والبلاغة والقانون ، وأكبر الظن أن أبيان وبابنيان المشترعين العظيمين قد تخرجا فى جامعتها ثم انتقلا منها إلى رومة .

ولم يكن فى الإمبراطورية كلها ولاية تفوق سوريا فى صناعاتها ورخائها ؛ وكان يعمرها فى زمن تراجان عشرة ملايين من الأنفس وإن كان سكانها الآن لا يزيدون على ثلاثة ملايين ولا يكادون يجدون ما يكفيهم من أسباب العيش(٥٠). وكان فى الولاية نحو خمسين مدينة تستمتع بالماء النقى ، والحمامات العامة ، والمجارى الممتدة تحت الأرض ، والأسواق النظيفة ، ومدارس التدريب الرياضى ، وساحات الألعاب ، والمحاضرات ، والموسيقى ، والمدارس ، والهياكل ، والباسلقات ، والأروقة المعمدة ، والأقواس ، والتماثيل العامة ، ومعارض الفن العمومية ، وهى

المظاهر التى كانت تمتاز بها المدن الهلنستية فى القرن الاول بعد الميلاد(٥١)
وكانت أقدم هذه المدن كلها مدينة دمشق القائمة وراء جبال لبنان المواجهة
لصيدا ، وكانت تحميها الصحراء المحيطة بها . وقد أحالتها إلى حديقة غناء
روافد وفروع لذلك المجرى الذى سماه الأقدمون « نهر الذهب » اعترافاً منهم
بفضله . وكانت تلتقى عندها كثير من طرق القوافل ، وتفرغ فى أسواقها
غلات قارات ثلاث .

وإذا عاد المسافر فى هذه الأيام فعبر تلال لبنان الصغرى واتجه نحو الشمال
فى طرق متربة أدهشه أن يجد فى قرية بعلبك الصغيرة بقايا هيكلين فخمين
ومدخل عظيم ، كانت فى يوم من الأيام مما تفخر به هليوپوليس مدينة
الشمس اليونانية — الرومانية — السورية . وأسكن أغسطس فى ذلك المكان
جالية رومانية صغيرة ، ثم نمت المدينة وازدهرت وصارت مركز عبادة بعل
إله الشمس وملتقى الطرق الذاهبة إلى دمشق ، وصيدا ، وبيروت . وأقام
المهندسون والبناءون الرومان ، واليونان ، والسوريون فى مكان هيكل بعل
الفينيقى القديم مزاراً فخماً لجوبتر الهليوبوليسى ، أقاموا كل جدار من
جدرانه من حجر واحد ضخم قطعوه من محجر يبعد عن موضعه مسافة
ميل . وكانت إحدى كتله الحجرية تبلغ اثنتين وستين قدماً فى الطول وأربع
عشرة فى العرض ، وإحدى عشرة فى الارتفاع ، وفيها من المادة الحجرية
ما يكفى لبناء بيت رحب . وكانت إحدى وخمسون درجة من الرخام يبلغ
عرض الواحدة منها مائة وخمسين قدماً تؤدى إلى المدخل الكورنثى العظيم ،
فإذا اجتاز الإنسان البهو الأمامى والبهو الذى يليه المعمدين وجد البناء الرئيسى
للهيكل ، وقد بقى منه حتى الآن ثمانية وخمسون عموداً تعلو فى الجو اثنتين
وستين قدماً . وبالقرب من هذا الهيكل الكبير بقايا هيكل أصغر منه ،
يقال أحياناً إنه كان هيكل ڤينوس وأحياناً باخوس ، وأحياناً دمتر . وقد أبقى
الزمان على تسعة عشر عموداً من عمده ، وعلى باب جميل دقيق النقش . وتتألق
هذه العمد الفخمة المنعزلة فى شمس السماء الصافية ، وهى من أجمل ما بقى من

مخلفات العصور السالفة . وإن المرء حين يشاهدها ليحس ، أكثر مما يحس حين يشاهد أى أثر من آثار رومة ، بعظمة الإمبراطورية الرومانية ، وبما فيها من ثراء ، وشجاعة ، ومهارة ، وذوق جميل أمكنها بها أن تشيد فى مدنها الكثيرة المتفرقة هياكل أعظم وأكثر فخامة مما عرفته العاصمة المزدحمة فى أى عصر من عصورها .

وتقع على منظر كهذا عين السائح الذى يتجه نحو الشرق ويعبر الصحراء من حمص ، إمسا Emessa القديمة ، إلى تدمر التى ترجم اليونان اسمها إلى بلميرا Palmyra أى المدينة ذات الألف نخلة . وقد كانت أرضها الخصبة المحيطة بعينين نضاختين ، وموقعها الحسن على الطريقين الممتدين من حمص ودمشق إلى نهر الفرات ، سببا فى ثرائها ، فلم تلبث أن أصبحت من أكبر مدائن الشرق ؛ وقد أمكنها بعدها عن غيرها من المحلات أن تحتفظ باستقلالها الفعلى رغم تبعيتها الاسمية للملوك السلوقيين أو للأباطرة الرومان . وكان على جانبى شارعها الأوسط الرئيسى أروقة ظليلة تحتوى على ٤٥٤ عموداً ، وفى مواضع تقاطعه الأربعة أقواس فخمة بقى منها واحد حتى الآن شاهدا على ما كانت عليه بقية هذه الأقواس من عظمة وجلال . وكان أجمل مبانى المدينة كلها وأعظمها هيكل الشمس الذى شيد فى عام ٣٠ م . للثالوث الأعظم بعل ، وبرهبول (الشمس) وأجلبول (القمر) . وكان حجمه اطراداً لتقاليد الأشوريين فى الضخامة ، وكان بهوه ، وهو أكبر الأبهاء فى الإمبراطورية الرومانية ، يحتوى على صف من العمد لا مثيل له فى بلد من بلادها ، طوله أربعة آلاف قدم ؛ وكان الكثير منها عمدا كورنثية مرتبة صفوفا فى كل منها أربعة . وكان فى داخل البهو والهيكل رسوم ملونة ومنحوتة يدل ما بقى منها على اقتراب تدمر من پارثيا فى الفن كقربهما فى المكان .

ويبدأ من تدمر طريق رئيسى يتجه نحو الشرق ويصل إلى نهر الفرات عند دورا — أوريس Dua-Europus . وهنا اقتسم التجار (عام ١٠٠ م)

مكاسبهم مع الثالوث التدمرى بأن شيدوا له هيكلا كان مزيجا من الفن اليونانى والهندى ؛ وزين مصور شرقى جدرانه بمظلات تدل أوضح دلالة على أن الفن البيزنطى والفن المسيحى الأول من أصل شرقى[٥٢] . وكان على النهر الأعظم شمال هذه المدينة مدينتان أخريان ذواتا شأن عند ملتقى طريقين بريين كبيرين وهما مدينتا ثپساكس Thapsacus وزجما Zeugma . وإذا اتجـه المسافر من ثپساكس نحو الغرب مر بمدينتى بروئيا Beroea (حلب) ، وأپاميا Apamea ووصل إلى البحر الأبيض المتوسط عند لأوديسيا Laodicea — التى لا تزال تحتفظ باسمها القـديم اللاذقية مع تحريف قليل فيه ، ولا تزال أيضاً ثغرا ناشط الحركة . وبين هذه البلدة وأپاميا يتجه نهر العاصى نحو الشمال وتمتد على شاطئيه ضياع غنية حتى يصل إلى أنطاكية عاصمة سوريا فى ذلك الوقت . وكان النهر تعاونه شبكة عظيمة من الطرق البرية يحمل بضائع الشرق إلى أنطاكية ، بينا كانت سلويا سپيريا Selluci Spieria ثغر البلاد الواقع على البحر الأبيض على بعد أربعة عشر ميلا من أنطاكية نحو مصب النهر تأتى إليها بحاصلات الغرب . وكان الجزء الأكبر من المدينة يقوم على سفح الجبل ويشرف على نهر العاصى الذى يجرى من تحته . وكانت المدينة ذات موقع جميل استطاعت انطاكية بفضله أن تنافس رودس فى أن تكون أجمل مدائن الشرق الهلنستى . وكانت شوارعها تضاء بالليل فتكبسها بهجة وجمالا ، وتؤمن سكانها على أنفسهم وأموالهم . وكان شارعها الرئيسى البالغ طوله أربعة أميال ونصف ميل مرصوفاً بالحجر الأعبل ، ويقوم على جانبيه صفان من العمد المسقفة ، فكان فى وسع الإنسان أن يسير راجلا من أحد طرفى المدينة إلى طرفها الآخر وهو آمن من المطر وحر الشمس . وكان الماء النقى يصل بمقادير موفورة إلى كل بيت من بيوتها . وقد اشتهر سكانها البالغ عددهم ٦٠٠٫٠٠٠ ، والذين كانوا خليطا من اليونان ، والسوريين ، واليهود بإفراطهم فى اللهو والمرح ، يعبون اللذات عبا ، ويسخرون من الرومان

المتباهين الذين جاءوا ليحكموهم ، والذين يقضون أوقاتهم بين حلبة الألعاب ، والمدرج ، والمواخير ، والحمامات ، ويستمتعون بكل ما يتيحه لهم دافنى Daphne بستانهم الشهير القائم فى ضاحية المدينة . وكان للأهلين أعياد كثيرة ، تستمتع أفروديتى بنصيب فيها كلها . وفى عيد بروماليا Brumalia الذى كان يدوم معظم شهر ديسمبر ، كانت المدينة كلها ، كما يقول كاتب معاصر ، تبدو كأنها حانة واحدة ، وكانت الشوارع تعج طول الليل بالغناء والقصف والمرح(٥٣) . وكان فيها مدارس لتعليم البلاغة ، والفلسفة ، والطب ، ولكنها لم تكن مركزاً علمياً ، ذلك أن أهلها كانوا يقضون يومهم كله فى العمل ، فإذا احتاجوا للدين لجأوا إلى المنجمين ، والسحرة ، وصناع المعجزات ، والمشعوذين .

والصورة التى تطالعنا لسوريا تحت حكم الرومان هى صورة البلد الرخى رخاء أدوم من رخاء أية ولاية أخرى من ولايات الدولة الرومانية . وكان معظم أهلها من الأحرار إلا من كان يقوم منهم بالخدمة فى البيوت . وكانت الطبقات العليا مصطبغة بالصبغة اليونانية ، أما الطبقات الدنيا فقد احتفظت بطابعها الشرقى . وكان الفلاسفة اليونان يختلطون فى المدينة الواحدة بعاهرات الهياكل والكهنة الفنيين ، وقد ظل الأطفال حتى أيام هدريان يضحى بهم قرباناً للآلهة(٥٤) ، وكانت التماثيل المنحوتة والصور الملونة ذوات وجوه وأشكال نصف شرقية ، وعليها طابع العصور الوسطى . وكانت اللغة اليونانية اللغة السائدة فى دور الحكومة وفى الأدب ، ولكن لغات البلاد — وأهمها الآرامية — ظلت لغة التخاطب بين الأهلين . وكان العلماء فيها كثيرين ، وقد طبقت شهرتهم العالم كله فترة قصيرة من الزمان . فقد كان منهم نقولوس الدمشقى الناصح الأمين لأنطونيوس وكليوبطرة ، وهيرود ، والذى أخذ على عاتقه ذلك الواجب الثقيل الممل واجب كتابة تاريخ عام ، وهو واجب يشفق منه هرقول نفسه ، على حد قوله(٥٥) . وقد أشفق الدهر عليه فدفن كل مؤلفاته ، كما سيدفن مؤلفاتنا هذه على مهل .

الفصل السادس

آسية الصغرى

كان فى شمال سوريا مملكة كمچينى Commagene التى كانت فى أول الأمر منضمة للإمبراطورية الرومانية ثم أصبحت فيما بعد ولاية من ولاياتها ؛ وكانت عاصمتها سموساتا Samosata ، التى قضى فيها لوشيان أيام طفولته ، آهلة بالسكان . وكان فى الناحية الأخرى من نهر الفرات مملكة أسرهونى Osrhoene الصغيرة ؛ وقد حصنت رومة عاصمتها إذسا Edessa (أورفه) لتكون قاعدة لها ضد پارثيا ، وسنسمع الكثير عنها فى عصر المسيحية . وإذا اتجه المسافر غربا من سوريا انتقل إلى قليقية (كما ينتقل الآن إلى تركيا) عند الكسندريا إسى Alexandria Issi (الإسكندرونة) . وكانت هذه الولاية ، وهى ولاية شيشرون ، ذات حضارة راقية تمتد على الساحل الجنوبى لآسية الصغرى ، ولكنها فى جزئها الواقع على جبال طوروس لم تكن قد خرجت بعد من طور الهمجية .. ولم تكن حاضرتها طرسوس « بالمدينة الحقيرة » كما يقول ابنها القديس بولس ، بل كانت تشتهر بمدارسها وفلاسفتها .

وكان أمام قليقية فى البحر الأبيض المتوسط جزيرة قبرص تعمل كما كانت تعمل من أقدم الأزمنة فى استخراج النحاس ، وقطع أشجار السرو ، وبناء السفن ، وتتلقى صابرة ضربات الفاتحين . وكانت مناجمها الغنية ملكا لرومة تستغلها على أيدى الأرقاء . ويصف جالينوس فى أيامه منجماً انهار على من فيه وقضى على حياة مئات من العمال — وتلك حادثة تتكرر آناً بعد آن فى الأسس الحيولوجية لقوى الإنسان وأسباب راحته .

وكان إلى شمال قليقية ولاية كپدوكيا الجبلية القاحلة ، الغنية بمعادنها النفيسة ، والتي تنبت القمح وتربى الماشية والعبيد لتصدرها إلى خارجها . وكان إلى غربها ولاية ليكاؤنيا Lycaonia التي يبدأ تاريخها بزيارات القديس بولس للدربي Derbe ، وليسترا Lystra وأيكونيوم iconium . وفي شمال هذا الإقليم نجد جلاتيا Galatia التي استوطنها الغاليون وأطلقوا عليها هذا الاسم في القرن الثالث قبل الميلاد . وكان أهم ما أخرجته هو حجر پسينس Pessinus الأسود الذي أرسل إلى رومة ليكون رمزاً لسيبيل ؛ وكانت أهم مدنها في ذلك الوقت مدينة أنقورة Ancyra (أنقره) التي كانت عاصمة الحثيين منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ، والتي صارت عاصمة تركيا في هذه الأيام . وكان في ولاية پيسيديا Pisidia الواقعة غرب قليقية خمس مدن جميلة مثل زنثوس التي كانت وقتئذ قد بدأت تستفيق من الانتحارات الكثيرة قبل بروتس ، وأسپندس Aspendus التي احتفظت بملهاها إلى درجة يسهل على الإنسان معها أن يتصوره وقد امتلأ مرة أخرى ليستمع إلى منندر أو يوريبديز .

وكان في شمال پيسيديا وغربها ولاية « آسية » بأقسامها الأربعة : فريچيا ، وكاريا ، وليديا ، وميزيا Mysia . وكانت حضارة أيونيا لا تزال مزدهرة في هذه الولاية بعد أن بدأت فيها منذ ألف عام ؛ وقد استطاع فيلوستراتس أن يحصى فيها خمسمائة بلدة يبلغ مجموع سكانها أكثر مما تكفيهم موارد الإقليم كلها في هذه الأيام . وكان ريفها خصباً ، وكانت الصناعات قد ازدادت دقة جيلا بعد جيل ، وكانت الثغور قد أفادت من قيام الأسواق الغنية في إيطاليا ، وأفريقية ، وأسپانيا ، وغالة . لقد كانت فريجيا بلاداً جبلية ، ولكنها كانت تزهو بمدنها الكبيرة كأپميا سيليني Apamea Celaenae — التي يقول استرابون إنها لا يفوقها إلا إفسيس في « آسية » — ولوديسيا التي أسعدها الحظ بفلاسفتها وأثريائها المحسنين الخيرين : وكانت نيدس Cnidus لا تزال على قدر من الغنى يمكنها من

أن تحالف رومة ، أما هلكرنسس فكانت قد انحدرت فلم تنجب أرق من ديونيشيس — وهي التي أنجبت هيرودوت — وكان ديونيشيس هذا ناقداً أديباً بارعاً ولكنه كان مؤرخاً تعوزه القدرة على النقد والتمحيص . وكانت ميلتس قد جاوزت عهد شبابها ، وإن كانت لا تزال ثغراً نشيطاً ؛ وكان وحى أبلو فى ديديما Didyma القريبة منها لا يزال يجيب عن الأسئلة إجابات ملغزة ، وكان القصاصون فى هذا الإقليم ينسجون « القصص الميليتية » الغزلية ذات الخيال الوثاب التى تطورت بعد قليل من الوقت فكانت هى الروايات اليونانية القصصية الطويلة . وكانت بريينى Priene بلدة صغرى ، ولكن أهلها أخذوا يتبارون فى تجميلها بالمبانى الفخمة . وفى هذه المدينة انتخبت فى القرن الأول الميلادى امرأة تسمى فيلى Phile لتشغل أسمى المناصب فى البلدة وذلك لأن نفوذ رومة وثراءها قد أخذا يرفعان من منزلة المرأة فى الأراضى الهلينية . وكانت مجنيزيا القائمة على ضفة الميندر تضم هيكلا يعده الكثيرون أقرب هياكل آسية إلى الكمال — وكان مخصصاً لعبادة أرتميس (١٢٩ ق . م) . وقد خططه هرموجنيز Hermogenes أعظم مهندسى ذلك العنصر . وكان العامة من أهل ميكالى لا يزالون يجتمعون فى كل سنة ليكون منهم اتحاد عام ومجلس دينى لأيونيا .

واشتهرت كوس إحدى الجزائر القريبة من ساحل كاريا بنسج الحرير وبمدرستها الطبية الغنية بتقاليد أبقراط ؛ وكانت رودس (الوردة) حتى فى إبان ضعفها أجمل مدائن العالم اليونانى . ولما أن أراد أغسطس بعد الحرب الأهلية أن يخفف من بؤس المدن الشرقية بالسماح لها بإلغاء الديون كلها ، أبت رودس أن تفيد من هذا التيسير ؛ وأدت كل ما عليها من التزامات بصدق وأمانة . وكان من أثر هذا أن استعادت بعد زمن قليل مكانتها بوصفها المصرف المالى لتجارة بحر إيجة ، وعادت كما كانت من قبل الميناء الذى ترسو فيه البواخر المسافرة بين آسية ومصر . وقد اشتهرت المدينة بتمثالها الضخم المحطم ، ومبانيها الجميلة ،

وتماثيلها الرائعة ، وشوارعها المنظمة النظيفة ، وحكومتها الأرستقراطية القديرة ، ومدارس الفلسفة والخطابة الذائعة الصيت . وفى هذه المدارس علم أبلونيوس مولو قيصر ، وشيشرون تلك الأساليب الفنية التى أثرا بها فى كل ما كتب بعدها من نثر لاتينى .

وكان أشهر عظماء رودس فى ذلك العصر هو پوسيدونيوس صاحب أكبر عقل منشئ مبدع فى التاريخ القديم كله . وكان مولده فى إپاميا Apamea من أعمال سوريا عام ١٣٥ ق . م ، وكان أول ما اشتهر به سرعة عدوه فى المسافات البعيدة ، وبعد أن درس على پنيتيوس Panetius فى أثينة اتخذ رودس وطناً له ، وعمل فيها حاكما وسفيراً ، وطاف بعدة ولايات رومانية ، ثم عاد إلى رودس ، واجتذب إلى محاضراته فى الفلسفة الرواقية عظماء الرجال أمثال پمپى وشيشرون . وذهب فى الثالثة والثمانين من عمره ليعيش فى رومة ومات فيها فى السنة التالية . ومن مؤلفاته كتاب التاريخ العام المفقود الذى يقص تاريخ رومة وممتلكاتها من عام ١٤٤ إلى عام ٨٢ ق . م ؛ وكان العلماء القدامى يضعونه فى منزلة كتاب پولبيوس . وكان وصفه لرحلاته فى غالة ، ورسالته عن المحيط من المصادر التى استمد منها استرابون كتاباته . وكان تقديره بعد الشمس عن الأرض — ٥٢٫٠٠٠٫٠٠٠ — أقرب إلى تقدير هذه الأيام من تقدير أى عالم قبله . وقد سافر إلى قادس Cadis ليدرس المد والجزر ، وفسر هذه الظاهرة بأنها من فعل الشمس والقمر مجتمعين . وقدر عرض المحيط الأطلنطى بأقل من عرضه الحقيقى ، وتنبأ بأن فى مقدور المسافر من أسپانيا أن يصل إلى الهند بعد أن يقطع ثمانية آلاف ميل . وكان رغم إلمامه بالعلوم الطبيعية يؤمن بكثير من الأفكار الروحية السائدة فى عصره — فكان يعتقد بالشياطين وبالقدرة على معرفة الغيب ، وبالتنجيم ، وقراءة الأفكار ، وبقدرة الروح على أن ترقى حتى تتحد اتحاداً

صوفيا بالله ، وعرف الله بأنه القوة الحيوية للعالم . وقد عده شيشرون أعظم الفلاسفة الرواقيين وكان فى هذا مبالغاً فى كرمه ، وفى وسعنا نحن أن نعده من رواد الأفلاطونية الجديدة ، وأن نرى فيه قنطرة انتقال من زينون إلى أفلوطينس .

وإذا سار المسافر محاذيا ساحل آسية وميمما شطر الشمال من كاريا دخل ليديا وأقبل على إفسوس أعظم مدائنها . وقد ازدهرت فى أيام الرومان كما لم تزدهر من قبل . ومع أن برجموم كانت العاصمة الرسمية لولاية «آسية» الرومانية فإن إفسوس أضحت مقر الحاكم الرومانى والموظفين التابعين له ؛ هذا إلى أنها كانت أهم ثغور الولاية ، ومكان اجتماع جمعيتها الوطنية . وكان سكانها خليطا من أجناس مختلفة ، بلغ عـــددهم ٠٠٠ ر ٢٢٥ ، ويختلفون من السوفسطائيين الخيرين المحبين للإنسانية إلى الغوغاء الصخابين المخرفين . وكانت شوارع المدينة حسنة الرصف والإضاءة ، وكانت لها بواك مظللة تمتد أميالا عدة . وكان فيها كثير من المبانى العامة التى توجد فى غيرها من المدن ، وقد كشف بعضها من تاريخ قريب لا يبعد عن عام ١٨٩٤ : ومن هذه المبانى «متحف» أو مركز علمى ، ومدرسة طب ، ودار كتب ذات واجهة عجيبة مسرفة فى النقش والزينة ، وملهى يتسع لستة وخمسين ألفاً من النظارة . وهنا أثار دمتريوس صانع التماثيل العامة على القديس بولس بعد هذا العهد . وكان مركز المدينة وأهم مصرف مالى فيها هو هيكل أرتميس ، وكان يحيط به ١٢٨ عموداً كل واحد منها مهدى من أحد الملوك ؛ وكان يقوم على خدمة كهنته الخصيان قسيسات عذارى وحشد من الأرقاء ، وكانت طقوسهم مزيجا من الطقوس الشرقية واليونانية : وكان للتمثال البربرى الذى يمثل هذه الإلهة صفان من الأثداء الكثيرة العدد ترمز إلى الخصوبة . وكان الاحتفال بعيد أرتميس يجعل أيام مايو كلها أيام بهجة ، ومرح ، وحفلات ، وألعاب .

وكان جو أزمير أطيب من جو غيرها من البلدان رغم كثرة من كان فيها

من صيادى السمك . وقد وصفها أبولونيوس التياناى Apollonius of Tyana الذى كان جواب آفاق بأنها « أجمل مدينة تحت الشمس »(٥٩). وكانت تزدهى على غيرها من المدن بشوارعها الطويلة المستقيمة ، وأعمدتها ذات الطبقتين من القرميد ، ومكتبتها ، وجامعتها . وقد وصفها رجل من أشهر أبنائها ، وهو إيليوس أرستيديز Aelius Aristides (١١٧ — ١٨٧ م) وصفا يكشف عما كانت عليه المدن الرومانية الهلنستية من روعة وبهاء ، فقال :

سر فيها من الشرق إلى الغرب تمر بهيكل فى إثر هيكل ، ومن تل فى إثر تل ، مخترقاً شارعا أجمل من اسمه (الطريق الذهبى) . ثم قف فوق حصنها تر البحر يمتد تحتك ، والضواحى تنتشر حولك . والمدينة إذا نظرت إليها ثلاث نظرات ملأت قلبك سروراً وغبطة . . . وكل شىء فيها من طرفها الداخلى إلى شاطئ البحر كتلة براقة من ساحات للألعاب ، وأسواق ، وملاه . . . وحمامات بلغت من الكثرة حداً لا يسهل عليك معه أن تعرف فى أيها تستحم ، وفوارات وطرقات عامة ، ومياه جارية فى كل بيت من بيوتها . وإن ما فيها من مناظر جميلة ، ومباريات ، ومعارض ليجل عن الوصف ؛ أما الصناعات اليدوية فحدث عن كثرتها ولا حرج . وهذه المدينة هى أنسب المدائن كلها لمن يريدون أن يعيشوا فى هدوء وطمأنينة ليكونوا فلاسفة لا يعرفون الغش والخداع(٦٠) .

وكان إيليوس واحداً من كثيرين من البلغاء والسوفسطائيين الذين اجتذبت شهرتهم الطلاب إلى أزمير من جميع بلاد هلاس ؛ وكان معلمه پوليمو Polemo رجلا بلغ من العظمة — كما يقول فيلوستراتس — « درجة جعلته يتحدث والمدائن أقل منه ، والأباطرة لا يعلون عليه ، والآلهة أنداد له(٦١) . وكان إذا حاضر فى أثينة استمع إليه هرودس أتكس Herodes Atticus أعظم منافسيه فى البلاغة ، وكان من تلاميذه المعجبين به . وأرسل إليه هرودس ١٥٠,٠٠٠ درخمة (٩٠,٠٠٠ ريال أمريكى) نظير استمتاعه بميزة الاستمتاع إلى محاضراته ؛

ولما لم يشكر له بوليمو عمله هذا ، قال له أحد الأصدقاء إن الحاضر قد استقل المبلغ ، فبعث إليه هرودس مائة ألف أخرى ، قبلها بوليمو فى هدوء على أنها حق له . وقد استخدم بوليمو ثروته فى تزيين المدينة التى اتخذها وطناً له ؛ واشترك فى حكمها ، ووفق بين أحزابها ، وكان سفيراً لها . وتقول الرواية المأثورة إنه أيقن أنه لا يطيق الصبر على داء المفاصل الذى كان مصاباً به ، فدفن نفسه فى قبر أسلافه فى لأوديسيا ، وأمات نفسه جوعاً فى سن السادسة والخمسين(٦٢) .

وكانت سرديس ، عاصمة كروسس القديمة ، لا تزال « مدينة عظيمة » فى عهد استرابون . وقد تأثر شيشرون بعظمة متلينى وجمالها ووصفها لنجس Longus فى القرن الثالث وصفاً يذكرنا بجمال مدينة البندقية(٦٣) ؛ وكانت برجموم يتلألأ فيها المذبح العظيم ، والمبانى الفخمة التى شادها ملوكها من أسرة أتالس Attalus ، وأنفقوا عليها من الخزائن التى امتلأت بالمال من كدح العبيد فى غابات الدولة ، وحقولها ، ومناجمها ، ومصانعها ؛ وقد استبق أتالس الثالث التوسع الرومانى والانقلاب الاجتماعى بأن أوصى بمملكته إلى رومة فى عام ١٣٣ ق . م ؛ غير أن أرستنكس ابن الملك يومنيز الثانى من إحدى المحظيات نقض الوصية وقال إن أتالس أرغم عليها ؛ ثم حرض العبيد والأحرار الفقراء على الثورة ، وهزم جيشاً رومانيا (١٣٢) ، واستولى على عدد كبير من المدن ، ووضع قواعد دولة اشتراكية بمعونة بلوسيوس Blossius معلم ابنى جراكس . وانضم إلى رومة ملكا بثينيا وبنتس المجاورتين لبرجموم ، كما انضم إليها طبقات رجال الأعمال فى المدن المحتلة فأخمدت رومة بمعونتهم هذه الثورة ومات أرستنكس فى أحد السجون الرومانية . وعاقت الثورة والحروب المتردائية حياة برجموم الثقافية مدى نصف قرن من الزمان ، ونهب أنطونيوس مكتبتها الشهيرة ليعوض بها الإسكندرية عن الكتب التى احترقت منها أثناء إقامة قيصر فيها . وما من شك فى أن برجموم قد انتعشت قبيل عهد فسبازيان ، وشاهد ذلك أن بلنى الأكبر حكم بأنها أكثر

مدائن آسية ازدهاراً . وقامت فيها أيام الأنطونيين حركة بناء جديدة ، ونشأت فى الإسكلپيوم مدرسة طبية خرج منها جالينوس ليداوى أمراض العالم .

واستحالت اسكندريةترواس Alexandria Troas على يد أغسطس مستعمرة رومانية تخليدا لأصل رومة الطروادى المزعوم ، وقد استندت رومة إلى هذا الأصل المزعوم فى مطالبتها بجميع البلاد التى وصفناها فى هذا الفصل . وقد أعيد بناء طروادة القديمة على تل قريب من هـــذه البلدة (حصار لك) ، وسميت باسم إليوم Illium الجديدة ، وأضحت بعد بنائها مقصداً للسياح ، وكان الأدلاء يرشدونهم إلى كل بقعة حدثت فيها إحدى الحوادث الواردة فى الإلياذة ، ويطلعونهم على الكهف الذى حاكم فيه پاريس هيرا ، وأفرديتى ، وأثينة . وقد بنى سزكس Cyzicus سفنا على الپروپنتس وأرسل منها إلى جميع البحار المعروفة أسطولا تجارياً لم يكن ينافسه إلا أسطول رودس . وهنا شاد هدريان هيكلا لپرسفنى ، كان من أعظم الهياكل التى تفتخر بها آسية . ويقول ديوكاسيوس إن قطر كل عمود من أعمدته كان ست أقدام وارتفاعه خمساً وسبعين قدماً ، ومع هذا فقد كان العمود منحوتاً من كتلة واحدة من الحجر(٦٤) . وكان هذا الهيكل قائماً على ربوة ، ولهذا بلغ من الارتفاع حداً رأى معه إيليوس أن لا ضرورة لإقامة منارة لهداية السفن .

وقامت فى أيام السلم الرومانية مائة مدينة مزدهرة على الطريق الممتد من البحر الأحمر إلى البحر الأسود .

الفصل السابع

مثرداتس العظيم

كانت بيثينيا وپنتس تمتدان على السواحل الشمالية لآسية الصغرى ؛ وكانت أرضهما جبلية فى الداخل ، لكنها كانت غنية بالخشب والمعادن . وقد طغى على سكانها الحثيين الأقدمين خليط من التراقيين ، واليونان ، والإيرانيين وحكمت بيثينا أسرة ملكية يونانية — تراقية ، وشادت لها عاصمة فى نيقوميديا ، ومدينتين كبيرتين فى بروصه Prusa ونيقية . وأقام شريف إيرانى سمى مثرداتس دليلا على التقى والورع مملكة له حوالى عام ٣٠٢ ق . م شملت كپدوكيا وپنتس ، وأنشأ أسرة من الملوك البواسل نشروا الثقافة اليونانية فى البلاد ، واتخذوا كومانا پنتيكا Comana Pontica وسينوب عاصمتين لهم . وانتشر مُلكهم حتى اصطدم بمصالح رومة الاقتصادية والسياسية ؛ فشبت على أثر ذلك نار الحروب المثرداتية التى سميت بهذا الاسم الموائم لها كل المواءمة نسبة إلى الملك الجبار الذى جمع آسية الغربية وبلاد اليونان الرومانية ، ونشر فيها جميعاً لواء فتنة صماء لو أنها نجحت لبدلت تاريخ أوربا تبديلا .

وكان مثرداتس السادس قد ورث عرش پنتس وهو غلام فى الحادية عشرة من عمره ، وحاولت أمه هى والأوصياء عليه أن يقتلوه لتجلس هى على العرش مكانه ، لكنه قفز من قصره ، واختفى عن الأبصار ، وعاش أحد عشر عاماً فى الغابات يصطاد الوحوش ، ويتخذ من جلودها لباساً . وحدث فى عام ١١٥ ق.م انقلاب سياسى مفاجئ أدى إلى خلع أمه وإعادته إلى ملكه . وكانت تحيط

به المؤامرات التي هي من خصائص القصور الشرقية(*) ، فاحتاط لها بأن كان يتجرع قليلا من السم في كل يوم ، حتى كانت له حصانة من معظم أنواع السم التي كانت في متناول المقربين إليه . وقد كشف في أثناء تجاربه هذه كثيراً من العقاقير المضادة للسم والشافية منه . ثم امتدت هوايته من هذا إلى الطب بوجه عام ، فجمع فيه معلومات بلغ من قيمتها أن أمر بمبي بترجمتها إلى اللغة اللاتينية . وكانت حياته البرية الصارمة قد أكسبته قوة في الجسم وفي الإرادة ، وأن بلغ من الفخامة درجة رأى معها أن يرسل دروعه السابغة إلى دلفى ليشاهدها العابدون ؛ وكان فارساً ماهراً ، ومحارباً شجاعاً ، ويؤكد لنا عارفوه أنه كان في مقدوره أن يعدو بسرعة يدرك به ظباء الفلاة ، وأنه يستطيع أن يسوق عربة يجرها ستة عشر جواداً ، ويقطع مائة وعشرين ميلا في اليوم الواحد(٦٥) . وكان يفخر بقدرته على أن يأكل أكثر مما يأكل أي إنسان آخر ويشرب أكثر مما يشرب ، وكان له عدد كبير من النساء . ويقول المؤرخون الرومان إنه كان قاسي القلب ، غداراً ، وإنه قتل أمه ، وأخاه ، وثلاثة من أبنائه ، وثلاثاً من بناته(٦٦) ، ولكن رومة لم تنقل لنا ما عسى أن يقوله هو دفاعاً عن نفسه . ولقد كان مثقفاً بعض الثقافة ، في مقدوره أن يتكلم اثنتين وعشرين لغة ، ولم يستخدم قط مترجماً بينه وبين من يتحدث إليه من الأجانب(٦٧) . وقد درس الآداب اليونانية ، وكان مولعاً بالموسيقى اليونانية ، وأغنى بالمال والنفائس الهياكل اليونانية ، وكان في بلاطه عدد كبير من علماء اليونان ، وشعرائهم ، وفلاسفتهم . وقد جمع كثيراً من التحف الفنية ، وسك نقوداً ذات أشكال جميلة ممتازة . ولكنه لم يتورع عن الشهوانيـــة والفظاظة التي كان يمتلئ بها جو النصف

(*) ما يؤسف له أن المؤلف ينسى من آن إلى آن صفة المؤرخ النزيه فيغمز الشرق غمزات كان خليقاً به أن ينزه قلمه عنها . فلسنا نعلم أن الشرق قد اختصت قصور ملوكه بالدسائس ، وفي التاريخ كثير من الشواهد على أن هذه الدسائس لم تكن تقل في قصور ملوك الغرب عنها في الشرق . (المترجم)

الهمجى ، وصدق خرافات أهل زمانه . ولم يكن يحمى نفسه من رومة بما كان خليقاً أن يقوم به التابئد أو السياسى العظيم من حركات صادرة عن نفاذ البصيرة وبعد النظر ، بل كان يحميها بالشجاعة الارتجالية التى يعمد إليها الحيوان إذا وقع فى المحظور .

ومثل هذا الرجل لا يمكن أن يقنع بالمملكة الصغيرة التى خلفتها له أمه — ولهذا فتح أرمينية وبلاد القوقاز مستعيناً على ذلك بضباط وجنود مرتزقين من اليونان ، ثم عبر نهر قوبان وبمضيق كرتش إلى بلاد القرم وأخضع لحكمه جميع المدن اليونانية القائمة على سواحل البحر الأسود الشرقية ، والشمالية ، والغربية . وإذا كان انهيار قوة اليونان العسكرية قد ترك هذه الجماعات وهى تكاد تكون عاجزة كل العجز عن حماية نفسها من البرابرة الذين يجاورونها من خلفها . فإنها قد استقبلت جيوش مثرداتس اليونانية استقبال الحماة المنقذين . وكانت من المـــدن التى خضعت له سينوب ، وطربزون ، وپنتيكپيم Panticapeum (كرتش) ، وبيزنطية . ولكن سيطرة بيثينيا على الهلسپنت (الدردنيل) تركت تجارة پنتس فى البحر الأبيض المتوسط تحت رحمة الملوك المعادين لها . فلما مات نيقوميدس الثانى ملك بيثينيا (٩٤ ق . م) تنازع ولداه على العرش ، واستغاث الثانى وهو سقراط بملك پنتس . وانتهز مثرداتس فرصة النزاع الحزبى فى إيطاليا فغزا بيثينيا لكى يجلس سقراط على العرش . ولم تشأ رومة أن ترى البسفور فى أيدى أعدائها فأمرت مثرداتس وسقراط أن يخرجا من بيثينيا . وصدع مثرداتس بالأمر أما سقراط فرفضه ، فلم يكن من حاكم آسية الرومانى إلا أن خلعه وتوج نيقوميدس الثالث . وغزا الحاكم الرومانى الجديد پنتس وشجعه على ذلك منيوس أكوليوس Manius Aquilius الحاكم الرومانى ، وبدأت بذلك الحرب المثرداتية الأولى (٨٨ — ٨٤ ق . م) .

وأحس مثرداتس أن الفرصة الوحيدة التى تتيح له البقاء هى إثارة الشرق الهلينى على سادته الإيطاليين ، فأعلن أنه منقذ هلاس وسير جيوشه لتحرير المدن اليونانية فى آسية بالقوة إذا كان لا بد من استخدامها ؛ ولما أن قاومته طبقات رجال الأعمال فى المدن ولى وجهه شطر الأحزاب الدمقراطية ، وأخذ يمنيها بإصلاحات شبه اشتراكية . وفى هذه الأثناء كان أسطوله المكون من أربعمائة سفينة قد دمر القسم المرابط فى البحر الأسود من الأسطول الرومانى وأوقع جيشه المؤلف من ٢٩٠٫٠٠٠ رجل هزيمة منكرة بقوات نيقوميدس وأكوليوس . وأراد الملك الظافر أن يعبر عن احتقاره لشراهة الرومان وبخلهم(٦٨) فصب الذهب المصهور فى أفواه أكوليوس الأسير — ولم يكن قد مضى على انتصاره على أرقاء صقلية الثائرين إلا وقت قصير . ورأت المدن اليونانية فى آسية الصغرى أن الرومان أصبحوا عاجزين عن حمايتها ، ففتحت أبوابها لجيوش مثرداتس ، وأعلنت ولاءها له وللقضية التى نصب نفسه للدفاع عنها ، وقامت فى يوم حدده لها ، وبناء على أمره ، بقتل كل من فيها من الإيطاليين رجالا كانوا أو نساء أو أطفالا وقد بلغ عددهم ثمانين ألفاً (٨٨ ق . م) ، وفى ذلك يقول أبيان :

« ومزق الإفسوسيون أجسام الفارين الذين احتموا فى هيكل أرتميس وأمسكوا بصورة المعبودة ، ثم جزوا رؤوسهم . ورمى أهل برجموم بالسهام الرومان الذين احتموا فى معبد اسكلبيوس Aesculpius . واقتفى أهل أدرميتيوم Adramyttium من أراد النجاة بالسباحة فى البحر وقتلوهم وأغرقوا أطفالهم . وطارد أهل كونس Caunus (فى كاريا) الإيطاليين الذين احتموا حول تمثال فستا ، وقتلوا الأطفال أمام أعين أمهاتهم ، ثم أتبعوهم بالأمهات ، ثم بالرجال . . . وقد اتضح من هذه الأعمال أن الذى دفعهم إلى ارتكاب هذه الفظائع لم يكن خوفهم من مثرداتس فحسب بل كان أيضاً كرههم للرومان »(٦٩) .

وما من شك فى أن الطبقات الفقيرة التى قاست أكثر من غيرها مظالم

الحكم الروماني كانت لها اليد الطولى في هذه المذابح الجنونية ، وما من شك أيضاً في أن طبقات الملاك التي ظلت زمناً طويلا تتمتع بحماية الرومان لها قد استولى عليها الرعب حين أبصرت هذا الانتقام الرهيب . وأراد مثرداتس أن يهدئ ثائرة الطبقات الغنية بإعفاء المدن اليونانية من الضرائب مدة خمس سنين ، وبمنحها الاستقلال الذاتي التام ، لكنه « أعلن » في الوقت نفسه ، كما يقول أبيان « إلغاء الديون ، وحرر العبيد ، وصادر كثيراً من الضياع ، وأعاد توزيع الأراضي الزراعية على السكان » . ودبر زعماء العشائر مؤامرة لاغتياله ، فلما كشف سرها أمر بقتل ألف وستمائة من هؤلاء الزعماء . واستولت الطبقات الدنيا يساعدها الفلاسفة وأساتذة الجامعات[٧١] على زمام السلطة في كثير من المدن اليونانية ، ومنها أثينة واسپارطة نفسهما ، وأعلنت الحرب على رومة وعلى الطبقات الغنية معاً ، وقتل يونان ديلوس في نشوة الحرية عشرين ألف إيطالي في يوم واحد . واستولى أسطول مثرداتس على جزائر سكلديز كما استولى جيشه على عوبية ، وتساليا ، ومقدونية ، وتراقية . وكان خروج « آسية » الغنية عن سيطرة الرومان سبباً في وقف الخراج الذي كان يرسل منها إلى الخزانة الرومانية ، وفوائد الأموال التي كان يحصل عليها المستثمرون الرومان ، فانتابت إيطاليا أزمة مالية كانت ذات أثر في الحركة الثورية التي قام بها سترنينس Saturninus وسنا Cinna . وانقسمت إيطاليا على نفسها لأن السمنيين واللوكانيين عرضوا على ملك پنتس أن يعقدوا معه حلفاً .

ورأى مجلس الشيوخ الروماني الحرب والثورة تواجهانه في كل مكان ، فباع ما تجمع في الهياكل الرومانية من الذهب والفضة ليمول بها جيوش صلا . ولسنا نرى من واجبنا أن نعيد هنا كيف استولى صلا على أثينة ، وهزم جيوش الثوار ، وأنقذ الإمبراطورية لرومة ، وعقد مع مثرداتس صلحاً قوامه اللين انسحب الملك على أثره إلى عاصمة پنتس ، يجهز في هدوء جيشاً وأسطولا جديدين .

وقرر موربنا Murena المبعوث الرومانى فى آسية أن يهاجمه قبل أن يشتد ساعده ؛ فلما أن هزم مورينا فى هذه الحرب المثرداتية الثانية (٨٣ — ٨١) ، لامه صلا على خرقه شروط المعاهدة وأعلن انتهاء الأعمال العدوانية . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت أوصى نيقوميدس الثالث ببيثينيا إلى رومة ؛ وأدرك مثرداتس أن مملكته نفسها ستبتلعها رومة عن قريب إذا امتد سلطانها إلى حدود بفلجونيا وبنتس بعد أن سيطر على الهسفور . وبذل فى الحرب المثرداتية الثالثة (٧٥ — ٦٣) آخر جهوده ، وحارب اوكلس وبمبى اثنى عشر عاماً ، وغدر به أحلافه وأعوانه ففر إلى بلاد القرم . وحاول الجندى الشيخ ، وكان وقتئذ فى التاسعة والستين من عمره ، أن يعد جيشاً يخترق به بلاد البلقان ، ويغزو إيطاليا من الشمال ، ولكن ابنه فرناسس شق عصا الطاعة عليه ، وأبى جيشه أن يساق إلى هذه المغامرة ؛ وحاول الملك بعد أن تخلى عنه الجيش أن ينتحر ، ولكن السم الذى تجرعه لم يكن له أثر فيه لما كان قد كسبه قبل من الحصانة ، وكانت يداه أضعف من أن تضغط على النصل الذى أراد أن يقتل به نفسه ، ثم أجهز عليه أصدقاؤه ومحاسيبه الذين أمرهم ولده أن يقتلوه بأن طعنوه بسيوفهم وحرابهم .

الفصل الثامن

النــــثر

مما يذكر بالحمد للحكم الرومانى أن مدن آسية الصغرى لم يمض عليها إلا قليل من الوقت حتى أفاقت من حمى هذه الحروب المتقطعة . وصارت نيقوميديا عاصمة ولاية بيثينيا — پنتس ، ثم أضحت عاصمة الإمبراطورية فى عهد دقلديانوس ؛ وخلد اسم نيقية فيما بعد أن انعقد فيها أخطر مجلس فى تاريخ الكنيسة المسيحية ، وأخذت المدينتان تتنافسان فى تشييد المبانى منافسة اضطر معها تراچان أن يرسل پلنى الأصغر ليحول بينهما وبين الإفلاس . وأهدت نيقوميديا إلى الأدب ابنها فلاڤيوس أريانس الذى سجل أحاديث إيكتتس ، كما سبق القول . وكان أريان هذا حاكما على كپدوكيا ست سنين ، وأركونا لأثينة سنة واحدة ، ولكنه رغم هذه المشاغل وجد متسعا من الوقت لكتابة عدة كتب فى التاريخ لم يبق منها إلا **زحف الإسكندر** المذيل **بالإنديكا** Indica . وقد كتبه بلغة يونانية واضحة سهلة لأنه اتخذ أكسنوفون مثلا له فى أسلوبه ، كما اتخذه مثلا له فى حياته . ويقول هو عن كتابه مفتخراً به كما يفخر الأقدمون :

« لقد كنت منذ صباى أنزل هذا الكتاب منزلة الوطن والأسرة والمنصب العام ، ولهذا فإنى لا أرى نفسى غير خليق بأن أعد بين أعظم المؤلفين فى اللغة اليونانية »[٧٢] .

وكانت هناك مدن أخرى على شاطئ البحر الأسود ذات مياه عظيمة وعلماء ذائعى الصيت . كان منها مير ليا Myrlea التى يبلغ عدد سكانها ٢٫٣٢٠٫٠٠٠[٧٣] وأمسارتس Amsartis (أمسرا Amsara) التى وصفها بلنى بأنها « مدينة أنيقة جميلة » ، والتى اشتهرت بما كان فيها من أشجار البقس الجميلة ؛ وسينوب

التى كانت مركزاً غنيا لصيد السمك ومنفذاً لخشب الإقليم المجاور لها ومعادنه ، وأميسس Amisus (سمسون) وطربيزس (طربزون) وكان أهلها يكسبون عيشهم بالاتجار مع سكوذيا (جنوبى روسيا) المقابلة لها على شاطئ البحر ، وأماسيا Amasea التى وُلد وعاش فيها استرابون أعظم الجغرافيين الأقدمين .

وكان استرابون ينتمى إلى أسرة غنية تنحدر ، كما يؤكد هو ، من ملوك بنتس : وكان مصاباً بحول غريب(*) لا يزال يسمى باسمه حتى الآن(٧٤) ، وكان كثير الأسفار ، ويلوح أن أسفاره كانت فى بعثات دبلوماسية ، وكان ينتهز كل فرصة مستطاعة لجمع المعلومات الجغرافية والتاريخية . وكتب تاريخاً مكملا لتاريخ پوليبيوس ولكنه فقد ؛ ثم أخرج فى عام ٧ ق . م كتابه العظيم الجغرافية الذى حفظت لنا الأيام جميع أجزائه السبعة عشر تقريبا . وقد بدأه كما بدأ أريان كتابه بالتحدث عن مزاياه فقال :

إنى أستسمح قرائى ، وأطلب إليهم ألا يلومونى لطول بحثى بدل أن يلوموا أولئك الذين يحرصون أشد الحرص على معرفة كل ما هو شهير وقديم . . . ولا بد لى فى هذا الكتاب من أن أغفل الصغير من الأشياء ، وأن أخص بالعناية ما هو نبيل وعظيم . . . سواء كان نافعا ، أو ذائع الصيت ، أو باعثاً للبهجة والمتعة : وكما أننا إذا أردنا أن نحكم على قيمة تمثال ضخم لا نبحث كل جزء من أجزائه بدقة وعناية ، بل ننظر إلى الأثر العام الذى ينطبع فى أذهاننا منه . . . فكذلك يجب أن يحكم على كتابى هذا بالطريقة عينها . ذلك بأنه هو أيضاً عمل ضخم . . . خليق بأن يكون عمل فيلسوف »(٧٥) .

وهو يعترف فى صراحة بأنه يأخذ عن پوليبيوس ، وبسيدونيوس ، لكنه أقل صراحة فيما يأخذ عن أرتسثنيز ، ويشتد عليهم جميعاً فى نقد أخطائهم ،

(*) Strabismus (المترجم)

ويقول إن أخطاءه هو يجب أن يلام عليها من أخذ عنهم(٧٦) . وهو يعترف بالمراجع التى أخذ عنها فى صراحة نادرة ويختار هذه المراجع فى العادة بدقة وحسن تمييز . ومن أقواله أن امتداد الإمبراطورية الرومانية قد وسع المعلومات الجغرافية ، وأنه يعتقد مع ذلك أن قارات بأكملها لا تزال مجهولة — وربما كانت هذه القارات فى المحيط الأطلنطى — وأن الأرض شبه كرة ، (ولكن اللفظ اليونانى قد يكون معناه « كريا ») وأن الإنسان إذا سافر من أسپانيا متجهاً نحو الغرب وصل بعد وقت ما إلى الهند . ويقول عن شواطئ البحار إنها فى تغير دائم بفعل التعرية أو الانفجار ؛ ويظن أن اضطراب باطن الأرض قد يشق برزخ السويس ويصل البحرين . وكان كتابه تلخيصا جريئا لما يعرفه الناس فى عصره عن الأرض ، وما من شك فى أنه من جلائل الأعمال فى العلم القديم .

وكان ديو كريسستوم — ديو ذو الفم الذهبى — (٤٠ — ١٢٠ م) أعظم شهرة فى عصره من استرابون . وكانت أسرته قد اشتهرت فى بروصة من زمن طويل ؛ فقد أفنى جده ثروته بما قدمه من الهبات لمدينته ، ثم جمع بعدئذ ثروة جديدة ؛ وحذا أبوه حذو جده ، وفعل ديو ما فعله الأب والجد(٧٧) . ولما كبر صار خطيباً وسوفسطائيا ، وسافر إلى رومة ، واعتنق مذهب الرواقية على يد موسنيوس روفس ، ونفاه دومتيان من إيطاليا وبيثينيا فى عام ٨٢ ؛ ولما حرم عليه أن ينتفع بملكه أو دخله ، أخذ يضرب فى الأرض ثلاثة عشر عاما وينتقل من قطر إلى قطر انتقال الفيلسوف المفلس ، يأبى أن يتقاضى أجراً على خطبه ، ويكسب قوته فى معظم الأحوال بعمل يديه . ولما جلس نيرڤا على العرش بعد دومتيان ، تبدل نفى ديو تكريما ، فقد اصطفاه نيرڤا وتراچان ووهبا مدينته هبات جمة إجابة لطلبه . ولما عاد إلى بروصه أنفق معظم ثروته فى تجميلها ، واتهمه فيلسوف آخر باختلاس الأموال العامة فحاكمه پلنى ، ويلوح أنه برئ من هذه التهمة . وخلف ديو وراءه ثمانين خطبة . ويبدو لنا فى هذه الأيام أن معظمها ألفاظ

جوفاء ليس فيها كثير من المعانى ؛ ويؤخذ عليها ما فيها من إطناب ، وتشبيهات خداعة ، وحيل بيانية ؛ فهى تمط نصف المعنى حتى تملأ به مائة صفحة ؛ فلا عجب بعدئذ إذا صاح أحد المستمعين بعد أن سئم هذا الطول: « إنك قد جعلت الشمس تغرب طول أسئلتك التى لا آخر لها »(٧٨) . ولكن الرجل كان فصيح اللسان ساحر البيان ، ولولا ذلك لصعب عليه أن يكون أشهر خطباء القرن الذى عاش فيه ، ولما كانت الحروب تقف لكى يستمع الناس إلى خطبه . وقد قال له تراجان فى يوم من الأيام قولا صادقا صريحا : « لست أفهم ما تقول ، ولكننى أحبك بقدر حبى لنفسى »(٧٩) . وكان البرابرة الضاربون على ضفتى البورسثنز Borysthenes (الدنيبر) يستمعون إليه فى ابتهاج لا يقل عن ابتهاج اليونان وهم مجتمعون فى أولمبيا ، أو ابتهاج أهل الإسكندرية المعروفين بسرعة الانفعال . وحدث أن جيشاً أوشك أن يتمرد على نيرفا ، فهدأت سورته بعد أن استمع إلى خطبة ارتجلها الخطيب الطريد النصف العارى .

وأكبر الظن أن الذى أغرى الناس بالالتفاف حوله لم يكن أسلوبه اليونانى الأتكى الجميل بل كان هو جرأته فى التشهير ، ويكاد أن يكون هو الخطيب الوحيد فى العهود الوثنية القديمة الذى ندد بالدعارة ؛ وما أقل كتاب زمانه الذين هاجموا نظام الاسترقاق بمثل ما هاجمه هو من القوة والصراحة . (بيد أنه غضب بعض الغضب حين وجد أن عبيده فروا منه)(٨٠) . وكانت خطبته فى أهل الإسكندرية تنديداً عنيفاً بترفهم ، وتخريفهم ، ورذائلهم . وقد وقف يوماً فى اليوم Ilium وألقى خطبة قال فيها إن طروادة لم توجد قط ، وإن « هومر كان أجرأ كاذب فى التاريخ » ؛ ثم وقف يوما آخر فى قلب رومة وأخذ يذكر فضائل الريف على المدن ، وصور فقر الريف تصويراً مؤثراً فى أسلوب قصصى واضح جذاب ، وأنذر مستمعيه أن الناس أخذوا يهملون الأرض ، وأن



(شكل — ٨) جندي روماني وداشيان ، نقش بارز من عمود تراجان

الأساس الزراعي للحضارة قد انهار . ووقف مرة فى أولمبيا ليخطب فى جمع كبير من الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها ، وأخذ يصف أهل ذلك العصر من الأبيقوريين والملحدين . وكان مما قاله فى هذه الخطبة ، إن الصورة التى لدى الناس عن الإله قد تكون باطلة سخيفة ، ولكن الرجل العاقل يدرك أن العقل الساذج يحتاج إلى أفكار ساذجة ورموز تصويرية . والحق أن أحداً من الناس لا يستطيع أن يدرك صورة الكائن الأعلى ، وحتى التمثال الجليل الذى نحته فدياس نفسه لم يكن إلا فرضا مجسدا لا يليق بمقامه كما لا يليق به تصوره نجما أو شجرة . ونحن وإن كنا لا نعرف حقيقة الله ، ندرك بفطرتنا أنه موجود ، ونشعر أن الفلسفة بغير الدين شيء مظلم لا يرجى منه خير ؛ وأن الحرية الحقة الوحيدة هى الحكمة — أى أن يعرف الإنسان ما هو حق وما هو باطل ؛ وأن سبيل الحرية ليست هى السياسة أو الثورة ، بل أن سبيلها هى الفلسفة ، وليست الفلسفة الحقة هى الأفكار التى فى بطون الكتب ، بل هى اتباع طريق الشرف والفضيلة كما ينادى بها من داخلنا صوت هو كما يقول المتصوفة كلمة الله مستكنة فى قلب الإنسان[٨١] .

الفصل التاسع

التيار الشرقى الجارف

استعاد الدين فى القرن الثانى بعد الميلاد ما كان له من سلطان منذ أقدم العهود حين أقرت الفلسفة بعد أن غلبتها الأبدية والآمال البشرية بعجزها عن تحقيق تلك الأبدية وهذه الآمال ، فتخلت عما كان لها من سلطان .
وكان الدين قبل أن يستعيد سلطانه هذا قد انزوى وأخذ يغذى جذوره ويترقب الفرص المواتية له . ولم يكن الناس أنفسهم قد فقدوا إيمانهم ، فقد قبلت كثرتهم الغالبة مجمل ما وصف به هومر الحياة الآخرة[٨٢] . وكانت تقرب القرابين فى خشوع قبل البدء برحلة من الرحلات ، وتضع أبلة فى فم الميت ليؤدى بها أجر عبوره نهر استيكس كما كانت تفعل فى الزمن القديم . وكانت سياسة الحكم الرومانية ترحب بالعون الذى تلقاه من الكهنة الرسميين وتسعى للحصول على تأييد الشعب بإقامة الهياكل الفخمة للآلهة المحلية ، وظلت ثروة الكهنة تزداد زيادة مطردة فى جميع أنحاء فلسطين ، وسوريا ، وآسية الصغرى ؛ وظل السوريون يعبدون هداد Hadad وأترجاتس Atargatis ، وكان لهذين الإلهين مزار رهيب فى هيرابوليس ؛ وبقيت مدن سوريا ترحب ببعث الإله تموز وتنادى قائلة « لقد قام أدنيس (الرب) » ، وتحتفل فى آخر مناظر عيده بارتفاعه إلى السماء[٨٣] . وكانت مواكب أخرى من هذا النوع تخلد آلام ديونيسس وموته وبعثه بطقوس يونانية . وانتشرت عبادة الإلهة ما Ma من كبدوكيا إلى أيونيا وإيطاليا ، وكان كهنتها (المسمون بالهيكليين fanatici أى المنتمين إلى الفانوم fanum أو الهيكل) يرقصون فى نشوة شديدة على أصوات الأبواق والطبول ، ويطعنون

أنفسهم بالمدى ، ويرشون دماءهم على الإلهة وعبادها المخاصين[٨٤] . ودأب الناس على خلق آلهة جدد ؛ فألّهوا قيصر ، والأباطرة ، وأنطنيوس ، وكثيراً من العظماء المحليين فى حياتهم وبعد مماتهم . وأخذت هذه الآلهة يمتزج بعضها ببعض بتأثير التجارة والحرب فنزداد عددها ويعظم شأنها فى كل مكان ، وتقام الصلوات بألف لغة لألف إله أملا فى النعيم والنجاة ؛ فلم تكن الوثنية والحالة هذه ديناً واحداً ، بل كانت جمة من العقائد المتشابكة ، المتناقضة ، المتنافسة ؛ وكثيراً ما كان يتدخل بعضها فى بعض وتختلط اختلاطاً متعمداً مختاراً .

وثبتت عبادة سيبيل فى ليديا وفريجيا ، وإيطاليا ، وأفريقية ، وغيرها من الأقاليم ، وظل كهنتها يُخْصون أنفسهم كما فعل حبيبها أتيس ؛ فإذا أقبل عيدها الربيعى صام عبادها ، وصلوا ، وحزنوا لموت أتيس ؛ وجرح كهنتها سواعدهم ، وشربوا دماءهم ، وحمل الإله الشاب إلى قبره باحتفال مهيب . فإذا كان اليوم الثانى ضجت الشوارع بأصوات الفرح الصادرة من الأهلين المحتفلين ببعث أتيس وعودة الحياة إلى الأرض من جديد ، وعلا صوت الكهنة ينادى أولئك العباد : « قوّوا قلوبكم أيها العباد المتصوفون ، لقد نجا الإله ، وستكون النجاة حظكم جميعاً »[٨٥] . وفى آخر يوم من أيام الاحتفال تحمل صورة الأم العظمى فى موكب للنصر ، ويخترق حاملوها صفوف الجماهير تحييها وتناديها فى رومة باسم «أمّنا»[٨٦](Nostra Domina) .

وكانت إيزيس الإلهة المصرية ، والأم الحزينة ، والمواسية المحبة ، وحاملة هبة الحياة الخالدة ، كانت هذه الإلهة تلقى من التكريم أكثر مما تلقاه سيبيل ؛ وكانت كل شعوب البحر الأبيض المتوسط تعرف كيف مات زوجها العظيم ، وكيف قام بعدئذ من بين الموتى ؛ وكان يحتفل بهذا البعث السعيد فى كل مدينة كبيرة قائمة على شواطئ هذا البحر التاريخى أروع احتفال وأفخمه ، وكان عباده المبتهجون يتنادون « لقد وجدنا أوزوريس من جديد »[٨٧] . وكانوا يرمزون

إلى إيزيس بصور وتماثيل تحمل بين ذراعيها حورس ابنها الإلهى ، ويسمونها فى الأوراد والأدعية « ملكة السماء » ، و « نجم البحر » ، و « أم الإله »(٨٨). وكانت هذه الطقوس أقرب العبادات الوثنية إلى المسيحية ، لما انطوت عليه قصة الإلهة من الحنو والرأفة ، وما اختصت به طقوسها من الرقة ، وما كان يسود هياكلها من جو مرح خال من العنف ، وما تشتمل عليه صلواتها المسائية من ألحان موسيقية مؤثرة ، وما يقوم به كهنتها الحليقو الرؤوس ذوو الثياب البيض من أعمال البر والخير(٨٩) ، وما كانت تتيحه هذه الإلهة لهؤلاء الكهنة من فرص لمواساة النساء وإدخال السرور على قلوبهن ، ولترحيبها الشامل بالناس جميعاً على اختلاف أممهم وطبقاتهم . وانتشر دين إيزيس من مصر إلى بلاد اليونان فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم انتشر إلى صقلية فى القرن الثالث ، وإلى إيطاليا فى القرن الثانى ، ثم انتشر بعدئذ فى جميع أجزاء الإمبراطورية . وقد عثر على صورها المقدسة على ضفاف نهرى الدانوب والسين ، وكشف عن آثار معبد لها فى لندن(٩٠) .

وقصارى القول أن شعوب البحر الأبيض المتوسط لم تنقطع قط عن عبادة ما للنساء من قوة مقدسة خلاقة ، وما يتصفن به من رعاية للأمومة .

وكانت عبادة مثراس Mithras الإله الذكر تنتقل فى هذه الأثناء من فارس إلى أقصى تخوم الإمبراطورية الرومانية ؛ وكان مثراس هذا فى المراحل المتأخرة من الدين الزرادشتى ابن أهورا — مزدا إله النور ، وكان هو أيضاً إلهاً للنور ، والحق ، والطهر ، والشرف ؛ وكان يقال أحياناً إنه هو الشمس ، وإنه يقود الحرب العالمية ضد قوى الظلمة ، وإنه يشفع على الدوام لأتباعه عند أبيه ، ويحميهم ، ويشجعهم فى كفاحهم الدائم للشر والكذب ، والدنس ، وغيرها من أعمال أهرمان أمير الظلام . ولما أن نقل جنود بمبى هذا الدين من

كبدوكيا إلى أوربا صور فنان يونانى مثراس راكعا على ظهر ثور يطعنه بخنجر فى عنقه ، وأضحت هذه الصورة هى الرمز الرسمى لذلك الدين ؛

وكان اليوم السابع من كل أسبوع يوما مقدسا لإله الشمس ، وكان أتباعه يحتفلون فى الأيام الأخيرة من ديسمبر بمولد مثراس « الشمس التى لا تغلب » والإله الذى نال نصره السنوى على قوى الظلمة فى يوم الانقلاب الشتائى ، والذى بدأ من ذلك اليوم يفيض على العالم ضياء يزداد يوما بعد يوم(٩١) . ويحدثنا ترتليان Tertullian عن كهنة مثراسيين على رأسهم « حبر أكبر » وعن عزاب وعذارى فى خدمة الإله » ؛ وكانت القرابين تقرب إليه على مذبحه فى كل يوم ، كما كان عباده يشتركون فى تناول طعام مقدس من الخبز والنبيذ ، وكانت الإشارة التى يختتم بها عيده هى دقات ناقوس(٩٢) . وكان يحتفظ على الدوام بنار متقدة أمام القبو الذى يمثل فيه الإله الشاب يطعن الثور بخنجره . وكان الدين المثراسى يحض على الخلق الكريم ، ويطلب إلى « جنوده » ألا ينقطعوا طول حياتهم عن محاربة الشر بجميع أنواعه . ويقول كهنته إن الناس كلهم سيحشرون لا محالة أمام مثراس ليحكم بينهم ، ثم تسلم الأرواح الدنسة إلى أهرمان لتعذب على يديه عذاباً أبدياً ، أما الأرواح الطاهرة فترتفع خلال طباق سبعة حتى تصل إلى بهاء السماء حيث يستقبلها أهورا — مزدا نفسه(٩٣) . وانتشرت هذه الأساطير التى تبعث فى نفس أصحابها الأمل والقوة فى القرنين الثانى والثالث من التاريخ الميلادى فى غربى آسية ، وانتقلت منه إلى أوربا (متخطية بلاد اليونان) ، وشادت معابدها متجهة نحو الشمال حتى وصلت إلى سورهدريان ؛ وروع الآباء المسيحيين ما وجدوه من أوجه الشبه بين دينهم وبين المثراسية ، وقالوا إن الثانية قد سرقت هذه العبادات عن المسيحية ، أو أنها فى المثراسية حيل مضللة احتال بها عليهم الشيطان (صورة من أهرمان) . وليس من

السهل أن نعرف أى الدينين أخذ عن الآخر ، ولعل الاثنين قد تسربت إليهما أفكار كانت وقتئذ منتشرة فى جو بلاد الشرق .

وكانت فى كلا الدينين العظيمين اللذين يسودان إقليم البحر الأبيض المتوسط « طقوس خفية » تتخذ عادة صورة احتفالات تطهير ، وتضحية ، وتثبيت ، ووحى ، تدور كلها حول موت الإله وبعثه . وكان الأعضاء الجدد يدخلون فى دين سيبيل بوضعهم عراة فى حفرة يذبح فوقها ثور ، فيسقط دم الحيوان الذبيح على الطالب الجديد ويطهره من خطاياه ويهبه حياة روحية جديدة خالدة إلى أبد الدهر . وكانت أعضاء التذكير فى الثور ، وهى التى تمثل الخصوبة المقدسة ، توضع فى إناء خاص ، وتهدى إلى الإلهة[٩٤] . وكان فى المثراسية طقس شبيه بهذا يعرفه العالم اليونانى والرومانى القديم باسم الثور بليوم taurobolium أو رمى الثور ويصف أپوليوس فى عبارات جزلة رائعة المراحل التى يمر خلالها خادم إيزيس — فترة الصوم المبدئية الطويلة ، والورع والتقشف ، والتطهير بالانغماس فى الماء المقدس ، ثم تظهر له فى آخر الأمر الرؤى الصوفية للآلهة لتهبه النعيم الأبدى . ويلتزم الطالب فى إلوسس أن يعترف بخطاياه (وقد كان هذا مما أخاف نيرون وأفقده شجاعته) ، وأن يصوم بعض الوقت عن أنواع خاصة من الأطعمة ، ويستحم فى الخليج ليتطهر من الدنس الجسمى والروحى ، ثم يقرب القربان ، وهو فى العادة خنزير . وفى عيد دمتر كان الطلاب المبتدئون يندبون معها اختطاف ابنتها إلى الجحيم ، ويقتصرون فى أثناء حزنهم هذا على تناول الكعك المقدس ، وخليط رمزى من الدقيق والماء والنعناع . وفى الليلة الثالثة تعرض مسرحية دينية تمثل بعث پرسفونى ، ويعد الكاهن الذى يقوم بالخدمة الدينية كل من تطهرت روحه بأن يبعث كپرسفونى بعثاً جديداً[٩٥] . وقد صورت الطائفة الأرفية ، متأثرة بالآراء الهندوكية أو الفيثاغورية ، موضوع هذه الطقوس فى جميع الأراضى اليونانية ، فقالت إن الروح تحبس فى طائفة متسلسلة من الأجساد المذنبة ، وإن

فى مقدورها أن تنطلق من هذا التجسد الثانى المشين بأن تسمو حتى تتحد اتحاداً هياميا بديونيشس . وكان الإخوان الأرفيون فى اجتماعهم يشربون دم ثور يضحون به للمنقذ الميت الذى يكفر عن خطاياهم ويوحدون بينه وبين هذا المنقذ . وكان الاشتراك الجماعى فى تناول الطعام والشراب المقدسين من المظاهر الكثيرة الحدوث فى أديان البحر الأبيض المتوسط ، وكثيراً ما كان أهل هذه الأديان يعتقدون أن هذا الطعام ستحل فيه بهذا التقديس قوى الإله ، ثم تنتقل منه بطريقة سحرية خفية إلى المشتركين فى تناوله[٩٦]

وكانت الشيع الدينية كلها تؤمن بالسحر ، فقد نشر المجوس فنهم هذا فى أنحاء الشرق وسموا الشعوذة القديمة باسم جديد ؛ وكان عالم البحر الأبيض المتوسط غنيا بمن فيــه من السحرة ، وصانعى المعجزات ، والمتنبئين ، والمنجمين ، والزهاد القديسين ، ومفسرى الأحلام العلميين . وكانت كل حادثة غير عادية تتخذ نذيراً إلهيا بما سيقع من الحوادث فى المستقبل ، وأصبح لفظ أسكسز Askesis ، الذى كان معناه عند اليونان تدريب الجسم تدريبا رياضيا ، يقصــد به وقتئذ إخضاع الجسم لسلطان الروح ؛ فكان الناس يضربون أنفسهم بالسياط ، ويبترون أعضاءهم ، ويجيعون أنفسهم ، أويقيدون أجسامهم بالسلاسل فى مكان واحد ؛ ومنهم من كانوا يموتون نتيجة لهذا التعذيب أو الحرمان[٩٧] الذاتى . ولجأ جماعة من اليهود وغير اليهود رجالا ونساء إلى الصحراء المصرية القريبة من بحيرة مريوط . يعيشون فيها منفردين فى صوامع وبيع ، ويحرمون على أنفسهم جميع العلاقات الجنسية ، ويجتمعون فى يوم السبت للصــلاة الجامعــة ويسمون أنفسهم **معالجى النفوس** (Therapeutae)[٩٨] . وقال الملايين من الناس إن الكتابات المعزوة إلى أرفيوس ، وهرمس ، وفيثاغورس ، والعرافات ومن إليهم قد أملاها أو أوحى بها إله من الآلهة . وكان الوعاظ الذين يدعون أن الوحى قد هبط عليهم من السماء يجوبون الأقطار متنقلين من مدينة إلى مدينــة ،

يعالجون الناس بما يبدو فى نظرهم أنه من المعجزات . من ذلك أن الإسكندر الأبونوتيكى Alexander of Abonoteictus قد درب أفعى على أن تخفى رأسها تحت ذراعه ، وتقبل أن يثبت فى ذيلها قناع شبيه بوجه الإنسان ، ثم أعلن أن الأفعى هى الإله أسكلبيوس ، وأن هـذا الإله قد جاء إلى الأرض لينبئ الناس بما سوف يقع فى المستقبل ، وقد استطاع أن يجمع ثروة طائلة بتفسير الأصوات الحادثة من الأعشاب التى يضعها فى رأسها المستعار(٩٩).

وأكبر الظن أنه كان إلى جانب هؤلاء المشعوذين آلاف من المبشرين المخلصين المؤمنين بالعقائد الوثنية . وقد صور فيلوستراتس فى أوائل القرن الثالث صورة مثالية لأحد هؤلاء المبشرين فى كتابه حياة أبولونيوس التياناى of Tyana ، فوصفه بأنه حين بلغ السادسة عشرة من عمره قيد نفسه بقيود الإخوان الفيثاغوريين الصارمة ، فحرم على نفسه الزواج ، وأكل اللحم ، وشرب الخمر ، ولم يحلق لحيته قط ، وامتنع عن الكلام خمس سنين كاملة(١٠٠) ، ووزع المال الذى تركه له والده على أقاربه ، وأخذ يطوف ، كما يطوف الرهبان المعدمون ، فى فارس ومصر ، وغربى آسية ، وبلاد اليونان ، وإيطاليا ؛ وأتقن علوم المجوس ، والبراهمة ، والزهاد المصريين . وكان يزور هياكل الأديان على اختلافها ، ويدعو كهنتها إلى الامتناع عن التضحية بالحيوان ، ويعبد الشمس ؛ ويؤمن بجميع الآلهة ، ويعلم الناس أن من ورائها كلها إله واحد أعلى لا يحيط به العقل . وكانت حياة التقى وإنكار الذات التى فرضها على نفسه مما جعل أتباعه يدعون أنه ابن إله ، أما هو فلم يكن يصف نفسه بأكثر من أنه ابن أبلونيوس . وتعزو إليه الروايات المتواترة كثيراً من المعجزات : فقد كان الناس يقولون إنه يمر من خلال الأبواب المغلقة ، ويفهم جميع اللغات ، ويطرد الشياطين ، وإنه رفع بنتا من بين الأموات(١٠١) . لكنه كان فى واقع الأمر فيلسوفا أكثر منه ساحراً ،

يعرف الأدب اليونانى ويحبه ، ويدعو إلى مبادئ أخلاقية بسيطة ولكنها صارمة . وكان يتوسل إلى الآلهة بقوله : « علمينى ألا يكون لى إلا القليل وألا أرغب فى شىء » . ولما سأله أحد الملوك أن يختار لنفسه هدية يهديها إليه أجابه بقوله : « الفاكهة اليابسة والخبز(١٠٢) » . وكان يبشر بتجسد الروح بعد مفارقتها الجسد ، ولهذا أمر أتباعه ألا يؤذوا مخلوقا حيا ، وأن يمتنعوا عن أكل اللحم ؛ وحضهم على تجنب العداء ، واغتياب الناس ، والغيرة ، والكراهية ؛ ومن أقواله لهم : « إذا كنا فلاسفة ، فلن نستطيع أن نكره بنى جنسنا »(١٠٣) . ويقول فيلوستراتس إنه « كان فى بعض الأحيان يناقش المبادئ الشيوعية ويعلم الناس أن من واجبهم أن يعين بعضهم بعضاً »(١٠٤) . ولما اتهم بأنه يثير نقع الفتنة ، ويعلم الناس السحر ، جاء طائعا إلى رومة ليبرئ نفسه أمام دومتيان من هاتين التهمتين ، فسجن ، ولكنه فر من سجنه ومات حوالى سنة ٩٨ م . بعد أن عمر طويلا . وادعى أتباعه أنه ظهر لهم بعد موته وأنه رفع بعدئذ إلى السماء(١٠٥) .

ترى ما هى الصفات التى جعلت نصف رومة ونصف الإمبراطورية ينضويان تحت ألوية هذه الأديان الجديدة ؟ من هذه الصفات ما تنطوى عليه هذه الأديان من عدم التفرقة بين الأجناس والطبقات ؛ فقد كانت تقبل بين أتباعها خلائق من جميع الأمم ، وجميع الأحرار ، وجميع الأرقاء . ولا تلقى بالا إلى ما بين الناس من فروق فى الأنساب أو الثراء ، وكان هذا من أسباب السلوى لهؤلاء الأتباع . وقد بنيت هياكلها بحيث تتسع لكل من يؤمها من الخلائق العباد وللإله المعبود . وكانت سيبيل وإيزيس الإلهتين أمين ثاكلتين ذاقتا مرارة الحزن كما ذاقته ملايين الأمهات الثاكلات ، وكان فى مقدورهما أن تدركا ما لا تستطيع أن تدركه الآلهة الرومانية — ألا وهو فراغ قلوب المغلوبين . إن الرغبة فى العودة إلى أحضان الأم أقوى من غريزة الاعتماد على الأب ، واسم الأم هو الذى يخرج

من تلقاء نفسه إلى الشفتين إذا ما صادف الإنسان سرور عظيم أو حلت به كارثة أليمة . ومن أجل هذا كان الناس رجالهم ونساؤهم على السواء يجدون لهم سلوى وملجأ فى إيزيس وسيبيل ، بل إن العابد التقى فى بلاد البحر الأبيض المتوسط فى هذه الأيام يلجأ إلى مريم أكثر مما يلجأ إلى الأب أو الابن ، وإن الصلاة المحببة التى يرددها أكثر من سائر الصلوات هى الصلاة التى لا يوجهها إلى العذراء بل إلى الأم التى بورك فيها بمن ولدته من بطنها .

ولم تكن قوة الأديان الجديدة مقصورة على أنها أعمق أثراً فى قلوب الناس بل كان من أسباب قوتها فوق ذلك أنها أعظم أثراً فى خيال الناس وحواسهم لما فيها من مواكب ، وترانيم ، تنتقل من الحزن إلى السرور ، وما تحتويه من طقوس ذات رموز تنطبع فى الخيال وتبعث الشجاعة من جديد فى النفوس التى أثقلتها الحياة الرتيبة المملة . ولم تكن مناصب الكهانة الجديدة يملؤها ساسة يرتدرن الثياب الكهنوتية من حين إلى حين بل كان يشغلها رجال ونساء من كافة الطبقات ، يتدرجون فيها من المبتدئ المتقشف الزاهد إلى الخادم الدينى الذى لا ينقطع عن مواساة الناس . وكان فى مقدور الروح التى تدرك ما ارتكبته من ذنوب أن تتطهر منها ؛ وكان يستطاع فى بعض الأحيان شفاء الجسم الذى أنهكته العلة ، بكلمة أو طقس موح ؛ وكانت المراسم السرية الخفية التى يمارسونها ترمز إلى ما يتردد فى صدور الناس من رجاء فى أن يتغلبوا على كل شىء حتى الموت نفسه .

لقد سما الناس فى وقت من الأوقات بما كانوا يتوقون لهمن عظمةوخلود ، فجعلوهما مرتبطين بمجد الأسرة والقبيلة والإبقاءعليهما ، ثم انتقلوا بهما إلى مجد الدولة التى كانت من صنعهم والتى هى نفوسهم مجتمعة . أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فكانت الحدود الفاصلة بين القبائل تذوب فى حركة السلم الجديدة ، ولم تكن الدولة الإمبراطورية تعبر إلا عن الطبقات العليا السائدة ، ولم تكن تمثل

جماهير الشعب التى لا حول لها ولا طول . وكان على رأس الدولة ملكية مطلقة تحول بين المواطن وبين اندماجه فيها واشتراكه فى أعمالها ، وكانت تخلق بعملها هذا الفردية فى أسفلها وتشيعها بين الدهماء من السكان . وكان ما فى الأديان الشرقية وما فى المسيحية . التى أخذت منها خلاصتها ثم امتصتها وقضت عليها ، من وعد بالخلود الشخصى ، وبالسعادة الدائمة بعد حياة المذلة ، والفاقة ، والمحن ، والكدح ، كان هذا كله إغراء لا تستطيع الدهماء مقاومته . ولاح أن العالم كله أخذ يأتمر ليمهد السبيل إلى المسيح .

الباب الخامس والعشرون

رومة واليهودية

١٣٢ ق . م — ١٣٥ م

الفصل الأول

پارثيا

بين بحر پنتس وجبال القوقاز تقوم جبال أرمينية ذات القلل الشمّاء التي رست عليها سفينة نوح ، كما تقول قصة الطوفان . وفي أوديتها الخفية كانت تمتد الطرق التي تصل پارثيا وأرض الجزيرة بالبحر الأسود ، ومن أجل هذا كانت الإمبراطوريات تتنافس على امتلاك أرمينية . وكان سكانها من الجنس الهندوربي يمتون بصلة القربى للحثيين والفريجيين ، ولكنهم ظلوا محتفظين بأنفهم الأناضولي . وكانوا في الأيام الماضية شعباً قوياً صبوراً على أعمال الزراعة ، يحذق الصناعات اليدوية ، ولا يجاريه شعب آخر في براعته التجارية ؛ استغلوا أرضهم الضنينة أحسن استغلال ، وأنتجوا من الثروة ما يكفي لأن يعيش ملوكهم معيشة الترف ، وإن لم يكسبهم الكثير من القوة والسلطان . وقد ذكر دارا الأول في نقش بهستوم (٥٢١ ق . م) اسم أرمينية بين الولايات التابعة لبلاد الفرس ، وكانت فيما بعد تابعة تبعية اسمية لدولة السلوقيين ثم تداولتها أيدي پارثيا ورومة مراراً عدة ، ولكنها استطاعت لبعدها أن تحتفظ باستقلالها الفعلي . وكان أشهر ملوكها ترجرانس الأكبر Tirgranes (٩٤ - ٥٦ ق . م) الذي فتح كپدوكيا وأضاف إلى أرتكساتا Artaxata عاصمة ثانيـــة هي ترجانوسترا Triganocetra .

وانضم إلى مترداتس فى ثورته على رومة ؛ ولما أن قبل بمبى عذره ، أهدى إلى القائد المنتصر ٦٠٠٠ وزنة (٠٠٠ر٦٠٠ر٢١ ريال أمريكى) ، و٠٠٠ر١٠ درخمة (٦٠٠٠ ريال أمريكى) لكل قائد مائة ، وخمسين درخمة لكل جندى فى الجيش الرومانى . واعترفت أرمينية بسيادة رومة فى عهد قيصر وأغسطس ونيرون وأصبحت فى فترة من الزمان فى عهد تراجان ولاية رومانية . لكن ثقافتها كانت رغم هـذا ثقافة إيرانية ، وكانت ميولها فى العادة نحو پارثيا .

وكان الپارثيون قد ظلوا عدة قرون يحتلون الإقليم الواقع جنوب بحر الخزر بوصفهم رعايا الملوك الأكيمينيين ثم الملوك السلوقيين . وكان هؤلاء الپارثيون من العنصر السكوذى — التورانى أى أنهم من جنس الشعوب الضاربه فى الجنوب الشرق من روسيا وفى بلاد التركستان . وفى عام ٢٤٨ ق . م خرج زعيم سكوذى يدعى أرساسيس على حكم السلوقيين ، وجعل پارثيا دولة مستقلة ذات سيادة ، وأنشأ فيها أسرة أرساسية مالكة . ولما ضعف الملوك السـلوقيون على أثر هزيمة رومة لأنتيخوس الثالث (١٨٩ ق . م) عجزوا عن حماية بلادهم من الپارثيين الهمج المتهورين ، فلم يكد يختتم القرن الثانى قبل الميلاد حتى كانت أرض الجزيرة وفارس بأكملها قد ضمت إلى الإمبراطورية الپارثية الجديدة . وكان للملوك الپارثيين الجدد ثلاث عواصم يقيمون فيها فى فصول السنة المختلفة : هكتومپيلس Hecatompylus فى بارثيا ، وإكبتانا (محل همذان) فى ميديا ، وطشقونة Ctesiphon على المجرى الأدنى لنهر دجلة . وعلى الضـفة الأخرى للنهر المقابلة لطشقونة كانت تقوم العاصمة السلوقية القديمة وهى مدينة سلوقيا التى ظلت عدة قرون مدينة يونانية فى مملكة بارثية . وقد احتفظ الحـكام الأرساسيون بالنظام الإدارى الذى أقامه السلوقيون ، لكنهم غشوه بنظام إقطاعى أخذوه عن الملوك الأكيمينيين . وكانت جمهرة الشـعب تتألف من أقنان الأرض والرقيق ؛ وكانت الصـناعة متأخرة وإن كان صاهرو الحديد الپارثيون قد استطاعوا أن يخرجوا منه نوعاً جيداً ،

وكانت « صناعة عصر الخمر تدر أرباحاً طائلة »[٢] ؛ وكان جزء من ثروة البلاد يأتى عن التجارة التى تنقل فى الأنهار الكبرى ، وينقل بعضها فى طرق القوافل التى تجتاز بارثيا فى طريقها بين أقاصى آسية وبلاد الغرب .
واشتبكت رومة مع بارثيا فى حرب من سنة ٥٣ ق . م حين هزم البارثيون كراسس Crassus فى كارى Carrhae إلى سنة ٢١٧ م حين ابتاع مكرينس Macrinus الصلح من أرتبانس Artabanus ، بغية السيطرة على هذه الطرق وعلى البحر الأحمر .

وكان البارثيون أغنى أو أفقر من أن يهتموا بالأدب ؛ فقد كان الأشراف ، يفضلون فن الحياة على حياة الفن كشأنهم فى كل العصور ؛ وكان أقنان الأرض أميين لا يعرفون للأدب معنى ، وكان الصناع منهمكين فى عملهم لا يجدون متسعاً من الوقت للاهتمام بالأدب ، وكان التجار مشغولين بتجارتهم عن إنتاج فن عظيم أو كتب قيمة . وكان الأهلون يتكلمون اللغة الفهلوية ، ويكتبون بالآرامية على الجلود ، وكانت الآرامية قد حلت وقتئذ محل الكتابة المسمارية : ولم تبق لنا الأيام سطراً واحداً من الآداب البارثية ، لكننا نعلم أن المسرحيات اليونانية كانت تمثل فى طشقونة كما كانت تمثل فى سلوقيا ، وذلك لأن رأس كراسس قد ظهر فى أحد أدوار الباخيين ليوربديز . أما الصور والتماثيل التى كشفت فى تدمر ، ودور — أوربس ، وأشور فكانت فى أكبر الظن من صنع الفنانين الإيرانيين ؛ وكان امتزاج الطرازين اليونانى والشرقى ذلك الامتزاج الساذج ذا أثر فى فن العصور التى تلت ذلك العصر فى جميع بلاد آسية من الصين إلى القسطنطينية . وقد بقى لنا نقش واضح يمثل رامياً بالسهام على ظهر جواد ، ويوحى بأنه لو بقى لنا من فن البارثيين أكثر مما عثرنا عليه منه لكان تقديرنا لهـذا الفن أعلى من تقديرنا الحالى[٣] .
وقد شاد أمـير إقطاعى عربى من أتباع ملك بارثيا قصراً من حجر الجير فى حترا Hatra القريبة من الموصل (٨٨ ق . م ؟) يحتوى على سبعة أبهاء ذات عقود وقباب ، وشاده على طراز قوى ولكنه همجى . غير أن

أعمالا فنيه بارثية من طراز حسن قد بقيت لنا فى الأدوات الفضية وفى الحلى .

لكن البارثين نبغوا فى الفن المحبب إلى بنى الإنسان — ونعنى به زينة الأجسام . لقد كان رجالهم ونساؤهم على السواء يعقصون شعورهم ، وكان الرجال يطيلون لحاهم المجعدة وشواربهم المتهدلة ، ويرتدى الواحد منهم قيصا وسروالا منتفخا يعلوهما فى العادة ثوب متعدد الألوان . أما النساء فكن يرتدين أثوابا مطرزة تطريزا دقيقا جميلا ، ويزين شعرهن بالأزهار. وكان أحرار البارثين يسلون أنفسهم بالصيد ، ويكثرون من الطعام والشراب ، ولا يمشون على أقدامهم إذا استطاعوا الركوب . وكانوا محاربين شجعانا ، وأعداء شرفاء ، يحسنون معاملة الأسرى ، ويقبلون الأجانب فى المناصب الكبرى ، ويحمون اللاجئين ، غير أنهم كانوا فى بعض الأحيان يبترون أعضاء المدنى من الأعداء ، ويعذبون الشهود ، ويعاقبون على الذنوب الصغيرة بضرب السياط . وكان من عادتهم تعدد الزوجات إذا أمكنتهم مواردهم من ذلك التعدد ، وكانت نساؤهم محجبات معزولات عن الرجال ، وكانوا يعاقبون نساءهم على الخيانة الزوجية بأقسى العقوبات ، ولكنهم يبيحون الطلاق للرجال والنساء على السواء لا يكادون يقيمون فى سبيله عقبة ما[٣] . ولما أن زحف سرينا Surena القائد البارثى بجيشه على كراسس اصطحب معه مائتى حظية وألف بعير محملة بلوازمه[٤] ؛ والصورة التى تنطبع فى أذهاننا عن البارثين فى جملتهم هى أنهم كانوا أقل حضارة من الفرس الأكيمينيين ، وأشرف وأكرم أخلاقا من الرومان . فقد كانوا متسامحين مع من يخالفونهم فى الدين ، يجيزون لليونان ، واليهود ، والمسيحيين المقيمين بين ظهرانيهم أن يقيموا شعائر دينهم دون أن يتدخلوا فى شئونهم . أما هم أنفسهم فقد انحرفوا بعض الانحراف عن الزرادشتية الصحيحة ، فكانوا يعبدون الشمس والقمر ، ويفضلون مثراس عن أهورا — مزدا فكانوا من هذه الناحية كثيرى الشبه بالمسيحيين

إذ يفضلون المسيح على يهوه . وقد كان لكهنة المجوس يد فى القضاء على الأسرة الأرساسية لأنهم لم يلقوا من ملوكها المتأخرين ما كانوا يتطلعون إليه من الرعاية .

ولما توفى ملكهم ڤلوجاسس الرابع (٢٠٩ م) تنازع ولداه ڤلوجاسس الخامس وأرتبانس الرابع على عرش المملكة . وانتصر أرتبانس فى هذا النزاع ثم هزم الرومان فى نزيب Nisibis . ودامت الحرب بين الإمبراطوريتين ثلاثة قرون ثم انتهت بانتصار البارثيين نصرا غير حاسم لأن سهول أرض الجزيرة كانت توائم خيالة البارثيين أكثر مما توائم فيالق الرومان . ثم تورط أرتبانس بعدئذ فى حرب داخلية لقى فيها حتفه وأعلن أردشير أو أرتخشتر الشريف الإقطاعى فى بلاد الفرس والذى غلبه على أمره ملك الملوك (٢٢٧ م) وأسس الأسرة الساسانية . وعاد الدين الزرادشتى إلى سابق عهده ، وبدأ فى بلاد الفرس عهد من أعظم العهود التى مرت بها فى تاريخها الطويل .

الفصل الثانى

الهسمونيون

انتهز سيمون مكابى فى عام ١٤٣ ق . م فرصة النزاع القائم بين البارثيين ، والسلوقيين ، والمصريين ، والرومان فانتزع استقلال بلاد اليهود من أيدى الملوك السلوقيين . واختارته جمعية وطنية قائداً وكاهنا أعلى للدولة اليهودية الثانية (١٤٢ ق . م — ٧٠ م) ، وجعلت ثانى المنصبين وراثيا فى أسرته الهسمونية ، وصارت بلاد اليهود مرة أخرى دولة دينية تحكمها هذه الأسرة أسرة الكهنة — الملوك ، ذلك أن من أخص خصائص المجتمعات السامية ارتباط السلطتين الروحية والزمنية فى الأسرة وفى الدولة لأنها تأبى أن يكون لها سيد إلا الله وحده :

وأدرك الهسمونيون ضعف مملكتهم الصغيرة فقضوا جيلين كاملين يوسعون حدودها بالدبلوماسية تارة وبالقوة تارة أخرى ، فلم يحل عام ٧٨ ق . م حتى كانوا قد ضموا إليهم السامرة ، وإدوم ، وموآب ، والجليل ، وإدوميا ، وما وراء نهر الأردن ، وجدارا ، وبلا ، وجراسا ، ورافيا (رفح) ، وغزة ، ووسعوا حدود فلسطين إلى ما كانت عليه فى عهد سليمان . وفرض خلفاء هؤلاء المكابيين البواسل الذين قاتلوا دفاعا عن حريتهم الدينية الدين اليهودى والختان على رعاياهم الجدد بحد السيف[٥] . وفقد الهسمونيون فى الوقت نفسه غيرتهم الدينية ، واستسلموا شيئاً فشيئاً لما كان فى العناصر التى ضموها إلى بلادهم من نزعة هلنستية رغم احتجاج الفريسيين(*) الشديد . غير أن الملكة شالوم اسكندرة

(*) شيعة يهودية تمتاز بتمسكها الشديد بالشرائع والأوامر الدينية ؛ وتطور معنى هذا اللفظ فى الزمن الحديث فصار يطلق على من يستمسك فى الدين بالشكل دون الجوهر أى المرائى . (المترجم)

(٧٨ — ٦٩ ق . م) عكست هذا الاتجاه ، وعقدت الصلح مع الفريسيين ، لكن ولداها هركانس الثانى ، وأرستبولس الثانى أخذا يتنازعان العرش قبل موتها ، وعرضت الطائفتان أمرهما على پمپى ، وكان وقتئذ واقفا على رأس فيالقه المنتصرة فى دمشق (٦٣ ق . م) ، فلما انتصر پمپى لهركانس تحصن أرستبولس وجيشه فى بيت المقدس ، فحاصر پمپى تلك العاصمة ، واستولى على أجزائها السفلى ؛ ولكن أتباع أرستبولس احتموا بأفنية الهيكل المسورة ، وظلوا يقاومون پمپى ثلاثة أشهر . ويقول المؤرخون إن تقواهم أعانت پمپى على هزيمتهم ، فقد شاهد أنهم لا يحاربون فى يوم سبتهم ، فأمر رجاله بأن يعدوا فى كل سبت الربا والكباش الهدامة التى سيستخدمها فى اليوم التالى ، ولم يكونوا يلقون مقاومة من اليهود فى ذلك الاستعداد ، بل كان الكهنة يقضون يومهم فى الهيكل يبتهلون ويقربون القرابين كعادتهم كل الأوقات . فلما أن تهدمت الأسوار ذبح من اليهود اثنى عشر ألفاً ، ولم يقاوم منهم إلا عدد قليل ، ولم ينج منهم أحد ، وقفز الكثيرون من فوق الأسوار فلاقوا حتفهم[٦] . وأمر پمپى رجاله بألا يمسوا ما فى الهيكل من كنوز ، ولكنه فرض على الأمة اليهودية غرامة قدرها عشرة آلاف وزنة (٣٫٦٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) ، ونقلت المدن التى كان الهسمونيون قد فتحوها من حكم اليهود إلى حكم الرومان ، ونصب هركانس الثانى حاخاما أعظم ، وحاكما بالاسم على بلاد اليهود ، ولكنه كان فى حراسة أنتپاترَ الإيدومينىَ الذى أعان رومة فى هذه الحزب . وهكذا قضى على المملكة المستقلة وأصبحت بلاد اليهود جزءاً من ولاية سوريا الرومانية .

وبينا كان كراسس فى طريقه إلى طشقونة فى عام ٥٤ ق . م — وهى الحملة التى قطع فيها رأسه وجىء به ليمثل فى بلاط ملك البارثيين دور پنيثوس فى مسرحية الباخيين — نهب ما أبقى عليه پمپى من كنوز الهيكل ، وكان يبلغ مقداها عشرة آلاف وزنة . ولما أن جاء البشير بأن كراسس هزم وقتل

اغتنم اليهود هذه الفرصة ليستعيدوا حريتهم ، ولكن لنچينس الذى عين واليا على سوريا بعد كراسس أخمد الثورة وباع ثلاثين ألفاً من اليهود فى أسواق الرقيق (٤٣ ق . م)(٧) . ومات أنتباتر فى تلك السنة ، وزحف البارثيون على بلاد اليهود مخترقين الصحراء وعينوا أنتجونس آخر الحسمونيين ملكا على البلاد يأتمر بأمرهم ويخضع لمشيئتهم . وقابل أنطونيوس وأكتاڤيان هذا العمل بتعيين هيرود بن أنتباتر ملكا على بلاد اليهود وأعانوا جيشه اليهودى بالأموال الرومانية .. فطرد هيرود البارثيين من البلاد وحمى أورشليم من السلب والنهب ، وأرسل أنتجونس إلى أنطونيوس ليعدمه ، وذبح جميع زعماء اليهود الذين عاونوا الملك الصورى ، وتهيأت له بذلك أسباب حكم يعد من أكثر العهود إشراقا فى التاريخ (٣٧ — ٤ ق . م) .

الفصل الثالث

هيرود الأكبر

كانت أخلاقه مثالا من أخلاق عصره الذى أنجب كثيراً من الرجال الذين كانوا أذكياء لا خلاق لهم ، قادرين لا ضمير لهم ، شجعاناً مجردين من الشرف . لقد كان صورة مصغرة من أغسطس فى بلاد اليهود : فعل فيها ما فعله أغسطس فى رومة فاستبدل بفوضى الحرية نظاماً دكتاتورياً ، وجمل عاصمته بالمبانى والتماثيل اليونانية الطراز ، ووسع رقعة مملكته ، ونشر فيها الرخاء ، وكسب بالختل والسياسية أكثر مما كسبه بقوة السلاح ، وتزوج كثيراً من النساء ، وقضت عليه خيانة أبنائه ، واستمتع بكل ما يتيحه له الحظ المواتى عدا السعادة . ويصفه يوسفوس بأنه رجل قوى البأس ، عظيم المهارة ، بارع رمى السهام والحراب ، صياد عظيم اقتنص فى يوم واحد أربعين وحشاً . وكان « محارباً لا يستطيع إنسان أن يقف فى وجهه »(٨) . وما من شك فى أنه أضاف إلى هذه الصفات شخصية جذابة ، فقد كان فى وسعه على الدوام أن يتغلب بقوة الحجة أو بكثرة الرشا على أعدائه الذين حاولوا أن يشوا به عند أنطونيوس أو كليوبطرة ، أو أكتاڤيان . وقد خرج من كل الأزمات التى حدثت بينه وبين الحكومة الثلاثية فى رومة وهو أقوى سلطاناً وأوسع ملكا مما كان ، وسرعان ما اقتنع أغسطس بأن له « روحاً أعظم من أن تسعها أملاكه الصغيرة » ، فأعاد إلى مملكته مدائن فلسطين الهسمونية ، وتمنى لو أن هيرود قد حكم سوريا ومصر بالإضافة إلى أملاكه(٩) . ولقد كان « الإديومى Idumean » رجلا كريماً خلا قلبه من الرحمة ، أفاء على رعاياه من النعم ما لا يعادله إلا ما أصابهم به من الأذى .

ولقد كان من العوامل التى شكلت أخلاقه ، ما كان يضمره له الذين غلبهم

على أمرهم أو قتل أهلهم من بغض شديد ، وما يكنه له الشعب المتعض من طغيانه والمشمئز من أصله الأجنبي من عداء واحتقار : وقد ارتفع إلى العرش بمساعدة رومة وأموالها ، وبقي إلى آخر عمره صديقاً وخاضعاً للسلطة التي كان الشعب يأتمر بالليل وبالنهار ليخلع عنه نيرها ويسترد حريته منها . وقد ثقل عبء الضرائب التي فرضها على بلاده ذات الموارد الاقتصادية الضئيلة ليستمتع بها بلاطه المترف ويحقق بها مناهجه الضخم في البناء الذي لا تطيقه الثروة القومية . وما لبث هـذا العبء الثقيل أن قصم ظهرها واستنزف جميع مواردها . وحاول هيرود أن يهدئ ثائرة شعبه بمختلف الوسائل ، ولكن جهوده كلها لم تجده نفعاً . من ذلك أنه نزل عن المتأخر من الضرائب عن السنين الماضية ، وأقنع رومة بأن تخفض مقـدار الجزية المفروضة على بلاده ، وحصل لليهود على مزايا في البلاد الأجنبية ، وأنقذ البلاد إنقاذاً عاجلا من القحط وغيره من الكوارث ، وحافظ على الأمن والنظام في الداخل وسلامة البلاد من الأعداء في الخارج ، ونمى موارد البلاد الطبيعية . وفي عهده قضى على اللصوص وقطاع الطريق ، ونشطت التجارة ودب دبيب الحياة في الأسواق والثغور . لكن الملك في الوقت نفسه أثار غضب الشعب بفساد أخلاقه ، وقسوته العقاب ، وموت أرستبولس حفيد هركانس الثاني والوارث الشرعي لعرش البلاد غريقاً « مصادفة » في الحمام ؛ وأخذ الكهنة الذين قضى على سلطتهم ، والذين عين هو رؤساءهم ، يأتمرون به ، وحقد عليه الفرسيون لما بدا من أنه يعتزم صبغ بلاد اليهود بالصبغة اليونانية .

ذلك أن هيرود كان يحكم كثيراً من المدن التي كانت يونانية أكثر منها يهودية سكانها وثقافتها ؛ وقد تأثر بما تمتاز به الحضارة الهلنية من رقة وتنوع ؛ هذا إلى أنه لم يكن يهودياً في أصله أو مؤمناً بهذا الدين عن عقيدة ؛ وقد دعاه هذا كله بطبيعة الحال إلى العمل على توحيد ثقافة مملكته ، وخلع مظاهر الروعة والجلال على حكمه بتشجيع أساليب الحياة ، والملابس ، والأفكار

والآداب ، والفنون اليونانية . وقد أحاط نفسه بالعلماء اليونان ، وعهد إليهم الإشراف على الشئون العليا فى الدولة ، وعين نقولاس الدمشقى ، وهو رجل يونانى ، مستشاره ومؤرخه الرسمى . وقد أنشأ فى أورشليم داراً فخمة للتمثيل ومدرجاً وزينهما بتماثيل لأغسطس وغيره من الوثنيين ، وأنفق فى ذلك أموالا طائلة ، وأدخـــل فى بلاده الألعاب الرياضة والمباريات الموسيقية اليونانية ، وصراع المجتلدين الرومانى(١٠) ، وجمل أورشليم بمبان أخرى على طراز معمارى بدا للشعب أنه طراز أجنبى ، وأقام فى الأماكن العامة تماثيل يونانية أثارت دهشة اليهود وغضبهم بعريها كما أثار غضبهم عرى المصارعين فى الألعاب الرياضية . وقد شاد لنفسه قصراً أقامه بلا ريب على الطراز اليونانى وملأه بالذهب والرخام والأثاث الفخم الثمين ، وأحاطه بحدائق واسعة محتذياً فى ذلك حذو أصدقائه الرومان . وقد صدم مشاعر الشعب بقوله إن الهيكل الذى شاده زرب بابل منذ خمسة قرون كان ضيقاً ، وإنه يعتزم أن يهدمه ويقيم فى مكانه هيكلا أوسع منه . ولم يبال باحتجاج الأهلين ومخاوفهم ، وحقق رغبته بأن أقام المعبد الفخم الذى دمره تيتس فيما بعد .

وقد سوى على جبل موريا أرضاً تقرب مساحتها من سبعمائة وخمسين قدماً مربعة ، وأقام على أطرافها أروقة ذات سقف من خشب الأرز « ذات نقوش عجيبة » تعتمد على صفوف متعددة من العمد الكورنثية ، كل عمود من كتلة واحدة من الحجر تبلغ من الضخامة حداً يصعب معه على ثلاثة رجال أن يطوقوها بأذرعهم . وكان فى هذا البهو الرئيسى مظلات للصرافين ، الذين يبدلون نقود الأجانب بالنقود التى تقبل فى الهيكل . وكان فيها أيضاً المرابط التى يســـتطيع الإنسان أن يشترى منها ما يريد أن يقربه من الحيوانات ، والغرف أو الأروقة التى يجتمع فيها الطلاب لتعلم اللغة العبرية والشريعة ، والمتسولون الصخابون الذين لا مفر من وجودهم فى كل مكان . ومن هـــذا « الهيكل الخارجى » يصعد بمجموعة من الدرج إلى فضاء داخلى مسور يحرم على غير اليهود أن يدخلوه . وكان

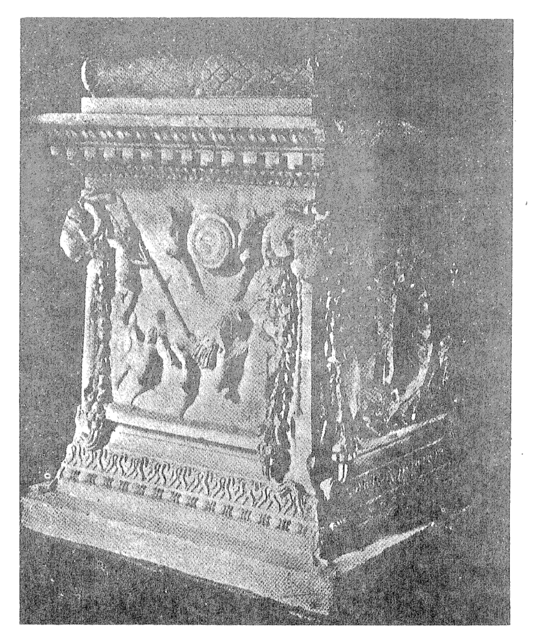
فى هذا الفضاء « بهو النساء » الذى « يأوى إليه الطاهرون من الرجال مع نسائهم »[١١] . ومن هذا الحرم الثانى يصعد العابد على مجموعة أخرى من الدرج ويمر خلال أبواب مصفحة بالفضة والذهب إلى « بهو الكهنة » حيث يقوم الهواء الطلق المذبح الذى تقرب فيه المحرقات إلى يهوه . وتلى هذه درج أخرى يمر الصاعد فوقها خلال أبواب من البرنز يبلغ ارتفاعها خمسا وسبعين قدماً واتساعها أربعا وعشرين ، تعلوها كرمة ذهبية ذائعة الصيت ، وتؤدى إلى بناء الهيكل الرئيسى الذى لا تفتح أبوابه إلا للكهنة وحدهم . وقد شيد هذا البناء كله من الرخام الأبيض على هيئة طباق تتدرج فى الصغر كلما علت ، وصفحت واجهته بالذهب ، وقسم داخله قسمين يفصلهما ستار مزركش يمتد فى عرض فراغه ، فيه من الألوان الأزرق والأرجوانى والقرمزى . وأمام هذا الستار كانت المائلة(*) الذهبية ذات الفروع السبعة ، ومذبح البخور والمائدة وعليها « خبز التقدمة » غير المختمر الذى يقدمه الكهنة ليهوه ومن خلف الستار قدس الأقداس . وكان الهيكل القديم يحتوى على مبخرة ذهبية وعلى تابوت العهد ، ولكن هذا التابوت لم يكن يحتوى على « شىء قط » كما يقول يوسفوس . ولم تكن قدم الإنسان تطأ هذا المكان إلا مرة واحدة فى العام وذلك فى يوم الكفارة حين يدخله الكاهن الأكبر وحده . وقد استغرق بناء الأجزاء الرئيسية من هذا الصرح التاريخى ثمانية أعوام ، أما أعمال نقشه وتزيينه فقد ظلت قائمة ثمانين عاماً ، ولم تتم إلا قبيل مجىء فيالق تيتس[١٢] .

وكان الناس يفخرون بهذا الهيكل العظيم الذى كان يعد من عجائب العالم فى عهد أغسطس ، وكادوا لعظمته وبهائه يتجاوزون عن وجود عمده الكورنثية القائمة عند أبوابه ، وعن النسر الذهبى الذى يتحدى عقيدة اليهود

(*) المائلة منارة المسرجة وقد استعرناها للشمعدان (المترجم)

فى تحريم الصور المنحوتة ، والذى كان يرمز عند مدخل الهيكل لرومة عدوة اليهودية وسيدتها . وكان اليهود العائدون إلى مدائن فلسطين ينقلون أنباء العمائر اليونانية الخالصة التى كان هيرود يجدد بها تلك المدائن ، وكيف ينفق أموال الأمة والذهب (كما تقول الشائعات) الذى كان مخبوءا فى قبر دواد[١٣] فى إنشاء مرفأ عظيم عند قيصرية ، وفى إهدائه بسخاء للمدن الأجنبية أمثال دمشق ، وببلوس ، وبيروت ، وصور ، وصيدا ، وأنطاكية ، ورودس ، وبرجموم ، وأسپارطة ، وأثينة . واتضح لهم أن هيرود يريد أن يكون معبود العالم اليونانى لا ملك اليهود فحسب ، لكن اليهود كانوا يعيشون بدينهم ، وبإيمانهم بأن يهوه سينقذهم من الرق والظلم فى يوم من الأيام ؛ ومن أجل هذه كان انتصار الروح الهلنية على الروح العبرانية فى شخص حاكمهم نذيراً لهم بكارثة مدلهمة لا تقل عما حل بهم من الاضطهاد على يدى أنتيخس . ولذلك أخذوا يحيكون المؤامرات لقتل هيرود ، وكشف هو هذه المؤامرات وقبض على المشتركين فيها وعذبهم وقتلهم ، ولم يكتف بقتلهم وحدهم بل قتل أسرهم كلها فى بعض الأحيان[١٤] . وأطلق عيونه بين الشعب وتخفى ليتجسس بنفسه على رعاياه ، وكان يعاقبهم على كل كلمة تشتم منها رائحة العداء له[١٥] .

واستطاع أن يرد كيد أعدائه فى نحورهم عدا كيد أزواجه وأبنائه . وكان له من الأزواج عشر اجتمعت منهن تسع فى وقت واحد ، أما الأبناء فكان له منهم أربعون . وكانت مريمنى Mariamne زوجته الثانية حفيدة هركانس الثانى وأخت أرستبولس اللذين قتلهما هيرود . ويصفها يوسفوس بأنها امرأة عفيفة ، ولكنها فظة بعض الفظاظة بغريزتها ، تعامل زوجها بغطرسة وكبرياء لأنها رأته مغرماً بها غراماً يخضعه لها كأنه ملك يمينها . . . : . وكانت فضلا عن فظاظتها تشهر بأمه وأخته علناً ، لأنهما من أصل حقير ، وتستطيل فى عرضهما إلى حد « امتلأت معه القلوب » فى بيت الملك « بغضاً وحقداً » . واستطاعت أخت



(شكل — ٩) مذبح وجد فى آستيا محفوظ فى متحف ترمى برومة

هيرود أن تقنعه بأن مريمنى تأتمر به لتدس له السم ، فوجه هذه التهمة لزوجته أمام أعضاء المحكمة ؛ فحكموا عليها بالإعدام ونفذ فيها الحكم . غير أن هيرود كان يرتاب فى جريمتها ، فجن جنونه من فرط الندم فترة من الزمان ، وأخذ يردد اسمها جهرة ، ويرسل خدمها ليستدعوها ، واعتزل المناصب العامة ، وآوى إلى الصحراء « يعذب فيها نفسه أشد العذاب » حتى جىء به إلى قصره محموماً شارد العقل . واشتركت أم مريمنى مع جماعة آخرين فى مؤامرة ترمى إلى خلعه ، ولكنه استرد قواه العقلية وعرشه فجاءة ، وأعدم المتآمرين . وبعد قليل من ذلك الوقت قدم له أنتيپاتر ابنه من زوجته الأولى أدلة تثبت وجود مؤامرة دبرها ولداه من مريمنى ألكسندر وأرستبولس ، فعرض الأمر على مجلس مؤلف من مائة وخمسين رجلا حكموا على الشابين بالإعدام (٦ ق . م) . ولم يمض على ذلك عامان حتى اتهم نقولاس الدمشقى أنتيپاتر نفسه بأنه يتآمر على انتزاع العرش من أبيه . وأمر هيرود بابنه فجىء به إليه . « وأخذ يبكى ويذكر ما لقيه من النكبات على يدى أبنائه »[١٦] وطاف بقلبه طائف الرحمة ساعة من الزمان أمر فيها بسجن ولده .

وكانت قوى الملك الشيخ فى هذه الأثناء تنهار بتأثير الحزن والمرض ؛ فقد أصيب بداء الإستسقاء ، والقروح ، والحمى ، والتشنج ، والنفس الكريه الرائحة . وحاول أن يقتل نفسه بعد أن أحبط ما أحبط من المؤامرات لاغتياله ، ولكنه منع من تنفيذ قصده . ولما سمع أن أنتيپاتر يحاول إرشاء حراسه ليطلقوا سراحه أمر هيرود بقتله ، ولم تمض على ذلك إلا خمسة أيام حتى مات هيرود نفسه (٤ ق . م) فى التاسعة والستين من عمره مكروها من جميع شعبه . ويقول أعداؤه عنه إنه « تسلل إلى العرش تسلل الثعلب ، وحكم حكم النمر ، ومات ميتة الكلب » .

الفصل الرابع

الشريعة وأنبياؤها

أوصى هيرود قبل وفاته أن تقسم مملكته بين أبنائه الثلاثة الباقين أحياء . فحكم فليب الإقليم الشرقى المعروف باسم بتانيا Bantanea ، الذى يحتوى على مدائن بيت سيده ، وكپتولياس ، وجراسا ، وفلدلفيا ، وبصرى . وحكم هيرود أنتپاس پيريا Peraea (الأرض الواقعة وراء نهر الأردن) ، والجليل فى الشمال حيث توجد أزدريلا ، وطبرية ، والناصرة . وكان نصيب أركلوس سمريتس ، وإيدوميا ، ويهوذا . وكان فى هذا القسم الأخير كثير من المدن والبلدان الشهيرة أمثال بيت لحم ، وحبرون ، وبير سبع ، وغزه ، وجدارا ، وإموس ، ويمنيا ، ويافا ، وقيصرية ، وأريحة ، وأورشليم . وكانت بعض المدن الفلسطينية تغلب عليها الصبغة اليونانية ، وبعضها تغلب عليه الصبغة السورية ، ويدل وجود الخنازير فى جدارا على وجود غير اليهود فيها . وكان الوثنيون هم الكثرة الغالبة فى المدن الساحلية ما عدا يافا ، ويمنيا فى « المدن العشر » القائمة على شاطئ نهر الأردن أما فى الداخل فيكاد السكان أن يكونوا كلهم من اليهود . وكان هذا الانقسام العنصرى ، غير المحبب إلى رومة ، مأساة فلسطين .

وإذا أردنا أن نفهم سبب اشمئزاز اليهود الصالحين من شرك المجتمع الوثنى وما كان يسوده من فساد خلقى فعلينا أن نرجع إلى زمن المتطهرين المتزمتين فى إنجلترا . لقد كان الدين عند اليهود مصدر شريعتهم ، ودولتهم ، وآمالهم ، وكانوا يظنون أنهم إذا رضوا أن يذوب هذا الدين فى نهر الهلنية الجارف كان هذا بمثابة انتحار لقوميتهم ؛ ومن ثم نشأت تلك البغضاء بين اليهود وغير اليهود التى جعلت تلك الأمة الصغيرة تقضى حياتها كلها فى نزاع عنصرى واضطراب سياسى ،

وحروب متقطعة ، يخبو نارها كلها تارة ثم تعود فتلتهب من جديد . يضاف إلى هذا أن يهود يهوذا كانوا يحتقرون أهل الجليل ويصفونهم بالمروق من الدين ، بينا كان أهل الجليل يحتقرون أهل يهوذا ويصفونهم بأنهم أرقاء وقعوا فى شراك الشريعة . هــذا إلى ما كان هناك من نزاع لا ينقطع بين أهل يهوذا والسامريين لأن هؤلاء يدعون أن يهوه لم يختر صهيون موطناً له بل اختار موطنه تل جرزيم الواقع فى بلادهم ، وإلى رفضهم جميع أسفار الكتاب المقدس ما عدا أسفار موسى الخمسة[١٥] . وكان الذى يجمع بين هــذه الأحزاب كلها هو كراهيتها لسيطرة الرومان ، التى كانت تتقاضى من البلاد ثمناً باهظاً نظير ميزة السلم غير المحببة إليهم .

وكان يسكن فلسطين وقتئذ نحو مليونين ونصف مليون من الأنفس يقيم منهم فى أورشليم وحدها نحو مائة ألف[١٩] . وكان معظمهم يتكلمون اللغة الآرامية ، وكان كهنتهم وعلماؤهم يفهمون العبرية ، أما الموظفون والأجانب ومعظم المؤلفين فكانوا يستعملون اللغة اليونانية . وكان معظم السكان يشتغلون بالزراعة ، يحرثون الأرض ويسقون الزرع ، ويعنون بالحدائق والكروم ، ويرعون الضأن . وكانت فلسطين فى حياة المسيح تنتج من القمح ما يكفى أهلها وتبقى منه فضلة تصدر منها إلى الخارج[٢٠] . وكان بلحها ، وتينها ، وعنبها ، وزيتونها ، ونبيذها ، وزيتها غالية الثمن يبتاعها الناس من جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وكان أهلها لا يزالون يعملون بالأمر القديم الذى يحتم عليهم أن يتركوا الأرض بوراً فى السنة السبتية(*) . وكانت الصناعات اليدوية وراثية فى أغلب الأحيان ، وكان الصناع ينتظمون عادة فى طوائف . وكان اليهود يعظمون العامل وكان معظم العلماء يعملون بأيديهم كما يعملون بألسنتهم . وكان الأرقاء أقل عدداً منهم فى أى بلد آخر من بلاد البحر الأبيض المتوسط . وازدهرت التجارة الصغرى فى البلاد ، ولكن عدد التجار اليهود ذوى الثراء والتجارة الواسعة كان لا يزال قليلا فيها .

(*) أى السنة السابعة التى تترك فيها الأرض للراحة . (المترجم)

وفى ذلك يقول يوسفوس : « لسنا أمة تجارية ، فنحن نعيش فى بلد (بلاد اليهود الشرقية) عديم السواحل ، ولا نميل إلى الاشتغال بالتجارة (الخارجية) » (٢٢) . وظلت الأعمال المالية ضيقة النطاق حتى ألغى هلل Hillel القانون الوارد فى سفر تثنية الاشتراع (الأصحاح الخامس عشر ١ — ١١) والذى يطلب فيه إلغاء الديون مرة كل سبع سنين ، وكان الهيكل نفسه مصرفهم القوى .

وكان فى داخل الهيكل بهو الجازيت ، ملتقى السنهدرين أو المجلس الأعظم المكون من كبراء إسرائيل . وأكبر الظن أن هذا المجلس قد نشأ فى أثناء حكم السلوقيين (حوالى عام ٢٠٠ ق . م) ليحل محل المجلس الأول الوارد ذكره فى سفر العدد (الآية السادسة عشرة من الأصحاح الحادى عشر) والذى يسدى فيه النصح لموسى . وكان الحاخام الأعظم هو الذى يختار فى بادئ الأمر أعضاء المجلس من بين طبقة الأشراف الكهنوت ، ثم أصبح من حقه فى عهد الرومان أن يختار أعضاؤه لعضويته عدداً متزايداً من الفرسيين ، وعدداً قليلا من فقهاء الشريعة الموسوية المحترفين(٢٣) . وكان أعضاؤه البالغ عددهم واحداً وسبعين عضواً يدعون أنهم أصحاب السلطة العليا على جميع اليهود أيا كان موطنهم ، وكان اليهود المستمسكون بدينهم فى كل مكان على الأرض يعترفون لهم بهذه السلطة ؛ أما الهسمونيين ، وهيرود ، وروما فلم يكونوا يعترفون لهم إلا بسلطانهم على من يخرج على الشريعة اليهودية من يهود بلادهم الأصلية ، فقد كان فى وسعهم أن يحكموا بالإعدام على من فيها من اليهود إذا ارتكبوا جريمة دينيه ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون تنفيذ الحكم إلا إذا وافقت عليه السلطة المدنية(٢٤) .

وكان فى الجمعية حزبان يتناعان السيطرة عليها ، كما يتنازعان السيطرة على معظم الجمعيات الأخرى ، أحدهما حزب المحافظين الذين يتزعمهم كبار الكهنة والصدوقيون(*) ، والذين سموا بهذا نسبة إلى صدوق مؤسس هـــذه الطائفة

(*) شيعة من اليهود الأرستقراط المتشككة عاشت فى أيام العهد الجديد لا تعتقد بالبعث ولا بالدار الآخرة . (المترجم)

وكان أعضاؤه وطنيين فى مبادئهم السياسية ، مستمسكين بدينهم ، ينادون بفرض التوراة أو الشريعة المكتوبة على الأمة اليهودية ، ولكنهم كانوا يرفضون ما عدا هذا من العقائد أمثال الأحاديث والقصص الشفوية التى يتناقلها رجال الدين ، ولتفاسير الطليقة التى يقول بها الفرسيون . وكانوا يرتابون فى خلود الروح ، ويقنعون بامتلاك طيبات هذا العالم .

وكان الصدوقيون هم الذين سموا الفرسيين بهذا الإسم (البروشيم أى الانفصاليين) . ويقصدون بهذه التسمية أنهم قد فصلوا أنفسهم (كما انفصل البرهمة الصالحون) عن الذين تدنسوا بإهمال ما تفرضه عليهم طقوس التطهير[٢٥] . وكانوا هم خلفاء الكسديم أو نساك العصر المكابى الذين كانوا ينادون بوجوب التزام قواعد الشريعة الموسوية إلى أبعد الحدود . وقد عرفهم يوسفوس ، وهو منهم ، بأنهم « شيعة من اليهود يجهرون بأنهم أكثر استمساكا بالدين من سائر أبناء ملتهم ، وبأنهم أدق من غيرهم فى تفسير شرائعهم »[٢٦] . ولكى يصلوا إلى ما يبغونه من هذا التفسير الدقيق أضافوا إلى أسفار موسى الخمسة المكتوبة الأحاديث والروايات الشفوية المشتملة على التفسيرات والأحكام التى وردت على ألسنة معلمى الشريعة المعترف بهم . ويرى الفرسيون أن هذه التفاسير ضرورية لإزالة ما فى قوانين موسى من غموض ، ولبيان طريقة تطبيقها على الحالات الفردية ، ولتعديل حرفيتها فى بعض الأحيان حسب ضرورات الحياة وظروفها الدائمة التغير .

وقد جمع هؤلاء الناس بين الصرامة واللين ، فكانوا يخففون من صرامة الشريعة فى بعض المواضع كما فعلوا فى أوامر هلل الخاصة بالربا ، ولكنهم كانوا يحتمون على الناس أن يتقيدوا بالروايات الشفوية كما يتقيدون بالتوراة المنزلة نفسها . ذلك أنهم كانوا يحسون بأن لا نجاة لليهود من انقراضهم وامتصاص الشعوب الأخرى لهم إلا بإطاعة هذه الأوامر المسطورة والمتواترة . وإذ كان

الفرسيون قد ارتضوا أن يخضعوا لسلطان الرومان فقد كانوا يطلبون السلوى فيما يأملونه من الخلود الجثمانى والروحى . وكانوا يحيون حياة بسيطة ، يبتعدون فيها عن الترف ويندون به ، ويكثرون من الصوم ، ويعنون بالاغتسال ، ويتباهون من حين إلى حين باستمساكهم بالفضيلة مباهاة تضايق السامعين . ولكنهم كانوا يمثلون قوة اليهود الأخلاقية ، وقد نالوا تأييد الطبقات الوسطى وغرسوا فى نفوس أتباعهم إيماناً وأحكاماً أنقذتهم من الانحلال والتضعضع حين ألمت بهم المصائب . ولما أن خرب الهيكل (٧٠م) فقد الكهنة نفوذهم ، وأصبح الفرسيون عن طريق الأحبار هم المعلمين والرعاة لذلك الشعب الذى تشتت فى بقاع الأرض ولكنه لم تحق به الهزيمة .

وكانت أكثر شيع اليهود تطرفاً شيعة الإسينية التى أخذت تنواها عن الكسدية ، وأكبر الظن أن اسمها مشتق من اللفظ الكلدى اسشاى Aschai (المستحم) ، وأن أعضاءها أخذوا عقائدهم وعباداتهم من نظريات الزهاد ونظمهم التى كانت منتشرة فى العالم فى القرن الأول قبل المسيح . ولعلهم قد تأثروا أيضاً بآراء البراهمة ، والبوذيين ، والمجوس عبدة النار ، والفيثاغوريين ، والكلبيين ، وهى الآراء التى جاءت إلى أورشليم ملتقى الطرق التجارية فى غرب آسية . وكان عددهم فى فلسطين يبلغ أربعة آلاف ، وقد نظموا أنفسهم فى هيئة مستقلة عن غيرها ، وكانوا يستمسكون أشد الاستمساك بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة ويعيشون معاً عيشة العزاب الزاهدين ، يزرعون الأرض فى واحة إنجادى Engadi وسط الصحراء الواقعة غرب البحر الميت . وكانوا يسكنون منازل تمتلكها الجماعة التى ينتسبون إليها ، ويطعمون مجتمعين وهم صامتون ، وينتخبون زعماءهم بالاقتراع العام ، ويخلطون متاعهم ومكاسبهم فى بيت مال مشترك ، ويعملون بالشعار : « مالى ومالك ملك لك »[٢٧] .

ويقول يوسفوس إن حياة الكثيرين منهم كانت تطول أكثر من مائة عام ،

مفضل طعامهم البسيط ، وحياتهم المنتظمة[٢٨] . وكان الرجل يلبس ثياباً من نسيج التيل الأبيض ، ويحمل معه فأساً صغيرة ليغطي بها فضلاته ، ويغتسل بعدها كما يغتسل البراهمة ، ويرى أن التبرز في يوم السبت من أعظم الكبائر[٢٩] .

وكانت قلة منهم تتزوج وتعيش في المدن العامرة ولكنهم كانوا يسيرون على القاعدة التي وضعها تولستوي وهي أنهم لايضاجعون أزواجهم إلا بقصد إنجاب الأطفال . وكان أعضاء هذه الشيعة يبتعدون عن جميع الملذات الجسمية ، ويسعون إلى الاتصال الصوفي بالله عن طريق التأمل والصلاة . وكانوا يأملون أن ينالوا بتقوى الله وبصيامهم واستغراقهم في التأمل والتفكير علم الغيب وقوة السحر . وكانوا كمعظم معاصريهم يؤمنون بالملائكة ، والشياطين ، ويعتقدون أن المرض ناشئ من تسلط الأرواح الخبيثة على الآدميين ، فكانوا لذلك يحاولون طرد هذه الأرواح بالتعاويذ السحرية . ومن « عقيدتهم السرية » جاءت بعض « أجزاء القبلة »(*) . وكانوا ينتظرون نزول المسيح لينشئ على الأرض مملكة شيوعية سماوية (ملسوس شمايم) يتمتع الناس كلهم فيها بالمساواة ، ولا يدخلها إلا من كانت حياته تقية طاهرة[٣١] . وكانوا شديدي التحمس في الدعوة إلى السلام ، يأبون أن يصنعوا شيئا من أدوات الحرب ؛ غير أنهم انضموا إلى غيرهم من الشيع اليهودية في الدفاع عن مدينتهم وهيكلها حين هاجمت فيالق تيتس بيت المقدس والهيكل ، وظلوا يقاتلون حتى لم يكد يبقى منهم أحد . وإذا ما قرأنا وصف يوسفوس لعاداتهم وآلامهم وجدنا أننا قد دخلنا جو المسيحية :

« ومع أنهم قد عُذّبوا ، وحُرّقوا ، وقُطّعت أجسامهم ، ولاقوا جميع ألوان العذاب لكي يرغموا على التجديف في حق صاحب شريعتهم ، أو أكل ما نهوا عن أكله ، فإنهم أبوا أن يفعلوا هذا أو ذاك ، أو أن

(*) تعليم تصوفي عند اليهود .

يتملقوا معذبهم ، أو تنحدر من أعينهم دمعة واحدة ، بل إنهم كانوا يتبسمون وسط آلامهم المبرحة ، ويضحكون ساخرين ممن يعذبونهم ، ويجودون بأرواحهم وهم مبتهجون ، كأنهم يتوقعون أن تعود لهم هذه الأرواح مرة أخرى » (٣٢) .

أولئك هم الصدوقيون ، والفرسيون ، والإسينيون ، أشهر الشيع الدينية اليهودية فى الجيل السابق لميلاد المسيح . أما الحكمون (Scribes) الذين يضمهم يسوع إلى الفرسيين فى كثير من الأحيان فلم يكونوا شيعة من شيع اليهود بل كانوا أبناء مهنة خاصة ؛ كانوا علماء متفقهين فى الشريعة ، يحاضرون فيها فى البيع ، ويعلمونها فى المدارس ، ويناقشونها فى المجتمعات العامة والخاصة ، ويطبقونها على الأحكام فى القضايا المختلفة . وكان عدد قليل منهم أحباراً ، وبعضهم صدوقيين ، وكثرتهم فرسيين . وكانوا فى القرنين السابقين لهلل كما كان الأحبار من بعده . كانوا هم فقهاء القانون فى بلاد اليهود ، وقد صارت فتاواهم القانونية ، التى صفاها الزمان ، وتداولتها الألسن ، وانتقلت بالسماع من المعلم إلى التلميذ ، صارت هذه الفتاوى جزءاً من الأحاديث الشفوية التى كان يعظمها الفرسيون كما يعظمون الشريعة المكتوبة ، وبفضل ما كان لهم من نفوذ وسلطان نمت شرائع موسى حتى ضمت آلافا من التعاليم المفصلة التى تواجه كل ظروف الحياة وأحوالها .

وأقدم شخصية واضحة معروفة بين معلمى القانون من غير رجال الدين هى شخصية هلل ، وحتى هذه الشخصية الواضحة تكاد تخفى معالمها فى ذلك النسيج الواهى من الخرافات التى حاكها حول اسمه الخلف المفتتن به . ويقول مؤرخوه إنه وُلد فى مدينة بابل (٧٥ ق م) من أسرة كريمة معروفة أخنى عليها الدهر . ثم جاء إلى أورشليم بعد أن اكتملت رجولته ، وأخذ يعول زوجته وأبناءه بالعمل اليدوى . وكان يؤدى نصف أجره اليومى ثمناً لقبوله فى المدرسة التى كان فيها أستاذان شهيران هما شمايا وأبتوليم يشرحان الشريعة . وعجز يوما من الأيام

عن أداء هذا الأجر ، فلم يسمح له بالدخول ، فتسلق العتبة السفلى لإحدى النوافذ « لكى يستمع إلى ألفاظ الإله الحى » . وتقول القصة إن جسمه تجمد من شدة البرد ، فسقط فوق الثلج ، وعثر عليه فى صباح اليوم الثانى وهو بين الحياة والموت(٣٣) . وصار هو فيما بعد حبرا محترما ، اشتهر بتواضعه ، وجلَده ، ودماثة أخلاقه . وتقول إحدى القصص إن بعض الناس راهن على أن يغضب هلل وإنه خسر الرهان(٣٤) . وقد وضع ثلاث قواعد ليهتدى بها الناس فى حياتهم : حب الناس ، وحب السلم ، وحب الشريعة ومعرفتها . وسأله رجل يريد أن يهتدى أن يفسر الشريعة فيما لا يزيد من الزمن على الوقت الذى يستطيع أن يقف فيه على قدم واحدة ، فأجابه بقوله : « لا تفعل مع غيرك ما تكرهه لنفسك » (٣٥)(*) . وكان هذا القول صورة سلبية حذرة من تلك القاعدة الذهبية التى صاغها اللاويون فى صيغتها الموجبة من زمن بعيد .

ومن تعاليم هلل الأخرى قوله : « لا تحكم على جارك حتى تكون أنت فى مكانه »(٣٧) . وقد حاول أن يهدئ ثائرة الشيع المتنازعة بوضعه سبع قواعد لتفسير الشريعة . وكانت تفسيراته هى نفسها قائمة على الحرية والتسامح ، وأهم ما فيها أنه يسَّر إقراض المال ، والحصول على الطلاق . وكان هو نفسه ناشراً للسلام لا مصلحاً .

وكان من نصائحه للشبان الثائرين فى عصره : « لا تخرجوا على الجماعة » . وقد قبل هيرود على أنه شر لا بد منه ، وعُيِّن فى عهده رئيساً للسنهدرين (٣٠ ق . م) ، وأحبته الأغلبية الفرسية حباً أبقاه رئيسا للمجلس الكبير إلى

(*) ويضيف التلمود إلى إجابة هلل ، العبارة الآتية : هذه هى الشريعـة كلها ، وكل ما عدا ذلك شرح وتعليق عليها »(٣٦) .

يوم وفاته (١٠ م) . ثم جعل هذا المنصب من بعده وراثياً فى أسرته مدى أربعمائة عام تعظيما لذكراه .

وخص المجلس مكان الشرف الثانى فيه لمنافس هلل ، وهو الحبر شماى المحافظ . وكان يفسر الشريعة تفسيراً أدق وأضيق من تفسير هلل ، ولا يجيز الطلاق ، ويطالب بتطبيق التوراة تطبيقاً حرفيا ، لا يراعى فيه تغيير الظروف . وكان انقسام المعلمين اليهود إلى محافظين وأحرار قائما قبل هلل بمائة عام وظل قائما حتى خرب الهيكل .

الفصل الخامس

الأمل الأكبر

تكاد الآداب اليهودية التى وصلت إلينا من ذلك العصر تكون كلها آداباً دينية . ذلك أنه قد بدا لليهودى المتمسك بدينه أن من الخطأ أن يكتب فى الفلسفة أو الأدب إلا إذا كان الغرض النهائى من هذه الكتابة أن يحمد الله ويمجد الشريعة ؛ كما كان يبدو له أن صنع التماثيل للإله إثم كبير وأن تزيين الهياكل بالفنون التشكيلية امتهان لها وانتهاك لحرمتها . ولا حاجة إلى القول بأن هناك بعض حالات استثنيت من هذا التحريم قد تكون قصة سوزانة الطريفة مثلا لها . وخلاصة هذه القصة أن كبيرين تنقصهما المعرفة التامة اتهما زوراً فتاة يهودية جميلة بسوء السيرة ، وأنها برئت بفضل براعة شاب يدعى دانيال فى مناقشة الشهود ، وقد وجدت هذه القصة طريقها إلى بعض طبعات سفر دانيال .

وقد يكون سفر يشوع بن سيراخ الذى نسميه سفر الحكمة مما كتب فى ذلك العهد المتأخر . وهو واحد من أسفار كثيرة تسمى الأپوكريفا — أى « الخفية » أو غير الموثوق بها والتى لا يعترف اليهود بها ضمن أسفار العهد القديم المنزلة . وهى ملأى بالجمال والحكمة ؛ ومن أجل هذا فهى غير جديرة بأن تطرد من صحبة سفر الشريعة وسفر أيوب . ونجد فى أصحاحاتها الأربعة والعشرين ما نجده فى الأصحاح الثامن من سفر الأمثال عن عقيدة الكلمة المجسدة : « الرب قنانى أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم : منذ الأزل مسحت ؛ منذ البدء منذ أوائل الأرض » . وبين عامى ١٣٠ ق . م ، ٤٠ . م نشر يهودى إسكندرى — أو عدد من اليهود الهلنستيين — سفر أمثال سليمان ، وهو سفر يحاول ، كما حاول فيلو ، أن يوفق بين اليهودية والأفلاطونية ، ويهيب باليهود الذين ينادون بالاندماج فى الثقافة اليونانية

أن يعودوا إلى الشريعة ، كل هذا فى نثر لا يقل فى جزالته وقوته عن أى نثر آخر منذ عهد إشعيا . وأقل من هذا السفر قوة وجزالة سفر مزامير سليمان (حوالى ٥٠ ق . م) ، ويكثر فيه التنبؤ بظهور منقذ لإسرائيل .

ويسرى هذا الأمل فى النجاة من رومة ومن العذاب الدنيوى على يد منقذ إلهى فى كل ما كتب فى هذا العصر من أدب يهودى إلا القليل النادر منه . واتخذ الكثير منه صورة رؤى تهدف إلى إيضاح الماضى والتسامح فيه بعرضه على صورة إعداد لمستقبل مجيد يظهره الله على لسان رسول من عنده . وكان كتاب دانيال الذى كتب فى عام ١٦٥ ق . م ليشجع إسرائيل على الوقوف فى وجه أنتيخس إبفانيس ، لا يزال ذائعا بين اليهود الذين لم يكونوا يعتقدون أن يهوه سيتركهم طويلا تحت سيطرة الوثنيين . واتخذ كتاب أخنوخ ، وهو فى أكبر الظن من عمل عدة مؤلفين عامى ١٧٠ ، ٦٦ ق . م صورة رؤى نزلت على الأب الأكبر الذى « سار مع الرب » فى سفر التكوين (الآية ٢٤ من الإصحاح الخامس) . ويقص هذا السفر سقوط الشيطان ومن معه ، وما أدى إليه ذلك من حلول الشر والألم فى حياة البشر ، ثم نجاة بنى الإنسان على يد مسيح ، وحلول مملكة السماء . وحوالى عام ١٥٠ ق . م شرع كاتب يهودى ينشر نبوءات سيبيلية صور فيها نبيات تنتصر لليهودية على الوثنية ، وتتنبأ بفوز اليهود النهائى على أعدائهم .

والراجح أن فكرة الإله المنقذ قد جاءت إلى غربى آسية من بلاد فارس أو بابل[٣٨]. فالتاريخ كله والحياة كلها قد صورا فى الديانة الزرادشتية فى صورة صراع بين قوى النور المقدسة وقوى الظلمة الشيطانية ؛ ثم يأتى فى آخر الأمر منقذ — شوشيانت أو مثراس — ليحكم بين الناس ويقيم حكم العدالة والسلام الدائمين . وكان يبدو للكثيرين من اليهود أن حكم رومة جزء من انتصار الشر القصير الأجل ، ولهذا كانوا يندد ون بما فى حضارة « الكفار » من شراهة ، وغدر ، ووحشية ، ووثنية ، وما فى العالم الأبيقورى من « كفر بالله » وعبادة

للشهوات . وقد جاء فى سفر الحكمة أن المنافقين قالوا فى أنفسهم مفتكرين افتكاراً غير مستقيم :

« إن عمرنا هو يسير ومحزن ، ووفاة الإنسان ليس لها شفاء ، ولم يعرف قط المحلول من الجحيم ، لأننا ولدنا من لاشىء ، وبعد هذه نكون كأننا لم نكن لأن النسمة دخان فى أنوفنا ، والنطق شرارة فى تحريك قلوبنا ، وإذا أطفئت بصير الجسم رماداً ، والروح ينسكب كالهواء المبثوث . واسمنا سينسى فى الزمان ، ولا يذكر أحد أعمالنا ، ويزول عمرنا كزوال أثر الغمام ، ويضمحل كالضباب الذى بدده شعاع الشمس وتثقله حرارتها ، لأن عمرنا ظل عابر وليس لأجلنا إبطاء لأنه أمر محتوم ولن يرده أحد . فهلم إذن نتمتع بالخيرات الموجودة ، ونستعمل الملذات فى البرية ما دام زمان الشبوبية ، فنمتلىء من الخمر الفائقة والطيوب ، ولا يفوتنا نسيم زهر الربيع . نتكلل بفقاح الورد قبـــل ذبوله ، ولا يكون مرج إلا يجوز عليه تنعمنا »(٣٩) .

ويقول صاحب هذا السفر إن ثلاثة من الأبيقوريين يداون بحجج باطلة . وإنهم يربطون عربتهم بنجم ساقط لأن اللذة شىء باطل زائل :

« لأن رجاء المنافق كغبار تحمله الرياح ، وكرغوة رقيقة تقدها الزوبعة ، وكدخان ينحل فى الرياح ، وكذكر ضيف مكث يوما واحداً وارتحل : أما الصديقون فيحيون إلى الدهر ، وعند الرب ثوابهم ، وعند العلى اهتمامهم . فلهذا يتقلدون مملكة البهاء وتاج الكمال من يد الرب »(٤٠) .

وسيقضى على عهد الشر والإثم — كما تقول أسفار الرؤيا — إما بتدخل الله نفسه ، أو بإرساله إلى الأرض ابنه أو ممثله المسيح(*) . أو لم ينبىء به النبى إشعيا

(*) وقد وردت كلمة مسيح (وهى بالعبرية مشيح) فى كثير من المواضع فى العهد القديم . وترجمها اليهود الذين كتبوا الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة (حوالى ٢٨ ق . م) باللفظ اليونانى christos أى الذى صب عليه الزيت المقدس أو مسح به .

قبل ذلك ذلك العهد بمائة عام إذ يقول : « لأنه يولد لنا ولد ونعطى إبناً وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيباً مشيراً ، إلها قديراً ، أباً أبدياً ، رئيس السلام »[٤١] .

وكان كثيرون من اليهود يتفقون مع إشعيا (١١ : ١) فيما وصف به المسيح من أنه ملك دنيوى يولد من بيت داود الملكى ؛ ومنهم من يسمونه باسم ابن الإنسان كأخنوخ ودانيال ، ويصوّرونه بأنه سينزل من السماء . أما الفيلسوف صاحب سفر الأمثال والشاعر صاحب حكمة سليمان[٤٢] فلعلهما قد تأثرا بأفكار أفلاطون أو بروح الأرض التى يقول بها الرواقيون فتصوروه الحكمة مجسدة التى هى أول شىء « قناها الرب » ، وهى الكلمة أو العقل (logos) التى لن تلبث أن يكون لها شأن عظيم فى فلسفة أفلاطون . ويكاد مؤلفو سفر الرؤيا كلهم يجمعون على أن المسيح سينتصر انتصاراً سريعاً ، ولكن إشعيا تصوره فى فقرة من أروع فقراته بأنه : محتقر ومخذول من الناس ، رجل أوجاع ومختبر الحزن . . . لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها . . . وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا . . . وبجبره شفينا . . . والرب وضع عليه إثم جميعنا . . . من الضغطة ومن الدينونة أخذ وفى جيله من كان يظن أنه قطع من أرض الأحياء . . . وهو حمل خطيئة كثيرين وشفع فى المذنبين »[٤٣]

بيد أنهم جميعا متفقون على أن المسيح سيخضع الكفار آخر الأمر ، ويحرر إسرائيل[٤٤] ويتخذ أورشليم عاصمة له ، ويضم إليه الناس جميعا ليؤمنوا بيهوه والشريعة الموسوية[٤٥] . ويسود بعد ذلك « عصر طيب » تسعد به الدنيا بأجمعها فتكون الأرض كلها خصبة ، وتحمل كل حبة قدر ماكانت تحمله ألف مرّة ، ويصير الخمر موفوراً ، ويزول الفقر ، ويصبح الناس كلهم أصحاء ، مستمسكين بالفضيلة ، وتسود العدالة والصداقة والسلام فى الأرض[٤٦]

وكان بعض الناس يظنون أن هذا العهد الصالح ستتخلله عهود غير صالحة ؛

وأن قوى الظلمة والشر ستبذل جهدها الأخير للهجوم على هذه المملكة السعيدة ، وأن العالم سيحترق فى الفوضى واللهب ؛ وسيقوم الموتى فى « يوم الدينونة الأخير » ليحاسبوا أمام «قديم الأيام» (يهوه) أو أمام « ابن الإنسان » ، وسيكون له السلطان المطلق الأبدى على العالم بعد أن تجدد وصلح ، أى على مملكة الله ؛ وسيُلقى الأشرار وهم صامتون « فى الجحيم » ، أما الأخيار فسيُستقبلون فى دار النعيم الأبدى .

ولقد كانت الحركة الفكرية فى بلاد اليهود فى جوهرها مماثلة للحركة الفكرية الدينية الوثنية المعاصرة لها : شعب كان فيما مضى إذا فكر فى المستقبل يحصر تفكيره فيما سوف يؤول إليه مصيره القومى ، ثم فقد الآن ثقته بالدولة التى ينتمى إليها ، وأخذ يفكر فى النجاة الروحية الفردية . وكان الدين ذو الطقوس الخفية الغامضة قد بعث هذا الأمل فى صدور الآلاف المؤلفة من اليونان ، وفى بلاد الشرق الهلنستى وإيطاليا ؛ ولكن هذا الأمل أو الحاجة إليه لم يكونا فى بلد من البلاد أقوى مما كان فى بلاد اليهود . فلقد كان الفقراء أو المحرومون ، والمظلومون أو المحتقرون فى هذه الأرض يتطلعون إلى أن يرسل لهم الله من ينجيهم ويرفع عنهم نير الذل والعذاب . وتقول أسفار الرؤيا إن هذا المنقذ لن يطول غيابه وإنه حين ينتصر سيرتفع إلى الجنة كل العادلين ، حتى من كان منهم فى القبور ، ليتمتعوا فيها بالنعيم السرمدى . وكان القديسون الشيوخ ، أمثال شمعون ، وكانت النساء المتصوفات أمثال أنا ابنة فانيول يقضون حياتهم حول المعبد ، صائمين يترقبون ، ويصلون ، ويتضرعون لعلهم يرون هذا المنقذ قبل وفاتهم . وكان هذا الترقب يملأ قلوب الناس :

الفصل السادس

الثــورة

ظل اليهود يكافحون قرونا طويلة ، ولما أن مات هيرودس الأعظم نبذ الوطنيون نصائح هلل السلمية وأعلنوا الثورة على خليفته أركلوس وعسكروا فى خيام حول المعبد : فقتل جنود أركلوس ثلاثة آلاف ، كان كثيرون منهم قد جاءوا إلى أورشليم ليحتفلوا بعيد الفصح (٤ ق . م) ، لكن الثوار عادوا إلى التجمع فى عيد العنصرة وتعرضوا فى هذه المرة إلى ما تعرضوا له من قبل من قتل ، وحرقت أروقة الدير ونهب الجنود ما فيه من الكنوز ، واستحوذ اليأس على الكثيرين من اليهود فقتلوا أنفسهم . ثم تألفت عصابات من الوطنيين فى الريف وهددوا حياة كل من يؤيد رومة ، ومن هذه العصابات واحدة تحت قيادة يوداس الجولونى استولت على صفورة عاصمة الجليل : وزحف ڤارس حاكم سوريا على فلسطين بعشرين ألفاً من رجاله ، وهدم مئات من بلدانها ، وصلب ألفين من الثوار : وباع ثلاثين ألفاً من اليهود فى أسواق الرقيق . وذهب وفد من زعماء اليهود إلى رومة وطلب إلى أغسطس أن يلغى الملكية فى بلاد اليهود : فاستجاب أغسطس لطلبه وعزل أركلوس وجعل البلاد ولاية رومانية من الدرجة الثانية وعين عليها حاكما مسئولا أمام والى سوريا (٣٦) .

ونعمت هذه البلاد المضطربة بفترة صغيرة من السلام فى عهد تيبريوس ، فلما جلس كلجيولا على العرش أراد أن يجعل عبادة الإمبراطور ديناً يوحد به أجزاء الإمبراطورية المختلفة فأمر أن تشمل كل العبادات قرباناً يقرب لصورته وأصدر تعلياته إلى الموظفين فى أورشليم أن يضعوا تمثاله فى الهيكل .

وكان اليهود فى عهد أغسطس وتيبريوس قد خطوا نصف الطريق إلى

ترضية الأباطرة بأن كانوا يضحون لبهوه باسم الإمبراطور ، ولكنهم كانوا ينفرون أشد النفور من وضع تمثال منحوت لرجل وثنى فى هيكلهم . وبلغ هذا النفور درجة دفعت آلافاً منهم — على حد قول الرواية المأثورة — إلى أن يذهبوا إلى حاكم سوريا ويطلبوا إليه أن يذبحهم وإن لم يرتكبوا ذنباً قبل أن ينفذ هذا المرسوم[49] . وحلّ كلجيولا هذا المشكل بموته . وأقنع أجريا حفيد هيرودس الإمبراطور كلوديوس فعينه ملكاً على فلسطين كلها تقريباً (٤١ م) ، فلما مات أجريا انطلقت الفتنة مرة أخرى من عقالها ، وأعاد كلوديوس البلاد إلى ما كانت عليه فى عهد أغسطس وعين عليها حاكماً من قِبَل رومة (٤٤) .

وكان معظم الرجال الذين اختارهم معاتيقه ليشغلوا هذا المنصب عاجزين أو سفلة . ومن هؤلاء فليكس الذى عينه أخوه پلاس Pallas والذى « حكم بلاد اليهود » — كما يقول تاستس — « بقوة الملك وروح الرقيق »[50] . وكان فستس Festus أعدل من فليكس ، ولكنه توفى فى أثناء هذه المحاولة . وجد ألبينس Albinus — إذ جاز لنا أن نصدق يوسفوس — فى النهب وفرض الضرائب ، وجمع ثروة طائلة بإطلاق المجرمين من السجون نظير أجر يتقاضاه منهم حتى « لم يبق أحد فى السجن إلا من لم يتقاض منه شيئاً »[51] . وسلك فلورس Florus — كما يقول هذا الكاتب صديق الرومان المعجب بهم — مسلك « الجلاد لا مسلك الحاكم » فنهب مدناً بأكملها ، ولم يكتف بأن يسرق هو نفسه ، بل تغاضى عن سرقات غيره إذا نال سهماً من الغنيمة . بيد أن هذه الأقوال يشتم منها رائحة العداوة الحزبية ؛ وما من شك فى أن الحكام هم الآخرون كانوا يشكون من أن اليهود شعب مشاكس ليس من السهل إخضاعه .

وتألفت عصابات من « المتحمسين » و « الفدائيين » ليحتجوا على هذا الفساد . وأقسم أعضاؤها أن يغتالوا كل يهودى خائن ، فكانوا يندسون وسط الجماعات فى الشوارع ويطعنون ضحاياهم من خلفهم ، ثم يختفون

بين الجماهير فى الفوضى التى تعقب عملهم هذا(٥٢) . ولما أن اغتصب فاورس سبع عشرة وزنة (٢٠٠٠ ر ٦١ ريال أمريكى) من كنوز الهيكل ، اجتمع أمامه جمهور غاضب يطلبون عزله ؛ وأخذ جماعة من الشبان يطوفون بالمدينة وبأيديهم سلات يطلبون الصدقات له لأنه يعانى مرارة الفقر . لكن فيالق فلورس بددت شمل المجتمعين ، ونهبت مئات من البيوت ، وذبحت ساكنيها ، وقبض على زعماء الفتنة ، وجلدوا وصلبوا . ويقول يوسفوس إن ٣٦٠٠ يهودى قتلوا فى ذلك اليوم(٥٣) . وأخذ شيوخ العبرانيين وأثرياؤهم يدعون الناس إلى الصبر ، وحجتهم فى هذا أن الثورة على هذه الإمبراطورية القوية ليست إلا انتحاراً قومياً ؛ أما الشبان والفقراء فكانوا يتهمون هؤلاء بخور العزيمة ومحاباة الظالمين .

وانقسمت المدينة ، وانقسمت كل أسرة تقريباً بين هذين الحزبين ، فاستولى أحدهما على الجزء الأعلى من أورشليم ، واستولى الآخر على جزئها الأدنى ، وأخذ كلاهما يهاجم الآخر بكل ما يصل إلى يده من سلاح . ووصل الأمر فى عام ٦٨ إلى نشوب معركة دامية بين الحزبين انتصر فيها المتطرفون وقتلوا ١٢٠٠٠ يهودى من بينهم الأغنياء كلهم تقريباً(٥٤) . وهكذا استحالت الفتنة ثورة . وأحاطت قوة من العصاة بالحامية الرومانية المعسكرة فى مسادا Massada ، وأقنعتها بأن تلقى سلاحها ، ثم قتلت رجالها عن آخرهم . وفى ذلك اليوم نفسه حدثت فى قيصرية عاصمة فلسطين مذبحة هائلة ذبح فيها غير اليهود من السكان عشرين ألفاً من اليهود ، وبيع آلاف غيرهم بيع الرقيق . وذبح غير اليهود من سكان دمشق عشرة آلاف يهودى فى يوم واحد(٥٥) . وقام اليهود المختفون بتدمير عدد كبير من المدن اليونانية فى فلسطين وسوريا ، وأحرقوا بعضها عن آخرها وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها كما قتل منهم هم أيضاً كثيرون ؛ ويقول يوسفوس فى هذا : « وكان من المناظر المألوفة فى ذلك الوقت أن نرى المدن مملوءة بجثث الموتى . . . ملقاة فيها دون أن تدفن ، وأن نشاهد جثث الشيوخ إلى جانب

جثث الأطفال وبينها جثث النساء عارية من كل غطاء[٥٦] » . وقبل أن يحل شهر سبتمبر عام ٦٦ كان الثوار قد استولوا على أورشليم وعلى فلسطين كلها تقريباً ، وخذل حزب السلم وفقد أنصاره ، وانضم معظم أعضائه إلى الثوار .

وكان من بين هؤلاء كاهن يدعى يوسفوس ، وكان وقتئذ شاباً في الثلاثين من عمره ، نشيطاً ، نابهاً ، وهب من الذكاء ما يستطيع به أن يحيل كل شهوة من شهواته فضيلة . وكلفه الثوار بتحصين الجليل ، فدافع عن حصنها جوتوپاتا ضد قوات ڤسپازيان المحاصرة لها ، حتى لم يبق من حاميتها اليهودية على قيد الحياة غير أربعين جنديا اختبئوا معه فى كهف من الكهوف . وأراد يوسفوس أن يسلم لجنود ڤسپازيان ، ولكن رجاله أنذروه بالقتل إن حاول التسليم . وإذ كانوا يفضلون الموت على الأسر ، فقد أقنعهم بأن يحددوا بطريق القرعة الترتيب الذى يقتل به كل منهم على يد من يليه . ولما ماتوا جميعاً ولم يبق إلا هو وواحد منهم أقنعه بأن ينضم إليه فى الاستسلام للعدو . وقبيل أن يرسلا إلى رومة مكبلين بالأغلال تنبأ يوسفوس أن ڤسپازيان سيصبح إمبراطوراً ، فأطلقه ڤسپازيان من الأسر ، وقربه إليه شيئاً فشيئاً وجعله ناصحاً أميناً له فى حربه ضد اليهود . ولما سافر ڤسپازيان إلى الإسكندرية صحب يوسفوس تيتس فى حصار أورشليم .

وكان اقتراب الفيالق الرومانية إيذاناً بضم صفوف اليهود وتأليفهم وحدة حانقة متعصبة وإن جاء ذلك بعد فوات الأوان . ويقول تاستس إن ٦٠٠٠٠٠ من الثوار تجمعوا فى المدينة ؛ وإن « كل من يستطيع الانخراط فى سلك الجندية قد تسلح ونزل إلى الميدان » ، وإن الروح العسكرية فى النساء لم تكن أقل منها فى الرجال[٥٧] . ونادى يوسفوس من بين صفوف الرومان أهل المدينة المحاصرين إلى الاستسلام ، ولكنهم اتهموه بالخيانة ، وحاربوا إلى آخر رجل

فيهم . وحاول اليهود بعد أن نفدت مؤونتهم اختراق الصفوف للحصول على الطعام . فأسر الرومان آلافا منهم وصلبوهم ، ويقول يوسفوس إن « هؤلاء بلغوا من الكثرة حدا لم تتسع معه الأرض لإقامة الصلبان ، ولم يوجد من الصلبان ما يكفى لأجسامهم » . وازدحمت شوارع المدينة بجثث الموتى فى المراحل الأخيرة من الحصار الذى دام خمسة أشهر . وكانت جماعات من النهابين تطوف بالموتى وتقطع أجسامهم وتنهب مالهم ، ويقال إن ١١٦ر٠٠٠ جثة ألقيت من فوق أسوار المدينة وإن بعض اليهود بلعوا قطعا من الذهب وخرجوا خلسة من أورشليم ، وإن الرومان أو السوريين الذين قبضوا عليهم شقوا بطونهم أو بحثوا فى برازهم ليحصلوا على ما ابتلعوه من الذهب(٥٨). ولما استولى تيتس على نصف المدينة عرض على الثوار شروطا ظنها لينة ، فلما رفضوها أضرمت فرق الحراقين الرومان النار فى الهيكل فلم يلبث هذا الصرح العظيم ، وكان معظمه مشيداً من الخشب ، أن احترق بأكمله . وقاتل الباقون من المدافعين عن المدينة قتال الأبطال ، فخورين كما يقول ديو بموتهم فى حرمه(٥٩) . فمنهم من قتل بعضهم بعضاً ، ومنهم من ألقوا بأنفسهم على سيوفهم ، ومنهم من قفزوا فى اللهب . ولم يرحم المنتصرون أحداً ، بل قتلوا كل من استطاعوا أن يقبضوا عليه من اليهود . وقد قبض على ٩٧ر٠٠٠ وبيعوا فى أسواق الرقيق ، ومات كثيرون منهم فى المجتالدات بعد أن سيقوا مرغمين إلى الألعاب التى أقيمت ضمن احتفالات النصر فى بيروت ، وقيصرية ، وفلپای ، وروما . ويقدر يوسفوس عدد من هلك من اليهود فى هذا الحصار وما أعقبه من حوادث بمليون ومائة وسبعة وتسعين ألفاً . أما تاستس فيقدرهم بستمائة ألف (٧٠ م(٦٠)) .

ودامت المقاومة فى أماكن متفرقة حتى عام ٧٣ ، ولكن تدمير الهيكل كان فى واقع الأمر نهاية الفتنة ونهاية الدولة اليهودية . وصودرت أملاك الذين اشتركوا فيها وبيعت ، وكادت الدولة اليهودية أن تخلو من اليهود ،

وعاش من بقي منهم فيها عيش الكفاف . وكان أفقر فقرائهم برغم على أن يؤدى للهيكل الوثنى فى رومة نصف الشاقل الذى كان العبرانيون الصالحون يؤدونه فى كل عام لصيانة هيكل أورشليم . وألغيت مناصب كبار الكهنة والسنهدرين : واتخذت اليهودية الصورة التى احتفظت بها إلى أيامنا هذه : صورة دين بلا معبد مركزى ، ولا كهنوت مسيطرين عليه ، ولا قرابين . واختفت طائفة الصدوقيين ، وأصبح الفرسيون والأحبار زعماء شعب لا وطن له ، لم يبق له إلا معابده .

الفصل السابع

التشتيت

لقد كانت هجرة مليون من اليهود أو تشريدهم مما عجل انتشارهم فى جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ، ومن أجل هذا أرخ علماؤهم تشتيتهم من الوقت الذى دمر فيه هيرودس الهيكل . ولقد رأينا أن هذا التشتيت بدأ بالسبى أو الأسر البابلى قبل ذلك الوقت بستة قرون وأنه تجدد باستيطانهم فى الإسكندرية . وإذ كانت كثرة التناسل مما يحتمه الدين اليهودى والشريعة اليهودية على الصالحين المتقين ، وإذ كان وأد الأطفال محرما عليهم. فإن انتشار اليهود كانت له أسباب من علم الأحياء نفسه فضــلا عن الأسباب الاقتصادية ؛ وكان لا يزال لليهود بعض الشأن القليل فى تجارة العالم . وقد قال عنهم استرابون قبل سقوط أورشليم بخمسين عاماً قولا لا يخلو من المغالاة التى أملتها عليه نزعته المعادية للسامية : « يصعب على الإنسان أن يجد فى العالم المعمور كله مكاناً واحداً خالياً من هــذا الجنس من الناس ، أوغير مملوك له »[٦١] . ووصف فيلو قبل التشتيت بعشرين عاماً « القارات . . . الملأى بالحلات اليهودية ومثلها ... الجزائر وبلاد بابل كلها تقريباً »[٦٢] . وما وافى عام ٧٠ من بعد الميلاد حتى كان آلاف من اليهود فى سلوقية على نهر دجلة وفى غيرها من مدائن بارثيا . وكانوا كثيرى العدد فى بلاد العرب ، ومنها عبروا البحر إلى بلاد الحبشة ، وكانوا فى سوريا وفينيقية وكانت لهم جالية كبيرة فى طرسوس ، وأنطاكية ، وميليتس ، وإفسوس ، وسرديس ، وأزمير . وكانوا أقل من ذلك بعض الشىء فى ديلوس ، وكورنثة ، وأثينة وفلباى وبيريه ، وسلانيك . أما فى غرب البحر الأبيض فكانت هناك جماعات من اليهود فى قرطاجنة ، وسرقوسة ، وبتيولى ، وكبوا ، وبمبى ، وروما ، وحتى

ڤنوزيا موطن هوراس نفسها لم تكن تخلو من اليهود . وفى وسعنا أن نقدر عدد اليهود فى الإمبراطورية الرومانية إجمالا بنحو سبعة ملايين أى نحو ٧٪ من سكانها وضعفى نسبتهم إلى سكان الولايات المتحدة الأمريكية فى هذه الأيام[٦٣] .

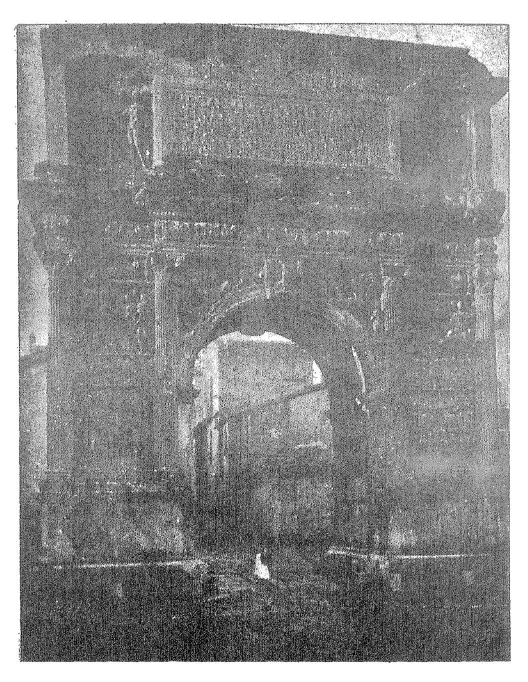
وقد أثاروا بكثرة عددهم ، ولباسهم ، وطعامهم ، وختانهم ، وفقرهم ، وطمعهم ، ورخائهم ، وعزلتهم ، وذكائهم ، ونفورهم من الصور وتشددهم فى مراعاة السبت رغم ما يسببه ذلك من العنت لهم ، أثاروا بهذا كله حركة عداء للسامية تختلف من المزاح فى الملاهى ، والسخرية بهم فى أقوال جوڤنال وتاستس ، إلى ذبحهم فرادى فى الشوارع ، وقتلهم زرافات فى المذابح المدبرة . وقد نصب أپيون الإسكندرى نفسه مدافعاً عن هذه الهجمات ، ورد عليه يوسفوس برسالة صارمة شديدة اللهجة(*) .

وسافر يوسفوس مع تيتس إلى رومة بعد سقوط أورشليم ، وصحب قاهر بنى جنسه فى موكب نصر عرض فيه أسرى اليهود والمغانم اليهودية . ومنحه ڤسپازيان حق المواطنية الرومانية ، ووظف له معاشا وخصص له مسكنا فى قصره وأقطعه أرضا خصبة فى بلاد اليهود[٦٥] . وتسمى يوسفوس نظير هذا باسم آسره ڤسپازيان ، وهو فلاڤيوس ، وكتب تاريخ حرب اليهود (حوالى عام ٧٥) ، ليدافع عن أعمال تيتس فى فلسطين ، ويبرر انشقاقه على بنى جنسه ، ويثبط عزائم اليهود إذا ما فكروا فى الخروج على رومة مرة أخرى بإظهاره قوتها وبأسها . واشتد إحساسه بعزلته فى شيخوخته فألف كتاباً فى قدم اليهود أراد به أن يستعيد عطف بنى جنسه بأن يصور لغير اليهود ما قام به هذا الشعب من جلائل الأعمال ، ويصف عاداتهم وأخلاقهم . وقصصه فى هذا الكتاب واضح قوى ،

(*) وقد ابتهج يوسفوس حين علم أن قرحة قد اضطرت أپيون إلى الاختتان .

ووصفه لهيرودس الأكبر لا يقل إمتاعاً عن وصف أفلوطرخس ، ولكن تحيزه والغرض الذى يكتب من أجله يفسدان موضوعية الكتاب . وقد تطلب قدم اليهود عدة سنين وأنهك قوى المؤلف ، فلم يستطع أن يتمه ، وكتب أمناء سره الكتب الأربعة الأخيرة من العشرين كتاباً التى يتألف منها هذا المجلد الضخم مستعينين على كتابتها بمذكراته(٦٦) . ولم يكن يوسفوس قد جاوز الخامسة والستين من عمره حين نشر الكتاب ، ولكنه كان قد ضعفت قواه متأثرة بحياة المغامرات ، والجدل ، والعزلة الأخلاقية .

واستطاع اليهود أن يعيدوا بالتدريج بناء حياتهم الاقتصادية والثقافية فى فلسطين . وبينا كان الحصار مضروباً على أورشليم فر من المدينة تلميذ شيخ من تلاميذ هلل يدعى يوحنان بن زكاى لأنه خشى أن يبيد المعلمون كلهم فى المذبحة فلا يبقى من ينقذ الأحاديث الشفوية . ولما خرج من المدينة أقام مجمعا علميا فى كرم عند يبنى أو يمنيا قرب شاطئ البحر الأبيض المتوسط . ولما سقطت أورشليم نظم يوحنان سنهدريناً جديداً فى يمنيا ، ولم يؤلفه من الكهنة ، والسياسيين ، والأثرياء بل ألفه من الفرسيين والأحبار أى معلمى الشريعة . ولم يكن لهذا المجلس المعروف باسم بيت الدين أية سلطة سياسية ، ولكن معظم يهود فلسطين كانوا يعترفون بسلطانه فى جميع الشئون المتعلقة بالدين والأخلاق . وكان الحاخام الذى يختاره المجلس رئيسا له يعين الموظفين الإداريين المشرفين على الجماعات اليهودية ، وكان من حقه أن يخرج من حظيرة الدين من لا يرضى عنهم من اليهود . وكان من أثر النظام الصارم الذى فرضه الحاخام جماليل الثانى (حوالى سنة ١٠٠ م) أن توثقت الرابطة بين أعضاء المجلس أولا ، ثم بين يهود يمنيا ، ثم بين يهود فلسطين كلها فيما بعد . وحدث فى أيامه أن أعيد النظر فى التفسيرات المتناقضة للشريعة وهى التفسيرات التى نقلها هلل وشماى ، ثم أخذ الرأى عليها ، وكانت النتيجة أن قبلت معظم



(شكل – ١٠) قوس تراچان فى بنفنتو

تفسيرات هلل وفرض على اليهود جميعهم أن يعملوا بها .

وإذ كانت الشريعة قد أصبحت وقتئذ الرابطة القوية التى لا غنى عنها والتى تؤلف بين اليهود المشتتين الذين لا تؤلف بينهم دولة ، فقد أصبح تعليم هذه الشريعة أهم عمل تقوم به الكنائس فى جميع البلاد التى شتت فيها اليهود . وحل المجمع محل الهيكل ، كما حلت الصلاة محل التضحية ، وحل الربان محل الكاهن ، وأخذ الشراح (التنايم) يفسرون مختلف القوانين اليهودية المنقولة بطريق السماع (هلاكا) ، وكانوا يؤيدون شروحهم فى العادة بعبارات يقتبسونها من الكتاب المقدس ، يضيفون إليها قصصا وعظات أو غيرها من المواد (هجاداً) ويوضحونها بها فى بعض الأحيان . وأشهر هؤلاء التنايم هو الربان عكيبا بن يوسف . وقد انضم هذا الربان ، وهو فى سن الأربعين ، إلى ابنه البالغ من العمر خمس سنين ، وذهبا معاً إلى المدرسة فتعلم القراءة ، واستطاع فى زمن قليل أن يتلو عن ظهر قلب جميع أسفار موسى . وبعد دراسة دامت ثلاثة عشر عاما افتتح له مدرسة تحت شجرة تين فى قرية قريبة من يمنيا . وقد كانت حماسته ، ومثاليته ، وشجاعته ، وفكاهته ، بل وتعسفه الشديد سبباً فى التفاف كثيرين من الطلاب حوله . ولما جاءت الأنباء فى عام ٩٥ ، أن دومتيان سيتخذ إجراءات جديدة ضد اليهود ، اختير أكيبا وجماليل واثنان آخران من اليهود ليتصلا اتصالا شخصيا بالإمبراطور . وبينما هم فى رومة إذ توفى دومتيان . واستمع نيرفا إلى رسالتهم وأظهر العطف على مطالبهم ، وألغى الضريبة المفروضة على اليهود لإعادة بناء رومة .

ولما عاد أكيبا إلى يمنيا أخذ على عاتقه أن يقوم بذلك العمل الشاق الذى قضى فيه بقية حياته ونعنى به تقنين الهلاكا ، وأتم هذا العمل من بعده تلميذه الربان مير Meir وخليفتهما الأب يهوذا (حوالى ٢٠٠ م) . وقد بقيت الهلاكا حتى فى هذه الصورة المصنفة جزءاً من الأحاديث الشفوية ، يتناقلها العلماء والحفاظ المحترفون جيلا بعد جيل — فكانوا هم النصوص الحية للشريعة الموسوية .

وكان فى الطرق التى جرى عليها أكيبا من السخف بقدر ما فى النتائج التى وصل إليها من الصحة . وقد فسر الشريعة المسطورة تفسيراً عجيبا إذ جعل لكل حرف من حروفها معنى خفيا ثم استمد من هذا التفسير مبادئ حرة ؛ ولعل الباعث له على هذا التفسير ما لاحظه من أن الناس لا يقبلون الشىء المعقول إلا إذا كان فى صورة غامضة خفية . وعن أكيبا أخذ هذا التنظيم وذاك العرض لعلمى الدين والأخلاق اللذين انتقلا عن طريق التلمود إلى ابن ميمون ، ثم انتقلا آخر الأمر إلى أساليب الفلاسفة المدرسيين .

ولما بلغ سن التسعين وضعفت قواه وأصبح من الرجعيين ألفى نفسه ، كما كان فى أيام شبابه ، محوطا بالثورة من كل الجوانب . ذلك أن يهود قورينة ، ومصر ، وقبرص ، وأرض الجزيرة ، رفعوا لواء الثورة على رومة مرة أخرى فى عامى ١١٥ - ١١٦ ، وأخذ اليهود يقتلون غير اليهود ، وهؤلاء يقتلون أولئك حتى أصبح التقتيل هو العادة المألوفة فى تلك الأيام . ويقول ديو إن ٢٢٠,٠٠٠ قتلوا فى قورينة ، و٢٤٠,٠٠٠ فى قبرص . وتلك أرقام لا يقبلها العقل بطبيعة الحال ، ولكننا نعرف أن قورينة لم تنتعش قط بعد هذا التخريب ، وأن اليهود ظلوا عدة قرون بعد ذلك الوقت لا يسمح لهم قط بدخول قبرص . ثم أخمدت الفتن ، ولكن من بقى من اليهود ظلوا محتفظين بأملهم القوى فى ظهور مسيح يعيد بناء الهيكل ويعيدهم هم ظافرين إلى أورشليم . وأشعل الرومان ، بحمقهم وبلاهتهم ، نار الثورة من جديد . ذلك أن هدريان أعلن فى عام ١٣٠ أنه يعتزم بناء ضريح لجوبتر فى مكان الهيكل ، ثم أصدر فى عام ١٣١ مرسوماً بتحريم الختان وتعليم الشريعة اليهودية علنا[٦٧] . وكانت آخر وقفة وقفها اليهود فى التاريخ القديم لاستعادة حريتهم فى عام ١٣٢ بزعامة شمعون باركوشيبا الذى ادعى أنه هو المسيح . وبارك أكيبا هذه الثورة رغم أنه كان طول حياته يدعو إلى السلم ، وذلك حين اعترف باركوشيبا أنه هو المنقذ .

وظل الثوار ثلاث سنين مستبسلين في قتال الفيالق الرومانية حتى هزموا آخر الأمر بعد أن نفد طعامهم وعتادهم . ودمر الرومان ٩٨٥ مدينة في فلسطين وذبحوا ٥٨٠٫٠٠٠ يهودي ويقال إن الذين ماتوا من الجوع والمرض والحريق كانوا أكثر من هذا العدد . وخربت بلاد اليهود كلها تقريباً ، وخرّ باركوشيبا نفسه صريعاً أثناء دفاعه عن بيثار . وكان الذين بيعوا من اليهود في أسواق الرقيق من الكثرة بحيث انخفض ثمن الواحد منهم حتى ساوى ثمن الحصان . واختبأ آلاف منهم في سراديب تحت الأرض مفضلين ذلك على الأسر ؛ ولما أحاط بهم الرومان هلكوا من الجوع واحداً بعد واحد ، وكان الأحياء منهم يأكلون جثث الموتى[٦٨] .

وأراد هدريان أن يقضي على ما في اليهودية من رجولة وقدرة على الانتعاش ، فلم يكتف بتحريم الختان بل حرم معه الإسبات والاحتفال بأي عيد من أعياد اليهود أو إقامة أي طقس من الطقوس اليهودية علناً[٦٩] . وفرضت ضريبة شخصية جديدة أكبر من الضريبة السابقة على جميع اليهود ، وحرم عليهم دخول بيت المقدس إلا في يوم واحد محدد في العام يسمح لهم فيه بالمجيء إلى دمشق ليبكوا أمام خرائب الهيكل . وقامت في مواضع أورشليم مدينة إيليا كپتولينا الوثنية ، وشيد فيها ضريحان لجوپتر وڤينوس ، وساحات للرياضة وملاهٍ وحمامات ، وحل مجلس يمنيا وحرم على أعضائه الاجتماع ، وأجيز لمجلس عاجز أصغر منه أن يجتمع في لدا Lydda . أما تعليم الشريعة جهرة فقد منع منعاً باتاً ، وأنذر كل من خالف ذلك بالإعدام ، وأعدم بالفعل عدد من الأحبار الذين خالفوا . وأصرّ أكيبا ، وكان وقتئذ في الخامسة والتسعين من عمره ، على أن يعلم تلاميذه ، فزج في السجن ثلاث سنين ، ولكنه لم ينقطع عن التعليم في سجنه ، فحوكم ، وأدين ، وأعدم وهـو ينطق بالعقيدة اليهودية الأساسية : « اسمعي يا إسرائيل ، الرب إلهنا ، والرب واحد »[٧٠] .

وظل اليهود قروناً عدة يعانون آثار النكبة التي حلت بهم بعد ثورة

پاركوشيبا ، وإن كان أنطونينس پيوس قد خفف من صرامة مراسيم هدريان ، ودخلوا من هذه اللحظة فى دور الكهولة ، وتخلوا عن كل العلوم الدنيوية ما عدا الطب ، ونبذوا الهلنستية على اختلاف صورها ، ولم يتلقوا السلوى أو الوحدة إلا من أحبارهم ، وشعرائهم الصوفيين وشريعتهم . ولسنا نعرف شعباً آخر قد طال نفيه كما طال نفى اليهود ، أو عانى من الأهوال مثل ما عانوا . لقد حرم عليهم أن يدخلوا المدينة المقدسة ، وأرغموا على تسليمها للوثنية ثم للمسيحية ، وشرّدوا فى كل ولاية من ولايات الدولة الرومانية وإلى ما وراء حدود تلك الدولة ، وضُربت عليهم الذلة والمسكنة ، ولم يجدوا لهم صديقاً حتى بين الفلاسفة والقديسين ، فابتعدوا عن المناصب العامة وعكفوا فى عزلتهم على الدرس والعبادة ، واستمسكوا أشد الاستمساك بأقوال علمائهم ، وأخذوا يتأهبون لكتابتها آخر الأمر فى تلمود بابل وفلسطين . وهكذا اختبأت اليهودية فى ظلمات الخوف والفزع ، بينما كانت وليدتها المسيحية تخرج لفتح العالم وسيادته .

الكتاب الخامس

شباب المسيحية

من ٤ ق . م إلى ٣٢٥ م

ثبت مسلسل

كل التواريخ ما عدا أولها بعد الميلاد ، وكل ما كان منها قبل عام ١٥٠ مشكوك فيه

---

٤ ق . م : مولد المسيح .
٦٠ م : صلبه ، هداية بولس .
٤٥ – ٤٧ : بعثة بولس الأولى .
٥٠ – ٥٣ : بعثة بولس الثانية .
٥١ : بولس فى أثينة .
٥٣ – ٥٧ : بعثة بولس الثالثة .
٥٨ – ٦٠ : فلكس يسجن بولس .
٦٤ : اضطهاد نيرون للمسيحيين .
موت بطرس وبولس .
٦٥ : ليتس أسقف رومة .
٧٧ : كليتس أسقف رومة .
٦٠ – ١٠٠ : الأناجيل الأربعة .
٨٩ : كلمنت الأول أسقف رومة .
٩٠ : رسائل يوحنا .
٩٨ : إواستس أسقف رومة .
١٠٦ : ألكسندر الأول أسقف رومة .
١١٦ : أكسيتس الأول أسقف رومة .
١٢٦ : تلسفورس أسقف رومة .
١٣٧ : هيچينس أسقف رومة .
١٤١ : بيوس الأول أسقف رومة .
١٥٠ : معذرة چستين الأولى .
١٥٦ : أنتسيتس أسقف رومة .
١٦٦ : استشهاد ديوليكارب .
١٧٥ : إليوثيريوس أسقف رومة .
١٧٧ : استشهاد ليون .
١٧٨ : أرينايس أسقف ليون .
١٩٠ : ڤكتور الأول أسقف رومة .

ق . م

١٩٣ : پرتناكس وددیوس چلیانس ، إمبراطوران .
١٩٣ — ٢١١ : سپتميوس سڤيرس ، إمبراطور .
١٩٤ : منتانس ؛ كلمنت الإسكندرى .
٢٠٠ : ليبر أپولوچتكس لترتليان .
٢٠٢ : زفرينس أسقف رومة .
٢٠٣ : توس سپتميوس سڤيرس ؛ أورجن .
٢٠٥ — ٢٧٠ : بلوتينس .
٢١١ — ٢١٧ : كركلا .
٢١٢ : كركلا يوسع نطاق المواطنية .
٢١٥ : حمامات كركلا ، مانى .
٢١٨ : كلستس الأول ، أسقف رومة .
٢١٨ — ٢٢٢ : إلاجابالس ، إمبراطور .
٢٢٢ : إريان الأول : أسقف رومة .
٢٢٢ — ٢٣٥ : الكسندر سڤيرس ، إمبراطور .
٢٢٨ : اغتيال ألپيان .
٢٣٥ — ٢٥٨ : مكسمينس ، إمبراطور .
٢٣٦ : فابيان ، أسقف رومة .
٢٣٨ — ٢٤٤ : جورديانس الأول ، والثانى والثالث ، أباطرة .
٢٤٠ — ٢٧٢ : شابور الأول ، ملك الفرس .
٢٤٤ — ٢٤٩ : فليب العربى ، إمبراطور .
٢٤٨ : سبريان ، أسقف قرطاجنة ، ضد سلسم لأورجن .
٢٤٩ — ٢٥١ : ديسيوس ، إمبراطور ؛ ديوفانتس العالم الرياضى .
٢٥١ : كورنليوس ، أسقف رومة .
٢٥١ — ٢٥٣ : جالس ، إمبراطور .
٢٥٣ — ٢٦٠ : ڤلريانس ، إمبراطور .
٢٥٣ — ٢٦٨ : جليينس ، إمبراطور .
٢٥٤ : المركانيون يغيرون على شمالى إيطاليا .
٢٥٥ : شابور يغزو سوريا .
٢٥٧ : مرسوم ڤلريان ضد المسيحية .
٢٥٩ : القوط يجتاحون آسية الصغرى .
٢٦٠ : مرسوم التسامح الأول
٢٦٠ — ٢٦٦ : أدناثس فى تدمر .
٢٦٦ — ٢٧٣ : زنوبيا ولنچينس فى تدمر .
٢٦٨ — ٢٧٠ : كلوديوس الثانى ، إمبراطور .

ق . م

٢٧٠ — ٢٧٥ : أورليان ، إمبراطور .

٢٧١ : البرابرة يغيرون على إيطاليا .

٢٧٥ — ٢٧٦ : تاكتس ، إمبراطور .

٢٧٦ — ٢٨٢ : پروبس ، إمبراطور .

٢٨٢ — ٢٨٣ : كاوس ، كرمنيس ، نمريانس ، أباطرة .

٢٨٤ — ٣٠٥ : دقلديانوس ، إمبراطور .

٢٨٦ — ٣٠٥ : مكسميانس مع أغسطس .

٢٩٢ : جلريوس ، وقنسطنطيوس ، قيصران .

٢٩٥ : حمامات ، دقلديانوس .

٢٩٦ : مرسينس ، أسقف رومة .

٣٠١ : ثمن مرسوم دقلديانوس .

٣٠٣ — ٣١١ : اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين .

٣٠٦ : قسطنطين يصبح قيصراً .

٣٠٧ : مكنثيوس ومسكيان كلاهما أغسطس ؛ باسلقا مكستيوس .

٣٠٧ — ٣٠٩ : مارسلس الأول ، أسقف رومة .

٣٠٧ — ٣١٠ : يوسبيوس ، أسقف رومة .

٣١٢ : واقعة جسر ملڤى ، مرسوم ميلان .

٣١٥ : تاريخ الكنيسة ليوسبيوس .

٣١٣ — ٣٢٣ : قسطنطين وليسينوس يقتسمان الإمبراطورية .

٣١٤ : مجلس أرليس .

٣١٤ — ٣٣٦ : سلفستر الأول ، أسقف رومة .

٣١٥ : قوس قسطنطين .

٣٢٣ : هزيمة لوسنيوس عند أدرنه .

٣٢٤ — ٣٣٧ : قسطنطين إمبراطور وحده .

٣٢٥ : مجلس نيقية .

٣٢٦ : قسطنطين يقتل ابنه وابن أخيه وزوجته .

٣٣٠ : القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية .

٣٣٧ : موت قسطنطين .

الباب السادس والعشرون

عيسى أو يسوع

٤ ق . م – ٣٠ م

الفصل الأول

المراجع

هل وجد المسيح حقاً ؟ أو أن قصة حياة مؤسس المسيحية وثمرة أحزان البشرية ، وخيالها ، وآمالها – أسطورة من الأساطير شبيهة بخرافات كرشنا ، وأوزريس ، وأتيس ، وأدنيس ، وديونيشس ، ومثراس ؟ لقد كان بولنجبرك والملتفون حوله ، وهم جماعة ارتاع لأفكارهم ڤلتير نفسه ، يقولون فى مجالسهم الخاصة إن المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق ، وجهر ڤلنى Volney بهذا الشك نفسه فى كتابه **خرائب الإمبراطورية الذى نشره** فى عام ١٧٩١ ؛ ولما التقى نابليون فى عام ١٨٠٨ بڤيلاند Wieland العالم الألمانى لم يسأله القائد الفاتح سؤالا تافها فى السياسة أو الحرب ، بل سأله هل يؤمن بتاريخية المسيح ؟

ولقد كان من أعظم ميادين نشاط العقل الإنسانى فى العصر الحديث وأبعدها أثراً ميدان « النقد الأعلى » للكتاب المقدس – التهجم الشديد على صحته وصدق روايته ، تقابله جهود قوية لإثبات صحة الأسس التاريخية للدين المسيحى ؛ وربما أدت هذه البحوث على مر الأيام إلى ثورة فى التفكير لا تقل شأناً عن الثورة

التى أحدثتها المسيحية نفسها . وقد دارت رحى أولى المعارك فى هذه الحرب التى دامت مائتى عام كاملة فى صمت وسكون ، وكان الذى أدارها هو هرمان ريمارس Hermann Reimarus أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة همبرج ، فقد ترك بعد وفاته فى عام ١٧٦٨ مخطوطاً عن حياة المسيح يشتمل على ١٤٠٠ صفحة حرص على ألا ينشره فى أثناء حياته . وبعد ست سنين من ذلك الوقت نشر جتهولد لسنج Gotthold Lessing أجزاء من هذا المخطوط ، رغم معارضة أصدقائه فى هذا النشر ، وسماه **قصاصات ولفنبتل** Wolfenbuttel Fragments . ويقول ريمارس إن يسوع لا يمكن أن يعد مؤسس المسيحية أو أن يفهم هذا الفهم ، بل يجب أن يفهم على أنه الشخصية النهائية الرئيسية فى جماعة المتصوفة اليهود القائلين بالبعث والحساب ، ومعنى هذا أن المسيح لم يفكر فى إيجاد دين جديد ، بل كان يفكر فى تهيئة الناس لاستقبال دمار العالم المرتقب ، وليوم الحشر الذى يحاسب فيه الله الأرواح على ما قدمت من خير أو شر . وفى عام ١٧٩٦ أشار هردر إلى ما بين مسيح متى ، ومرقس ، ولوقا ومسيح إنجيل يوحنا من فوارق لا يمكن التوفيق بينها ، وفى عام ١٨٢٨ لخص هنريخ پولس Heinrich Paulus حياة المسيح فى ١١٩٢ صفحة ، وعرض تفسيراً عقلياً للمعجزات : أى أنه آمن بوقوعها ، ولكنه عزاها إلى علل وقوى طبيعية . ثم جاء داڤد استروس David Strauss (١٨٣٥ — ١٨٣٦) فى كتابه عن **حياة المسيح** — وهو كتاب عظيم الأثر فى التاريخ — فرفض ما حاوله پولس من توفيق بين المعجزات والعلل الطبيعية ، وقال إن ما فى الأناجيل من خوارق الطبيعة يجب أن يعد من الأساطير الخرافية ، وإن حياة المسيح الحقيقية يجب أن تعاد كتابتها بعد أن تحذف منها هذه العناصر أيا كانت صورها . وقد أثارت مجلدات استروس الضخمة عاصفة قوية فى التفكير الألمانى دامت جيلا من الزمان . وفى نفس العام الذى ظهر فيه كتاب استروس

هاجم فردناند كرستيان بور Ferdinand Christian Bour رسائل پولس وقال إنها كلها مدسوسة عليه عدا رسائله إلى أهل غلاطية ، وكورنثوس ، (كورنثة) ورومية (رومة) . وفى عام ١٨٤٠ بدأ برونو بور Bruno Bauer سلسلة من الكتب الجدلية الحماسية يبغى بها أن يثبت أن يسوع لايعدو أن يكون أسطورة من الأساطير ، أو تجسيداً لطقس من الطقوس نشأ فى القرن الثانى من مزيج من الأديان اليهودية ، واليونانية ، والرومانية . وفى عام ١٨٦٣ أخرج إيرنست رينان Ernest Renan **حياة يسوع** الذى روع ملايين الناس باعتماده فيه على العقل وسحر لب الملايين بنثره الجزل . وقد جمع رينان فى هذا الكتاب نتائج النقد الألمانى ، وعرض مشكلة الأناجيل على العالم المثقف كله . وبلغت المدرسة الفلسفية صاحبة البحوث الدينية ذروتها فى أواخر القرن التاسع عشر على يد الأب لوازى Loisy الذى حلل نصوص العهد الجديد تحليلا بلغ من الصرامة حداً اضطرت معه الكنيسة الكاثوليكية إلى إصدار قرار بحرمانه هو وغيره من « المحدثين » . وفى هذه الأثناء وصلت المدرسة الهولندية مدرسة پيرسن Pierson ونابر Naber ، ومتثاس Matthas بالحركة إلى أبعد حدودها إذ أنكرت بعد بحوث مضنية حقيقة المسيح التاريخية . وفى ألمانيا عرض آرثر دروز Arthur Drews هذه النتيجة السالبة عرضاً واضحاً محدداً (١٩٠٦) ؛ وفى إنجلترا أدلى و . ب . أسمث W.B. Smith و ج . م . ربرتسن J. M. Robertson . بحجج من هذا النوع أنكرا فيها وجود المسيح . وهكذا بدا أن الجدل الذى دام مائتى عام سينتهى إلى إفناء شخصية المسيح إفناء تاماً .

وبعد فما هى الأدلة التى تثبت وجود المسيح ؟ إن أقدم إشارة غير مسيحية إليه هى التى وردت فى كتاب *قدم اليهود* ليوسفوس (٩٣ ؟ م) :

« وفى ذلك الوقت كان يعيش يسوع ، وهو رجل من رجال الدين ، إذا

جاز أن نسميه رجلا ، لأنه كان يأتى بأعمال عجيبة ، ويعلم الناس ، ويتلقى الحقيقة وهو مغتبط . وقد اتبعه كثيرون من اليهود وكثيرون من اليونان . لقد كان هو المسيح » ؟

قد تنطوى هذه السطور العجيبة على أصل صادق صحيح ؛ ولكن هذا الثناء العظيم الذى يثنى به على المسيح يهودى يريد به الزلفى للرومان أو اليهود — وكان كلاهما يناصبان المسيحية العداء فى ذلك الوقت — ، نقول إن هذا الثناء لما يبعث الريبة فى هذه الفقرة ، ولذلك يرفضها علماء المسيحية ، ولا يكادون يشكون فى أنها مدسوسة على يوسفوس[٣] . وفى التامود إشارات إلى يسوع الناصرى ، ولكنها من عهد متأخر جداً يجعلها مجرد ترديد لأصداء الأفكار المسيحية[٤] . وأقدم ما لدينا من إشارات إلى المسيح فى أدب الوثنيين ما ورد فى خطاب كتبه پلنى الأصغر (حوالى ١١٠)[٥] ، يستشير فيـــه تراجان عمّا يعامل به المسيحين[*] وبعد خمس سنين من ذلك الوقت وصف تاستس[٦] اضطهاد نيرون للكرستيانى Christiani فى رومة ويقول إنهم فى ذلك الوقت كان لهم أتباع فى جميع أنحاء أوربا . وهذه الفقرة شبيهة بكتابات تاستس فى أسلوبه ، وقوته ، وتحيزه شبهاً لم يرتب معه أحد من الباحثين إلا درور وحده فى صدورها من هـــذا الكاتب[٧] . ويذكر سوتونيوس(حوالى ١٢٥)خبر هذا الاضهاد نفسه[٨] ، كما يذكر نفى كلوديوس (حوالى ٥٢) « اليهودالذين أثاروا اضطرابات عامة بتحريض المسيح impulsore Chresto) »[٩] . وتتفق هذه الفقرة أشد الاتفاق مع ما ورد فى أصحاح أعمال الرسل من أن كلوديوس أصدر مرسوما أوجب فيه على « اليهود أن يخرجوا من رومة »[١٠] . وهـــذه الإشارات كلها تثبت وجود المسيحين لا المسيح نفسه ؛ ولكننا إذا لم نسلم بوجود المسيح فلا مناص لنا من أن نأخذ بالفرض

(*) نقلنا هذه الفقرة بعد ؟ ونجد نص الخطاب فى الجزء الاول من كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

الضعيف جداً وهو أن شخصية يسوع قد اخترعت اختراعا فى جيل واحد ؛ ولا بد لنا من أنْ نفترض فوق ذلك أن الجالية المسيحية وجدت روما قبل عام ٥٢ ببضع سنين ، وإلا لما كانت خليقة أن يصدر بشأنها مرسوم إمبراطورى . ويقول ثالس Thallus وهو كاتب وثنى عاش فى منتصف ذلك القرن الأول فى هتامه من كتاب احتفظ لنا به يوليوس أفركانس(١١) إن الظلمة العجيبة التى يقال إنها حدثت وقت موت المسيح ، كانت ظاهرة طبيعية محضة ، ولم تكن أكثر من مصادفة عادية . أما وجود المسيح فهو عند هذا الكاتب قضية مسلم بها مفروغ من صحتها .

وقصارى القول أن نكران ذلك الوجود لم يخطر على ما يظهر لأشد المخالفين لليهودية أو لليهود المعارضين للمسيحية الناشئة فى ذلك الوقت .

أما الأدلة المسيحية على وجود المسيح فتبدأ بالرسائل المعزوة إلى القديس بولس . وبعض هذه الرسائل لا يعرف كاتبها معرفة أكيدة ، ومنها عدة رسائل — تؤرخ بعام ٦٤ م ولكنها كتبت فى الحقيقة بعد ذلك التاريخ — لا يكاد يختلف الباحثون فى أنها فى جوهرها من كتابات بولس . ولم يشك أحد قط فى وجود بولس نفسه أو فى لقائه الكثير لبطرس ، ويعقوب ، ويوحنا ؛ ويعترف بولس بأن هؤلاء الرجال قد عرفوا المسيح فى أثناء حياته ويحسدهم على هذه المعرفة(١٢) . وكثيراً ما تشير الرسائل المعترف بنسبتها إليه إلى العشاء الأخير(١٣) وإلى حادث الصلب(١٤) .

هذا ما كان من أمر المسيح نفسه ، أما الاناجيل فليس أمرها بهذه السهولة . ذلك أن الأربعة الأناجيل التى وصلت إلينا هى البقية الباقية من عدد أكبر منها كثيراً ، كانت فى وقت ما منتشرة بين المسيحيين فى القرنين الأول والثانى . واللفظ الدال على الإنجيل "gospel" (وهو فى اللغة الإنجليزية القديمة godspel أى أخبارٌ طيبة) ترجمة للفظ اليونانى euangelion والذى يبدأ به إنجيل مرقس

ومعناه « أخبار سارة » — هى أن المسيح قد جاء ، وأن ملكوت الله قريبة المنال ، وأناجيل متى ، ومرقس ، ولوقا ، يمكن الإحاطة بها بنظرة واحدة : ذلك بأن محتوياتها وحوادثها يمكن ترتيبها فى أعمدة متوازية « والنظر إليها كلها مجتمعة » ؛ وقد كتبت كلها باللغة اليونانية الدارجة ، ولم تكن نماذج طيبة فى النحو أو فى الصقل الأدبى . بيد أن ما فى أسلوبها السهل من قوة وإيصال المعانى عن أقرب طريق ، وما فى تشبيهاتها والصور التى ترسمها من وضوح ، وما فى الإحساسات التى تصورها من عمق ، وما فى القصص التى ترويها من روعة ، كل هذا يكسبها حتى فى صورتها الأصلية الفجة جمالا فذاً ، زاده قوة عند العالم الإنجليزى الترجمة العظيمة البعيدة كل البعد عن الدقة ، والتى وضعت للملك چيمس .

وترجع أقدم النسخ التى لدينا من الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث . أما النسخ الأصلية فيبدو أنها كتبت بين عامى ٦٠ ، ١٢٠ م ، ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان لأخطاء فى النقل ، ولعلها تعرضت أيضاً لتحريف مقصود يراد به التوفيق بينها وبين الطائفة التى ينتمى إليها الناسخ أو أغراضها . والكتّاب الذين عاشوا قبل نهاية القرن الأول الميلادى لا ينقلون قط شيئا عن العهد الجديد ، بل كل ما ينقلوله مأخوذ من العهد القديم ، ولسنا نجد إشارة لإنجيل مسيحى قبل عام ١٥٠ إلا فى كتابات پپياس Papias الذى كتب فى عام ١٣٥ إذ يقول إن « يوحنا الأكبر » وهو شخصية لم يستطع الاستدلال على صاحبها — قال إن مرقس ألف إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس[١٥] .

ويضيف پپياس إلى هذا قوله : « وأعاد متى كتابة الكلمات بالعبرية » — ويبدو أن هذا الإنجيل مجموعة آرامية من أقوال المسيح . والراجح أن بولس كانت لديه وثيقة من هذا النوع ، وذلك لأنه ينقل أحياناً كلمات يسوع

بنصها(*) وإن كان لا يذكر الأناجيل قط . ويتفق الناقدون الثقاة بوجه عام على أسبقية إنجيل مرقس فى الزمن على سائر الأناجيل ، وفى تحديد تاريخه بين عامى ٦٥ و ٧٠ م . وإذ كان هذا الإنجيل يكرر المسألة الواحدة أحياناً فى عدة صور[١٦] فإن الكثيرين من الباحثين يعتقدون أنه يعتمد على الكلمات السالفة الذكر وعلى قصة أخرى قديمة العهد قد تكون هى الصورة الأولى لإنجيل مرقس نفسه . ويبدو أن إنجيل مرقس كان منتشراً أثناء حياة بعض الرسل أو حياة الرعيل الأول من أتباعهم ومريديهم . ولهذا فإنه يبدو من غير المحتمل أنه كان يختلف اختلافاً جوهريا عما كان لديهم من أقوال وعن تفسير المسيح لهذه الأقوال[١٧] . ومن حقنا إذن أن نحكم كما حكم شوتزر Schwetyer ذلك العالم النابه الحكيم بأن إنجيل مرقس فى جوهره « تاريخ صحيح »[١٨] .

وتقول الرواية المأخوذ بها إن إنجيل متى أقدم الأناجيل كلها ، ويعتقد إيرنيوس Irenaeus أنه كتب فى الأصل باللغة « العبرية » — أى الآرامية ، ولكنه لم يصل إلينا إلا باللغة اليونانية . وإذ كان يبدو لنا إنه فى هذه الصورة الأخيرة يردد أقوال إنجيل مرقس ، وأنه ينقل فى أكبر الظن من أقوال يسوع نفسها ، فإن النقاد يميلون إلى القول بأنه من تأليف أحد أتباع متى ، وليس من أقوال « العشار » نفسه . وحتى أكثر العلماء يرجعون به إلى تلك الفترة البعيدة المحصورة بين عامى ٧٥ — ٩٠ م[٢٠] . وإذ كان الغرض الذى يبتغيه متى هو هداية اليهود فإنه يعتمد أكثر من غيره من المبشرين على المعجزات التى تعزى إلى المسيح ، ويحرص حرصاً يدعو إلى الريبة على أن يثبت أن كثيراً من نبوءات

(*) كشف جرنفل Grenfell وهنت Hunt فى خرائب إحدى المدن القديمة فى مصر فى عامى ١٨٩٧ ، ١٩٠٣ من عشرين قطعة من « الكلمات » تتفق إلى حد ما مع فقرات مماثلة لها فى الأناجيل . ولا ترجع هذه البرديات إلى ما قبل القرن الثالث ولكنها قد تكون نسخاً من مخطوطات أقدم منها .

العهد القديم قد تحققت على يدى المسيح . بيد أنه رغم هذا أشد الأناجيل الأربعة تأثيراً فى النفس وإثارة للعاطفة . ولا يسعنا إلا أن نعده بين روائع الآداب العالمية ، وإن لم يدرك ذلك كاتبه القديم .

والإنجيل حسب نص القديس لوقا ، وهو النص الذى يعزى عادة إلى العقد الأخير من القرن الأول ، يعلن أنه يرغب فى تنسيق الروايات السابقة عن المسيح ، والتوفيق بينها ، وأنه يهدف إلى هداية الكفرة لا اليهود ؛ وأكبر الظن أن لوقا نفسه كان من غير اليهود ، وأنه كان صديق بولس ، ومؤلف سفر أعمال الرسل(٢١) . وهو يقتبس كثيراً من كتابات مرقس كما يقتبس منها متى(٢٢) . فإنك لتجد فى إنجيل متى ستمائة آية من الستمائة والإحدى والستين التى يشتمل عليها النص المعتمد لإنجيل مرقص ، وتجد منها ثلثمائة وخمسين فى إنجيل لوقا تكاد أن تكون هى بنصها(٢٣) . وفى إنجيل متى كثير من الفقرات التى توجد فى لوقا ولا توجد فى إنجيل مرقس ، وهنا أيضاً تكاد تكون هى بنصها ، ويبدو أن لوقا أخذ هذه عن متى ، أو أن لوقا ومتى أخذاها عن أصل مشترك ، لم نعثر عليه بعد . ويصقل لوقا هذه المقتبسات الصريحة بمهارة أدبية تحمل لينان على الظن بأن هذا الإنجيل أجمل ما ألف من الكتب .

ولا يدعى الإنجيل الرابع أنه ترجمة ليسوع ، بل هو عرض للمسيح من وجهة النظر اللاهوتية بوصفه كلمة الله ، وخالق العالم ، ومنقذ البشرية . وهو يناقض الأناجيل الأخرى فى كثير من التفاصيل وفى الصورة العامة التى يرسمها للمسيح(٢٥) . وإن ما يصطبغ به الكتاب من نزعة قريبة من نزعة القائلين بأن الخلاص لا يكون بالإيمان بل بالمعرفة ، وما فيه من تأكيد للآراء الميتافيزيقية ، قد جعلا الكثيرين من الباحثين فى الدين المسيحى يشكون فى صدق القول بأن واضعه هو الرسول يوحنا(٢٦) . بيد أن التجارب توحى إلينا بألا نعجل فى تكذيب الروايات القديمة ؛ ذلك بأن أسلافنا لم

يكونوا كلهم بلهاء . وينزع الدراسات الحديثة إلى تحديد تاريخ الإنجيل الرابع بأواخر القرن الأول . والراجح أن الروايات المأثورة كانت صادقة إذ تعزو إلى المؤلف نفسه « رسائل يوحنا » ، ذلك بأنها تعرض الأفكار نفسها بالأسلوب نفسه .

وملاك القول أن ثمة تناقضاً كثيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر ، وأن فيها نقطاً تاريخية مشكوكا فى صحتها ، وكثيراً من القصص الباعثة على الريبة والشبهة بما يروى عن آلهة الوثنيين ، وكثيراً من الحوادث التى يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة فى العهد القديم ، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها تقدير أساس تاريخى لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة أو طقس متأخر من طقوسها . لقد كان المبشرون بالإنجيل يرون كما يرى شيشرون وسالست ، وتاستس أن التاريخ وسيلة لنشر المبادئ الخلقية السامية ، ويبدو أن ما تنقله الأناجيل من أحاديث وخطب قد تعرضت لما تتعرض له ذاكرة الأمين من ضعف وعيوب ، ولما يرتكبه النساخ من أخطاء أو « تصحيح » .

فإذا سلمنا بهذا كله بقى الشىء الكثير . إن ما فى الأناجيل من تناقض لا يتعدى التفاصيل الجزئية إلى الحقائق العامة ، وإن الأناجيل الثلاثة الأولى لتتفق اتفاقاً عجيباً ، وتعرض فى مجموعها صورة متسقة للمسيح . ولقد دفعت حماسة الكشف كبار الناقدين إلى أن يقيسوا صحة أقوال العهد الجديد بمقاييس لو طبقت على مئات من العظماء الأقدمين أمثال حورابى ، وداود ، وسقراط — لزالوا كلهم من عالم الحقائق وهووا إلى عالم الخرافات(*) . وإن المبشرين بالإنجيل ، رغم ما يتصفون به من تحيز وميل مع الهوى ومن الأخذ بأفكار دينية سابقة ، ليسجلون كثيراً من الحادثات التى يعمد المخترعون الملفقون إلى إخفائها — كتنافس الرسل على المنازل العليا فى ملــكوت الله ، وفرارهم بعد القبض على

(*) يقول أحد كبار العلماء اليهود قالة لعلها أقوى مما ينبغى : « لو كانت لنا فى تاريخ الإسكندر أو قيصر مصادر كالتى نجدها فى الأناجيل لما خالجنا أقل الشك فى أمرها » — ج . كلوزنر J. Klausner فى كتابه « من يسوع إلى بولس » ص ٢٦٠ .

يسوع ، وإنكار بطرس ، وعجز المسيح عن إتيان المعجزات فى الجليل ، وإشارة بعض من سمعوه إلى ما عسى أن يكون مصاباً به من الجنون ، وتشككه الأول فى رسالته ، واعترافه بأنه يجهل أمر المستقبل ، وما كان يمر به من لحظات يمتلئ قلبه فيها حقداً على أعدائه ، وصيحة اليأس التى رفع بها عقيرته وهو على الصليب ؛ إن من يطلع على هذه المناظر لا يشك قط فى أن وراءها شخصية تاريخية حقة . ولو أن عدداً قليلا من الرجال السذج قد اخترعوا فى مدى جيل واحد هذه الشخصية الجذابة ، وهذه المبادئ الأخلاقية السامية ، وهذه النظرية الأخوية الملهمة ، لكان عملهم هذا معجزة أبعد عن المعقول من أية معجزة تسجلها الأناجيل . وإن الخطوط الرئيسية فى سيرة المسيح ، وأخلاقه ، وتعاليمه لتبقى بعد قرنين من النقد الشديد واضحة معقولة ؛ لتكون أروع ظاهرة فى تاريخ الغربيين وأعظمها فتنة للألباب .

الفصل الثانى

نشأة عيسى

يحدد متى ولوقا ميلاد المسيح فى « الأيام التى كان فيها هيرودس ملكا على بلاد اليهود »[٢٧] — أى قبل العام الثالث ق . م . على أن لوقا يقول عن يسوع إنه كان « حوالى الثلاثين من العمر » حين عمده يوحنا فى السنة الخامسة عشرة من حكم تيبريوس »[٢٧أ] ، أى فى عام ٢٨ — ٢٩ م » وهذا يجعل ميلاد المسيح فى عام ٢ — ١ ق . م . ويضيف لوقا إلى هذا قوله : « وفى تلك الأيام صدر مرسوم من قيصر أغسطس يقضى بأن تفرض ضريبة على العالم كله . . . حين كان كويرنيوس Quirinius والياً على سوريا » . والمعروف أن كويرنيوس كان حاكماً لسوريا بين عامى ٦ —١٢م ؛ ويذكر يوسفوس أنه أجرى إحصاء فى بلاد اليهود ، ولكنه يقول إن هذا الإحصاء كان فى عام ٦—٧ م[٢٨] ، ولسنا نجد ذكراً لهذا الإحصاء إلا هذه الإشارة . ويذكر ترتليان[٢٩] إحصاء ابلاد اليهود قام به ستر نينس حاكم سوريا فى عام ٨ — ٧ ق . م ، فإذا كان هذا هو الإحصاء الذى يشير إليه لوقا فإن ميلاد المسيح يجب أن يؤرخ قبل عام ٦ ق . م . ولسنا نعرف اليوم الذى ولد فيه بالتحديد ، وينقل لنا كلمنت الإسكندرى (حوالى عام ١٠٠ م) آراء مختلفة فى هذا الموضوع كانت منتشرة فى أيامه ، فيقول إن بعض المؤرخين يحدده باليوم التاسع عشر من إبريل وبعضهم بالعاشر من مايو ، وإنه هو يحدده بالسابع عشر من نوفمبر من العام الثالث قبل الميلاد — وكان المسيحيون الشرقيون يحتفلون بمولد المسيح فى اليوم السادس من شهر يناير منذ القرن الثانى بعد الميــلاد . وفى عام ٣٥٤ احتفلت بعض الكنائس الغربية ومنها كنيسة رومة بذكرى مولد المسيح فى اليوم الخامس والعشرين من

نوفمبر ، وكان هذا التاريخ قد عد خطأ يوم الانقلاب الشتائى الذى تبدأ الأيام بعده تطول ؛ وكان قبل هذا يحتفل فيه بعيد مثراس ، أى مولد الشمس التى لا تقهر . واستمسكت الكنائس الشرقية وقتاً باليوم السادس من ينـــاير ، واتهمت أخواتها الغربية بالوثنية وبعبادة الشمس ، ولكن لم يكد يختتم القرن الرابع حتى اتخذ اليوم الخامس والعشرون من ديسمبر عيداً للميلاد في الشرق أيضاً[٣٠](*) :

ويقول متى ولوقا إن مولد المسيح كان فى بيت لحم ، القائمة على بعد خمسة أميال جنوبى أورشليم ، ثم يقولان إن أسرته انتقلت منها إلى الناصرة فى الجليل ، أما مرقس فلا يذكر بيت لحم . ولا يذكر المسيح إلا باسم « يسوع الناصرى »(**) . وقد سمى بالاسم العادى المألوف « يسوع » Yeshu'a ومعناه معين يهوه ؛ وحرفه اليونان إلى Iesous ، والرومان إلى Iesus .

ويبدو أنه كان ينتسب إلى أسرة كبيرة ، وشاهد ذلك أن جيرانه أدهشتهم تعاليمه القوية فأخذوا يتساءلون قائلين : « ترى أنى له هذه الحكمة ، والقدرة على القيام بهذه العجائب ؟ أليس هو ابن النجار ؟ أليست أمه تسمى مارية Mary ، أليس أخوته هم يعقوب ، ويوسف ، وشمعون ويهوذا ؟ ألا تقوم أخواته هنا بيننا ؟ »[٣١] . ويحدثنا لوقا عن البشرى بأسلوب أدبى بليغ وينطق مريم — مارية — بتلك العبارات البليغة ، وهى من أروع القصائد التى يشتمل عليها العهد الجديد .

وتأتى شخصية مريم فى القصة بعد شخصية ولدها فى الروعة والتأثير : فهى تربيه وتتحمل فى تربيته مسرات الأمومة المؤلمة ، وتفخر بعلمه فى أيام شبابه ،

(*) الذى نعرفه أن الكنائس الشرقية لا تزال تحتفل بعيد الميلاد فى اليوم السادس من يناير . (المترجم) .

(**) يظن الناقدون أن متى ولوقا قد اختارا بيت لحم ليقووا بذلك الادعاء بأن يسوع هو المسيح ، وأنه من نسل داود — كما تتطلب ذلك النبوءة اليهودية . وذلك لأن أسرة داود كانت تقيم فى بيت لحم . ولكنا لا نجد ما يؤيد هذا الظن .

وتدهش فيما بعد من تعاليمه ومطالبه ، وترغب فى أن تبعده عن جموع أتباعه المثيرين ، وأن تعيده إلى بيته الهادئ الشافى (لقد بحثت أنا وأبوك عنك محزونين)(*) ، وشاهدته وهو يصلب ، وعجزت عن إنقاذه ، ثم تلقت جسده بين ذراعيها ؛ فإذا لم يكن هذا تاريخاً فهو الأدب السامى ، لأن صلات الآباء والأبناء تؤلف مسرحيات أعمق مما تؤلفه عاطفة الحب الجنسى . أما القصص التى أذاعها سلسس Celsus وغيره فيما بعد عن مريم وجندى رومانى فالنقاد مجمعون على أنها « افتراء سخيف »(٣٢) . وأقل من هذا سخفاً تلك القصص التى تذكر أكثر ما تذكر فى الأسفار المحذوفة عن مولد المسيح فى كهف أو اصطبل ، وعن سجود الرعاة والمجوس له وعبادتهم إياه ، وعن مذبحة الأبرياء ، والفرار إلى مصر ، وإن كان العقل الناضج لا يرى ضيراً فى هذا الشعر الشعبى . ولا يذكر بولس ويوحنا شيئاً عن مولده من عذراء ، وأما متى ولوقا اللذان يذكرانه فيرجعان نسب يسوع إلى داود عن طريق يوسف ، بسلاسل أنساب متعارضة ؛ ويلوح أن الاعتقاد فى مولد المسيح من عذراء قد نشأ فى عصر متأخر عن الاعتقاد بأنه من نسل داود .

ولا يذكر أصحاب الأناجيل إلا القليل الذى لا يغنى عن شباب المسيح . فهم يقولون إنه اختتن حين بلغ الثامنة من عمره . ولقد كان يوسف نجاراً ، وإن ما كان فى ذلك العصر من توارث المهن ليوحى بأن يسوع قد احترف هذه الحرفة اللطيفة وقتاً ما ، وكان يعرف من ينتمى إلى حرفته من الصناع ، كما كان يعرف الملاك ، ورؤساء الخدم ، والمستأجرين ، والأرقاء وكل ما كان يحيط به فى الريف ؛ ويتردد ذكر هؤلاء جميعاً فى أحاديثه . وكان يحس بما فى الريف من جمال طبيعى ، وما للزهر من لون جميل ، وما يحيط بالأشجار المثمرة من هدوء وسكون . وليست قصة أسئلته للتلاميذ فى الهيكل مما لا يقبله العقل . وكان

(*) نقلنا هذه الأقوال وما بعدها كما هى وإن خالفت بعض عقائد المسلمين والمسيحيين . (المترجم)

ذا عقل يقظ طلعة ، والشاب متى بلغ الثانية عشرة من عمره فى بلاد لشرق أوشك أن يبلغ سن النضوج . لكنه لم يتعلم تعليما منظما ، وشاهد ذلك أن جيرته كانوا يتساءلون : «كيف يستطيع هذا الرجل أن يقرأ وهو لم يذهب قط إلى المدرسة ؟ »(٣٣) . وكان يتردد على المجمع الدينى ، ويستمع إلى تلاوة الكتاب المقدس ، ويبدو عليه السرور حين يسمعه . وقد انطبعت فى ذاكرته الأقوال الواردة فى أسفار الأنبياء والمزامير بنوع خاص . وكان لها أثر كبير فى تشكيله . واعله قرأ أيضاً سفرى دانيال وأخنوخ ، لأنا نجد فى تعاليمه المتأخرة أثراً كبيراً من رؤى المسيح الموعود ، ويوم الحشر ، ومملكة السماء .

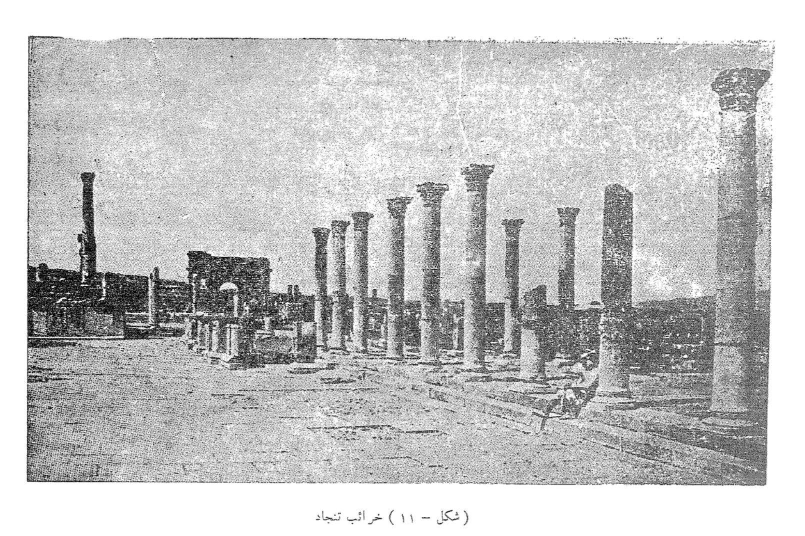
وكان الهواء الذى يتنفسه مشحوناً بالحماسة الدينية ، وكان آلاف من اليهود ينتظرون على أحر من الجمر مجىء منقذ إسرائيل . وكان السحر والشياطين ، والملائكة ، وحلول الشياطين فى أجسام الآدميين ، وإخراجها ، والمعجزات ، والنبوءات ، والاطلاع على الغيب ، والتنجيم ، كانت كل هذه عقائد مسلما بها فى كل مكان . ولعل قصة المجوسى كانت تسليما لا بد منه لعقائد المنجمين فى ذلك العصر(٣٤) ، وكان السحرة يطوفون بالمدن ؛ وما من شك فى أن عيسى قد عرف شيئاً عن الأسينيين وعن حياة الزهد الشبيهة كل الشبه بحياة البوذيين(*) ، وذلك فى خلال أسفار جميع الصالحين من يهود فلسطين إلى بيت المقدس فى أثناء عيد الفصح . ولعله قد سمع أيضاً عن شيعة تدعى « الناصرة **Mazaranes** » كان المنتمون إليها يعيشون فى پيريه فى الناحية الأخرى من نهر الأردن ، وكانوا برفضون التعبد فى الهيكل ، ويأبون التقيد بالناموس(٣٦) . ولكن اللتى

(*) وكان أشوكا قد بعث بمشيريه البوذيين حتى بلغوا مصر وقوريني غرباً(٢٣) ، وأكبر الظن إذن أنه بعثهم إلى بلاد الشرق الأدنى .

أثار حماسته الدينية هو عظات يوحنا ابن اليصابات قريبة مريم .

ويروى يوسفوس قصة يوحنا بشيء من التفصيل[٣٧] . فإذا قرأناها بدا لنا المعمدان شيخاً طاعناً فى السن ، أما الحقيقة فهى عكس هذا ، فهو فى الوقت الذى نتحدث عنه فى سن عيسى أو قريب منه ، ويصفه مرقس ومتى بأنه كان يرتدى ثوباً من الشعر ، ويعيش على الجراد الجاف وعسل النحل ، ويقف بجوار نهر الأردن ، ويدعو الناس إلى التوبة . وكان يماثل الإسينيين فى الزهد ، ولكنه يخالفهم فى اعتقاده أن التعميد يكفى أن يكون مرة واحدة ؛ وقد يكون اسمه « المعمدان » مرادفاً للفظ اليونانى « إسين » أى الاستحمام[٣٨] ، وقد أضاف يوحنا إلى عقيدة التطهير الرمزى تنديده الشديد بالنفاق ، وعدم التمسك بالأخلاق القويمة ، وطلبه إلى المذنبين أن يستعدوا إلى الدار الآخرة ، وإعلانه قرب حلول مملكة السماء[٣٩] ، وقوله إنه إذا تابت بلاد اليهود كلها وتطهرت من الخطيئة جاء المسيح وحلت مملكة السماء على الفور .

ويقول لوقا إنه فى « السنة الخامسة عشرة من حكم تيبريوس » أو بعدها بقليل جاء يسوع إلى نهر الأردن لِيُعَمَّدَ على يديه . وهذا القرار الذى اتخذه رجل « يقرب من سن الثلاثين »[٤٠] شاهد على أن المسيح قد آمن بتعاليم يوحنا ؛ وأن تعاليمه هو لن تفترق فى جوهرها عن تلك التعاليم . أما أساليبه ، وأخلاقه فكانت تختلف عن أمثالها عند يوحنا : فهو لم يعمد أحداً[٤١] ، ولم يعش فى البيداء ، بل عاش فى العالم . ولم ينقض على هذا اللقاء بين عيسى ويوحنا إلا قليل من الوقت حتى أمر هيرودس أنتپاس « صاحب المدن الأربع » فى الجليل بسجن يوحنا . وتقول الأناجيل إن سبب القبض على يوحنا هو انتقاد هيرودس لأنه طلق زوجته ، وتزوج هيروديا وهى لا تزال زوجة لفليپ أخيه غير الشقيق . أما يوسفوس فيقول إن سبب القبض عليه هو خوف هيرودس أن



(شكل – ١١) خرائب تنجاد

يكون يوحنا يستتر بستار الإصلاح الديني ليثير القلاقل السياسية فى البلاد(٤٢).
ويروى مرقس(٤٣) ومتى(٤٤) فى هـــذا المجال قصة سالوم ابنة هورودياس ، التى فتنت هيرودس برقصها أمامه حتى عرض عليها أن يقدم لها أية مكافأة تطلبها . ويقولان إنها طلبت إليه رأس يوحنا ، بتحريض من أمها ، وإن الحاكم أجابها وهو كاره إلى طلبها . وليس فى الأناجيل شىء عن حب سالوم ليوحنا ، وليس فى يوسفوس ما يشير إلى أنها كانت لها يد فى موته .

الفصل الثالث

الرسالة

ولما سجن يوحنا أخذ عيسى يقوم بعمل المعمدان ويخطب فى الناس مبشراً بملكوت الله(٤٥) ، ويقول لوقا إنه « عاد إلى الجليل » ، وإنه « كان يعلم فى مجامعهم »(٤٦) . وليست لدينا صورة مطبوعة فى أذهاننا عن ذلك الشاب المثالى ، وهو يقوم بدوره فى قراءة الكتاب المقدس على المجتمعين الناصرة ، ويختار لهم فقرة من سفر إشعيا : « روح الرب علىَّ لأن الرب مسحنى لأبشر المساكين ، أرسلنى لأعصب منكسرى القلب ، لأنادى للمسبيين بالعتق ، وللمأسورين بالإطلاق » « وللعمى بالبصر ، وأرسل المنسحقين فى الحرية »(*) ، ويضيف لوقا « وجميع الذين فى المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه ، فابتدأ يقول لهم إنه اليوم قد تم هـذا المكتوب فى مسامعكم » ؛ وكان الجميع يشهدون ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فيه »(٤٨) . ولما عرف أن يوحنا قد قتل وأن أتباعه كانوا يبحثون عن زعيم جديد تحمل يسوع العبء وما يستتبعه من خطر ، وارتد أولا فى حذر وحيطة إلى القرى الهادئة وصار يتجنب على الدوام الجـدل السياسى ، ثم أصبح فى كل يوم أعظم جرأة فى إعلانه إنجيل التوبة ، والإيمان ، والنجاة ، حتى ظن بعض أتباعه أنه هو يوحنا قام من بين الموتى(٤٩) .

وإنا ليصعب علينا أن ننظر إليه نظرة موضوعية مجردة : وليس سبب هذه الصعوبة مقصوراً على أن كل ما نعرفه عنه منقول عن الذين كانوا يعبدونه ، بل إن من أكبر أسبابها أن تراثنا الأخلاقى ومثلنا العليا وثيقا الصلة به ، تكونا

(*) هـذا الجزء من إنجيل لوقا ٤ : ١٨ وإن كان المؤلف يضيفه إلى الآيات السابقة المنقولة عن سفر إشعيا . (المترجم)

على منواله ، ولهذا فإنا نحس بما يصيبنا من أذى إذا وجدنا عيباً فى أخلاقه . لقد بلغ شعوره الدينى من القوة حداً جعله يندد أشد التنديد بمن لا يشاركونه فى آرائه ، ويعفو عن كل الأغلاط إلا عدم الإيمان : وإن الإنسان ليجد فى الأناجيل فقرات قاسية مريرة لا تواثم قط ما يقال لنا عن المسيح فى مواضع أخرى منها ؛ ويبدو أنه قبل دون بحث وتمحيص أقسى ما كان يؤمن به معاصروه عن جهنم السرمدية التى يعذب فيها من لا يتوبون من الكفار والمذنبين بالنار التى لا تنطفئ أبداً والديدان التى لا تشبع من نهش أجسامهم(٥٠) . وهو يقول دون أن يحتج عليه أحد إن رجلا فقيراً فى الجنة لم يسمح له بأن يترك نقطة واحدة من الماء تسقط على لسان رجل غنى فى الجحيم(٥١) . وينصحنا بنبل وشرف ألا نحكم حتى لا يحكم علينا ، ولكنه يلعن الناس والمدن التى لم تؤمن برسالته ويلعن شجرة التين التى لم تكن تحمل ثمراً(٥٢) . ولعله كان قاسياً بعض القسوة على أمه(٥٣) . وكان يتصف بحماسة النبى العبرانى المتزمت أكثر من اتصافه بالهدوء الشامل الذى يمتاز به الحكيم اليونانى وكانت عقائده القوية تملأ قلبه ؛ كما كان غضبه للحق يطمس من حين إلى حين معالم إنسانيته العميقة ؛ ولكن أغلاطه كانت هى الثمن الذى أداه لذلك الإيمان القوى الذى استطاع أن يحرك به العالم . أما فيما عدا هذا فقد كان أحب الناس إلى القلوب . وليست لدينا صورة واضحة له ولم يترك لنا أتباعه وصفاً له دقيقاً ، ولكن الذى لا شك فيه أنه كان وسيما بعض الوسامة ، كما كان ذا روح جذابة ، استطاع بفضلهما أن يجمع حوله كثيرات من النساء وكثيرين من الرجال : وفى وسعنا أن نستدل من بعض العبارات المتفرقة(٥٤) ، على أنه كان يلبس ، كما كان يلبس أهل زمانه ، عباءة فوق جلباب ، وخفين فى قدميه ، ولعله كان يضع على رأسه غطاء ينزل على كتفيه ليقيه حر الشمس(٥٥) . وكانت كثيرات من النساء يجدن عنده شيئا من العطف والحنان يبعث فيهن إخلاصا عامراً تفيض به قلوبهن . وليس انفراد يوحنا بذكر المرأة التى ضبطت وهى تزنى

حجة على كذبها ، فليست هذه القصة مما يفيد يوحنا من الناحية الدينية ، وهى فوق هذا مما يتفق كل الاتفاق مع أخلاق المسيح(*) . ولا يقل جمالاً عن هذه القصة قصة أخرى ليس فى طاقة أتباعه أن يخترعوها ، وهى قصة العاهر التى أثرت فى قلبها سرعة قبوله توبة المذنبين ، فخرت راكعة بين يديه ، ودهنت قدميه بالطيب الثمين ، وغسلتهما بدموعها ، وجففتهما بشعر رأسها ، وقال عنها عيسى إن خطاياها قد غفرت لها « لأنها أحبت كثيراً »(٥٧) . ويروى أن الأمهات كن يأتين إليه بأطفالهن ليمسهم بيديه ، وأنه « احتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم »(٥٨) .

ولم يكن عيسى من النساك الزاهدين كما كان الأنبياء الإسينيون والمعمدان . ويروى عنه أنه قدم كثيراً من الخمر فى حفل للزواج ، وأنه كان يعيش مع « العشارين والمذنبين » ، وأنه قَبِل عاهراً تائبة ضمن أتباعه . ولم يكن يأنف من مسرات الحياة الساذجة ، وإن كان قد قسا قسوة غير طبيعية على رجل كان يشتهى فتاة . وكان فى بعض الأحيان يقبل الدعوة إلى الولائم فى بيوت الأغنياء ، بيد أنه كان فى العادة يختلط بالفقراء ، وإن كانوا من الأحارين Amhaarez أشبه الناس بالمنبوذين الذين كان الفريسيون الصدوقيون يحتقرونهم ويتجنبونهم . وكان يدرك أن الأغنياء لن يؤمنوا برسالته ، فكان لذلك يبنى آماله على ما عساه يحدث من انقلاب يدخل الفقراء الوضيعين الأعلين فى ملكوت الله . ولم يكن يشبه قيصر إلا فى وقوفه إلى جانب الطبقات السفلى وفى اتصافه بالرحمة ، أما فيما عدا هذا فما أكبر الفرق بين الرجلين فى أخلاقهما ، ونظرتهما إلى الحياة ، وما يهتمان به فيها . لقد كان قيصر يرجو أن يصلح الناس بتبديل

(*) يوحنا ٧ : ٥٢ وما بعدها . وقد وردت القصة أيضاً فى نسخ خطية قديمة من إنجيل مرقس ولوقا ، ولكنها حذفت من نصيهما المتأخرين ، وليس سبب حذفها خوف الناشرين من أنها قد تساعد على فساد الأخلاق .

نظمهم وشرائعهم ؛ أما المسيح فكان يرغب فى أن يكون تغيير طبائع الناس وسيلة لتبديل النظم والاستغناء عن كثير من الشرائع . وكان قيصر هو الآخر ممن يغضبون أحياناً ؛ ولكن انفعالاته كانت على الدوام تحت سيطرة بصيرته النفاذة ؛ أما عيسى فلم يكن أيضاً غير ذى بصيرة ، وكان يجيب عن أسئلة الفريسيين الماكرة بمهارة تكاد تضارع مهارة المحامين . ولكنها لم تكن مهارة خالية من الحكمة ، ولم يكن فى وسع أحد أن يربكه ولو هدده بالقتل . لكن قواه العقلية لم يكن منشؤها اتساع عقله أو كثرة معارفه ، بل كان مبعثها نفاذ البصيرة ، وقوة الشعور ، ووحدة الغرض . ولم يكن يدعى العلم بكل شىء ، وكثيراً ما كان يفاجأ بالحوادث التى لا ينتظر وقوعها ، وكان الذى يحمله على المغالاة فى تقدير قواه ومواهبه هو جده وحرصه على الوصول إلى غرضه وتحمسه له ، كما حدث فى الناصرة وأورشليم . بيد أن قواه كانت غير عادية ، ولعل الذى يثبت هذا هو معجزاته .

وأكبر الظن أن معظم هذه المعجزات كانت تحدث فى أكثر الأحوال بقوة الإيحاء — أى بتأثير روح قوية واثقة من نفسها ، فى روح قابلة للتأثر . ولقد كان وجوده فى حد ذاته يبعث القوة فيمن حوله ، فكانت لمسته المبشرة بالخير تشفى المريض وتقوى الضعيف ، وليست رواية أمثال هذه القصص عن غيره من الناس فى الخرافات والتاريخ[٥٩] دليلا على أن معجزات المسيح هى الأخرى خرافات وأساطير ، فليس منها إلا عدد قليل ، لا يصدقه العقل ، ويمكن مشاهدة أمثالها فى كل يوم تقريبا فى لورد Lourdes ، وما من شك فى أنها كانت تحدث أثناء حياة المسيح فى إپدروس Epidaurus وغيرها من مراكز العلاج النفسانى فى العالم القديم ، وقد شفى الرسل أنفسهم حالات من هذا النوع . وهناك عاملان يدلان على أن هذه المعجزات ظاهرة نفسانية : أولها أن المسيح نفسه كان يعزو شفاء المرضى على يديه إلى « إيمان » من يشفيهم ، وثانيهما عجزه عن القيام

بمعجزات فى الناصرة ، لأن أهلها فيما يظهر كانوا ينظرون إليه على أنه « ابن النجار » ولا يؤمنون بقواه غير العادية ؛ ومن ثم كان قولهم إنه « ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنه وفى بيته »(٦٠) . ويقال لنا عن مريم المجدلية إن « سبعة شياطين قد أخرجت منها ، أى أنها كانت تشكو آلاما ونوبات عصبية ، (ويذكرنا هذا باعتقاد البعض أن الشياطين تتقمص أجسام الناس) » ؛ والظاهر أن هذه الآلام والنوبات كانت تخفّ حدتها فى حضرة عيسى ؛ ومن أجل هذا كانت تحبه لاعتقادها أنه أعاد إليها الحياة ، وأن قربه منها كان أمراً لا غنى عنه لسلامة عقلها . وأما ابنة بايروس فقد قال المسيح عنها فى صراحة : إن البنت لم تمت بل كانت نائمة — ولعلها كانت مصابة بالشخوص(*) . ولم يلجأ حين ناداها بأن تستيقظ إلى لهجته الرقيقة المعتادة بل قال بلهجة الآمر القوية : « طليثا قومى » (أى يا صبية قومى)(٦١) . ولسنا نقصد بهذا أن نقول إن عيسى كان يرى أن معجزاته ظواهر طبيعية محضة ؛ فقد كان يحس أنه لا يأتى بهذه المعجزات إلا بمعونة ما فيه من روح قدسية . ولسنا نعرف أنه كان مخطئا فى اعتقاده هذا ، كما أننا لا نستطيع حتى الآن أن ندرك حدود ما فى تفكير الإنسان وإرادته من إمكانيات وقوى كامنة . ويبدو أن عيسى نفسه كان يحس بخَوَر نفسانى بعد أن يقوم بمعجزاته ، وأنه كان يحاولها وهو كاره ، وينهى أتباعه عن إذاعتها ، ويؤنب من يطلب إليه « علامة » ، ولقد ساءه أن أكبر الأسباب التى دعت الرسل أنفسهم إلى الإيمان به هو ما أتاه من أفعال « عجيبة » .

ويصعب علينا أن نقول إن أولئك الرسل كانوا من طراز الذين يُختارون ليبدلوا أقوال العالم . فالأناجيل تظهر ما بين أخلاقهم من اختلاف واقعى ، وتكشف عيوبهم كشفاً صريحاً ؛ فهم لا يخفون مطامعهم ، ولما أراد

(*) ويسمى أيضاً بالتخشب والجمود أو داء الثبوت وهو مرض عصبى يتميز بفقد الإرادة وتصلب العضلات سببه مرض الجهاز العصبى المركزى (شرف) .

عيسى أن يهدئ من هذه المطامع وعدهم بأنهم سيجلسون فى يوم الحساب على اثنى عشر كرسيا يدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر(٦٢) . ولما أن سجن المعمدان انضم أندرو أحد أتباعه إلى عيسى وجاء معه بأخيه سيمون الذى سماه المسيح باسم كفاس ، أى « الصخرة » . وترجم اليونان اسمه إلى بطرس . وبطرس هذا شخصية بشرية لحما ودما ، فهو متهور ، جاد ، كريم ، غيور ، هياب يصل به الوجل فى بعض الأحيان إلى حد الجبن الذى لا يسع الإنسان إلا أن يعفو عنه . وقد كان هو وأندرو يصيدان السمك فى بحيرة الجليل ، وكذلك كان ولدا زبدى Zebedee يعقوب ويوحنا . وانتقل هؤلاء الأربعة بأعمالهم وأسرهم وأصبحوا دائرة ضيقة حول المسيح . وكان متَّى جابيا فى مدينة كپرنوم القائمة على الحدود ؛ أى أنه كان يقوم بعمل للدولة ، وإذن فقد كان فى منصبه هذا يخدم رومة ؛ لهذا كان مكروها من كل يهودى يتوّق إلى الحرية . وكان يهوذا الكريوثى وحده دون سائر الرسل الذى لم يأت من الجليل . وجمع الاثنا عشر كلهم جميع ما يملكون وعهدوا إلى يهوذا أن يتولاها نائبا عنهم ؛ وكانوا فى طوافهم مع المسيح فى رحلاته التبشيرية يعيشون على ما يقدمه لهم القرويون ، ويأخذون طعامهم آنا بعد آن مما يمرون به من الحقول ، ويقبلون ضيافة أصدقائهم ومن يهتدون بهديهم . وقد أضاف عيسى إلى الاثنى عشر اثنين وسبعين من الأتباع ، وبعث باثنين منهم إلى كل بلدة يريد أن يزورها ، وقال لهم « لا تحملوا كيسا ، ولا مزوداً ، ولا أحذية »(٦٣) . وانضمت بعض النساء الصالحات الرحيمات إلى أولئك الرسل والأتباع وقدمن لهم المعونة ، وأدين لهم تلك الأعمال المنزلية التى لا غنى عنها ، والتى هى أعظم سلوى لحياة الرجال . وعلى يد هذه الجماعة الصغيرة الوضيعة غير المتعلمة أرسل المسيح إنجيله إلى العالم .

الفصل الرابع

الإنجيــل

وكان يعلم الناس بالبساطة التى تتطلبها حال مستمعيه ، ويمزج هذه التعاليم بالقصص الطريفة التى تجعل دروسه تنفذ إلى الأذهان ، وبالحِكَم والأمثال القوية بدل الحجج العقلية ، وبالاستعارات ، والمجازات التى لا تقل روعة عن أمثالها فى أى أدب من آداب العالم . وكانت طريقة القصص الرمزى التى يلجأ إليها مألوفة فى بلاد الشرق ، وقد أخذ بعض تشبيهاته الرائعة ، ولعله أخذها دون علم منه ، عن أنبياء بنى إسرائيل ، وكتاب المزامير ، وأحبار اليهود[٦٤] . بيد أن وضوح خطبه واتجاهها إلى هدفها مباشرة ، وروعة خياله وقوّته ، وإخلاصه العظيم ، قد رفعت أقواله إلى مستوى الشعر الملهم . ولسنا ننكر أن الغموض يكتنف بعض أقواله ، وأن بعضها يبدو لأول وهلة مما يتجافى مع العدالة[٥٦] ، وأن منها ما يشتمل على السخرية اللاذعة والحقد المرير ، ولكنها كلها تقريبا نماذج فى الإيجاز والوضوح والقوة .

وكانت بداية تعاليمه هى إنجيل يوحنا المعمدان ، وهذا الإنجيل نفسه يرجع إلى دانيال وأخنوخ ، إذ ليس فى التاريخ طفرات . ومن أقواله أن ملكوت الله قد حان أجلها ، وأن الله سيقضى عما قريب على عهد الشر والخبائث ، وأن ابن الإنسان سيأتى « على سُحُب السماء » ليحاسب جميع البشر الأحياء منهم والأموات[٦٦] . ومن أقواله إن الوقت الذى يجب أن يتوب فيه الإنسان من ذنوبه يمر مسرعا ، فأما من تاب وأناب ، وسلك سبيل العدالة ، وأحب الله ، وآمن برسوله ، فإنه يرث ملكوت السموات ، ويسمو إلى القوة والمجد فى عالم قد تحرر آخر الأمر من جميع الشرور والآلام والموت .

وكانت هذه الأفكار كلها مألوفة لسامعيه ، ولهذا فإن المسيح لم يحددها تحديداً واضحا ، ومن ثم نشأت فى وقتنا هذا صعاب جمة سببها ما فى هذه الأفكار من غموض . ترى ماذا كان يعنى بملكوت السموات ؟ آهى سماء خيالية خارجة عن مألوف الطبيعة ؟ يخيل إلينا أنها لم تكن كذلك ، لأن الرسل والمسيحيين الأولين كانوا على بكرة أبيهم ينتظرون أن توجد مملكة أرضية ، وكانت هذه هى الرواية اليهودية التى ورثها عنهم المسيح ، ومن أجل هذا كان يعلم أتباعه أن يصلوا إلى الأب قائلين « ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض » .

ولم يُنطق إنجيل يوحنا المسيح بقوله إن « مملكتى ليست من هذا العالم »(٦٧) إلا بعد أن خبا هذا الأمل . فهل كان يعنى بها حالة روحية أو طوبى مادية ؟ لقد كان يتحدث فى بعض الأحيان عن ملكوت الله بوصفها حالة من حالات الروح يصل إليها الأطهار المبرؤون من الذنوب — « ملكوت الله داخلكم »(٦٩) ؛ وكان فى أحيان أخرى يصورها كأنها مجتمع سعيد فى مستقبل الأيام ، حكامه هم الرسل ، ويأخذ من أعطَى أو أوذى فى سبيل المسيح مائة ضعف(٧٠) . ويبدو أنه لم يكن يرى أن ملكوت الله هى الكمال الخلقى إلا مجازاً ، وأنه يرى أن هذا الكمال الخلقى إنما هو إعداد لهذا الملكوت وثمن يؤدى للحصول عليه ، وأنه هو الحال التى تكون عليها جميع الأرواح الناجية فى الملكوت إذا ما تحقق(٧١) .

ومتى يحين موعد هذا الملكوت ؟ قريبا . « الحق أقول لكم إنى لا أشرب بعد من نتاج الكرمة إلى ذلك اليوم حينما أشربه جديداً فى ملكوت الله » . ومن أقواله لأتباعه : « لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتى ابن الإنسان »(٧٣) . ثم أخره قليلا فيما بعد : « إن من القيام ههنا قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيا فى ملكوته »(٧٤) ؛ « لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا

كله »[٧٥] . ومرّت به لحظات رأى فيها من حسن السياسة أن يحذر رسله بقوله : « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ، ولا الابن إلا الأب »[٧٦] . وستسبقه علامات : « وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب . . . تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ، وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل فى أماكن . . . يعثر كثيرون و . . . يبغض بعضهم بعضا . ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ، ويضلون كثيرين ، ولكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين »[٧٧] . وفى بعض الساعات جعـــل يسوع مجىء ملكوت الله ينتظر استحالة الإنسان إلها عادلا كما جعله موقوفاً على هذه الاستحالة ؛ وهو يجعل حلول الملكوت عادة عملا من أعمال الله ، وعطية ومعجزة يفاجأ بها الناس من قبل العناية الربانية .

وقد فهم الكثيرون ملكوت الله بأنه طوبى شيوعية ، وحسبوا المسيح ثائراً اجتماعيا[٧٨] . وإنا لنرى فى الأناجيل بعض الشواهد التى تؤيد هذا الرأى ، منها أن المسيح لا يخفى احتقاره للرجل الذى يجعل همه فى الحياة جمع المال والانغماس فى الترف[٧٩] ، فهو يتوعـــد الفتى البطين بالجوع والشقاء ، ويواسى بالتطويبات التى ضمن لهم بها ملكوت الله . ولما سأله شاب غنى عما يجب أن يفعله بعد أن حفظ الوصايا قال : « بع أملاكك ، وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء ، و... اتبعنى »[٨٠] . ويبدو أن الرسل كانوا يفسرون الملكوت بأنه انقلاب ثورى للعلاقات القائمة بين الأغنياء والفقراء ، وسوف نراهم هم والمسيحيين الأولين يؤلفون جماعة شيوعية : « وجميع الذين آمنوا كانوا معاً ، وكان عندهم كل شىء مشتركا »[٨١] . وكانت التهمة التى أدين من أجلها عيسى هى أنه كان يتآمر ليكون « ملك اليهود » .

ولكن فى وسع الرجل المحافظ أن يجد فى العهد الجديد شواهد يؤيد بها آراءه . منها أن المسيح قد اتخذ متَّى صديقا له ، ومتَّى هو الذى ظل كما كان

عاملا من قبل الرومان ؛ ومنها أنه لم يطعن قط على الحكومة المدنية ، ولم يكن له فيما نعلم نصيب فى الحركة اليهودية التى تهدف إلى الحركة القومية ، وأنه كان ينصح بالكياسة البعيدة أشد البعد عن الثورة السياسية . وقد نصح الفريسيين بأن يعطوا « ما لقيصر لقيصر وما لله لله »[٨٢] . ولسنا نجد فى قصة الرجل الذى « دعا عبيده » قبل سفره « وسلمهم أمواله »[٨٣] أية شكوى من الربا أو الاسترقاق ، بل إنها تسلم بهاتين السنتين بوصفهما من الأمور التى لا تقبل الجدل . ويبدو أن المسيح يقر ما فعله العبد الذى استثمر العشر الميقات (٦٠٠ ريال أمريكى) التى عهد بها إليه سيده ، فصارت عشرين ؛ وأنه لا يقر عمل العبد الذى تركت له منها واحـــدة فحبسها ولم يستثمرها حتى يعود سيده من غيبته ، ويُنطق هذا السيد بتلك العبارة القاسية : « إن كل من له يُعطى ، ومن ليس له فالذى عنده يؤخذ منه »[٨٤] ، وهى خير ما تلخص به أعمال السوق التجارية ، إن لم نقل إنها خير خلاصة لتاريخ العالم . وفى قصة رمزية أخرى نرى العمال غاضبين على صاحب العمل الذى يؤجر من عمل ساعة بقدر ما يؤجر الذين ظلوا يكدحون طول اليوم ؛ فينطق المسيح صاحب العمل بقوله : « أو ما يحل لى أن أفعل ما أريد بمالى ؟ »[٨٥] . ويبدو أن المسيح لم يفكر فى القضاء على الفقر ، لأن الفقراء دائما معه . فهو كالأقدمين جميعا يرى أن من الأمور المسلم بها أنه يجب على العبد أن يخدم سيده على خير وجه : « طوبى لذلك العبد الذى إذا جاءه سيده يجده يفعل هكذا »[٨٦] أى ما كلفه به . وهو لا يرى من شأنه أن يهاجم النظم الاقتصادية أو السياسية القائمة فى وقته ، بل يفعل عكس هذا فيهاجم ذوى النفوس الثائرة المتحمسة الذين يغتصبون ملكوت السموات[٨٧] . أما الثورة التى كان يفكر فيها فكانت أعمق من هذه الثورة وأبعد منها أثراً ؛ فهى ثورة إذا لم تحدث كانت كل الإصلاحات سطحية سريعة الزوال . فإذا استطاع أن يطهر قلوب الناس من الشهوات الأنانية ، ومن القسوة ، والفجور ، فإن الطوبى

تحل ، ولا يبقى أثر لتلك النظم التى تنشأ من شره الإنسان وعنفه ، وما تستتبعه من الحاجة إلى القوانين . وهذا إذا تم كان أعمق الثورات ، التى إذا قيست إليها الثورات جميعها كانت تغيراً موقوتاً يضع طبقة مكان طبقة ، وتظل الطبقة الغالبة تستغل الناس كما كانت تستغلهم الطبقة المغلوبة . وبهذا المعنى كان المسيح أعظم الثائرين ، أى محدثى الانقلابات فى تاريخ العالم .

وليست أهم أعماله أنه يبشر بدوله جديدة ، بل أهمها أنه يضع الخطوط الرئيسية لمبادئ أخلاقية مثالية . وكانت تلك المبادئ الأخلاقية هى التى تنبأ بقيامها عند ما يحل موعد ملكوت الله[88] ، والتى كان يقصد بها أن يكون الناس خليقين بالدخول فى هذا الملكوت . ومن ثم كانت تلك « التطويبات » وما فيها من تمجيد للوداعة ، والفقر والرقة ، والسلام لم يسبق له مثيل ، وكانت نصيحته أن يدير الإنسان خده الثانى ، وأن يكون الناس كصغار الأطفال (لامثلا عليا للفضيلة !) ، وكان عدم اهتمامه بالشئون الاقتصادية ، وبالفقر ، وبشئون الحكم ، وتفضيله العزوبة على الزواج ، وأمره الناس بأن يتخلوا عن جميع الروابط العائلية لم تكن هذه قواعد للحياة العادية ، بل كانت نظاما يكاد يماثل نظام الأديرة يهيئ الرجال والنساء لأن يختارهم الله لمملكة مرتقبة ، لن تكون فيها شريعة ، ولا زواج ، ولا علاقات جنسية ، ولافقر ، ولا حرب . وقد أثنى يسوع على الذين تركوا « بيتاً ، أو والدين ، أو إخوة ، أو امرأة ، وأولاداً » بل أثنى أيضاً على الذين « خصُوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات »[89] . وما من شك فى أن هذه التعاليم قد وضعت لتسير عليها أقلية دينية ورعة ، ولم توضع لمجتمع دائم . لقد كانت هذه مبادئ أخلاقية ، ضيقة فى أغراضها ، ولكنها عامة فى مجالها ، لأنها تطبق فكرة الأخوة والقاعدة الذهبية على الأجانب والأعداء كما تطبقها على الجيران والأصدقاء . وكانت تتطلع إلى زمن لا يعبد فيه الناس الله فى الهياكل ، بل يعبدونه « بالروح ، والصدق » وبكل عمل يعملونه لا بالألفاظ الزائلة .

ترى هل كانت هذه المبادئ الأخلاقية جديدة ؟ ليس ثمة شيء جديد إلا الترتيب ، وإن الفكرة الرئيسية التي تدور حولها عظات المسيح — فكرة يوم الحساب وملكوت الله — هي من الأفكار التي وجدت عند اليهود قبل ذلك الوقت بمائة عام . ولقد نادت الشريعة بأخوة البشر قبل ذلك بزمن طويل . فقد جاء في سفر اللاويين : « تحب قريبك كنفسك » و « كالوطني منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم وتحبه كنفسك[٩٠] » . وكان اليهود قد أُمِرُوا في سفر الخروج أن يحسنوا لأعدائهم[٩١] ، وكان إرميا[٩٢] وإشعيا[٩٣] ، قد أشارا عليهم أن يديروا خدهم لمن يلطمهم . وكان الأنبياء أيضا قد جعلوا الحياة الصالحة أعلى درجة من العداوة أيا كان نوعها ، وكان إشعيا[٩٤] وهوشع[٩٥] ، قد شرعا يبدلان يهوه من رب الجنود إلى إله الحب ، وكان هلل قد صاغ القاعدة الذهبية كما صاغها كنفوشيوس ؛ وليس من حقنا أن نأخذ على يسوع أنه ورث المبادئ الأخلاقية التي كانت سائدة بين شعبه ، وأفاد من تلك المبادئ .

وقد ظل المسيح زمنا طويلا لا يرى في نفسه إلا أنه أحد اليهود ، يؤمن بأفكار الأنبياء ، ويواصل عملهم ، ويجرى على سنتهم : فلا يخطب إلا في اليهود . ولما أرسل أتباعه لينشروا إنجيله لم يرسلهم إلا لمدن اليهود : « إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة السامريين لا تدخلوا »[٩٦] ؛ ومن ثم كان تردد الرسل بعد موته في أن يحملوا « الأنباء الطيبة » إلى عالم « الكفرة »[٩٧] ولما التقى بالسامرية عند البئر قال لها إن « الخلاص هو من اليهود »[٩٨] ، وإن لم يكن من حقنا أن نحكم عليه من أقوال لعلها قد تقولها عليه إنسان لم يكن حاضرا معه ، أو كتبها بعد ستين عاما من الحادثة التي قيلت فيها . ولما طلبت إليه امرأة كنعانية أن يشفي ابنتها أبي في أول الأمر وقال : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »[٩٩] . وقال للأبرص الذي شفاه من عاته « اذهب وأر نفسك للكاهن وقدمَ القربان الذي أمر به موسى »[١٠٠] : « على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون ،

فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، لكن حسب أعمالهم لا تعملوا »[١٠١] ، ولما عرض يسوغ أن تعدل الشريعة اليهودية ، سار على سنة هلل فلم يفكر فى أنه ينقض هذه الشريعة : لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل »[١٠٢] « ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس »[١٠٣][*] .

لكنه مع هذا قد بدل كل شىء بقوة أخلاقه وشعوره . فقد أضاف إلى الشريعة اليهودية أمره إلى الناس بأن يستعدوا للدخول فى الملكوت بأن يحيوا حياة العدالة ، والرأفة والبساطة . وزاد الشريعة صرامة فى مسائل الجنس والطلاق[١٠٥] ، ولكنه خففها بأن كان أكثر استعدادا للعفو[١٠٦] ، وذكر الفريسيين أن السبت قد وضع لخير الإنسان[١٠٧] ، وخفف الشروط الموضوعة على الطعام والطهارة ، وحذف بعض أوقات الصوم ، وأعاد الدين من المراسم والطقوس إلى الصلاح والاستقامة ، وندد بالجهر بالصلوات ، والتظاهر بالصدقات ، والاحتفالات الفخمة بالجنازات ، وترك الناس أحيانا يظنون أن الشريعة اليهودية سوف تمحى حين تحل الملكوت[١٠٨] .

وقد قاوم اليهود على اختلاف شيعهم هذه الإصلاحات عدا الإسينيين ، وكان الذى أغضبهم بنوع خاص ما ادعاه لنفسه من حق العفو عن الخطايا والتحدث باسم الإله . وقد هالهم أن يروه يختلط بعمال رومة المبغضين ، وبالنساء ذوات السمعة السيئة . وكان كهنة الهيكل وأعضاء السنهدرين يرقبون نشاطه بعين الريبة ، ويرون فى هذا النشاط ما كان يراه هيرودس فى نشاط يوحنا وهو أنه ستار يخفى تحته ثورة سياسية ، وكانوا يخشون أن يتهمهم الحاكم الرومانى بأنهم يتحللون مما هو مفروض عليهم من تبعات ليحافظوا بذلك على النظام الاجتماعى .

(*) ربما كانت هذه الفقرات مما تقوله عليه المسيحيون المتهودون الذين أرادوا أن يحطوا من شأن بطرس[١٠٤] ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بهذا إذ ينقصنا الدليل .

وقد أوجسوا فى نفوسهم خيفة من وعد المسيح بتدمير الهيكل ، ولم يكونوا واثقين من أن هذا التدمير إنما هو تدمير مجازى لا يقصد به حرفيته . أما المسيح نفسه فقد ندد بهم تنديداً شديداً .

« الكتبة والفريسيون . . . يحزمون أحمالا ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس ، وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم . وكل أعمالهم يعملونها لكى تنظرهم الناس ، فيعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم ، ويحبون المتكأ الأول فى الولائم والمجالس الأولى فى المجامع . . . لكن ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون . . . أيها القادة العميان . . . أيها الجهال والعميان ! . . . تركتم أثقل الناموس — الحق والرحمة والإيمان . . . تنقون خارج الكأس والصحفة ، وهما من داخل مملوءان اختطافا ودعارة . . . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة ! . . . تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء ونفاقا . . . إنكم أبناء قتلة الأنبياء ، فاملأوا أنتم مكيال آبائكم ! أيها الحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من دينونة جهنم ؟ . . . إن العشارين والزوانى يسبقونكم إلى ملكوت الله »(١٠٩) .

ترى هل كان يوحنا عادلا فى حكمه على الفريسيين ؟ أكبر الظن أنه كان من بينهم من يستحقون هذا التقريع ، وأن منهم كثيرين كانوا يفعلون ما فعله المسيحيون بعد بضعة قرون من ذلك الوقت فيستبدلون بطهارة النفس مظاهر التقى الخارجية . غير أنه كان من بين الفريسيين كثيرون يرون أن الشريعة يجب أن تخفف وأن تكون أكثر إنسانية مما هى(١١٠) . ولعل عدداً كبيراً من هذه الطائفة كانوا رجالا مخلصين ، وأشرافاً ظرفاء إلى حد كبير ، يشعرون بأن القواعد الشكلية التى أغفلها يسوع يجب ألا يحكم عليها مستقلة عن غيرها من القواعد ، بل يجب أن تؤخذ على أنها جزء من الشرائع التى ساعدت على جميع كلمة اليهود ، وبعثت فيهم العزة والأدب وسط عالم يبغضهم ويعاديهم . وكان بعض

الفريسيين يعطفون على عيسى ، وقد جاءوه ليحذروه من المؤامرات التى كانت تدبر لاغتياله[١١١] ، ولقد كان نقوميدس **Nicomedus** أحد المدافعين عنه من أغنياء الفريسيين .

وحلت القطيعة الأخيرة بين عيسى وبينهم حين بدأ يعتقد أنه هو المسيح المنتظر ، ويعلن هذا فى صراحة ووضوح . لقد كان أتباعه ينظرون إليه فى أول الأمر على أنه خليفة يوحنا المعمدان ، ثم أخذوا يعتقدون شيئاً فشيئاً أنه هو المنقذ الذى سيرفع نير الرومان عن إسرائيل ، ويبسط حكم الله على الأرض . ولما أن سألوه « قائلين يارب هل فى هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل ؟ »[١١٢] لم يجبهم إلا بقوله « ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التى جعلها الرب فى سلطانه » وأجاب جواباً شبيهاً بهذا الجواب فى غموضه حين سأله رسل من عند المعمدان هل هو المسيح المنتظر ؛ وأراد أن يخرج من عقول أتباعه فكرة أنه مسيح سياسى فأنكر كل ادعاء بأنه من نسل داود[١١٣] . لكن يلوح أن ترقب أتباعه وآمالهم القوية ، وما تبينه من قواه النفسية غير العادية قد أقنعاه تدريجيا بأنه رسول من عند الله جاء ليعد الناس لحكم الله فى الأرض لا ليعيد سيادة اليهودية ؛ ولم يقل (فى الأناجيل الثلاثة المتشابهة — متى ، ومرقس ، ولوقا) إنه هو والأب إله واحد أو يسوى نفسه به ، فقد سأل أتباعه : « لماذا تدعونى صالحاً ؟ ليس أحداً صالحاً إلا واحد وهو الله »[١١٤] وقال وهو يصلى فى جتسمانى : « ليكن لا ما أريد أنا ، بل ما تريد أنت »[١١٥] . وقد أخذ لفظ « ابن الإنسان » الذى جعله دانيال مرادفاً للفظ المسيح ، واستعمله فى بادئ الأمر دون أن يقصد به نفسه فى وضوح ثم انتهى آخر الأمر بإطلاق هذا اللفظ على نفسه فى مثل قوله : « فإن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً »[١١٧] — وهى عبارة رآها الفريسيون تجديفا فى حق الله . وكان يدعو الله باسم « الأب » دون أن يقصد بهذا فى بعض الأحيان أباه هو نفسه ، بيد أنه أحيانا أخرى يقول : « أبى » . ويبدو أنه يقصـــد بهذا

أنه ابن الله بصفة أو درجة خاصة(١١٨) . وقد ظل وقتاً طويلا ينهى أتباعه عن أن يسموه المسيح ، ولكنه فى قيصرية فلبس رضى بقول بطرس إنه « المسيح ابن الله الحى »(١١٩) . ولما اقترب من أورشليم فى آخر يوم اثنين قبل وفاته ليوجه آخر دعوة إلى الناس ، حياه « جمهور التلاميذ » « قائلين مبارك الملك الآتى باسم الرب » ، ولما طلب إليه بعض الفريسيين أن ينتهر تلاميذه من أجل هذه التحية رد عليهم بقوله : « إنه لو سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ »(١٢٠) . وقد جاء فى الإنجيل الرابع أن الجماهير حيته بقولها إنه « ملك إسرائيل »(١٢١) . ويبدو أن أتباعه كانوا لا يزالون يعتقدون أنه مسيح سياسى سيقضى على سلطان الرومان ويجعل الكلمة العليا لليهودية . وكانت هذه الأصوات والتحيات هى التى قضت على المسيح بأن يموت ميتة الثوار .

الفصل الخامس

الموت والتجلى

اقترب عيد الفصح واجتمع فى أورشليم عدد كبير من اليهود ليقربوا القرابين للهيكل . وكان البهو الخارجى يضج بأصوات البائعين ينادون على الحمام وغيره من حيوانات الضحايا ؛ والصيارفة يعرضون النقود المتداولة فى هذا المكان بدل نقود الوثنيين المتداولة فى الإمبراطورية الرومانية . ولما زار عيسى الهيكل فى اليوم الثانى بعد دخوله المدينة هاله ما كان تحت المظلات من ضجيج وأعمال تجارية فانتابته هو وأتباعه نوبة من الغضب الشديد ، دفعتهم إلى قلب مناضد الصيارفة وتجار الحمام ، وبعثرة نقودهم على الأرض ، وإخراج التجار من ساحته بضرب العصى . وظل عدة أيام بعد مجيئه يعلم فى الهيكل دون أن يتعرض له أحد(١٢٢) . ولكنه كان يخرج منه ليلا ويبيت فى جبل الزيتون لخوفه أن يُقبض عليه أو يُغتال .

وكان عمال الحكومة — المدنيون منهم والدينيون ، الرومان واليهود — يراقبونه ، وأكبر الظن أن هذه المراقبة قد بدأت من يوم أن خلف يوحنا المعمدان فى دعوته . وكان عجزه عن أن يضم إليه عدداً كبيراً من الأتباع مما جعلهم يهملون أمره ، ولكن يبدو أن الاستقبال الحماسى الذى استقبل به فى أورشليم حير زعماء اليهود فصاروا يخشون أن تلتهب حماسة هذه الجماعات التى اجتمعت فى عيد فصح ، فتدفعها عواطفها الثائرة ونزعتها الوطنية إلى الثورة على السلطة الرومانية ثورة طائشة عقيمة لم يحن موعدها بعد ، فتكون عاقبتها القضاء على كل ما تستمتع به اليهودية من حُكم ذاتى وحرية دينية . ومن أجل هذا دعا الحاخام الأكبر السنهدرين إلى الاجتماع ،

وقال له : « إنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها »[١٢٣] ووافقته أغلبية الحاضرين على رأيه وأمر المجلس بإلقاء القبض على المسيح .

ويبدو أن نبأ هذا القرار وصل إلى مسامع يسوع ، ولعل الذى أوصله إليه بعض أعضاء فى السنهدرين نفسه . ففى اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبرى (وهو اليوم الثالث من شهر إبريل) من العام الثلاثين فى أرجح الأقوال(*) أكل عيسى ورسله عشاء عيد الفصح فى دار صديق له فى أورشليم ، وكانوا ينتظرون أن ينجى المعلم نفسه بما له من معجزات ؛ لكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، ورضى بما قُدِّر له ؛ ولعله كان يأمل أن يتقبل الله موته على أنه تضحية يكفِّر بها عن ذنوب شعبه[١٢٤] . وقد قيل له إن أحد الاثنى عشر كان يأتمر به ليسلمه إلى أعدائه ؛ وفى هذا العشاء الأخير اتهم المسيح علناً يهوذا الإسخربوطى(**) . وقد جرى يسوع على السنن اليهودية فبارك الخمر الذى قدمه للرسل ليشربوه ، ثم غنوا جميعاً أغنية هاليل اليهودية[١٢٧] . ويقول يوحنا إنه قال لهم « يا أولادى أنا معكم زماناً قليلا بعد ... وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضا ... لا تضطرب قلوبكم . أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بى . فى بيت أبى منازل كثيرة ... أنا أمضى لأعد لكم مكاناً »[١٢٨] .

ويبدو أن من المعقول جداً أن يطلب المسيح إليهم فى هذه الساعة الرهيبة أن يكرروا هذا العشاء فى مواسم خاصة (كما تتطلب ذلك عادة اليهود) ، إحياء لذكراه ؛ وليس ببعيد أنه ، وهو ذو الإحساس الشرقى المرهف والخيال الشرقى

(*) ولقد طال الجدل حول الزمن الذى امتدت إليه رسالة المسيح ، والسنة التى مات فيها . ولقد رأينا أن لوقا يحدد تعميد المسيح بعام ٢٨ — ٢٩ . أما تاريخ بولس ، الذى يعتمد فيه على ما قاله هو نفسه فى رسالته إلى أهل غلاطية الإصحاح الأول والثانى ، وتواريخ الحكام الرومان الذين تولوا محاكمته ، والرواية المأثورة التى تقول إن موته كان عام ٦٤ ، كل هذا يتطلب أن يكون اعتناق بولس لدين المسيح فى عام ٣١ . انظر الفصل السابع والعشرين .

(**) لقد قيلت حجج كثيرة فى تفنيد قصة يهوذا[١٢٥] ، ولكنها حجج لا يقتنع بها العقل[١٢٦] .

الوثاب ، قد سألهم أن يتصوروا أن العيش الذى يأكلونه هو جسمه ، وأن الخمر التى يشربونها هى دمه .

ويقال إن الجماعة الصغيرة اختبأت تلك الليلة فى حديقة جثسمانى فى خارج أورشليم : وفيها عثرت عليهم سرية من شرطة الهيكل(١٢٩) وقبضت على يسوع : وسيق أولا إلى "بيت أونياس أحد كبار الكهنة السابقين ، ثم نقل منه إلى بيت قيافا ؛ ويقول مرقس إن « المجلس » — ولعل الأصح أن بلجنة من أعضاء السنهدرين — اجتمعت فى ذلك المكان . وشهد عليه شهود كثيرون ، وذكروا بنوع خاص تهديده بتخريب الهيكل . ولما سأله قيافا هل هو « المسيح ابن الله ؟ » أجابه كما تقول الرواية « أنا هو »(١٣٠) . واجتمع السنهدرين فى صباح اليوم التالى وأثبت عليه جريمة التجديف (وكان عقابها الإعدام فى تلك الأيام) وقرر أن يسوقه أمام الحاكم الرومانى ، وكان قد جاء إلى أورشليم ليرقب الجماهير المحتفلة بعيد الفصح .

وكان پيلاطس الپنطى رجلا قاسيا ، استدعى إلى رومة بعد وقت ما من هذه الحادثة متهماً بابتزاز المال واستخدام القسوة(١٣١) ، وعزل من منصبه . على أنه لم يبد له وقتئذ أن هـذا الواعظ الوديع الخلق خطر حقيقى على الدولة ؛ وسأل الرجل يسوع سؤالا يكاد يكون من قبيل المداعبة : « أأنت ملك اليهود ؟ » فأجاب يسوع ، حسب رواية متى بقوله « نعم » . ولا يسع الإنسان إلا أن يشك فى هذه التفاصيل التى تناقلها الناس مشافهة فى أغلب الظن ، ثم دونوها بعد وقوعها بزمن طويل . فإذا أخذنا بهـذا النص وجب علينا أن نجزم بأن يسوع كان قد قرر أن يموت ، وأن نظرية بولس عن التكفير تجد ما يؤيدها فى عمل المسيح نفسه . وينقل يوحنا عن يسوع أنه أضاف إلى جوابه السابق قوله : « لهذا قد ولدت أنا . . . لأشهد للحق » . وسأله پيلاطى « ما هو الحق ؟ » — وهو سؤال لعل الباعث عليه نزعة الإنجيل الرابع الميتافيزيقية ، ولكنه يدل بأجلى بيان على ما هنالك

من فروق بين ثقافة الرومان السوفسطائية الساحرة ومثالية اليهودى الواثقة المتحمسة . ومهما يكن من شيء فلم يكن أمام القانون بعد اعتراف المسيح إلا أن يدينه ، وبناء على هذا أصدر بيلاطى وهو كاره حكمه بالإعدام .

وكان الصلب من طرق العقاب الرومانية اليهودية . وكان الجلد يسبقه عادة ، فإذا ما جلد المذنب بقسوة أصبح جسمه كتلة من اللحم المتورم الدامى . ووضع الجنود الرومان تاجا من الشوك على رأس المسيح يسخرون بذلك من تلقيبه « ملك اليهود » ، كما نقشوا على صليبه باللغات الآرامية واليونانية واللاتينية « عيسى الناصرى هو ملك اليهود » **Nazarathaeus Rek Joudeorum** . وسواء كان يسوع من دعاة الثورة أو من غير دعاتها فليس ثمة ريب فى أن رومة قد حكمت عليه بوصفه من هؤلاء الدعاة ، وكذلك فهم تاستس الأمر على هذا النحو(١٣٤) . وكانت جماعة صغيرة ، لا يزيد عددها على ما يتسع له فناء بيت بيلاطس ، قد طالبت بإعدام المسيح ؛ فاما أن أخذ يصعد تل جمجمة « تبعه جمهور كبير من الشعب » كما يقول لوقا(١٣٥) ، والنساء اللواتى كن يلطمن وينحن عليه . وما من شك فى أن هذا الحكم لم يرق فى عين الشعب اليهودى .

وقد أذن لكل من يريد أن يشهد هذا المنظر الرهيب أن يشهده . وكان الرومان الذين يرون أن لا بد لهم أن يحكموا الناس بالإرهاب يختارون لتنفيذ حكم الإعدام فيمن يرتكبون الجرائم التى يحدد لها القانون هذه العقوبة الطريقة التى يسميها شيشرون « أقسى أنواع التعذيب وأبشعها »(١٣٦) . فكانت يد المذنب وقدماه تُدق (أو تربط فى حالات نادرة) إلى الخشبة ، وكانت فيها قطعة بارزة تسند العمود الفقرى أو القدمين . وإذا لم يُرحم المذنب فيُقتل فإنه يبقى على هذه الحال يومين أو ثلاثة أيام ، يقاسى فيها آلام عدم الحركة ، وهو عاجز عن طرد الحشرات التى تتغذى من لحمه العارى ، فتخور قواه ببطء حتى يقف القلب عن الحركة ويضع حداً لهذا العذاب الأليم .

وكان الرومان أنفسهم يشفقون على ضحايا هذا التعذيب فى بعض الأحيان ، ويقدمون لهم شراباً فيفقدهم وعيهم . ويقال إن الصليب كان يرفع « عند الساعة الثالثة أى فى الساعة التاسعة صباحا . ويقول مرقس إن لصين صلبا مع يسوع وإنهما كانا يسبانه . ويؤكد لنا لوقا أن واحداً منهما كان يدعو له[١٣٨] . ولم يكن مع عيسى أحد من الرسل إلا يوحنا وحده ، وكان معه ثلاث نساء تسمى كل واحدة منهن مريم ، أم المسيح ، ومريم أختها ، ومريم المجدلية (وكانت أيضا نساء ينظرن من بعيد)[١٣٩] . واقتسم الجند ثياب الميت كعادة الرومان ؛ وإذ لم يكن للمسيح إلا ثوب واحد فإنهم أخذوا يلقون القرعة ليروا من يأخذ الثوب . ولعلنا نقرأ فى هذا المعنى الآية الثامنة عشرة من المزمور الثانى والعشرين منسوبة إلى المسيح : « يقتسمون ثيابى بينهم وعلى لباسى يقترعون » : ويبدأ هذا المزمور نفسه بتلك الكلمات : « إلهى ، إلهى ، لماذا تركتنى ؟ » . وذلك هو نداء اليأس البشرى الذى يعزوه مرقس ومتى إلى المسيح وهو يحتضر . فهل يمكن أن يكون الإيمان العظيم الذى أعانه فى موقفه أمام بيلاطس قد انقلب فى تلك اللحظات المريرة إلى شك أسود ؟ ولعل لوقا قد رأى أن هذه العبارة لا تتفق مع عقائد بولس الدينية فبدلها بقوله : « يا أبتاه فى يديك أستودع روحى » — وهى عبارة تردد صدى الآية الخامسة من المزمور الحادى والثلاثين ترديداً يثير الريب لما فيه من دقة .

وأشفق جندى على المسيح الظمآن ، فجاء بإسفنجة مغموسة فى الخل وقربها من فيه ، فشرب عيسى وقال : « قد أكمل » . وفى الساعة التاسعة — الثالثة بعد الظهر — « نادى يسوع بصوت عظيم . . . وأسلم الروح » . ويضيف لوقا إلى هذا — ويدل بقوله على عطف اليهود — « وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين لهذا المنظر ... رجعوا وهم يقرعون صدورهم »[١٤١] . واستطاع اثنان من اليهود

الرحماء ذوى النفوذ أن يحصلا على إذن من پيلاطس بإنزال جثة المسيح عن الصليب فأنزلاها وحفظاها بالند والمر ووارياها التراب .

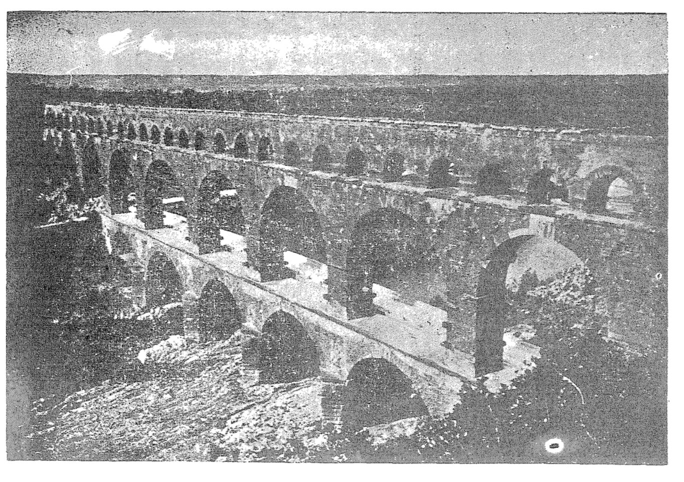
ترى هل مات حقا ؟ لقد كان اللصان اللدان إلى جانبه لا يزالان على قيد الحياة ، وقد كسر الجنود ساقهما حتى تتحمل أيديهما ثقل جسمهما ، فيؤثر ذلك فى حركة الدم ويقف القلب بعد قليل . غير أن هذا لم يحدث فى حالة عيسى ، وإن كان قد قيل إن جنديا طعنه فى قلبه بحربة ، فانبثق الدم من الجرح أولا ثم خرج بعده مصل الدم . وأبدى پيلاطس دهشته من أن يموت رجل بعد ست ساعات من صلبه ؛ ولم يوافق على أن يرفع جسد المسيح عن الصليب إلا بعد أن أكد له قائد المائة المكلف به أنه قد مات .

وبعد يومين من هذا الحادث زارت مريم المجدلية — وكان حبها ليسوع تمتزج به تلك النشوة العصبية التى تمتاز بها عواطفها كلها — قبر المسيح مع مريم أم يعقوب وسالومة فوجدنه فارغا ؛ فامتلأت قلوبهن خوفا وسرورا معاً ، وجرين لينقلن ذلك النبأ إلى تلاميذه : والتقين فى الطريق برجل حسبنه يسوع ، فانحنين احتراما له ، وأمسكن بقدميه : وفى وسعنا أن نتصور الأمل الذى انبعث فى النفوس الساذجة من هذا النبأ وما لقيه من ترحيب ؛ لقد قهر يسوع الموت وأثبت أنه هو المسيح المنتظر ابن الله ، وملأ ذلك النبأ قلوب « أهل الجليل » بنشوة جعلتهم على استعداد لأن يصدقوا أية معجزة وأى وحى . ويروى الرواة أن المسيح ظهر فى ذلك اليوم نفسه إلى تلميذين من تلاميذه فى الطريق الموصل إلى عمواس ، وتحدث إليهم ، وأكل معهم ، ولكن « أمسكت أعينهما عن معرفته » ثم «أخذ خبزاً وبارك وكسر : : : فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما »(١٤٢) . ورجع التلاميذ إلى الجليل فلما « رأوه » بعد قليل « سجدوا له ، ولكن بعضهم شكّوا »(١٤٣) . وبينا كانوا يصطادون السمك

رأوا المسيح ينضم إليهم ؛ فألقوا شباكهم ولم يستطيعوا أن يجذبوها من كثرة السمك[١٤٤] .

وجاء فى سفر أعمال الرسل أن المسيح صعد بجسمه إلى السماء بعد أربعين يوما من ظهوره إلى مريم المجدلية . لقد كانت فكرة « انتقال » القديس بجسمه وحياته إلى السماء من الأفكار الشائعة المألوفة بين اليهود ، فقد رووها عن موسى ، وأخنوخ ، وإليشع ، وإشعيا . وهكذا اختفى السيد المسيح بنفس الطريقة ، التى ظهر بها . ولكن يبدو أن معظم تلاميذه كانوا يعتقدون مخلصين أنه قد وجد معهم بجسمه بعد صلبه . وفى ذلك يقول لوقا : « ورجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم ، وكانوا كل حين فى الهيكل يسبحون ويباركون الله »[١٤٥](*) .

(*) نكرر هنا ما قلناه من قبل وهو أننا ننقل أقوال المؤلف بنصها ، وأنه ليس لنا أن نعلق عليها أو نبدل فيها . (المترجم) .



(شكل — ١٢) جسر المحطة فى نيمز

الباب السابع والعشرون

الرســـل

٣٠ – ٩٥ م

الفصل الأول

بطـــرس(*)

نشأت المسيحية من الإيحاء الغامض العجيب الخاص بحلول الملكوت ، واستمدت دوافعها من شخصية المسيح نفسه وتخيلاته ، كما استمدت قوتها

(*) إن أهم المراجع التي نعتمد عليها في كتابة تاريخ هذه الفترة هي « أعمال الرسل » . والمتفق عليه بوجه عام أن هذا السفر هو والإنجيل الثالث من وضع مؤلف واحد ، ولكن ليس ثمة ما يماثل هذا الإجماع على أن كاتب السفرين هو لوقا ، صديق بطرس الذي لم يكن من اليهود . وإذا كان سفر الأمثال لم يرد فيه شيء عن موت بولس ، فإن النسخة الأصلية منه تكون قد ألفت حوالي عام ٦٣ ليحاول بها صاحبها تسكين عداء الرومان للمسيحية ولبولس ؛ ولكن المرجح أن الكتاب قد ضمت إليه أجزاء أخرى كتبها مؤلف آخر جاء بعد مؤلفه الأول . ويكثر في هذا السفر ذكر خوارق الطبيعة ، ولكن قصته الأساسية يمكن اعتبارها تاريخاً صحيحاً(١) . وقد ضمت في القرن الثاني عدة « أعمال » و « رسائل » مختلفة مشكوك فيها حذفت من الكتاب المقدس تحتوي على عدد من القصص الخرافية تروي حياة الرسل بعد المسيح . وكانت هذه « الأعمال » بمثابة الروايات الخيالية التاريخية لذلك العصر ، ولم تكن بالضرورة محاولات يقصد بها الخداع والتمويه . وقد رفضتها الكنيسة المسيحية ، ولكن أتقياء المسيحيين آمنوا بها ، وخلطوها خلطاً متزايداً بالتاريخ الصحيح .

وينزع النقاد إلى الاعتقاد بصحة معظم ما جاء في رسالة بطرس الأولى وهي إحدى الرسائل السبع الواردة في العهد الجديد معزوة إلى الرسل الاثني عشر ، وننزع كذلك إلى القول بأن صاحب رسالات يوحنا هو نفسه صاحب الإنجيل الرابع الذي لا يزال مؤلفه مثاراً النزاع . أما باقي الرسائل فيرفضونها لأنهم يشكون كثيراً في صحتها .

من عقيدة البعث والحساب ، والوعد بحياة الخلود ، واتخذت صورة العقائد الثابتة فى لاهوت بولس ، ثم نمت باستيعابها العقائد والطقوس الوثنية ؛ وأصبحت كنيسة ظافرة منتصرة ، بعد أن ورثت ما امتازت به رومة من أنماط وعبقرية منظمة .

ويبدو أن الرسل كانوا جميعاً يؤمنون بأن المسيح سيعود بعد قليل ليقيم ملكوت السموات على الأرض . انظر إلى قول بطرس فى رسالته الأولى : « نهاية كل شىء قد اقتربت فتعقلوا واصحوا للصلوات »[٣] . وتقول رسالة يوحنا الأولى : « أيها الأولاد ، هى الساعة الأخيرة ، وكما سمعتم أن ضد المسيح يأتى قد صار الآن أضداد كثيرون (نيرون ، فسپازيان ، دومتيان) . من هنا نعلم أنها الساعة الأخيرة »[٤] . وكان الاعتقاد بنزول مسيح ليطهر الأرض ويقيم ملكوت الله ، ويبعث الناس بأجسامهم ، وبعودته إلى الأرض ، هو القاعدة الأساسية للدين المسيحى فى أوائل عهده . على أن هذه العقائد لم تحل بين الرسل وبين استمرارهم فى التمسك بالدين اليهودى . وشاهد ذلك ما جاء فى أعمال الرسل : « وكانوا كل يوم يواظبون فى الهيكل بنفس واحدة »[٥] وأطاعوا قوانين التغذية والحفلات[٦] ، واقتصروا فى أول الأمر على دعوة اليهود وحدهم إلى دينهم ، وكثيرا ما كانوا يخطبون فيهم فى الهيكل[٧] .

وكانوا يعتقدون أنهم قد تلقوا عن المسيح أو عن الروح القدس قوى عجيبة من الإلهام ، وشفاء الأمراض والأقوال . وأقبل عليهم كثيرون من المرضى والعجزة ، ويقول مرقس[٨] إن بعضهم شفوا حين مسحوا بالزيت — وكان هذا المسح على الدوام من وسائل العلاج المنتشرة فى بلاد الشرق . ويصور مؤلف سفر أعمال الرسل صورة مؤثرة للاشتراكية القائمة على الثقة المتبادلة التى كانت سائدة بين هؤلاء المسيحيين الأولين إذ يقول :

« وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، ولم يكن أحد

يقول إن شيئا من أمواله له بل كان عندهم كل شيء مشتركا . . . لم يكن فيهم أحد محتاجا لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل ، فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج »[٩] .

ولما كثر عدد المهتدين ، وكثر ما تحت أيدى الرسل من الأموال عينوا سبعة من شمامسة الكنيسة للإشراف على شئون هذه الجماعة ؛ وظل رؤساء اليهود فترة من الزمن لا يعارضون قيام هذه الشيعة لصغرها وانتفاء الأذى من وجودها ، فلما تضاعف عدد « الناصريين » (النصارى) فى بضع سنين قلائل وقفز عددهم من ١٢٠ إلى ٨٠٠٠[١٠](*) استولى الرعب على قلب الكهنة ، فقبض على بطرس وغيره وجيء بهم أمام السنهدرين لمحاكمتهم . وكان السنهدرين يريد أن يحكم بإعدامهم ، ولكن فريسيا يدعى غمالائيل – أكبر الظن أنه معلم بولس – أشار على المجلس أن يؤجل الحكم ؛ ثم وفق بين الرأيين بأن جلد المقبوض عليهم وأطلق سراحهم وحدث بعد ذلك بزمن قليل (٣٠ ؟ . م) أن استدعى أحد الشمامسة الذين عينوا للإشراف على جماعة المهتدين واسمه اصطفانوس (أو استيفن) للمثول أمام السنهدرين واتهم بأنه « يتكلم بكلام تجديف على موسى وعلى الله »[١١] ، فدافع الرجل عن نفسه دفاعا قويا غير مبال بما يتهدده من أخطار :

« يا قساة القلوب وغير المختونين بالقلوب والآذان ، أنتم دائما تقاومون الروح القدس ، كما كان آباؤكم كذلك أنتم ! أى الأنبياء لم يضطهده آباؤكم ، وقد قتلوا الذين سبقوا فأنبأوا بمجيء البار الذى أنتم الآن صرتم

(*) فى المرجع الذى يشير إليه المؤلف وهو أعمال الرسل ٤ : ٤ أن عددهم كان خمسة آلاف . (المترجم)

مسلميه وقاتليه ، الذين أخذتم الناموس بترتيت ملائكة ولم تحفظوه »(١٢)(*).

وأثار هذا الدفاع القوى غضب السنهدرين فأمر بأن يجر إلى خارج المدينة ويرجم بالحجارة . وكان شاب فارسى يدعى شاول يساعد على هذا الهجوم ؛ وبعد ذلك صار هذا الشاب ينتقل من بيت إلى بيت فى أورشليم ويقبض على أتباع « الكنيسة » ويزجهم فى السجن(١٣) .

وفرّ اليهود المهتدون ذوو الأسمـاء والثقافة اليونانية الذين يتزعمهم اصطفانوس إلى السامرة وأنطاكية وأنشأوا فيها جماعات مسيحية قوية . أما معظم الرسل الذين يبدو أنهم سلموا من الاضطهاد لأنهم ظلوا يراعون الناموس ، فقد بقوا فى أورشليم مع المسيحيين اليهوديين . وبينا كان بطرس يحمل الإنجيل إلى البلاد اليهودية صار يعقوب « العادل » « أخو الرب » رئيس الجماعة المقيمة فى أورشليم بعد أن قلّ عددها ونقصت مواردها . وكان يعقوب يبشر بالناموس بكلّ ما فيه من صرامة ، ولم يكن يقلّ عن الإسينيين تقشفاً وزهداً ، فلم يكن يأكل اللحم ، أو يشرب الخمر ، ولم يكن له إلا ثوب واحد ، ولم يقصّ شعره أو يحلق لحيته قط . وظل المسيحيون تحت قيادته سبعة أعوام لايمسهم أذى . ثم حدث حوالى عام ٤١ أن قُتل رجل يدعى يعقوب بن زبيدى ، فقُبض على بطرس ولكنه فر . ثم قُتل يعقوب العادل نفسه فى عام ٦٢ . وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت ثار اليهود على رومة . وأيقن المسيحيون المقيمون فى أورشليم أن « نهاية العالم » قد دنت ، فلم يأبهوا بالشئون السياسية ، وخرجوا من المدينة وأقاموا فى بلاد الوثنية الضالعة مع رومة والقائمة على الضفة البعيدة من نهر الأردن . وافترقت اليهودية والمسيحية من تلك الساعة ، فاتهم اليهود

(*) لايبعد أن تكون خطب اصطفانوس ، وبطرس ، وبولس وغيرهم كما وردت فى سفر أعمال الرسل من اختراع مؤلف هذا السفر كما جرت بذلك عادة المؤرخين الأقدمين .

المسيحيين بالخيانة وخور العزيمة ، ورحب المسيحيون بتدمير الهيكل على يد تيطس تحقيقاً لنبوءة المسيح . واتقدت نار الحقد فى قلوب أتباع كلا الدينين ، وأملت عليهم بعض ما كتبوا من أعظم آدابهم تقى وصلاحاً .

وأخذت المسيحية اليهودية من ذلك الوقت يقل عدد أتباعها وتضعف قوتها وتترك الدين الجديد للعقلية اليونانية تشكله وتصبغه بصبغتها : وأصمت الجليل ، التى قضى فيها المسيح كل حياته تقريباً ، والتى عفت منها ذكرى المجدلية وغيرها من النساء اللاتى كن من بين أتباعه الأولين ، أصمت أذنها عن سماع الوعاظ الذين جاءوها يدعون أهلها للدخول فى دين الناصرى ابن الله . ذلك أن اليهود المتعطشين إلى الحرية ، والذين كانوا يذكرون كل يوم فى صلواتهم أن « الله واحد » لم يستسيغوا فكرة « المسيح » المنتظر الذى لا يأبه بكفاحهم فى سبيل الاستقلال ، ورأوا أن من العار أن يقال إن إلهاً قــد ولد فى كهف أو اصطبل فى إحدى قراهم . وظلت المسيحية اليهودية قائمة مدى خمسة قرون بين طائفة قليلة من المسيحيين السريان المسمين بالإبيونيم (« الفقراء ») الذين كانوا يجمعون بين التقشف المسيحى والناموس اليهودى الكامل ؛ فلما كان آخر القرن الثانى الميلادى حكمت عليهم الكنيسة المسيحية بالكفر وأخرجتهم من حظيرتها .

وكان الرسل والتلاميذ فى هــذه الأثناء قد نشروا الإنجيل بين اليهود المشتتين[١٤] بنوع خاص وهم المنتشرون فيما بين دمشق ورومة . فهدى فليب عدداً من أهل السامرة وقيصرية ، وأوجد يوحنا جالية مسيحية قوية فى إفسوس وأخذ بطرس يعظ فى مدن سوريا . وفعل بطرس ما كان يفعله معظم الرسل فاصطحب معه فى أثناء تجواله « أختا » لتكون بمثابة زوجة له ومعينة[١٥] . وبلغ نجاحه فى شفاء المرضى حداً أغرى ساحراً يدعى سمعان المجوسى أن يعرض عليه مالا ليشركه معه فى قواه العجيبة . ففى يافا أقام تابيثا وكان يبدو أنها قد

ماتت ، وفى قيصرية هدى إلى المسيحية قائداً رومانياً على مائة . وجاء فى سفر أعمال الرسل أنه رأى رؤيا اقتنع على أثرها أن عليه أن يقبل المهتدين من الوثنيين واليهود على السواء ، ثم اقتصر من ذلك الوقت على تعميد المهتدين من غير اليهود بدل أن يعمدهم ويختنهم معا ، وذلك إذا استثينا بعض حالات طريفـــة . وفى وسعنا أن نحس بما كان يعمر قلوب هؤلاء المبشرين الأولين من حماسة إذا أطلعنا على رسالة بطرس الأولى :

« بطرس رسول يسوع المسيح إلى المتغربين من شتات بنطس ، وغلاطية ، وكبدوكية وآسيا ، وبيثينية المختارين . . . لتكثر لكم النعمة والسلام . . . أيها الأحباء أطلب إليكم كغرباء ونزلاء . . . أن تكون سيرتكم بين الأمم حسنة لكى . . . يمجدوا الله فى يوم الافتقاد من أجـــل أعمالكم الحسنة التى يلاحظونها . . . فاخضعوا لكل ترتيب بشرى من أجل الرب . . . كأحرار وليس كالذين الحرية عندهم سترة للشر . . . أيها الخدام كونوا خاضعين بكل هيبة ، ليس للصالحين المترفقين فقط بل للعتفاء أيضاً . . . كذلكن أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن حتى وإن كان البعض لا يطيعون الكلمة يربحون بسيرة النساء بدون كلمة ملاحظين سيرتكن الطاهرة بخوف . ولا تكن زينتكن الزينة الخارجية من ضفر الشعر والتحلى بالذهب ولبس الثياب ، بل . . . زينة الروح الوديع الهادئ . . . كذلكم أيها الرجال كونوا ساكنين بحسب الفطنة مع الإناء النسائى كالأضعف معطين إياهن كرامة كالوارثات أيضاً معكم نعمة الحيوة . . . غير مجازين عن شر بشر . . . ولكن قبل كل شىء لتكن محبتكم بعضـــكم لبعض شديدة لأن المحبة تستر كثرة من الخطايا »(١٦) .

ولسنا نعرف متى شق بطرس طريقه إلى رومة أو المراحل التى وصل بها إلى تلك المدينة . فأما جيروم (حوالى ٣٩٠) فيؤرخ وصوله إليها بعام ٤١ م . وقد بقيت الرواية القائلة بأنه كانت له اليد الطولى فى إنشاء الجالية المسيحية

فى عاصمة الدولة الرومانية صامدة للنقد[١٧] : ويحدثنا لكتانتيوس Lactantius عن قدوم بطرس إلى رومة فى عهد نيرون[١٨] ، وأكبر الظن أن الرسول زار رومة عدة مرات . وكان وهو طليق ، وبولس وهو سجين ، يبذلان ما وسعهما من جهد ويتنافسان لهداية أهلها حتى استشهد كلاهما فى سبيل هذه الغاية ، ولعل استشهادهما كان فى عام واحد هو عام ٦٤[١٩] . ويروى أرجن أن بطرس « صلب ورأسه مدلى إلى أسفل ، لأنه طلب أن يعذب بهذه الطريقة »[٢٠] ، ولعله كان يأمل أن يكون الموت بها أسرع إليه أو (كما يقول المؤمنون) لأنه يرى أنه غير خليق بأن يموت بالطريقة التى مات بها المسيح . وتقول النصوص القديمة إن زوجته قتلت معه ، وأنه أرغم على أن يراها تساق للقتل[٢١] . وتحدد إحدى القصص المتأخرة حلبة نيرون ، القائمة فى ميدان الفاتكان ، موضعاً لمقتله . وفى هذا المكان شيدت كنيسة القديس بطرس ، وقيل إنها تضم عظامه .

وما من شك فى أن تجواله فى آسية الصغرى ورومة قد ساعد على الاحتفاظ بكثير من العناصر اليهودية فى الدين المسيحى : فقد ورث هذا الدين عنه وعن غيره من الرسل ما فى الدين اليهودى من توحيد ، وتزمت ، واعتقاد فى البعث والنشور ؛ وهذه الرحلات ورحلات بولس هى التى جعلت العهد القديم الكتاب المقدس الوحيد الذى عرفته المسيحية فى القرن الأول ؛ وظلت المجامع اليهودية أهم الأماكن التى تبث فيها الدعوة للمسيحية كما ظل اليهود أهم الجماعات التى تبث بينهم هذه الدعوة حتى عام ٧٠ م . ولهذا انتقلت إلى الطقوس المسيحية أشكال العبادات العبرانية واحتفالاتها وملابسها . وتسامى حَمَل بسكال فصار هو حمل الله المكفر عن الخطايا فى القداس الكاثوليكى . كذلك أخذت المسيحية عن أساليب اليهود فى إدارة المجامع تنصيب جماعة من الكبراء (برز بتيرى أى قساوسة) لتولى شئون الكنائس . وقبلت المسيحية فيها كثيراً من الأعياد اليهودية كعيد الفصح وعيد العنصرة ، وإن كانت قد غيرت أشكالها وتواريخها : وقد ساعد تشتت اليهود

فى أقطار العالم على انتشار المسيحية ، وكان مما مهد السبيل لهذا الانتشار كثرة انتقال اليهود من مدينة إلى مدينة ، والصلات القائمة بينهم فى جميع أنحاء أوربا ، وتجارتهم الواسعة ، والطرق الرومانية المعبدة ، والسلم الرومانية . وكانت المسيحية حسب تعاليم المسيح وبطرس يهودية ، ثم أصبحت فى تعاليم بولس نصف يونانية ، وأضحت فى المذهب الكاثوليكى نصف رومانية ، ثم عاد إليها العنصر اليهودى والقوة اليهودية حين دخلها المذهب البروتستنتى .

الفصل الثاني

بولس

١ — المضطهد

ولد واضع اللاهوت المسيحي في طرسوس من أعمال كليكيا حوالى السنة العاشرة من التاريخ الميلادي . وكان أبوه من الفريسيين ، ونشأ ابنه على مبادئ هذه الشيعة الدينية المتحمسة ؛ وظل رسول الأمم طوال حياته يعد نفسه فريسياً حتى بعد أن نبذ الشريعة اليهودية . كذلك كان والده مواطناً رومانياً ، أورث ابنه هذا الحق الثمين . وأكبر الظن أن اسم بولس كان هو اللفظ اليوناني المرادف للاسم العبري شاول ، ولهذا ظل الاسمان يطلقان على هذا الرسول منذ طفولته(٢٢) . ولم يتلق تعليماً راقياً ولم يدرس الكتب اليونانية لأن الفريسيين على بكرة أبيهم لم يكونوا يسمحون بأن يتأدب أبناؤهم بهذ الأدب اليوناني الخالص ، ولو أن كاتب الرسائل درس اليونانية لما كتبها بهذا الأسلوب اليوناني الركيك . على أنه عرف كيف يتحدث بهذه اللغة بطلاقة تمكنه من أن يخاطب بها المستمعين له من الأثينيين ، وأن يشير أحياناً إلى بعض الفقرات المشهورة في الأدب اليوناني . ومن حقنا أن نعتقد أن بعض المبادئ الدينية والأخلاقية الرواقية انتقلت من البيئة المدرسية في طرسوس إلى مسيحية بولس . فهو يستعمل اللفظ الرواقي نيوما (neuma) أي النَّفَس للدلالة على المعنى الذي يستعمل فيه مترجموه الإنجليز لفظ Spirit (الروح) . وكان في طرسوس كما كان في معظم المدن اليونانية أتباع للأرفية ، وغيرها من العقائد الخفية ، يعتقدون أن الله الذي يعبدونه قد مات من أجلهم ، ثم قام من قبره ، وإنه إذا دعى بإيمان حق ،

وصحب الدعاء الطقوس الصحيحة استجاب لهم وأنجاهم من الجحيم ، وأشركهم معه فى موهبة الحياة الخالدة المباركة[٢٣] . وهذه الأديان الغامضة الخفية هى التى أعدت اليونان لاستقبال بولس ، وأعدت بولس لدعوة اليونان .

وبعد أن تعلم الشاب حرفة صنع الخيام ، وتلقى العلم فى المجمع الدينى القائم فى المدينة ، أرسله أبوه إلى أورشليم وهناك كما يقول بولس نفسه : « تعلم عند قدمى غمالائيل على طريقة الناموس الدقيقة »[٢٤] . وكان المشهور عن غمالائيل أنه حفيد هلل ، وقد خلفه فى رياسة السنهدرين . وواصل السنّة القديمة سنة تفسير الناموس تفسيراً ليناً راعى فيه ضعف النفس البشرية . غير أن الفريسيين الذين كانوا أكثر منه تزمتاً هالهم أن يجدوه ينظر نظرة الإعجاب والتقدير للنساء الوثنيات أنفسهن[٢٥] . وقد بلغ من علمه أن اليهود ، الذين يجلون العلماء أعظم الإجلال ، أطلقوا عليه اسم « جمال الناموس » ، ولقبوه بما لم يلقب به إلا ستة رجال من بعده وهو « الربان » أى سيدنا . واتخذ بولس عنه وعن غيره تلك الطريقة الحصيفة ، والجدلية السوفسطائية فى بعض الأحيان ، فى تفسير الكتاب المقدس ، وهى التى ترى واضحة فى التلمود . وقد بقى بولس إلى آخر أيامه يهودياً فى عقله وخلقه على الرغم من تعلمه أوليات الهلنية ، ولم ينطق بكلمة يشتم منها أنه يشك فى أن شرائع موسى موحى بها من عند الله ، وظل يعتقد فى عزة وفخار كما يعتقد اليهود أن اختيار الله وحده هو طريق النجاة .

وهو يصف نفسه بقوله : « فى الحضرة ذليل بينكم »[٢٦] ويزيد على ذلك : « ولئلا أرتفع بفرط الإعلانات أعطيت شوكة فى الجسد ملاك الشيطان ليلطمنى لئلا أرتفع »[٢٧] ولا يزيد فى وصف نفسه على هذا . وتصوره الروايات المأثورة وهو فى سن الخمسين رجلا زاهداً متقشفاً مقوس الجسم ، أصلع الرأس ، ملتحياً عريض الجبهة ، أصفر الوجه صارمه ، نفاذ العينين . وعلى هذا النحو تخيله درور

فى صورة تعد من أروع آيات الفن فى العالم كله ؛ ولكن الحقيقة أن هذه الصور التى تمثله أدب وفن لا تاريخ .

أما عقله فكان من طراز شائع كثيراً بين اليهود : كان فيه من نفاذ البصيرة وشدة الانفعال أكثر مما فيه من الدماثة والظرف ؛ وكان فيه من الإحساس القوى والخيال أكثر مما فيه من نزاهة الحكم والنظرة الموضوعية إلى الأشياء . وكان قوياً فى العمل لأنه كان ضيق التفكير . وكان رجلا « أسكرته النشوة الإلهية » أكثر مما أسكرت اسپنوزا نفسه ، يلتهب صدره بالحماسة الدينية بالمعنى الحرفى للفظ الالتهاب — لقد كان صدره ينطوى « فى داخله على الإله » نفسه .

وكان يعتقد أنه ملهم موحى إليه قادر على فعل المعجزات . وكان إلى هذا ذا طبيعة عملية ، قادراً على الجد والتنظيم ، صبوراً إلى أقصى حد فى تأسيس العشيرة المسيحية والمحافظة عليها . وكانت عيوبه وفضائله شديدة الصلة بعضها ببعض لا غنى لكلتيهما عن الأخرى شأنه فى هذا شأن الكثيرين من الرجال . فقد كان شجاعا مندفعا ، متعسفا حاسما فى أحكامه ، مسيطراً مجداً ، متعصبا مبتدعا ، فخوراً أمام الناس متواضعا لله ، عنيفا فى غضبه قادراً على أن يستشعر أرق الحب والرحمة ، يشير على أتباعه أن يباركوا من يضطهدونهم ، ولكنه يتمنى لأعـــدائه الذين يختنون أن « يُقَطَّعوا أيضاً »[٢٨] . وكان يدرك أسباب ضعفه ، ويحاول الخلاص منها ، ويقول لمن هداهم « ليتكم تحتملون غباوتى قليلا »[٢٩] . وتلخص الحاشية التى كتبت على رسالته الأولى لأهل كورنثوس أخلاقه حين تقول : « السلام بيدى أنا بولس ، إن كان أحد لا يحب الرب يسوع المسيح فليكن أنا ثيما ! ماران أثا ! نعمة الرب يسوع المسيح معكم ، محبتى مع جميعكم » . لقد كان الرجل ما لابد أن يكون لكى يستطيع أن يفعل ما فعل .

وبدأ بمهاجمة المسيحية دفاعا عن اليهودية ، وانتهى بنبذ اليهودية دفاعا عن المسيح ، وكان فى كل لحظة من لحظاته داعيا ورسولا . فلما هاله احتقار اصطفانوس

للناموس انضم إلى قتلته ، وتزعم الاضطهاد الأول للمسيحين فى أورشليم ؛ ولما سمع أن الدين الجديد أصبح له فى دمشق أتباع كثيرون « تقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم » (٣١ ؟ م)[٣٠] ؛ ولربما كان تحمسه لاضطهادهم ناشئا من شكوك خفية سرت وقتئذ فى نفسه ؛ وكان فى مقدوره أن يقسو ، ولكن هذه القسوة لم تكن من النوع الذى لا يعقبه ندم . ولعل منظر اصطفانوس وهو يرجم بالحجارة حتى يموت ، ولعل لمحات من ذكريات الشباب — ذكريات صلب المسيح — كانت تعود إلى خياله فتضطرب بها ذاكرته وتثقل عليه فى سفره ، وتهيج خياله . ولما اقتربت جماعته من دمشق ، كما جاء فى سفر أعمال الرسل :

« فبغتة أبرق حوله نور من السماء ، فسقط على الأرض وسمع صوتا قائلا له شاول ، شاول ، لماذا تضطهدنى ؟ فقال من أنت يا سيد ؟ فقال الرب(*) أنا يسوع الذى أنت تضطهده . . . . وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً . فنهض شاول من الأرض وكان وهو مفتوح العينين لا يبصر أحداً ، فاقتادوه بيده وأدخلوه إلى دمشق ، وبقى ثلاثة أيام لا يبصر . وليس فى وسع أحد أن يعرف العوامل التى أحدثت هذه التجربة وما أعقبها من انقلاب أساسى فى طبيعة الرجل . ولعل ما قاساه من التعب فى سفره الشاق الطويل فى شمس الصحراء اللافحة ، أو لعل ومضة برق فى السماء ناشئة من شدة الحرارة ، لعل شيئا من هذا أو ذاك كله قد أثر فى جسم ضعيف ربما كان مصابا بالصرع ، وفى عقل يعذبه الشك والإجرام ، فدفع بالعملية التى كانت تجرى فى عقله الباطن إلى غايتها ، وأصبح ذلك المنكر الشديد الانفعال

(*) فى الأصل الإنجليزى « الصوت » ولكن لفظ « الرب » هو الوارد فى الترجمة العربية . (المترجم)

أقدر الداعين إلى مسيح اصطفانوس . وكان الجو اليونانى الذى يحيط به فى طرسوس يتحدث عن منقذ ينتشل البشرية ؛ كما كانت علوم بنى جنسة من اليهود تتحدث عن حياة (مسيح) منتظر ، ولم لا يكون يسوع صاحب الشخصية العجيبة الغامضة الفتانة ، الذى لا يتردد الناس فى استقبال الموت من أجله ، هو ذلك المسيح المنتظر ؟ فلما أحس فى آخر سفره وهو لا يزال ضعيفاً وأعمى بيدى يهودى مهتد ، رحيمتين ، تلمستان وجهه وتسكنان ألمه « فللوقت وقع من عينيه شىء كأنه قشور ، فأبصر فى الحال وقام واعتمد ، وتناول طعاما فتقوى »[٣٢] . وبعد بضعة أيام من ذلك الوقت دخل مجامع دمشق وقال للمجتمعين فيها إن عيسى ابن الله .

٢ — المبشر

وأصدر حاكم دمشق ، بإيعاز اليهود الذين ساءهم ما فعل بولس ، أمراً بالقبض عليه ، فما كان من أصدقائه الجدد إلا أن أنزلوه فى سلة من فوق أسوار المدينة . ويقول هو إنه ظل ثلاثة أيام يدعو إلى المسيح فى قرى بلاد العرب ، ولما عاد إلى أورشليم عفا عنه بطرس ، واتخذه صديقاً له ، وعاش معه فترة من الزمان . وكان معظم الرسل يرتابون فيه ، ولكن برنابا ، وهو مهتد حديث ، رحب به وقدم له كثيراً من المعونة ، وأقنع كنيسة أورشليم أن تحمل مضطهدها القديم بشرى مجىء المسيح الذى سيقيم عما قريب ملكوت الله . وحاول اليهود ، الذين يتكلمون اللغة اليونانية والذى جاءهم بالإنجيل ، أن يقتلوه ، ولعل الرسل خشوا أن تعرضهم حماسته الشديدة للخطر فأرسلوه إلى طرسوس .

وظل فى مسقط رأسه ثمانى سنين لا يعرف عنه التاريخ شيئاً ، ولعله شعر مرة أخرى بأثر التصوف الدينى المنتشر بين اليونان وما فيه من تبشير بمجىء المنقذ . ثم أقبل عليه برنابا وطلب إليه أن يساعده على خدمة الدين فى أنطاكية .

وأخذ الرجلان يعملان معاً (٤٣ — ٤٤ ؟) فهديا كثيراً من الناس ، فلم تلبث أنطاكية أن فاقت سائر المدن فى عدد من بها من المسيحيين . وفيها أطلق الوثنيون على « المؤمنين » ، أو « التلاميذ » أو « القديسين » كما كانوا يسمون أنفسهم اسم **الكرستيانوى** أى أتباع المسيح أى الإنسان الممسوح . وهنا أيضاً انضمت « الأمم » أى غير اليهود إلى الدين الجديد . وكان معظم هؤلاء ممن « يخشون الله » . وكانت كثرتهم من النساء اللاتى آمن ببعض طقوس اليهودية وبما فيها من دعوة إلى الوحدانية .

ولم يكن الإخوة فى أنطاكية فقراء كأمثالهم فى أورشليم ، فقد كانت فيهم أقلية لا بأس بها من طبقة التجار ، فاندفعوا بقوة هذه الحركة الفتية الناشئة إلى جمع قدر من المال ليستعينوا به على نشر الإنجيل ، « فوضع » رؤساء الكنيسة « أيديهم » على برنابا وبولس وبعثوهما فيما يسميه التاريخ « رحلة القديس بولس التبشيرية الأولى » (٤٥ — ٤٧ ؟) وهى تسمية تستخف بشأن برنابا . وأبحر الرجلان إلى قبرص ، ولقيا نجاحاً مشجعاً بين اليهود الكثيرين المقيمين فى تلك الجزيرة . ثم ركبا السفينة من يافوس إلى برجا فى بمفيلية واجتازا طرقا جبلية وعرة تعرضا فيها للخطر حتى وصلا إلى أنطاكية فى پسيديا Pisidia . واستمع إليهما الكنيس ورحب بهما فلما بدأا يعظان « الأمم » كما يعظان اليهود غضب عليهما اليهود المتمسكون بدينهم وحملوا موظفى البلدية على إخراج المبشرين من المدينة . ونشأت هذه الصعاب نفسها فى إقونيوم Iconium ، ورجم بولس فى لسترا بالحجارة وجر على وجهه إلى خارج المدينة ، وترك فى العراء ظناً من أعدائه أنه مات . بيد أن قلبى بولس وبرنابا كانا لا يزالان يفيضان غبطة بروح القدس فحملا الإنجيل إلى دوربى Derbe ثم عادا بالطريق نفسه إلى برجا وأبحرا منها إلى أنطاكية السورية ، وفيها واجهتهما أعقد مشكلة فى تاريخ المسيحية .

ذلك أن بعض التابعين الممتازين فى دمشق سمعوا أن المبشرين كانا يقبلان

المهتدين من « الأمم » دون أن يحتما عليهم الختان ، فجاءوا إلى أنطاكية « يعلمون الإخوة أنه إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا »[٣٣] . ولم يكن الختان عند اليهودى من الطقوس التى توجبها صحة الجسم ، بقدر ما كان رمزاً مقدساً لعهده القديم الذى عاهد عليه الله ، ولهذا روع اليهودى المسيحى حين فكر فى نكث ذلك العهد . وأدرك بولس وبرنابا أنه إذا نال هؤلاء المبعوثون بغيتهم فإن المسيحية لن يقبلها إلا عدد قليل من غير اليهود ، وأنها ستبقى « بدعة يهودية » (كما سماها هينى فيما بعد) لا تلبث أن تزول بعد قرن من الزمان . ومن أجل هذا سافرا إلى أورشليم (٥٠ ؟) وعرضا المسألة على بساط البحث مع سائر الرسل ، وكانوا كلهم تقريبا لا يزالون يتعبدون مخلصين فى الهيكل . فأما يعقوب فقد تردد كثيراً فى قبول رأيهما ، وأما بطرس فقد دافع عن المبشرين ، واتفق الجميع آخر الأمر على ألا يطلب إلى المهتدين الوثنيين أكثر من أن يقلعوا عن الزنى ، وعن أكل المخنوقة والدم وما ذبح على النصب[٣٤] . ويبدو أن بولس يسر الأمر بأن وعد العشيرة المسيحية المعدمة فى دمشق بشىء من المال المطرد الزيادة فى كنيسة أنطاكية[٣٥] .

لكن هذه النتيجة كان لها من الخطر ما يحول دون البت فيها بهذه السهولة . فقد جاءت من أورشليم إلى أنطاكية طائفة أخرى من المسيحيين اليهود المستمسكين بدينهم ، ورأت بطرس يأكل مع الكفرة وأقنعته بأن ينفصل هو واليهود الذين اعتنقوا المسيحية عن المهتدين غير المختتنين ، ولسنا نعرف رأى بطرس فى هذه المسألة ، ولكن بولس يخبرنا أنه « قاوم بطرس مواجهة » فى أنطاكية[٣٦] ، واتهمه بالرياء ؛ ولعل بطرس لم يرغب ، كما لم يرغب بولس ، فى أكثر من أن تكون « كل الأشياء لكل الناس » .

والراجح أن بولس قام برحلته التبشيرية الثانية فى عام ٥٠ من التاريخ الميلادى . وكان قد اختلف مع برنابا الذى اختفى وقتئذ فى موطنه بجزيرة قبرص

ولم يعد له ذكر فى التاريخ . وعاد بولس يزور مرة أخرى بنى ملته فى آسية الصغرى ، وضم إليه فى لسترا تلميذاً يدعى تيموثاوس أحبه من كل قلبه الذى ظل منذ زمن طويل متعطشا إلى من يحب . وسافرا معا واجتازا فريجيا وغلاطية حتى وصلا شمالا إلى اسكندرية ترواس ؛ وفيها تعرف بولس بلوقا وهو ممن اعتنقوا اليهودية من غير المختتنين ؛ وكان لوقا رجلا طيب القلب كبيرَ العقل وهو فى أكبر الظن صاحب الإنجيل الثالث وسفر أعمال الرسل — وهما السفران اللذان خففا من حدة النزاع الذى امتاز به تاريخ المسيحية منذ بدايته . ثم أبحر بولس وتيموثاوس ومساعد آخر يدعى سيلاس من ترواس إلى مقدونية ، ووطئت أقدامهم لأول مرة أرضا أوربية . فلما وصلا إلى فلبى ، وهى المكان الذى هزم فيه أنطونيوس بروتس قبض عليهما بتهمة تكدير السلام ، وجلدا ، وزجا فى السجن ، ثم أطلق سراحهما حين عرف أنهما مواطنان رومانيان . وانتقلا من فلبى إلى تسالونيكى (سالونيك) ، وفيها دخل بولس المجمع وظل ثلاثة أسبات يخطب فى اليهود ، فآمن بدعوته عدد قليل منهم ، وأسسوا فيها كنيسة لهم ، وأثار غيرهم أهل المدينة عليه واتهموه بأنه يدعو لملك جديد ، واضطر أصدقاؤه أن يخرجوه خلسة إلى بيريه فى أثناء الليل . وهناك تقبل اليهود الدعوة بقبول حسن ، ولكن أهل تسالونيكى جاءوا يتهمون بولس بأنه عدو لليهودية ، فأقلع منها إلى أثينة على ظهر سفينة (٥١ ؟) وحيداً كسير القلب كاسف البال .

وهنا فى قلب الديانة الوثنية وعلومها وفلسفتها ألفى نفسه بلا صديق ، ولم يكن فى هذا البلد إلا عدد قليل من اليهود الذين يستمعون إلى مواعظه . وكان عليه أن يقف بين الناس فى السوق العامة كما يفعل أى خطيب حديث يريد أن يتحدث إلى الجماهير ، وينافس عشرات الخطباء فى إيصال دعوته إلى آذان المارة . وكان بعض من يستمعون إليه يناقشونه فيما يقول ، وبعضهم الآخر يسخرون منه ويسألون : « ترى ماذا يريد هذا المهذار أن يقول ؟ »[٣٧] : وأظهر عدد من

الناس اهتماما بقوله ، وأخذوه إلى الأريوبجس أو أكمة المريخ ليجد مكانا أهدأ من السوق العامة يسمع الناس فيه صوته . وقال لهم إنه رأى فى أثينة مذبحا نقش عليه « لإله مجهول » . وأكبر الظن أن هذا النقش كان يعبر عن رغبة من نقشوه فى التسبيح بحمد إله لا يعرفون اسمه على وجه التحقيق ، أو فى استرضاء هذا الإله ، أو طلب معونته ؛ ولكن بولس فسره بأنه اعتراف منهم بجهلهم كنه الله ، ثم أضاف إلى ذلك هذه الأقوال البليغة : « فالذى تتقونه وأنتم تجهلونه ، هذا أنا أنادى لكم به ، الإله الذى خلق العالم وكل ما فيه ، هذا إذاً هو رب السماء والأرض لا يسكن فى هياكل مصنوعة بالأيادى . . . هو يعطى الجميع حياة ونفسا وكل شىء . . . وصنع من دم واحد كل أمة من الناس . . . لكى يطلبوا الله لعلهم يلتمسونه فيجدونه مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيداً لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد ، كما قال بعض شعرائكم أيضاً(*) ، لأننا أيضا ذريته ، فإذاً نحن ذرية الله لا ينبغى أن نظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر نقش صناعة واختراع إنسان . فالله الآن يأمر جميع الناس فى كل مكان أن يتوبوا متغاضيا عن أزمنة الجهل ، لأنه أقام يوما هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينه مقدما للجميع إيمانا إذ أقامه من الأموات »[٣٨] .

ولقد كانت جرأة منه أن يحاول التوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية(**) ومع هذا فإنه لم يتأثر بهذه المحاولة إلا عدد قليل ؛ ذلك أن ما سمعه الأثينيون من الآراء قبل ذلك الوقت قد بلغ من الكثرة ما يحول بينهم وبين التحمس لما يلقى إليهم منها أيا كان شأنه . وغادر بولس المدينة يائسا وذهب إلى كورنثة ، وكانت التجارة قد جمعت فيها جالية كبيرة من

(*) ينقل بولس هذه العبارة من « ترنيمة زيوس » لكلينثيز أو من فينومينا لأراتس Aratus' phainom'na

(**) لعل من واجبنا أن نعزو هذه الخطبة إلى مؤلف سفر أعمال الرسل المتأدب بأدب اليونان .

اليهود . وأقام فى هذه المدينة ثمانية عشر شهراً (٥١ — ٥٢ ؟ م) يكسب فيها قوته بصنع الخيام ويخطب كل سبت فى كنيسها . وأفلح فى هداية رئيس الكنيس ، وعدد غيره من الأفراد بلغ من الكثرة حداً ارتاع له اليهود فاتهموا بولس أمام غاليون Gallio الحاكم الرومانى بأنه يستميل « الناس على أن يعبدوا الله بخلاف الناموس » . فأجابهم غاليون بقوله : « إذا كان مسألة عن كلمة وأسماء ، وناموسكم ، فتبصرون أنتم ، لأنى لست أشاء أن أكون قاضيا لهذه الأمور » ، ثم طردهم من المحكمة . وأخذت الطائفتان تتضاربان « ولكن لم يهم غاليون شىء من ذلك »[٣٩] . وعرض بولس الإنجيل على غير اليهود من أهل كورنثة ودخل كثيرون منهم فى دينه ، ولعل المسيحية قد بدت لهم أنها صورة أخرى من الأديان الخفية ، التى طالما حدثتهم عن المنقذين الذين يبعثون بعد موتهم ، ولعلهم حين قبلوها قد مزجوها بتلك العقائد القديمة ، وأثروا فى بولس فجعلوه يفسر المسيحية تفسيراً يألفه العقل الهلنستى .

ثم انتقل بولس من كورنثه إلى أورشليم (٥٣ ؟) ليسلم على الإخوة . ولكنه لم يلبث إلا قليلا حتى بدأ سفرته التبشيرية الثالثة ، وزار فيها الجاليات المسيحية فى أنطاكية وآسية الصغرى ، وبعث فيهم القوة والعزيمة بحماسته وثقته . وقضى فى إفسوس عامين ، وأتى فيها بأمثال عجيبة جعلت كثيرين من الناس يعتقدون أنه صانع معجزات ، وحاولوا أن يشفوا مرضاهم بلمس الأثواب التى لبسها ، ووجد صانعو التماثيل التى كان عابدو الأوثان يضعونها فى هيكل أرطيس أن تجارتهم كسدت ، ولعل بولس قد أعاد هنا ما أعلنه فى أثينة من تشهير بعابدى الصور أو الوثنيين . وقام رجل يدعى دمتريوس ممن كانوا يصنعون نماذج من فضة للضريح العظيم ليتبرك بها الحجاج الصالحون ، قام هذا الرجل بتنظيم مظاهرة احتجاج على بولس والدين الجديد ، وسار على رأس جماعة من اليونان إلى ملهى

المدينة ، وظلوا ساعتين كاملتين ينادون : « عظيمة هى أرطيس الإفسيسين ! » وأفلح أحد موظفى المدينة فى تفريق هذا الجمع الحاشد ، ولكن بولس رأى من الحكمة أن يغادرها إلى مقدونية

وقضى بضعة أشهر سعيداً وسط الجماعات التى أوجدها فى فلبى ، وتسالونيكى وبيريه . ولما سمع أن الانشقاق والفساد أخذا يفتان فى عضد الإخوة فى كورنثة لم يكتف بلومهم الشديد فى عدة رسائل بعث بها إليهم ، بل انتقل إليهم بنفسه (٥٦ ؟) ليواجه من كانوا يذمونه ويفترون عليه : وكانوا قد ادعوا أنه يستفيد ماديا من عظاته ، ويسخرون من الرؤى التى كان يحدثهم عنها ، وطلبوا من جديد أن يتمسك المسيحيون جميعاً بالشريعة اليهودية . فأخذ بولس يذكر الإخوة الثائرين أنه كان حيثما حل يكسب قوته بعمل يديه ، وأما الكسب المادى فقد سألهم هل يعرفون ما عاد عليه من أسفاره — لقد جلد سبع مرات ، ورجم مرة ، وتحطمت به السفينة ثلاث مرات ، وتعرض لمئات الأخطار من اللصوص ، والوطنيين المتحمسين ، والغرق فى الأنهار[٤٠] . وترامى إليه وهو فى هذه المحنة أن « جماعة المختتنين » قد نقضوا ، على ما يبدو ، اتفاق أورشليم وذهبوا إلى غلاطية وطلبوا إلى جميع المهتدين أن يطيعوا الشريعة اليهودية إطاعة كاملة . فما كان منه إلا أن كتب إلى أهـــل غلاطية رسالة تفيض بالغضب ، انفصل بها نهائيا عن المسيحيين المتهودين ، وأعلن فيها أن الناس لا ينجون لاستمساكهم بشريعة موسى بل بإيمانهم القوى الفعال بالمسيح المنقذ ابن الله . ثم سافر إلى أورشليم ، وهو لا يعلم ماذا ينتظره فيها من محن وبلايا أشد ، ليدفع عن نفسه أمام الرسل ، وليحتفل فى المدينة المقدسة بعيد العنصرة القديم . وكان يرجو أن يسافر من أورشليم إلى رومة ، وإلى أسبانيا نفسها ، ولا يستريح حتى تسمع كل ولاية من ولايات الإمبراطورية بأخبار المسيح الذى قام من بين الموتى وبما وعد به أتباعه الصالحين .

٣ ـ العـالم الدينى

واستقبله زعماء الكنيسة الكبرى « أحسن استقبال » (٥٧ ؟) ولكنهم حين اختلوا به حذروه بأن قالوا له : « أنت ترى أيها الأخ كم يوجد ربوة من اليهود الذين آمنوا وهم جميعاً غيورون للناموس ، وقد أخبروا عنك أنك تعلّم جميع اليهود الذين بين الأمم الارتداد عن موسى قائلا ألا يختنوا أولادهم ولا يسلكوا حسب العوائد . . . سيسمعون أنك قد جئت ، فافعل هـذا الذى نقول لك . عندنا أربعة رجال عليهم نذر . خذ هؤلاء وتطهر معهم وأنفق عليهم ، فسيعلم الجميع أن ليس شيء مما أخبروا عنك . بل تسلك أنت أيضا حافظا للناموس »[٤١] .

وتقبّل بولس النصيحة راضيا ، وأجرى طقوس التطهير ، ولكن بعض اليهود رأوه فى الهيكل فرفعوا عقيرتهم قائلين إنه « هو الرجل الذى يعلم الجميع فى كل مكان ضداً للشعب والناموس » . وقبض عليه نفر من الغوغاء ، وجرّوه خارج الهيكل « وبينما هم يطلبون أن يقتلوه » إذ أقبلت كتيبة رومانيه وأنقذته من القتل بأن قبضت عليه . والتفت بولس ليتحدث إلى الجماهير وأكد لهم أنه يهودى ومسيحى . فنادوا بقتله ، فأمر الضابط الرومانى بجلده ، ولكنه ألغى الأمر حين علم أن بولس يتمتع بحق المواطنية الرومانية . وجىء بالسجين فى اليوم الثانى أمام السنهدرين ، فخاطب بولس المجلس وأعلن أنه فريسى ، ونال بذلك بعض التأييد ، ولكن أعـداءه المهتاجين حاولوا مرة أخرى أن يعتدوا عليه ، فأخذه الضابط إلى الثكنات . وجاءه فى تلك الليلة ابن أخت له يحذره ويقول له إن أربعين من اليهود قد أقسموا ألا يأكلوا أو يشربوا حتى يقتلوه . وخشى الضابط أن يحدث فى المدينة اضطراب يضر به ، فأرسل بولس ليلا إلى فيلكس والى قيصرية .

وجاء رئيس الكهنة ومعه بعض الشيوخ من بيت المقدس إلى قيصرية بعد

خمسة أيام من ذلك الوقت وقالوا إنهم وجدوا بولس « مفسداً ومهيج فتنة بين جميع اليهود الذين فى المسكونة » . وأقر بولس أنه يدعو إلى دين جديد ، وأضاف إلى ذلك قوله إنه يؤمن « بكل ما هو مكتوب فى الناموس » . فما كان من فيلكس إلا أن طرد الشاكين ، ولكنه مع ذلك أبقى بولس تحت الحراسة ومنع أحداً من أصحابه أن يأتى إليه . وبقى بولس على هذه الحال عامين كاملين (٥٨ — ٦٠ ؟) ، ولعل فيلكس كان يرجو أن يحصل على رشوة طيبة .

ولما عين فستوس والياً بعد فيلكس عرض أن يحاكم بولس أمامه فى دمشق ، ولكن بولس خشى هذا الجو المهتاج فلجأ إلى ما له من حق بوصفه مواطنا رومانيا ، وطلب أن يحاكم أمام الإمبراطور نفسه . وبينا كان الملك أغرباس (أجربا) ماراً بقيصرية أذن له بالمثول بين يديه مرة أخرى وحكم عليه بأن علمه الكثير قد جعله يهذى ولكنه فيما عدا هذا برىء . وقال أغرباس إنه « كان يمكن أن يطلق هذا الإنسان لو لم يكن قد رفع دعواه إلى قيصر » . وأركب بولس سفينة تجارية سافرت به على مهل ، وقضت فى البحر زمناً طويلا صادفتها فى أثنائه عاصفة شتوية قبل أن تصل إلى إيطاليا . ويقال إن العاصفة دامت أربعة عشر يوما ضرب فيها بولس للبحارة والمسافرين مثلا طيباً مشجعاً للرجل الذى يسمو على الموت ، الواثق من النجاة . وتحطمت السفينة على صخور مالطة ، ولكن من عليها جميعاً نجوا بالسباحة إلى الشاطئ . وبعد ثلاثة أشهر من هذه الحادثة وصل بولس إلى إيطاليا .

وعامله ولاة الأمور الرومان برفق ، وانتظروا حتى يأتى الشاكون من فلسطين ، وحتى يجد نيرون متسعا من الوقت يستمع فيه إلى قضيته . وسمح له أن يعيش فى بيت يختاره هو لنفسه ، وأن يوكل جندى بحراسته . ولم يكن فى مقدوره أن يتنقل فى المدينة بكامل حريته ، ولكنه كان يستطيع استقبال كل من يشاء . ولهذا دعا زعماء اليهود فى رومة أن يوافوه فى المنزل الذى يقيم فيه ، فجاءوا

واستمعوا إليه وهم صابرون ، ولكنهم لما رأوا أنه لا يعتقد بأن مراعاة الناموس اليهودى ضرورية للنجاة ، تولوا عنه ، فقد كان يبدو لهم أن الناموس هو عماد الحياة اليهودية وسلواها اللذان لا غنى لها عنهما . وناداهم بولس قائلا : « فليكن معلوما عندكم أن خلاص الله قد أرسل إلى الأمم وهم سيسمعون ! »[٤٢] وغضبت الجالية المسيحية التى وجدها فى رومة من موقفه هذا كما غضب منه اليهود . ذلك أن هؤلاء الإخوان وجلهم من اليهود كانوا يفضلون المسيحية التى جاءت إليهم من أورشليم ، فكانوا يختتنون ، وكانت رومة لا تكاد تفرق بينهم وبين اليهود الأصليين . ورحب هؤلاء ببطرس ولكنهم قابلوا بولس بفتور ؛ واستطاع أن يهدى بعض سكان رومة من غير اليهود ، ومن بينهم بعض ذوى المناصب الكبرى ، ولكنه ضاق ذرعا بوحدته فى سجنه وأحس بوطأة القيود المفروضة عليه .

وكان يجد بعض السلوى فيما يبعث به من رسائل طويلة رقيقة إلى أتباعه البعيدين عنه ، وكان قد قضى عشر سنين يكتب مثل هذه الرسائل ، وما من شك فى أن مجموعها يزيد كثيراً على العشر التى وصلتنا منسوبة إليه(*) . ولم يكن يكتبها هو بقلمه ، بل كان يمليها ، وكثيراً ما يضيف إليها حاشية بخط يده غير الأنيق ويبدو أنه تركها دون أن يراجعها ، تركها بكل ما فيها من تكرار وغموض وخطأ نحوى . ولكن ما فيها من شعور عميق يفيض بالإخلاص ، وغيرة وغضبة قوية للقضية الكبرى التى وهب حياته للدفاع عنها ، وكثرة ما فيها من أقوال نبيلة رائعة ، كل هذا قد جعلها أقوى وأبلغ ما كتب من الرسائل فى أدب العالم كله ؛ وإن ما فى أدب شيشرون من سحر ليبدو ضئيلا إذا قيس إلى ما فيها من إيمان قوى فياض . فهى تشتمل على ألفاظ حب قوية

(*) وفى وسعنا أن نعد الرسائل الموجهة إلى أهل غلاطية ، وكورنثوس ، ورومية من رسائله بحق ؛ وأن نرجح أن الرسائل الموجهة إلى أهل تسالونيكى ، وفيلبى ، وكولوسى ، وفليمون هى أيضاً له ؛ بل إن الرسالة الموجهة إلى أهل إفسوس نفسها قد تكون أيضاً من رسائله .

ينطق بها رجل كانت كنائسه في منزلة أبنائه الذين يحميهم ويرد عنهم الأذى بأعظم ما يستطيع من قوة ، وفيها هجوم عنيف على أعدائه الذين لا حصر لهم ، وتأنيب شديد للمذنبين والمارقين ، والخصيمين الساعين إلى التفرقة ؛ ولا يخلو جزء منها من إنذار ونصح رحيم رقيق « وكونوا شاكرين ، لتكن فيكم كلمة المسيح بِغِنىً وأنتم بكل حكمة معلمون ومنذرون بعضكم بعضاً بمزامير وتسابيح وأغاني روحية بنعمة مترنمين في قلوبكم للرب »(٤٤) وهاهي ذي كلمات كبيرة يرددها العالم المسيحي كله ويعتز بها : « الحرف يقتل ، ولكن الروح يحيي »(٤٥) ، « المعاشرات الردية تفسد الأخلاق الجيدة »(٤٦) ، « كل شيء طاهر للطاهرين »(٤٧) . محبة المال أصل لكل الشرور»(٤٨) . وهاهي ذي اعترافات صريحة منه بعيوبه بل بريائه الشبيه برياء رجال السياسة :

« استعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين ، فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود ، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس ، وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس مع أني لست بلا ناموس . . . لأربح الذين بلا ناموس . . . صرت للكل كل شيء لأخلص على كل حال قوما ، وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل لأكون شريكا فيه »(٤٩) .

وقد احتفظت بهذه الرسائل الجماعات التي وجهت إليها وكثيراً ما كانت تتلوها على الناس جهرة ، ولم يكد يختتم القرن الأول حتى كان الكثير منها معروفا واسع الانتشار ؛ فهاهو ذا كلمنت الروماني يشير إليها في عام ٩٧ ، ويشير إليها أيضا بعد قليل من ذلك الوقت كل من أجناسيوس Ignatius وپوليكارب Polycarp ؛ ولم تلبث أن دخلت في أخص خصائص اللاهوت المسيحي . ولقد أنشأ بولس لاهوتاً لا نجد له إلا أسانيد غامضة أشد الغموض في أقوال المسيح . وكانت العوامل التي أوحت إليه بالأسس التي أقام عليها ذلك اللاهوت هي انقباض نفسه ، وندمه ، والصورة التي استحال إليها المسيح في خياله ، ولعله قد

تأثر بنبذ الأفلاطونية والرواقية للمادة والجسم واعتبارهما شراً وخبثاً ؛ ولعله تذكر السنة اليهودية والوثنية سنة التضحية الفدائية للتكفير عن خطايا الناس : أما هذه الأسس فأهمها أن كل ابن أنثى يرث خطيئة آدم ، وأن لا شيء ينجيه من العذاب الأبدى إلا موت ابن الله ليكفر بموته عن خطيئته(*)(٥٠). وتلك فكرة كانت أكثر قبولا لدى الوثنيين منها لدى اليهود . ولقد كانت مصر ، وآسية الصغرى ، وبلاد اليونان تؤمن بالآلهة من زمن بعيد — تؤمن بأوزريس ، وأتيس وديونيشس — التى ماتت لتفتدى بموتها بنى الإنسان . وكانت ألقاب مثل سوتر (المنقذ) واليوثريوس Eleutherios (المنجى) تطلق على هذه الآلهة ، وكان لفظ كريوس Kyrios (الرب) الذى سمى به بولس المسيح هو اللفظ الذى تطلقه الطقوس اليونانية — السورية على ديونيشس الميت المفتدى(٥٢) ، ولم يكن فى وسع غير اليهود من أهل أنطاكية وسواها من المدن اليونانية ، الذين لم يعرفوا عيسى بجسمه ، أن يؤمنوا به إلا كما آمنوا بآلهتهم المنقذين ، ولهذا ناداهم بولس بقوله : « هو ذا سر أقوله لكم » (٥٣) .

وأضاف بولس إلى هذا اللاهوت الشعبى المؤسى بعض آراء صوفية غامضة كانت قد ذاعت بين الناس بعد انتشار سفر الحكمة ، وفلسفة فليمون . من ذلك قول بولس إن المسيح هو « حكمة الله »(٥٤) و « ابن الله الأول » بكر كل خليقة ،

(*) لقد كان اليهود الأقدمون يشتركون مع الكنعانيين ، والمؤابيين ، والفينيقيين ، والقرطاجنيين وغيرهم من الشعوب فى عادة التضحية بطفل ، بل بطفل محبوب ، لاسترضاء السماء الغضبى . ثم أصبح فى الإمكان على توالى الأيام أن يستبدل بالطفل مجرم محكوم عليه بالإعدام . وكان البابليون يلبسون هذا الضحية أثوابا ملكية ، لكى يمثل بها ابن الملك ، ثم تجلد وتشنق . وكان هذا نفسه يحدث فى رودس فى عيد كرونس . وأكبر الظن أن التضحية بحمل أو جدى فى عيد الفصح ليست إلا تخفيفاً لهذه التضحية البشرية اقتضاه تقدم المدنية . وفى ذلك يقول فريزر Frazer « وفى يوم الكفارة كاهن اليهود الأعظم يضع كلتا يديه على جدى حى ، ويعترف فوق رأسه بجميع ما ارتكبه بنو إسرائيل من مظالم ؛ حتى إذا ما حمل الحيوان خطايا الشعب على هذا النحو أطلقه فى البرية »(٥١) .



(شكل – ١٣) هيكل جوپتر هليوپوليتانس فى بعلبك

فإنه فيه خلق الكل . . . الكل به وله قد خلق ، الذى هو قبل كل شىء وفيه يقوم الكل »[٥٥] ، وليس هو المسيح المنتظر (المسيا) اليهودى ، الذى سينجى إسرائيل من الأسر ، بل هو الكلمة الذى سينجى الناس كلهم بموته . وقد استطاع بولس بهذه التفسيرات كلها أن يغض النظر عن حياة يسوع الواقعة وعن أقواله التى لم يسمعها منه مباشرة ، واستطاع بذلك أن يقف على قدم المساواة مع الرسل الأولين ، الذين لم يكونوا يجارونه فى آرائه الميتافيزيقية . لقد كان فى وسعه أن يخلع على حياة المسيح وعلى حياة الإنسان نفسه أدوارا عليا فى مسرحية فخمة تشمل النفوس على بكرة أبيها والأبدية بأجمعها . وكان فى وسعه فوق هذا أن يجيب عن الأسئلة المربكة أسئلة الذين قالوا إنه إذا كان المسيح إلها حقاً فلم رضى أن يقتل فقال : إن المسيح قد قتل ليفتدى بموته العالم الذى استحوذ عليه الشيطان بسبب خطيئة آدم . فكان لابد أن يموت ليحطم أغلال الموت ، ويفتح أبواب السماء لكل من نالوا رضوان الله .

ويقول بولس إن عاملين اثنين يقرران من سوف ينجيهم موت المسيح وهما اختيار الله والإيمان المصحوب بالتواضع . فالله يختار من بداية العالم إلى نهايته من ينالون نعمته ورضوانه ومن تحل بهم نقمته[٥٦] . ومع هذا فقد نشط بولس فى تقوية إيمان الناس حتى يكون إيمانهم هذا سبيلا إلى نيل رضاء الله . وقال : إن الروح لاتستطيع أن تحس بذلك التبدل العميق الذى يخلق صاحبها خلقاً جديداً ، ويوحد بين المؤمن وبين المسيح ، ويمكنه من الاشتراك فى ثمار موته . ويقول بولس إن الأعمال الطيبة ، وإطاعة كل ما جاء فى أوامر الشريعة اليهودية البالغ عددها ٦١٣ أمراً ، لايكفيان للنجاة ، لأن هذه الأعمال وتلك الطاعة لاتستطيع أن تبدل طبيعة الإنسان أو أن تطهر النفس من الذنوب . لقد اختتم عهد الناموس بموت المسيح ، ووجب ألا يكون الآن يهودى ويونانى ، أو عبد وحر ، أو ذكر وأنثى « لأنكم جميعا واحد فى المسيح »[٥٨] . لكن بولس لم يمل قط من أن يغرس

فى قلوب الناس فائدة العمل الطيب مقترناً بالإيمان ؛ وإن أشهر ما قيل من العبارات عن الحب نفسه لهى ألفاظه هو :

إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لى محبة فقد صرت نحاساً يطن أو صنجا يرن ، وإن كانت لى نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم ، وإن كان لى كل الإيمان حتى أنقل الجبال ، ولكن ليس لى محبة فلست شيئاً ؛ وإن أطعمت كل أموالى ، وإن سلمت جسدى حتى أحترق ولكن ليس لى محبة فلا أنتفع شيئاً ، المحبة تتأنى وترفق ، المحبة لا تحسد ، المحبة لا تتفاخر . . . ولا تطلب ما لنفسها . . . وتحتمل كل شيء . . . أما الآن فيثبت الإيمان والرخاء والمحبة ، هذه الثلاثة ولكن أعظمهن المحبة »[٥٩] .

أما الحب الجنسى فيجيزه بولس ، ولكنه لا يشجعه مطلقاً . ومن أقواله فقرة توصى[٦٠] . ولكنها لا تثبت أنه قد تزوج : « ألَعلَّنا (هو وبرنابا) ليس لنا سلطان أن نجول بأخت زوجة كباقى الرسل وإخوة الرب وصفا ؟ » ولكنه فى فقرة أخرى يسمى نفسه عزبا[٦١] . وكان يشبه يسوع فى تجرده من الشهوات الجسمية[٦٢] ، ولقد روع حين سمع بالشذوذ الجنسى بين الإناث والذكور[٦٣] . وسأل أهل كورنثه قائلا : « أولستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذى فيكم . . فمجدوا الله فى أجسادكم »[٦٤] ، وعنده أن بقاء البنات عذارى خير من الزواج ، ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن التزوج أصلح من التحرق » وزواج المطلقين والمطلقات حرام ، إلا إذا كان المطلق زوجا لامرأة غير مؤمنة أو كانت المطلقة زوجة لغير مؤمن فإن لها بعد الطلاق أن يتزوجا . وعلى المرأة أن تطيع زوجها ، وعلى العبد أن يطيع سيده « الدعوة التى دعى فيها كل واحد (أى اعتنق المسيحية) فليلبث فيها ، دعيت وأنت عبد فلا يهمك ، بل وإن استطعت أن تصير حرا فاستعملها بالحرى ، لأن من دعى فى الرب وهو عبد فهو عتيق الرب ، كذلك أيضاً الحر المدعو هو عبد المسيح »[٦٥] .

ذلك أن الحرية والاسترقاق لم يكن لها شأن يذكر إذا كان العالم قريبا من نهايته . ولهذا السبب عينه لم يكن للحرية القومية شأن كبير « لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان إلا من الله ، والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله »(٦٥) . لقد كان خليقاً بروما ألا تقضي على فيلسوف مجامل طيع إلى هذا الحد .

٤ – الشهيد

تقول الرسالة الثانية المشكوك فيها والموجهة إلى تيموثاوس : « بادر أن تجيء إلى سريعاً لأن ديماس قد تركني ، إذ أحب العالم الحاضر . . . وكريسكيس وتيطس . . . لوقا وحده معي . . . في احتجاجي الأول لم يحضر أحد معي ، بل الجميع تركوني . . . ولكن الرب وقف معي وقواني لكي تتم بي الكرازة ويسمع جميع الأمم ، فأنقذت من فم الأسد . . . فإني أنا الآن أسكب سكيباً ووقت انحلالي قد حضر : قد جاهدت الجهاد الحسن ، أكملت السعي ، حفظت الإيمان »(٦٦) ؟

لقد كان في حديثه شجاعاً جريئاً . وتقول إحدى الروايات القديمة إنه أطلق من السجن ، وإنه سافر إلى آسية وأسبانيا ، وعاد منهما إلى الدعوة ، وألقى نفسه مرة أخرى سجيناً في روما . ولكن أكبر الظن أنه لم يحرر . لقد كان بلا زوجة تؤنسه أو ولد يسليه ، وقد فارقه جميع أصدقائه إلا واحداً منهم ، فلم يبق له نصير إلا إيمانه القوى ، ولعل هذا الإيمان أيضاً قد تزعزع . ولقد كان يعيش كما يعيش غيره من المسيحيين في ذلك العصر مؤملا أن يشهد عودة المسيح ، وكان قد كتب إلى أهل فلبي يقول : « ننتظر مخلصا هو الرب يسوع المسيح . . . الرب قريب » ، وقال إلى أهل كورنثة : « الوقت منذ الآن مقصر لكي يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم . . . والذين يشترون كأنهم لا يملكون . . . لأن هيئة هذا العالم تزول . . . ماران أثا ، المسيح معكم »(٦٨) . لكنه في رسالته الثانية لأهل

تسالونيكى لامهم لأنهم يهملون شئون العالم انتظاراً لقرب مجىء المسيح ، وقال إنه « لا يأتى إن لم يأت الارتداد أولا ويُستعلَن إنسان الخطيئة (الشيطان) مظهراً نفسه أنه إله »(٦٩) .

ويبدو لنا من رسائله الأخيرة أنه حاول فى أثناء سجنه أن يوفق بين عقيدته الأولى وبين تأخر مجىء المسيح للمرة الثانية ، وأخذ يضع أمله فى أن يراه بعد أن يموت ، وجعل سلواه ذلك التوفيق العظيم بين العقيدتين الذى أنجى المسيحية — وهو استبدال الأمل فى الاتحاد بالمسيح فى السماء بعد الموت بالعقيدة الأولى عقيدة عودة المسيح إلى هذه الأرض » . ويبدو أنه حوكم مرة أخرى وأدين ؛ وأن الحاكم السياسى وقف مع الرسول الدينى وجهاً لوجه ، وتغلب أولها على الثانى . ولسنا نعرف حقيقة التهمة التى وجهت إليه ، وأكبر الظن أنه اتهم فى هذه المرة بما اتهم به هو وزملاؤه فى تسالونيكى وهو أنهم « يعملون ضد أحكام قيصر قائلين إنه يوجد ملك آخر يسوع »(٧٠) ؛ وكانت هذه جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام . وليس لدينا سجل قديم لهذه المحاكمة ، ولكن ترتليان — وقد كتب بعد مائتى عام من وقوعها — يقول إن « بولس استشهد فى رومة فى عهد نيرون »(٧١) . ونرجح أنه وهو مواطن رومانى قد كرم بأن قتل بمفرده ، فلم يختلط بالمسيحيين الذين صلبوا بعد حريق عام ٦٤ ؛

وتقول إحدى الروايات إنه هو وبطرس استشهدا فى وقت واحد وإن كان كلاهما قد اشتشهد منفرداً ؛ وتصور إحدى القصص المؤثرة هذين الرجلين المتنافسين يرتبطان برباط الصداقة حين يلتقيان فى طريقهما إلى الموت . وقد شيد له فى القرن الثالث ضريح فى موضع على طريق أستيا Ostia يعتقد رجال الدين أن بولس أسلم فيه الروح . وجدد هذا الضريح أكثر من مرة بعد ذلك الوقت ، وكان كلما جدد يزداد رونقاً وفخامة حتى أصبح الآن هو الباسلقا الشهيرة المعروفة باسم « القديس بولس وراء الجدران San Paols fuori le Mura »

ذلك رمز خليق بنصره . لقد مات الإمبراطور الذى قضى بإعدامه ميتة الجبناء ، وسرعان ما زال من الوجود كل أثر لأعماله التى أسرف فى إقامتها أيما إسراف ، أما بولس المغلوب على أمره فهو الذى شاد صرح المسيحية الدينى ، كما أنه هو وبطرس وضعا نظام الكنيسة العجيب . لقد عثر بولس فى خبايا الشريعة اليهودية على حلم يصوّر لليهود فلسفة الحشر والنشر ، فحرره ووسّع نطاقه ، وجعله عقيدة ذات قوة تستطيع أن تحرك العالم بأسره ، واستطاع ببصره الشبيه ببصر رجال السياسة أن يمزج مبادئ اليهود الأخلاقية بعقائد اليونان فيما وراء الطبيعة ؛ وأوجد طقوساً خفية جديدة ووضع مسرحية للحشر جديدة استوعبت كل ما سبقها من مسرحيات تصور هذه العقيدة ، وعاشت بعدها كلها ، وأحل العقيدة محل العمل فى اختبار الفضيلة ، وكان من هذه الناحية بداية العصور الوسطى . ولسنا ننكر أن هذا كان تغيراً يؤسف له كل الأسف ، ولكن لعل الإنسانية هى التى شاءت أن يكون ؛ ذلك أن الذين يستطيعون أن يحذوا حذو المسيح هم أقلية من القديسين . ولكن نفوسا كثيرة قد تستطيع أن تسمو بآمالها فى الحياة الخالدة إلى مستوى رفيع من الإيمان والشجاعة .

ولم يشعر معاصرو بولس بأثره فى التو والساعة ، لأن الجماعات التى أنشأها كانت أشبه بجزائر صغرى فى بحر الوثنية الواسع الخضم ، ولأن كنيسة رومة كانت من صنع بطرس وبقيت وفيّة لذكراه ، ومن أجل هذا ظل بولس مائة عام كاملة بعد موته لا يكاد يذكره إنسان . فلما انقضت الأجيال الأولى من المسيحيين ، وأخذت أحاديث الرسل الشفهية تضعف ذكراها فى الأذهان ، وأخذ العقل المسيحى يضطرب بمئات من عقائد الزيغ والضلال ؛ لما حدث هذا أضحت رسائل بولس إطاراً لمجموعة من العقائد أضفت على الجماعات المتفرقة اتزاناً وألفت منها كنيسة واحدة قوية .

ومع هذا كله بقى الرجل الذى فصل المسيحية عن اليهودية من حيث

الجوهر والأساس يهوديا فى قوة خلقه ، وصرامة مبادئه ؛ ولما أن أراد رجال العصور الوسطى الدينيون أن يجعلوا الوثنيــة كثلكة براقة لم يجدوا ما يتفق مع هذه النزعة ، فلم يقيموا له إلا قليلا من الكنائس ، وقلما كانوا يقيمون له تمثالا أو ينطقون باسمه ؛ ومرت خمسة عشر قرنا من الزمان قبل أن يجعل لوثر بولس رسول الإصلاح الدينى ، ويجد فيــه كلفن Calvin النصوص القائمة التى أخذ عنها عقيدته الجبرية . وبهذا كانت البروتستنتية نصراً لبولس على بطرس ، وكان الاعتقاد بأن النجاة إنما تكون بالإيمان والعقيدة نصراً لبولس على المسيح .

الفصل الثالث

يوحنا

لقد شاءت أحداث التاريخ المفاجئة أن تنقل إلينا بولس فى صورة واضحة جلية إذا قيست إلى صورة غيره من رسل المسيح ، وأن تترك صورة يوحنا فى خفاء وغموض . ولقد انحدر إلينا مؤلفان كبيران مقرونان باسمه فضلا عن رسائل ثلاث . ويحاول النقاد أن يرجعوا سفر الرؤيا إلى عام ٦٩ - ٧٠[٧٢] ؛ ويعزوه إلى يوحنا آخر هو يوحنا « اللاهوتى » الذى ذكره پپياس Papias (١٣٥)[٧٣] . أما چستن مارتن Justin Martin (١٣٥) فيعزو هذا السفر القوى إلى الرسول « المحبوب »[٧٤] . لكن يوزبيوس ذكر من عهد بعيد يرجع إلى القرن الرابع أن بعض العلماء يشكون فى صحة نسبته إليه . وما من شك فى أن صاحب هذا السفر كان رجلا ذا مكانة عظيمة لأنه يخاطب كنائس آسية بلهجة المهدد صاحب السلطان . فإذا كان كاتبه هو الرسول نفسه (وسنظل نفترض مؤقتا أنه هو) ، فإن فى مقدورنا أن نفهم سبب تسميته : كما سمى أخوه يعقوب ، باسم بوانرجس Boanerges أى ابن الرعد . وكانت إفسوس ، وأزمير ، وپرغامس ، وسارديس وغيرها من مدن آسية الصغرى تنظر إلى يوحنا لا إلى بطرس أو بولس على أنه رئيس الكنيسة الأعلى . وتقول الروايات التى ينقلها يوزبيوس[٧٤] إن دومتيان نفى يوحنا إلى بطمس Patmos وإنه كتب فى هذه الجزيرة من جزائر بحر إيجه الإنجيل الرابع وسفر الرؤيا . وقد عمر يوحنا طويلا حتى قال الناس إنه مخلد .

ويشبه سفر الرؤيا سفرى دانيال وأخنوخ من حيث الشكل . ولقد كانت رؤى النبوءات الرمزية أحد الأساليب التى يلجأ إليها يهود ذلك العصر فى كثير من الأحوال ؛ ووجدت رؤى أخرى غير رؤى يوحنا ، ولكن

هذا السفر سما عليها جميعاً فى بلاغته الجذابة . ويستند الكاتب إلى العقيدة الشائعة التى تقول إن حلول ملكوت الله يسبقه حكم الشيطان ، وانتشار الشرور والآثام ، فيصف حكم نيرون بأنه هو بعينه عهد الشيطان ، ويقول إنه لما خرج الشيطان وأتباعه على الله غلبتهم الملائكة جيوش ميخائيل ، وقذفت بهم إلى الأرض فقادت العالم الوثنى فى هجومه على المسيحية . ونيرون هو الوحش وعدو المسيح فى هذا الكتاب فهو مسيح من عند الشيطان ، كما أن يسوع مسيح من قبل الله . ويصف رومة بأنها « الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثيرة التى زنى معها ملوك الأرض » ، « وسكر سكان الأرض من خمر زناها » وهى « زانية بابل » مصدر جميع الظلم والفساد ، والفسق والوثنية ، ومركزها وقتها . هنالك ترى القياصرة المجدفين المتعطشين للدماء ، يطلبون إلى الناس أن يخضوهم بالعبادة التى يحتفظ بها المسيحيون للمسيح .

ويبصر المؤلف فى عدة رؤى متتابعة ما سوف يحل برومة وبالإمبراطورية من ضروب العقاب . سترسل عليها أسراب من الجراد تظل خمسة أشهر تعذب سكانها أجمعين عدا المائة ألف والأربعة والأربعين ألفاً من اليهود الذين يحملون على جباههم خاتم المسيحية(٧٧) . وتأتى ملائكة أخرى فتصب سبع قوارير من غضب الله على الأرض ، فيصاب الناس بقروح شديدة ، ويتحول البحر إلى دم كدم الميت يموت منه كل ما فى البحر من الكائنات الحية . ويطلق ملك آخر حرارة الشمس بأجمعها على الذين لم يتوبوا ، ويلف ملك غيره الأرض فى ظلام دامس ؛ ويقود أربعة من الملائكة ضعفى عشرة آلاف مرة عشرة آلاف من الفرسان يذبحون ثلث أهل الأرض ، ويخرج أربعة فرسان يقتلون الناس « بالسيف والجوع والموت وبوحوش الأرض »(٧٨) . ويحدث زلزال تندك منه الأرض ؛ وتسقط قطع ضخمة من البرد على من بقى من الكفار ، وتدمر رومة تدميرا تاما . ويجتمع ملوك الأرض ليقفوا وقفتهم الأخيرة فى وجه الله ،

ولكنهم يموتون عن آخرهم ، ويلقى بالشيطان وأتباعه إلى الجحيم بعد أن يمنوا بالهزيمة فى كل مكان . ولن ينجو من هذه الكارثة إلا المسيحيون الصادقون ؛ والذين عذبوا من أجل المسيح ، والذين غسلوا فى دم الخروف[٧٩] سيجزون الجزاء الأوفى » .

ثم يطلق الشيطان بعد ألف عام ليفترس بنى الإنسان ، وتعود الخطيئة فتفشو مرة أخرى فى عالم خال من الإيمان ، وتبذل قوى الشر آخر جهدها لتفسد عمل الله . ولكنها تغلب مرة أخرى ، ويلقى بالشيطان وأتباعه هذه المرة فى الجحيم حيث يبقون جميعاً إلى أبد الدهر . ثم يحل يوم الحساب الأخير فيقوم الموتى جميعاً من القبور ، ويخرج الغرقى من البحار . وفى ذلك اليوم الرهيب « يلقى فى البحيرة المتقدة بنار كبريت » كل « من لم يوجد مكتوبا فى سفر الحياة »[٨٠] ، ويجتمع المؤمنون ليأكلوا « لحوم ملوك ، ولحوم قواد ، ولحوم أقوياء ... ولحوم الكل حرا وعبدا ، صغيرا وكبيراً »[٨١] ، ممن لم يبالوا بدعوة المسيح . وستقوم سماء الله مهيأة لتكون جنة على الأرض ، وستكون أساساتها من الحجارة الكريمة ، ومبانيها من فضة أو ذهب شبه زجاج نقى ، وسورها يشب ، وكل باب من أبوابها الاثنى عشر لؤلؤة واحدة ، وسيجرى فيها نهر صاف من ماء حياة تنمو على ضفته « شجرة حياة » . ويقضى على حكم الشر إلى أبد الدهر ، ويرث الأرض مَن يؤمنون بالمسيح ، « والموت لا يكون فيما بعد ، ولا يكون حزن ، ولا صراخ ، ولا وجع فيما بعد »[٨٢] .

وقد كان لسفر الرؤيا أثر عاجل عميق دائم ، وكان ما تنبأ به من نجاة للمؤمنين الصادقين ومن عذاب لأعدائهم هو الدعامة القوية التى حفظت حياة الكنيسة فى عصور الاضطهاد . كذلك كانت فكرة العهد السعيد سلوى أولئك الذين أحزنهم طول انتظارهم عودة المسيح وسرى ما فيه من صور واضحة وعبارات مشرقة فى أقوال العالم المسيحى الشعبية والأدبية ، وظل الناس تسعة عشر قرناً

يفسرون حوادث التاريخ على أنها تحقيق لما فيه من رؤى ، ولا يزال يضفى لونه القاتم ومذاقه المرّ على عقيدة المسيح فى بعض البقاع النائية عن عالم الرجل الأبيض .

وقد يبدو من غير المعقول أن يكون كاتب سِفر الرؤيا هو نفسه كاتب الإنجيل الرابع . ذلك أن سفر الرؤيا سفر يهودى وأن الإنجيل فلسفة يونانية : ولعل الرسول كتب تلك الرؤى فى سورة الغضب التى أعقبت اضطهاد نيرون وكان لها من هذا الاضطهاد ما يبررها ، ثم كتب الإنجيل فى أيام نضجه وشيخوخته ونزعته الميتافيزيقية (٩٠ ؟ م) . وربما كانت ذكرياته عن السيد المسيح قد ذهب بعضها إن كان فى وسع الإنسان أن ينسى ذكريات المسيح ؛ وما من شك فى أنه قد سمع فى الجزائر والمدائن الأيونية أصداء كثيرة للتصوف اليونانى والفلسفة اليونانية . وكان بطليموس من قبله قد نشر تلك العقيدة الخطيرة القائلة إن « أفكار الله » هى النمط الذى شكلت بمقتضاه الأشياء كلها ؛ ثم جمع الرواقيون هذه الأفكار فى عبارتهم المعروفة *فكرة الله المخصبة*. ثم جسد الفيثاغوريون الجــدد هذه الأفكار فجعلوها شخصا قدسيا ، ثم استحالت على يد فيلون إلى عقل الله أى إلى عنصر قدسى ثان ، به يخلق الله الخلق ويتصل بالعالم .

وإذا ما ذكرنا كل هذا ونحن نقرأ بداية الإنجيل الرابع الذائعة الصيت ، واستبقينا لفظ **Logos** اليونانى بدل ترجمته الإنجليزية **Word** (أو العربية كلمة) أدركنا من فورنا أن يوحنا قد انضم إلى الفلاسفة :

« فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله . . . كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء مما كان ؛ فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس . . . والكلمة صار جسداً وحل بيننا » .

وإذ كان يوحنا قد عاش مدى جيلين فى بيئة هلنستية فقد بذل جهده

لكى يصبغ بالصبغة اليونانية العقيدة الصوفية اليهودية القائلة بأن حكمة الله كانت شيئاً حياً(٨٣) . والعقيدة المسيحية القائلة بأن عيسى هو المسيح المنتظر، كما أحس من قبل فيلون العالم المتضلع فى البحوث العقلية اليونانية بالحاجة إلى صياغة العقائد اليهودية من جديد كى توائم عقلية اليونان ذوى النزعة الفلسفية ، ولقد واصل يوحنا ، عرف أو لم يعرف ، ما بدأه بولس من فصل المسيحية عن اليهودية فلم يعرض المسيح على العالم ، كما كان يعرض عليه من قبل ، بوصفه يهوديا يلتزم الشريعة اليهودية إلى حد ما ، قل ذلك أو كثر ؛ بل أنطقه فى خطابه لليهود بقوله « أنتم » وبحديثه عن الناموس بقوله « ناموسكم » . ولم يكن « مسيحاً منتظراً » ارسل لينجى خرا إسرائيل الضالة ، بل كان ابن الله الخالد معه ؛ ولم يكن المحكم بين الناس فى المستقبل فحسب ، بل كان هو الخالق الأول للكون . فإذا نظرنا إلى المسيح هذه النظرة ، كان فى وسعنا أن نغفل إلى حد ما حياة الرجل يسوع اليهودية إذ نراها تذوى ويذهب سناها كما يذهب عند الطائفة اللاأدرية غير المؤمنة ؛ أما فكرة المسيح الإله فقد هضمتها وامتصتها تقاليد العقل الهلنستى الدينية والفلسفية ، ومن ثم كان فى وسع العالم الوثنى — بل وفى وسع العالم المضاد للسامية — أن يحتضنها ويرضى بها .

إن المسيحية لم تقض على الوثنية ، بل تبنتها ، ذلك أن العقل اليونانى المتضر عاد إلى الحياة فى صورة جديدة فى لاهوت الكنيسة وطقوسها ، وأصبحت اللغة اليونانية التى ظلت قروناً عدة صاحبة السلطان على السياسة أداة الآداب ، والطقوس المسيحية ، وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس الخفية الرهيبة ؛ وساعدت عدة مظاهر أخرى من الثقافة اليونانية على إحداث هذه النتيجة المتناقضة الأطراف . فجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس ، ويوم الحساب ، وأبدية الثواب والعقاب ، وخلود الإنسان فى هذا أو ذاك ؛ ومنها جاءت عبادة أم الطفل ، والاتصال الصوفى

بالله ، ذلك الاتصال الذى أوجد الأفلاطونية الحديثة واللاأدرية ، وطمس معالم العقيدة المسيحية . ومن مصر أيضاً استمدت الأديرة نشأتها والصورة التى نسجت على منوالها : ومن فريجيا جاءت عبادة الأم العظمى ، ومن سوريا أخذت تمثيلية بعث أوتيس . وربما كانت تراقيا هى التى بعثت للمسيحية بطقوس ديونيشس ، وموت الإله ونجاته . ومن بلاد الفرس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه الأرض ألف عام ، وعصور الأرض ، واللهب الأخير الذى سيحرقها ، وثنائية الشيطان والله والظلمة والنور . فمن عهد الإنجيل الرابع يصبح المسيح نوراً « يضىء فى الظلمة والظلمة لم تدركه»[٨٤] ولقد بلغ التشابه بين الطقوس المثراسية والقربان المقدس فى القداس حداً جعل الآباء المسيحيين يتهمون إبليس بأنه هو الذى ابتدعه ليضل به ضعاف العقول[٨٥] .

وقصارى القول أن المسيحية كانت آخر شىء عظيم ابتدعه العالم الوثنى القديم .

الباب الثامن والعشرون

نمو الكنيسة

من ٩٦ إلى ٣٠٩ م

الفصل الأول

المسيحيون

كانوا يجتمعون فى حجراتهم الخاصة أو فى معابد صغيرة ، وقد نظموا أنفسهم على مثال المجامع اليهودية . وأطلقوا على كل جماعة منهم اسم « الإكليزيا » Ekklesia – وهو اللفظ اليونانى الذى كان يطلق على الجمعية الشعبية فى حكومات البلديات – وكانوا يرحبون بالعبيد كما كان يرحب بهم فى عبادات إيزيس ومثراس ، ولم تبذل أية جهود لتحريرهم ، ولكنهم كانوا يواسون بأن يقال لهم إنهم سيعيشون فى ملكوت يكون الناس فيه جميعاً أحراراً . وكان معظم الذين اعتنقوا الدين الجديد فى أول الأمر من الطبقات الدنيا بينهم عدد قليل من الطبقات الوسطى – الدنيا وعدد أقل من الأغنياء ، ولكنهم مع هذا لم يكونوا من « سفلة الناس » كما يدعى سلسس Celsus ؛ بل كانوا يحيون فى الغالب حياة نظام وجد ، يمدون بعثات التبشير بالمال ، ويجمعون الأموال لمساعدة الجماعات المسيحية الفقيرة . وقلما كانت تبذل فى ذلك الوقت جهود لكسب سكان الريف ، فلم يعتنق هؤلاء الدين

الجديد إلا آخر الأمر ؛ وكانت هذه الطريقة العجيبة هي السبب فى أن أطلق لفظ البجانيين Pagani (أى القرويين أو الفلاحين) على سكان دول البحر الأبيض المتوسط قبل اعتناقهم المسيحية .

وكان يسمح للنساء بالدخول فى المجامع الدينية ، وكان لهن بعض الشأن فى أداء الواجبات الصغرى ، ولكن الكنيسة كانت تطلب إليهن أن يحيين حياة التواضع والخضوع والعزلة حتى تستحى غير المسيحيات من حياتهن ؛ فكن يؤمرن بأن يأتين للصلاة والعبادة محجبات ، لأن شعرهن يعد من أكبر المغريات ، وكان يخشى أن يفتتن به الناس والملائكة أنفسهم أثناء الصلاة[٢] ، بل إن القديس چيروم كان يرى أن يقص هذا الشعر كله[٣]. كذلك كان يطلب إلى النساء المسيحيات ألا يستخدمن أدهان التجميل أو الحلى ، وأن يتجنبن الشعر المستعار بنوع خاص ، لأن بركة القس إذا نزلت على الشعر الميت المأخوذ من رأس غير رأس لابسه صعب عليها أن تعرف أى رأس تباركه[٤] . وقد أصدر بولس أوامر صارمة لأتباعه فقال :

« لتصمت نساؤكم فى الكنائس لأنه ليس مأذوناً لهن أن يتكلمن . . . ولكن إذا كن يردن أن يتعلمن شيئاً فليسألن رجالهن فى البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم فى كنيسة » .

« فإن الرجل لا ينبغى أن يغطى رأسه لكونه صورة الله ومجده ، وأما المرأة فهى مجد الرجل ، لأن الرجل ليس من المرأة ، بل المرأة من الرجل ، ولأن الرجل يخلق من أجل المرأة ، بل المرأة من أجل الرجل ، لهذا ينبغى للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها من أجل الملائكة » .

هذه هى النظرة اليهودية واليونانية لا النظرة الرومانية للمرأة ؛ ولعلها كانت ثورة على الإباحية التى انزلقت إليها بعض النساء بإساءة استعمال ما أوتين من حرية ، ومن حقنا حين نقرأ هذه النذر أن نعتقد أن النساء المسيحيات قد أفلحن فى أن يكن فاتنات مغريات على الرغم من عطلهن من الحلى والعطور ،

وبمعونته براقعهن ، فارسن بدهائهن ما كان لهن من سلطان فى الزمن القديم . وقد وجدت الكنيسة للأرامل وغير المتزوجات من النساء أعمالا كثيرة نافعة ، فقد نظمتهن فى جماعات « الأخوات » ، وعهدت إليهن القيام ببعض أعمال الإدارة أو الصدقات ، وأنشأت على توالى الزمن طبقات مختلفة من الراهبات كانت أعمالهن الرحيمة أنبل ما تمثلت فيه المسيحية .

وقد وصف لوشيان حوالى عام ١٦٠ « أولئك البلهاء » ، المسيحيين ، الذين يزدرون الأشياء الدنيوية ويرون أنها ملك مشترك بينهم جميعا »[٦] : وجاء ترتليان بعد جيل واحد فأعلن أننا « نحن » (المسيحيين) « نشترك جميعاً فى كل شىء عدا زوجاتنا » ، وأضاف إلى ذلك قوله بتهكمه اللاذع : « فإذا وصلنا إلى هذه النقطة حللنا شركتنا ، حللناها بالضبط عند النقطة التى يجعل غيرنا من الرجال اشتراكهم قويا فعالا »[٧] : وليس من حقنا أن نأخذ هذه الأقوال بحرفيتها ؛ ذلك أن الشركة ، كما يفهم من فقرة أخرى فى أقوال ترتليان ، لا تعنى أكثر من أن كل مسيحى يجب عليه أن يسهم فى رصيد الجماعة المشتركة بقدر ما تمكنه موارده ؛ وما من شك فى أن الاعتقاد السائد بأن النظام القائم فى العالم سيقضى عليه بعد قليل قد جعل هذا التبرع سهلا على المسيحيين ؛ ولعل الأغنياء منهم قد اقتنعوا بأنهم يجب ألا يفاجأوا يوم القيامة وهم ملقون فى أحضان المال . وكان بعض المسيحيين الأولين يعتقدون كما يعتقد الإسينيون أن الرجل الغنى الذى لا يشرك الناس فيما لا حاجة له به من ماله لص[٩] . وقد هاجم يعقوب « أخو الرب » الثروة بألفاظ تنم عن ثورة نفسية مريرة :

« هلم الآن أيها الأغنياء ، ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة ، غناكم قد تهرأ ، وثيابكم قد أكلها العث ، ذهبكم وفضتكم قد صدئا . وصدأهما ... يأكل لحومكم كنار ، قد كنزتم فى الأيام الأخيرة ، هوذا أجرة الفعلة الذين حصدوا حقولكم المبخوسة منكم تصرخ وصياح الحاصدين قد دخل إلى أذنى

رب الجنود ... أما اختار الله فقراء هذا العالم ... ورثة الملكوت ؟ »[١٠] .

ويضيف إلى هـــذا أن الغنى سيذبل كما تذبل الأزهار فى حر الشمس اللافح[١١] .

وسرى فيما اعتاده المسيحيون من تناول وجبة الطعام المشتركة عنصر من عناصر الشيوعية ، فقـــد كان المسيحيون الأولون يجتمعون كثيراً فى عيد الحب Agapé ويكون ذلك عادة فى مساء يوم أحد السبوت . وكان العشاء يبدأ وينتهى بالصلاة وقراءة بعض فقرات من الكتاب المقدس ، وكان القس يبارك الخبز والخمر . ويبدو أن المؤمنين كانوا يعتقدون أن الخبز والخمر كانا هما لحم المسيح ودمه ، أو أنهما يمثلان لحمه ودمه[١٢] . وكان عباد ديونيشس ، وأتيس ، ومثراس يؤمنون بما يشبه هذه العقائد فى المآدب التى يأكلون فيها الأجساد المسحورة لآلهتهم أو رموز هـــذه الأجساد[١٣] . وكانت آخر مراسم عيد الحب هذا هى « قبلة الحب » وكانت هذه القبلة فى بعض المجتمعات يتبادلها الرجال فيما بينهم أو النساء فيما بينهن ؛ لكن هذا القيد الثقيل لم يكن يراعى فى البعض الآخر ، ثم وجد كثيرون من المشتركين فى هذا الحفل البهيج أن فيه من الملذات ما يأباه الدين ، وندد ترتليان وغيره بما أدى إليه من الإباحية الجنسية[١٤] . وكانت الكنيسة توصى بألا تفتح الشفاه فى أثناء التقبيل ، وألا تتكرر القبلة إذا أعقبتها لذة[١٥]. ثم أخذ عيد الحب يختفى تدريجا فى القرن الثالث .

وفى وسعنا أن نصدق ما كان يعتقده الأقدمون من أن أخلاق المسيحيين الأولين كانت مثالا يزدجر به العالم الوثنى على الرغم من هذا الحادث السالف الذكر وأمثاله ، وعلى الرغم من تشهير الوعاظ الذين كانوا يطلبون إلى المؤمنين أن ينشدوا الكمال . لقد استطاعت هذه المبادئ الأخلاقية السماوية أن تهذب ما فى الإنسان من غرائز حيوانية ، وتضع له قانوناً أخلاقيا صالحا للحياة مهما يكن الثمن الذى تقاضته من حرية العقل والتفكير ، وذلك بعد أن ضعفت الأديان

الأديان القديمة وزال ماكان لها من أثر ضئيل فى تدعيم الحياة الخلقية ، وبعد أن أخفقت المحاولات التى بذلتها الرواقية لإيجاد قانون أخلاق قريب من القانون الطبيعى ، فلم يكن لها أثر إلا فى الصفوة المختارة من الناس. لقد كان الاعتقاد بحلول ملكوت الله ينطوى كذلك على الاعتقاد بوجود حَكَمٍ عدل مطلع على جميع أعمال البشر ، يعلم ما تخبئه الصدور ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، ولا يستطيع أحد أن يفر منه أو يخدعه : يضاف إلى هذه الرقابة القدسية رقابة أخرى من الناس بعضهم على بعض. ذلك أن الذنوب لم يكن من السهل إخفاؤها فى هذه الجماعات الصغيرة ، وأن المجتمع كان يوجه أشد اللوم علنا لمن يكشف أمرهم ممن يخالفون من أعضائه القانون الأخلاق الجديد. وقد حرم على المسيحيين الإجهاض ووأد الأطفال وهما اللذان كانا يقذ بيان على عدد كبير من أفراد المجتمعات الوثنية ، وسوى بيز ما وبين القتل العمد(١٦) . وكثيراً ما أنقذ المسيحيون الأطفال الذين تركوا فى العراء ليقضوا نحبهم ، وعمدوهم ، وربوهم مستعينين بما كان يقدم لهم من عون من مال الجماعة العام(١٧) . كذلك حرمت الكنيسة على المسيحيين الذهاب إلى [illegible] مشاهدة الألعاب العامة ، أو الاشتراك

الحفلات التى تقام فى الأعياد الوثنية ، وإن لم تفلح فى هذا بقدر ما أفلحت فى تحريم الإجهاض ووأد الأطفال(١٨) . وقصارى القول أن المسيحية أيدت وشددت ما كان لدى اليهود المتأهبين للقتال من صرامة أخلاقية . وكانت توصى بالعزوبة وبقاء البنات أبكارا وتعد ذلك من المثل الأخلاقية العليا ، ولم يكن يسمح بالزواج إلا لأنه مانع من الإباحية الجنسية ، ولأنه وسيلة سخيفة لحفظ النسل . ولكن الزوج والزوجة كانا يشجعان على الامتناع عن العلاقات الجنسية(١٩) . أما الطلاق فلم يكن يسمح به إلا إذا كان أحد الزوجين وثنيا وأراد أن يلغى زواجه بمن اعتنق المسيحية . وكانت الكنيسة تقاوم زواج الأرامل من النساء والرجال ، وقد حرم اللواط وذم ذما قل أن

يكون له مثيل فى شدته فى التاريخ القـديم . وفى ذلك يقول ترتليان : « أما من حيث المسألة الجنسية فإن المسيحى يقنع بالمرأة »[٢٠]

وكان كثير مما ورد فى هذا القانون الأخلاقى الصارم يستند إلى قرب عودة المسيح إلى الأرض ، فلما أن بدأ هـذا الأمل يضمحل ، أخذت مطالب الجسد تقوى مرة أخرى ، وضعفت الأخلاق المسيحية . وشاهد ذلك أن رسالة لا يعرف كاتبها تسمى *راعى هرماس* (حوالى عام ١١٠) تندد بعودة البخل ، والخيانة ، وأصباغ الشفاه ، وصبغ الشعر ، وتلوين الجفون ، والسُّكر ، والزنى بين المسيحيين[٢١] . لكن الصورة العامة التى لدينا عن أخلاق المسيحيين فى ذلك العهد تنطق بالتقوى ، والوفاء المتبادل ، والإخلاص بين الزوجين ، والسعادة ، والطمأنينة ، والثقة ، والإيمان . ولم يسع پلنى الأصغر إلا أن يكتب إلى تراجان يقول إن المسيحيين يحيون حياة هادئة هى مضرب المثل فى الصلاح[٢٢] . ويصفهم جالينوس بأنهم « قد سموا فى تأيب أنفسهم » وفى . . . رغبتهم الشديدة فى الوصول إلى مستوى خلقى رفيع يجعلهم فى منزلة لا تقل عن منزلة الفلاسفة الحقيقيين[٢٣]. وقدقوى شعورهم بالخطيئة حين أخذوا يعتقدون أن البشر جميعهم قد تلوثوا بسقوط آدم ، وأن العالم سينتهى عما قريب ، ويحلّ اليوم الذى يحكم فيه على الناس بالعذاب السرمدى أو النعيم المقيم .

وقد وجه كثير من المسيحيين همهم كله إلى العمل على أن يستقبلوا يوم الحساب الرهيب طاهرين من الدنس ، فكانوا لذلك يرون فى كل لذة من ملذات الحواس غواية من غوايات الشيطان ، ولهذا أخذوا يندون بعالم الجسم ويعملون لكبت الشهوات بالصوم وبكثير من أنواع التعذيب البدنى ، وكانوا ينظرون بعين الريبة إلى الموسيقى ، والخبز الأبيض ، والخمور الأجنبية ، والحمامات الدفئة ، وحلق اللحية ، ويرون فى هذه الأعمال استهانة بإرادة الله الجلية الواضحة للعيان[٢٤] . واتخذت الحياة حتى عند المسيحى العادى نفسه لوناً أشد قتاماً

مما خلعته عليها الوثنية ، إلا حينما كانت تعمل على استرضاء الآلهة السفلى لدفع أذاها . وانتقل إلى يوم الأحد المسيحى ما كان يراعى فى السبت اليهودى من جد ووقار حين حل أولهما محل الثانى فى القرن الثانى بعد الميلاد .

فقد كان المسيحيون يجتمعون فى ذلك اليوم المعروف عندهم بيوم الرب ، ليقيموا قداسهم الأسبوعى . فكان قساوستهم يتلون عليهم نبذاً من الكتاب المقدس ، ويؤمونهم فى الصلاة ، ويلقون عليهم مواعظ فى العقائد ، والتعاليم الأخلاقية ، والجدل الطائفى . وكان يسمح لأفراد الجماعة وخاصة النساء ، فى الأيام الأولى أن « ينطقوا » فى أثناء الغيبوبة أو النشوة بألفاظ لا يستطيع أن يشرح معناها إلا المفسرون الصالحون ؛ ولما أن أدت هذه الأعمال إلى كثير من التهييج والفوضى فى شئون الدين ، عمدت الكنيسة إلى عدم تشجيعها ثم منعتها آخر الأمر منعاً باتا . ووجد القساوسة أنفسهم مضطرين عند كل خطوة إلى كبح جماع الخرافات لا إلى خلقها .

وقبل أن يختتم القرن الثانى كانت هذه الحفلات الأسبوعية قد اتخذت شكل القداس المسيحى . وأخذ هذا القداس ينمو نمواً بطيئاً بالاعتماد على صلاة الهيكل اليهودية ، وعلى الطقوس اليونانية الخاصة بالتطهير ، والتضحية البديلة ، والاشتراك عن طريق العشاء الربانى فى قوى الإله القاهرة للموت ، حتى صار فى آخر الأمر كومة من الصلوات ، والمزامير ، والقراءات ، والمواعظ ، والترتيلات ، وما هو أهم من هذا كله وهو التضحية الرمزية بحمل الله للتفكير عن الخطايا ، وهى التضحية التى حلت فى المسيحية محل القرابين الدموية فى الأديان القديمة . واستحال الخبز والخمر اللذان كانا يعدان فى الطقوس القديمة هدايا توضع على المذبح أمام الإله بفضل تدشين القساوسة له إلى جسم المسيح ودمه ، وأصبحا يقدمان لله بوصفهما تكراراً لتضحية يسوع بنفسه على خشبة الصليب . ويلى هذا موكب مؤثر رهيب يشترك فيه العابدون فى حياة منقذهم ومادته نفسيهما .

وكانت هذه فكرة خلع عليها طول الزمن قداسة ، فلم يكن العقل الوثني في حاجة إلى شيء من التدريب لاستقبالها وإدماجها في « طقوس القداس الخفية » وبها أضحت المسيحية آخر الأديان الغامضة وأعظمها . لقد كانت هذه عادة حقيرة في منشئها[٢٥] ، جميلة في تطورها ، وكان قبولها المسيحية وسيلة من أحكم الوسائل التي سلكتها لتوائم بينها وبين رموز العصر وحاجات أتباعها ؛ ولم يكن في طقوسها كلها طقس يماثل القداس في بعث الحماسة في النفس الوحيدة المقفرة ، وتقويتها على مواجهة العالم الذي يناصبها العداء(*) :

وكان « منح البركة » للخبز والخمر أحد الأسرار السبعة المسيحية المقدسة ، وهي الطقوس التي يعتقد الناس أنهم ينالون بها البركة الإلهية . وهنا أيضاً تستخدم الكنيسة شعر الرموز لتخفف به من أعباء الحياة الإنسانية وتعلي مكانتها ، وتجدد في كل مرحلة من مراحل الملحمة الإنسانية صلة الخالق بالمخلوق وهي الصلة التي تقويه على احتمال متاعب الحياة وآلامها : ولسنا نجد في القرن الأول الميلادي إلا ثلاث شعائر دينية يؤمن المسيحيون بقداستها ــ التعميد ، والعشاء الرباني ، ورسامة الكهنوت ؛ ولكن سائر الشعائر كانت أصولها موجودة في عادات المجتمعات الدينية من ذلك الوقت البعيد . ويلوح أنه كان من عادة المسيحيين الأولين أن يضيفوا إلى التعميد « وضع الأيادي » على من يعمدون ، وبذلك يُدخل الرسول أو القسيس الروح القدس في المؤمنين[٢٨] : ثم انفصل هذا العمل عن التعميد على توالي الأيام وأصبح هو تثبيت العماد[٢٩] .

ولما استبدل تعميد الأطفال شيئاً فشيئاً بتعميد الكبار شعر الناس بحاجتهم إلى التطهير الروحي بعد مرحلة الطفولة ؛ فاستحال الاعتراف العام بالخطيئة اعترافاً خاصا أمام القس ، الذي يقول بأنه تلقى من الرسل أو خلفائهم من الأساتذة حق

(*) وكان الخبز والماء المقدسان يقدمان لمابدي مثراس في أثناء طقوسه الخفية ، ولقد دهش الغزاة الفاتحون حين وجدوا طقوساً مماثلة لهذا ، منتشرة بين هنود المكسيك وبيرو .

« الربط والحل » أى فرض الكفارات وغفران الذنوب[٣٠] :

ولقد كان فرض الكفارات هذا من الأنظمة التى يمكن أن يساء استخدامها لسهولة نيل المغفرة ؛ ولكنه مع هذا يمد المذنب بقوة تمكنه من إصلاح نفسه ، ويوفر على النفوس القلقة متاعب الندم العصيبة .

وكان الزواج فى تلك القرون لا يزال من النظم المدنية ؛ ولكن الكنيسة أضافت إليه ضرورة الحصول على موافقتها ، وأخذت تطالب الزوجين به ، فرفعت الزواج بهذا العمل من عقد زمنى يستطاع حله إلى عهد مقدس لا يستطاع نقضه . وقبل أن يحل عام ٢٠٠ بعد الميلاد اتخذت عادة « وضع الأيادى » صور « الرسامة الكهنوتية » ، وبمقتضاها أصبح الأساقفة وحدهم حق رسامة القساوسة القادرين على إقامة القداس بصورته الصحيحة ؛ ثم استمدت الكنيسة فى آخر الأمر من رسالة يعقوب (٥ : ١٤) « دهن المريض بالزيت المقدس بعد الموت » وهى البركة الأخيرة التى يتلقاها من القس حين يدهن المسيحى المحتضر أعضاء الحس والأطراف ، فيطهره مرة أخرى من الخطايا ويهيئه للقاء الله . ولو أننا حكمنا على هذه الشعائر بما كان يعزوه إليها القائمون بها والمؤمنون بقوتها ، وأخذنا أقوالهم فيها بحرفيتها ، لكان هذا منتهى السخف منا والجهالة ، لكننا إذا أدركنا أنها تبعث فى النفوس البشرية الشجاعة والإلهام ، حكمنا من فورنا بأنها خير علاج للنفوس وأقربه إلى الحكمة .

وكانت طريقة الدفن المسيحية آخر ما تكرم به حياة المسيحى . ذلك أن من عقائد الدين الجديد عودة الحياة إلى الجسم والروح ، ولهذا كان يعنى بالميت أشد العناية ، فيقوم قسيس بالخدمة الدينية للميت وقت دفنه ، وتوضع كل جثة وحدها فى قبر خاص ؛ ثم أخذ المسيحيون حوالى عام ١٠٠ يتبعون العادات السورية والتسكانية القديمة فيدفنون موتاهم فى سراديب — وأكبر الظن أن هذا لم يكن بقصد إخفائها بل كان رغبة منهم فى الاقتصاد فى الأمكنة

والنفقات ، فكان العمال يحفرون طرقات طويلة تحت الأرض مختلفة البعد عن سطحها ، توضع فيها أجسام الموتى فى دياميس بعضها فوق بعض ممتدة على جانبى هذه الطرقات . وسار الوثنيون واليهود على هذه السنة نفسها ، ولعلهم فعلوا هذا ليسهلوا مشقة الدفن ونفقاته على الجمعيات التى كانت تقوم بهذه المهمة . ويبدو لنا أن بعض هذه الطرقات قد جعلت ملتوية عمداً ، وقد يبعث هذا على الظن بأنها كانت تستخدم مخابئ فى أوقات الاضطهاد ، فلما أن علا شأن المسيحية وانتصرت على أعدائها زالت عادة دفن الموتى فى السراديب ، وأضحت الدياميس أماكن معظمة يحج إليها الناس ؛ وقبل أن يحل القرن التاسع سدت السراديب ونسيها الناس ، ولم تكشف إلا بطريق المصادفة عام ١٥٧٨ .

وهذه السراديب وما فيها من نقوش بارزة ومظلات هى التى احتفظت بمعظم ما بقى لنا من الفن المسيحى الأول . فهنا ظهرت فى عام ١٨٠ الرموز التى أصبحت فيما بعد ذات شأن أيما شأن فى المسيحية : اليمامة الممثلة للروح بعد أن تحررت من سجن الجسم ؛ والفنقس(*) Phoenix الذى عادت الحياة إلى رماده بعد احتراقه ، وغصن النخلة شعار النصر ، وغصن الزيتون رمز السلام ، والسمكة وقد ضمت إلى الشعائر المسيحية لأن اسمها اليونانى i-ch-th-u-s يتكون من الحروف الأولى من العبارة Jesous Christos theou uios soter — « يسوع المسيح ابن الله ، المنقذ » ، وهنا أيضا نجد تلك الفكرة الذائعة الصيت ، فكرة الراعى الصالح ، ممثلة تمثيلا صريحاً على تمثال لعطارد يحمل معزى . وتتمثل فى هذه الرسوم أحياناً رشاقة رسوم پمپى ، ونشاهد ذلك فى الأزهار ، والكروم ، والطيور التى كان يزدان بها قبر دومتيان . وهذه النقوش فى العادة من أعمال صغار الصناع المغمورين الذين يفسدون وضوح الخطوط اليونانية والرومانية بالغموض

(*) طائر خرافى يقولون عنه إنه عاش خمسمائة عام وحيدا فى البرية ، وبعد أن حرق نفسه على كومة الحريق عادت الحياة إلى رماده ، ولهذا كان يعد رمزاً للخلود . (المترجم)

الشرق . ذلك بأن المسيحية كانت فى تلك القرون الأولى منهمكة فى شئون الدار الآخرة انهماكا يحول بينها وبين العناية بتزيين دار الدنيا . يضاف إلى هذا أنها سارت على السنة اليهودية سنة كراهية التماثيل ، وخلطت بين التصوير وبين عبادة الأوثان ، وذمت النحت والتصوير لأنهما فى أكثر الأحيان يمجدان العرى ، وكان من أثر هذه الآراء أن اضمحل الفن التشكيلى بنماء المسيحية ، أما الفسيفساء فكانت أكثر انتشاراً ، فكانت جدران الباسلقات وأماكن التعميد مرصعة برصائع من أوراق الأشجار وأزهارها وبخروف عيد الفصح ، وصور من العهد القديم .

وكانت صور شبيهة بهذه تنقش نقشاً غير متقن على التوابيت . وكان المهندسون المعماريون فى هذه الأثناء يعملون على تكييف الباسلقات اليونانية - الرومانية للوفاء بحاجات العبادات المسيحية ؛ ولم تكن الهياكل الصغيرة التى كانت تضم الآلهة الوثنية نموذجا صالحا للكنائس المعدة لاستقبال الجماعات الكبيرة ، أما صحن الباسلقا الرحب وطرقاتها فكانت صالحة لهذا الغرض ، وكأن قباءها قد أعد لأن يكون هو المحراب ؛ وفى هذه الأضرحة ورثت الموسيقى المسيحية على استحياء النغم ، والوزن ، والسلم الموسيقى ؛ وكان كثير من رجال الدين يعارضون فى أن تغنى النساء فى الكنيسة ، بل كانوا يعارضون فى أن يغنين فى أى مكان عام ، لأن صوت النساء قد يثير رغبة دنسة فى الرجل القابل للتهيج على الدوام[٣١] : لكن المجتمعين فى الكنائس كثيراً ما كانوا يعبرون بترانيمهم عن أملهم ، وشكرهم ، وبهجتهم ؛ وأضحت الموسيقى على توالى الأيام أجمل الزينات ، وأرق الوسائل لخدمة الدين المسيحى .

وهذا الدين فى جملته أعظم الأديان التى عرضت على بنى الإنسان جاذبية ، فهو يعرض نفسه دون ما قيد على جميع الأفراد ، والطبقات ، والأمم ؛ ولم يكن كالدين اليهودى مقصوراً على شعب بعينه أو على الأحرار فى أمة بعينها كما كانت الشعائر الرسمية فى رومة وبلاد اليونان ؛ والمسيحية إذ تجعل الناس

جميعاً وارثين لانتصار المسيح على الموت تعلن المساواة التامة الأساسية بين جميع بنى الإنسان ، وتجعل كل الفروق فى المراتب الدنيوية أموراً عارضة تافهة ؛ وقد وهبت البائسين ، والمحطمين ، والمحرومين ، واليائسين ، والأذلاء ، جميعاً فضيلة الرحمة التى لم يكن لهم بها عهد من قبل ؛ كما وهبتهم العزة والكرامة التى ترفع من قدرهم وتعلى شأنهم ، ووهبتهم فوق ذلك وحياً وإلهاماً ينبعث من صورة المسيح وقصته ومبادئه الأخلاقية ؛ وأضاءت حياتهم بما تبعث فيهم من أمل فى ملكوت الله المقبلة ، وفى السعادة الدائمة بعد الموت ؛ ووعدت أشد الناس ذنوباً بالعفو عن ذنوبهم وبقبولهم فى الناجين من العقاب فى الدار الآخرة ؛ أما العقول التى أقلقها طول البحث فى المشاكل المعقدة كمشاكل أصل الحياة ومصير الإنسان والشر والآلام فقد جاءت إليها بمجموعة من العقائد الموحى بها من عند الله تستطيع أكثر النفوس سذاجة أن تجد فيها السلوى والراحة العقلية ؛ وجاءت إلى الرجال والنساء الذين يحيون حياة الفاقة والكدح بمباهج العشاء الربانى والقداس ، وهما من الشعائر التى تجعل كل حادثه كبرى فى الحياة منظراً خطيراً فى مسرحية الله والإنسان ؛ وجاءت إلى الفراغ الخلقى الذى خلقته الوثنية المحتضرة ، وإلى فتور الرواقية وفساد الأبيقورية ، وإلى العالم الذى أنهكته علل الوحشية ، والقسوة ، والظلم ، والفوضى الجنسية ؛ وإلى الإمبراطورية الجانحة إلى السلم ، والتى بدت فى غير حاجة إلى فضائل الرجولة القوية ، أو إلى آلهة الحرب ، جاءت إلى هذه كلها بقانون أخلاقى جديد قائم على الأخوة ، والرحمة ، والتأديب ، والسلام .

وبعد أن تشكل الدين الجديد بحيث يفى بحاجات الإنسان أخذ ينتشر بين الناس بما أوتى من قدرة على الذيوع والانتشار ؛ فكان كل من اعتنق هذا الدين ينصب نفسه داعياً له بحماسة لا تقل فى قوتها عن حماسة الثوار . وكانت طرق الإمبراطورية الرومانية ، وأنهارها ، وشواطئ بحارها ، ومسالكها التجارية



(شكل – ١٤) هيكل ڤينوس أو باخوس فى بعلبك

أهم العوامل التى عينت الخطوط الرئيسية لنماء الكنيسة المسيحية ، فاتجه هذا النماء شرقا من أورشليم إلى دمشق ، والرها ، ودورا ، وسلوقية ، وطشقونة ؛ واتجه منها جنوبا عن طريق بصرى ، وبطرا إلى بلاد العرب ؛ وغربا عن طريق سوريا إلى مصر ، وشمالا عن طريق أنطاكية إلى آسية الصغرى وأرمينية ؛ ومن إفسوس وترواس وراء بحر إيجه إلى كورنثة (كورنثوس) وتسالونيكى ، وإلى درهكيوم وراء الطريق الإجناسى ؛ ثم اخترق البحر الأدرياوى إلى برنديزيوم ، أو عن طريق سلا وكربيلس إلى بتيولى وروما ؛ وعن طريق صقلية ومصر إلى شمالى أفريقية ، واخترق البحر المتوسط أو جبال الألب إلى أسبانيا وغالة ، ومنها إلى بريطانيا . ثم سار الصليب على مهل فى أعقاب الحكم الرومانى ، وشق النسر الرومانى الطريق للمسيح ؛ وكانت آسية الصغرى فى ذلك الوقت حصن المسيحية الحصين ، ولم يكد يحل عام ٣٠٠ حتى كانت الكثرة الغالبة من سكان إفسوس وأزمير من المسيحيين[٣٢] . وعلا شأن الدين الجديد فى شمالى أفريقية ، فأضحت قرطاجنة وهپو مركزين رئيسيين للعلم والجدل المسيحيين ، وفيهما وجد آباء الكنيسة اللاتينية ، العظام — ترتليان ، وكبريان ، وأوغسطين ؛ وهنا اتخذت نصوص القداس اللاتينية وترجمة العهد القديم اللاتينية صورتيهما المعروفتين وبلغ عدد الجالية المسيحية فى رومة قبيل آخر القرن الثالث نحو مائة ألف ، وكان فى وسع الجالية أن تمد بمعونتها المالية غيرها من الجاليات ، وكانت من عهد بعيد تطالب لأسقفها بالسلطة العليا على سائر الكنائس .

ويمكننا أن نقول بوجه عام إنه لم يحل عام ٣٠٠ بعد الميلاد حتى كان ربع سكان الشرق وجزء من عشرين جزءاً من سكان الغرب من المسيحيين . وفى ذلك يقول ترتليان (حوالى ٢٠٠) ، « يجهر الناس بأن الدولة مكتظة بنا ، ذلك أن الخلائق على اختلاف سنهم ، وأحوالهم ، ومراتبهم ، يهرعون إلينا ، وينضوون تحت لوائنا . إنا أبناء الأمس القريب ، ولكننا رغم هذا قد ملأنا العالم كله »[٣٣] .

الفصل الثانى

تنازع العقائد

لو أن عادات وعقائد مختلفة متناقضة لم تنشأ فى مراكز المسيحية المتعددة المستقلة بعضها عن بعض إلى حد ما والخاضعة إلى تقاليد وبيئات مختلفة ، لو أن هذا لم يحدث لكان عدم حدوثه أمراً شديد الغرابة . ولقد قدر للمسيحية اليونانية بنوع خاص أن يطغى عليها سيل من البدع الدينية بتأثير عادات العقل اليونانى الميتافيزيقية المولعة بالنقاش والجدل ؛ وليس من المستطاع فهم المسيحية على حقيقتها إلا إذا عرفنا ما دخل فيها من هذه البدع ، لأنها وإن غلبتها لم تسلم من بعض ألوانها وأشكالها .

وكان ثمة عقيدة مشتركة وحدت الجماعات المسيحية المنتشرة فى أنحاء العالم : هى أن المسيح ابن الله ، وأنه سيعود لإقامة مملكته على الأرض ، وأن كل من يؤمن به سينال النعيم المقيم فى الدار الآخرة . ولكن المسيحيين اختلفوا فى موعد عودة المسيح ؛ فلما أن مات نيرون ، وخرب تيطس الهيكل ، ولما أن دمر هدريان أورشليم ، رحب كثيرون من المسيحيين بهذه الكوارث وعدوها بشائر بعودة المسيح .

ولما أن هددت الفوضى الإمبراطورية فى أواخر القرن الثانى ، ظن ترتليان وغيره أن آخرة العالم قد دنت[٣٤] ؛ وسار أحد الأساقفة السوريين على رأس قطيعه إلى الصحراء ليلتقى بالمسيح فى منتصف الطريق ، وأفسد أسقف آخر فى بنطس نظام أتباعه بأن أعلن أن المسيح سيعود فى خلال عام واحد[٣٥] . ولما لم تصدق كل هذه العلامات ، ولم يعد المسيح ، رأى عقلاء المسيحيين أن يخففوا من وقع هذه الخيبة بتفسير موعد عودته تفسيراً جديداً ، فقيل فى رسالة معزوة إلى برنابا

إنه سيعود فى خلال ألف عام[٣٦] ؛ وقال أشد هؤلاء حذراً إن عودته ستكون حين ينقرض « جيل » اليهود أو شعبهم عن آخره ، أو حين لا يبقى أحد من غير اليهود لم يصل إليه الإنجيل ؛ أو كما يقول إنجيل يوحنا : إنه سيرسل بدلا منه الروح القدس أو المقرّى(*) ؛ ثم نقل الملكوت آخر الأمر من الأرض إلى السماء ، ومن حياة الناس فى هذه الدنيا إلى الجنة فى الدار الآخرة . بل إن الاعتقاد بعودة المسيح بعد ألف عام أصبح لا يلقى تشجيعاً من الكنيسة ، وانتهى الأمر بأن صارت تقاومه وتحكم على القائلين به بالزيغ والضلال .

وملاك القول أن الاعتقاد بعودة المسيح الثانية هى التى أقامت صرح المسيحية ، وأن الأمل فى الدار الآخرة هو الذى أبقى عليها(**) .

وإذا غضضنا النظر عن هذه العقائد رأينا أن أتباع المسيح قد انقسموا فى الثلاثة القرون الأولى من ظهوره إلى مائة عقيدة وعقيدة . ولو أننا عمدنا إلى ذكر العقائد الدينية المختلفة التى حاولت أن تستحوذ على الكنيسة الناشئة ثم عجزت عن الوصول إلى غرضها ، والتى اضطرت الكنيسة إلى أن تصمها واحدة بعد واحدة بأنها كفر وسعى إلى الانشقاق والتفريق ، لو أننا فعلنا هذا لكان ذلك جهلا منا بالغرض من كتابة التاريخ .

(*) إنجيل متى ١٤ : ١٦ : ٢٦ (المترجم)

(**) يفسر آلاف من المسيحيين ، ومنهم كثيرون من العاملين بها ، اضطرابات هذه الأيام بأنها النذر المنبئة بقرب عودة المسيح . ولا يزال ملايين من المسيحيين وغير المسيحيين ، والملحدين يعتقدون بأن ستكون على الأرض جنة تختفى منها الحروب والشرور . ويمكن تشبيه عقيدتى النعيم فى الدار الآخرة وجنة الدنيا بدلوين يتبادلان النزول فى بئر إذا نزلت إحداها ارتفعت الأخرى . فلما أن ضعف شأن الأديان اليونانية والرومانية القديمة ، ثارت الاضطرابات الشيوعية فى أثينة (٤٣١ ق . م) ، وبدأت الثورة فى رومة (١٣٣ ق . م) ، ولما أخفقت هاتان الحركتان ، نجحت العقائد القائلة بالبعث والنشور وبلغت ذروتها فى الدين المسيحى ؛ ولما أن ضعفت العقيدة المسيحية فى القرن الثامن عشر بعد الميلاد عادت الشيوعية إلى الظهور . وعلى هذا الاعتبار يكون مستقبل الدين مضموناً لا خوف عليه .

وجدير بنا أن نشير هنا إلى أن الأدرية(*) - أى طالب العلم الربانى (gnosis) عن طريق التصوف - لم تكن كفراً بالمسيحية بقدر ما كانت عقيدة منافسة لها . لقد نشأت هذه العقيدة قبل المسيحية ، وكانت تبشر بوجود المنقذ (Soter) قبل أن يولد المسيح(٣٧) . وأكبر الظن أن سمعان المجوسى السامرى الذى عاب عليه بطرس اتجاره بالرتب الكهنوتية كان هو نفسه مؤلف كتاب **المعرض الأكبر** الذى جمع فيه طائفة لا حصر لها من الأفكار الشرقية عن الخطوات المعقدة التى يستطيع بها العقل البشرى أن يصل إلى العلم اللدنى بالأشياء كلها . وفى الإسكندرية امتزجت الأرفية ، والفيثاغورية الجديدة ، والأفلاطونية الجديدة بفلسفة فيلون العقلية ودفعت بسيليدس Basilides (١١٧) ، وفلنتينس Valentinus (١٦٠) وغيرهما إلى تكوين أنظمة عجيبة من « الفيض الربانى » و « إيوناب » العالم المجسدة(**) ، وأوجد بردسانس Bardesanes (٢٠٠) فى الرها اللغة السريانية الأدبية بوصفه هذه الإيونات شعراً ونثراً . وعرض ماركس الأدرى The Gnostic Marcus فى غالة أن يكشف للنساء أسرار ملائكتهن الحارسة ، وكان كل ما أوحى به إليهن إطراء لهن ونفاقاً ، وقبل فى نظير ذلك أن يستمتع بهن(٣٨) .

وكان أعظم الملاحدة الأولين من غير الأدريين ، ولكنه تأثر بآرائهم الدينية . وتتلخص قصة مرسيون Marcion وهو شاب ثرى من أهل سينوب فى أنه جاء إلى رومة حوالى عام ١٤٠ معتزماً أن يتم ما بدأه بولس وهو تخليص المسيحية من اليهودية . وكان مما قاله مرسيون إن المسيح حسب رواية الأناجيل ،

(*) مذهب شيعة كانت تقول إن المادة قديمة وإن الشر من طبيعتها وتخلط بين النصرانية ومذهب الماديين والمجوس . (المترجم)

(**) جمع إيون وهو فى الفلسفة القديمة صفة من صفات الله تجسدت وكان لها نصيب فى خلق العالم . (المترجم)

قد قال إن أباه إله رحيم ، غفور ، محب ؛ على حين أن يهوه ، كما يصفه العهد القديم ، إله غليظ القلب ، صارم فى عدله مستبد ، إله حرب ؛ ولا يمكن أن يكون يهوه هذا أباً للمسيح الوادع . وتساءل مرسيون قائلا أى إله خير تطاوعه نفسه بأن يقضى على البشر جميعاً بالشقاء لأن أباهم الأول أكل تفاحة ، أو رغب فى المعرفة أو أحب امرأة ؟ إن يهوه موجود ، وهو خالق العالم ، ولكنه خلق لحم الإنسان وعظامه من المادة ، ولهذا ترك روح الإنسان مسجونة فى قالب من الشر . وأراد إله أكبر من يهوه أن يطلق هذه الروح من ذلك السجن فأرسل ابنه إلى الأرض ؛ وظهر المسيح ؛ وكان عند ظهوره فى سن الثلاثين ، فى جسم طيفى غير حقيقى ، وكسب بموته لخيار الناس ميزة البعث الروحى الخالص . ويقول مرسيون إن الأخيار هم الذين يفعلون ما فعله بولس فينبذون يهوه والشريعة اليهودية ، ويرفضون الكتب العبرانية المقدسة ، ويتجنبون الزواج ، واللذات الجنسية جميعها ، ويتغلبون على الجسم بالزهد الشديد . وعمل مرسيون على نشر هذه الآراء بإصدار عهد جديد غير العهد المعروف يتكون من إنجيل لوقا ورسائل بولس ؛ وأصدرت الكنيسة قراراً بحرمانه ، وردت إليه المال الكثير الذى وهبه إليها حين جاء إلى رومة .

وبينا كانت الشيعتان الأدرية والمرسيونية آخذتين فى الانتشار السريع فى الشرق والغرب ظهر زعيم جديد لشيعة ضالة أخرى فى ميسيا Mysia . فقد قام فى عام ١٥٦ رجل يدعى منتانس Montanus يندد بتعلق المسيحيين المتزايد بشئون هذا العالم وبازدياد سلطان الأساقفة المطلق على الكنيسة ، وأخذ يطالب بالعودة إلى بساطة المسيحية الأولى وصرامتها ، ويرد حق التنبؤ أو القول الملهم إلى أعضاء الجماعات المسيحية . وآمنت امرأتان تدعيان بريسلا Priscilla ومكسمليا Maximillia بأقواله ، وأخذتا تنطقان فى أثناء غيبوبتهما الدينية بأقوال أصبحت النبوءات الباقية لهذه الشيعة . وكان منتانس نفسه يتنبأ فى أثناء نشوته الدينية بنبوءات بلغ من فصاحتها أن أتباعه الفريجيين أخذوا يلقبونه بالحدى الذى وعد

به المسيح ، ويلقونه بنفس الترحيب الحماسى الذى كان يصدر من أتباع ديونيشس . وكان مما تنبأ به أن ملكوت السموات قد دنت ساعتها ، وأن أورشليم الجديدة التى يقول بها سفر الرؤيا ستنزل من السماء على سهل قريب بعد زمن قليل . ثم سار بنفسه إلى هذه الأرض الموعودة على رأس حشد من الناس بلغ من الكثرة درجة خلت معها بعض المدن من سكانها . وحدث فى هذا الوقت ماحدث فى بداية عهد المسيحية فامتنع الناس عن الزواج وعن التناسل ، وجعلوا متاعهم ملكا مشاعاً بينهم ، وعمدوا إلى التقشف والزهد استعداداً لمجىء المسيح[٣٩]. ولما اضطهد أنطونينس الحاكم الرومانى المسيحيين فى آسية الصغرى هرع مئات من أتباع منتانس إلى محاكمه سعياً منهم إلى الاستشهاد ، ورغبة فى الجنة . ولم يستطع أنطونينس أن يحاكمهم كلهم فاكتفى بإعدام بعضهم وطرد معظمهم وقال لهم : « أيها الخلائق التعساء ! إذا كنتم تريدون الموت حقاً ؛ فهل عدمتم الحبال وأجراف الصخر العالية ؟ »[٤٠] وأعلنت الكنيسة أن تعاليم منتانس كفر وضلال ، وأمر جستنيان فى القرن السادس الميلادى بإبادة هذه الشيعة عن آخرها ، فاجتمع بعض أتباع منتانس فى كنائسهم ، وأضرموا فيها النار ، واحترقوا فيها أحياء[٤١] .

أما الشيع الضالة الصغرى فقد كانت مما يخطئه الحصر ، فمنها شيعة الزهاد التى عمدت إلى قمع شهواتها بمختلف الوسائل ، وقالت إن الزواج من الخطايا ؛ ومنها شيعة المتخيلة (Docetists) (*) القائلة بأن جسم المسيح لم يكن لحما ودماً بل كان شبحا أو خيالا ، ومنها الثيودوتية التى لم تكن ترى فى المسيح أكثر من إنسان ، والمتبنية(**) ، وأتباع بولس السموساتى **Samosata** وكانت هاتان الطائفتان تعتقدان أن المسيح كان بمولده رجلا عاديا ولكنه وصل إلى درجة الألوهية بكماله الخلقى ؛ ومنها الظاهرية **Modalists** والسابلية

(*) والاسم مشتق من اللفظ اليونانى **dokein** أى يبدو . (المترجم)

(**) أى التى تقول إن المسيح ابن الله بالتبنى لا بالطبيعة . (المترجم)

(أتباع سابليوس) القائلة بأن الأب والابن والروح القدس ليست أقانيم منفصلة بل هي صور مختلفة يظهر فيها الله للإنسان ، ومنها المنكرون وجود شخصية مستقلة للمسيح والقائلون إن ألوهيته ليست إلا قوة وهبت له . وهؤلاء كلهم يعتقدون أن الأب والابن شخص واحد ؛ واليعاقبة الذين يعتقدون أن للمسيح طبيعة واحدة ؛ ومنها القائلون بأن للمسيح مشيئة واحدة ، وتغلبت الكنيسة على هذه الشيع كلها بما كان لها من نظام خير من نظمها جميعا ؛ وبتمسكها الشـديد بمبادئها ، وبفهمها طبائع الناس وحاجاتهم أكثر منها .

وظهر فى القرن الثالث خطر جديد فى بلاد الشرق يهدد كيان المسيحية ، ذلك أن شابا صوفيا فارسيا يدعى مانى الطشفونى أعلن عند تتويج شابور (٢٤٢) أنه المسيح المنتظر ، وأن الإله الحق أرسله إلى الأرض ليقوم حياة البشر الدينية والأخلاقية . وأخذ مانى عقائده من الزردشتية ، والمثراسية ، واليهودية ، والأدرية ؛ فقسم العالم مملكتين متناقستين هما مملكتا الظلمة والنور ؛ وقال إن الأرض تتبع مملكة الظلمة ، وإن الشيطان هو الذى خلق الإنسان ، ولكن ملائكة إله النور استطاعت بطريقة خفية أن تدخل إلى البشرية بعض عناصر النور وهى العقل والذكاء والتفكير . وقال مانى إن فى النساء أنفسهن بصيصاً قليلا من النور ، ولكن المرأة هى خير ما صنع الشيطان ، وهى عامله الأكبر فى إغواء الرجل وإيقاعه فى الذنوب . فإذا امتنع الرجل عن العلاقات الجنسية ، والكلف بالنساء وعن السحر ، وعاش عيشة الزهد ، ولم يطعم إلا الأغذية النباتية ، وصام عن الطعام بعض الوقت ، فإن ما فيه من عناصر النور يتغلب على الدوافع الشيطانية ، ويهديه إلى النجاة ، كما يهديه النور الرحيم . وظل مانى ينشر دعوته بنجاح ثلاثين عاماً صلب بعدها بناء على طلب كهنة المجوس ، وحشى جلده بالقش ، وعلق على أحد أبواب مدينة السوس ؛ وبعث استشهاده الناس حماسة قوية ، فانتشرت مبادئه فى غربى آسية وشمالى أفريقية ، واعتنقها أوغسطين مدى

عشرين عاما ؛ وعاشت بعد اضطهاد دقلديانوس ، وفتوح المسلمين ، وظلت تحيا حياة مضمحلة مدى ألف عام إلى أن ظهر چنكيزخان .

وكانت الأديان القديمة لاتزال هي أديان الكثرة الغالبة من سكان الإمبراطورية ؛ فأما اليهودية فقد ضمت في مجامعها المتفرقة المطرودين من أتباعها بعد أن عضهم الفقر بنابه ، وأخذت تنفس عن تقواها بترتيل التلمود ؛ وظل السوريون يعبدون بعل وإن أسموه بأسماء يونانية ، كما ظل الكهنة المصريون قائمين على خدمة آلهتهم الحيوانية الكثيرة بإخلاص وولاء ؛ واحتفظت سيبيل ، وإيزيس ، ومثراس ، بأتباعها إلى آخر القرن الرابع ؛ واستحوذت مثراسية جديدة على الدولة الرومانية في عهد أورليان ؛ واستمرت النذور والقرابين ترسل إلى آلهة الرومان القديمة في هياكلها ، وظل المبتدئون والطلاب يرحلون إلى اليوزيا ، والمواطنون الذين يتطلعون إلى المراكز العليا في الدولة يؤدون مناسك دين الأباطرة في مختلف أنحائها ؛ لكن هذه الأديان القديمة فقدت حيويتها ، ولم تعد تثير في الناس ذلك الإخلاص القلبي الذي يبعث الحياة في الدين اللهم إلا في أماكن قليلة متفرقة ؛ ولم يكن سبب هذا الضعف أن اليونان والرومان قد تركوا أديانهم التي كانت في يوم من الأيام إما جميلة محببة أو قوية صارمة ؛ بل كان سببه أنهم فقدوا إرادة الحياة ، وعمدوا إلى الإسراف في تحديد النسل إلى أبعد الحدود ، أو إنهاك الجسم ، أو الحروب المدمرة ، فقل عددهم إلى الحد الذي أفقد الهياكل عبادها في الوقت الذي فقدت فيه الأرض زراعها .

وبينا كان أورليوس يقاتل المركمانيين على ضفاف الدانوب في عام ١٧٨ حاولت الوثنية محاولة خطيرة أن تحمى نفسها من المسيحية ؛ وكل ما نعرف عن هذه المحاولة مستمد من كتاب أرجن Origen المسمى *ضد سلسس* Againist Celsus وما فيه من عبارات نقلت في غير عناية من كتابه *كلمة الحق* لسلسس .

وكان سلسس هذا — وهو ثانى رجل نذكره فى قصتنا بهذا الإسم — رجلا من رجال الدنيا الذين يمتعون أنفسهم بنعيمها ، ولم يكن من الفلاسفة ؛ وكان يحس أن الحضارة التى يستمتع بها مرتبطة أشــد الارتباط بالدين الرومانى ، ولذلك أخذ على عاتقه أن يدافع عن هذا الدين بأن يهاجم المسيحية التى كانت وقتئذ أكبر أعدائه وأشدهم بأساً . وعمد إلى دراسة الدين الجديد دراسة دهش من غزارتها أرجن العالم النحرير . ثم أخذ يهاجم ما فى الكتاب المقدس من أمور لا تجوز ، على حد قوله ، إلا على بسطاء العقول ، كما هاجم صفات يهوه ، وما يعزى إلى معجزات المسيح من أهمية ، وما بين موت المســيح وقدرته الإلهية من تناقض . وسخر من اعتقاد المسيحيين بالنار التى سيحترق بها العالم آخر الأمر ، وبيوم الحساب ، وبعقيدة البعث والنشور :

« من السخف أن نظن أنه حين يأتى الله بالنار ، كما يفعل الطهاة ، سيحترق بها سائر البشر ولا يبقى إلا المسيحيون — لا الأحياء منهم وحدهم ، بل من ماتوا من زمن طويل ، فيقوم هؤلاء من قبورهم فى الأرض بأجسامهم التى كانت لهم قبل الموت . الحق أن هذا هو أمل الدود ! . . . وليس فى وسع المسيحيين أن يُقنعوا بهذه العقائد إلا المغفلين ، الأراذل ، ضعاف العقول من العبيــد والنساء والأطفال ماشطى الصوف ، والأساكفة ، والقصارين أجهل الناس وأسافلهم ؛ وكل من هو مذنب آثم ، أو أبله أضله الله سواء السبيل »[٤٢] .

وقد روع سلسس انتشار المسيحية ، وعداؤها للوثنية وازدراؤها إياها ، هى أو الخدمة العسكرية ، والدولة ؛ وقال فى نفسه : كيف تستطيع الإمبراطورية أن تحمى نفسها من البرابرة الذين يحومون حول أطرافها فى جميع جهاتها إذا خضع أهلها لهذه الفلسفة المسالمة ؟ وكان يرى أن من واجب المواطن الصالح أن

يدين بدين بلاده والعصر الذى يعيش فيه ، دون أن ينتقد علناً ما فيه من سخافات ، لأن هذه السخافات لا أهمية لها ، أما الشىء المهم حقا فهو أن يكون للدولة دين يوحدها ، ويعين على الخلق الكريم ، ويثبت قواعد الولاء لها .

ونسى سلسس ما صبه على المسيحيين من إهانات ، فدعاهم إلى أن يعودوا إلى الآلهة القديمة ، وأن يعبدوا عبقرية الإمبراطور الحارسة ، وأن ينضموا إلى سائر مواطنيهم فى الدفاع عن الإمبراطورية التى يتهددها الخطر . غير أن أحداً لم يلق بالا إلى هذه الدعوة ؛ ولسنا نجـد له ذكراً فى الآداب الوثنية ، وكان قسطنطين أكثر منه حكمة فأدرك أن الدين الميت لا يستطيع أن ينجى رومة .

الفصل الثالث

افلوطينس

يضاف إلى هذا أن سلسس كان متقدما عن العصر الذى يعيش فيه ؛ فقد كان يطلب إلى الناس أن يتخلقوا بأخلاق السادة المهذبين المتشككين فى وقت كانوا يعتزلون فيه مجتمعاً استعبد الكثيرين منهم إلى عالم متصوف يجعل من كل إنسان إلهاً . وكان شعور الناس بهذه القوى التى لاتدركها الحواس ، وهو الشعور الذى يقوم عليه الدين ، قد أخذ ينتشر انتشاراً واسعاً ويتغلب على مادية العصر الذى كان يزدهى بما فيه ، والذى كانت تسوده المادية والجبرية . وكانت الفلسفة فى ذلك الوقت تتخلى عن تفسير التجارب الحسية التى هى ميدان العلوم الطبيعية ، وتوجه همها كله إلى دراسة العالم الغير المنظور . وأنشأ الفيثاغوريون الجدد والأفلاطونيون الجدد من نظرية فيثاغورس فى تناسخ الأرواح ، وآراء أفلاطون فى الأفكار الإلهية ، نظاما من الزهد أرادوا به أن يقووا الإدراك الروحى بإماتة الحواس الجسمية ، وأن يعودوا بتطهير أنفسهم إلى صعود الدرج التى انحطت بها الروح من عالم السماوات وسكنت فى جسم الإنسان .

وكان أفلوطينس أكبر الممثلين لهذه الفلسفة الدينية الصوفية . وكان مولده فى ليقوپوليس عام ٢٠٣ م ، أى أنه كان قبطيا مصريا ذا اسم رومانى وتربية يونانية . وعثر على الفلسفة فى سن الثامنة والعشرين ، وأخذ ينتقل من معلم إلى معلم دون أن يجد فى أحد منهم بغيته حتى وجد طلبته فى الإسكندرية ، فقد كان فيها وقتئذ أمونيوس سكاس Ammonius Saccas ، وهو رجل مسيحى ارتد إلى الوثنية ، وكان يحاول التوفيق بين المسيحية والأفلاطونية ، كما فعل تلميذه أرجن من بعده . وبعد أن تتلمذ أفلوطينس على أمونيوس عشر سنين انضم إلى جيش موجه إلى بلاد

الفرس لعله يتلقى الحكمة عن المجوس والبراهمة أنفسهم . فلما وصل إلى أرض الجزيرة قفل راجعا إلى أنطاكية ، ثم ذهب إلى رومة (٢٤٤) وبقى فيها حتى توفى . وقد انتشر مذهبه الفلسفى وأصبح طراز ذلك العصر ، فضمه الإمبراطور جالينوس Gallienus إلى حاشيته ، ورضى أن يساعده على أن ينشئ فى كمپانيا مدينة أفلاطونية تُحكَم على مبادئ جمهورية أفلاطون ، لكن جالينوس رجع فيما بعد عن وعده ، ولعله فعل ذلك ليوفر على أفلوطينس إخفاقه المخزى .

وأعاد أفلوطينس إلى الفلسفة سمعتها الطيبة بأن عاش معيشة القديسين وسط ترف رومة ورذائلها ؛ فلم يكن يعنى بجسمه ؛ بل إنه « كان يستحى أن يكون لروحه جسد » على حد قول پرفيرى Porphyry[٤٣] . ومن الأدلة الناطقة باحتقاره جسده أنه أبى أن يقف أمام المصورين بحجة أن جسمه أقل أجزائه شأنا – وفى ذلك إشارة إلى الفن بأن يعنى بالروح لا بالجسم . وحرم على نفسه اللحم ، ولم يأكل من الخبز إلا قليلا : وكان بسيطا فى عاداته رحيما فى أخلاقه ، وابتعد عن كل العلاقات الجنسية ، وإن لم يذمها . وكان تواضعه هو الخليق بالرجل الذى يرى الجزء فى ضوء الكل . ولما حضر أرجن درسه علت وجه أفلوطينس حمرة الخجل وأراد أن يختم محاضرته فقال : « إن تحمس المحاضر يزول حين يحس بأن مستمعيه لا يجدون ما يتعلمونه منه »[٤٤] . ولم يكن أفلوطينس خطيبا مصقعا . ولكن عنايته الشديدة بموضوعه ، وإيمانه بما يُحَدِّث عنه قد عوضاه خير العوض عن البلاغة . ولم يسجل آراءه الفلسفية كتابة إلا متأخراً وسجلها مع ذلك وهو كاره . ولم يراجع قط مسودته الأولى ، ولا تزال الإنيادات رغم ما بذله پرفيرى من عناية فى نشرها أكثر المؤلفات اضطرابا فى تاريخ الفلسفة(*) .

(*) وقد رتب پرفيرى هذه الرسائل الأربع والخمسين فى تسع مجموعات زاعماً أن ٩ هو الرقم الكامل فى نظرية فيثاغورس ، لأنه مربع ٣ الثالوث الكامل الانسجام[٤٥] .

لقد كان أفلوطينس ذا نزعة مثالية يعترف متفضلا بوجود المادة ، ولكنه يقول إن المادة فى حد ذاتها هى إمكانية الشكل غير المتشكلة ، وكل شكل تتخذه المادة تعطيه إياها طاقتها الداخليــة أى النفس (Psyche) ، والطبيعة هى مجموع الطاقة أو النفس التى تنتج كلية الأشكال فى العالم ؛ والحقيقة الدنيا لا تنتج الحقيقة العليا ؛ أما الكائن الأعلى وهو النفس فينتج الأدنى — الصورة المجسدة . ونمو الإنسان الفرد من بداية خلقه فى الرحم وتكون أعضائه البطىء عضواً بعد عضو حتى يكتمل نموه من عمل النفس أو المبدأ الحيوى الذى فيه ؛ والجسم يتشكل تدريجيا بتوقان النفس أو توجيهها . ولكل شىء نفس — أى طاقة داخلية — هى التى تخلق الصورة الخارجية ، وليست المادة خبيثة إلا لأنها لم تتلق الصورة الناضجة ، فهى تطور وقف دون الكمال ؛ والشر هو إمكانية الخير .

ولسنا نعرف المادة إلا عن طريق الفكر — عن طريق الإحساس ، والإدراك ، والتفكير . وليس ما نسميه مادة إلا مجموعة من الأفكار (كما قال هيوم فيما بعد) ، وهى أكثر ما تكون شىء افتراضى مراوغ يضغط على أطراف أعصابنا (« إمكانية الإحساس الدائمة » التى يقول بها مل) ؛ وليست الأفكار شيئاً ماديا ؛ وما من شك فى أن فكرة الامتداد فى المكان لا تنطبق عليها ؛ والقدرة على تحصيل الأفكار واستخدامها هى العقل ؛ وهو قمة الثالوث البشرى المكون من الجسم ، والنفس ، والعقل . والعقل مقدار محدد من حيث اعتماده على الإحساس ؛ وهو حر لأنه أرقى صور النفس المبدعة المشكلة .

والجسد عضو النفس وسجنها معا ؛ والنفس تدرك أنها نوع من الحقيقة أرقى من الجسد ؛ وتشعر بما لها من صلة بنفس أكبر منها وأوسع ، أى بحياة وقدرة كونيتين من نوع ما ؛ وهى حين تعمل لتبلغ بالفكر إلى حد الكمال تأمل أن تتصل مرة أخرى بتلك الحقيقة الروحية العليا التى سقطت منها على ما يبدو فى أثناء كارثة أو محنة حدثت فى بداية الخليقة . وهنا يستسلم أفلوطينس فى بعض

ثوبات من تفكيره إلى الأدرية التى يقول إنه يرفضها ، ويصف سقوط النفس درجة بعد درجة من السماء إلى الإنسان ذى الجسد ؛ وهو على العموم يفضل الفكرة الهندية التى تقول إن النفس تنتقل من صور الحياة الدنيا إلى العليا أو من صورها العليا إلى الدنيا ، حسب فضائلها ورذائلها ، فى كل صورة من صور الحياة تنتقل إليها . وهو يبدو فى بعض الأحيان فيثاغوريا مازحا ، كما نراه فى قوله : « إن الذين يسرفون فى حب الموسيقى يصبحون فى تجسدهم الثانى طيوراً مغردة ، والفلاسفة الذين يتجاوزون الحد فى التفكير يتحولون إلى نسور[٤٦] . وكلما كانت النفس أكثر رقيا كانت أكثر إصراراً فى سعيها إلى أصلها القدسى ، ومثلها فى ذلك كمثل الطفل الذى ضل من أبويه أو كمثل الجائل المشتاق إلى العودة إلى وطنه . والنفس قادرة على أن تبلغ الفضيلة ، أو الحب الحقيقى ، أو الإخلاص إلى ربات الفن ، أو الفلسفة التى تحتاج إلى صبر طويل ؛ وستعثر على السلم الذى نزلت عليه ، وترقاه إلى ربها . فلتتطهر النفس إذن ، ولترغب رغبة صادقة فى الجوهر غير المرئى ، ولتفقد العالم عن طريق التأمل ؛ ولعلها فى لحظة من اللحظات التى تخفت فيها كل ضوضاء الحواس ، وتنقطع المادة عن طرق أبواب العقل ، ستحس فجاءة بأنها مستغرقة فى محيط الكينونة ، فى الحقيقة الروحية النهائية (وقد كتب ثورو وهو يطفو لاهيا على بركة والدن يقول : « لقد فارقت الحياة فى بعض الأحيان ، وبدأت أكون ») : ويقول أفلوطينس :

« فإذا حدث هذا ترى النفس الإلوهية إلى الحد الذى يحق لها أن تصل إليه فى رؤيتها . . . وتشهـــد نفسها قد أضيئت ، أى ملئت بنور عقلى ؛ أو بعبارة أصح تدرك أنها ضياء خالص ، غير مثقلة ، نشيطة ، خفيفة ، تسير فى طريقها إلى أن تكون إلها »[٤٧] .

ولكن ما هو الإله ؟ يقول أفلوطينس إنه « هو » أيضاً ثالوث — من الوحدة (hen) ، والفكر (nous) ، والنفس (psyche) . و « من وراء

الكائن يوجد الواحد » ؛ وفى خلال الفوضى الظاهرية البادية فى التعدد الدنيوى تسرى الحياة الموحِّدة . ولا نكاد نعرف عن هذا الواحد إلا أنه موجود ، وكل صفة موجبة نصفه بها ، أو ضمير متحيف نحله محله ، تحديد له غير لائق به . وكل ما نستطيع أن نسميه به هو أنه ، واحد ، وأول ، وخيِّر ، وأنه هدف رغبتنا العليا . وينشأ من هذه الوحدة العقل العالمى ، وهو المقابل عند أفلاطون للأفكار أى النماذج المشكلة ، والقوانين المتحكمة فى الأشياء ؛ أو أنها أفكار الله أو عقل الواحد ، أو نظام العالم ومعقوليته . وإذ كانت هذه الأفكار تبقى مع أن المادة صور متغيرة من الأشكال التى تأتى وتروح ، فإن هذه الأفكار هى الحقيقة الصحيحة الباقية . ولكن الوحدة والعقل ، وإن أمسكا الكون وحفظاه من التفكك ، لا يخلقانه ؛ بل الذى يخلقه هو العنصر الثالث من عناصر الألوهية — أى العنصر الذى يبعث الحياة والذى يملأ الأشياء جميعها ويكسبها قوتها وصورتها المقررة لها . ولكل شىء ، من الذرّة الصغيرة إلى الكوكب الكبير ، نفس تبعث فيه النشاط ، هى فى ذاتها جزء من النفس العالمية ، والنفس الفردية ليست خالدة إلا من حيث هى باعثة الحياة أو الطاقة لا من حيث هى كائن متميز(٤٩) . وليس الخلود هو بقاء الشخصية ، بل هو اندماج النفس فى الأشياء التى لا تموت(٥٠) .

والفضيلة هى حركة النفس نحو الله ؛ وليس الجمال مقصوراً على التناسق والتناسب كما ظن أفلاطون وأرسطو بل هو النفس الحية ، أو الألوهية غير المنظورة التى فى الأشياء ، وهى غلبة الروح على الجسد ، والصورة على المادة ، والعقل على الأشياء ؛ والفن هو تحويل هذا الجمال العقلى أو الروحى إلى وسط آخر : ويمكن أن تدرب النفس على أن ترتفع من طلب الجمال فى المادة أو فى الصور البشرية إلى طلبه فى النفس الخفية ، فى الطبيعة وسننها ، وفى العلم ، وما يكشف عنه من نظام دقيق بديع ، وإلى طلبه آخر الأمر فى الوحدة القدسية التى تؤلف بين

الأشياء كلها ، بما فيها الأشياء المتنافرة المتعارضة ، وتجعل منها نظاماً متناسقاً سامياً يثير الدهشة والإعجاب[٥١] . والجمال والفضيلة شيء واحد فى نهاية الأمر — وهما اتحاد الجزء مع الكل وتعاونه معه .

« ارجع إلى نفسك وتأمل ، وإذا لم تجد نفسك جميلا فافعل مع ذلك ما يفعله صانع التمثال . . . فهو يقطع هنا ، ويصقل هناك ، ويجعل هذا الخط أخف ، وذاك أنقى ، حتى ينشأ لتمثاله وجه جميل . فافعل أنت مثل فعله : واقطع كل شيء زائد ، وقوّم كل معوج . . . ولا تنقطع عن نحت تمثالك حتى . . . ترى الطيبة الكاملة مستقرة فى الحرم النقى الطاهر »[٥٢].

إنا لنحس فى هذه الفلسفة بما نحس به فى المسيحية المعاصرة لها من جوّ روحانى — نحس بابتعاد العقول الغضة عن مطالب الحياة الدنيوية واتجاهها نحو الدّين ، وفرارها من الدولة إلى الله . وليس بعجيب أن يكون أفلوطينس وأرجن تلميذين زميلين وصديقين ، وأن ينشئ كلمنت Clement أفلاطونية مسيحية فى الإسكندرية . وأفلوطينس هو آخر الفلاسفة الوثنيين العظام ، وهو مسيحى بلا مسيح ، مثله فى هذا كمثل إبكتتس وأورليوس . ولقد قبلت المسيحية كل سطر من أسطره تقريباً ، وما أكثر صحائف أوغسطين التى تردد نشوة هذا الصوفى الجليل . وعن طريق فيلون ، ويوحنا ، وأفلوطينس ، وأوغسطين ، غلب أفلاطون أرسطو ، وتعمق فى أبعد أغوار اللاهوت الكنسى ، وأخذت الثغرة القائمة بين الفلسفة والدين تضيق شيئاً فشيئاً ، ورضى العقل مدى ألف عام أن يسير فى ركاب الدين .

الفصل الرابع

حماة الدين

وهنا كسبت الكنيسة طائفة من المؤيدين كانوا أحصف عقول الإمبراطورية ، منهم أغناثيوس أسقف أنطاكية الذى أنشأ أسرة قوية من « الآباء » جاءوا بعد الرسل ، ووهبوا المسيحية فلسفة غلبوا أعداءها بحججها القوية . ومنهم جستين Justin الذى حكم عليه بأن يُلقى للوحوش لأنه أبى أن يرتد عن دينه ، فكتب ، وهو فى طريقه إلى رومة ، عدداً من الرسائل تفيض إخلاصاً وحماسة وتكشف عن الروح التى كان المسيحيون يلقون بها الموت :

« فليعلم جميع الناس أنى أموت طائعاً فى حب الله ، إذا لم يحل أحد بينى وبين الموت . وأتوسل إليكم ألا تأخذكم بى رأفة أرى أنها فى غير أوانها ، بل اتركونى تنهشنى السباع التى أستطيع أن أصل عن طريقها إلى الله . . . بل أغروا الوحوش بدلا من هذا أن تلتهمنى فلا تترك قطعة من جسدى ، حتى إذا نمت نومى الأخير لا أكون كلاً على أحد من الناس . . . ألا ما أشد شوقى إلى الوحوش التى أعدت لى . . . ألا فليكن من نصيبى النار والصليب [القتل صلباً] ، وقتال الوحوش ، والتقطيع والتمزيق ، وتهشيم العظام ، وبتر الأطراف ، وتحطيم جسمى كله ، وأقسى أنواع العذاب الشيطانى إذا كنت بهذه الطريقة أصل إلى يسوع المسيح »[٥٣] .

وكتب كودراتس Quadratus ، وأثينا جورس Athenagoras وكثيرون غيرهما « دفاعاً » عن المسيحية ، وكانوا يوجهون هذا الدفاع عادة إلى الإمبراطور . وكتب منوسيوس فلكس Minucius Felix حواراً رائعاً يكاد يضارع كتاب شيشرون فى بلاغته ، أجاز فيه لكاسليوس Caecilius

أن يدافع عن الوثنية دفاعاً قويا ، ولكنه جعل أكتاڤيوس يرد عليه بأدب جم كاد يقنع كاسليوس بأن يعتنق المسيحية . ولما جاء جستين Justin السامرى إلى رومة فى عهد أنطونينس افتتح فيها مدرسة لتعليم الفلسفة المسيحية ، وحاول فى « دفاعين » بليغين أن يقنع الإمبراطور و « فرسمس الفيلسوف » Verissimus بأن المسيحيين مواطنون مخلصون ، لا يتوانون عن أداء الضرائب ، وأنهم إذا عوملوا معاملة الأصدقاء قد يصبحون عوناً عظيم القيمة للدولة . وظل عدة سنين ينشر تعاليمه دون أن يصاب بأذى ، ولكن حدة لسانه خلقت له أعداء ، ولهذا استطاع أحد الفلاسفة المنافسين له أن يغرى ولاة الأمور فى عام ١٦٦ بالقبض عليه هو وستة من أتباعه وإعدامهم على بكرة أبيهم . وبعد ست سنين من ذلك الوقت قام إيرينيوس Irenaeus أسقف ليون بحملة قوية يدعو فيها إلى وحدة الكنيسة ، وذلك فى كتابه المسمى معارضة الإلحاد Adversus Haeresse وهو حملة قوية على كافة ضروب الإلحاد . وقد قال إيرينيوس إنه لا سبيل إلى منع المسيحية أن تتفرق فتصبح ألف شيعة وشيعة إلا أن يرضى المسيحيون بالخضوع لسلطة واحدة تحدد لهم مبادئ دينهم — وتلك السلطة هى قرارت مجالس الكنيسة الأسقفية .

وكان أجرأ المدافعين عن المسيحية فى تلك الفترة هو كونتس سپتميوس ترتليانس Quintus Septimius Tertuilianus القرطاجنى . وكان مولده فى تلك المدينة حوالى عام ١٦٠ ، وكان والده قائداً رومانيا على مائة ، ولما شب درس البلاغة فى نفس المدرسة التى تعلم فيها أپوليوس Apuleius ، ثم اشتغل بالمحاماة عاماً واحداً فى رومة . واعتنق المسيحية فى كهولته وتزوج بمسيحية ، ونبذ كل اللذائذ الوثنية ورسم قساً (كما يقول جيروم) . فلما تم له هذا استخدم جميع الفنون والأساليب التى عادت عليه من تعلم البلاغة للدفاع عن الدين المسيحى ، وضم إليها حماسة الرجل المؤمن المهتدى إلى دينه . لقد كانت المسيحية اليونانية فلسفة لاهوتية صوفية ؛ فلما اعتنق ترتليان دينــه الجديد جعل المسيحية اللاتينية ديناً

أخلاقيا ، قانونيا ، عمليا : وكانت له قوة شيشرون وحدته ، وفحش چوڤنال فى هجائه وسفاهته ؛ وكان فى مقدوره أحياناً أن ينافس تيطس فى تركيز كل ما لديه من حقد وضغينة فى عبارة واحدة . وكان إيرنيوس قد كتب باللغة اليونانية ، فلما جاء منوسيوس وترتليان أصبحت الآداب المسيحية فى الغرب لاتينية ، وأصبح الأدب اللاتينى مسيحيا .

وبينا كان الحكام الرومان فى قرطاجنة يتهمون المسيحيين بعدم الولاء للدولة ويحاكمونهم على هذه التهمة ، وجه ترتليان فى عام ١٩٧ إلى محكمة خيالية أبلغ رسالة من رسائله كلها وهى المعروفة باسم الدفاع Apologeticus أكد فيها للرومان أن المسيحيين « لا ينقطعون عن الدعاء لجميع الأباطرة ، وسلامة الأسرة الحاكمة ، ويطلبون إلى الله أن يهب البلاد جيوشاً باسلة ، ومجلس شيوخ وفى أمين ، وأن يمن على العالم بالهدوء »[٥٤] . وامتدح عظمة التوحيد ، وقال إنه وجد أدلة عليه عند كتاب ما قبل المسيحية ! « انظروا إلى ما تشهد به النفس ، ذاتها وهى بقطرتها مسيحية »[٥٥] وبعد عام من ذلك الوقت انتقل بسرعة عجيبة من الدفاع المقنع إلى الهجوم العنيف ، وأصدر كتابه المسمى فى المسرح De Spectaculis وهو وصف ساخر للمسارح الرومانية التى قال عنها إنها حصون البذاءة ، وللمدرجات التى وصفها بأنها أكبر دليل على قسوة الإنسان عــلى أخيه الإنسان ، وختمها بذلك الوعيد المرير :

« وستشهدون مناظر أخرى — مناظر اليوم الخالد الأخير يوم الحساب : : يوم يحترق هذا العالم الذى بلغ سن الشيخوخة ، ويحترق أهله جميعاً فى لهيب نار واحدة . ألا ما أوسع هذا المنظر فى ذلك اليوم ! وما أشد عجبى ، وأعلى ضحكى ، وأكثر ابتهاجى وطربى حين أرى هذا العدد الجم من الملوك — وكان يظن أنهم ينعمون فى ملكوت السموات — يئنون ويتوجعون فى أعماق الظلام ! — والحكام الذين اضطهدوا اسم يسوع تذوب أجسامهم فى لهب أشد حرارة من جميع

النيران التى أوقدوها . . . ضد المسيحيين ! — وأرى حكماء وفلاسفة تعلوهم حمرة الخجل أمام تلاميذهم وهم يحترقون معاً ! . . . وممثلى المآسى وهم الآن أعلى صوتاً فى مأساتهم مما كانوا فى أى يوم من أيام حياتهم ، واللاعبين ذوى الأجسام اللدنة فى أعماق النار ، وسائقى المركبات تشوى لحومهم على عجلة اللهب ! »[٥٦] .

وهذا الخيال المفرط فى القوة يخرج صاحبه عن قواعد الدين السليم . ذلك أنه لما تقدمت بترتليان السن انقلب ما كان فيه أثناء شبابه من نشاط فياض يطلب به اللذة ويصرفه فيها ، انقلب إلى تنديد شديد بجميع أسباب السلوى عدا سلوة الدين والأمل فى نعيم الآخرة ، فكان يخاطب المرأة بأوقح الألفاظ ويصفها بأنها « الباب الذى يدخل منه الشيطان » ويقول لها « من أجلك مات يسوع المسيح »[٥٧] .

وكأن ترتليان فى يوم من الأيام قد أحب الفلسفة ، وألف فيها ، كتباً ككتاب فى النفس De Anina حاول فيه أن يطبق على المسيحية مبادئ الرواقية فيما وراء الطبيعة . أما الآن فقد نبذ كل تفكير منطقى منفصل عن الإلهام والوحى ، وقصر أسباب بهجته على ما كان يحتويه دينه من أمور لا يصدقها العقل السليم . « لقد مات ابن الله : ذلك شىء معقول لا لشىء إلا أنه مما لا يقبله العقل . وقد دفن ثم قام من بين الموتى : وذلك أمر محقق لأنه مستحيل »[٥٨] . واستغرق الرجل فى تزمت نكد مكتئب بلغ من أمره أن خرج وهو فى الثامنة والخمسين من عمره على المبادئ السليمة للدين المسيحى ، لأنها فى رأيه ملوثة بالأساليب الدنيوية ، واعتنق المبادئ المنتانية(*) لأنه يراها تطبيقا مستقيما سليما لتعاليم المسيح ، وندد بجميع المسيحيين الذين يقبلون أن يكونوا جنوداً ، أو فنانين ، أو موظفين فى الدولة ، وبجميع الآباء الذين لا يحجبون بناتهم وبجميع الأساقفة الذين يغفرون خطايا المذنبين التائبين ، وانتهى به الأمر أن أطلق على البابا لقب « راعى الزانين » pastor moechorum[٥٩] .

(*) التى كان يقول بها منتانس الفريجى . وقد سبق الكلام عليها . (المترجم)

لكن الكنيسة ازدهرت فى أفريقية على الرغم من هذه الأفعال ، فقد قام فيها أساقفة مخلصون من طراز سبريان Cyprian رفعوا أبرشيه قرطاجنة إلى درجة من الغنى والنفوذ لا تقل عما بلغته رومة . أما فى مصر فقد كان نماء الكنيسة أبطأ منه فى قرطاجنة ، وقد اختفت مراحله الأولى من التاريخ فأصبحنا لا نعرف عنها شيئاً . غير أننا نسمع فجاءة فى أواخر القرن الثانى عن مدرسة لتعليم أصول الدين بالسؤال والجواب قائمة فى مدينة الإسكندرية قرنت المسيحية بالفلسفة اليونانية ، وأخرجت للعالم أبوين من أعظم آباء الكنيسة هما كلمنت وأرجن . وكان كلاهما واسع الاطلاع على الآداب الوثنية ، محبا لها على طريقته الخاصة . ولو أن الروح التى كانت تغمرهما سادت فى ذلك الوقت لما كان لانفصال الثقافة القديمة عن المسيحية ما كان له من أثر متلف شديد .

ولما بلغ أرچينيز ادمنتيوس Origenes Adamantius السابعة عشرة من عمره (٢٠٢) قبض على والده بتهمة أنه مسيحى ، وحكم عليه بالإعدام ؛ وأراد ابنه أن يشاركه فى السجن وفى الاستشهاد ، ولم تستطع أمه أن تمنعه من ذلك إلا بإخفاء ملابسه كلها ، فأخذ يبعث إلى أبيه رسائل يشجعه فيها على احتمال مصيره ؛ وقد جاء فى إحدى هذه الرسائل : « احذر أن ترجع عن آرائك من أجلنا »[٦٠] . وأعدم الوالد ووقع عبء كفالة الأم والأطفال الصغار على الشاب . وبعث ما شاهده من استشهاد كثيرين من المسيحيين فى نفس أرجن مزيداً من التقى والإيمان ، فعمد إلى حياة الزهد والتقشف ، وأكثر من الصوم ، وأقلل من ساعات النوم ، وافترش الأرض ، ومشى حافياً ، وعرض نفسه للبرد والعرّى ؛ وأخيراً عمد إلى خصى نفسه(*) إطاعة للآية الثانية عشرة من الإصحاح التاسع عشر من إنجيل متى بعد أن تزمت تفسيرها أشد التزمت . وفى عام ٢٠٣ خلف كلمنت فى رياسة

(*) يقول جبن : « وإذ كان من عادة أرجن أن يفسر الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً فإن مما يؤسف له فى رأينا أنه فى هذه الحالة وحدها اتبع المعنى الحرفى لتلك الآية »[٦١] .

المدرسة الأفريقية . ومع أنه لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من العمر فقد اجتذب إليه علمه وبلاغته كثيرين من الطلبة وثنيين ومسيحيين على السواء ، وطبقت شهرته جميع أنحاء العالم المسيحى .

ويقدّر بعض القدامى عدد « كتبه » بستة آلاف ؛ وكان الكثير منها بطبيعة الحال نبذاً وجيزة ، وحتى على هـذا الاعتبار قال فيها چيروم متسائلا : « مَن منا يستطيع أن يقرأ كل ما كتب ؟ »(٦٢) ولقد قضى أرجن عشرين عاماً هائماً بحب الكتاب المقدس ، واستخدم طائفة كبيرة من المختزلين والنساخين يضعون فى أعمدة متوازية النص العبرى للعهد القديم ، وإلى جواره ترجمة يونانية حرفية لهـذا النص ، وفى خانة أخرى ترجمة يونانية له منقولة عن الترجمة السبعينية ، وفى رابعة أكويلية وخامسة سيماكوسية وسادسة ثيودوتية(*) .

ثم أخذ يوازن هذه التراجم المختلفة بعضها ببعض ، واستعان بمعرفته باللغة العبرية فأخرج للكنيسة ترجمة سبعينية مصححة ؛ ولكن هذا لم ينقع غلته فأضاف شروحاً بعضها غاية فى الإسهاب إلى كل سِفر من أسفار الكتاب المقدس . ويحتوى كتابه *المبادىء الأولى* Peri archon أول عرض فلسفى منظم للعقيدة المسيحية ؛ وفى كتابه *الشذرات* (Stromateis) أخذ على عاتقه أن يثبت جميع العقائد المسيحية بالرجوع إلى كتابات الفلاسفة الوثنيين . وأراد أن يخفف عن نفسه عبء هذا الواجب الثقيل فاستعان بالطريقة الرمزية الاستعارية التى استطاع بها الفلاسفة الوثنيون أن يوفقوا بين أقوال هومر وبين ما يقبله العقـل المنطقى ، والتى بها وفق فيلون بين اليهودية والفلسفة اليونانية .

ومن أقوال أرجن فى هذا المعنى أن من وراء المعنى الحرفى لعبارات الكتاب

(*) ولم يبق من هذه التراجم الست إلا قطع قليلة . وقد ضاعت كذلك التراجم الرباعية المحتوية على التراجم اليونانية الأربع .

المقدس طبقتين من المعانى أكثر منه عمقاً — هما المعنى الخلقى والمعنى الروحى — لاتصل إليهما إلا الأقلية الباطنية المتعلمة . وكان يرتاب فى صحة ما ورد فى سفر التكوين إذا فهم بمعناه الحرفى ؛ ويفسر ماكان يلقاه بنو إسرائيل من يهوه من معاملة غير طيبة أحياناً بأن ما وصفت به هذه المعاملة إنما هو رموز ؛ وقال إن القصص الواردة فى الكتاب المقدس والتى تقول إن الشيطان صعد بعيسى إلى جبل عال وعرض عليه ملكوت الأرض ليست إلا أساطير(٦٣) . ويضيف إلى ذلك أن هذه القصص قد اخترعت فى بعض الأحيان لكى توضح بعض الحقائق الروحية(٦٤) . ويقول متسائلا :

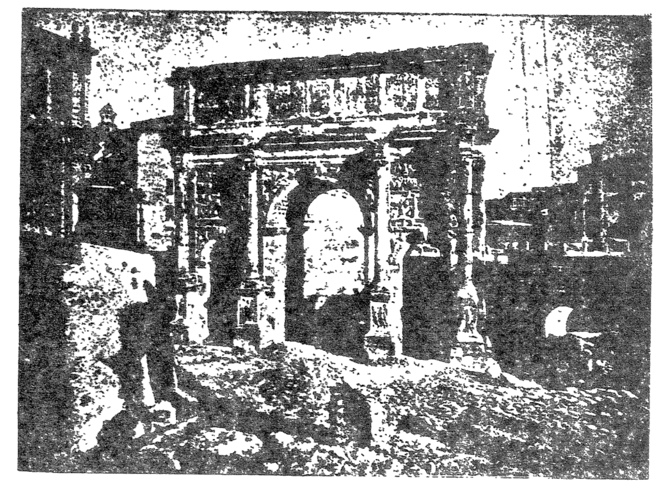
« أى رجل عاقل يصدق أن اليوم الأول واليوم الثانى واليوم الثالث ، وأن المساء والصباح ، قد كانت كلها من غير شمس أو قمر أو نجوم ؟ وأى إنسان تصل به البلاهة إلى حد الاعتقاد أن الله قد زرع جنة عدن كما يزرع الفلاح الأرض ، وغرس فيها شجرة الحياة . . . حتى إذا ما ذاق إنسان ثمرتها نال الحياة ؟ »(٦٥) .

وإذا ما واصل أرجن أقواله اتضح لقارئه أنه رواقى ، وفيثاغورى حديث ، وأفلاطونى حديث ، وأدرى ؛ وأنه مع هذا كله مصر على أن يكون مسيحيا . ولو أننا طلبنا إلى رجل مثله أن يترك الدين الذى نشر فيه ألف كتاب وتخلى من أجله عن رجولته لكلفناه ضد طباعه . ولقد درس أرجن ، كما درس أفلوطينس على أمونيوس سكاس Ammonius Saccas ، وإنا ليصعب علينا أحياناً أن نفرق بين فلسفته وفلسفتهما . فالله عند أرجن ليس هو يهوه ، بل هو الجوهر الأول لجميع الأشياء . وليس المسيح هو الإنسان الآدمى الذى يصفه العهد الجديد ، بل هو العقل الذى ينظم العالم ؛ وهو بهذا الوصف قد خلقه الله الأب ، وجعله خاضعاً له(٦٦) . والنفس عند أرجن ، كما هى عند أفلوطينس ، تنتقل فى مراحل وتجسدات متتالية قبل أن تدخل الجسم ، وهى تنتقل بعد الموت فى مراحل متتالية

مثلها قبل أن تصل إلى الله . وجميع الأنفس حتى أطهرها تتعذب زمناً ما فى المطهر ولكنها كلها تنجو آخر الأمر ، وسيكون بعد « اللهب الأخير » عالم آخر ذو تاريخ طويل ، ثم عالم ثالث ، ورابع . . . كل واحد منها خير من سابقه ، وهذه العوالم الكثيرة المتتالية ستحقق على مهل الخطة التى رسمها الله(٦٧) .

ولسنا نعجب إذا رأينا دمتريوس ، أسقف الإسكندرية ، ينظر بعين الريبة إلى الفيلسوف النابه الذى تزدان به أبرشيته والذى يراسل الأباطرة . وقد أدت هذه الريبة إلى أن رفض دمتريوس أن يرسمه قسًّا بحجة أن الخصاء يجعله غير أهل للكهنوت . ولكن أسقفين فلسطينيين رسماه أثناء سفره فى بلاد الشرق الأدنى . واحتج دمتريوس على هذا العمل وقال إن فيه اعتداء على حقوقه ، وعقد مجمعاً من رجال الدين الذين كانوا تحت رياسته ، وألغى هذا المجمع رسامة أرجن ونفاه عن الإسكندرية ، فانتقل إلى قيصرية وواصل عمله فى التدريس ، وكتب فيها دفاعه الشهير عن المسيحية المسمى ضد سلسس Contra Ce sum (٢٤٨) ، وقد بلغ من كرمه أن أقر بقوّة الحجج التى أدلى بها سلسس ، ولكنه رد عليها بقوله إن كل صعوبة ، وكل فكرة بعيدة عن المعقول ، فى العقيدة المسيحية يقابلها فى الوثنية آراء أصعب منها وأبعد منها عن العقل ، ولم يستنتج من هذا أن كلتا العقيدتين باطلة ، بل استنتج أن الدين المسيحى يعرض أسلوباً للحياة أنبل مما يستطيع أن يعرضه دين محتضر يدعو إلى عبادة الأصنام :

وامتد اضطهاد ديسيوس للمسيحيين حتى وصل إلى قيصرية فى عام ٢٥٠ ، وقبض على أرجن ، وكان وقتئذ فى الخامسة والستين من عمره ، ومد على العذراء ، وقيد بالأغلال ، ووضع فى عنقه طوق من الحديد ، وبقى فى السجن أياما طوالا . ولكن الموت عاجل ديسيوس أولا وأطلق سراح أرجن ، غير أن حياته لم تطل بعد ذلك أكثر من ثلاث سنين ، لأن التعذيب ألحق أشد



(شكل - ١٥) قوس سبتميوس سفيرس بروما

الضرر بجسمه بعد أن هد الزهد المتواصل قواه ، ومات فقيراً كما كان حين بدأ يعلم الناس ، ولكنه كان أعظم المسيحيين شهرة فى زمنه :

ولما أن ذاعت بدعه ، ولم تعد سراً مقصوراً على عدد قليل من تلاميذه ، رأت الكنيسة أن لا بد لها أن تتبرأ منه ، وطعن البابا أنستيسيوس فى عام ٤٠٠ فى آرائه التجديفية . ولعنه مجلس القسطنطينية ، وأصدر عليه قرار الحرمان فى عام ٥٥٣ . لكنتا لا نكاد نجد عالما مسيحيا ممن جاءوا بعده بعدة قرون لم يغترف من بحر علمه الفياض ، ولم يعتمد على كتبه ؛ وأثر دفاعه عن المسيحية فى عقول المفكرين الوثنيين كما لم يؤثر فيها « دفاع » آخر قبله . وبفضله لم تعد المسيحية دين سلوى وراحة للنفوس فحسب ، بل أضحت فوق ذلك فلسفة ناضجة كاملة النماء ، دعامتها الكتاب المقدس ، ولكنها تعتز باعتمادها على العقل .

الفصل الخامس

تنظيم السلطة الدينية

لعل للكنيسة عذرها فى الطعن على ارجن وحرمانه : ذلك أن تفسيراته الرمزية لم تجعل من المستطاع إثبات أى شىء فحسب ، بل إنها فضلا عن ذلك قضت بضربة واحدة على قصص أسفار الكتاب المقدس وعلى حياة المسيح الأرضية ، وأعادت للفرد حقه فى الحكم فى الوقت الذى كانت تقول فيه إنها تدافع عن الدين . يضاف إلى هذا أن الكنيسة ، وقد رأت نفسها وجهاً لوجه أمام حكومة قوية ، أحست بحاجتها إلى الوحدة ، ولم يكن فى وسعها أن تأمن على نفسها إذا رضيت أن تمزقها إلى مائة شيعة صغرى كل ريح تهب عليها من عقل رجل من أتباعها ، أو من عقل زنديق خارج عليها ، أو نبى مشغوف ، أو ابن نابه . وكان سلسس نفسه قد قال ساخراً : إن المسيحيين « تفرقوا شيعاً كثيرة ، حتى أصبح همّ كل فرد منهم أن يكون لنفسه حزباً »(٦٨) . واستطاع إيرينيوس أن يحصى فى عام ١٨٧ عشرين شيعة مختلفة من المسيحيين ، وأحصى إيفانيوس فى عام ٣٨٤ ثمانين ؛ وكانت الأفكار الأجنبية تتسرب إلى العقيدة المسيحية فى كل نقطة من نقاطها ، وأخذ المؤمنون المسيحيون ينضمون إلى هذه الشيع الجديدة . وأحست الكنيسة أن عصر شبابها التجريبى يوشك أن ينتهى ، وأن نضجها سيحل بعد قليل ، وأن عليها أن تحدد مبادئها ، وأن تعلن على الناس شروط العضوية فيها . وكان لا بد لذلك من ثلاث خطوات ليست فيها واحدة سهلة : وضع قانون عام مستمد من الكتاب المقدس ، وتحديد العقائد ، وتنظيم السلطة .

وتفيض الآداب المسيحية فى القرن الثانى بالأناجيل ، والرسائل ، والرؤى ،

و « الأعمال » . ويختلف المسيحيون أشد الاختلاف من حيث قبولهم هذه الكتابات على أنها تعبير صادق عن العقيدة المسيحية أو رفضها . فقد قبلت الكنائس الغربية مثلا سفر الرؤيا ، أما الكنيسة الشرقية فهى بوجه عام ترفضه . وهذه الكنائس الشرقية تعترف بالإنجيل ، كما يقول به العبرانيون ، وبرسائل يعقوب ، أما الكنيسة الغربية فترفضهما . ويذكر كلمنت الإسكندرى ضمن الكتب المقدسة رسالة كتبت فى أواخر القرن الأول الميلادية اسمها تعاليم الرسل الاثنى عشر .

ولما نشر مرسيون « عهداً جديداً » اضطرت الكنيسة إلى العمل لتحديد ما تعترف به وما لا تعترف به من الأناجيل . ولسنا نعرف متى حددت أسفار العهـــد الجديد التى نعرفها الآن واعتُرف بها — أى اعترف بصحة نسبتها لأصحابها وبأنها موحى إليهم بها ؛ وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن هتامة لاتينية كشفها مراتورى Muratori فى عام ١٧٤٠ وسميت باسمه ، ويرجع الباحثون تاريخها إلى عام ١٨٠ تقريباً ، نفترض أن هذا التحديد تم قبل ذلك الوقت .

وتكرر اجتماع المجالس والمجامع الكنسية تكراراً متزايداً فى القرن الثانى ؛ واقتصرت فى القرن الثالث على الأساقفة ؛ وقبل أن يختتم ذلك القرن اعترف بأن هـــذه المجالس هى الفيصل الأخير العقيدة المسيحية « الكاثوليكية » أى العامة . وتغلب الدين القديم على البدع الدينية لأنه أشبع حاجة الناس إلى عقيدة محددة تخفف من حدة النزاع وتهدئ الشكوك ، لأنه كان مؤيداً بسلطان الكنيسة .

وكانت مشكلة التنظيم تنحصر فى تحديد مركز هذا السلطان . فقد يبدو أن المجامع الدينية المتفرقة ، بعد أن ضعف سلطان الكنيسة الأصلية فى أورشليم ، أخذت تمارس السلطات مستقلة عن هذه الكنيسة وعن بعضها بعضاً ، إلا إذا أنشأتها جماعات أخرى أو كانت تحت حماية هذه الجماعات . لكن

كنيسة رومة كانت تدعى أن الذى أنشأها هو الرسول بطرس وتستشهد بقول عيسى : « أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات »[٦٩]. لكن بعضهم يقول إن هذه العبارة مدسوسة عليه ، وإنها تورية لا يلجأ إليها إلا شيكسپير . غير أنه يحتمل مع هذا أن بطرس ، إن لم يكن هو الذى أوجد الجالية المسيحية فى رومة ، كان يعظها ويخطب فيها ، وأنه عيّن لها أسقفها[٧٠] . وقد كتب إيرنيو (١٨٧) يقول إن بطرس : « عهد إلى لينس Linus بمنصب الأسقفية » . ويؤيد ترتليان (٢٠٠) هـذه الرواية ، ويهيب سپريان (٢٥٢) أسقف قرطاجنة المنافسة الكبرى لرومة بجميع المسيحيين أن يقبلوا زعامة كرسى رومة الأسقفى[٧١] .

ولم يترك الأساقفة الأولون الذين تربعوا على « عرش بطرس » أثراً فى التاريخ . ويبرز من بينهم ثالثهم البابا كلمنت[*] مؤلف رسالة باقية إلى الآن أرسلها حوالى عام ٩٦ إلى كنيسة كورنثة يدعو أعضاءها إلى نبذ الشقاق والمحافظة على النظام[٧٢] . وفى هذه الرسالة يتحدث أسقف رومة ، بعد جيل واحد من موت بطرس ، إلى مجمع دينى بعيد حديث من له سلطان عليه . وكثيراً ما كان الأساقفة الأخرون يتحدون سلطان أسقف رومة وحقه فى الإشراف على قراراتهم وإن كانوا يعترفون « بأولوية » هـذا الأسقف خليفة بطرس ووارثه . وكانت الكنائس الشرقية تحتفل بعيد القيامة فى اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبرى أيا كان ذلك اليوم فى الأسبوع ، أما الكنائس الغربية فقـد أجلت ذلك العيد إلى يوم الأحد التالى لهذا التاريخ .

(*) كان لفظ (بابا) « أب » الذى أصبح فى الإنجلـيزية Pope يطلق فى الثلاثة القرون الأولى على كل أسقف مسيحى .

ولما زار پوليكارب Polycarp ، أسقف أزمير ، مدينة رومة حوالى عام ١٥٦ حاول أن يقنع أنتسيتس Anticetus ، أسقف رومة ، بأن يحتفل بعيد القيامة فى اليوم الذى تحتفل به فيه الكنيسة الغربية ، لكنه لم يفلح فى محاولته ؛ ولما عاد إلى بلده رفض اقتراحاً ، عرضه عليه البابا ، يقضى بأن تقبل الكنيسة الشرقية التاريخ الغربى . وكرر البابا ڤكتور (١٩٠) طلب أنتسيتس وصاغه فى صيغة الأمر ، فأطاعه أساقفة فلسطين وعصاه أساقفة آسية الصغرى ، فما كان من ڤكتور إلا أن بعث برسائل إلى المجامع الدينية المسيحية يحرم فيها الكنائس التى عصت أمره ؛ واحتج كثيرون من الأساقفة فى الشرق وفى الغرب نفسه على هذا الإجراء الاستبدادى ، ويبدو أن ڤكتور لم يصر على تنفيذ رغبته .

وكان زفرينس Zfephyrinus الذى خلفه (٢٠٢ — ٢١٨) « رجلا ساذجا غير متعلم »[٧٣] ، ولهذا رفع إلى رياسة الشمامسة رجلا كان ذكاؤه أقل باعثاً للريبة من أخلاقه ، ليساعده فى إدارة شئون أسقفية رومة الآخذة فى الاتساع . ويقول أعداء كالستس Callistus إنه بدأ حياته عبداً ، ثم صار من رجال المال والمصارف ، واختلس الأموال المودعة عنده فحكم عليه بالأشغال الشاقة ، ثم أطلق سراحه ؛ وأثار شغباً فى أحد المجامع الدينية فحكم عليه بالعمل فى مناجم سردينية ؛ ولكنه هرب منها بأن احتال على وضع اسمه فى ثبت من أعفى عنهم ، وقضى عشر سنين يعيش فى أنتيوم Antium عيشة قاسى من هدوئها أشد الآلام . ولما عهد إليه زفرينس العناية بالمقبرة البابوية نقلها إلى طريق أپيا Appia فى السرداب المسمى باسمه ، ولما مات زفرينس واختير كالستس Callistus بابا أعلن هپولتس Hippolytus وغيره من القساوسة أنه لا يصلح لمنصبه ، وأقاموا كنيسة وبابوية غير كنيسته وبابويته (٢١٨) . وزادت الخلافات المذهبية هوة الشقاق : ذلك أن كالستس كان يرى أن يعاد إلى حظيرة الكنيسة من ارتكبوا بعد تعميدهم

خطيئة يعاقب عليها بالإعدام ، (كالزنى ، والقتل ، والردة) ثم أعلنو توبتهم . أما هپوليتس فكان يرى أن هذا التساهل مضر أشد الضرر بالدين ، وكتب دمضا لجميع البدع مع تأكيد هذه البدعة بنوع خاص ؛ فما كان من كالستس إلا أن أعلن حرمانه ، وأنشأ للكنيسة إدارة حازمة ، وثبت دعائم سلطة كرسى رومة الأسقفى على جميع العالم المسيحى .

وانتهى انشقاق هپوليتس فى عام ٢٣٥ ؛ ولكن قسيسين – هما نوڤاتس Novatus فى قرطاجنة ونوڤاتيان Novatian فى رومة – أعادا هذه البدعة فى أيام البابا كرنليوس Cornelius (٢٥١ – ٢٥٣) ، فأقاما كنائس منشقة محرمة تحريماً قطعياً على الذين يرتكبون الذنوب بعد التعميد . وأخرج مجلس قرطاجنة برياسة سپريان Cyprian ، ومجلس رومة برياسة كرنليوس هاتين الشيعتين المنشقتين من الكنيسة المسيحية . وكانت استعانة سپريان بكرنليوس سبباً فى تقوية البابوية ؛ لكن الشقاق دب بين الكنيستين بعد قليل ، وكان سببه أن البابا استيفن (٢٥٤ – ٢٥٧) قرر أن لاضرورة لتعميد من يعتنقون المسيحية من الطوائف غير المؤمنة ، فعقد سپريان مجمعا دينيا من أساقفة أفريقية تولى رياسته بنفسه ورفض هذا القرار . وفعل استيفن ما فعله كالتو من قبل فأعلن حرمان أولئك الأساقفة على بكرة أبيهم وشن عليهم حربا شعواء ؛ ولكن موته العاجل سكن هذا النزاع إلى حين ، وحال دون انشقاق كنيسة أفريقية القوية .

وظل كرسى رومة يزداد قوة على قوة فى كل عقد من العقود التالية رغم تجاوزه حقوقه فى فترة ونكوصه فى فترة أخرى ؛ وكان ثراؤه وكثرة صدقاته العامة مما رفع مكانته ؛ وكان العالم المسيحى بأجمعه يستشيره فى كل ما يصادفه من المشاكل الخطيرة ؛ وكان هو يقدم من تلقاء نفسه على تحريم البدع والضلالات ومقاومتها ، وعلى تحديد ما يجب الاعتراف به من الأسفار المقدسة .

لكنه كان ينقصه العلماء الأعلام ، فلم يكن فيه رجال يفخر بهم أمثال ترتليان ، وأرجن ، وسبريان ؛ وكان يعنى بالتنظيم أكثر مما يعنى باللاهوت ، فكان يبنى ويحكم ، ويترك الكتابة والكلام لغيره . وعصاه سبريان ولكن سبريان هو الذى نادى في كتابه الكنيسة الكاثوليكية الموحدة بأن كرسى بطرس أو مقره هو مركز العالم المسيحى وأعلى مكان فيه ، وأعلن إلى العالم مبادئ التضامن ، والإجماع ، والثبات التى كانت ولا تزال أساس الكنيسة الكاثوليكية وعمادها(٧٤) . وقبل أن ينتصف القرن الثالث كان مركز البابوية ومواردها المالية قد بلغا من القوة حداً جعل ديسيوس يقسم أنه يفضل أن يكون فى رومة إمبراطور ثان ينافسه عن أن يكون فيها بابا(٧٥) . وهكذا أصبحت عاصمة الإمبراطورية عاصمة الديانة المسيحية .

وأمدت رومة المسيحية بالنظام كما أمدتها اليهودية بمبادئها الخلقية وكما أمدتها بلاد اليونان بفلسفتها الدينية . وقد دخلت هذه كلها فى بناء الدين المسيحى مع ما دخله وما امتصه من الأديان المعارضة . ولم يكن كل ما أخذته الكنيسة من رومة هو العادات والمراسم الدينية التى كانت سائدة فى رومة قبل قيام المسيحية — كالبطرشيل وغيره من ثياب الكهنة الوثنيين ، واستعمال البخور والماء المقدس فى التطهير ، وإيقاد الشموع ووضع ضوء دائم لا ينطفئ أمام المذبح ، وعبادة القديسين ، وهندسة الباسلقا ، وقوانين رومة التى اتخذتها أساسا للقانون الكنسى ، ولقب الحبر الأعظم Pontifex Maximus الذى أطلق على كبير الأساقفة مضافا إلى اللغة اللاتينية التى أضحت فى القرن الرابع الأداة الخالدة النبيلة للشعائر الكاثوليكية ؛ بل كان أهم من هذا كله نظام الحكم الواسع الذى أمسى بعد عجز السلطة الزمنية صرح الحكم الكنسى ، فلم يلبث الأساقفة ، لا الحكام الرومان ، أن صاروا هم مصدر النظام ومركز القوة والسلطان فى

حدائق الإمبراطورية ؛ وكان المطارنة وكبار الأساقفة أكبر عون لحكام الولايات إن لم يكونوا قد حلوا محلهم ، كما حل مجمع الأساقفة محل جمعيات الولايات ، وسارت الكنيسة الرومانية فى الطريق الذى سارت فيه قبلها الدولة الرومانية ، ففتحت الولايات ، وجملت العواصم ، وثبتت دعائم النظام والوحدة على طول الحدود ؛ وقصارى القول أن رومة قضت نحبها وهى تلد الكنيسة ، واكتمل نمو الكنيسة بأن ورثت التبعات الملقاة على رومة ورضيت أن تضطلع بها .

الباب التاسع والعشرون

انهيار الإمبراطورية

١٩٣ — ٣٠٥ بعد الميلاد

الفصل الأول

أسرة سامية

في أول يوم من شهر يناير سنة ١٩٣ اجتمع مجلس الشيوخ بعد ساعات قليلة من اغتيال كمودس ، فى نشوة البهجة والغبطة واختار للجلوس على عرش الإمبراطورية عضواً من أجل أعضائه وأجدرهم بالاحترام ، استطاع بإدارته العادلة وهو حاكم للمدينة أن ينهج منهج الأنطونيين ويواصل أحسن تقاليدهم . وقبل برتناكس Pertinax ، وهو كاره ، هذا المنصب الخطير الذى يرفع صاحبه إلى مكانة سامية إذا سقط منها هوى إلى الدرك الأسفل . ويقول فيه هيروديان[1] إنه « سلك سلوك الرجل العادى » ، فكان يستمع إلى محاضرات الفلاسفة ، ويشجع الآداب ؛ وقد ملأ خزائن الدولة بالمال ، وخفض الضرائب ، وباع بالمزاد كل ما ملأ به كمودس القصر الإمبراطورى من ذهب وفضة ، وأقمشة مطرزة وحرير ، وجوار حسان . وفى ذلك يقول ديوكاسيوس : « والحق أنه فعل كل ما يجب على العاهل الصالح أن يفعله[2] . وائتمر المعاتيق الذين فقدوا بفضل سياسته الاقتصادية ما كان يعود عليهم من النفع مع الحرس البريتورى الذى ساءه عودة النظام . وفى الثامن عشر من شهر مارس اقتحم ثلثمائة من الجنود

أبواب القصر وقتلوه ، وحملوا رأسه إلى المعسكر على طرف رمح . وحزن الشعب ومجلس الشيوخ عليه وتوارى أعضاؤه عن الأنظار .

وأعلن قواد الحرس أنهم سيضعون التاج على رأس الرومانى الذى يمنحهم أكبر عطاء . وأقنعت ددبوس چليانس Didius Julianus زوجته وابنته بأن يغادر مائدة الطعام ويعرض على زعماء الحرس عطاءه ، فسار إلى المعسكر ، حيث وجد منافساً له يعرض خمسة آلاف درخمة (٣٠٠٠ ريال أمريكى) هبة لكل جندى ثمناً لعرش الإمبراطورية . وصار سماسرة الحرس ينتقلون من مثر إلى آخر ، يشجعونهم على زيادة العطاء ، فلما أن وعد چليانس كل جندى بـ ٦٢٥٠ درخمة أعلن الحرس اختياره إمبراطوراً .

وثارت ثائرة أهل رومة لهذه المذلة المنقطعة النظير ، فأهابوا بالفيالق الرومانية المعسكرة فى بريطانيا ، وسوريا ، وپنونيا أن تزحف على رومة وتخلع چليانس . وغضبت هذه الفيالق لأنها حرمت من العطاء ، فأخذ كل منها ينادى بقائده إمبراطوراً ، وزحفت كلها على رومة . وتفوق لوسيوس سپتميوس سڤيرس جيتا Lucius Septimius Severus Geta قائد جيوش پنونيا على جميع القواد بفضل جرأته وسرعته ، وما قدمه من رشا : وقطع على نفسه عهداً أن يهب كل جندى ١٢٠٠٠ درخمة حين يجلس على العرش ؛ وزحف بهم من بلاد الدانوب حتى صار على بعد سبعين ميلا من رومة فى شهر واحد ؛ واستمال إليه الجنود الذين أرسلوا لصده ، وأخضع الحرس البريتورى بأن عرض عليهم أن يعفو عنهم إذا سلموا إليه قوادهم ، وخالف جميع السوابق بدخوله العاصمة ومعه جنوده بكامل سلاحهم ، ولكنه أرضى المستمسكين بالتقاليد القديمة بأن لبس ثياب المدنيين . وعثر طربيون على چليانس يبكى فى قصره من هول تلك الحوادث ، فأخذه إلى حمام وقطع رأسه (٢ يونيه سنة ١٩٣) .

وكانت أفريقية فى هذه الأثناء تهب المسيحية أعظم المدافعين عنها ، وقد ولد

فيها وقتئذ (١٤٦) سبتميوس واجتاز فيها أولى مراحل تعليمه ؛ وكانت نشأته فى أسرة فينيقية تتكلم بهذه اللغة ، ودرس الآداب والفلسفة فى أثينة ، واشتغل بالمحاماة فى رومة ، . وكان رغم لهجته السامية من أحسن الرومان تربية وأكثرهم علماً فى زمانه ، وكان مولعاً بأن يجمع حوله الشعراء والفلاسفة ، ولكنه لم يترك الفلسفة تعوقه عن الحروب ، ولم يدع الشعر يرقق من طباعه . وكان رجلا وسيم الطلعة ، قوى البنية ، بسيطاً فى ملبسه ، قادراً على مغالبة الصعاب ، بارعاً فى الفنون العسكرية ، مقداماً لا يهاب الردى فى القتال ، قاسى القلب لا يرحم إذا انتصر . وكان لبقاً فكهاً فى حديثه ، نافذ البصيرة فى قضائه[٢] ، قديراً صارماً فى أحكامه[٣] .

وكان مجلس الشيوخ قد أخطأ إذ أعلن تأييده لمنافسه ألبينس Albinus فذهب إليه سبتميوس وحوله ستمائة من رجال الحرس ، وأقنعه بأن يؤيده فى ارتقاء العرش ؛ فلما تم له ذلك أعدم عشرات من أعضائه وصادر كثيراً من ضياع الأشراف حتى آلت إليه أملاك نصف شبه الجزيرة ؛ ثم ملأ الأماكن التى خلت فى مجلس الشيوخ بأعضاء اختارهم بنفسه من بلاد الشرق التى تدين بالنظام الملكى ، وأخذ كبار رجال القانون فى ذلك العصر — پاپنيان Papinian ، وبولس Paulus ، وألپيان Ulpian — يجمعون الحجج التى يؤيدون بها السلطة المطلقة ؛ وأغفل سبتميوس شأن المجلس إلا حين كان يبعث إليه بأوامره ؛ وبسط سلطانه الكامل على أموال الدولة على اختلاف مصادرها ، وأقام حكمه على تأييد الجيش دون خفاء ، وحول الزعامة إلى مَلَكية عسكرية وراثية ، وزاد عدد رجال الجيش ، ورفع رواتب الجند ، وعمد إلى الإسراف فى أموال الدولة حتى كاد ينضب معينها . ومن أعماله أنه جعل الخدمة العسكرية إلزامية ، ولكنه حرمها على أهل إيطاليا ؛ فأصبحت فيالق الولايات من ذلك الحين هى التى تختار الأباطرة لرومة بعد أن فقدت العاصمة قدرتها على الحكم .

ومن العجائب أن هذا المحارب الواقعي كان يؤمن بالتنجيم ، وأنه كان من أكثر الناس براعة في تفسير النذر والأحلام . من ذلك أنه لما أن ماتت زوجته الأولى قبل أن يرتقي العرش بستة أعوام عرض على سورية غنية دل طالعها على أنها ستجلس على عرش أن تتزوجه . وكانت هذه الزوجة هي چوليا دمنا Julia Domna إبنة كاهن غني لإلجابال Elgabal إله حمص . وكان نيزك قد سقط في تلك المدينة من زمن بعيد وأقيم له ضريح في هيكل مزخرف ، وأخذ الناس يعبدونه على أنه رمز الإله إن لم يكن هو الإله نفسه مجسما . وجاءت چوليا إلى قصر سپتميوس ، وولدت له ولدين هما كركلا وچيتا Geta ، وارتقت عرشها الموعود . وكانت أجمل من أن تقتصر على زوج واحد ، ولكن مشاغل سبتميوس لم تكن تترك له من الفراغ ما يسمح له بأن يغار عليها . وقد جمعت حولها ندوة من الأدباء ، وناصرت الفنون ، وأقنعت فيلوستراتس بأن يكتب سيرة أپلونيوس التياناني Apollonius of Tyana ويخلع عليه الكثير من أسباب المديح . وكانت قوة أخلاقها ونفوذها مما عجل السير بالملكية نحو الأساليب الشرقية التي وصلت إلى غايتها من الناحية الأخلاقية في عهد إلجابالس Elgabalus ومن الناحية السياسية في عهد دقلديانوس .

وسلخ سپتميوس من حكمه الذي دام ثماني عشرة سنة في حروب سريعة وحشية قضى فيها على منافسيه ؛ ودك بزنطية بعد حصار دام أربعة أعوام. فأزال بعمله هذا حاجزاً كان يقف في وجه القوط الآخذين في الانتشار ، وغزا پارثيا ، واستولى على طشقونة ، وضم بلاد النهرين إلى الإمبراطورية ، وعجل سقوط الأسرة الأرساسية المالكة . وأصيب في شيخوخته بداء النقرس . ولكنه لم يكن يرضى أن يضعف جيشه بعد أن قضى في السلم خمس سنين ، فزحف به على كلدونيا Caledonia ، وانتصر على الاسكتلنديين في عدة وقائع غالية الثمن ، انسحب على أثرها إلى بريطانيا ، ثم آوى إلى يورك حيث وافته المنية (٢١١) .

ومما قاله عن نفسه : « لقد نلت كل شيء ، ولكن ما نلته لا قيمة له »[٤].
ويقول هيرُودْيان إن « كركلا قد أغضبه أن تطول حياة أبيه : : : فطلب إلى الأطباء أن يعجلوا بموت الشيخ بأية وسيلة فى متناول أيديهم »[٥].
وكان سپتميوس قد لام أورليوس حين سلم الإمبراطورية إلى كمودس ، ولكنه هو نفسه أسلمها إلى كركلا وجيتا ، بهذه النصيحة الساخرة : « وفرا المال لجنودكما ولا يهمكما شيء غير هذا »[٦] . وكان آخر إمبراطور مات فى فراشه فى الثمانين عاما التى سبقت وفاته :

ويبدو أن كركلا(*) قد خلق ، كما خلق كمودس ، لكى يثبت أن نصيب الرجل من النشاط قلما يكفى لأن يجعله عظيما فى حياته وفى قوته الجنسية معا ؛ وقد كان فى صباه وسيما طيعاً ، فلما بلغ رشده أصبح همجيا مفتتنا بالصيد والحرب ، يقتنص الخنازير البرية ، وينازل أسداً بمفرده ، ويحتفظ بعدد من الآساد بالقرب منه فى قصره ، واتخذ واحد منها رفيقا له فى بعض الأحيان يجالسه على مائدته وينام معه فى فراشه[٧] . وكان يستمتع بصحبة المجالدين والجند بنوع خاص ، ويبقى أعضاء الشيوخ زمنا طويلا فى حجرات الانتظار حتى يفرغ من إعداد الطعام والشراب لرفاقه . ولم يكن يرضى أن يشترك معه أخوه فى حكم الإمبراطورية ، فأمر بقتل جيتا فى عام ٢١٢ ، فاغتيل الشاب وهو بين ذراعى أمه ، وخضب أثوابها بدمه . ويقال إنه حكم بالموت على عشرين ألفا من أتباع جيتا ، وعلى كثيرين من المواطنين ، وعلى أربع من العذارى الفستية ، اتهمن بالزنى[٨] . ولما تذمر الجيش على أثر مقتل جيتا أسكته بأن نفحه بهبة تعادل كل ما ادخره سپتميوس من الأموال . وكان يفضل الجنود والفقراء على رجال الأعمال والأشراف ؛ ولعل ما نقرؤه عنه

(*) وقد سمى نفسه بهذا الاسم نسبة إلى الجلباب الغالى الطويل الذى كان يلبسه ، أما اسمه الحقيق فهو بسيانيوس **Bassianius** ، ولما جلس على العرش سمى نفسه ماركس أورليوس أنطونينس كركلا .

من القصص التي يرويها ديوكاسيوس ليست إلا انتقاماً كتبه عضو فى مجلس الشيوخ . واشتدت رغبته فى جمع المال فضاعف ضريبة التركات بأن جعلها عشرة فى المائة من مقدار التركة ، ولما رأى أنها لا تطبق إلا على المواطنين الرومان وسع دائرة هذه الحقوق حتى شملت جميع الراشدين من الذكور الأحرار فى الإمبراطورية كلها (٢١٢) ؛ فنال هؤلاء حقوق المواطنين حين استتبعت أكثر ما يمكن أن تستتبعه من القروض وأقل ما تستتبعه من السلطان . وأضاف إلى زينات رومة قوساً أقامه لسبتميوس سفيرس لا يزال باقياً إلى اليوم ، وحمامات عامة تشهد خرائبها الضخمة بما كانت عليه من عظمة وجلال ، ولكنه ترك معظم شئون الحكم المدنى لوالدته ، وشغل نفسه بالحروب .

وكان قد عين چوليا دمنا أمينة سره لشئون العرائض والرسائل . وكانت تشاركه أو تحل محله فى استقبال رجال الدولة أو ذوى المكانة العالية من الأجانب . وهمس الوشاة بأن سلطانها عليه ناشئ من مضاجعته إياها ، وأثار الفكهون الجبناء من أهل الإسكندرية حنقه بتشبيههم لها وله بجوكستا Jocasta وأوديب : وأراد أن ينتقم لنفسه من هذه الإهانة وأمثالها من جهة ، ويأمن على نفسه من ثورة تتقد نارها فى مصر أثناء حروبه لپارثيا من جهة أخرى ، فزار المدينة وأشرف بنفسه (كما يؤكد المؤرخون) على قتل جميع أهل الإسكندرية القادرين على حمل السلاح[9] .

ومع هذا فقد كان منشئ الإسكندرية المثل الذى احتذاه والمطمع الذى يأمل أن يبلغه . وللوصول إلى هذه الغاية أنشأ فيلقاً من ١٦٫٠٠٠ جندى سماه « فيلق الإسكندر » وسلحه بأسلحة مقدونية من الطراز القديم ، وكان يأمل أن يخضع به پارثيا كما أخضع الاسكندر فارس . وبذل كل ما يستطيع من الجهد ليكون جندياً عظيما ، فكان يشارك جنوده فى طعامهم وكدحهم ، وسيرهم الشاق الطويل ، وكان يساعدهم فى حفر الخنادق ، وإقامة الجسور ، ويظهر

الكثير من صروب البسالة فى القتال ، وكثيراً ما كان يتحدى أعداءه ويطلب إليهم أن يبارزوه رجلا لرجل ؛ ولكن رجاله لم يكن لهم مثل ما كان له من رغبة فى قتال البارثيين ، بل كان حبهم للغنائم أكثر من حبهم للقتال ، فقتلوه فى كارى Carrhae التى هزم فيها كراسس (٢١٧.) . ونادى مكرينس Macrinus قائد الحرس بنفسه إمبراطورا ، وأمر مجلس الشيوخ ، بعد أن أظهر بعض التردد ، بأن يتخذ كركلا إلهاً . ونفيت چوليا دمنا إلى أنطاكية بعد أن حرمت فى خلال ست سنين من الإمبراطورية ، ومن زوجها ، وأبنائها ، فأضربت عن الطعام حتى ماتت .

وكان لها أخت تدعى چوليا ميزا Julia Maesa لا تقل عنها قدرة وكفاية ، فعادت چوليا الثانية إلى حمص ووجدت فيها حفيدين يبشران بمستقبل عظيم .فأما أحدهما فكان ابن ابنتهاچوليا سوءامياس Julia Soaemias ، وكان كاهناً شاباً من كهنة بعل ، يسمى ڤاريوس أڤيتس Varius Avitus ، وهو الذى سمى فيها بعـــد إلجابالس Elgabalus أى « الإله الخالق »(*) . أما الثانى فكان ابن چوليا ماميا Julia Mamaea ابنة ميزا ، وكان غلاماً فى العاشرة من عمره يدعى ألكسيانس Alexianus وهو الذى أصبح فيما بعد الكسندر سفيرس . ونشرت ميزا الشائعة القائلة إن ڤاريوس هو الابن الطبيعى لكركلا ، وإن كان فى واقع الأمر ابن ڤاريوس مرسلس ، وأطلقت عليه اسم بسيانس ؛ ذلك أن الإمبراطورية كانت أفضل عندها من سمعة ابنتها ، وماذا يضيرها بعد أن مات مرسلس والد الشاب . وكان الجنود الرومان فى سوريا قد ألفوا الشعائر الدينية السورية ، وكانوا يشعرون باحترام لهـــذا القس الشاب الذى لا يتجاوز الرابعة عشرة من العمر تبعثه فى قلوبهم عاطفة دينية قوية . يضاف إلى هذا أن ميزا أوعزت إليهم بأنهم إذ

(*) وقد أخطأ الكتاب اللاتين فترجموا اسمه Heliogabalus إلى « إله الشمس » .

اختاروا أبجابالس إمبراطوراً فإنها ستنفحهم بعطية سنية . ووثق الجند بوعدها لهم وأجابوها إلى ما طلبت . وضمت ميزا بإبهها إلى صفها الجيش الذى سيره مكرينس لقتالها ، ولما أن ظهر مكرينس نفسه على رأس قوة كبيرة ، تردد مرتزقة السوريين فى ولائهم ، ولكن ميزا وسوءامياس قفزتا من مركبتيهما ، وقادتا الجيش المتردد إلى النصر ؛ لقد كان رجال سوريا نساء ، وكانت نساؤها رجالا .

ودخل أبجابالس رومة فى خريف عام ٢١٩ مرتدياً أثواباً من الحرير الأرجوانى موشاة بالذهب الإبريز ، وحذاءين مصبوغين باللون القرمزى ، وكانت عيناه تشعان بريقاً مصطنعاً وكان فى ذراعيه إسورتان غاليتا الثمن ، وفى جيده عقد من اللؤلؤ ، وعلى رأسه الجميل تاج مرصع بالجواهر . وركبت إلى جواره فى موكب فخم جدته وأمه . وكان أول ما فعله حين حضر إلى مجلس الشيوخ أول مرة أن طلب إليه الموافقة على جلوس أمه إلى جانبه لتستمع إلى المناقشات . وأوتيت سوءامياس من الحكمة ما أوحى إليها بالانسحاب ، وقنعت برياسة المجلس الأصغر مجلس النساء الذى أنشأته سابينا ، والذى كان يبحث المسائل المتعلقة بأثواب النساء وحليهن ، وترتيبهن فى الحفلات الرسميـــة ، وآداب اللياقة وما إليها ، وترك حكم الدولة للجدّة ميزا .

وكان فى أخلاق الإمبراطور الشاب بعض العناصر المحببة . من ذلك أنه لم ينتقم ممن أيدوا مكرينس ، وأنه كان يحب الموسيقى ، ويجيد الغناء ، وينفخ فى المزمار والبوق ، ويضرب على الأرغن : وإذ كان أصغر من أن يحكم الإمبراطورية فإنه لم يطلب أكثر من أن يستمتع بها . ولم يكن معبوده بعل بل كان هذا المعبود هو الشهوة ، وكان معتزماً أن يعبدها بجميع صورها فى الذكور والإناث على السواء : وكان يدعو كل طبقة من الأحرار إلى زيارة قصره ، وكان أحياناً يأكل معهم ويشرب ويمرح ؛ ويوزع عليهم من آن إلى آن جوائز الاقتراع تختلف من بيوت مؤثثة إلى حفنة من الذباب . وكان يحب أن يمزح

مع ضيوفه : من ذلك أنه كان يجلسهم على وسائد منفوخة تتفجر من تحتهم فجاءة ، ويسكرهم حتى يفقدوا وعيهم حتى إذا ما استيقظوا وجدوا أنفسهم بين فهود ، ودببة ، وآساد أليفة غير مؤذية . ويؤكد لمبريديوس Lampridius أن ألجابالس لم ينفق مرة أقل من ١٠٠٠٠٠ سسترس (١٠٠٠٠ ريال أمريكى) على وليمة واحدة لضيوفه ، وربما بلغت نفقات إحدى الولائم ٣٠٠٠٠٠٠ . وكان يخلط قطع الذهب بالپازلا ، والعقيق بالعدس ، واللؤلؤ بالأرز ، والكهرمان بالفول . وكان يهدى الخيل والمركبات ، والخصيان ؛ وكثيراً ما كان يأمر كل ضيف أن يأخذ معه إلى منزله الصفحة الفضية والكؤوس التى كان يقدم له فيها الطعام والشراب . وكان يختار لنفسه أحسن كل شيء . فكان الماء الذى فى أحواض سباحته يعطر بروح الورد ، وكانت المشاجب التى فى حماماته من العقيق أو الذهب الخالص ،وكان طعامه من أندر المأكولات وأغلاها ثمناً ، وأثوابه مرصعة بالجواهر من تاجه إلى حذاءيه ، وتقول الشائعات إنه لم يلبس قط خاتماً مرتين . وكان إذا سافر احتاج إلى ٦٠٠ مركبة يحمل فيها متاعه وقواديه . ولما قال له عراف إنه سيموت ميتة عنيفة ، أعد وسائل غالية للانتحار يستخدمها إذا لزم الأمر : منها حبال من الحرير الأرجوانى ، وأسياف من الذهب ، وسموم فى قنينات من الياقوت الأزرق أو الزمرد . غير أنه اغتيل فى مرحاض .

وأكبر الظن أن أعداءه من أعضاء مجلس الشيوخ ومن فى طبقتهم قد اخترعوا أو بالغوا فى بعض هذه القصص ؛ وما من شك فى أن القصص الخاصة بشذوذه الجنسى مما لا يصدقه العقل . وسواء كانت صحيحة أو كاذبة فإنه كان يعطر شهواته بتقواه ، ويعمل على أن ينشر بين الرومان عبادة إلهه السورى بعل ؛ يضاف إلى هذا أنه اختتن وفكر فى أن يخصى نفسه تكريماً لإلهه ؛ وأحضر من حمص الحجر الأسود المقدس وأخذ يعبده بوصفه رمزاً لإلجابال ، وشاد هيكلا مزخرفاً ليضعه فيه ، وحمل إليه الحجر مغلفاً بالجواهر فى عربة تجرها ستة جياد

بيض ، ومشى الإمبراطور أمامها متجهاً بوجهه نحوها وهو صامت إجلالا لهذا الحجر . ولم يكن يجد ما يمنعه أن يعترف بجميع الأديان الأخرى ، فكان يبسط حمايته على اليهودية ، وعرض أن يجعل المسيحية ديناً مشروعاً ، وكل ما كان يصر عليه فى إخلاص يدعو إلى الإعجاب هو أن يكون حجره أعظم الآلهة(١٢) .

وكانت أمه منهمكة فى علتها تنظر إلى هذه المهزلة الدينية نظرة المتسامح الذى لا يعنيه من أمرها شىء ، ولكن چوليا ميزا صممت ، حين عجزت عن وقفها ، على أن تتعجل الكارثة التى ستقضى على هـــذه الأسرة العجيبة من النساء السوريات . ولهذا أقنعت ألجابالس بأن يتبنى الإسكندر ابن عمه ويوصى به قيصراً وخليفة له ؛ وأخذت هى ومامائيا **Mamaea** تدربان الغلام على واجبات منصبه ، وسلكتا كل السبل التى تجعل مجلس الشيوخ والشعب ينظران إليه على أنه خير بديل للقس المأفون الذى أساء إلى رومة — لا بإسرافه أو فحشه — بل بإخضاعه چوپتر إلى بعل السورى . وكشفت سؤامياس المؤامرة وأثارت الحرس البريتورى على أختها وابن أختها . لكن ميزا ومامائيا كانتا أقوى منها حجة إذا بسطتا أيديهما للحرس بالمال الوفير ، فقتل رجال الحرس ألجابالس وأمه ، وجروا جثته فى شوارع المدينة وحول ساحة الألعاب ، وألقوها فى نهر التيبر ، ثم نادوا بالإسكندر إمبراطوراً ، ووافق مجلس الشيوخ على هذه البيعة (٢٢٢) .

وجلس ماركس أورليوس سڤيرس ألكسندر على العرش ؛ كما جلس عليه سلفه ، فى الرابعة عشرة من عمره . وكانت أمه قد عنيت عناية منقطعة النظير بتدريب جسمه ، وعقله ، وخلقه . وزاد هو شهرته بالجد ورياضة الجسم ، فكان يسبح فى بركة من الماء البارد ساعة فى كل يوم ، ويشرب نحو نصف لتر من الماء قبل كل وجبة ، ويقتصد فى الطعام ، ولا يأكل إلا أبسط الأطعمة . ونشأ غلاماً وسيما ، طويل القامة ، قوى الجسم ، ماهراً فى جميع أنواع الألعاب وفنون الحرب ، ودرس الآداب اليونانية واللاتينية ، ولم يقلل من حبه لهما

وانهاكه فيهما إلا إصرار ماماثيا ، إذ تلت عليه أشعار ڤرچيل التى تهيب بالرومان أن يدعوا جمال الثقافة لغيرهم من الأجناس ، ويعدوا أنفسهم لإقامة دولة عالمية وحكمها فى سلام . وكان بارعاً « ممتازاً » فى التصوير والغناء ، يعزف على الأرغن والقيثارة ، ولكنه لم يكن يسمح لغير أهل بيته بمشاهدة هذه الأعمال . وكان بسيطاً متواضعاً فى ملبسه وأخلاقه « معتدلا فى استمتاعه بالحب ، ولم تكن له قط صلة بالمخنثين »[١٣] . وأظهر احتراماً عظيما لمجلس الشيوخ ، فكان يعامل أعضاءه كأنهم أكفاء له ، ويستضيفهم فى قصره ، وكثيراً ما كان يزورهم فى منازلهم وكان رحيما ، دمث الأخلاق ، يعود المرضى أيا كانت منزلتهم ، ويستمع إلى كل مواطن حسن السمعة ، ويسرع فى العفو عن معارضيه ، ولم يسفك قط دماء مدنى فى الأربعة عشر عاما التى قضاها فى الحكم[١٤] . وعابت عليه أمه لينه وقالت له : « لقد أسرفت فى لين الحكم ، وفى الإقلال من سلطان الإمبراطورية » . فأجابها بقوله : « نعم ، ولكننى جعلتها أبقى أمداً وأقوى دعامة »[١٥] . لقد كان رجلا من ذهب مصفى ، غير مشوب بزغل يقويه على احتمال صعاب هذا العالم .

وأدرك السخف الذى تنطوى عليه جهود سلفه والتى كانت تهدف إلى استبدال إلجابال بجوپتر ، وتعاون مع والدته فى إعادة الهياكل والشعائر الرومانية إلى سابق عهدها ؛ ولكن عقله الفلسفى هداه إلى أن يرى أن الأديان جميعها أساليب مختلفة لعبادة قوة واحدة عليا ؛ ولهذا أراد أن يعظم جميع الأديان التى تدعو إلى الخير ، ووضع فى معبده الخاص الذى كان يتعبد فيه كل صباح صوراً لجوپتر وأرفيوس ، وأپلونيوس التياناثى ، وإبراهيم ، والمسيح . وكثيراً ما كان يكرر النصيحة اليهودية — المسيحية القائلة : « لا تعامل غيرك بما لا تحب أن يعاملك به الناس » ، وأمر بنقشها على جدران قصره وعلى كثير من جدران المبانى العامة . وكان يوصى شعبه بالتخلق بأخلاق اليهود والمسيحيين : ولكن الذين لم يتأثروا به من

أهل أنطاكية والإسكندرية الفكهين كانوا يلقبونه « رئيس الكنيس » -وكانت أمه تفضل المسيحيين على غيرهم ، وقد بسطت حمايتها على أرجن ، واستدعته ليفسر للناس أصول دينه المرن .

وإذ كانت جوليا ميزا قد توفيت بعد قليل من اعتلاء الإسكندر العرش ، فقد كانت ماماثيا وكان ألبيان معلم الإسكندر هما اللذين يرسمان خططه السياسية ، وإصلاحاته الإدارية . ومن أعمالهما أنهما اختارا ستة عشر من أعضاء مجلس الشيوخ البارزين وألفا منهم مجلساً إمبراطورياً وقررا ألا ينفذ عمل من الأعمال الكبرى إلا إذا وافق عليه . ولما أن تزوج الإسكندر وأظهر تحيزاً ظاهراً لزوجته بسبب حبه لها أمرت ماماثيا بنفيها؛ ولم ير الإسكندر بدأ من الاستسلام لوالدته . ولما كبر زاد نصيبه فى إدارة شئون الدولة فكان « يعنى بالشئون العامة قبل مطلع الفجر » ، كما يقول كاتب سيرته القديم ، « ويوالى النظر فى هذه الشئون زمناً طويلا ، دون ملل أو غضب ، بل يبقى على الدوام مرحاً هادئاً رضياً »[١٦] .

وكانت خطته الأساسية تهدف إلى إضعاف سيطرة الجيش المؤدية إلى انحلال الدولة ، وذلك بإعادة هيبة مجلس الشيوخ والأشراف ؛ فقد كان يبدو له أن حكم الأشراف ذوى الأصول السامية هو البديل الوحيد من حكم المال ، أو الخرافات ، أو السيف ؛ وقد استطاع بمعونة مجلس الشيوخ أن ينفذ مئات الخطط التى أدت إلى اقتصاد كبير فى نفقات الإدارة ، ففصل عدداً كبيراً من الموظفين الزائدين على الحاجة فى قصره ، وفى المناصب الحكوميه ، وفى الولايات ؛ وباع معظم ما كان فى خزائن الإمبراطور من جواهر ، وأودع ثمنها فى بيت المال .

وأصدر قرارات اعترف فيها بهيئات العمال والتجار ، وشجعها وأعاد تنظيمها ، وأجاز لهذه الهيئات أن تختار محامين عنها من بين أعضائها[١٧] . ولعل مجلس الشيوخ كان أقل رضاء عن هذا العمل منه عن أعماله الأخرى ، وقد فرض رقابة شديدة على الأخلاق العامة فأمر بالقبض على العاهرات ونفى

ذوى الميول الجنسية الشاذة . ومع أنه خفض الضرائب فقد أعاد بناء الكلوسيوم وحمامات كركلا ، وشاد مكتبة عامة وقناة ماء طولها أربعة عشر ميلا ، وحمامات للبادية جديدة ، وبذل المال بسخاء لإنشاء الحمامات وقنوات الماء والطرق فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، وعمل على تخفيض فائدة الديون التى كانت ترهق المدينين فأقرض المال من خزانة الدولة بفائدة أربعة فى المائة ، وأعطى الفقراء المال من غير فائدة ليشتروا به أرضاً زراعية . وكانت نتيجة هذه الأعمـــال أن عم الرخاء جميع أجزاء الإمبراطورية ، وأن قدرت له أعماله وأثنت عليه ، وأن خيل إلى جميع الناس أن أورليوس التقى العظيم قد عاد إلى الأرض وإلى السلطان .

ولكن الفرس والألمان اغتنموا فرصة وجود هذا الإمبراطور القديس على العرش ، كما اغتنموا فرصة وجود سميه الإمبراطور الفيلسوف ، فغزا أردشير رأس الأسرة الساسانية فى فارس بلاد النهرين فى عام ٢٣٠ وهدد سوريا . وبعث إليه الإسكندر برسالة فلسفية يلومه فيها على عنفه ويقول له إنه « يجب على كل إنسان أن يقنع بما لديه من أملاك »(١٨) . واستنتج أردشير من هذه الرسالة أنه ضعيف خوار العود فرد عليه بأن طلب سوريا وآسية الصغرى ، فما كان من الإمبراطور الشاب إلا أن امتشق الحسام ونزل إلى الميدان مصحوباً بوالدته ، وخاض غمار موقعة غير فاصلة أظهر فيها من البسالة أكثر مما أظهر من الدهاء . ولا يذكر التاريخ إلا النزر اليسير عن انتصاراته وهزائمه ، ولكن الحرب أسفرت عن انسحاب أردشير من بلاد النهرين ، ولعله انسحب ليرد هجوماً وقع على حدوده الشرقية ؛ وتصور النقود الرومانية الإسكندر متوجاً بإكليل الظفر ومن تحت قدميه نهرا دجلة والفرات .

ورأت قبائل الألمان والمركمان أن حاميات الرين والدانوب قد سحبت لإمداد فيالق سوريا فاقتحمت الطرق الرومانية المحصنة وعاثت فساداً فى بلاد غالة الشرقية ، ولكن الإسكندر جاء إليها مع ماميا بعد الفراغ من احتفاله

بالنصر على الفرس ، وانضم إلى جيشه ، وسار على رأسه إلى مينز Mainz ،
وعمل بنصيحة والدته فأخذ يفاوض العدو ويعرض عليه مبلغاً سنوياً من
المال نظير احتفاظه بالسلم . ولكن جنوده رأوا فى هذا العمل ضعفاً واستسلاماً
فتمردوا عليه ، ولم يكونوا قد غفروا له شحه ، وتشدده فى حفظ النظام ،
وإخضاعهم لمجلس الشيوخ ولحكم امرأة ، ونادوا بيوليوس مكسمينس
قائد فيالق پانونيا إمبراطوراً . واقتحم جنود مكسمينس خيمة الإسكندر ،
وقتلوه هو وأمه وأصدقاءه (٢٣٥) .

الفصل الثانى

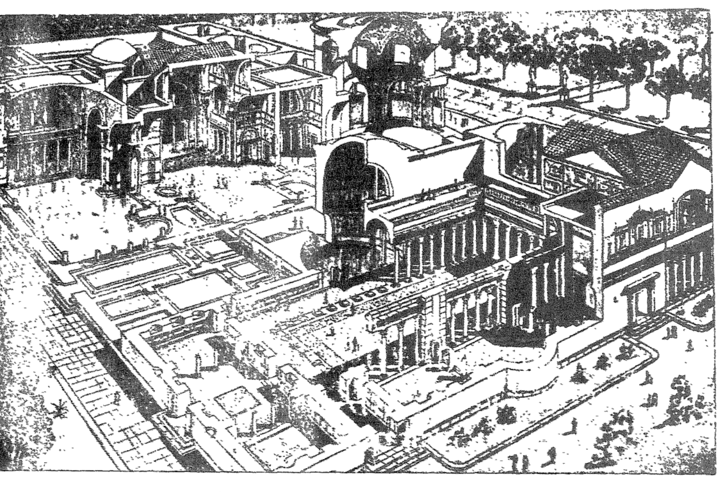
الفــوضى

لم يكن من نزوات التاريخ أن أصبح الجيش صاحب السلطة العليا فى القرن الثالث ، بل كان هذا أمراً طبيعياً . ذلك أن عوامل داخلية أضعفت الدولة وتركتها معرضة للغزو من جميع الجهات ، وكان وقف التوسع بعد أيام تراجان ، ثم بعد أيام سپتميوس ، إيذاناً ببدء الهجوم عليها ، فأخذ البرابرة يفتحون بلادها باتحادهم على غزوها ، كما كانت روما تفتح بلادهم بتفريقهم . وزادت ضرورة الدفاع من قوة الجيش ورفعت مكانة الجندية ، وجلس القواد على العرش محل الفلاسفة ، وخضع آخر حكم الأشراف لعودة حكم القوة .

وكان مكسمينس جندياً طيباً لا أكثر ، وكان ابن فلاح تراقى . ونشأ صحيح الجسم قوى البنية ، ويؤكد المؤرخون أن طول قامته كان يبلغ ثمانى أقدام ، وأن إبهامه كانت من الغلظة بحيث كان يلبس فيها إسورة زوجته كما يلبس الخاتم . ولم ينل شيئا من التعليم ، وكان يحتقر المعلمين ويحسدهم فى وقت واحد ، ولم يزر روما مرة واحدة فى الثلاث السنين التى تولى فيها الملك بل كان يفضل حياة معسكره على الدانوب أو الرين . وقد اضطرته حاجته إلى المال لينفق منه فى حروبه وفى استرضاء جنوده إلى فرض ضرائب فادحة على الأغنياء أغضبتهم فلم يلبثوا أن ثاروا على حكمه ، وقبل جرديانس حاكم أفريقية الثرى المتعلم ترشيح جيشه له إمبراطوراً منافساً لمكسمينس ، وإذ كان وقتئذ فى الثمانين من عمره فقد أشرك معه ولده فى هذا المنصب المهلك . وعجزا جميعاً عن الوقوف فى وجه القوى التى سيرها عليهما مكسمينس وقتل الابن فى ميدان القتال أما الأب فقتل نفسه ، وثأر مكسمينس لنفسه بأن حكم على عدد كبير من الأشراف بالقتل والنفى ، ومصادرة

أملاكهم حتى كاد يقضى على هذه الطبقة . وفى ذلك يقول هروديان Herodian « وكان فى وسع الإنسان أن يرى فى كل يوم أغنى الأغنياء بالأمس يصبح متسولا .»(١٩) . وقاومه مجلس الشيوخ الذى أعاد سفيرس تكوينه وقواه أشد المقاومة ، فأعلن أن مكسمينس خارج على القانون ، واختار اثنين من أعضائه هما مكسمس Maximus وبلبينس Balbinus إمبراطورين . وسار مكسمس على رأس جيش هزيل لملاقاة مكسمينس ، فانحدر هذا من جبال الألب وحاصر أكويليا Aquileia . وكان مكسمينس أفضل القائدين ، وكانت لديه أكبر القوتين ، ولاح أن مجلس الشيوخ وطبقات الملاك سيلقيان مصيرهما المحتوم ؛ ولكن جماعة من جنود مكسمينس الذين كانوا حانقين عليه لأنه وقع عليهم عقاباً وحشياً قتلوه غيلة فى خيمته . وعاد مكسمس ظافراً إلى رومة ، حيث اغتاله الحرس البريتورى هو وبلبينس ، واختار جرويانس الثالث إمبراطوراً ، وأيد مجلس الشيوخ هذا الاختيار .

ولسنا نريد أن نذكر بالتفصيل الممل أسماء الأباطرة الذين جلسوا على العرش فى هذا العصر الدموى الذى سادته الفوضى ، ولا أن نذكر وقائعهم الحربية وقتلهم ومماتهم . وحسبنا أن نقول إن سبعة وثلاثين رجلا نودى بهم أباطرة فى الخمسة والثلاثين عاماً الواقعة بين حكم ألكسندر سفيرس وأورليان . وقتل جرديان الثالث جنـــودُه وهو يحارب الفرس (٢٤٤) ، وهزم ديسيوس Decius فليب العربى الذى خلفه على العرش وقتله فى ڤرونا Verona (٢٤٩) ؛ وكان فليب هذا رجلا من أهل إلبريا ، وكان ثرياً مثقفاً مخلصاً لرومة إخلاصاً خليقاً بالشرف الذى ناله فى القصص القديم ؛ وقد وضع فليب هذا فى أثناء فترات السلم التى تخللت حرب القوط برنامجاً واسعاً ليعيد به إلى رومة دينها وأخلاقها ، وعاداتها الصالحة ، وأصدر أوامره بالقضاء على المسيحية . ثم عاد إلى نهر الدانوب ، والتقى بالقوط ، وشهد بعينه مقتل ابنه إلى جانبه ، وأعلن فى جيشه الهياب المتردد أن خسارة فرد من الأفراد لا قيمة لها البتة ، وهاجم جيش العدو ، وقتل هو فى هزيمة .



(شكل - ١٦) صورة مستعادة داخل حمامات كركلا

من أقسى الهزائم التى أصابت الرومان فى تاريخهم كله (٢٥١) . وخلفه جالس Gallus الذى قتله جنوده (٢٥٣) ، وجاء بعدهما إيمليانس Aemilianus وقد قتله هو الآخر جنوده فى العام نفسه .

وكان ڤليريان Valerian الإمبراطور الجديد فى سن الستين . ولما جلس على العرش اضطر لملاقاة الفرنجة ، والألمان ، والمركمان ، والقوط ، والسكوذيين ، والفرس فى وقت واحد : ولهذا عين ابنه جلينس Gallienus حاكما على الإمبراطورية الغربية ، واحتفظ لنفسه بالشرق . وزحف بجيش على أرض النهرين ولكن كبر سنه أعجزه عن القيام بهذا الواجب الذى يحتاج إلى قوة أعظم من قوته فلم يلبث أن ناء به . وكان جلينس وقتئذ فى الخامسة والثلاثين من عمره ، وكان شجاعاً ، ذكياً ، مثقفاً ثقافة لا تكاد تتفق مع أحوال ذلك القرن الملىء بالحروب الوحشية وقد أصلح دولاب الإدارة المدنية فى الغرب ، وقاد جيشه من نصر إلى نصر على أعداء الإمبراطورية عدواً بعد عدو ، ووجد مع ذلك متسعاً من الوقت يأخذ فيه بناصر الفلسفة والآداب ، وأحيا الفن القديم إحياء لم يدم طويلا ، ولكن عبقريته المتعددة الجوانب لم تقو على مغالبة الشرور التى تجمعت فى ذلك الوقت .

فنى عام ٢٥٤ أغار المركمان على پنونيا وشمالى إيطاليا ، وفى عام ٢٥٥ غزا القوط مقدونية ودلماشيا ، وهاجم السكوذيون والقوط آسية الصغرى ، وأغار الفرس على سوريا . وفى عام ٢٥٧ استولى القوط على مملكة بسپورس ، ونهبوا المدن اليونانية الواقعة على شاطئ البحر الأسود ، وحرقوا طرابزون ، وساقوا أهلها عبيداً وإماء ، وأغاروا على پنطس . وفى عام ٢٥٨ استولوا على خلقدون ، ونيقوميديا . وبروصه ، وأپاميا ، ونيقية ؛ واستولى الفرس فى العام نفسه على أرمينية ، ونادى پستيومس بنفسه حاكما مستقلا على غالة . وفى عام ٢٥٩ أغار الألمان على إيطاليا ، ولكن جالينس هزمهم عند ميلان . وفى عام ٢٦٠ هزم الفرس

ڤليريان عند الرها ومات أسيراً في زمان ومكان غير معروفين إلى اليوم .
وتقدم شابور الأول وفرسانه الخفاف الكثيرون مخترقين سوريا إلى أنطاكية ، وباغتوا أهلها وهم يشهدون الألعاب ، ونهبوا المدينة ، وقتلوا آلافاً من أهلها ، وساقوا آلافاً آخرين عبيداً ، واستولوا على طرسوس وخربوها ، وعاثوا فساداً في قليقية وكپدوكية ، وعاد شابور إلى بلاد الفرس مثقلا بالغنائم . وحلت برومة في مدى عشر سنين ثلاث مآس أذلتها وجللتها العار : ذلك أن إمبراطوراً رومانياً خر لأول مرة صريعاً مهزوماً في ميدان القتال ، وأسر العدو إمبراطوراً آخر ، وضحى بوحدة الإمبراطورية استجابة لضرورة ملاقاة الأعداء الذين أغاروا عليها من جميع الجهات . وضعضعت هذه الضربات وما صحبها من رفع الجنود الأباطرة على العرش واغتيالهم ، أركان الإمبراطورية ، وقضت على هيبتها ، وفقدت هذه القوى النفسية التي أنزلها الزمان منزلة القداسة وخلع عليها سلطاناً يألفه الناس ولا يسألون عن مبرراته ، نقول فقدت هذه القوى سيطرتها على أعداء رومة بل فقدتها أيضاً على رعاياها ومواطنيها ، فاندلع لهيب الثورة في كل مكان : ففي صقلية وغالة ثار الفلاحون الذين طال عليهم أمد الظلم ثورات عنيفة ، وفي پنونيا نادى إنچينس بنفسه حاكما مستقلا على الولايات الشرقية : وفي عام ٢٦٣ سار القوط بحراً بإزاء سواحل أيونيا ، ونهبوا إفسوس ، وأحرقوا هيكل أرتميس الفخم ، وساد الإرهاب جميع بلاد الشرق الهلنستي .

ولكن الإمبراطورية في آسية نجت على يدي حليف غير متوقع . ذلك أن أوناثس ، الذي كان يحكم تدمر خاضعا لسلطان رومة طرد الفرس من أرض الجزيرة ، وهزمهم في طشقونة (٢٦١) ، ونادى بنفسه ملك على سوريا ، وقليقية ، وبلاد العرب ، وكيدوكية ، وأرمينية . ثم اغتيل في عام ٢٦٦ ، وورث ابن له شاب ألقابه ، وورثت أرملته سلطاته .

وقد جمعت زنوبيا ، كما جمعت كليوبطرة التي تدعي هي أنها من نسلها ،

إلى جمال الخلق ، براعة فى الحكم ، وكثيراً من أسباب ثقافة العقل . وقد درست آداب اليونان وفلسفتهم ، وتعلمت اللغات اليونانية ، والمصرية ، والسريانية ، وكتبت تاريخاً لبلاد الشرق . ويلوح أنها جمعت بين العفة والقوة والنشاط ، فلم تبح لنفسها من العلاقات الجنسية إلا ما يتطلبه واجب الأمومة[٢٠] . وعودت نفسها تحمل التعب والمشاق ، وكانت تستمتع بأخطار الصيد ، وتسير على قدميها أميالا طوالا على رأس جيشها . وجمعت فى حكمها بين الحكمة والصرامة ، وعينت الفيلسوف لنجينس رئيساً لوزرائها ، وأحاطت نفسها فى بلاطها بالعلماء والشعراء والفنانين ، وجملت عاصمة ملكها بالقصور اليونانية — الرومانية — الأسيوية التى يدهش لها عابر الصحراء فى هذه الأيام .

وأحست أن الإمبراطورية تتقطع أوصالها ، فاعتزمت إقامة أسرة حاكمة ودولة جديدتين ، وأخضعت لسلطانها كيدوكية ، وغلطية ، والجزء الأكبر من بيثينيا ، وأنشأت جيشاً عظيما وعمارة بحرية ضخمة ، فتحت بهما مصر واستولت على الإسكندرية بعد حصار هلك فيه نصف سكانها . وتظاهرت « ملكة الشرق الداهية » أنها تعمل نائبة عن الدولة الرومانية ، ولكن العالم كله كان يدرك أن انتصاراتها لم تكن إلا فصلا من مسرحية واسعة النطاق هى مسرحية انهيار رومة .

وعرف البرابرة ثروة الإمبراطورية وضعفها ، فتدفقوا على بلاد البلقان واليونان . وبينا كان السرماتيون يعيثون فساداً من جديد فى المدن القائمة على شواطئ البحر الأسود ، كان فرع من فروع القوط يسير فى خمسمائة سفينة مخترقا مضيق الهلسبنت إلى بحر إيجه ، ويستولى على جزائره جزيرة فى إثر جزيرة ، ويرسو فى ميناء بيريه ، وينهب أثينة ، وأرجوس ، واسپارطة ، وكورنثة ، وطيبة (٢٦٧) . وبينا كان أسطولهم يعيد بعض المغيرين إلى البحر الأسود ، كانت جماعة أخرى منهم تشق طريقها براً نحو موطنها على نهر الدانوب . والتقى

بهم جالينس على نهر نستس فى تراقية ، وانتصر عليهم فى معركة خسر فيها كثيراً ولكن جنوده اغتالوه بعد سنة واحدة من هذا النصر . وانقضت جموع أخرى من القوط فى عام ٢٦٩ على مقدونية وحاصرت تسالونيكى ، ونهبت بلاد اليونان ، ورودس ، وقبرص ، وشواطئ أيونيا . وأنقذ الإمبراطور كلوديوس الثانى تسالونيكى ، وطرد القوط إلى أعالى وادى الواردار ، وهزمهم عند نايسس (وهى نيش الحديثة) هزيمة منكرة قتل فيها منهم مقتلة كبيرة (٢٦٩) . ولو أنه خسر هذه المعركة لما وقف جيش بين القوط وإيطاليا .

الفصل الثالث

التدهور الاقتصادى

لقد عجلت الفوضى السياسية تدهور الإمبراطورية الاقتصادى ، كما عجل التدهور الاقتصادى انحلال البلاد السياسى ، فكان كلاهما سبباً للآخر ونتيجة له . وكن سبب الضعف الاقتصادى أن ساسة الرومان لم يقيموا قط فى إيطاليا حياة اقتصادية سليمة ، ولعل سهول شبه الجزيرة الضيقة لم تكن فى يوم من الأيام أساساً قوياً تبنى عليه آمال الدولة الإيطالية العالية : وكان يقلل من إنتاج الحبوب منافسة الحبوب الرخيصة الواردة من صقلية ، وأفريقية ، ومصر ، كما أن الكروم العظيمة أخذت تفقد أسواقها التى استولت عليها كروم الأقاليم . وشرع الفلاحون يشكون من أن الضرائب الفادحة تستنفد مكاسبهم المزعزعة ولا تترك لهم من المال ما يحفظون به قنوات الرى والصرف صالحة ، فانطمرت القنوات ، وانتشرت المستنقعات ، وأنهكت الملاريا سكان كمبانيا وروما . ويضاف إلى هذا أن مساحات واسعة من الأرض الخصبة قد حولت من الزراعة إلى مساكن للأثرياء أصحاب الضياع الواسعة ؛ وكان أصحاب هذه الضياع البعيدون عنها يستغلون العمال والأرض إلى أقصى حدود الاستغلال ، ويبررون عملهم هذا بمشروعاتهم الإنسانية فى المدن . وازدهرت العمائر الفخمة وألعاب الرياضة فى المدائن فى الوقت الذى أقفر فيه الريف ، ومن أجل ذلك هجر كثيرون من ملاك الأراضى وعمال الريف الأحرار المزارع إلى المدن وتركوا الجزء الأكبر من الأراضى الزراعية الإيطالية ضياعاً واسعة يقوم بالعمل فيها أرقاء كسالى مهملون : ولكن هذه الضياع نفسها قضت عليها السلم الرومانية ونقص عدد حروب الفتح فى القرنين الأول والثانى ، وما نشأ عن ذلك من قلة الإنتاج ، وارتفاع النفقات ، وكثرة الأرقاء .

وأراد كبار الملاك أن يغروا العمال الأحرار بالعودة إلى الأعمال الزراعية ، فقسموا أملاكهم وحدات أجروها إلى « الزراع » (Coloni) ؛ يتقاضون منهم أجوراً نقدية منخفضة أو عشر المحصول ، وجزءا من الوقت يقضونه فى العمل من غير أجر فى بيت المالك الريفى أو فى أرضه الخاصة . وقد وجد الملاك فى كثير من الأحيان أن من مصلحتهم أن يعتقوا العبيد ويجعلوهم زراعاً من هذا النوع ، وأخذ هؤلاء الملاك فى القرن الثالث يزدادون رغبة فى سكنى بيوتهم الريفية يدفعهم إلى هذا أخطار الغزو الأجنبى والثورات الداخلية فى المدن ؛ وحصنوا بيوتهم فاستحالت قلاعاً منيعة أصبحت بالتدريج قصور العصور الوسطى(*) .

وقوى نقص الأرقاء إلى وقت ما مركز العمال الأحرار فى الصناعة وفى الزراعة على السواء . ولكن فقر الفقراء لم ينقص على حين أن موارد الأغنياء التهمتها الحروب ومطالب الحكومة[٢٢] . وكانت الأجور وقتئذ تتراوح بين ٦ و ١١ فى المائة من نظائرها فى الولايات المتحدة الأمريكية فى أوائل القرن العشرين ، وكانت الأثمان نحو ثلاثين فى المـــائة من أثمان الولايات المتحدة فى ذلك الوقت[٢٣] . وكانت حرب الطبقات آخذة فى الاشتداد لأن الجيش المجنـــد من فقراء الأقاليم كثيراً ما كان ينضم إلى من يهاجمون أصحاب الثروة ، وكان يشعر بأن ما يؤديه للدولة من خدمات يبرر ما تفرضه عليهم ضرائب تبلغ حد مصادرة أموالهم لتعطى

(*) وأكبر الظن أن هذا النظام الزراعى الذى وصفناه فى المتن قد بدأ على نطاق أوسع من هذا النطاق حين أسكن أورليوس الأسرى الألمان فى ضياع الإمبراطورية (١٧٢) ، وجعل هـــذه الضياع ملـــكاً لهم يتوارثونه ، مشترطاً عليهم أن يؤدوا له ضريبة سنوية ، وخدمة عسكرية إذا طلب إليهم أداءها ، وأن يتعهدوا له بألا يغادروا هذه الأملاك من غير إذن الدولة . وفرضت هذه الشروط عينها على الجنود الرومان القدامى الذين أقطعوا أرضاً على الحدود وخاصة فى « الأراضى العشورية (agri decumates) — على ضفاف الدانوب والرين[٢١] ، وانتشر هذا النظام انتشاراً واسعاً فى عهد سبتميوس سفيرس ، إذ قسم الأراضى التى استولى عليها أجزاء يزرعها مستأجرون يؤدون عنها ضرائب نقداً أو عيناً . وحذا سبتميوس حذو البطالمة ، وحذا الملاك الأفراد حذوه ، فبدأ هذا النظام الزراعى بالملوك ، ونشأ عنه النظام الإقطاعى الذى قضى على الملـــكية .

منها هبات لهم ، أو أن تنهب أموال الأغنياء نهباً سافراً[٢٤] . وتأثرت الصناعة بكساد التجارة ونقصت تجارة الصادر الإيطالية حين انتقلت الولايات من عميلات لإيطاليا إلى منافسات لها ؛ وجعلت الغارات والقرصنة الطرق التجارية غير مأمونة كما كانت قبل عهد بيى ؛ وكان انخفاض قيمة العملة وتقلب الأثمان من العوامل غير المشجعة للمشروعات الطويلة الأجل ، ولما أصبحت إيطاليا عاجزة عن توسيع حدود الإمبراطورية ، لم يعد فى مقدورها أن تزدهر بأن تمد بالسلع دولة آخذة فى الاتساع ، أو أن تستغل موارد هذه الدولة . وكانت فيما مضى من الأيام تجمع سبائك الذهب والفضة من البلاد المفتوحة ، وتملأ خزائنها بما تنهبه من أموال هذه البلاد ؛ أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فإن النقود كانت تهاجر إلى الولايات الهلنستية الأكثر تصنيعاً من إيطاليا ، وأخذت هى تزداد على مر الأيام فقراً ، فى الوقت الذى كانت فيه ثروة آسية الصغرى المطردة الزيادة تحتم أن تستبدل برومة عاصمة شرقية للإمبراطورية . واقتصرت المصنوعات الإيطالية على الأسواق المحلية ، ووجدت الأهلين أفقر من أن يبتاعوا السلع التى كان فى وسعهم أن ينتجوها[٢٥] . يضاف إلى هذا أن التجارة الداخلية كان يقف فى سبيلها قطاع الطرق ، والضرائب المتزايدة ، وتلف الطرق لقلة العبيد . وأضحت بيوت الأثرياء فى الريف تنتج حاجتها من السلع وتكفى نفسها بنفسها ، وحلت المقايضة فى التجارة محل النقود ، كما حلت الحوانيت الصغيرة عاما بعد عام محل الإنتاج الكبير وكانت تسد حاجة الإنتاج المحلى بنوع خاص .

وزاد الطين بلة كثرة الصعاب المالية ، ذلك بأن المعادن الثمينة أخذت تقل شيئا فشيئا لأن مناجم الذهب فى تراقية ومناجم الفضة فى آسية تناقص إنتاجها ، وكانت داشيا وما فيها من الذهب توشك أن تخرج من يد أورليان . وكانت الفنون والحلى تستنفد كثيراً من الذهب والفضة . وواجه الأباطرة من سبتميوس سفيرس ومن جاءوا بعده هذا النقص الشديد فى الوقت الذى كانت فيه الحروب

لا تخبو نارها أبداً ، فلجئوا أكثر من مرة إلى إنقاص نسبة ما فى النقود من ذهب أو فضة لكى يستطيعوا القيام بنفقات الدولة أو حاجات الحرب . فقد كان ما فى الدينار من معدن خسيس أيام نيرون عشرة فى المائة ، وبلغ فى عهد كمودس ثلاثين ، وفى عهد سبتميوس خمسين ، واستبدل به كركلا الأنطونئيانس Antoninianus المحتوى على خمسين فى المائة من وزنه فضة ؛ وقبل أن يحل عام ٢٦٠ نقصت نسبة ما فيه من فضة إلى خمسة فى المائة[٢٦] ؛

وأصدرت دور السك الحكومية كميات لم يسبق لها مثيل من العملة الرخيصة ، وكثيراً ما كانت الدولة ترغم الناس على أن يقبلوا هذه النقود بقيمتها الاسمية ، بدل قيمتها الحقيقية ، وكانت فى الوقت نفسه تأمر بأن تؤدى الضرائب ذهباً أو عينا[٢٧] . وأخذت الأثمان ترتفع ارتفاعا سريعا ، فزادت فى فلسطين إلى ألف فى المائة من القرن الأول إلى القرن الثالث[٢٨] . وفى مصر لم يعد فى مقدور الحكومة وقف تيار التضخم ، حتى صار مكيال القمح الذى كان يباع بثمان درخمات فى القرن الأول يباع بمائة وعشرين ألف درخمة فى أواخر القرن الثالث[٢٩] . ولم تصل الحال فى الولايات الأخرى إلى مثل هذا الحد ، ولكن التضخم فى عدد كبير منها خرب بيوت الكثيرين من أهل الطبقة الوسطى وأضاع أموال المواثقات والمؤسسات الخيرية وزعزع قواعد جميع الأعمال المالية ، فأحجم الناس عنها ، وأضاع جزءاً كبيراً من رؤوس الأموال المستخدمة فى التجارة والاستثمار والتى كانت تعتمد عليها حياة الإمبراطورية ؛

ولم يكن الأباطرة الذين جاءوا بعد پرتناكس ليسوءهم انعدام طبقة الأشراف وطبقة الملاك الوسطى على هذا النحو . ذلك بأنهم كانوا يشعرون بحقد طبقة أعضاء مجلس الشيوخ وكبار التجار عليهم بسبب أصلهم الأجنبى ، واستبدادهم العسكرى ، واغتصابهم أموالهم . ولذلك تجددت الحرب بين مجلس الشيوخ والأباطرة وكانت قد خبت نارها من عهد نيرون إلى عهد أورليوس ؛ وأقام الأباطرة سلطانهم

قاصدين متعمدين على ولاء الجيش ، وصعاليك المدن ، والفلاحين يشترونه بالهبات والأعمال العامة وتوزيع الحبوب عليهم من غير ثمن .

وعانت الإمبراطورية من البلاء مثل ما عانته إيطاليا وإن نقص عنه بعض الشيء . نعم إن قرطاجنة وشمالى أفريقية البعدين عن الغزاة ، قد ازدهرتا ؛ ولكن مصر اضمحلت بسبب ما حل بها من الخراب الناشئ من تنازع الأحزاب ، ومن مذابح كركلا ، ومن غزو زنوبيا ، ومن فدح الضرائب ، ومن السخرة والتراخى فى العمل ، وما كانت تبتزه رومة من الحبوب فى كل عام . وكانت آسية الصغرى وسوريا قد قاستا الأمرين من الغزو والنهب ، ولكن صناعاتهما القديمة التى تعودت الصبر على الشدائد لم تقض عليها هذه الاضطرابات . وكانت بلاد اليونان ، وتراقية ، ومقدونية ، قد خربها البرابرة ، ولم تكن بيزنطية قد أفاقت من حصار سبتميوس . ولما جاءت الحرب بالحاميات الرومانية وبالمؤن إلى حدود القبائل الألمانية ، قامت مدائن جديدة على شواطئ الأنهار — ويانة ، وكارلزبرج ، واستراسبرج ، وميتز . وكانت غالة قد اضطرب فيها النظام ، وفترت همة أهلها بسبب غزو الألمان لها ، ذلك بأنهم نهبوا ستين مدينة من مدنها ، وأخذت الكثرة الغالبة من المدن والبلدان الأخرى تنكمش داخل أسوارها الجديدة ، وتتخلى عن طراز الشوارع العريضة المستقيمة الرومانية التخطيط والطراز ، لتحل محلها الأزقة الضيقة غير المستقيمة التى يسهل الدفاع عنها والتى كانت من مميزات العهود القديمة والعصور الوسطى . وحتى فى بريطانيا نفسها ، كانت رقعة المدن آخذة فى النقصان وكانت بيوت الريف آخذة فى الاتساع(٣٠) ؛ ذلك بأن حروب الطبقات والضرائب الفادحة بددت الثروة أو اضطرتها إلى الاختفاء فى الريف . وقصارى القول أن الإمبراطورية بدأت بسكنى المدن وبالتحضر ، وها هى ذى تختم حياتها بالعودة إلى الريف وبالهمجية .

الفصل الرابع

الوثنية تحتضر

يمكن القول بوجه عام إن الضعف الثقافى سار فى إثر الضعف الاقتصادى والسياسى ، ولكن حدث فى هذه السنين البئيسة أن نشأ علم الجبر ذو الرموز ، وبرزت أعظم الأسماء فى فقه القانون الرومانى ، وأروع نماذج النقد الأدبى القديم ، وطائفة من أفخم المبانى الرومانية ، وأقدم قصص الحب ، وأعظم الفلاسفة الصوفيين .

ويلخص **الديوان اليونانى** سيرة ديوفانتس Diophantus الإسكندرى (٢٥٠) تلخيصاً جبرياً فكهاً فيقول إن حداثته دامت سدس حياته ، وإن لحيته نبتت بعد أن انقضى $\frac{1}{12}$ من عمره بعد سن الحداثة ، وإنه تزوج بعد أن مضى $\frac{1}{7}$ آخر من حياته ، وإنه رزق بولده بعد خمس سنين أخرى ، وإن هذا الولد عاش حتى بلغت سنة نصف سن أبيه ، وإن الوالد مات بعد أربع سنين من موت الولد — أى إنه مات فى سن الرابعة والثمانين ، وأشهر ما بقى من مؤلفاته حتى الآن هو كتابه « **الأرثماطيقى** Arithmatica » (الحساب) — وهو رسالة فى الجبر . وفيه حل لمعادلات الدرجة الأولى ، والمعادلات الرباعية التى تؤدى إلى معرفة المجهول ، والمعادلات التى لا يمكن منها وحدها معرفة المجهول حتى الدرجة السادسة . وقد استخدم حرف سجما sigma اليونانى للدلالة على الكمية المجهولة التى نرمز لها نحن بحرف س (وفى الإنجليزية بحرف x) ، وسمى هذه العلامة **أرثمس** Arithmos (أى العدد) ، واستعمل حروف الهجاء اليونانية للدلالة على الأسس وكان جبر من نوع ما معروفاً قبل أيامه : فقد اقترح أفلاطون لتدريب عقول الشبان وتسليتهم مسائل متنوعة كتوزيع تفاحة بنسب معينة على عدد

من الأشخاص[٣٢] ؛ وأذاع أرخميدز ألغازاً من هذا النوع فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وكان المصريون واليونان يحلون بعض المسائل الهندسية بالطرق الجبرية دون الالتجاء إلى رموز علم الجبر . وأكبر الظن أن ديوفانتس لم يفعل أكثر من تنظيم طرق كان يعرفها معاصروه[٣٣] ، وأن مصادفات الزمان هي التى أبقت على أعماله ؛ وفى استطاعتنا أن نُرجِع إليه عن طريق العرب تلك الطريقة الجريئة الغامضة التى تهدف إلى صياغة جميع النسب الكمية فى العالم كله فى قانون واحد .

وعلا نجم پاپنيان ، وپولس ، وألبيان ، أعظم الأسماء الثلاثة فى القانون الرومانى فى عهـــد سپتميوس سفيرس ؛ وكانوا كلهم رؤساء الحرس البريتورى وكانوا بحكم منصبهم هذا رؤساء الوزارة فى الدولة ؛ وكانوا كلهم يبررون قيام الحكم المطلق بحجة أن الشعب قد عهد بحقوقه فى السيادة إلى الإمبراطور . ويمتاز كتابا پانيان ***الأسئلة*** Questiones ، ***والأجوبة*** Responsa بوضوحهما ، وإنسانيتهما وعدالتهما إلى حد جعل چستنيان يعتمد عليهما فى كثير من مجموعاته القانونية . ولما قتل كركلا جيتا أمر بابنيان أن يكتب دفاعاً قانونياً عن عمله هذا ، فأبى بابنيان وقال إن « قتل الإخوة أسهل من تبرير هذا القتل » ، فأمر كركلا بقطع رأسه . ونفذ أحد الجنود الأمر فقطع رأسه ببلطة فى حضرة الإمبراطور . وواصل دومنيوس ألپيانس جهود پاپنيان القضائية والإنسانية . وسخر جهوده القضائية للدفاع عن العبيد لأنهم فى رأيه أحرار بالفطرة ، وعن النساء لأن لهن مثل ما للرجال من الحقوق[٣٤] ، وكانت كتاباته فى جوهرها تنسيقاً لأعمال من سبقوه شأنها فى هذا شأن جميع الأعمال الهامة فى تاريخ القضاء ؛ ولكن أحكامه كانت باتة جازمة إلى حد أبقى على ما يقرب من ثلثها فى ***ملخص*** چستنيان . ويقول عنه لمبرديوس : « لم يبلغ الإمبراطور ألكسندر سفيرس ما بلغه من سمو المنزلة إلا لأنه كان يحكم أكثر ما يحكم وفقاً لنصائح ألپيان »[٣٥] . بيد أن ألپيان قد عمل على قتل بعض

معارضيه ؛ ومن أجل هذا فإن بعض أعدائه من رجال الحرس قتلوه عام ٢٢٨ انتقاماً منه . وكانت أسباب قتله أقل انطباقاً على القانون من قتل معارضيه ولكنه أدى إلى نفس النتيجة . وشجع دقلديانوس مدارس القانون وأمدها بالمال ، وألف لجاناً لتقنين ما سن بعد تراجان من شرائع ، وجمعها كلها فى القانون الجريجريانى Codex Gregorianus . ثم أتت على فقه القانون سنة من النوم دامت إلى أيام جستنيان .

وسار فن التصوير فى القرن الثالث على الأنماط التى كان يسير عليها فى بمبى والإسكندرية ، والقليل الذى أبقى عليه الزمان منه فج ، كاد الدهر أن يبليه : أما النحت فكان مزدهراً لأن الكثيرين من الأباطرة كانوا يطلبون أن تنحت لهم تماثيل ، غير أنه جمد حتى أصبح المنظر الأمامى للشخص المصور بدائى الطراز ؛ ولكن هذا العصر لم يفقه أى عصر بعده فيما أخرجه من صور تدهش الناظر إليها بصدقها وواقعيتها . ومما يدل على فضل كركلا ، أو يدل على غباوته ، أنه أجاز لمثال أن يصوره فى صورة شخص فظ ، أكرت الشعر متجهم الوجه ، وهى الصورة المحفوظة إلى الآن فى متحف نابلى . ولدينا تمثالان ضخمان من تماثيل ذلك العصر هما الثور الفرنيزى وهرقول الفرنيزى ، وكلاهما مبالغ فى حجمه ، متوترة عضلاته توتراً غير مستحب ، ولكنهما يشهدان بما كان فى هذا العصر من إتقان فنى لم ينقص قط عن إتقان العصور السابقة : ومما يدل على أن المثالين كانوا لا يزالون قادرين على أن يجروا على النمط القديم تلك النقوش البارزة الناطقة بالعفة والطهارة والتى نراها على ثالوث ألكسندر سفيرس وهى ثالوث لدوفيزى . غير أن النقش الذى على قوس سپتميوس سفيرس فى رومة ليس فيه شىء مما يمتاز به الفن الأتكى من بساطة وظرف ، بل يتصف بالخشونة والقوة الواضحتين اللتين تكادان تنبئان بعودة البربرية إلى إيطاليا .

وسار فن العمارة بالنزعة الرومانية التى ترى السمو فى ضخامة الحجم إلى أقصى

حد ، فأقام سبتميوس على تل البلاتين آخر ما أقيم عليه من القصور الإمبراطورية وضم إليها جناحا جهة الشرق يعلو فى الجو سبعة طباق — وهو المعروف بالسبتزنيوم Septizonium . وقدمت جوليا دمنا ما يلزم من المال لإنشاء إيوان ڤستا ، وإقامة هيكل فستا الصغير الذى لا يزال باقيا فى السوق العامة . وشاد كركلا لسربيس زوج إيزيس ضريحاً ضخماً احتفظ الزمان بقطع جميلة منه إلى اليوم . ومن أعظم خرائب العالم روعة حمامات كركلا التى تم بناؤها فى عهد ألكسندر سفيرس . نعم إنها لم تضف شيئا جديداً إلى هندسة البناء ، لأنها تسير فى جوهرها على طراز حمامات تراجان ، ولكن البناء الضخم القائم يعبر أحسن تعبير عن صاحبها قاتل جيتا وبابنيان . وكان بناؤها الرئيسى المكون من الآجر والأسمنت المسلح يشغل ٠٠٠ر٢٧٠ قدم مربعــة — أى أكبر من مسطح مجلس البرلمان الإنجليزى وبهو وستمنستر مجتمعين . وكانت درج حلزونية تؤدى إلى أعلى الجدران . وهناك جلس شلى وكتب قصيدة بروميثيوس الطليق . وكان بداخل الحمامات عــدد كبير من التماثيل ، ويحمل سقفها ٢٠٠ عمود منحوتة من الحجر الأعبل والمرمر ؛ والحجر السماقى ، وكانت أرض الحمامات وجدرانها المبنية من الرخام مطعمة بمناظر من الفسيفساء ، وكان الماء يصب من أفواه ضخمة من الفضة فى برك وأحواض تتسع لاستحمام ١٦٠٠ شخص فى وقت واحد . وأنشأ جلينس وديسيوس حمامات مماثلة لها ، وفى هــذه الحمامات الأخيرة أقام المهندسون الرومان قبة مستديرة فوق بناء ضخم ذى عشرة أضلاع متساوية وسندوها بدعامات عند زوايا البناء ذى العشرة الأضلاع وهى وسيلة لم تكن تستعمل إلا قليلا قبل ذلك الوقت ولكنها أصبحت كثيرة الاستعمال فى المستقبل . وفى عام ٢٩٥ شرع مكسميان فى بناء الحمام الحار الذى كان أضخم الحمامات الإمبراطورية الحارة الأحد عشر ، وسماه حمامات دقلديانوس ، وهو تواضــع منه لم يكن معروفا فى وقته . وقد أعد لأن يستحم فيه ٣٦٠٠ شخص فى وقت واحد . وكان به فوق

ذلك مدارس للتدريب الرياضى ، وأبهاء للحفلات الموسيقية ، وقاعات للمحاضرات . وأنشأ ميكل أنجلو من حجرة واحدة من هذا الحمام كنيسة سانتا ماريا دجلى أنجيلى Santa Maria degli Angeli وهى أكبر كنيسة فى إيطاليا بعد كنيسة القديس بطرس . وأنشئت فى الولايات مبان لا تفوقها فى ضخامتها إلا العمائر السالفة الذكر ، وأقام دقلديانوس نفسه كثيراً من المبانى فى نيقوميديا ، والإسكندرية ، وأنطاكية . وزين مكسميان ميلان وزين جليريوس سرميوم وجمل قسطنطيوس ثريف Treves .

وكان الأدب أقل ازدهاراً من العمارة ، لأنه قلما كان فى مقدوره أن يصل إلى الثروة التى تجمعت فى أيدى الأباطرة . ومع هذا فقد زاد عدد دور الكتب ووسعها ، وكان لطبيب من أطباء القرن الثالث مجموعة تبلغ ٦٢٫٠٠٠ مجلد ، واشتهرت مكتبة ألبيان بما فيها من المحفوظات التاريخية ؛ وبعث دقلديانوس بالعلماء إلى الإسكندرية لينسخوا ما فيها من المخطوطات الأدبية اليونانية والرومانية القديمة ، ويأتوا بنسخ منها إلى مكتبات رومة . وكان العلماء كثيرى العدد محببين إلى الأهلين ، وقد أشاد فيلوستراتس بذكرهم فى كتابه *حياة السوفسطائيين* ؛ وواصل پرفيرى عمل أفلوطين ، وهاجم المسيحية ، وأهاب بالعالم أن يقتصر على أكل الخضر ؛ وحاول أيمبليكس Iamblicus أن يوفق بين الأفلاطونية ومبادئ الديانة الوثنية ، وأفلح فى ذلك إلى حد استطاع معه أن يوحى بآرائه إلى الإمبراطور چوليان . وجمع ديچين لبرتيوس سير الفلاسفة وآراءهم فى مقتطفات وقصص رائعة فاتنة ؛ وبعد أن التهم أثينيوس النقراطيسى Athenaeus of Naucratis كل ما فى مكاتب الإسكندرية أفرغ كل ما جمعه فى كتابه المعروف باسم *سوفسطائيى مائدة الغداء* وهو حوار ممل فى الأطعمة ، ومرق التوابل ، والعاهرات ، والفلاسفة ، والمفردات اللغوية ؛ يخفف من ملله ما تجده فى بعض أجزائه من كشف عن عادة قديمة ، أو ذكرى عظيم ؛ وكتب لنجينس ، وهو كاتب من پلميريا فى أغلبه

الظن ، رسالة لطيفة فى « السمو » قال فيها إن اللذة الخاصة التى يبعثها الأدب فى الإنسان ، منشؤها أنها « تسمو » بالقارئ عن طريق الفصاحة التى يستمدها الكاتب من قوة اقتناعه ، وإخلاصه ووفائه لأخلاقه(*) . وشرع ديوكاسيوس ككيانس من أهل نيقية فى بيثينيا يكتب تاريخ روما (٢١٠ ؟) وهو فى سن الخامسة والخمسين بعد أن قضى حياته يتقلب فى مناصب الدولة . وأتم هذا الكتاب فى الرابعة والسبعين وقص فيه تاريخ المدينة من رميولوس إلى أيامه ، ولم يبق من هذا الكتاب إلا أقل من نصف أسفاره الثمانين ، ولكن هذه الأسفار الباقية تشمل ثمانين مجلداً ضخماً . ويمتاز هذا العمل باتساع نطاقه أكثر مما يمتاز بعلو صفاته ، وفيه قصص واضحة حية ، وخطب مبينة ، واستطرادات فلسفية ليست سخيفة المعنى رثة العبارة مستمسكة بالقديم ، ولكن النبوءات والنذر تفسد الكتاب كما تفسد كتاب ليفى ، وهو مثل كتاب تاستس وصف مطول لمعارضة مجلس الشيوخ ؛ وهو كجميع كتب التاريخ الرومانية يعنى أكثر ما يعنى بتقلبات السياسة والحرب كأن الحياة لم تكن فى ألف عام إلا ضرائب وموت .

وأهم من هؤلاء الرجال والكرام فى نظر مؤرخ العقل هو ظهور الرواية الغرامية فى هذا القرن . وقد سبقها إعداد طويل تدرج من القيروبيديا لزنوفون ، إلى القصائد الغزلية لكلماكس ، إلى القصص الخرافية التى تجمعت حول الإسكندر : « والحكايات الميليثية » التى يرويها أرستيديز وغيره فى القرن الثانى قبل الميلاد وما تلا ذلك القرن من أجيال . وقد أعجب بهذه القصص

(*) تعزو أقدم المخطوطات هذا المقال مرة إلى « ديونيسيوس لنچينس » ومرة أخرى إلى « ديونيسيوس أو لنجينس » ، ولا تذكر شيئاً غير هذا يستدل به على شخصية كاتبه . ولسنا نعرف أديباً يدعى لنجينس فى التاريخ القديم إلا كاسيوس لنجينس كبير وزراء زنوبيا . وقد اشتهر فى جميع أنحاء الإمبراطورية بغزارة علمه حتى لقد سماه يونابيوس Unapius « مكتبة حية » . ووصفه پرفيرى « بأنه زعيم النقاد »(٣٦) .

التى تروى أخبار المغامرات والحب جمهرة الأيونيين اليونان بتقاليدهم ، الشرقيين بمزاجهم ، ولعلهم وقتئذ قد أصبحوا شرقيين بدمائهم . وتطورت الرواية المنمقة تطورات شتى على أيدى پترونيوس فى رومة وأپوليوس فى أفريقية ؛ ولوشيان فى بلاد اليونان ، وأيمبليكس فى سوريا ، ولم تكن فى بادئ الأمر تعنى بالحب عناية خاصة ، حتى إذا كان القرن الأول بعد الميلاد امتزجت رواية المغامرات برواية الحب ، ولعل هذا الامتزاج كان استجابة منهما لزيادة عدد القارئات من النساء .

وأقدم الأمثلة الباقية من هذه الروايات هى « الإثيوبيكا Aethiopica » أو القصص المصرية التى كتبها هليودورس الحمصى ، وقد ثار الجدل الكثير حول تاريخ هذه القصص ، ولكن فى وسعنا أن نعزوها إلى القرن الثالث ؛ وتبدأ بأسلوب خلع عليه قدم العهد ثوباً من الجلال :

« افتر ثغر النهار عن بسمات البهجة ، وأرسلت الشمس أشعتها فأنارت قلل التلال ، حين وقف جماعة من الرجال يبدو من أسلحتهم ومظهرهم أنهم قراصنة ، وأخذوا ينظرون إلى البحر بعد أن صعدوا إلى قمة أحد المنحدرات المطل على مصب النيل الهرقليوتى . ولكنهم لم يجدوا هناك شراع سفينة يبشرهم بالغنيمة فوجهوا أبصارهم نحو الشاطئ الممتد من تحتهم ؛ وكان هذا هو الذى رأوه[٣٧] .

ونلتقى على حين غفلة بثياچينس Theagenès الشاب الغنى الوسيم وبالأميرة كركليا Chsriclea الجميلة الباكية . وكان القراصنة قد قبضوا عليهما ، وحلت بهما كثير من ضروب الشدائد المختلفة ، من سوء التفاهم ، والوقائع الحربية ، والقتـــل واللقاء ، تكفى لأن تكون مادة لجميع القصص التى تصدر فى فصل من فصول السنة فى هذه الأيام . وتختلف هذه القصة عن قصص پترونيوس وأپوليوس فى أن عفة العذارى فى رواية هليودورس مسألة غير ذات خطر كبير ، يمر عليها القارئ بسرعة ، بينما هى عند پترونيوس وأپوليوس جوهر القصة ومحورها الذى تدور عليه

فترى هليودورس يحافظ على عفة كركليز وينجيها من عشرات الأخطار ، ويدبج عدداً من العظات القوية المقنعة فى جمال الفضيلة النسوية ووجوب المحافظة عليها . ولعلنا نجد هنا شيئاً من تأثير المسيحية ؛ بل إن الرواية المتواترة تجعل مؤلف القصة أسقف تسالونيكى المسيحى فيما بعد . ولقد كانت **الإثيوبط** ، على غير علم أو قصد من مؤلفها ، منشأ عدد لا يحصى من الروايات التى نسجت على منوالها ؛ فلقد كانت هى أنموذج قصة سرفنتيز Cervantes المسماة Pesilesy Sigismunda وقصة كورندا فى رواية إنقاذ أورشليم لتاسو ، وقصص السيدة ده اسكوديرى Mme de Scudéry فى هذه الرواية نجد جريمة الحب ، ودلائله ، والتوجع والإغماء والخاتمة السعيدة التى نجدها [illegible] ات الآلاف من القصص الممتعة ، وهنا نجد رواية **كلاريسا هارلو** Clarissa Harlow قبل كاتبها رتشردسن Richardson بألف وخمسمائة عام .

وأشهر قصص الحب جميعها فى النثر القديم قصة **دفنيس وكلوى** Daphnis and Chloë . ولسنا نعرف عن مؤلفها إلا اسمه لنجس Longus ، كما أننا نظن مجرد ظن أنها ألفت فى القرن الثالث بعد الميلاد . وتقول إن دفنيس عرض لتقلبات الجو القاسية وقت مولده ، وإن راعياً أنقذه وعنى بتربيته وإنه أصبح هو الآخر راعياً . وفى القصة فقرات رائعة فى وصف الريف توحى بأن لنجس كشف ما فيه من جمال بعد طول مقامه فى المدينة ، كما كشفه الشاعر ثيوكريتس الذى نسج هو على سواله . ويحب دفنيس فتاة حسناء أنقذت هى الأخرى بعد أن عرضت للجو القاسى فى طفولتها . ويرعى الفتى والفتاة قطعانهما وتتوثق بينهما عرى الصداقة والألفة ، ويستحمان معاً وهما عريانين فى طهر وبراءة ، ويقبل كلاهما الآخر أول قبلة يسكران منها . ويشرح لهما جارسنج نشوة حبهما ، ويصف لهما ما لاقاه فى أيام شبابه من آلام العشق فيقول « لم أكن أفكر فى طعامى ،

ولم أكن أذوق طعم الراحة ، وهجر الكرى عيني ، وأمضني الحزن ، وأسرعت ضربات قلبي ، وأحست أطرافي ببرودة الموتى[٣٨] . ويعرفهما أبواهما ، وكانا وقتئذ من أغنياء الناس ، ويهبانهما الكثير من المال ، ولكنهما لا يعبآن بالثراء ، ويعودان إلى حياة الرعي المتواضعة : والقصة مكتوبة ببساطة الفن الجميل المصقول وقد ترجمها أميو Amyot إلى اللغة الفرنسية السلسة المطواعة (١٥٥٩) فكانت هذه الترجمة هي المثال الذي احتذاه سان بيير في بول وفرجينيا كما أوحت بما لا يحصى من الرسوم والقصائد والقطع الموسيقية .

وشبيه بها قصيدة من الشعر تعرف باسم أمسية فينوس . ولا يعرف أحد اسم منشئها أو متى أنشأها ، وأغلب الظن أنها من شعر ذلك القرن نفسه[٣٩] . وموضوعها هو موضوع خطب لكريشيوس التي تمتاز بما فيها من التفات ، ورواية لنجس الغرامية — وخلاصتها أن ربة الحب تلهب قلوب جميع الأحياء بالرغبة الجامحة ، وأنها لهذا السبب هي خالقة العالم الحقة !

غداً سيحب من لم يطف به طائف الحب ،
غداً سيحب من ذاق قبل طعم الحب ،
لقد أقبل الربيع النضر ، وأخذ يغني غناء الحب ،
وولدت الدنيا من جديد ، وها هو ذا حب الربيع ،
يدفع كل طير إلى قرينه ، وها هي ذي الغابات المترقبة
تنثر غدائرها لتستقبل شآبيب الربيع ،
غداً سيحب من لم يطف به طائفة الحب ،
وسيحب من ذاق قبل طعم الحب .

وعلى هذا النحو يسترسل الكاتب في شعره العذب الصافي ، ويجد الحب في المطر المخصب ، وفي أشكال الزهر ، وفي أهازيج الأعياد البهجة ، وفي التجارب

الصعبة التى يعانيها الشباب المشتاق . وفى مواعيد اللقاء الوجلة ، وسط الغابات ؛ وبعد كل مقطوعة يتردد الوعد القوى الجامع : « غداً سيحب من لم يطف به طائف الحب ، وسيحب من ذاق قبل طعم الحب » . وإنا لنجد هنا فى آخر القصائد الغنائية الكبرى التى تغنت بها الروح الوثنية الوزن الشعرى لترانيم العصور التى تستبق أنغام شعراء الفروسية الغزليين بعدة قرون .

الفصل الخامس

الملكية الشرقيـــة

لما مات كلوديوس الثانى فى أثناء انتشار وباء كان يفتك بالقوط والرومان على السوآء (٢٧٠) اختار الجيش خليفة له ابن فلاح إليرى : وكان دومتيوس أورليانس Domitius Aurelianus قد ارتفع من أوطأ الطبقات بقوة الجسم والإرادة ؛ وقد لقبوه من قبيل السخرية « يد على سيف » . وكان مما يشهد بعودة العقل إلى الجيش أنه اختار رجلا يطلب عند غيره من النظام ما يطلبه عند نفسه .

وبفضل قيادته صد أعداء رومة عن حدودها فى كل مكان عدا نهر الدانوب ، فهناك نزل أورليان عن داشيا للقوط لعلهم بذلك يقفون حاجزاً بين الإمبراطورية وبين غيرهم من البرابرة . ولعل هذا الاستسلام قد شجع الألمان والوندال على غزو إيطاليا ، ولكن أورليان انتصر عليهم فى ثلاث معارك وشتت شملهم . وكان يفكر فى القيام بحملات حربية على أجزاء قاصية ، ويخشى أن يهاجم الأعداء رومة فى أثناء غيابه ، فأقنع مجلس الشيوخ بأن يوافق على صرف المال اللازم لبناء أسوار جديدة حول العاصمة ، كما أقنع النقابات الطائفية بأن تقوم بهذا العمل . وأخذت المدن فى جميع أنحاء الأمبراطورية تشيد الأسوار حولها ، وكان قيامها بهذا العمل شاهداً على ضعف قوة الرومان وخاتمة السلم الرومانية .

ورأى أورليان أن الهجوم أفضل من الدفاع ، ولذلك اعتزم أن يعيد مجد الإمبراطورية بالهجوم على زنوبيا فى الشرق ، ثم على تتريكس Tetri cus الذى اغتصب السيادة على غالة بعد پستيوس . واسترد پروبس Probus قائد أورليان مصر من ابن زنوبيا فى الوقت الذى كان هو نفسه يخترق بجيوشه بلاد البلقان ،

ويعبر الهلسبنت ، ويهزم جيش هذه الملكة فى حمص ويحاصر عاصمتها . وحاولت الملكة أن تفر ، وتستنجد بالفرس ولكنها أسرت ، واستسلمت المدينة ونجت من التدمير ، ولكن لنجينس قتل (٢٧٢) . وبينا كان الإمبراطور عائداً على رأس جيشه إلى الهلسبنت ، ثارت تدمر وقتلت الحامية التى تركها فيها . فعاد إليها مسرعاً كسرعة قيصر ، وحاصر المدينة مرة أخرى واستولى عليها بعد قليل من الوقت ، وأباحها لجنوده يسلبون وينهبون ويعيثون فيها فساداً ، ودك أسوارها ، وقضى مرة أخرى على تجارتها ، وتركها تعود قرية صحراوية . وهكذا ظلت من ذلك الحين إلى الوقت الحاضر . وسارت زنوبيا مكبلة بالأغلال تزين موكب أورليان وهو داخل منتصر إلى رومة ؛ وسمح لها بأن تقضى البقية الباقية من عمرها حرة إلى حدما فى تيبور Tibur(*) .

وفى عام ٢٧٤ هزم أوليان تتريكس عند شالون Châlons وعاد بعدئذ إلى غالة . واغتبطت رومة بعودة سيادتها إليها فرحبت بالقائد الظافر ولقبته « مرجع العالم » restitūtor orbis . ثم وجه عنايته إلى واجبات السلم ، فأعاد إلى الإمبراطورية شيئاً من النظام الاقتصادى بإصلاح النقد الرومانى ، وأعاد تنظيم الأداة الحكومية بأن طبق عليها نفس النظام الصارم الذى رد به الحياة إلى الجيش . وكان يعزو بعض ما تعانيه رومة من الفوضى الأخلاقية والسياسية إلى تعدد الأديان والمذاهب فيها ، ويسعى لأن يوحد الأديان القديمة والجديدة ويوجهها إلى عبادة إله واحد هو إله الشمس ، والإمبراطور نائبه فى الأرض . ولما أظهر الجيش ومجلس الشيوخ تشككهما ، أبلغهما أن الله ، لا اختيارهما ولا تأييدهما ، هو الذى جعله إمبراطوراً . وأنشأ فى رومة هيكلا للشمس رائع الجمال ، كان يرجو أن يمتزج فيه بعل حمص وإله المثراسية . وكانت الملكية المطلقة والتوحيد تسيران

(*) انظر الرسالتين المتبادلتين بين زنوبيا وأورليان فى الجزء الأول من كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

وقتئذ جنباً إلى جنب ، وكانت كلتاهما تسعى لأن تستعين بالأخرى ؛ وكانت سياسة أورليان الدينية توحى بأن قوة الدولة آخذة فى الاضمحلال ، وأن قوة الدين آخذة فى الارتفاع ، وقد أصبح الملوك وقتئذ ملوكاً بنعمة الله .
وكانت هذه هى فكرة الشرقيين عن الحكومة ، وهى فكرة وجدت فى مصر ، وبلاد الفرس ، وسوريا ؛ فلما قبلها أورليان عجل التيار الذى كان يحول الملكية إلى حكومة شرقية ، وهو التيار الذى بدأ من عهد ألجابالس وانتهى عند دقلديانوس وقسطنطين .

وبينا كان أورليان يقود جيشاً مخترقاً به تراقية ليحسم الأمر بينه وبين فارس إذ اغتاله فى عام ٢٧٥ جماعة من ضباطه لأنهم خـــدعوا فظنوا أنه ينوى إعدامهم . وارتاع الجيش لكثرة ما ارتكبه هو نفسه من الجرائم فطلب إلى مجلس الشيوخ أن يختار من يخلف الإمبراطور القتيل ؛ ولم يكن أحد يرغب فى هذا الشرف الذى ينذر بالقتل على الدوام ؛ وانتهى الأمر بأن رضى به تاستس لأنه كان وقتئذ فى الخامسة والسبعين من عمره . وكان تاستس هذا يدعى أنه من نسل المؤرخ المسمى بهذا الاسم ، وكانت تتمثل فيه جميع الفضائل التى كان ينادى بها ذلك الكاتب الموجز المتشائم ؛ لكنه قضى نحبه من فرط الإعياء بعد ستة أشهر من جلوسه على العرش . وندم الجند على ندمهم ، فعادوا إلى الاستئثار بالسلطة ونادوا بپروبس Probus إمبراطوراً (٢٧٦) .

وكان ذلك اختياراً موفقاً ، كما كان پروبس خليقاً باسمه(*) لأنه كان يمتاز بالشجاعة والاستقامة . فقد طرد الألمان من غالة ، وطهر إليركم Illyricum من الوندال ، وشاد سوراً بين الرين والدانوب ، وأرهب الفرس بكلمة منه ، واستمتعت الإمبراطورية كلها فى أيامه بالسلم ؛ وسرعان ما عاهد شعبه على ألا تكون فى البلاد أسلحة ، ولا جيوش ، ولا حروب ، وعلى أن يعم الأرض كلها حكم القانون .

(*) يشير الكاتب إلى أن معنى الكلمة اللاتينية Probus هو طيب أو صالح . (المترجم)

وبدأ هذه الطوبى بأن أرغم جنوده على أن يصلحوا الأراضى البور ، ويجففوا المستنقعات ويغرسوا الكروم ، ويقوموا بضروب أخرى من الأعمال العامة . واستاء الجيش من هذا التسامى الذى لم يكن له به عهد ، فاغتاله (٢٨٢) ، وحزن عليه ، وأقام نصباً تذكاريا له :

ونادى برجل يدعى ديو قليز Diocles ابن معتوق دلماشى إمبراطوراً على الدولة . وكان ديو قليشيان أودقلديانوس — وهو الاسم الذى اختاره بعد ذلك لنفسه — قد ارتقى بمواهبه الفذة ومبادئه الأخلاقية المرنة حتى عين قنصلا ، وحاكما فى بعض الولايات ، وقائداً لحرس القصر . وكان رجلا أكثر دراية بشئون الحكم منه بالحرب . وقد جلس على العرش بعد عهد من الفوضى أشد من الفوضى التى عمت البلاد من أيام ابنى جراكس إلى أيام أنطونيوس ، ولكنه هدأ كل الأحزاب الثائرة المتنافرة ، وصد الأعداء عن جميع الحدود ، وبسط سلطان الحكومة وقواه ، وأقام حكمه على تأييد للدين ورضاء رجاله : وكان ثالث ثلاثة تدين لهم الإمبراطورية بالشىء الكثير — أغسطس وأورليان ، ودقلديانوس : فأما أغسطس فقد أنشأها ، وأما أورليان فقد أنقذها ، وأما دقلديانوس فقد نظمها تنظيما جديدا .

وكان أول قراراته الحاسمة قراراً كشف عن المستور من أحوال الدولة وعن أفول نجم رومة ، فقد هجر المدينة ولم يتخذها عاصمة لملكه ، واتخذ مقامه فى نيقوميديا وهى مدينة فى آسية الصغرى تبعد عن بيزنطية بقليل من الأميال جهة الجنوب ، وظل مجلس الشيوخ يعقـــد جلساته فى رومة كما كان يعقدها قبل ، وظل القناصل يقومون بمراسمهم المألوفة ، وظلت الألعاب الصاخبة تدور كسابق عهدها والشوارع تموج بمن فيها من الناس على اختلاف أجناسهم ؛ ولكن السلطة والقيادة قد انتقلتا من هـــذه المدينة التى أضحت مركز الانحلال الاقتصادى والأخلاقى : وكان الذى دفع دقلديانوس إلى هذا العمل هو الضرورة الحربية . ذلك أنه كان لا بد

من الدفاع عن أوربا وآسية ، ولم يكن الدفاع عنهما مستطاعا من مدينة فى جنوب جبال الألب وتبعد عن تلك الجبال هذا البعد الشاسع ؛ ولهذا أشرك معه فى الحكم قائداً محنكا يدعى مكسميان (٢٨٦) ، وعهد إليه الدفاع عن الغرب ، ولم يتخذ مكسميان رومة عاصمة له بل اتخذ بدلا منها مدينة ميلان . وبعد ست سنين من ذلك العام اتخذ كلا الأغسطين Augusti « قيصراً » ليساعده فى أعباء الحكم وليكون خليفة له من بعده . فاختار ديوقلديشان جليريوس Galerius واتخذ هذا عاصمته مدينة سرميوم Sirmium وهى متروفيكا Mitrovica على نهر الساف Save ، وعهد إليه حكم ولايات الدانوب ؛ وعين مكسميان قنسطنطيوس كلورس Constantius Chlorus (الأصغر) خلفاً له . واتخذ هذا حاضرته مدينة أوغسطا ترفرورم Augusta Trevirorum (تريف Trèves) . وتعهد كل أغسطس أن يعتزل الملك بعد عشرين عاما ليخلفه قيصره ؛ وكان من حق هذا القيصر أن يعين هو الآخر « قيصراً » يعاونه ويخلفه . وزوج كل أغسطس ابنته « بقيصره » فأضاف بذلك رابطة الدم إلى رابطة القانون . وكان دقلديانوس يرجو بذلك أن يسد الطريق على حروب الوراثه ، وأن يعيد إلى الحكومة استقرارها ودوامها وسلطانها ، وأن تكون الإمبراطورية متأهبة لملاقاة الأخطار فى أربع نقاط هامة ، سواء أكانت هذه الأخطار ناشئة من الثورات الداخلية ، أم من الغزو الخارجى . لقد كان تنظيما باهراً ، جمع كل الفضائل إذا استثنينا فضيلتى الوحدة والحرية . فقد انقسمت الملكية ، ولكنها كانت ملكية مطلقة ، وكان كل قانون يصدره كل حاكم من الحكام الأربعة يصدر باسمهم جميعاً ، ويطبق فى أنحاء الدولة ، وكان قرار الحكام يصبح قانوناً ساعة صدوره ، من غير حاجة إلى تصديق مجلس الشيوخ فى رومة ؛ وكان الحكام هم الذين يعينون جميع موظفى الدولة ، ومدت أداة بيروقراطية ضخمة فروعها فى جميع أنحاء الدولة . وأراد دقلديانوس أن يزيد



(شكل – ١٧) متراس والثور (فى المتحف البريطانى)

من قوة هذا النظام فحول عبادة عبقرية الإمبراطور إلى عبادة شخصه بوصفه تجسيداً لجوبتر ، وتواضع لكسمليان فرضى أن يكون هو هرقول ؛ وهكذا هبطت الحكمة والقوة من السماء لتعيدا النظام والسلم إلى الأرض ، واتخذ دقلديانوس لنفسه تاجا — عصابة عريضة مرصعة باللآلى — وأثواباً من الحرير والذهب ؛ وأحذية مرصعة بالحجارة الكريمة ، وابتعد عن أعين الناس فى قصره ، وحتم على زائريه أن يمروا بين صفين من خصيان التشريفات والحجاب وأمناء القصر ذوى الألقاب والرتب ، وأن يركعوا ويقبلوا أطراف ثيابه . لقد كان فى الحق رجلا يعرف العالم حق المعرفة . وما من شك فى أنه كان يضحك فى السر من هذه الخرافات والأشكال ولكن عرشه كان يعوزه ما يخلعه الزمان عليه من شرعية ، وكان يأمل أن يدعمه وأن يقمع اضطراب العامة وعصيان الجيش بأن يخلع على نفسة مظاهر الألوهية والرهبة . وفى ذلك يقول أورليوس ڤكتور : « واتخذ لنفسه لقب السيد Dominus ، ولكنه كان يسير فى الناس سيرة الأب »[٤٠] وكان معنى إقامة هذا الطراز الشرقى من الحكم الاستبدادى على يد ابن عبد رقيق ، وهذا الجمع بين الإله والملك فى شخص واحد ، كان معنى هذا عجز الأنظمة الجمهورية فى العهود القديمة ، والتخلى عن ثمار معركة مرثون ، والعودة إلى مظاهر بلاط الملوك الإكيمنيين ، والمصريين ، والبطالمة ، والپارثيين ، والملوك الساسانيين ، وإلى النظريات التى كان يقوم عليها حكم هؤلاء الملوك كما عاد الإسكندر إليها من قبل . ومن هذه الملكية الشرقية الصبغة جاء نظام الملكيات البيزنطية والأوربية ، وهو النظام الذى ظل قائماً إلى أيام الثورة الفرنسية . ولم يبق بعد هذا إلا أن يتحالف الملك الشرقى عاصمة شرقية مع دين شرقى . ولقد بدأت الخواص البيزنطية فى الظهور أيام دقلديانوس .

الفصل السادس

اشتراكية دقلديانوس

وسار دقلديانوس فى عمله بنشاط لا يقل عن نشاط قيصر ، فأخذ يعيد تنظيم كل فرع من فروع الإدارة الحكومية . وبدل أحوال الأشراف بأن رفع إلى طبقتهم كثيرين من الموظفين المدنيين أو العسكريين ، وبأن جعلها طبقة وراثية ذات مراتب مختلفة على النظام الشرقى ، وألقاب كثيرة ، ومراسم معقدة متعددة . وقسم هو وزملاؤه الإمبراطورية إلى ست وتسعين ولاية تتألف منها اثنتان وسبعون أبرشية ، وأربع مقاطعات ، وعُيِّن لكل قسم حاكم مدنى وآخر عسكرى وأصبحت الدولة بذلك ذات حكومة مركزية صريحة ، ترى أن الاستقلال الذاتى المحلى ، وأن الدمقراطية نفسها ، ترف لا يصلح إلا لأوقات الأمن والسلم ، وتبرر سلطانها المطلق بحاجات الحرب القائمة أو المتوقعة . ودارت رحى الحرب فى تلك الأيام فعلا وأحرزت الدولة فيها انتصارات باهرة ؛ فاستعاد قنسطنطيوس بريطانيا التى ثارت عليه ، وأوقع جليريوس بالفرس هزيمة منكرة حاسمة أسلموا بعدها أرض النهرين و خمس ولايات وراء نهر دجلة ، وصد أعداء رومة عن حدودها جيلا من الزمان .

وواجه دقلديانوس وأعوانه فى زمن السلم المشاكل الناشئة من الانحلال الاقتصادى ، فأحل محل قانون العرض والطلب نظاماً اقتصادياً تسيطر عليه الدولة ليتغلب بذلك على الكساد ويمنع نشوب الثورات[٤١] . ووضع نظاماً نقدياً سليما بأن عين للعملة الذهبية وزناً وعياراً محددين ، احتفظت بهما الإمبراطورية الشرقية حتى عام ١٤٥٣ ، ووزع الطعام على الفقراء بنصف ثمنه فى السوق

أو بغير ثمن على الإطلاق ، وشرع يقيم كثيراً من المنشآت العامة ليوجد بذلك عملا للمتعطلين[٤٢] ، ووضع عدداً كبيراً من فروع الصناعة والتجارة تحت سيطرة الدولة ليضمن بذلك حاجات المدن والجيش ؛ وبدأ هذه السيطرة الكاملة باستيراد الحبوب فأقنع أصحاب السفن والتجار والبحارة المشتغلين بهذه التجارة أن يقبلوا إشراف الدولة عليها نظير ضمان الحكومة لعدم تعطلهم ولأرباحهم[٤٣] . وكانت الدولة من زمن قديم تمتلك معظم مقالع الحجارة ، ورواسب الملح ، والمناجم ، ولكنها خطت فى ذلك الوقت خطوة أخرى فحرمت تصدير الملح ، والحديد ، والذهب ، والخمر ، والحبوب ، والزيت ، من إيطاليا ، وفرضت نظاماً دقيقاً صارماً على استيراد هذه المواد[٤٤] . ثم انتقلت بعد ذلك إلى السيطرة على المؤسسات الصناعية التى تنتج حاجيات الجيش ، وموظفى الدولة وبلاط الأباطرة . وحتمت على مصانع الذخيرة ، والنسيج ، والمخابز ألا يقل إنتاجها عن قدر معين ، واشترت هذا القدر بالأثمان التى حددتها هى له ، وألقت على جمعيات الصناع تبعات تنفيذ أوامرها ومواصفات منتجاتها ، فإذا تبينت أن هذه الخطة لم تؤد إلى الغرض المقصود منها أممت هذه المصانع ، وجهزتها بعمال فرضت عليهم أن يعملوا فيها[٤٥] . وبهذا وضعت الكثرة الغالبة من المؤسسات الصناعية والنقابات الطائفية فى إيطاليا شيئاً فشيئاً تحت سيطرة الدولة المتحدة فى عهد أورليان ودقلديانوس . وخضع القصابون ، والخبازون ، والبناءون ، وصناع الزجاج ، والحديد والحفارون خضع هؤلاء جميعاً لنظم مفصلة وضعتها لهم الحكومة[٤٦] . ويقول رستوفتزف Rostovtzeff إن الهيئات الصناعية المختلفة كانت أشبه « بمراقبات صغرى على مؤسساتها تقوم بهذا العمل نيابة عن الدولة ، كانت أشبه بهذه المراقبات منها بمالكة المؤسسات . وكانت خاضعة لسلطان موظفى المصالح الحكومية المختلفة ، ولقواد الوحدات العسكرية المتباينة »[٤٧] .

وحصلت جمعيات التجار والصناع من الحكومة على مزايا كثيرة متنوعة ،

وكثيراً ما كانت تؤثر تأثيراً كبيراً فى خططها ؛ وكانت فى نظير هذه المزايا وهذا التأثير تعمل كأنها أعضاء فى الإدارة القومية ، فكانت تساعد الحكومة على تجنيد الأيدى العاملة ، وجباية الضرائب للدولة من أعضائها(٤٨) . وامتدت وسائل من الإشراف الحكومى شبيهة بهذه الوسائل فى القرن الثالث وأوائل القرن الرابع إلى مصانع الأسلحة القائمة فى الولايات ، وإلى صناعة الأطعمة والملابس . وفى ذلك يقول پول — لوى Paul Louis :
« وكان فى كل ولاية رقيب خاص يشرف على نواحى النشاط الصناعى ، وأضحت الدولة فى كل مدينة كبيرة صاحب عمل وذات قوة كبيرة . . . تسيطر على جميع المصانع الخاصة التى كانت ترزح تحت أعباء الضرائب الفادحة »(٤٩) .

ولم يكن مستطاعا أن يسير هذا النظام إلا إذا سيطرت الدولة على أثمان السلع ، ولهذا أصدر دقلديانوس وزملاؤه فى عام ٣٠١ **قانون الإثمان** الذى حددت به أقل الأثمان والأجور التى يجيزها القانون لجميع السلع أو الخدمات الهامة فى جميع أنحاء الإمبراطورية . وهاجم القرار فى مقدمته الاحتكارات التى منعت البضائع من السوق فى الوقت الذى « قلت فيه السلع » لكى ترتفع أثمانها .

« ومنذا الذى . . . خلا قلبه من العاطفة الإنسانية فلا يرى أن ارتفاع الأسعار ظاهرة عامة فى أسواق مدننا ، وأن شهوة الكسب لا يحد منها وفرة السلع ولا أعوام الرخاء ؟ — ولهذا . . . يرى أشرار الناس أنهم يخسرون إذا ما توافرت الحاجات . . . إن من الناس من يجعلون همهم الوقوف فى وجه الرخاء العام . . . والجرى وراء الأرباح الباهظة القاتلة . . . . لقد عم الشره جميع العالم . . . . فحيثما اضطرت جيوشنا للذهاب لتأمين الناس بوجه عام ، رفع الجشعون الأثمان ، ولم يكتفوا بالحصول على سبعة أضعاف الثمن المعتاد أو ثمانية أضعافه ، بل زادوه إلى الحد الذى تعجز الألفاظ عن وصفه ، حتى لقد يضطر

الجندى إلى دفع مرتبه كله وإعانة الحرب فى شراء سلعة واحدة ، وبذلك يذهب كل ما يقدمه العالم كله لإمداد الجيش بحاجته فى جيوب أولئك اللصوص الجشعين(*)[٥٠] .

ولقد ظل هذا المرسوم حتى وقتنا الحاضر أعظم محاولة فى التاريخ كله لاستبدال القرارات الحكومية بالقوانين الاقتصادية . ولكن التجربة أخفقت إخفاقا عاجلا كاملا ، فقد أخفى التجار ما عندهم من السلع وشحت البضائع أكثر من ذى قبل ، واتهم دقلديانوس نفسه بالتغاضى عن ارتفاع الأسعار[٥٢] ؛ وحدثت عدة اضطرابات ؛ واضطرت الحكومة إلى التراخى فى تطبيق المرسوم لإعادة الإنتاج والتوزيع إلى حالتهما الطبيعية[٥٣] . وانتهى الأمر بإلغائه على يد قسطنطين .

وكانت علة ضعف هذا النظام الاقتصادى الخاضع للسيطرة الحكومية

(*) وتكشف أقصى الأثمان التى حددها ذلك المرسوم لبعض السلع عن مستوى الأسعار والأجور فى عام ٣٠١ م فالقمح ، والعدس والبسلة كان ثمن (البشل (Bushel) منها يعادل ٥ ر٣ ريال أمريكى ، وكان الشعير ، والشيلم ، والفول بـ ١٠ ر ٢ ريال للبشل : والنبيذ بـ ٢١ — ٢٦ من مائة من الريال للپينت pint ؛ وزيت الزيتون بـ ٥ ر ١٠ من مائه من الريال للپينت ، ولحم الخنزير بـ ٥ و ١٠ من مائة من الريال للرطل الإنجليزى ، ولحم العجول أو الضأن بـ ٧ من مائه من الريال للرطل الإنجليزى ، والدجاج الصغير كل اثنتين بـ ٥ ر ٥٢ والزبابات (dormouse) كل عشر بـ ر ٣٥ ؛ وأحسن أنواع الكرنب والخس كل خمس منها بـ ٥ ر ٣ والبصل الأخضر كل ٢٥ بـ ٥ ر٣ ؛ وأحسن البزاناب (snails) كل عشرين بـ ٥ ر ٣ ؛ والتفاح أو الخوخ الكبير كل عشر بـ ٥ و ٣ ؛ والتين كل ٢٥ بـ ٥ ر٣ ؛ والشعر كل رطل إنجليزى بـ ٥ ر٣ ، والأحذية يتراوح ثمن الزوج منها بين ٦٢ من مائة و٣٨ ر١ ريال ، وكانت أجور عمال الزراعة بين ٢.٣ ، ٤٦ من مائة من الريال ، يضاف إليها الطعام ؛ وكان البناءون ، والنجارون ، والحدادون ، والخبازون ، يتقاضون ٤٦ من مائة من الريال مضافا إليها ثمن الطعام ؛ والحلاقون ٧٥ ر ١ ريال عن كل شخص ، والكتبه ٢٣ر عن كل ١٠٠ سطر ، ومدرسو المدارس الأولية ٤٦ ر عن كل تلميذ فى كل شهر ؛ ومدرسو الآداب اليونانيه أو اللاتينية أو الهندية ٨٤ ر ١ عن كل تلميذ فى الشهر ، والمحامون ٣٦ ر ٧ ريالات عن كل قضية ٥١

هى ما تطلبه تنفيذه من نفقات . فقد بلغت البيروقراطيه التى تطلبها تنفيذه من الاتساع درجة وصفها لكتنيوس بأنها احتاجت إلى نصف السكان ؛ ولا شك فى أنه بالغ فى هذا التقدير مبالغة كان الباعث عليها ميوله السياسية(٥٤) . ووجد الموظفون آخر الأمر أن عملهم هذا مما تنوء به العدالة الإنسانية ، وكانت رقابتهم متباعدة يستطيع الناس أن يفلتوا منها بما أوتوا من مكر ودهاء . وارتفعت الضرائب ارتفاعاً لم يكن له مثيل من قبل ، وفرضت على كل شىء لأداء أجور الموظفين ، ونفقات البلاط ، والجيش ، وبرنامج المنشآت العامة ، وإعالة العجزة والمتعطلين . ولم تكن الدولة قد كشفت بعد طريقة الاستدانة لتخفى بها إسرافها وتؤجل يوم حسابها ؛ فقد كانت أعمال كل عام ينفق عليها من إيراد العام نفسه . وأراد دقلديانوس أن يحتاط لما عساه أن يحدث من أداء الضرائب بعملة مخفضة ، فأمر بأن تؤدى الضرائب عيناً كلما كان ذلك مستطاعا ، وحتم على دافعى الضرائب أن يؤدوا ما عليهم إلى مخازن حكومية ، ووضع نظاما شاقا لنقل هذه الضرائب العينية من هذه المخازن إلى مقرها الأخير(٥٥) . وجعل موظفى البلديات فى كل بلدية مسئولين من الوجهة المالية عن كل تقصير فى تحصيل الضرائب المفروضة على إقليمهم(٥٦) .

وإذا كان من طبيعية كل ممول أن يحاول الهروب من أداء ما عليه من الضرائب ، فقد أنشأت الدولة قوة خاصة من الشرطة للفحص عن أملاك كل شخص ودخله ؛ واستخدمت وسائل التعذيب مع الزوجات ، والأطفال ، والعبيد لإرغامهم على الكشف عن ثروة بيوتهم أو مكاسبها ؛ وفرضت عقوبات صارمة على من يحاولون الهرب من أداء ما عليهم(٥٧) . ومع هذا كله فقد كاد الفرار من الضرائب أن يصبح وباء متفشياً فى الإمبراطورية كلها فى القرن الثالث ، وأضحى أكثر تفشياً فى القرن الرابع ؛ فكان الأغنياء يخفون ثروتهم ، وبدل الأشراف طبقتهم ووضعوا أنفسهم فى عداد الطبقة الدنيا حتى لا يختاروا للوظائف

البلدية ؛ وهجر الصناع حرفهم ، وترك الزراع أرضهم المثقلة بالضرائب ليصبحوا أجراء عند غيرهم ، وأقفرت كثير من القرى وبعض البلدان الكبيرة (مثل طبرية في فلسطين) من أهلها لفدح الضرائب المفروضة عليها[٥٨] ؛ فلما كان القرن الرابع اجتاز عدد كبير من الأهلين حدود الإمبراطورية ولجأوا إلى البرابرة فراراً من الضرائب الفادحة .

وأكبر الظن أن الذي حمل دقلديانوس على الالتجاء إلى تلك الأعمال ، التي أوجدت في واقع الأمر نظام الاسترقاق الإقطاعي في الحقول ، والمصانع ، والنقابات الطائفية ، هو حرصه على منع هذه الهجرة التي تكلف الدولة كثيراً من النفقة ، وعلى ضمان ورود الطعام بانتظام للجيش والمدن ، والضرائب لبيت المال . وبعد أن جعلت الحكومة مالك الأرض بما فرضته عليه من الضرائب النوعية مسئولا عن حسن استغلال مزارعيه لأرضه ، قررت أن يبقى الزارع في أرضه حتى يؤدى جميع المتأخر عليه من الديون أو العشور . ولسنا نعرف متى صدر هذا القرار التاريخي ، ولكنا نعرف أن قسطنطين سن في عام ٣٣٢ قانوناً يفترض وجود هذا القرار ويؤكده ؛ ويجعل المستأجر « يرتبط كتابة » بالأرض التي يزرعها ، لا يستطيع تركها إلا برضاء مالكها ، فإذا بيعت الأرض بيع هو وأسرته معها[٦٠] . وليس فيما وصل إلينا من المعلومات ما يدل على أن الزارع قد احتج على هذه القيود ، ولعل هذا القانون قد قدم إليه ضماناً لأمنه وسلامته ، كما هو حادث في ألمانيا في هذه الأيام . وبهذه الطريقة وأمثالها انتقلت الزراعة في القرن الثالث من الاسترقاق إلى الحرية ثم إلى الاسترقاق الإقطاعي ، وبهـذا النظام استقبلت العصور الوسطى .

واتبعت في الصناعة وسائل من هذا النوع ليضمن بذلك استقرارها . فحرم على العمال تغيير عملهم ، أو الانتقال من مصنع إلى مصنع إلا بموافقة الحكومة ؛ وقصرت كل نقابة طائفية على حرفتها والعمل المقرر لها ، وحرم على أي إنسان أن

يغادر النقابة التي سجل اسمه فيها[٦١] ، وألزم كل من يعمل في الصناعة أو التجارة بأن ينضم إلى نقابة من هذه النقابات الطائفية ، وحتم على الابن أن يشتغل بحرفة أبيه[٦٢] ؛ فإذا رغب إنسان في أن يستبدل بمكانه أو حرفته مكاناً آخر أو حرفة أخرى ، ذكرته الدولة بأن إيطاليا يحاصرها البرابرة ، وأن على كل رجل أن يبقى حيث هو .

ولما استهل عام ٣٠٥ نزل دقلديانوس ومكسيميليان عن سلطتهما باحتفالين مهيبين أقيما في نيقوميديا وميلان ، وأصبح جالريوس ، وقنسطنطيوس أغسطسين إمبراطورين أولهما للشرق وثانيهما للغرب . ولم يكن دقلديانوس قد تجاوز وقتئذ الخامسة والخمسين من عمره ، ولكنه اختفى في قصره الواسع القائم في أسبالاتا Spalata ، وقضى فيه الثمانية الأعوام الباقية من حياته . وشهد بعد انهيار حكومته الرباعية في غمار الحرب الأهلية . ولما أن ألح عليه مكسميان أن يستولى على أزمة الحكم مرة أخرى ، ويقضى على الشقاق والحرب ، قال إنه لو رأى مكسميان الكرنب الجيد الذي يزرعه في حديقته لما طلب إليه أن يضحى بهذه المتعة جرياً وراء متاعب السلطان[٦٣] .

والحق أنه كان قميناً بكرنبه وراحته ، فقد قضى على الفوضى التي دامت خمسين عاماً ، وأقر من جديد سلطان الحكومة والقانون ، وأعاد الاستقرار إلى الصناعة ، ورد الأمن إلى التجارة ؛ وأذل فارس ، وخضد شوكة البرابرة ؛ وكان بوجه عام مشترعاً أميناً مخلصا ، وحاكما عادلا إذا ضربنا صفحا عن بعض الاغتيالات القليلة التي جرت على يديه .

ولسنا ننكر أنه أقام بيروقراطية باهظة الأكلاف ، وقضى على الاستقلال الذاتي للولايات ، وعاقب معارضيه أشد عقاب ، واضطهد الكنيسة التي كان في وسعه أن يتخذها حليفة له فيما بذل من الجهود لإصلاح أحوال الدولة ، وجعل سكان الإمبراطورية مجتمعا من الطبقات ، في أحد طرفيه زراع جهلاء وفي طرفه

الآخر ملك مستبدّ مطلق السلطان . ولكن الظروف التى واجهتها رومة لم تكن تسمح بانتهاج سياسة تقوم على مبادئ الحرية ؛ وقد جرب ماركس أورليوس وألكسندر سفيرس هذه السياسة وأخفقا فيها ، ورأت الدولة الرومانية نفسها محوطة بالأعداء من كل جانب ، ففعلت ما لا بد أن تفعله الأمم جميعها فى أوقات الحروب التى يتقرر فيها مصيرها ، وقبلت طغيان زعيم قوى ، ورضيت أن يفرض عليها ما لا تكاد تطيقه من الضرائب ، وتخلت عن الحرية الفردية إلى أن تنال الحرية الجماعية . ولقد قام دقلديانوس بالأعمال التى قام بها أغسطس ، وإن كانت قد كلفت أولهما أكثر مما كلفت الآخر ، ولكنه والحق يقال قام بها فى ظروف أقسى من ظروفه ؛ وقد أدرك معاصروه ومن جاءوا بعده الأخطار التى نجوا منها بفضل جهوده فلقبوه « أبا العصر الذهبى » . وسكن قسطنطين البيت الذى شاده له دقلديانوس .

الباب الثلاثون

انتصار المسيحية

٣٠٦ - ٣٢٥ م

الفصل الأول

النزاع بين الكنيسة والدولة

٦٤ - ٣١١ م

كانت الحكومة الرومانية فيما قبل أيام المسيحية تُظهر فى أغلب الأحيان للأديان المعارضة للدين الوثنى المقرر تسامحاً تظهر هذه الأديان مثله للشعائر الرسمية وللإمبراطورية ؛ فلم تكن تطلب من أتباع العقائد الجديدة إلا حركة يأتونها من حين إلى حين يمجدون بها الآلهة ورئيس الدولة . ولهذا آلم الأباطرة أن يجدوا أن المسيحيين واليهود ، دون سائر أتباع الأديان الخارجة على دين الدولة ، هم الذين يأبون أن يعظموا عبقريانهم . ذلك إن إحراق البخور أمام تمثال الإمبراطور كان قد أصبح دليل الولاء للإمبراطورية وتوكيداً لهذا الولاء ، فهو من هذه الناحية أشبه ما يكون بيمين الولاء التى تطلب إلى من ينالون حق المواطنية فى هذه الأيام . لكن الكنيسة كانت ترفض من ناحيتها الفكرة الرومانية القائلة بأن الدين خاضع للدولة ، وترى فى عبادة الإمبراطور نوعاً من الشرك وعبادة الأصنام ، ولذلك أمرت أتباعها أن يرفضوا هذه الشعائر مهما ينلهم من الأذى بسبب هذا الرفض . واستدلت الحكومة الرومانية من هذا على أن المسيحية

حركة متطرفة — بل لعلها حركة شيوعية — تعمل فى السر على قلب النظام القائم .

وقد استطاعت القوتان قبل عهد نيرون أن تعيشا معاً من غير أن يشتجر بينهما النزاع ؛ وكان القانون يعفى اليهود من أن يعبدوا الإمبراطور ؛ ونال المسيحيون فى أول أمرهم هذه الميزة لأنه لم يكن يستطاع التفريق بينهم وبين اليهود . ولكن مقتل بطرس وبولس ، وحرق المسيحيين لزيد حرقهم ألعاب نيرون بهاء ، بدلا هذا التسامح المتبادل المشوب بالاحتقار من الجانبين عداء دائماً ، وحربا تندلع نارها بين الفينة والفينة . فلا غرابة أن وجه المسيحيون بعد هذا الإيذاء ، أسلحتهم كلها إلى صدر رومة — فنددوا بما فيها من فساد وعبادة للأصنام ؛ وسخروا بآلهتها ، وأظهروا الشماتة فيها حين حلت بها الكوارث[1] ، وتنبئوا بسقوطها بعد زمن قليل ، وأعلنوا ، فى حماسة الدين الذى أخرجه عن تسامحه عدم تسامح الدولة معه ، أن كل من أتيحت لهم الفرصة لاعتناق المسيحية ثم لم يعتنقوها سيعذبون عذاباً أبديا ؛ وقال الكثيرون منهم إن هذا سيكون أيضا مصير كل الخلائق الذين وجدوا قبل المسيحية ثم لم يعتنقوها لأى سبب من الأسباب ، وإن كان بعضهم قد استثنى سقراط وحده من هذا العذاب . ورد الوثنيون على هذا بأن سموا المسيحين « حثالة الناس » و « البرابرة الوقحين » ، واتهموهم بأنهم « أعداء الجنس البشرى » ، وقالوا إن الكوارث التى حلت بالإمبراطورية ليست إلا نتيجة غضب الآلهة الوثنية والسماح لمن يسبونها من المسيحيين بأن يبقوا أحياء[2] ؛ وأخذ كل فريق يفترى على الآخر آلاف الافتراءات ، فاتهم المسيحيون بأنهم سحرة متصلون بالشياطين ، وأنهم يقترفون الخطايا سراً ، ويشربون دماء الآدميين فى عيد الفصح[3] ، ويعبدون الحمار .

لكن النزاع كانت له أصول أعمق من هذا الخصام . ذلك أن الدولة كانت أساس الحضارة الوثنية فى حين أن الدين كان هو أساس الحضارة المسيحية . فالرومانى كان ينظر إلى دينه على أنه جزء من كيان الحكومة

وشعائرها ، وكانت الوطنية هي الذروة التي تنتهي عندها مبادئه الأخلاقية العليا . أما المسيحي فكان ينظر إلى دينه على أنه شيء منفصل عن المجتمع السياسي ، وأنه أسمى من هذا المجتمع مقاما ؛ وكان يدين بأعظم الولاء للمسيح لا لقيصر . وقد وضع ترتليان المبدأ الثوري القائل بأن الإنسان غير ملزم بأن يطيع قانونا يعتقد أنه ظالم[٤] ؛ وكان المسيحي يعظم أسقفه ، بل يعظم قسيسه ، أكثر من تعظيمه الحاكم الروماني ، ويعرض ما يقع بينه وبين زملائه المسيحيين من مشاكل قانونية على رؤساء الكنيسة لا على موظفي الدولة[٥] . وكان اعتزال المسيحي للشئون الدنيوية يبدو للوثني كأنه هروب من الواجبات المدنية وضعف للروح القومي والإرادة القومية . وأشار ترتليان على المسيحيين بأن يرفضوا الخدمة العسكرية ؛ وعمل عدد كبير منهم بنصيحته كما يدل على ذلك نداء سلسس لهم بأن يضعوا حداً لهذا الرفض ، ورد أرجن عليه بأن المسيحيين سيدعون للإمبراطورية وإن أبوا أن يحاربوا من أجلها[٦] . وكان زعماء المسيحيين يحضونهم على أن يتجنبوا غير المسيحيين ، وأن يبتعدوا عن الألعاب الهمجية التي يقيمونها في أعيادهم ، وألا يغشوا دور تمثيلهم لأنها مباءة للفجور[٧] . وحرم على المسيحي أن يتزوج بغير مسيحية ، وعلى المسيحية أن تتزوج بغير مسيحي ؛ واتهم الوثنيون العبيد المسيحيين بأنهم يبذرون بذور الشقاق في الأسر بتحريضهم أبناء أسيادهم وزوجاتهم على اعتناق الدين المسيحي ؛ واتهم الدين المسيحي بأنه يعمل لتشتيت شمل الأسر وخراب البيوت[٨] .

على أن معارضة الدين الجديد قد جاءت من قبل الشعب أكثر مما جاءت من قبل الدولة . ذلك أن الحكام كانوا في كثير من الأحيان رجالا مثقفين متسامحين ولكن جمهور السكان الوثنيين قد ساءهم عزلة المسيحيين ، وتعاليهم ، وثقتهم بأنفسهم ؛ وأهابوا بحكامهم أن يعاقبوا أولئك الملحدين الذين يهينون الآلهة . ويشير ترتليان إلى « الكراهية العامة التي يحسون بها نحونا »[٩] .

ويلوح أن القانون الرومانى منذ أيام نيرون كان يعد الجهر بالمسيحية جريمة يعاقب عليها بالإعدام[١٠] ؛ ولكن معظم الأباطرة كانوا يتغاضون عن تنفيذ هذا القانون متعمدين[١١] ، فكان فى وسع المسيحى إذا اتهم بمخالفته أن ينجو عادة من العقاب بحرق البخور أمام تمثال الإمبراطور ؛ ويبدو أنه كان يسمح له بعد ذلك أن يمارس شعائر دينه غير مضيق عليه[١٢] . أما المسيحيون الذين يرفضون تقديم هذا الولاء للإمبراطور فكانوا يسجنون ، أو يجلدون ، أو ينفون ، أو يحكم عليهم بالعمل فى المناجم ، أو بالإعدام فى حالات نادرة . ويبدو أن دومتيان نفى بعض المسيحيين من رومة ولكنه « وهو الرجل الرحيم إلى حد ما ، لم يلبث أن وقف ما بدأه »[١٣] . ونفذ بلنى هذا القانون مدفوعاً إلى ذلك بفضول الرجل الهاوى الذى يبغى إظهار سلطانه على الناس (١١١) ، إذا جاز أن نحكم عليه من رسالته التى بعث بها إلى تراچان :

« إن الطريقة التى اتبعتها مع من اتهموا أمامى بأنهم مسيحيون هى هذه : لقد سألتهم هل هم مسيحيون ؟ فإذا اعترفوا بأنهم كذلك أعدت السؤال عليهم مرة أخرى ، وأنذرتهم فى الوقت نفسه بأنهم سيقتلون إذا أصروا على قولهم ؛ فإذا أصروا عليها أمرت بقتلهم . . . . إن الناس بعد أن هجروا المعابد ، فلا يكادون يطرقونها ، قد أخذوا الآن يعودون إليها . . . . وكثر الطلب على الضحايا من الحيوانات بعد أن قل الإقبال على شرائها »[*] .

وقد رد عليه تراچان بقوله :

« إن الخطة التى سرت عليها يا عزيزى بلنى فى بحث حالات من اتهموا أمامك بأنهم مسيحيون خطة حكيمة . . . . يجب ألا تجد فى البحث عن

(*) انظر نص هذه الرسالة كاملا ، ورد تراچان عليها فى كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » الجزء الأول (المترجم) .

هؤلاء الناس ولكن إذا ما بلغت أمرهم وتثبت من جرمهم فعاقبهم ، فإذا أنكر الواحد منهم أنه مسيحى وأيد ذلك : . . بالابتهال إلى آلهتنا فاعف عنه . . . . فإذا بلغت عن أحدهم ولم يذكر فى البلاغ اسم المتهم فلا تتخذه بينة على أحد »[١٤] .

وتوحى الفقرة التى أثبتناها هنا بخط الرقعة بأن تراجان لم ينفذ القانون القائم من قبل أيامه إلا مكرها ؛ ولكننا مع ذلك نسمع عن شهيدين بارزين فى أيام زعامته : أحدهما سمعان رئيس كنيسة أورشليم ، وثانيهما أغناثيوس أسقف أنطاكية ؛ وأكبر الظن أنه قد استشهد غيرهما ممن هم أقل منهما شهرة .

وأمر هدريان ، المتشكك الذى يتسع عقله لقبول كل الآراء ، موظفيه بأن يفسروا كل شك فى مصلحة المسيحيين[١٥] ؛ أما أنطونينس ، الذى كان أكثر منه استمساكا بدينه ، فقد أباح اضطهادهم أكثر من هدريان . وحدث فى أزمير أن طالب الغوغاء فليب حاكم ولاية آسية ألا يتهاون فى تنفيذ القانون ، فأجابهم إلى ما طلبوا وأمر بإعدام أحد عشر من المسيحيين فى المجتلد (١٥٥) ، ولكن هذا لم يطفئ من تعطش الغوغاء للدماء بل زادهم ظمأ إليه ، فأخذوا يطالبون بإعدام الأسقف بوليكارب وهو أب ورع فى السادسة والثمانين من العمر قيل إنه فى أيام صباه كان يعرف القديس يوحنا . وقد وجد الجنود الرومان هذا الشيخ فى بيت فى ضاحية من ضواحى المدينة ، فجاءوا به إلى الوالى وهو يشهد الألعاب دون أن يبدى الرجل أية مقاومة . وألح عليه فليب أن « أقسم اليمين ، وسب المسيح ، وسأصفح عنك » . ويقول أقدم سفر من أعمال الشهداء إن بوليكارب أجابه بقوله : « لقد ظللت خادما له ستا وثمانين سنة ؟ لم يسىء فيها إلىّ قط ، فكيف إذن أسب ملكى الذى أنجانى ؟ » ونادى الغوغاء بأنه ينبغى أن يحرق حيا . وتقول الوثيقة التى فاض بها قلب مفعم بالتقوى والإيمان إن النار

كانت برداً وسلاماً عليه ، « بل كان فيها كالخبز الذى يخبز ، وقد فاحت منه رائحة ذكية كالتى تنبعث من البخور أو غيره من الأفاوية الغالية » وأمر الطغاة آخر الأمر سيافاً أن يجهز عليه بسيفه ؛ فلما فعل خرجت منه يمامة ، وخرج دم بلغ من غزارته أن انطفأت منه النار وأثار ذلك دهشة الجماهير كلها »(١٦) .

وتجدد الاضطهاد فى عهد أورليوس الورع . ذلك أنه لما حلت بالبلاد الكوارث من فيضان ، ووباء ، وحرب ، فى حكمه الذى كان فى أول أمره حكما موفقاً سعيداً ، ساد الاعتقاد بأن سبب هذه الكوارث هو إهمال آلهة الرومان أو إنكارها . وشارك أورليوس الجماهير فى ذعرها ، أو لعله خضع لها ، فأصدر فى عام ١٧٧ مرسوماً يقضى بعقاب الشيع الدينية التى تنشر الاضطراب « باستثارة أصحاب العقول غير المتزنة » بتلقينها عقائد جديدة . وثارت الجماهير الوثنية فى تلك السنة نفسها ثورة عنيفة على المسيحيين فى ڤينا وليون ورجموهم بالحجارة كلما تجرءوا على الخروج من بيوتهم . وأمر المرسوم الإمبراطورى بالقبض على زعماء المسيحيين فى ليون ، ومات الأسقف پوثينس ، وهو شيخ فى سن التسعين ، فى السجن من آثار التعذيب . وأرسل رسول إلى رومـــة ليسأل الإمبراطور عما يشير به فى معاملة سائر المسجونين ، فأشار ماركس بأن يطلق سراح من ينكر الدين المسيحى ، وأن يقتل من يعتنقه كما يقضى بذلك القانون .

وكان أهل ليون يحتفلون وقتئذ بعيد الأوغسطاليا كعادتهم فى كل عام ، وأقبلت الوفود من جميع بلاد الغالة حتى ازدحمت بهم عاصمة الولاية . وبينا كانت الألعاب قائمة على قدم وساق جىء بالمسيحيين المتهمين إلى المدرج ووجهت إليهم الأسئلة ، فأما من أنكروا فقد أخرجوا من المدرج ، وأصر سبعة وأربعون على الاستمساك بدينهم « فقتلوا بعد أن ذاقوا من ألوان العذاب ما لا مثيل له إلا فى أيام محاكم التفتيش . من ذلك أن أتلس الذى يلى پوثينس فى المراتب الكهنوتية قد أرغم على الجلوس على كرسى من الحديد المحمى الذى شوى جسمه وأزهق

روحه[١٧] . وظلت بلندينا Blandina وهى أمة صغيرة السن ، تعذب يوماً كاملا ، ثم ربطت فى زكيبة ، وألقيت فى المجتلد ليفتك بها ثور وحشى . وتحملت الفتاة عذابها وهى صامتة ، ولذلك اعتقد كثيرون من المسيحيين أن المسيح كان يُفقد شهداءه قوة الإحساس بالألم ؛ ولعل النشوة الدينية والخوف هما علة عدم الإحساس . وفى ذاك يقول ترتليان : « إن المسيحى كان يلهج بالشكر حتى حين يحكم عليه بالإعدام »[١٨](*) .

وخفت حدة الاضطهاد فى عهد كمودس ، ثم عاد إلى ما كان عليه فى عهد سبتميوس سفيرس ، وبلغ من شدته أن كان التعميد نفسه يعد جريمة تستحق العقاب . وفى عام ٢٠٣ استشهد كثيرون من المسيحيين فى قرطاجنة ومن هؤلاء أم فى مقتبل العمر تدعى بربتوا Berpetua تركت وراءها وصفاً يفتت الأكباد لأيامها التى قضتها فى السجن ، ورجاء أبيها لها أن تنكر الدين المسيحى . وقد ألقيت هى وأم شابة أخرى إلى أحد الأثوار الوحشية وافترسهما الثور . ولدينا فى أحد أسئلتها الأخيرة « حين ألقى بها إلى الثيران » دليل على ما يحدثه الخوف والغيبوبة من تخدير . وتصف لنا قصتها كيف وجهت بنفسها إلى عنقها خنجر المجالد الذى أمر على الرغم منه أن يقتلها[١٩] ، ولم تكن الإمبراطورات السوريات اللائى جلسن على العرش بعد سبتميوس يعنين كثيراً بالآلهة الرومانية . ولقيت المسيحية فى أيامهن شيئاً من التسامح الناشئ من عدم اهتمامهن بأمرها . ويبدو أن السلم قد سادت جميع الأديان المتنافسة فى أيام ألكسندر سفيرس .

وانتهت الهدنة بتجدد هجمات البرابرة . وإذا شئنا أن نفهم الاضطهاد فى عهد

(*) ومعلوماتنا عن الاضطهاد الذى حدث فى ليون مستمدة من رسالة بعث بها « خدام المسيح فى بلد نوم وفينا من أعمال غالة إلى إخوانهم فى آسية وفريجيا » وقد بعيت هذه الرسالة فى كتاب تاريخ الكنيسة ليوسبيوس ٥ : ١ . ولعل بعض المغالاة قد سرت إلى هذا التقرير .

ديسيوس (أو أورليوس) على حقيقته وجب علينا أن نصور لأنفسنا أمة منهمكة فى حرب عوان ، تزعجها الهزائم المنكرة ، وتتوقع أن يغزو بلادها الأعداء . وتجتاح الإمبراطورية موجة من النشوة الدينية القوية فى عام ٢٤٩ ؛ ويهرع الرجال والنساء إلى الهياكل يحيطون بالآلهة ويضرعون إليها بالصلوات والدعوات ؛ وفى وسط هذه الحمى التى تتأجج فيها نيران الوطنية والخوف ، يقف المسيحيون عن بعد وقفة المشاهدين الذين لا يعنيهم الأمر ، ويظلون كسابق عهدهم يستنكرون الخدمة العسكرية ويقاومونها[٢٠] ، ويسخرون من الآلهة ، ويفسرون انهيار الإمبراطورية بأنه هو البشرى التى وردت فى النبوءات عن تدمير « بابل » وعودة المسيح . وأراد ديسيوس أن يتخذ من حال الشعب النفسية فرصة يستعين بها على تقوية روح الحماسة الوطنية والوحدة القومية فأصدر مرسوما يطلب فيه إلى جميع سكان الإمبراطورية أن يتقدموا إلى آلهة رومة بعمل يتقربون به إليها ويردون به غضبها . ويلوح أن المسيحيين لم يطلب إليهم أن ينكروا دينهم ، بل أمروا أن يشتركوا فى التوسل إلى الآلهة التى طالما أنجت رومة من الخطر المحدق بها كما يعتقد العامة . واستجابت كثرة المسيحيين إلى هذا الأمر ؛ ففى الإسكندرية « كانت الردة عامة » على حد قول الأسقف ديونيشيوس[٢١] ؛ وحدث ذلك بعينه فى قرطاجنة وأزمير ؛ وأكبر الظن أن المسيحيين من أهل تلك المدن وأمثالها كانوا يرون أن هذا التوسل لا يعدو أن يكون نوعاً من الوطنية ؛ ولكن أسقفى أورشليم وأنطاكية قضيا نحبهما فى غيابة السجن ، وأعدم أسقفا رومة وطولوز (٢٥٠) ، وألقى مئات من المسيحيين الرومان فى غيابة الجب ، وقطعت رءوس بعضهم ، ومات الكثيرون منهم على قوائم الإحراق ، وألقى عدد قليل منهم إلى الوحوش فى حفلات الأعياد . وخفت حدة الاضطهاد بعد عام من ذلك الوقت ، ولم يحل عيد الفصح فى عام ٢٥١ حتى انتهى أمرها أوكاد ؛ وبعد ست سنين من ذلك الوقت أمر ڤليريان ، فى خلال أزمة أخرى من أزمات الغزو والرعب ،

أن « يمتثل كل شخص للشعائر الرومانية » ، وحرم كل الاجتماعات المسيحية . وعصى البابا سكتس Sixtus هذا الأمر فأعدم هو وأربعة من شمامسته ، وكذلك قطع رأس سبريان أسقف قرطاجنة ، وحرق أسقف طراقونة حيا . وفى عام ٢٦١ نشر جالينوس ، الذى جلس على العرش بعد أن أزال عنه الفرس ڤلبريان ، أول مرسوم يقضى بالتسامح الدينى اعترف فيه بأن المسيحية من الأديان المسموح بها وأمر بأن يرد إلى المسيحيين ما صودر من أملاكهم . وحدثت اضطهادات خفيفة فى السنين الأربعين التالية ، ولكن هذه السنين كانت فى معظمها سنى هدوء ونماء سريع للمسيحية لم تر لها مثيلا من قبل . فقد كان الناس فى خلال الفوضى والرعب السائدين فى القرن الثالث يفرون من الدولة الواهية المزعزعة الأركان إلى الذين يجدون فيهم سلواهم ، وقد وجدوا هذه السلوى فى المسيحية أكثر مما كانوا يجدونها فى غيرها من الأديان المنافسة لها . واعتنق المسيحية وقتئذ عدد من الأغنياء ، فشادت كنائس فخمة ، وأجازت لأبنائها أن يستمتعوا بطيبات العالم . وخبت نار الأحقاد الدينية بين الأهلين ؛ وأصبح المسيحيون أكثر حرية فى الاختلاط بالوثنيين ، بل إنهم تزوجوا منهم ، وبدا أن ملكية دقلديانوس الشرقية قد قدر لها أن تعزز الأمن والسلام فى الدين وفى السياسة على السواء .

بيد أن جليريوس كان يرى أن المسيحية هى آخر العقبات القائمة فى سبيل السلطة المطلقة ، فأخذ يحرض رئيسه على أن يجعل العودة إلى العهود الرومانية السابقة عودة كاملة ، وذلك بإرجاع الآلهة الرومانية إلى منزلتها القديمة . وتردد دقلديانوس فى الأخذ بهذه المشورة ، لأنه كان عازفاً عن ركوب أخطار لا موجب لها ، ولأنه كان أكثر من جليريوس تقديراً لثقل هذا العبء . ولكن حدث فى يوم من أيام القربان الإمبراطورية أن رسم المسيحيون علامة الصليب ليتقوا شر الشياطين الخبيثة ؛ ولما أن عجز العرافون عن أن يجدوا فى أكباد الحيوانات المذبوحة العلامات التى كانوا يرجون تفسيرها ألقوا الذنب على وجود أشخاص

كفار نجسين ، فأمر دقلديانوس أن يقرب جميع الحاضرين القرابين إلى الآلهة أو يجلدوا ، وأن يمتثل جميع جنود الجيش هذا الأمر أو يفصلوا من الخدمة (٣٠٢) . ومن أغرب الأشياء أن الكتاب المسيحيين يتفقون هنا مع الكهنة الوثنيين فيقول لكتنتيوس Lactantantius[٢٢] إن صلوات المسيحيين أبعدت الآلهة الرومانية ، وكتب الأسقف ديونيشيوس بهذا المعنى ذاته قبل ذلك بجيل . ولم يترك جليريوس فرصة إلا انتهزها للقول بأن الوحدة الدينية ضرورية لتدعيم الملكية الجديدة ، وما زال يلح على دقلديانوس حتى خضع له فى آخر الأمر . وأمر الحكامُ الأربعة فى عام ٣٠٣ أن تهدم كل الكنائس المسيحية ، وأن تحرق الكتب المسيحية ، وتحل المجتمعات المسيحية وتصادر أملاكها ، ويحرم المسيحيون من جميع المناصب العامة ، ويعاقب بالإعدام من يضبط منهم فى أى اجتماع دينى . وبدأت كتيبة من الجند هذا الاضطهاد بإحراق كنيسة نقوميديا وتدميرها عن آخرها .

وكان المسيحيون وقتئذ من الكثرة بحيث يستطيعون رد العدوان بمثله ، فقامت حركة ثورية فى سوريا ، وأضرم بعضهم النار مرتين فى قصر دقلديانوس بنقوميديا . واتهم جليريوس المسيحيين بجريمة الحرق عمداً ، واتهموه هم بنفس التهمة ، وقبض على مئات من المسيحيين وعذبوا ، ولكن الجريمة لم تثبت على أحد . وأصدر دقلديانوس فى شهر سبتمبر أمراً بأن يطلق سراح المسجونين من المسيحيين الذين يعبدون الآلهة الرومانية ، أما من يرفض ذلك منهم فلتسلط عليه جميع أنواع العذاب التى تعرفها رومة . فلما قاوم المسيحيون هذه الأوامر بازدراء استشاط غضباً من هذه المقاومة ، وأمر جميع كبار الحكام فى الولايات بأن يبحثوا عن كل مسيحى ، وأن يستخدموا معه كل وسيلة مستطاعة لإرغامه على استرضاء الآلهة . ولعله قد سره أن يترك هذه المقامرة التعسة إلى من يخلفه فاعتزل الملك .

ونفذ مكسميان هذا المرسوم فى إيطاليا تنفيذاً عسكريا كاملا صارما . وشجع جليريوس بعد أن صار أغسطس الاضطهاد فى الشرق بجميع وسائل التشجيع ، فزاد عدد الشهداء فى كل جزء من أجزاء الإمبراطورية عدا غالة وبريطانيا ، حيث اكتفى قنسطنطيوس بإحراق عدد قليل من الكنائس . ويؤكد لنا يوسبيوس ، ولعله يفعل ذلك فى سورة الغضب ، أن الناس كانو يجلدون حتى تنفصل لحومهم عن عظامهم ، أو أن لحمهم كان يقشر عن عظامهم بالأصداف ، وكان الملح أو الخل يصب فى جروحهم ، ويقطع لحمهم قطعة قطعة ويرمى للحيوانات الواقفة فى انتظارها ، أو يشدون إلى الصلبان فتنهش لحومهم الوحوش الجياع جزءاً جزءاً . ودقت عصى حادة الأطراف فى أصابع بعض الضحايا تحت أظافرهم ، وسملت أعين بعضهم ، وعلق بعضهم من يده أو قدمه وصب الرصاص المصهور فى حلوق البعض الآخر ، وقطعت رؤوس بعضهم أو صلبوا ، أو ضربوا بالعصى الغليظة حتى فارقوا الحياة ؛ ومزقت أشلاء البعض بأن شدت أجسامهم إلى غصون أشجار ثنيت ثنياً مؤقتاً[٢٣] وقد وصل إلينا علم ذلك كله عن المسيحيين ، أما الوثنيون فلم ينقلوا إلينا شيئاً من هذه الأخبار .

ودام الاضطهاد ثمانية أعوام ، وهلك بسببه نحو ألف وخمسمائة من المسيحيين ، بعضهم من أتباع الدين القويم ، وبعضهم من الملاحدة ، وقاسى عدد آخر يخطئه الحصر ألواناً مختلفة من العذاب . وارتد آلاف من المسيحيين عن دينهم ؛ وتقول بعض الروايات إن مرسلينس Marcellinus أسقف رومة نفسه أرغم بضروب من الأرهاب والتعذيب على أن يرتد عن دينه ، ولكن معظم من نالهم الاضطهاد ثبتوا على دينهم ؛ وكان منظر استبسالهم فى الإخلاص لدينهم ، أو كانت أخبار هذا الاستبسال ، رغم ما قاسوه من ألوان العذاب ، كان هذا وذاك سبباً فى شد عزيمة المترددين ، وضم أنصار جدد للجماعات الدينية المضطهدة . وأثارت ضروب الاضطهاد الوحشى المتزايدة الرحمة فى قلوب الأهلين الوثنيين ؛ ووجد الصالحون فى نفوسهم من الشجاعة ما دفعهم إلى التصريح بمقتهم لهذا الظلم الذى

لم يكن له مثيل في التاريخ الروماني كله . لقد كان الشعب في الأيام الخالية يدفع الدولة إلى القضاء على المسيحية ؛ أما الآن فقد وقف الشعب بعيداً عن الحكومة ، وعرض كثيرون من الوثنيين أنفسهم للموت بحماية المسيحيين أو إخفائهم حتى تنجلي هذه العاصفة[٢٤] . وقد انجلت فعلا في عام ٣١١ ، ففي ذلك العام أصدر جلريوس مرسوماً بالتسامح مع المسيحيين واعترف فيه بالمسيحية دينا مشروعا ، وطلب إلى المسيحيين أن يدعوا له في صلاتهم نظير « رحمتنا التي وصلت إلى أقصى حدود الرقة »[٢٥] . وكان الباعث له على إصدار هذا المرسوم رجاء زوجته وتوسلها له أن يصالح إله المسيحيين الذي لم يهزم ؛ وكان جلريوس وقتئذ يشكو من داء عضال ، ويوقن بإخفاقه في القضاء على المسيحية .

وكان اضطهاد دقلديانوس أشد ما ابتليت به الكنيسة المسيحية ، كما كان في الوقت نفسه أعظم انتصار نالته على أعدائها . نعم إن هذا الاضطهاد أضعفها إلى حين ، بعد أن خرج منها بعض من انضموا إليها أو نشأوا في أحضانها خلال خمسين عاماً من أعوام الرخاء لم يتعرض لهم فيها أحد بسوء ؛ ولكن سرعان ما أخذ المرتدون يتوبون عن ذنبهم ويطلبون العودة إلى حظيرتها ؛ ذلك أن أخبار وفاء الشهداء الذين قضوا نحبهم ، أو عذبوا في سبيل دينهم ، أخذت تنتشر من مكان إلى مكان . ونسجت حول أعمال الاستشهاد هذه قصص خيالية مبالغ فيها مثيرة للعواطف محركة للنفوس ، كان لها شأن أيما شأن في إحياء العقيدة المسيحية ، وتثبيت دعائمها . وفي ذلك يقول ترتليان « إن دم الشهداء هو البذور » التي نبتت منها المسيحية[٢٦] . وليس في تاريخ البشرية قصة أعظم روعة من قصة فئة قليلة من المسيحيين توالت عليها ضروب الظلم والازدراء على يد سلسلة طويلة من الأباطرة ، ولكنها صبرت على هذه المحن جميعها واستمسكت بدينها ، وتضاعف عددها وهي هادئة ساكنة ، تقيم النظام وقت أن كان أعداؤها ينشرون الفوضى ، تصد القوة بالقوة ، والوحشية بالأمل ، ثم تهزم آخر الأمر أقوى دولة عرفها التاريخ . لقد التقى قيصر والمسيح في المجتلد ، فانتصر المسيح على قيصر .

الفصل الثانى

قسطنطين

شهد دقلديانوس ، وهو هادئ فى قصره بدلماشيا ، فشل الاضطهاد والحكومة الرباعية ، ذلك أن الإمبراطورية لم تشهد قط فى أيامها السابقة ما شهدته من الاضطراب بعد نزوله عن العرش . وقد استطاع جلريوس أن يقنع قنسطنطيوس بأن يعين سفيرس ومكسمينس دازا « قيصرين » (٣٠٥) . وما لبث مبدأ الوراثة أن أخذ يثبت دعواه ، فقد رغب مكسنتيوس Maxentius بن مكسميان أن يخلف أباه فى سلطانه ، وثارت هذه الرغبة نفسها فى قلب قسطنطين .

وكان فلاڤيوس ڤليريوس قسطنطينس قد بدأ حياته فى نايسس Naissus ابناً غير شرعى لقنسطنطيوس من محظيته الشرعية هلينا ، خادمة إحدى الحانات فى بيثينيا[٢٧] . فلما أصبح قنسطنطيوس قيصراً طلب إليه دقلديانوس أن يتنحى عن هلينا ويتزوج بثيودورا ربيبة مكسميان . ولم يتلق قنسطنطين من العلم إلا قليلا ، فقد انخرط فى سلك الجندية فى سن مبكرة ، وأظهر بسالته فى الحروب التى قامت ضد مصر وفارس : ولما خلف جلريوس دقلديانوس أبقى الضابط الشاب بالقرب منه ليكون رهينة لديه يضمن به حسن مسلك قنسطنطيوس . ولما طلب إليه قنسطنطيوس أن يرسل إليه الشاب ، تلكأ جلريوس فى إجابته إلى طلبه وأظهر فى ذلك كثيراً من الدهاء ، ولكن قسطنطين فرّ من حرّاسه ، واخترق أوربا راكباً ليلا ونهاراً لينضم إلى أبيه فى بولونى Boulogne ، ويشترك معه فى حرب ضد بريطانيا . وكان جيش غالة شديد الولاء لقنسطنطيوس لِـمَا كان يتصف به من الرحمة ، فلما أبصر ابنه الوسيم ، الشجاع ، النشط ، أحبه حبا جما ؛ ولما مات والده فى يورك York (٣٠٦) ، لم يكتف الجند بأن ينادوا بقسطنطين

« قيصراً » فحسب بل نادوا به أغسطسا — إمبراطوراً . لكنه رضى بأصغر اللقبين بحجة أنه لن يأمن على حياته إذا لم يكن من ورائه جيش يحميه . ولم يستطع جلبريوس أن يتدخل فى الأمر لبُعده ، فاعترف به « قيصراً » ، وهو كاره . وحارب قسطنطين الفرنجة الذين غزوا الإمبراطورية وانتصر عليهم ، وأطعم وحوش المدرج الغالى ملوك البرابرة .

وفى هـذه الأثناء نادى الحرس البريتورى فى رومة بمكسنتيوس إمبراطوراً ، لأنه كان يتوق لعودة الزعامة إلى العاصمة التليدة (٣٠٦) . وانقض عليه سفيرس من ميلان وهاجمه . وضاعف مكسميان الاضطراب والفوضى فعاد إلى لبس الأرجوان(*) إجابة لطلب ولده ، واشترك فى الحرب التى شبت نارها وقتئذ . وتخلى جنود سفيرس عنه وقتلوه (٣٠٧) ؛ وأراد جلبريوس ، وكان فى ذلك الوقت شيخا طاعنا فى السن ، أن يقوى مركزه ليواجه الفوضى التى أخذت تضرب أطنابها فى البلاد ، فعين أغسطسا جديداً — فلافيوس ليسنيوس Flavius Licinius ، فلما سمع قسطنطين بهذا اتخذ لنفسه أيضا هذا اللقب (٣٠٧) ؛ وبعد سنة واحدة لقب مكسمنيوس دازا نفسه باللقب عينه ، وبهذا أصبح فى الإمبراطورية ستة أغاطسة بدل الاثنين اللذين كانا على عهد دقلديانوس ، ولم يكتف واحد منهم بأن يكون قيصراً فقط . وتنازع مكسنتيوس مع والده ، وذهب مكسميان إلى غالة ليستغيث بقسطنطين ، وقد كان وقتئذ يحارب الألمان على ضفاف الرين . وحاول مكسميان أن يكون هو قائد الجيوش الغالية بدله ، واخترق قسطنطين غالة بجيشه ، وحاصر المغتصب فى مرسيليا ، وأسره ، وتفضل عليه بأن أجاز له أن ينتحر (٣١٠) .

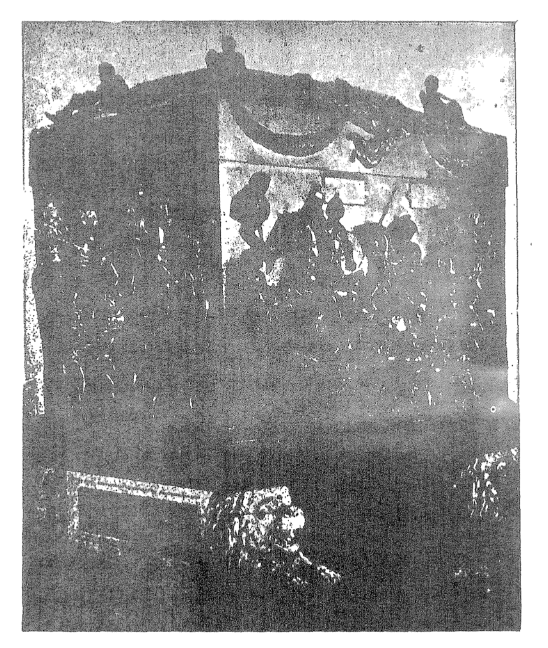
وأزال موت جلبريوس الحاجز الأخير بين الدسائس والحرب ، فائتمر

(*) أى عاد إمبراطورا كما كان من قبل (المترجم) .

مكسمينس ومكسنتيوس للقضاء على ليسنيوس وقسطنطين ، وائتمر الثانيان للقضاء على الأولين . ورأى قسطنطين أن يكون هو البادئ بالعمل ، فعبر جبال الألب ، وهزم جيشاً لعدويه قرب تورين Turin ، وزحف على رومة بسرعة مدهشة ونظام عسكرى يذكّران الإنسان بزحف قيصر من الربيكون Rubicon . والتقى فى السابع والعشرين من شهر اكتوبر عام ٣١٢ بقوى مكسنتيوس عند سكسا ربرا Saxa Rubra (الصخور الحمراء) ، التى تبعد تسعة أميال عن رومة جهة الشمال ، وأفلح بخططه الحديثة الفائقة أن يرغم عدوه على أن يقاتل ونهر التيبر من ورائه ، وليس له من طريق يسلكه إذا تقهقر إلا أن يعبر جسر ملفيوس ويقول يوسـبيوس[٢٨] إن قسطنطين شاهد بعد ظهر اليوم الذى دارت فيه المعركة صليبا ملتهبا فى السماء وعليه تلك العبارة اليونانية en touti mika ومعناها « بهذه العلامة انتصر »[*] .

وفى صباح اليوم الثانى — كما يقول يوسيبيوس ولكتنتيوس[٣١] رأى قسطنطين فيما يرى النائم أن صوتا يأمره بأن يرسم جنوده حرف X على دروعهم وفى وسطه خط يقطعه وينثنى حول أعلاه — علامة الصليب . فلما استيقظ من نومه صدع بما أمر وخاض المعركة خلف لواء « عرف من ذلك الوقت باسم اللبارم Labarum » رسم عليه الحرفان الأولان من لفظ المسيح يربطهما صليب . ولعل حقيقة الأمر أن قسطنطين رأى أن يربط حظه بحظ المسيحيين حين رأى مكسنتيوس يرفع لواء مثراس أورليان ، وهو لواء الشمس التى لا تقهر . وكان عدد جنوده المسيحيين وقتئذ كبيراً ، وبهذا جعل هذه المعركة نقطة التحول

(*) تنقلها الرواية المتواترة عادة فى صورتها اللاتينية in hoc vinci أو in hoc signo vinces « بهذه العلامة سوف تنتصر » . وعمدتنا الوحيد فى هذه الرؤيا هو يوسبيوس وهو باعترافه يميل إلى تأييدها[٢٩] إذ يقول : « وإذ كان الإمبراطور قد أقسم حين قصها على أنها صحيحة بعد أن اعتزمت أن أكتب تاريخه . . . فمنذا الذى يستطيع أن يشك فى قوله ؟ »[٣٠]



(شكل – ١٨) تابوت الإمبراطورة هلينا

فى تاريخ الأديان . ولم يكن الصليب يسىء إلى جنود قسطنطين من عُبّاد مثراس ، لأنهم طالما حاربوا تحت لواء يحمل شعاراً مثراسيّاً من الضوء[٣٢]. ومهما يكن من شىء فقد انتصر قسطنطين فى واقعة جسر ملفيوس وهلك مكسنتيوس هو وآلاف من جنوده فى نهر التيبر ، ودخل القائد الظافر رومة وحيّته المدينة وأصبح سيّد الغرب بلا مُنازع .

وتقابل قسطنطين وليسنيوس فى ميلان فى أوائل عام ٣١٣ لينسقا حكمهما : وأراد أولهما أن يجعل تأييده للمسيحيين عاما يشمل الولايات جميعها ، فأصدر هو وليسنيوس « مرسوم ميلان » يؤكدان فيه التسامح الدينى الذى أعلنه جلبريوس ووسعا نطاقه حتى شمل الأديان كلها ، ويأمران بأن يعاد إلى المسيحيين ما انتزع من أملاكهم فى أثناء الاضطهاد الأخير . وعاد قسطنطين للدفاع عن غالة بعد هذا الإعلان التاريخى الذى كان فى واقع الأمر اعترافاً بهزيمة الوثنية ؛ واتجه ليسنيوس نحو الشرق ليكيل الضربات إلى مكسمينس (٣١٣) ؛ ولكن مكسمينس مات بعد قليل من ذلك الوقت فأصبح قسطنطين وليسنيوس حاكمى الإمبراطورية لا ينازعهما فيها منازع . وتزوج ليسنيوس أخت قسطنطين ، واغتبط الشعب الذى ملّ الحروب بمخايل السلام البادية فى الأفق .

ولكن كلا الحاكمين لم يفارقه قط أمله فى أن يكون صاحب السيادة وحده على الدولة جميعها ؛ ووصل العداء المتزايد بينهما فى ٣١٤ إلى امتشاق الحسام ، فغزا قسطنطين بانونيا ، وهُزم ليسنيوس ، واضطر إلى أن يسلم له جميع أملاك الدولة الرومانية فى أوربا ما عدا تراقية . وانتقم ليسنيوس من المسيحيين المؤيدين لقسطنطين بالعودة إلى اضطهادهم فى آسية ومصر ؛ فطرد المسيحيين من قصره فى نقوميديا ، وحتم على كل جندى أن يعبد الوثنية ، وحرّم اجتماع الرجال والنساء فى أثناء العبادات المسيحية ، ثم حرّم آخر الأمر

جميع الشعائر المسيحية داخل المدينة ، وأمر بطرد من عصى من المسيحيين من خـــدمة الحكومة وحرمانهم من حق المواطنية ، ومن أملاكهم ، أو حريتهم أو حياتهم .

وظل قسطنطين يترقب الفرصة التي تمكنه من إنقاذ المسيحيين في بلاد الشرق ومن إضافة الشرق نفسه إلى أملاكه . وأتيحت له هذه الفرصة حين غزا البرابرة تراقية وعجز ليسنيوس عن الزحف لملاقاتهم ، فسار قسطنطين على رأس جيشه إلى تسالونيكي لينقذ ولاية ليسنيوس من الغزاة . فلما أن صد البرابرة احتج ليسنيوس على دخوله تراقية ، وتجددت الحرب بين الملكين لأن كليهما لم يكن يجنح للسلم . والتقى حامي المسيحية ومعه ١٣٠٫٠٠٠ من رجاله بحامي الوثنية على رأس ١٦٠٫٠٠٠ في أدرنة أولا ثم في كريسپوليس Chrysopolis (أشقودرة) ، وانتصر وأصبح وحده إمبراطوراً على الدولة الرومانية (٣٢٣) . واستسلم ليسنيوس بعد أن وعده قسطنطين بالعفو عنه ، ولكنه أعدم في السنة الثانية متهما بأنه عاد إلى دسائسه . واستدعى قسطنطين المنفيين من المسيحيين ، وأعاد إلى كل « المؤمنين » ما فقدوه من الامتيازات والممتلكات . ومع أنه كان لايزال يعلن أن الناس كلهم أحرار فيما يعبدون ، فقد أعلن وقتئذ صراحة اعتناقه الدين المسيحي ، ودعا رعاياه أن ينهجوا نهجه في اعتناق الدين الجديد .

الفصل الثالث

قسطنطين والمسيحية

ترى هل كان قسطنطين حين اعتنق المسيحية مخلصاً في عمله هذا ؟ وهل أقدم عليه عن عقيدة دينية ، أو هل كان ذلك العمل حركة بارعة أملتها عليه حكمته السياسية ؟ أكبر الظن أن الرأى الأخير هو الصواب[٣٣] . لقد اعتنقت أمه هلينا الدين المسيحى حين طلقها قنسطنطيوس ؛ ولعلها أفضت إلى ولدها بفضائل المسيحية ، وما من شك فى أنه تأثر بما ناله من انتصارات فى المعارك الحربية التى خاض غمارها مستظلا بلواء المسيح وصليبه . ولكن المتشكك وحده هو الذى يحتال هذا الاحتيال على استخدام مشاعر الإنسانية الدينية لنيل أغراضه الدنيوية . ويقول صاحب كتاب **تاريخ أغسطس** Historia Augusta على لسانه : « إن الحظ وحده هو الذى يجعل الإنسان إمبراطوراً »[٣٤] — وإن كان قوله هذا تواضعاً منه لا اعتقاداً بسيطرة الظروف على مصائر الناس . وقد أحاط نفسه فى بلاطه ببلاد غالة بالعلماء والفلاسفة الوثنيين[٣٥] ، وقلما كان بعد اعتناقه دينه الجديد يخضع لما تتطلبه العبادات المسيحية من شعائر وطقوس ، ويتضح من رسائله التى بعث بها إلى الأساقفة المسيحيين أنه لم يكن يعنى بالفروق اللاهوتية التى كانت تضطرب بها المسيحية — مع أنه لم يكن يتردد فى القضاء على الانشقاق محافظة على وحدة الإمبراطورية . وقد كان فى أثناء حكمه كله يعامل الأساقفة على أنهم أعوانه السياسيون ؛ فكان يستدعيهم إليه ، ويرأس مجالسهم ، ويتعهد بتنفيذ ما تقره أغلبيتهم من آراء . ولو أنه كان مسيحيا حقا لكان مسيحيا أولا وحاكما سياسيا بعدئذ ؛ ولكن الآية انعكست فى حال قسطنطين ، فكانت المسيحية عنده وسيلة لا غاية .

ولقد شهد فى حياته كيف أخفق الاضطهاد ثلاث مرات ، وانطبع فى نفسه بلا ريب انتصار المسيحية رغم كل اضطهاد . نعم إن أتباع هذا الدين كانوا لا يزالون قلة فى الدولة ، ولكنهم كانوا إذا قيسوا إلى غيرهم قلة متحدة ، مستبسلة قوية ، على حين أن الأغلبية الوثنية كانت منقسمة إلى عدة شيع دينية ، وكان فيها عدد كبير من النفوس التى لا عقيدة لها ولا نفوذ فى الدولة . وكان المسيحيون كثيرين فى رومة بنوع خاص فى عهد مكسنتيوس ، وفى الشرق فى أيام ليسنيوس ؛ وقد أفاد قسطنطين من تأييد المسيحية اثنى عشر فيلقاً لاقى بها هذين القائدين . ولقد أعجب بجودة نظام المسيحيين إذا قيسوا بغيرهم من سكان الإمبراطورية ، وبمتانة أخلاقهم ، وحسن سلوكهم ، وبجمال شعائر المسيحية وخلوها من القرابين الدموية ، وبطاعة المسيحيين لرؤسائهم الدينيين ، وبرضاهم صاغرين بفوارق الحياة رضاء مبعثه أملهم فى أنهم سيحظون بالسعادة فى الدار الآخرة . ولعله كان يرجو أن يطهر هذا الدين الجديد أخلاق الرومان ، ويعيد إلى الزواج والأسرة ما كان لها من شأن قديم ، ويخفف من حدة حرب الطبقات . وقلما كان المسيحيون يخرجون على الدولة رغم ما لاقوه من ضروب الاضطهاد الشديد ، ذلك بأن معلميهم قد غرسوا فى نفوسهم واجب الخضوع للسلطات المدنية ، ولقنوهم حق الملوك المقدس . وكان قسطنطين يأمل أن يكون ملكا مطلق السلطان وهذا النوع من الحكم يفيد لا محالة من تأييد الدين ، وقد بدا له أن النظام الكهنوتى وسلطان الكنيسة الدنيوى يقيمان نظاما روحيا يناسب نظام الملكية ؛ ولعل هذا النظام العجيب ، بما فيه من أساقفة وقساوسة ، يصبح أداة لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها .

لكن قسطنطين اضطر إلى أن يتحسس كل خطوة يخطوها بحذر ، لأن الوثنية كانت هى الغالبة على العالم الذى يعيش فيه . ولذلك ظل يستخدم ألفاظا توحيدية يستطيع أن يقبلها كل وثنى ؛ وقام فى خلال السنين الأولى من سلطانه

المفرد فى صبر وأناة بجميع المراسيم التى يتطلبها منه منصب **الكاهن الأكبر** ، والتى تحتمها عليه الطقوس التقليدية ، وجدّد بناء الهياكل الوثنية ، وأمر بممارسة أساليب العرافة ؛ واستخدم فى تدشين القسطنطينية شعائر وثنية ومسيحية معاً ، واستعمل رقى سحرية وثنية لحماية المحاصيل وشفاء الأمراض[٣٦] .

ولما توطدت دعائم قوته أخذ يجهر تدريجا بمحاباة المسيحية ، فمحا بعد عام ٣١٧ من نقوده واحدة بعد واحدة ماكان على وجهها من صور وثنية ، ولم يحل عام ٣٢٣ حتى كان كل ما عليها من الرسوم نقوشاً محايدة لاهى مسيحية ولا وثنية . ومن المراسيم القانونية الباقية من عهده مرسوم مشكوك فيه ولكنه لم يثبت كذبه ، يخوّل الأساقفة المسيحيين حق الفصل فيما يقوم فى أبرشياتهم من منازعات قضائية[٣٧] ، وأعفت قوانين أخرى أملاك الكنيسة العقارية من الضرائب[٣٨] وجعلت الجماعات المسيحية شخصيات معنوية قضائية ، وأجازت لها امتلاك الأرض وقبول الهبات ، وجعلت الكنيسة هى الوارثة لأملاك الشهداء الذين لم يعقبوا ذرية[٣٩] . كذلك وهب قسطنطين أموالا إلى المجامع الدينية المحتاجة إليها ، وشاد عدداً من الكنائس فى القسطنطينية وغيرها من المدن ، وحرم عبادة الأوثان فى عاصمته الجديدة . وكأنه نسى مرسوم ميلان فحزم اجتماع الشيع الدينية الملحدة ، وأمر آخر الأمر بتدمير مجامعهم الدينية[٤٠] ، وربى أبناءه تربية مسيحية سليمة ، وأعان بالمال أعمال البر المسيحية التى كانت تقوم بها أمه . وابتهجت الكنيسة بهذه النعم التى فاقت كل ما كانت تتوقعه ؛ وكتب يوسبيوس صحائف كانت فى واقع الأمر عقود مدح لقسطنطين وإقراراً بفضله . واحتشد المسيحيون فى جميع أنحاء الإمبراطورية ليعبّروا عن شكرهم لانتصار إلههم .

غير أن سحباً ثلاثاً كدرت صفو ذلك اليوم الذى « لا سحاب فيه » :

تلك هي انشقاق الأديرة ، والانشقاق الدوناني(*) ، والإلحاد الأريوسي(**) .
وكانت الكنيسة ، في الفترة الواقعة بين اضطهادي ديسيوس ودقلديانوس ، قد أضحت أغنى الهيئات الدينية في الإمبراطورية ، وخففت من هجماتها على الثراء . فترى سبريان يشكو من أن أبناء أبرشيته قد أضل حُبُّ المال عقولهم ؛ ومن أن النساء المسيحيات يصبغن وجوههن ، وأن الأساقفة يتولون مناصب في الدولة تدرّ عليهم المال الكثير ، فأثروا ، وأقرضوا المال بربا فاحش ، وارتدوا عن دينهم إذا بدت لهم أول علامة من علامات الخطر[٤١] . ويبدى يوسبيوس حزنه من تناحر القساوسة في تنافسهم على المناصب الكنسية العليا[٤٢] .

وقصارى القول أن الدنيا جعلت المسيحيين رجال دنيا في الوقت الذى هدت فيه المسيحية العالم إلى ذلك الدين ؛ وأظهرت الدنيا ما في الفطرة البشرية من غرائز وثنية . وقامت الرهبنة المسيحية احتجاجا على هذا التوفيق المتبادل بين الروح والجسم . ذلك أن أقلية من المسيحيين كانت ترغب في الابتعاد عن كل طاعة للشهوات البشرية ، وتطالب بالاستمرار على الانهماك المسيحي القديم في التفكير في الحياة الأبدية الخالدة . وجرى بعض هؤلاء الزهاد على سنّة الكلبيين ، فتخلوا عن جميع أملاكهم ، وارتدوا ثوب الفلاسفة الخلق ، وعاشوا على ما يقدّم لهم من صدقات . وذهب بعضهم ليعيشوا بمفردهم في الصحراء المصرية كما فعل بولس الناسك . وحدث حوالى عام ٢٧٥ أن بدأ راهب مصرى يدعى أنطونيوس ربع قرن من حياة العزلة قضى بعضها أولا في قبر ، وبعضها في حصن جبلي مهجور ، وبعضها الآخر في فجوة ضيقة نحتها في الصخور ، كانت تنتابه فيها أثناء الليل

(*) نسبة إلى دوناتس Donatus وهو زعيم شيعة مسيحية أفريقية ظهرت في القرنين الرابع والخامس ، وكانت تعارض أى نقص في احترام الشهداء ، وتطالب بإعادة تعميد من ينضمون إليها من أتباع الكنيسة الكاثوليكية (المترجم) .

(**) نسبة إلى أريوس الإسكندرى المتوفى عام ٣٣٦ م . والذى كان ينكر الوهية المسيح . (المترجم)

رؤى مخيفة وأحلام لذيذة تغلّب عليها كلها ، حتى اشتهر بالقداسة ، وعمّت هذه الشهرة جميع أنحاء العالم المسيحى ، وعمرت الصحراء بالنساك المنافسين له . وأحس باخوميوس فى عام ٣٢٥ أن اعتزال الناس أنانية فجمع الزهاد فى دير عند طابين فى مصر ، وأنشأ الرهبنة الجماعية التى صار لها أعظم الأثر فى بلاد الغرب . وقاومت الكنيسة حركة الرهبنة وقتا ما ، ثم رضيت بها لتوازن اهتمامها المتزايد بشئون الحكم .

وقبل أن يمضى عام واحد على اعتناق قسطنطين المسيحية حدث فيها انشقاق شديد الخطورة كاد يقضى عليها فى ساعة النصر . ذلك أن دوناتس Donatus أسقف قرطاجنة ، يؤيده قس اسمه كاسمه ومزاجه كمزاجه ، أصر على أن الأساقفة الذين أسلموا الكتاب المقدس لرجال الشرطة الوثنيين قد فقدوا بعملهم هذا أهليتهم لمنصبهم وسلطتهم ، وأن شعائر التعميد ورسامة القساوسة التى تجرى على أيدى هؤلاء الأساقفة باطلة ، وأن صحة العشاء الربانى يقف بعضها على الحالة الروحية للقائم بخدمته . ولما رفضت الكنيسة العمل بهذه العقائد الصارمة نصب الدوناتيون أساقفة جدداً فى كل مكان رأوا أن الأسقف الذى فيه لا تنطبق عليه شروطهم . وحزن قسطنطين أشد الحزن لما أعقب هذه الحركة من فوضى وعنف ، وقد كان يظن أن المسيحية ستكون قوة تعمل على الوحدة ؛ ولعله قد تأثر بعض التأثر بالحلف الذى عقد إلى حين بين الدوناتيين وبين القائمين بالحركات المتطرفة بين الزراع الإفريقيين . ولهذا دعا الأساقفة إلى مجلس جامع يعقد فى أرليس (٣١٤) ، وأيد ما أصدره من قرار بالتشهير بالدوناتية ، وأمر المنشقين بالعودة إلى الكنيسة ، وقرر أن المجامع التى لا تطيع هذا القرار تفقد أملاكها وحقوقها المدنية (٣١٦) . وبعد خمس سنين من ذلك الوقت طافت بعقله فى فترة قصيرة ذكرى مرسوم ميلان ، فألغى هذه القرارات ، وتسامح مع الدوناتيين

تسامحاً مصحوباً بالسخرية . وبقيت هذه الشيعة حتى قضى العرب على أتباع الدين القويم وعلى الملحدين حين فتحوا أفريقية .

وفى هذه السنين نفسها شهدت الإسكندرية قيام أخطر حركة إلحادية فى تاريخ الكنيسة ؛ ذلك أن قساً مصريا تقدم إلى أسقفه حوالى عام ٣١٨ بآراء غريبة عن طبيعة المسيح ، ويصفه مؤرخ كاثوليكى عالم وصفاً كريماً فيقول :

« كان أريوس . . . طويل القامة ، نحيل الجسم ، مكتئب المظهر ، ذا منظر تبدو فيه آثار خشونة العيش . وكان معروفاً بأنه من الزهاد ، كما يستدل على ذلك من ملبسه — وهو جلباب قصير من غير كمين تحت ملحفة يستخدمها عباءة . وكانت طريقته فى الحديث ظريفة ، وخطبه مقنعة . وكانت العذارى اللاتى نذرن أنفسهن للدين ، وهن كثيرات فى الإسكندرية ، يبجلنه أعظم التبجيل ، وكان له من بين رجال الدين عدد كبير من المؤيدين »(٤٣) .

ويقول أريوس إن المسيح لم يكن هو والخالق شيئاً واحداً ، بل كان هو الكلمة أول الكائنات التى خلقها الله وأسماها . واحتج الأسقف ألكسندر على هذا القول ، ولكن أريوس أصر عليه وقال إنه إذا كان الابن من نسل الأب ، فلا بد أن تكون ولادته قد حدثت فى زمن ، وعلى هذا لا يمكن أن يكون الابن متفقاً مع وجود الأب فى الزمن . يضاف إلى هذا أنه إذا كان المسيح قد خُلق فلا بد أن يكون خَلقه من لا شىء ، أى من غير مادة الأب ؛ لأن المسيح والأب ليسا من مادة واحدة . وقد وُلد الروح القدس من الكلمة ، وهو أقل ألوهيّة من الكلمة نفسها . ونحن نرى فى هذه العقائد استمرارا للأفكار المنحدرة من أفلاطون عن طريق الرواقيين ، وفيلون ، وأفلوطينس ، وأرجن إلى أريوس . وبذلك أصبحت الأفلاطونية التى كان لها أعظم الأثر فى اللاهوت المسيحى فى نزاع مع الكنيسة .

وارتاع الأسقف ألكسندر من هذه الآراء ، وازتاع أكثر من هذا من سرعة انتشارها بين رجال الدين أنفسهم . ولهذا دعا مجلساً من الأساقفة المصريين إلى الاجتماع فى الإسكندرية ، وأقنع أعضاءه بأن يحكموا بتجريد أريوس وأتباعه ؛ وأبلغ الإجراءات التى اتخذها المجلس إلى سائر الأساقفة ، فاعترض عليها بعضهم ، وأظهر بعض القساوسة عطفاً على أريوس ، واختلفت آراء رجال الدين والدنيا فى الولايات الأسيوية فى هذه المشكلة ، وترددت فى المدائن أصداء « الضجيج والاضطراب ... حتى كان الدين المسيحى » ، كما يقول يوسبيوس « موضوع السخرية الدنسة من الوثنيين ، حتى فى دور التمثيل نفسها »(٤٥) . ولما جاء قسطنطين إلى نقوميديا بعد أن هزم ليسنيوس ، سمع هذه القصة من أسقفها ، فأرسل إلى ألكسندر وإلى أريوس رسالة شخصية يدعوهما فيها أن يتخلقا بهدوء الفلاسفة ، وأن يوفقا بين آرائهما المختلفة فى سلام ، فإن لم يفعلا فلا أقلّ من أن يخفيا جدلهما عن آذان الجماهير . ويكشف هذا الخطاب ، الذى نقله لنا يوسبيوس ، فى صراحة عن قلة اهتمام قسطنطين بعلوم الدين ، وعن الهدف السياسى الذى كان يبتغيه من سياسته الدينية :

« لقد اقترحت أن أرد جميع آراء الناس فى الله إلى صورة واحدة ، لأنى قوىّ الاعتقاد بأنى إذا استطعت أن أوحّـــد آراءهم فى هذا الموضوع سهّل علىّ كثيراً تصريف الشئون العامة . ولكنى مع الأسف الشديد أسمع أن بينكما من الخلاف أكثر مما كان قائماً فى أفريقية من وقت قريب . ويبدو لى أن سبب هذا الخلاف بينكما صغير تافه غير جدير بأن يثير هـــذا النزاع الشديد . فأنت يا ألكسندر تريد أن تعرف رأى قساوستك فى إحدى النقاط القانونية ، فى جزء من سؤال هو فى حد ذاته عديم الأهمية ؛ وأما أنت يا أريوس فقد كان الواجب عليك ، إذا كانت لديك أفكار من هذا القبيل ، أن تظل صامتاً . . . ولم يكن ثمة حاجة إلى إثارة هذه المسائل أمام الجماهير . . . لأنها مسائل لا يثيرها إلا من ليس لديهم عمل

يشغلون به أنفسهم ، ولا يرجى منها إلا أن تزيد عقول الناس وحدة . . .
تلك أعمال سخيفة خليقة بالأطفال العديمي التجربة لا برجال الدين أو العقلاء
من الناس »(٤٦)

ولم يكن لهذه الرسالة أثر ما لأن مسألة اتفاق الأب والابن فى المادة
لا مجرد تشابههما كانت فى نظر الكنيسة مسألة حيوية من الوجهتين الدينية
والسياسية ، وكانت ترى أنه إذا لم يكن المسيح إلها فإن كيان العقيدة المسيحية
كلها يبدأ فى التصدع ، وإذا ما سمحت باختلاف الرأى فى هذا الموضوع
فإن فوضى العقائد قد تقضى على وحدة الكنيسة وسلطانها ، ومن ثم على
ما لها من قيمة بوصفها عوناً للدولة . ولما انتشر الجدل فى هذه المسألة ،
واشتعلت نيران الخلاف فى بلاد الشرق اليونانى ، اعتزم قسطنطين أن يقضى
عليه بدعوة أول مجلس عام للكنيسة . ولهذا عقد مجلساً من الأساقفة عام
٣٢٥ فى نيقية البيثينية بالقرب من عاصمة نقوميديا ، وأعد ما يلزم من المال
لنفقاتهم . وحضر الاجتماع عدد لا يقل عن ٣١٨ « يصحبهم » كما يقول واحد
منهم « حشد كبير من رجال الدين الأقل منهم درجة »(٤٧) ، وهو قول
يدل على مقدار نماء الكنيسة العظيم . وكان معظم الأساقفة من الولايات
الشرقية ، لأن كثيراً من الأبرشيات الغربية تجاهلت هذا الجدل ، واكتفى
البابا سلفستر الأول Silvester I بأن مثّله بعض القساوسة ، لأن المرض
حال بينه وبين حضور الاجتماع بنفسه .

واجتمع المجلس فى بهو أحد القصور الإمبراطورية تحت رياسة قسطنطين ،
وافتتح هو المناقشات بدعوة موجزة وجهها إلى الأساقفة يطلب إليهم فيها أن
يعيدوا إلى الكنيسة وحدتها . ويقول يوسبيوس إنه كان يستمع بصبر عظيم إلى
المناقشات ، ويهدئ من عنف الجماعات المتنازعة(٤٨) ، ويشترك فى المناقشات
بنفسه . وأكد أريوس من جديد رأيه القائل بأن المسيح مخلوق ، لا يرقى إلى
منزلة الأب ، ولكنه « مقدس بالاشتراك » معه لا غير . وقد أرغمته بعض الأسئلة

الحاذقة على أن يعترف بأنه إذا كان المسيح مخلوقاً ، وأن له بداية ، فإن فى مقدوره أن يتحول ، وأنه إذا استطاع أن يتحول ، فقد ينتقل من الفضلة إلى الرذيلة .

وكانت إجاباته عن الأسئلة منطقية ، صريحة ، قاطعة . وقد أوضح أثناسيوس Athanasius ، رئيس الشمامسة البليغ المشاكس ، الذى نجاء به الإسكندر معه ليقطع به لسان معارضيه ، أنه إذا لم يكن المسيح والروح القدس كلاهما من مادة الأب ، فإن الشرك لا بد أن ينتصر . وقد سلم بما فى تصوير أشخاص ثلاثة فى صورة إله واحد من صعوبة ، ولكنه قال بأن العقل يجب أن يخضع لما فيه الثالوث من خفاء وغموض . ووافقه الأساقفة جميعهم على رأيه عدا سبعة عشر منهم ووقعوا قراراً يعلنون فيه هـذا الرأى . ورضى مؤيدو أريوس أن يوقعوا معهم إذا سمح لهم بأن يضيفوا إلى هذا الإعلان نقطة واحدة وهى أن يستبدلو كلمة همويوسيون Homoiousion (أى مماثلا فى الجوهر) بكلمة هموٴوسيون Homoousion أى من جوهر واحد . ولكن المجلس رفض هذا التعـديل وأصدر بموافقة الإمبراطور القرار الآتى .

« نحن نؤمن بإله واحد ، وهو الأب القادر على كل شىء ، خالق الأشياء كلها ما ظهر منها وما بطن وبسيد واحد هو المسيح ابن الله ، المولود ... غير المخلوق من نفس جوهر الأب ... وبأنه من أجلنا نحن البشر ومن أجل نجاتنا نزل وتجسد وصار إنساناً ، وتعذّب ، وقام مرة ثانية فى اليوم الثالث ، وصعد إلى السماء ، وسيعود ليحاسب الأحياء والأموات ...(*) »

ولم يرفض توقيع هذه الصيغة إلا خمسة من الأساقفة ، نقصوا آخر الأمر إلى اثنين . وحكم المجلس على هذين الأسقفين وعلى أريوس الذى لم يتزحزح عن عقيدته أو يتوب عما صدر منه ، حكم عليهم باللعنة والحرمان ، ونفاهم الإمبراطور

(*) ويختلف هذا عن « العقيدة النيقية » المتبعة الآن والتى هى تعـديل لهذ القرار صدر فى عام ٣٦٢ .

من البلاد . وصدر مرسوم إمبراطورى يأمر بإحراق كتب أريوس جميعها ويجعل إخفاء أى كتاب منها جريمة يعاقب عليها بالإعدام(*)

واحتفل قسطنطين بانفضاض المجلس بأن دعا جميع الأساقفة الذين حضروه إلى وليمة ملكية ، ثم صرفهم بعد أن طلب إليهم ألا يمزق بعضهم أجساد بعض(٥١) ، ولكنه أخطأ إذ ظن أن النزاع قد وقف عند هذا الحد ، أو أنه هو لن يغير رأيه فيه . غير أنه كان على حق حين اعتقد أنه خطا خطوة كبيرة فى سبيل وحدة الكنيسة . فلقد أذاع المجلس عقيدة الكثرة العظمى من رجال الدين ، وهى أن نظام الكنيسة وبقاءها يتطلبان تحديد العقائد بطريقة ما ؛ وقد أثمر آخر الأمر ذلك الإجماع العملى على العقيدة الأساسية التى اشتق منها اسم الكنيسة فى العصور الوسطى وهو الكنيسة الكاثوليكة . وكان فى الوقت نفسه إيذانا باستبدال المسيحية بالوثنية وجعلها المظهر الدينى والعضد القوى للإمبراطورية الرومانية . واضطر قسطنطين أن يكون أكثر تصميما من ذى قبل على التحالف مع المسيحية ؛ وهكذا بدأت حضارة جديدة ، مؤسسة على دين جديد ، تقوم على أنقاض ثقافة مضعضعة وعقيدة محتضرة . لقد بدأت العصور الوسطى .

(*) وقرر المجلس أيضاً أن تحتفل الكنائس كلها بعيد القيامة فى يوم واحد يحدده كل عام أسقف الإسكندرية على أساس قاعدة فلكية ، ويذيعه أسقف رومة . أما مسألة بقاء رجال الكنيسة بلا زواج فإن المجلس كان يميل إلى أن يطلب إلى القساوسة المتزوجين أن يتعففوا عن العلاقات الجنسية ، ولكن بفنوتيوس **Paphntius** أسقف طيبة العليا أقنع زملاءه الأساقفة بأن يتركوا العادة المتبعة كما هى ، وكانت هذه العادة تحرم الزواج بعد الرسامة ، ولكنها تجيز للقس أن يجامع زوجته إذا كان قد بنى بها قبل الرسامة .

الفصل الرابع

قسطنطين والحضارة

أنشأ قسطنطين بعد سنة واحدة من اجتماع المجلس مدينة جديدة وسط خرائب بيزنطية سماها رومة الجديدة Nova Roma وسمتها الأجيال التى أعقبته باسمه . وفى عام ٣٣٠ أدار ظهره نحو رومة ونيقوميديا كلتيهما ، واتخذ القسطنطينية عاصمة له ، وأحاط نفسه فيها بأبهة الملوك الشرقيين وحاشيتهم ، لاعتقاده أن ما تحدثه هذه الأبهة من تأثير نفسانى فى الجيش والشعب سوف يجعل ما تحتاجه مظاهرها من المال الكثير اقتصاداً حقيقيا فى مطالب الحكم . وبسط رعايته على الجيش بما أوتى من حسن السياسة وقواه بأن أمده بالسلاح ، وخفف من نير الاستبداد بقراراته الرحيمة ، وناصر الآداب والفنون ، وشجع مدارس أثينة ، وأنشأ جامعة جديدة فى القسطنطينية ، كان فيها أساتذة يتناولون مرتبات من قبـَل الدولة ، ويعلـّمون اللغتين اليونانية واللاتينية ، والآداب والفلسفة ، والبلاغة والقانون ، ويدربون الموظفين الذين تحتاجهم الإمبراطورية(٥٢) . وأيد ما كان للأطباء والمدرسين فى جميع الولايات من امتيازات ووسـَّع نطاقها ، وأمر الحكام أن ينشئوا فى ولاياتهم مدارس للعمارة ، وأن يستجلبوا الطلاب إليها بمختلف الامتيازات والمكافآت ، وأعفى الفنانين من الواجبات المفروضة على غيرهم من المدنيين حتى يوفر لهم ما يكفى من الوقت لإتقان فنهم وتعليمه أبناءهم . وقد استعان بالكنوز الفنية فى جميع أنحاء الإمبراطورية على تجميل القسطنطينية حاضرته الجديدة .

وبدأت أعمال البناء فى رومة فى ذلك العهد على يدى مكسنتيوس ، فقد

بدأه هو (٣٠٦) وأتم قسطنطين باسلقا ضخمة كانت هى تاج العمارة القديمة فى الغرب ، وعمد فى بنائها إلى طراز الحمامات الكبرى فعدله وشاد على طرازه المعدل صرحا عظيما تشغل قاعدته ٣٣٠ قدما فى ٢٥٠ . وكانت لردهتها الوسطى التى تبلغ ١١٤ قدما فى ٨٢ سقف مكون من ثلاث قباب متقاطعة مشيدة بالأسمنت المسلح يبلغ ارتفاعها ١٢٠ قدما يستند بعضها إلى ثمان دعامات عريضة تواجهها عمد كورنثية ذات حزوز غائرة يبلغ ارتفاعها ستين قدما . وكانت أرضها من الرخام الملوّن ؛ ووضعت بين الأعمدة عدة تماثيل ، وعلت جدران هذه الأجزاء التى بين الأعمدة فوق سقفها لكى تكون دعامات مرتفعة للقباب الوسطى . ولقد تعلم مهندسو القوط ومهندسو النهضة الشىء الكثير من هذه القباب والدعامات ، ولما أراد برامنتى Bramante أن يخطط كنيسة القديس بطرس اعتزم أن يتوّج صحن الكنيسة الواسع بقبـــة ضخمة ، أو « أن يقيم بناء الكنيسة الكبرى فوق باسلقا قسطنطين » .

وشاد أول الأباطرة المسيحيين كنائس كثيرة فى رومة ، وأكبر الظن أن الشكل الأول لكنيسة سان لورنزو التى فى خارج رومة كان من هذه الكنائس . وأراد أن يحتفل بذكرى نصره عند نهر ملفيوس فأقام فى عام ٣١٥ قوسا لا يزال يشرف على طريق النصر Via dei Trionfi ؛ وهو من أكمل الآثار الباقية فى رومة ، ولم ينقص من عظمته كثيراً ما انتزع من أجزائه آناً بعد آن . ويتركب من أربعة جذوع دقيقة التناسب ترتفع فوق القاعدة المنحوتة ، وتقسم الأقواس الثلاثة ، وتسند الدعامة المزخرفة المرتكزة عليها . وعلى الطبقة العليا نقوش بارزة وتماثيل مأخوذة من آثار لتراجان وأورليوس ، كما أن الحليات الوسطى التى بين الأعمدة مأخوذة من مبان شيدت فى عهد هدريان. وربما كان نقشان من النقوش البارزة من عمل فنانى قسطنطين ، ويشهد ما فى هذا الأثر من صور جالسة ، ومن اختلاط سمج بين الوجوه المصورة من الجانب والسيقان المصورة من الأمام ، ومن

تكديس الرءوس فوق الرءوس بدل أن يراعى الفنان قواعد المنظور . يشهد كل هذا بخشونة الذوق وعدم الإتقان الفنى . ولكن الحفر العميق وما يقع عليه من ضوء وظل ، يطبع فى الخيال صورة واضحة من العمق والسعة ؛ والحادثات التى تقصها تلك النقوش ممثلة بحيوية خشنة كأنما الفن الإيطالى قد اعتزم أن يعود إلى منبعه الأول .

ويبدو تمثال قسطنطين الضخم المحفوظ فى الكنسرفتورى بدائيا إلى حد تشمئز منه النفس ، ولا يكاد العقل يصدق أن الرجل الذى تفضل فرأس مجمع نيقية يشبه البربرى الفظ إلى الحد الذى يطالع الإنسان فى هذا التمثال — إلا إذا كان الفنان قد أراد أن يوضح مقدماً تلك العبارة الجامعة الساخرة التى قالها جبن : « لقد وصفت انتصار الهمجية والدين » .

وفى أوائل هذا القرن الرابع أخذ فن جديد يتشكل ويظهر فى الوجود — ونعنى به « تزيين » المخطوطات بصور ملونة صغيرة . وكان معظم الأدب فى ذلك الوقت مسيحى الطابع . ومن أدباء ذلك العصر لوسيوس فرمنيانس لكتنتيوس Lucius Firminianus Lactantius الذى شرح المسيحية شرحا بليغا فى كتابيه **الأنظمة المقدسة** Divinae Institiones (٣٠٧) **وفى الاضطهاد المميت** De Mortibus Persecutorum (٣١٤) الآلام الأخيرة التى عاناها الأباطرة مضطهدو المسيحيين ، ولم يكن هذا الوصف يقل عن وصف شيشرون بلاغة وحقداً . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إن طبيعة الدين تحتم أن يكون حراً ، طليقاً ، غير متأثر بأى ضغط »[٥٥] ، وتلك بدعة لم تطل حياته حتى يكفر عنها . وكان يوسبيوس بمفيلى أسقف قيصرية أوسع منه شهرة . وقد بدأ حياته الأدبية كاتباً قسيساً وأمين مكتبة لسلفه الأسقف بمفيلس ، وقد بلغ من حبه لهذا الأسقف أن تسمى باسمه . وكان بمفيلس الأكبر قد حصل على مكتبة أرجن وضم إليها

أكبر مجموعة من الكتب المسيحية عرفت حتى ذلك الوقت . وعاش يوسبيوس بين هذه الكتب ، فأصبح بذلك أكثر رجال الدين علما فى زمانه . وقضى بمفيلس نحبه أثناء اضطهادات جليريوس (٣١٠) ، وأخذ الناس يتساءلون فيما بعد كيف بقى يوسبيوس حيا بعد هذا الاضطهاد ، حتى أقضت هذه الأسئلة مضجع الرجل وآذت سمعته . وقد عاداه الكثيرون لموقفه الوسط بين أريوس والإسكندر ، ولكنه رغم هذا أصبح فى بلاط الإسكندر كما كان بوسويه Bossut فى بلاط لويس الرابع عشر ، وكلف بكتابة سيرة الإمبراطور ، وجمعت بعض كتاباته فى **تاريخ عام** — يعد أوفى الكتب التاريخية القديمة . وقد رتب يوسبيوس التاريخين المقدس والدنس فى عمودين متوازيين يفصل بينهما صف من تواريخ السنين المشتركة فى كليهما ، وحاول أن يحدد السنة التى وقعت فيها كل حادثة خطيرة من أيام إبراهيم الخليل إلى أيام قسطنطين . وقد اعتمدت كل التواريخ المتأخرة على « قانونه » هذا :

ثم كسا يوسبيوس هذه العظام لحما ، ونشر فى عام ٣٢٥ **تاريخا كنسيا** يصف فيه نماء الكنيسة من أول عهدها إلى مجمع نيقية . ويحتوى الفصل الأول من هذا الكتاب — وكان نموذجا نسج على منواله بوسويه مرة أخرى — على أقدم ما كتب فى فلسفه التاريخ — فقد صور الزمان كأنه ميدان القتال بين الله والشيطان ، كما صور الحوادث جميعها على أنها معينة على انتصار المسيح . والكتاب سيئ الترتيب ولكنه حسن الأسلوب ؛ وقد فحص عن المراجع فحصاً دقيقاً راعى فيه الذمة والضمير ، وتبلغ أحكامه من الدقة ما تبلغه أحكام أى كتاب قديم فى التاريخ ؛ وهو فى كل خطوة يخطوها يجعل الخلف مديناً له وذلك بما ينقله عن وثائق خطيرة لولا هذا النقل لما عرف العالم عنها شيئاً . والأسقف المؤلف غزير المادة ، واسع الاطلاع إلى حد كبير ، وأسلوبه تسرى فيه العاطفة القوية ، والشعور الفياض ، ويسمو إلى أعلى الدرجات فى لحظات الكراهيــة

الدينية وهو يعترف صراحة بأنه حذف من كتابه كل ما لا يقوّى إيمان قرائه المسيحيين أو يؤيد فلسفته ، ويحاول أن يكتب تاريخ المجلس العظيم — مجلس نيقية — دون أن يذكر اسم أريوس أو أثناسيوس . وهذا الغش الشريف نفسه هو الذى يجعل كتابه الآخر **حياة قسطنطين** تسبيحاً بحمد الرجل لا ترجمة له . فهو يبدؤه بثمانية فصول ملهمة عن تقوى الإمبراطور وأعماله الصالحة ، ويصف لنا كيف « حكم الإمبراطورية حكماً راعى فيه حدود الله أكثر من ثلاثين عاماً » . وليس فى مقدور الإنسان بعد أن يقرأ هذا الكتاب أن يظن أن قسطنطين قتل ولده وابن أخته وزوجته .

ذلك أن قسطنطين قد أحسن تدبير كل الأمور ما عدا أمور أسرته ، شأنه فى هذا شأن أغسطس . ولقد كانت صلاته بأمه طيبة سعيدة بوجه عام ، ويبدو أنها سافرت بتكليف منه إلى أورشليم ودمرت ذلك الهيكل الشائن ، هيكل أفروديتى الذى بنى ، كما يقول البعض ، فوق قبر المسيح المنقذ . ويقول يوسبيوس إن الضريح المقدس ظهر للعين فى ذلك المكان ، وفيه الصليب بعينه الذى مات عليه المسيح . وأمر قسطنطين أن تشاد كنيسة الضريح المقدس فوق القبر ، وحفظت الآثار المعظمة فى خزانة مقدسة خاصة . ومن ذلك الحين بدأ العالم المسيحى يجمع مخلفات المسيح والقديسين ويعبدها ، كما كان العالم الوثنى فى الأيام القديمة السابقة يعتز بمخلفات حرب طروادة ويعظمها ، وكما كانت رومة نفسها تفخر بتمثال أثينى إلهة الحكمة حامية طروادة . وقد غير العالم المسيحى مظهر هذه العبادة وجدد جوهرها كما يفعل الخلائق من أقدم العهود . وشادت هلينا كنيسة صغيرة فى بيت لحم فى الموضع الذى تقول الرواية إن يسوع ولد فيه ، وقامت فى تواضع بخدمة الراهبات اللاتى كن يقمن بالخدمة فى هذه الكنيسة ، ثم عادت إلى القسطنطينية لتموت بين ذراعى ولدها .

وتزوج قسطنطين مرتين : أولاهما بمنيرڤينا Minervina التى رزق منها بابنه كرسپس Cripus ؛ والثانية بفوستا Fausta ابنة مكسميان التى رزق منها بثلاثة بنين وثلاث بنات . وأصبح كرسپس جندياً ممتازاً ، وكان نعم العون لأبيه فى حروبه ضد ليسنيوس . وفى عام ٣٢٦ قُتل كرسپس بأمر قسطنطين ؛ وامر الإمبراطور حوالى ذلك الوقت نفسه بقتل ليسنيانس Licinianus بن ليسنيوس من قنسطنطيا أخت قسطنطين ؛ وبعد قليل من ذلك الوقت أعدمت فوستا بأمر زوجها ؛ ولسنا نعرف سبب مقتل هؤلاء الثلاثة ، غير أن زوسمس Zosimus يؤكد لنا أن كرسپس غازل فوستا ، وأنها شكته إلى الإمبراطور ، وإن هلينا ، وكانت شديدة الحب لكرسپس ؛ انتقمت لموته ، بأن أقنعت قسطنطين أن زوجته قد استسلمت لولده[٥٧] . لكن الأرجح من هذا كله أن فوستا عملت على أن تبعد كرسپس من طريق ابنها الذى كانت تريده وارثا لعرش الإمبراطورية ، وربما كان سبب مقتل ليسنيانس أنه كان يحيك المؤامرات ليحصل على نصيب أبيه فى الدولة .

ونالت فوستا بغيتها بعد موتها ؛ ذلك بأن قسطنطين أوصى فى عام ٣٣٥ بأن تقسم الإمبراطورية بين من كان حيًّا من أولاده وأولاد أخته . وبعد سنتين من ذلك الوقت احتفل فى يوم عيد القيامة بمرور ثلاثين عاماً من حكمه ، وأحس بعد ذلك بدنو أجله ، فذهب ليستحم فى الحمامات الحارة فى أكويريون Aquyrior القريبة من القسطنطينية . ولما اشتد عليه المرض استدعى قساً ليجرى له مراسم التعميد المقدس الذى أخره عمداً إلى تلك الساعة . وكان يرجو أن يطهره هذا التعميد مما ارتكبه من الخطايا فى حياته المزدحمة بالأعمال . ثم خلع الحاكم المجهد الأثواب الملكية الأرجوانية وارتدى الثوب الأبيض ثوب المسيحى الحديث التنصر وأسلم الروح .

لقد كان قسطنطين قائداً بارعاً ، وإداريا عظيما ، وسياسيا لا يشق له في شئون الحكم غبار ، ورث الأعمال التي كان يبغى بها دقلديانوس إعادة الدولة إلى سابق عهدها وأتمها ؛ وبفضله طال عمر الإمبراطورية ١٥٠ عاما . وقد واصل أنماط الحكم الملكي المطلق التي سار عليها أورليان ودقلديانوس مدفوعاً إلى هذا بأطماعه وكبريائه وباعتقاده أن الحكم المطلق هو العلاج الذي تتطلبه الفوضى السائدة في ذلك الوقت . وكان أكبر أخطائه تقسيمه الإمبراطورية بين أبنائه ؛ ولعله قد تنبأ بأن هؤلاء الأبناء سيتنازعون فيما بينهم ، يريد كل منهم أن ينفرد بالملك ، كما فعل هو من قبل ، ولكنه ظن أنهم سيقاتلون حتما إذا اختار وارثاً للملك غيرهم ؛ وهذا أيضاً هو الثمن الذي تبتاع به الملكية المطلقة . أما أوامره التي أصدرها بالإعدام فليس في مقدورنا أن نصدر حكما صحيحاً عليها لأنا لا نعرف أسبابها . وربما كانت مشاكل الحكم وأعباءه الثقيلة قد ناءت به فتغلبت المخاوف والغيرة على العقل والحكمة إلى حين ؛ وإن لدينا لشواهد على أنه في سنيه الأخيرة قد ندم أشد الندم على ما فعل . ويبدو أن عقيدته المسيحية ، التي كانت بدايتها خطة سياسية ، قد استحالت بالتدريج إلى إيمان صحيح استمسك به بإخلاص ، وأصبح أكثر المبشرين في دولته مثابرة على عمله ، واضطهد الملاحدة اضطهاد المؤمن المخلص لدينه ، وكان يعتمد على الله في كل خطوة يخطوها . وقد وهب الإمبراطورية الهرمة حياة جديدة بأن ربط بينها وبين دين فتي ، ونظام قوي ، ومبادئ أخلاقية ؛ وكان في عمله هذا أعظم حكمة من دقلديانوس . وبفضل معونته أضحت المسيحية دولة وديناً ، وأمست هي القالب الذي صبت فيه الحياة الأدبية والفكر الأوربي مدى أربعة عشر عاما . ولعل الكنيسة التي رأت أن تشكر له فضله عليها كانت محقة حين لقبته بأنه أعظم الأباطرة إذا استثنينا أغسطس وحده .

الخـــاتمة

الفصل الأول

لم سقطت رومه ؟

يقول أحد العلماء النابهين فى هذه الأيام « إن أعظم ما يواجهه التاريخ من مشاكل مشكلتان : أولاهما كيف نفسر قيـــام الدولة الرومانية ، وثانيتهما كيف نفسر سقوطها[1] » . ولعلنا نقرب من فهم هاتين المشكلتين إذا تذكرنا أن سقوط رومة كقيامها لا يعزى إلى سبب واحد بل إلى كثير من الأسباب ، وأن هذا السقوط لم يكن حادثاً واحداً بل كان عملية امتدت إلى أكثر من ثلثمائة عام . والحق أن ثمة أمماً لم تدم حياتها بقدر ما استلزمه من الزمن سقوط رومة .

والحضارة العظيمة لا يقضى عليها من الخارج إلا بعد أن تقضى هى على نفسها من الداخل . وشاهد ذلك أنا نجد الأسباب الجوهرية لسقوط رومة فى شعب رومة نفسه ، أى فى أخلاقها ، وفى النزاع بين طبقاتها ، وفى كساد تجارتها ، وفى حكومتها الاستبدادية البيروقراطية ، وفى ضرائبها الفادحة الخانقة ، وحروبها المهلكة . ولقد كان الكتّاب المسيحيون شديدى الإدراك لهذا الضعف المتعدد الأسباب ؛ فلقد بشر ترتليان حوالى عام ٢٠٠ ، وهو جذلان ، بما سماه ipsa clausula saeculi أى « نهاية عهد » — معتقداً أنه فى أغلب الظن مقدمة لدمار العالم الوثنى . ورد سبريان قبيل عام ٢٥٠ على ما اتهم به المسيحيون من أنهم أصل ما حاق بالإمبراطورية من محن بأن هذه المحن ترجع إلى أسباب طبيعية :

« يجب أن تعلموا أن العالم قد شاخ ، ولم يبق ما كان له قبل من قوة ، وأنه يشهد بنفسه على اضمحلاله . إن مقدار ما يسقط من المطر وما تشعه الشمس من دفء آخذان فى النقص[١] ، وكادت المعادن ينضب معينها ، وقل ما ينتجه الزارع من غلة »[٢] .

وما من شك فى أن هجمات البرابرة ، واستغلال العروق المعدنية الغنية الذى دام عدة قرون ، قد أنقصا ما تخرجه رومة من المعادن النفيسة ؛ وأن ما حدث فى إيطاليا الوسطى والجنوبية من تقطيع الغابات ، وفعل التعرية والتحات ، وإهمال قنوات الرى الناشئ من نقص عدد الفلاحين ، واضطراب الحكومات — ما من شك فى أن هذا كله قد ترك إيطاليا أفقر مما كانت فى سابق عهدها . بيد أن السبب الحقيقى لم يكن ناشئاً من أن التربة قد استنفدت قدرتها على الإنتاج ، أو أن جو البلاد قد تغير ، بل كان ما حاق بأهلها من إهمال وعقم سببهما ما حل بهم من ضيق وتثبيط للعزيمة .

وكانت الأسباب الأحيائية(*) أدهى من الأسباب السابقة وأعظم منها أثراً . فقد بدا نقص خطير فى عدد السكان فى الغرب بعد هدريان . ويشك بعض المؤرخين فى هذا النقص ، ولكن إسكان البرابرة بالجملة فى ولايات الدولة على أيدى أورليوس ، وڤلنتنيان ، وأورليان ، وپروبس ، وقسطنطين ، لا يكاد يترك مجالا للشك فى حقيقة هذا النقص[٣] . ولما أراد أورليوس أن يسد ما حدث من النقص فى جيشه جند العبيد ، والمجالدين ، ورجال الشرطة ، والمجرمين ؛ وهذا لا يحدث إلا إذا كان الخطر الذى يتهدد البلاد وقتئذ أشد من ذى قبل : أو أن السكان الأحرار كانوا أقل عدداً منهم فى الأيام السابقة ؛ والذى لا شك فيه أن غير الأحرار من السكان قد نقصوا عما كانوا عليه من قبل . ولهذا السبب أقفرت

(*) نسبة إلى علم الأحياء biological (المترجم)

ضياع كثيرة وتركت أرضها بوراً ، وخاصة فى إيطاليا ، حتى لقد عرضها برتناكس من غير ثمن على من يرضى أن يفلحها . ويتحدث قانون سنّه سبتميوس سفيرس عن نقص الرجال hominum penuria[4] . وقد ظل هذا النقص يجرى فى مجراه قروناً طوالا فى بلاد اليونان . وشاهد ذلك أن الأسقف ديونيشيوس يقول إن سكان الإسكندرية نقصوا فى أيامه (٢٥٠) إلى نصف ما كانوا عليه فى الأيام السابقة ، وكانت هذه المدينة فى تاريخها السابق تفخر بكثرة من فيها من السكان . وكان يؤلمه أن « يرى الجنس البشرى آخذاً فى النقصان والتبدد المستمر »[3] . ولم يكن يزداد فى هذا الوقت إلا البرابرة والشرقيون فى خارج الإمبراطورية وفى داخلها .

ترى ما سبب هذا النقص فى عدد السكان ؟ إن أكبر أسبابه هو تحديد النسل ، وهو عملية كانت تلجأ إليها الطبقات المتعلمة أولا ، ثم سرت عدواها إلى الطبقات الدنيا المشهورة بكثرة أبنائها[6] ؛ ولم يحل عام ١٠٠ بعد الميلاد حتى وصلت هذه العدوى إلى طبقات الزراع ، كما يدل على ذلك امتداد المعونة الإمبراطوريه إلى هذه الطبقة لتشجيعها على الإكثار من الأبناء ؛ وقبل أن يبدأ القرن الثالث عمت هذه العادة الولايات الغربية ، وأدت إلى نقص السكان فى غالة[7] . وانتشرت عادة وأد الأطفال بازدياد الفقر على الرغم من أن القوانين كانت تعد هذا العمل جريمة[8] . وربما كان الإفراط فى الصلات الجنسية قد أنقص الخصوبة البشرية ؛ وكان للامتناع عن الزواج أو تأخير وقته هذا الأثر بعينه . يضاف إلى هذا أن عادة الإخصاء أخذت تزداد بسبب سريان العادات الشرقية فى بلاد الغرب وليس أدل على انتشار هذه العادة من أن بلنتيانس Plantianus رئيس الحرس البريتوى أمر بإخصاء مائة غلام قدمهم هدية إلى ابنته بمناسبة زواجها[9] .

ويلى تحديد النسل فى أسباب نقص السكان ما كان ينشأ عن الأوبئة

والثورات والحروب من مجازر بشرية : وقد قضت الأوبئة التى اجتاحت البلاد فى أيام أورليوس ، وجلينس ، وقسطنطين على عدد كبير من السكان ؛ ولم تكد تنجو أسرة واحدة فى الإمبراطورية كلها من الوباء الذى تفشى فيها بين عامى ٢٦٠ و ٢٦٥ ؛ ويقال إن خمسة آلاف كانوا يموتون فى رومة نفسها كل يوم ، وإن هذه الحال دامت أسابيع كثيرة[١٠] ؛ وقد شرع بعوض كمپانيا يتغلب على الآدميين الذين غزوا المستنقعات الپنتية ، وأخذت الملاريا تضعضع قوى الأغنياء والفقراء على السواء فى لاتيوم وتسكانيا . ولقد كان لمجازر الحروب ، والثورات ، وربما كان لعادات منع الحمل ، والإجهاض ، ووأد الأطفال ، أثر فى نقص القدرة على النسل فضلا عن أثرها فى تقليل عدد السكان ؛ ذلك بأن أقدر الرجال كانوا أكثرهم تأخيراً لوقت الزواج ، وأقلهم نسلا ، وأقصرهم آجالا . وكانت معونة الدولة سبباً فى ضعف الفقراء ، كما كان الترف سبباً فى ضعف الأغنياء ، والسلم الطويلة الأجل سبباً فى حرمان الطبقات كلها فى شبه الجزيرة من الروح العسكرية والفنون الحربية . وكان الألمان الذين أخذوا من ذلك الوقت يسكنون شمالى إيطاليا ويكثر عددهم فى الجيش ، أصح أجساماً وأمتن أخلاقاً ممن بقى على قيد الحياة من سكان البلاد الأصليين . ولو أن الزمان سمح لهذا الجنس الجديد أن يمتزج بالسكان الأصليين على مهل لكان من الجائز أن يتثقف بثقافة الرومان ويبعث النشاط والقوة فى الدم الإيطالى ؛ ولكن الزمان لم يكن كريماً إلى هذا الحد . يضاف إلى هـذا أن سكان إيطاليا كانوا قد اختلطوا من زمن بعيد بأجناس شرقية ، أضعف من الجنس الرومانى جسما وإن جاز أن تكون أرقى منه عقلا . ولم يكن فى مقدور الألمان الذين أخذوا يتكاثرون بسرعة أن يفهموا الثقافة الرومانية ؛ فلم يقبلوها ، ولم ينقلوها إلى غيرهم من الشعوب ؛ وكان الشرقيون الذين يتناسلون هم أيضاً بسرعة يميلون إلى تدمير هذه الثقافة ، أما أصحابها الرومان فقد ضحوا بها فى سبيل

الراحة التى يجلبها العقم ؛ وقصارى القول أن رومة لم يغلبها على أمرها غزو البرابرة لها من خارجها بل غلبها تكاثر البرابرة فى داخلها .

وعجل الفساد الخلقى هذا الانحلال . ذلك أن صفات الرجولة التى نشأت من بساطة العيش وتحمل المشاق ، ودعمها إيمان قوى — نقول إن هذه الصفات قد أضعفها بهرج الثروة وحرية عدم الإيمان . فقد أوتى الناس من أهل الطبقتين الوسطى والعليا فى ذلك الوقت الوسائل التى يتمكنون بها من إرضاء شهواتهم والخضوع لما يحيط بهم من غوايات ، لا يصدهم عن ذلك إلا ما عساه أن يكون لديهم من واجب مراعاة اللياقة والآداب العامة ؛ وضاعف ازدحام المـــدن بالسكان ضروب التعاقد والمشارطات العامة ، ومنعت رقابة الحكومة والأمة من الامتداد إليها ؛ وجاءت الهجرة بمائة أو نحوها من الثقافات التى لم يعد يهتم الناس بالتفريق بينها لكثرة ما بينها من فروق . وانحطت عند الناس معايير الخلق والجمال لتغلب طبقات الشعب وما أصبح لها من أثر كبير فى البلاد ، وتحررت الشهوات الجنسية من القيود فى الوقت الذى ضاعت فيه الحرية السياسية .

ويقول عظيم المؤرخين : إن المسيحية كانت أهم أسباب سقوط الدولة الرومانية[11] ، لأن هذا الدين ، كما يزعم هو ومن يسير على نهجه[12] ، قد قضى على العقائد القديمة التى كانت هى الدعامة الخلقية للنفوس الرومانية ، والدعامة السياسية للدولة الرومانية ، ولأنه ناصب الثقافة القديمة العداء — فحارب العلم ، والفلسفة ، والأدب ، والفن ؛ وجاء بالتصوف الشرقى الموهن فأدخـــله فى الرواقية الواقعية التى كانت من خصائص الحياة الرومانية ؛ وحول أفكار الناس عن واجبات هذا العالم ووجههم إلى الاستعداد لاستقبال كارثة عالمية ، وهو استعداد مضعف للعزيمة ؛ وأغراهم بالجرى وراء النجاة الفردية عن طريق الزهد والصلاة ، بدل السعى للنجاة الجماعية بالإخلاص للدولة والتفانى فى الدفاع ؛ وحطم وحدة الإمبراطورية حين كان الأباطرة العسكريون يكافحون للاحتفاظ بها ؛ وشجع أتباعه على

الامتناع عن تولى المناصب العامة أو أداء الخدمة العسكرية ؛ وكان المبدأ الأخلاقى الذى يدعو إليه هو مبدأ السلام وعدم المقاومة ، حين كان بقاء الإمبراطورية يتطلب تقوية الروح الحربية ، وبهذا كله كان انتصار المسيح إيذاناً بموت رومة .

ولا يخلو هذا الاتهام القاسى من بعض الحقيقة ؛ فقد كان للمسيحية ، على الرغم منها ، نصيب فى فوضى العقائد التى ساعدت على إيجاد ذلك الخليط من العادات التى كان لها نصيب فى انهيار رومة . ولكن نمو المسيحية وانتشارها كانا نتيجة لضعف رومة أكثر مما كانا سبباً فى هذا الضعف . ذلك أن تحطم قواعد الدين القديم قد بدأ قبل ظهور المسيح بزمن طويل ؛ وقد وجه إليه إنيوس Ennius ولكريشيوس Lucretius هجمات أشد عنفاً من كل ما وجهه إليه أى مؤلف وثنى بعدهما . أما الانحلال الخلقى فقد بدأ من وقت أن فتح الرومان بلاد اليونان ، وبلغ أوجه فى عهد نيرون ؛ ثم صلحت أخلاق الرومان بعدئذ ، وكان أثر المسيحية فى الحياة الرومانية من الناحية الخلقية أثراً طيباً بوجه عام . وبناء على هذا نقول إن المسيحية قد نمت هذا النماء السريع لأن رومة كانت وقتئذ فى دور الاحتضار ، فالناس لم يفقدوا إيمانهم بالدولة لأن المسيحية أبعدت عواطفهم عنها ، بل فقدوه لأن الدولة كانت تنصر الثروة على الفقر ، وتحارب لتستولى على العبيد ، وتفرض الضرائب على الكدح لتعين على الترف ، ولأنها عجزت عن حماية الشعب من المجاعات ، والأوبئة ، والغزو الأجنبى ، والفقر المدقع ؛ فهل يلام الناس بعد ذلك إذا تحولوا عن قيصر الذى يدعو إلى الحرب إلى المسيح الداعى إلى السلم ، ومن الوحشية التى لا يكاد يصدقها العقل إلى الإحسان الذى لم يسبق له مثل ، ومن حياة خالية من الأمل والكرامة إلى دين يواسيهم فى فقرهم ويكرم إنسانيتهم ؟ ألا إن نصيب المسيحية فى القضاء على الدولة الرومانية لم يكن أكثر من نصيب غزو البرابرة لها . لقد كانت هذه الدولة قشرة فارغة حين قامت المسيحية فى ربوعها ، وحين داهمها غزو البرابرة

ولقد ذكرنا فى فصل سابق الأسباب الاقتصادية التى أدت إلى ضعف رومة، لأنا رأينا أن ذكرها كان ضرورياً لفهم إصلاحات دقلديانوس؛ ولسنا نحتاج إلى أكثر من تلخيصها هنا تذكرة للقراء . نذكر اعتماد رومة على الحبوب المستوردة من الولايات اعتماداً مزعزعاً لا تؤمن مغبته ، وانقطاع ورود العبيد وانهيار الضياع الكبيرة ، وانحطاط وسائل النقل والأخطار التى تتعرض لها التجارة ، وفقد رومة أسواق الولايات بسبب منافسة هذه الولايات نفسها لها ، وعجز الصناعة الإيطالية عن تصدير ما يوازى واردات إيطاليا ، وما أدى إليه ذلك من انتقال المعادن الثمينة إلى الشرق ؛ والحرب المدمرة بين الأغنياء والفقراء ، وارتفاع نفقات الجيوش ، والمساعدات التى تقدم للعجزة والفقراء ، والأعمال العامة ، والبيروقراطية المطردة الزيادة ، وتثبيط همم النابهين ذوى الكفايات ، والحاشية المتطفلة التى لا تؤدى عملا من الأعمال ، ونفاد رؤوس الأموال المستثمرة لما كان يفرض عليها من الضرائب التى تبلغ حد المصادرة ، وهجرة رؤس الأموال والعمال ، واستخدام العبيد فى الأعمال الزراعية ، وفرض نظام الطبقات الصارم على الأعمال الصناعية ؛ كل هذا قد قوض الأسس المادية للحياة الإيطالية حتى أضحت قوة رومة فى آخر الأمر شبحاً سياسياً يعيش بعد موتها الاقتصادى .

وأما الأسباب السياسية التى أدت إلى انهيار الإمبراطورية فترجع كلها إلى أصل واحد — هو أن الاستبداد المتزايد قضى على شعور الفرد بحقوق المدنية ، وأنضب معين قدرته على القيام بأعباء الحكم . ولما عجز الرومانى عن التعبير عن إرادته السياسية إلا بالعنف ، فقد من أجل ذلك اهتمامه بشئون الحكم وانهمك فى أعماله ، وفى متعه ، وفى فيلقه ، أو فى نجاته الفردية . لقد كانت الوطنية والديانة الوثنية وثيقتى الارتباط إحداهما بالأخرى ، وها هما الآن يقضى عليهما معاً [١٣] . واستنام مجلس الشيوخ إلى الكسل والخمول ، واعتاد الخضوع أو الارتشاء بعد أن ظل يفقد سلطانه ومكانته شيئاً فشيئاً بعد پرتناكس ،

فانهار بذلك الحاجز الأخير الذى كان يستطيع إنقاذ الدولة من أخطار العسكرية والفوضى . وأما الحكومات المحلية التى عدا عليها الرقباء والجباة فلم تعد تستهوى رجالا من الطراز الأول ، وأدت مسئولية الموظفين فى الولايات عن مجموع الضرائب المفروضة على أقاليمهم ، وما تتطلبه مناصبهم العليا من نفقات لا تؤديها إليهم الدولة ، وما تنتظره منهم من أموال ، وخدمات ، وأعمال بر وألعاب ؛ وما يتعرضون له من أخطار الغزو الأجنبي وحرب الطبقات ، أدت هذه كلها إلى تهرب المواطنين من المناصب تهرباً يشبه تهربهم من الضرائب ، والمصانع ، والمزارع ، فكان الناس يتعمدون جعل أنفسهم غير صالحين لتولى هذه المناصب بإنقاص الطبقة التى ينتمون إليها ؛ ومنهم منْ كان يهاجر إلى بلدة غير بلدته ، ومنهم من عمل زارعاً أو راهباً ، وفى عام ٣١٣ وسع قسطنطين نطاق الإعفاء من مناصب البلديات حتى شمل القساوسة المسيحيين ، كما أعفاهم من عدة أنواع من الضرائب ، وهو الإعفاء لذى اعتاد الكهنة الوثنيون أن يتمتعوا به .

وما لبثت الكنيسة ، بسبب هذا الإعفاء ، أن غمرتها موجة من طالبى الرسامة ، وأخذت المدن تشكو ما أصبها من نقص فى الإيراد وفى اللائقين من أهلها أن يكونوا شيوخاً ، حتى اضطر قسطنطين فى آخر الأمر أن يصدر قانوناً يقضى بألا يقبل فى الكهنوت أى رجل لائق لأن يشغل منصباً فى حكومات البلديات[١٤] . وكانت الشرطة الإمبراطورية تتعقب الفارين من المناصب العامة كما تتعقب من يتهربون من الضرائب أو الخدمة العسكرية ، وتعود بهم إلى مدنهم وترغمهم على العمل فى حكوماتها[١٥] ، ثم قررت فى آخر الأمر أن يرث الابن مركز أبيه الاجتماعى ، وأن يقبل المنصب العام الذى تؤهله إليه طبقته . إذا اختير له ؛ وهكذا كمَّل رق الوظيفة القيود الاقتصادية المفروضة على الطوائف المختلفة :

وخاف جلينس أن يثور عليه مجلس الشيوخ فأعفى أعضاءه من الخدمة فى

الجيش . ولما كانت الروح الحربية قد انعدمت فى إيطاليا فإن هذا القرار كان خاتمة الضعف العسكرى فى شبه الجزيرة ؛ فكان إنشاء جيوش من أبناء الولايات ومن الجنود المرتزقة ، والقضاء على الحرس البريتورى على يدى سپتميوس سفيرس ، وظهور قواد للجيش من بين أبناء الولايات ، واستيلاؤهم على عرش الإمبراطورية ، كان هذا كله سبباً فى القضاء على زعامة إيطاليا ، بل قل على استقلال إيطاليا ، قبل سقوط الإمبراطورية فى الغرب بزمن طويل . ذلك أن جيوش رومة لم تعد كما كانت من قبل جيوشاً رومانية ، بل كان معظمها يتألف من أبناء الولايات وأكثرهم من البرابرة ؛ ولم يكونوا يحاربون دفاعاً عن دينهم أو وطنهم ، بل كانوا يقاتلون لنيل أجورهم ، وهباتهم ، ومغانمهم . وكانوا يهاجمون مدن الإمبراطورية وينهبونها بنفس الحماسة التى يظهرونها فى مواجهة الأعداء ؛ وكان معظمهم من أبناء الفلاحين الذين يحقدون على الأغنياء وعلى المدن لأن الأولين يستغلون الفقراء ولأن الثانية تستغل الريف ؛ وكانت الحروب الداخلية تتيح لهم الفرصة لنهب المدن نهباً لا يكاد يترك فيها شيئاً يدمره البرابرة الأجانب[١٦] . ولما أصبحت المشاكل الحربية أعظم خطراً من الشئون الداخلية ، اتخذت المدن القريبة من الحدود مراكز للحكم ؛ وأضحت رومة مسرحاً للانتصارات ، ومظهراً للعمائر الإمبراطورية ، ومتحفاً للآثار والأنظمة السياسية . يضاف إلى هذا أن تعدد العواصم وانقسام السلطة حطا وحدة البلاد الإدارية ، فلما أصبحت الإمبراطورية أوسع من أن يحكمها حكامها ، ومن أن تحميها جيوشها ، بدأت تتفكك .

ولما تركت غالة وبريطانيا وشأنهما تحميان نفسيهما بمفردهما من الألمان والأسكتلنديين دون معونة من الحكومة المركزية اختارت كلتاهما (إمبراطورها) الخاص بها وخلعت عليه السلطة العليا والسيادة الكاملة ؛ ثم انفصلت تدمر عن الدولة فى عهد زنوبيا ، ولم تلبث أسپانيا وأفريقية أن خضعتا دون مقاومة تذكر إلى الفاتحين البرابرة ؛ فلما جلس جلينس على العرش كان ثلاثون قائداً يحكمون

ثلاثين إقليما من أقاليم الإمبراطورية حكماً يكاد يكون مستقلا عن السلطة المركزية . وفى هذه المأساة المروعة ، مأساة دولة عظيمة تتقطع أوصالها ، كانت الأسباب الداخلية هى العوامل الحقة الخفية ، أما الغزاة البرابرة فلم يدخلوها إلا بعد أن فتح لهم ضعفها الأبواب وهيأ هم السبل ، وبعد أن أسلم ضعف الحكام الأحيائى ، والخلقى ، والاقتصادى ، والسياسى ، المسرح إلى الفوضى ، واليأس ، والاضمحلال .

ومن الأسباب الخارجية التى عجلت بسقوط الإمبراطورية الغربية توسع الهون أو الشى أونج — نو Hsiung-nu وهجرتهم فى شمالى آسية الغربى . ذلك أنهم لما صدهم السور الصينى العظيم والجيوش الصينية فى زحفهم نحو الشرق اتجهوا نحو الغرب حتى وصلوا فى عام ٣٥٥ إلى نهرى الفلجا وجيحون . وضغطوا فى زحفهم هذا على السرماتيين فى الروسيا فاضطروهم إلى التحرك نحو البلقان ؛ وتضايق القوط من هذا الزحف فتحركوا مرة أخرى على الحدود الرومانيـــة ، وسمح لهم بأن يعبروا الدانوب ويستوطنوا موئيزيا Moesia (٣٧٦) ؛ ولما أساء الموظفون الرومان معاملتهم فى هذه الولاية ، ثاروا عليهم ، وهزموا جيشاً رومانيا كبيراً عنـــد أدريانوپل (أدرنه) (٣٧٨) وهددوا فى وقت ما القسطنطينية نفسها .

وفى عام ٤٠٠ قاذ ألريك Alaric القوط الغربيين وعبر بهم جبال الألب وانقض على إيطاليا ، وفى عام ٤١٠ استولوا على رومة ونهبوها . وفى عام ٤٢٩ قاد جيسيرك Gaiseric الوندال لفتح أسپانيا وأفريقية ، وفى عام ٤٥٥ استولوا هم أيضاً على رومة ونهبوها . وفى عام ٤٥١ قاد أتلا Atilla الهون وهجم بهم على غالة وإيطاليا ، فهزموا عند شالون Chalons ، ولكنهم اجتاحوا لمباردیا . وفى عام ٤٧٢ عين قائد پانونى اسمه أرستير Orestes ابنه إمبراطوراً وسماه رميولس أوغسطولس Romulus Augustulus ؛

وبعد ست سنين من ذلك الوقت خلع الجنود البرابرة المرتزقون ، الذين كانوا يسيطرون وقتئذ على الجيش الرومانى ، هذا « الأغسطس الصغير » ، وعينوا قائدهم أدوكر Odoacer ملكاً على إيطاليا ؛ وأقر أدوكر بالسيادة للإمبراطور الرومانى الجالس على العرش فى القسطنطينية ورضى هذا الإمبراطور به ملكاً تابعاً له : وظلت الإمبراطورية الرومانية فى الشرق، قائمة حتى عام ١٤٥٣ ، أمّا فى الغرب فقد لفظت وقتئذ نفسها الأخير :

الفصل الثاني

ما قامت به رومة من جلائل الأعمال

إن تعليل سقوط رومة لأيسر من تعليل طول حياتها — وأهم عمل قامت به رومة هو أنها ، بعد أن استولت على عالم البحر الأبيض المتوسط ، تثقفت بثقافته ، ووهبته النظام ، والرخاء ، والسلم مدى مائتي عام ، وصدت عنه غارات البرابرة قرنين من الزمان ، وأورثت الغرب قبل موتها تراث اليونان والرومان .

وليس لرومة منافس قط في فن الحكم . نعم إن الدولة الرومانية قد ارتكبت آلافاً من الأخطاء السياسية ، فقد أقامت صرحها على أرستقراطية أنانية ، وكهنوت ذي طقوس غامضة خفية ، وأنشأت دمقراطية من الأحرار ثم قضت عليها بالعنف والفساد ، واستغلت ما فتحته من البلاد لتزود بخيراتها إيطاليا الطفيلية ، فلما عجزت عن الاستغلال تقوضت دعائمها وانهارت . وخلفت في أماكن متفرقة في الشرق والغرب قفاراً وسمت هذا سلاماً . ولكنها أقامت وسط هذا الفساد كله نظاماً فخماً من الشرائع أمن الناس في أوربا كلها تقريباً على أنفسهم وأموالهم وكان باعثاً قوياً على الجد والمثابرة من أيام المشترعين العشرة إلى أيام نابليون . وشكلت حكومة انفصلت فيها السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية ، وظل ما فيها من ضوابط وموازين مصدراً ملهماً لواضعي الدساتير إلى عهد الثورتين الأمريكية والفرنسية . ولقد جمعت زمناً ما بين النظم الملكية والأرستقراطية والدمقراطية ، ونجحت في عملها هذا نجاحاً أثنى عليه الفلاسفة ، والمؤرخون ، ورعاياها وأعداؤها على السواء . ووضعت أنظمة الحكم البلدي المحلي ، وأمكنت نصف ألف مدينة من أن تستمتع بالحرية زمناً طويلا ، وأدارت شئون

إمبراطوريتها فى أول الأمر بشره وقسوة ، ثم بدلتهما تسامحاً وعدالة رضيت بهما الدولة العظيمة رضا لم نعرف له نظيراً فيما تلا ذلك الزمان . وجعلت الصحراء تزدهر بالحضارة ، وكفرت عن ذنوبها بما بسطته على بلادها من سلم دائمة طويلة ، وها نحن أولاء فى هذه الأيام نبذل أعظم الجهود لنحيى السلم الرومانية فى هذا العالم المضطرب .

فى هذا الإطار الذى لم يسم عليه إطار غيره شادت رومة صرح حضارة يونانية فى أصلها ، رومانية فى تطبيقها ونتائجها . ولسنا ننكر أن انهماكها فى شئون الحكم قد شغلها عن أن تنتج من الأعمال الذهنية مثل ما أنتجت بلاد اليونان ؛ ولكنها استوعبت التراث الصناعى ، والعقلى ، والفنى الذى تلقته عن قرطاجنة ومصر وبلاد الشرق ، وقدرته أعظم التقدير ، واستمسكت به أشد الاستمساك : ولسنا ننكر كذلك أن العلوم لم تتقدم على يديها ، ولم تدخل شيئاً من التحسين الآلى على الصناعة ، ولكنها أغنت العالم بتجارة كانت تسير فى بحار آمنة ، وأنشأت شبكة من الطرق الباقية حتى الآن أضحت شرايين يجرى فيها دم الحياة الجياش : ولقد مرت فوق هذه الطرق ، وفوق ألف من الجسور الجميلة ، إلى عالم العصور الوسطى والعالم الحديث أساليب الزراعة والصناعات اليدوية ، والفنون ، وعلم إقامة المبانى التذكارية وأعمال المصارف والاستثمار وتنظيم الأعمال الطبية والمستشفيات العسكرية ، ونظام المدن الصحى ، وأنواع مختلفة من الفاكهة ، وأشجار النقل ، ونباتات الحقول والزينة ، التى جاءت بها من الشرق لتتأقلم فى الغرب ؛ وحتى سر التدفئة المركزية قد انتقل من الجنوب الدفىء إلى الشمال البارد . ولقد خلق الجنوب الحضارات ثم غلبها الشمال على أمرها فدمرها أو استعارها من أهلها .

ولم تخترع رومة نظم التربية ، ولكنها أتمتها ووسعتها إلى حد لم يعرف له مثيل من قبل ، وأمدتها بمعونة الدولة ، ووضعت المنهاج الذى ظل باقياً يعذبنا فى

أيام شبابنا . وفى العمارة لم تخترع الأقواس أو العقود أو القباء ، ولكنها استخدمتها بجرأة وفخامة جعلت بعض الطرز من عمائرها أرقى من جميع نظائرها إلى هذه الأيام ؛ ولقد أخذت الكنائس الكبرى فى العصور الوسطى جميع عناصرها من الباسلقا الرومانية . ولم تخترع رومة التماثيل ، ولكنها وهبتها قوة واقعية ، قلما سما إليها اليونان أصحاب هذه النزعة ؛ ولم تبتدع الفلسفة ولكن لكريشيوس وسنكا هما اللذان وجدت فيهما الأبيقورية والرواقية صورتيهما النهائيتين المصقولتين أعظم صقل . ولم تنشئ الأنماط الأدبية إنشاء ، لا نستثنى من ذلك الهجو نفسه ؛ ولكن من منا يستطيع أن يقدر حق التقدير ما كان لشيشرون من أثر فى فنون الخطابة ، والمقالة ، وأسلوب النثر ، أو أثر فرچيل فى دانتى ، أو تسو Tasso فى ملتن ، . . أوليفى وتاستس فى كتابة التاريخ ، أو هوراس وچــوڤنال فى دريدن ، وسوفت ، وپوپ؟

وقد أضحت لغتها بفضل ما دخل عليها من مسخ يبير الإعجاب لغة إيطاليا ، ورومانيا ، وفرنسا ، وأسپانيا ، والبرتغال ، وأمريكا اللاتينية ، أى لغة نصف عالم الرجل الأبيض ؛ وقد ظلت تلك اللغة حتى القرن الثامن عشر اللغة الدولية للعلم والتبحر فى الدرس ، والفلسفة فى بلاد الغرب . وكانت هى المعين الذى اغترفت منه مفردات دولية سهلة لعلمى الحيوان والنبات ، ولقد بقيت حية فى الطقوس المنغمة والوثائق الرسمية للكنيسة الكاثوليكية ؛ ولا تزال تكتب بها تذاكر الأطباء ، وتتردد كثيراً فى المصطلحات القانونية ؛ ودخلت عن طريق اللغات الرومنسية(*) (مثل peasant, pagan, paganus ؛ و royal yegal, reyalis) لتزيد من ثروة اللغة الإنجليزية ومرونتها ؛ وملاك القول أن ما ورثناه عن الرومان يظهر أمامنا آلاف المرات فى كل يوم ؛

ولما أن فتحت المسيحية رومة انتقل إلى الدين الجديد بناء الدين الوثنى

(*) أى المشتقة من اللغة اللاتينية كاللغات السالفة الذكر (المترجم) .

القديم : انتقل إليه لقب الحبر الأعظم pontifex meximus ، وعبادة الأم العظمى ، وعدد لا يحصى من الأرباب التي بثت الراحة والطمأنينة في النفوس ، والإحساس بوجود كائنات في كل مكان لا تدركها الحواس ، وبهجة الأعياد القديمة أو وقارها ، والمظاهر الخلابة للمواكب القديمة التي لا يعرف الإنسان بدايتها ، نقول إن هذه كلها انتقلت إلى المسيحية كما ينتقل دم الأم إلى ولدها ، وأسرت رومة الأسيرة فاتحها ، وأسلمت الإمبراطورية المحتضرة أزمة الحكم والمهارة الإدارية إلى البابوية القوية ؛ وشحذت الكلمة المواسية بقوة سحرها ما فقده السيف المفلول من قوته ؛ فحل مبشرو الكنيسة محل جيوش الدولة ، وأخذ هؤلاء يجوبون الآفاق في جميع الجهات متتبعين الطرق الرومانية ؛ وعادت الولايات الثائرة بعد أن اعتنقت المسيحية إلى الاعتراف بسيادة رومة . وحافظت العاصمة القديمة على سلطانها ، خلال الكفاح الطويل الذي دام في عصر الإيمان ، وما زال ينمو هذا السلطان ، ينمو ويقوى حتى خيل إلى العالم في عصر النهضة أن الثقافة القديمة قد انبعثت من قبرها ، وأن المدينة الخالدة أضحت مرة أخرى مركز حياة العالم وثراثه وقمة تلك الحياة وذينك الثراء والفن . وقد احتفلت رومة في عام ١٩٣٦ بمضي ٢٦٨٩ عاما على تأسيسها ، وكان في وسعها أن تعود بنظرها إلى ما تمتاز به حضارتها من استمرار رائع في تاريخ الإنسانيـــة . ألا ليتها تعود إلى حياتها الماضية .

شكراً لك أيها القارئ الصبور

المراجع مفصلة

CHAPTER XXI

1. Pliny. *Nat Hist*, iii, 6.
2. Dilil, 239.
3. Eattorusso, J, *Wonders of Italy*. 473.
4. Herodoius, I, 196.
5. Strabo, v, 1-7.
6. Varro, *Rerum rust.*, i. 2.
7. Pliny, iii, 6.
8. Strabo, v, 4-5.
9. Varro, *sat Men*, frag. 44. in Friedländer, I, 338.
10. Boissier, *Cicero*, 168.
11. Seneca, *Epist.* li.
12. Strabo, v, 4.3.
13. Reid, 3.
14. Dio, lxvi, 22.
15. Pliny's *Letters*, vi, 16.
16. Ibid, 20.
17. Rostovtzeff, *Mystic Italy*, 52.
18. Mau, 491; Boissier, *Rome and Pompeii*, 430.
19. Id., *La rélligion romaine*, II, 296.
20. Mau, 226, 148.
21. Ibid. 16.
22. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 142; Dill. 194; Frank, *Economic Survey*, V. 98; Friedländer, II. 254.
23. CAH, XI, 587; Friedländer II, 228.
24. As at Antium, Lanuvium. Tibur, Aricia.

CHAPTER XXII

1. Cicero, *II, In Verren*, iii. 207.
2. Tacitus, *Annals*, xii. 31.
3. Cicero, *Pro lege Manilia*, 6.
4. Plutarch, *De reip. ger.*, 32.
5. Mommsen, *History*, II, 205.
6. Livy, xxv, 29.
7. Reid 288.
8. Toutain, 269.
9. Bonchier. E.*Life and Letters in Roman Africa*, 73.
10. St. Augustine, *Letters*, 185.
11. Friedläuder, I, 312.
12. Boissier, *L' Afrique romaine*, 181-2; Devis, 200.
13. Bouchier, 83.
14. Juvenal, vii. 148.
15. Apuleius, 41; a fine example of Adlington's delectable translation 1566).
16. Book XI.
17. Book IV-VI.
18. Strabo, iii, 4-16.
19. Ibid., 3.7.
20. Ibid. 4-16-18.
21. Buchan, 310.
22. Gest. 201.
23. Caesar, *Bello Gallico*, ii, 30.
24. Pliuy, xxxviii, 5.
25. Appiau, iv, 7.
26. Strabo, iv, 4-5.
27. Ibid.
28. Caesar, v, 34.
29. Ammianus, xv, 12.
30. Caesar, vi, 14; Val. Max; ii, 6, Hammerton, J., *Universal History of the World*, III. 1524.
31. Caesar, vi, 14.
33. Arnold, W. P., *The Roman System of Provincial Administration*, 142.
34. Pliny, xviii, 72.
35. Frank, *Economic Survey*, V, 133f.
36. Pliny, xxxiv, 18.
37. Ibid, iii, 5.
38. Sidonius Apollinaris, *Poems*, xxiii, 37.
40. Jullian, C. *Histoire de la Gaule*, V, 35n.
41. In Mommsen, *Provinces*. I. 118.
43. See the statemer of their case in Barues, H. E. *History of Western Civilization*, I, 434.
44. Nommsen *History*, V, 100.
45. Caesar, V, 12.

46. Tacitns, *Annals*, xiv, 29.
47. Tacitus, *Agricola*, 21.
48. Haverfield, F., *The Roman Occu potion of Britain*, 213.
49. Id., *The Romanization of Britain* 62. *Collingwood and Myres, Roman Britain*, 197; Home, G., *Roman London*, 98.
50. Strabo. iv, 5.2.
51. CAH, XII, 289.
52. *Tine*, Mar. 17, 1941.
53. Tacitus, *Germania*, 14.
54. Strabo, vii, 1.2.
55. Seneca, *De ira*, v, 10.
56. *Germania*, 22.
57. Snmner, W. G., *Folkways*, 380.
58. Ibid., 816.
59. *Germania* 20.

CHAPTER XXIII

1. Dio Chrysostom, *Orat.*, vii.
2. Plutarch. "*Demosthenes*"
3. In Trench, R.C., *Plutarch*, 40
4. Ibid., 41.
5. In Glover, T. R. *Conflict of Religions in the, Early Roman Empire*. 85.
6. Plutarch, *Quaestiones Romani*; *De Isise et asiride*.
7. Plutarch, *Moralia*, introd., I, 15.
8. Ibid., 37.
9. Ibid, vol. II, pp 123, 128, 131-2, 178.
10. Ibid., 140B.
11. *De tranq. an.*, ix, 20.
12. Dio Chr, *Orat.*, xii.
13. Epictetus, *Discoures*, i, 6.26.
14. Lucian, "Of Pautomime," 2.
15. Id, "Demonax," 57.
16. Apuleius, book X.
17. Alciphrou, *Letters*, vi, p. 175.
18. Dio. Chr., *Orat.*, lxxii.
19. Philostratus, *Lives of the Sophists*, 223f.
20. Renan, *Christian Church*, 167.
21. Our sole source for Demonax is an essay uncertainly ascribed to Luciau, and possibly colored with fictiou.
22. Lucian., "Peregriuus Proteus".
23. Renan *Christian Church*, 166.
24. Luciau, "Demonax" 55; Epictetus *Discoures*, iii, 22.
25. Id., frag. 1.
27. I, 12. 21; vi, 25.
28. IV, 1.
29. I. 24.
30. II, 5.
31. I. 2.
32. *Encheiridion* 8.
33. *Discoures*, i, 6.
34. Ibid., 9.
35. 3, 9 : ii, 8.
36. I, 29.
37. III, 24 ; ii, 6,
38. I, 16.
39. I. 18, 19 : frag. 43.
40. III, 10.
41. Frag 42.
42. *Encheir.*, 33.
43. *Discourses*, ii, 10.
44. III, 12.
45. 13.
46. Frags. 54. 94
47. *Discourses*, ii 16.
48. I, 9.
49. Ibid, introd., xxviii.
50. In Sextus Empiricus, *Hypotyposes Pyrr.*, 1. 36f, aud Gellius, xi, 5.6. For details cf Owen, J., *Evenings with the Sceptics*. I, 323-5.
51. Sextus, *Hyp. Pyrr*, ii, 204.
52. III. 29; i, 136-8.
53. III. 210.
54. *Adv. Dogmaticos*, i, 148; *Hyp. Pyrr.*, iii, 9-11.
55. Ibid., I. 7.
56. Ibid., i, 8. 25.
57. III, 235; *adv. Dogm.*, i 49.
58. CAH, XII, 449.
59. Lucian, "Icaromenippus" 25.
60. "Zeus Cross-Examined" 2-18.
61. "Zeus Tragoedus," 53.
62. *Dialogues of the Dead*, x.
63. "Hermotimus," end.

64. "Charon," 2.
65. "Icaromenippus,"||17.
66. "Charon," 24.
67. "Menippus," 21.
68. Inge W., *Philosophy of Plotinus,* 82.

CHAPTER XXIV

1. Josephus, *Against Apion.* ii, p. 480.
2. Charlesworth, 26; Frank, *Economic Survey,* II, 330.
3. Ibid., 337.
4. 445; Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Hellenistic World,* 1288.
5. Josephus, *Wors,* ii, 16.4; Frank V, 245.
6. Breccia, E., *Alexandria ad Aegyptam,* 41.
8. Dio Chr., xxxii, 69.
9. In Frank, V, 247; Mommsen, *Provinces,* II, 177.
10. Baron, S.W., *Social and Religous History, of the Jews,* ii, p. 489.
11. Edersheim, I, 61.
12. Josephus, *Against Apion,* ii p. 489.
13. Eusebius, *Ecclesiastical History,*
14. Graetz, *H. History of the Jews,* II, 186.
15. Philo, *Quod Deus sit immutabilis* 12.
16. Philo, *De mundi opificio,* i, 4; Inge. I, 98.
17. Philo, *De cofusione linguarum,* 28.
18, In Sachar, *A , History of the Jews,* 110.
19. Philo, *De vita contemplativa*
20. Usher, A., *History of Mechanical Inventions,* 40.
21. Bailey, 314.
22. Sarton, G , *Introduction to the History of Science,* I, 274.
23. Ibid., 202; Heath, Sir, T., *History of Greek Mathematics,* II, 306.
24. Ammianus, xxii, 16-19.
25. Philostratus, in Friedländer, I, 171.
26. Bailey, 283.
27. Sarton, 283.
28. Himes, 86.
29. Garrison, 30, 110.
30. Sarton, 282; Castiglione, 202.
31. Ibid ; Himes, 90.
32. Higgard, H., *Devils, Drugs, and Doctors,* 23.
33. Galen *On the Natural Faculties,* introd , xv.
34. Galen in Thondike, L , *History*
35 *of Magic and Experimental Science. I,* 117, 152.
36. Ibid , 143.
37. Williams, I; 174.
38. Castiglione, 275.
39. Thorndike, I, 171.
40. Strabo, xvi, 4.
41. Doughty, C., *Travels in Arabia Deserta.* I, 40.
42. Josephus, *Antiquities,* xv, 9.
43. MacGregor, R , *Greek Anthology:* v, 171.
44. Tr. by Goldwyn Smith in Symonds, J.A. *Greek Poets,* 521.
45. Leslie,S ,*Greek Anthology,*vii,476.
46. Ibid., p. 17.
47. Ibid., ix, 489.
48. *Greek Anthology,* ix, 570.
49. Strabo, xv, 2.23.
50. Frank. IV, 158.
51. Rostovtzeff, *Roman Empire,*135 ; CAH, II, 634.
52. Breasted J.H., *Oriental Forrunners of Byzantine Painting,* pref.
53. CAH, XI. 638.
54. Ibid., 646.
55. In Mahaffy, *Silver Age,* 211.
59. Philostratus, *Apollonius,* iv. 7.
60. Aelius Aristides, *Orat.,* xvii, 8, in Frank, IV, 750.
61. Philostratus, *Lives of the Sophits,* i, 25.
62. Ibid.

63 Longus, *Daphnis and Chloe*; *ad enit.*, in Heliodorus, *Greek Romances.*
64. Dio Cassius, lxx, 4.
65. Appian, *Roman History*, xiv, 16.
66. Ibid.
67. Pliny, xxv, 8.
68. Ibid., xxxiii, 14.
69. Appian, xiii, 4.
70. Ibid., 7.
71. Ferro, I, 83.
72. Arrian, *Anabasis of Alexander.*
73. Reid, 376.
74. Williams, I, 255.
75. Strabo, i, 1.22-3.
76. Ibid, 3.5.
77. Dio. Chr, xlvi, 3.
78. Ibid., x, 21.
79. In Bigg. C., *Neopplatonism*, 70.
80. Ibid., 78.
81. Dio. Chr., xii 10; xiii 28; xiv, 18; xxiii, 7.
82. Friedländer, III, 299.
83. Frazer, *Adonis, Attis*, and *Osiris*, 157.
84. Cumont, F., *Oriental Religions in the Roman Empire*, 63.
85. Ibid., 55.
86. Frazer. 306; Boissier, *La religion romaine*, 1, 383; Dill, 549f.
87. Plutarch, *Delside*; Dill, 577; Halliday, W., *Pagan Background of Early Christianity*, 240.
88. Tarn, 296; Dill, 582.
89. Cumont, 41, 93.
90. Breasted, J., *Ancient Times*, 660; Welgall, A. *The Pagamism in Our Christianity*, 129.
91. Dill, 610.
92. Ibid , 601, 623.
93. Cumont, 158.
94. Guignebert. C., *Christianity Past and Present*, 71.
95. Hatch, E, *Influenece of Greek Ideas upon the Christian Church*, 283.
96. Frazer, *Adomis*, 229, Halliday, 317.
97. Hatch, 147.
98. Philo, *De, vita contemplativa.*
99. Lucian, "Alexander the Oracle-Monger"
100. Philostatus, *Apollonius*, i, 14.
101. Ibid , 19; iv, 45.
102. I, 33-4.
103. Apollonius, epistles. xiii and xiv in Philostratus.
104. Philostratus, iv, 3.
105 Ibid, viii, 29-31.

CHAPTER XXV.

1. Appian *Roman History*, xii, 15.
2. Frank, IV, 197.
2a. In the State Museum, Rerlin; reproduced in Pope, A., *Persian Art*, IV, 134A.
3. Rawlinson, G., *Sixth Great Oriental Monarchy*, 423.
4. Plutarch, "Cressus."
5. Sachar, 105.
6. Josephus, *Antiquities*, xiv, 2.9; Strabo, xvi, 2.40.
7. Josephus, xiv. 11.
8. Id., *Wars*, i, 21.
9. *Antiquitics*, xv, 7; xv i 5.
10. Ibid., xv, 8
11. Ibid.; 11.
12. Ibid.; *Wars*, v, 5; Foakes-Jackson and Lake, *Beginnings of Christianity*, 1, 5-7; Tchürer, Div. I. Vol, 280.
13. *Antiquities*, xxi, 7
14. Our sole authority for this is Josephus ant. xv 8.1
15. Ibid , 10.
16. XVII, 5.
17. Klausner, J., *Jesus of Nozareth*, 145.
18. Moore, G., *Judaism*, 1.23.
19. Baron I, 131.
20. Ibid, 192-3.
21. *Antiquitics*, iv, 10.
22. *Agoinst Apion*, p. 456.
23. Finkelstein, L., *Akiba*, 33.
24. Sohürer, Div, II, Vol, I, 162; Moore, I, 82; Goguel, M., *Life*

of Josvs, 471 ; Graetz, II, 54-5.
25. Zeitlin, S., *The Jews*, 43; *id*; *The Pharisees and the Gospels*, 237 ; CAH IX 408.
26. Josephus, *Wars*, i 8. 14.
27. Philo *Quod, omnis homo*, 86 ; *Hypothetica*. 11.4 aud 12 ; Josephus, *Aniquities*, xviii. I.
28. Josephus. *Wars*, ii. 8.
29. Ibid, 9.
30. Graetz, II, 29; Ueberweg, F. *History of Philosophy*, I, 228.,
31. Klausner. 231 ; Graetz, II, 145.
32. Josephus, *Wars*, ii 8.
33. In Moore, I, 313.
34. Hastings. J., *Encyclopedia of Religi:n and Ethics*, s v. Hillel.
35. Philo. in Eusebius, *Praeparatio evangelica*, viii, 7.
36. Babylouiau Talmud, Abort, i, 42. Shab, 31a.
37. Abot. ii, 4.
38. Foakes-Jackson. 134; CAH, IX, 420.
39. Book of Wisdom ii
40. Ibid., v.
41. Isaiah, ix, 6.
42. Book of Wisdom, xviii. 13f.
43. Isaiah, liii.
44. Daniel, ii, 44; vii, 13f; Song of Solomon, xvii.
45. Sibyline Oracles, iii, 767f in Klausner. *From Jesus to Paul*, 159.
46. Isaiah, ii, 4; xi, 6 ; Book of Euoch, i-xxvi; Sib. Or., ii. 303f iu Klaunser. 150.
47. Book of Wisdom, iv; Enoch, cviii.
48. Book of Wisdom, ii-iii.
49. Finkelstein, 263.
50. Tacitus, *Histories*, v, 9.
51. Josephus, *Wars*, ii. 14.
52. Graetz, II, 239.
53. Josephns, l.c.
54. Ibid., v., 1f; Tacitus. v, 12.
55. Josephns, iii, 14.
56. Ibid., ii 18.
75. Tacitus, v. 13.
58. losephus, v, 11.
59. Dio Cassius, lxv, 4.
60. Josephus, x 3 : Tacitus, v, 13.
61. Strabo in Josephus, *Antiquities*, xiv, 7.
62. Philo, *Legatio ad Caium*, 36.
63. Baron, I, 132-3; Bevau, E. R. *Legacy of Istael*, 29.
64. Josephns, *Agrinst Apion*, ii 3.
65. Josephus, *Life of Flavius Josephus*, p. 540.
66. Finkelstein, 141.
67. Baron, I, 191.
68. Dio Cassius, lxix, 12f; Renan, *The Christian Church*. *106*.
69. Moore, *Judaism*, I, 98.
70. Flukelsteiu, 276.

CHAPTER XXVI

1. Reinach. S., *Short History of Christianity*, 22 ; Guignebert Jesus, 63.
2. Josephus, *Antiquities*, xviii. 3.
3. Scott, E., *First Age of Christianity*, 46 ; Schürer, I, 148. This conclusion applies also to the Slavouic version of Josephus ; cf. Gnigneberl, op. cit. 148.
4. Klausner, *Jesus*, 46; Goguel, 71.
5. Pliny the Younger, v, 8.
6. Tacitus, *Annals*, xv, 44.
7. Goguel, 94; Klausner, 60.
8. Suetonius, "Nero" 16.
9. Id., "Claudius" 25.
10. Acts of the Apostles, xviii, 2. Quotations from the New Testament are in most cases from the translation of E. J. Goodspeed.
11. In Goguel, 9, 184.
12. E.g., Galatlaus, i, 19; I corinthians. ix, 5.
13. I Cor., xi, 23-6.
14. Ibid, xv, 3; Gal, ii 20.
15. Eusebin I, *E.H.*, iii, 39.
16. E. g., vi, 30-45; viii, 1-13, 17-20.
17. Klausner. *From Jesus to Paul*, 260.

18. Schweitzer, A., *Quest of the Historical Jesus*, 335.
19. Irenacus, *Contra Haerese*, ii, 1-3.
20. Guignebert, *Jesus*, 30 ; CAH. XI, 260.
21. Guignebert. 467.
22. Foakes-Jackson and Lake, *Beginnings of Christianity*, I, 268.
23. *Enc. Brit.*, XIV, 537.
24. Ibid., XIV, 477.
25. Partially listed in *Enc. Brit*, XIII, 95.
26. Scott, *First, Age*, 217 ; *Enc. Brit.*, XIII, 98 ; Goguel, 150 ; CAH, XI, 261.
27. Matthew, ii, 1 ; Luke, i, 5.
27a. Luke. iii, 1. 23.
28. Josephus, *Wars*, ii, 8.
29. Tertullian, *Adv, Marcionem*, iv, 19.
30. *Enc. Brit.*, V, 642 ; III. 525.
31. Matt. xiii. 55 ; Mark, vi. 2.
32. Gnignebert, *Jesus*, 127 ; Klausner 28.
33. John, vii, 15 ; Mark, vi, 2.
34. Thorndike, 471.
35. *Enc. Brit.*, XIII, 26.
36. Guiguebert *Christianity* 58.
37. Josephus, *Antiqueties*, xiii, 5. On the authenticity of the passage cf. Foakes Jackson aud Lake I, 10.
38. Graetz, II, 145.
39. Matt.. iii., 11-12.
40. Ibid,, 23.
41. John, iv, 2.
42. Josephus, *Antiquitics* xviii, 5..
43. Mark, vi, 14-29.
44. Matt., xiv, 1-12.
45. Mark. i, 14 ; Matt., iv, 12.
46. Luke. iv, 14 ;
47. Isaiah, lxi, 1-2.
48. Luke, iv, 19.
49. Lüke, vi, 14.
50. Mark. ix, 48 ; Matt., xiii, 31.
51. Luke, xvi. 25.
52. Mark, xi, 12-14.
53. Matt, xii, 46 ; Luke, viii, 19.
54. Mark, I, 7 ; Matt., v, 40 Luke, vi, 29.
55. Guignebert. *Jesus*, 186.
56. Klausuer, 69.
57. Luke, vii, 36-59.
58. Mark, x, 16.
59. Cf. Robertson. J.M., *Christianity and Mythology*.
60. Matt., xiii, 57.
61. Mark, v, 35f.
62. Matt., xix, 28.
63. Luke, x. 1-4.
64. Guignebert, *Jesue*, 52, 253 ; Goguel, 282, 287.
65. E.g., Matt., xx, 1-16.
66. Matt., xxiv, 30.
67. John, xviii, 36.
68. Mark, iv, 11, 30 ; xii, 34.
69. Luke. xvii 20.
70. Matt., xix 29.
71. Cf. Schweitzer. 212; Guignebert, 341.
72. Mark, ..., 45.
73. Matt., x, 23
74. Matt , xvi, 28.
75. Mark, xiii, 30.
76. Mark, xiii, 32.
77. Matt., xxiv, 6-12.
78. E.g , Kaustky, K., *Ur prung des Christentums;* Kafthoff, A , *Rise of Christianity*.
79. Mark, x, 23 ; Matt , vi, 25 ; xix, 24 ; Luke, xvi, 13.
80. Matt., xix, 15.
81. Acts, ii, 44-5.
82. Matt., xxii, 21.
83 Matt., xxv, 14.
84. Luke, xix, 26.
85. Matt., xx, 15.
86. Matt., xxiv, 46; Luke, xvii, 7-10.
87. Matt., xi, 12.
88. Mark, i, 14-15 ; vi, 12 ; Matt., x.7.
89. Luke xviii. 29; xiv, 26 ; Matt., viii, 21f ; x, 34 ; xix, 12.
90. Leviticus, xix, 17-18, 34.
91. Exodus, xxiii, 4-5 .
92. Jeremiah, iii, 30.

93. Isaiah, i 6.
94. Ibid., i, 2.
95. Hosea, ii, I.
96. Matt, x, 5.
97. Acts, x-xi
98. John, iv, 22.
99. Matt., xv, 24f; Mark, vii, 27.
100. Matt. viii, 4.
101. Matt., xxiii, 1.
102. Matt., v. 17.
103. Luke, xvi, 17; Matt., v, 18.
104. Foakes-Jackson and Lake, I,316
105. Matt., v, 31-2.
106. Matt., v, 21-2.
107. Mark, ii, 26.
108. Luke xvi, 16; Matt., v, 18.
109. Matt., xxiii, 1-34; xxi, 31.
110. Cf. Mark, xxii, 32 - 8, and Klausner, jesus, 113.
111. Luke, xxiii, 31-3.
112. Acts, i, 6.
113. Mark, xii, 35-7.
114. Matt., xix 17.
115. Mark XIV 36.
116. Daniel, vii, 13.
117. Matt., xii, 8.
118. Matt., xi, 27; Luke. x, 22.
119. Matt., xvi, 16f.
120. Luke, xix, 37.
121. John, xii, 13.
122. Mark, xiv 49; Luke, xxi, I; xxi, 37.
123. John, xi. 50
124. Mark, x, 45; xiv, 24.
125. E.g., Guignebert, *Jesus*, 454; Brandes, G., *Did Jesus Exist?*, 104.
1 6. Cf. Goguel, 497.
127. Mark, xiv, 26 : Klausner, 326.
128. John, xiii, 33, XIV 1-2.
129. Mark, xiv, 43.
130. Mark, xiv, 61; Matt., xxvi, 63.
131. Philo, *Legatio*, I, 38.
132. Matt., xxvii, 11.
133. John, xxviii, 38.
134. Tacitus, *Anuals*, xv, 44.
135. Luke, xviii, 26.
136. Cicero, vin verrem 64.
137. Mark, xv, 32.
138. Luke, xxiii, 39-43.
139. John, xix 25; Mark, xv, 37.
140 Justinian, *Digest*, xlviii. 20. 6.
141. Luke, xxiii, 48.
142. Luke, xxiv, 13-32.
143. Matt., xxviii, 16-17.
144. John, xxi, 4.
145. Luke xxiv, 52

CHAPTER XXVII

1. Foakes - Jackson and Lake II, *passim*, and especially, 305 - 6; Scott, *First Age*, 110; CAH, XI, 257-8, Klausner, from jesus to Paul 215; Ramsay, W. M., *The Church in the Roman Empire*, 6-8; Renan, *Apostles*, P. v.
2. Shotwell, J., and Loomis, L., *The see of Peter*, 56-7.
3. I Peter, iv, 7.
4. I John, ii, 18.
5. Acts, ii, 46.
6. Ibid., xi, 8.
7. V, 20.
8. Mark, vi, 13.
9. Acts, iv, 32-6; ii, 44-5.
10. IV 4.
11. VI, 11.
12. VII, 51-3.
13. VIII, 2-3.
14. XI, 19.
15. 1 Cor., ix 5; Clement of Alexandria. *stromata*, vii, 11; Eusebius, *E.H*, iii, 30.
16. I Peter, i, I-iv, 8.
17. Shotwell and Loomis, 64-5.
18. Laetantius, *De Mortibus Persecutorum*, 2.
19. Eusebius, ii, 25.
20. Ibid., iii, I.
21. Renan *Antichrist*, 93.
22. Acts, xiii, 9; Coneybeare and Howsou, *Life, Times, and Travels of St. Paul*, I, 46, 150
23. Guignebert, Chrisianity, 75-6;

Livingstone. R.W., The Legacy of Greece, 83, 54

24. Acts, xxi, 8.
25. Renan, *Jesus*. 167.
26. II Cor.,x. 1
27. Ibid., xii, 7.
28. Gal., v. 12.
29. II Cor, xi, 1.
30. Acts. ix, 1.
31. IX, 3-9.
32. IX, 18.
33. XV, 1.
34. XV,27-9.The account in Acts harmonizes sufficiently well. *pace* Renan and others, with Paul's report in Gal ii.
35. Gal. ii, 10.
36. Ibid., ii, iii
37. Acts. xvii, 18.
38. XVII, 22.
39. XVIII, 12.
40. II Cor., iii, 6.
41. Acts. xxi, 12-4.
42. XXVIII, 28.
43. Guignebert, *Christinity*, 65; Goguel, 105, CAH, XI, 257; Klausner, *Jesus*, 63.
44. Coloss., iii, 6.
45. II Cor., iii, 6.
46. I Cor., xv, 33.
47. Titus, i, 15.
48. I Timothy, vi, 10. The letters to Titus and Timothy, however,are of doubtful authenticity
49. I Cor, ix, 19; x, 33.
50. Romans, v. 12.
51. Frazer, Sir J., *The Scapegoat* 210, 413; Weigall, 70f.
52. Guignebert, *Christianity*, 88.
53. I Cor., xv, 51.
54. Ibid., i, 24.
55. Coloss., i, 15-17.
56. Rom., ix, 11, 18; xi, 5.
57. Hebrews, xi, 1. Probably not Paul's,
58. Gal. III 27.
59. I Cor., xii.
60. Ibid., ix, 5.
61. VII, 8.
62. Rom. xiii, 14.
63. Ibid., i, 26.
64. I Cor., vi. 15.
65. Ibid , vii, 20f.
66. Rom., xiii, 1.

66a. II Tim., iv, 9, 6.

67. Philippians, iii, 20., IV 6.
68. I Cor., vii, 29; cf. I Thessalonians, iv, 15.
69. II Thess., ii, 1-5.
70. Acts; xvii, 7.
71. Eusebius, *E.H.*, iii, 1
72. Revelation, xvii, 10.
73. Renan, *Antichrist*, 95; CAH, X. 726.
74. Duchesne, Mon. L., *Early History of the Christian Church*, I, 99.
75. Eusebius, iii, 25.
76. Ibid., iii, 33.
77. Rev., viii, 4; xiv, 1.
78. Ibid., vi, 2-8.
79. VII, 14.
80. XX, 15; xxi, 8.
81. XIX, 18.
82. XXI.
83. Proverbs, viii, 22-31.
84. John, i 5.
85. Justin, *Apology*, 166; Tertullian, *De Baptismo* 5; Halliday. 9.

CHAPTER XXXVIII

1. Duchesne, I, 38.
2. Tertullian, *Contra Marocionem*, v, 8.
3. Jerome, *Letters*, xciii.
4. Clement of Alexandrts, *Paedagogus*, iii, 11.
5. Paul. I Cor., xi, 3. XIV 34.
6. Lucian, *Peregrinusa Proteus*.
7. Tertullian, *Apologeticus*, xxxix, 11-12
8. Ibid., 5.
9. Renan, *Marc Aurèle* 600.
10. James., v, 1; ii, 5.
11. Ibid., i 10.

12. Renan, *St. Paul*, 402.
13. Klausner. *From Jesus to Paul*, 133-4.
14. Tertullian, *De jejuntis*, i, 17; Duchesne, II, 253. Renan *Christian Church*, 211; Robertson, *History of Freebought*, I, 244
15. Clement of Alex-*Paedag.*, iii, 11 Renan. *Marc Aurèle*, 520.
16. Tertullian, *Apol.* ix, 8.
17. Gibbon. I, 480.
18. Tertullian *De spectaculis*, I. 3.
19. Sumner., W. G. *War and Other Essays*, 54-5.
20. Tertullian, *Apol.*, xlvi, 10.
21. Friedländer III, 204; Tertullian, *De exhort castitatis*, 13; Lea. H. C., *Historical Sketch of* Sacerdotal *Celibacy*, 41; Robertson, *History of Freethougg*, 1, 244.
22. Pliny the Younger. x 97.
23. Galen in Hammerton. IV, 2179.
24. Tertullian, *De spect.*, 28.
25. Perhaps authropophagic, cf. Sunner *Folkways* 451.
26. Renan, *St. Paul*, 268.
27. Frazer, Sir J, *Spirits of the Corn and Wild* II, 92-8; Carpenter, Edw., *Pagan and Christian Creeds*. 65-7.
28. Acts, viii. 14-17; xix, 1-6.
29. *Catholic Encyclopedia*, 217-8.
30. Matt., xvi, 18; John, xx, 23.
31. Friedländer. II. 364.
32. Renan. *Marc Aurèle*, 449.
33. Tertullian *Apol*, xxxvii, 4.
34. Id., *Ad uxorem.* i, 5; Renan, *Marc.* 551. Glover, *Conflict of Religions*. 341.
35. CAH, XII 456.
36. Lake. K., *Apostolic Fathers*. I. 395.
37. Murray. Sir G., *Five Stages of Greek Religion*, 196.
38. Renan, *Marc* 292.
39. Duchesne. I. 196.
40. Friedländer III. 192.
41. CAH, XII, 459.
42. Origen. *Contra Celsum*. in Glover. 252; Carpenter. 220.
43. Plotinus. *Enneads*. xliii.
44. Porphyry. *Life of Plotinus*. 14.
45. Mac Kenna. Stephen. *Essence of Plotinus*. 11n.
46. Plotinus *Euneads*. iii. 4.
47. Ibid. vi 9.
48. V. I.
49. IV. 1; Inge. *Hhilosaphy* of *Plotinus* II 21-4. 92.
50. Plotinus. v. 1 iii. 7.
51. Ibid. v. 11.
52. Mac Kenna. Intord. xx.
53. In Lake. *Apostolic Fathers*, 1. 23.
54. Tertullian *Apol.* xxx, 4.
55. Ibid. xvii. 6.
56. Id., *De spect.*, 30.
57. Id. *De cultu feminarum*.
58. In Ueberweg. I. 303.
59 CAH. XII. 593.
60. Eusebius. vi. 2.
61. Gibbou. I. 467.
62. Jerome *Letters*. xxxiii
63. Shotwell. *Iniroduction*. 292.
64. Origen. *De principlis*. i. 15-16.. in Hatch. 76.
65. Origeu, op. cit., iv, 1, in Hatch 76.
66. Duchesne, I, 255f.
67. Inge, *Plotinus*, II, 19, 102.
68. In Watson,*Marcus Aurelius*,305.
69. Matt., xvi, 18.
70. Shotwell and Loomis, 64-5.
71. Ibid., 60-1, 84-6.
72. Lake. I, 121.
73. Duchesne 1, 215.
74. CAH, XII, 198, 600.
75. Cyprian's Letter in Inge *Plotinus*. I. 62.

CHAPTER XXXIX

1. Herodian. *History of Twenty Cases* II. 83.
2. Dio Casius. lxxiv, 5.
3. Herodian. II, 100, 103; III, 155.
4. *Historia Augusta*. "Septimius" Severus, xviii. 11.

5. Herodian, III. 189.
6. Lot, F. *End of the Ancient World* 10.
7. Dio, lxxxix, 7.
8. Ibid., lxxviii, 16.
9. Herodian,IV,210; Dio lxxviii, 22.
10. Dio, lxxix, 23.
11. *Historia Augusta* "Elagabalus," 19-32. Dio, lxxx, 13; Herodian, IV, 253.
12. Dio, lxxix, 14; Gibbon, I. 141.
13. *Historia Augusta* "Severus Alexander" 30, 39.
14. Herodian, VI, 5.
15. *Hist. Aug* ,"Severus Alexander"20
16. Ibid., 29.
17. Ibid , 33.
18. Herodian, VI. 8.
19. In Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Roman Empire*, 399.
20. Gibbon, I, 294.
21. Maine, *Ancient Law*, 177.
22. West, L., "Economic Collapse of the Roman Empire," in *Classical Journal* 1932 p. 106.
23. Abbott, *Common People*, 174.
24. Rostovtzeff, op. cit., 424, 442-3
25. Ibid., 305.
26. Frank, *Economic History*. 489,
72. Ferrero. *Ruin of Ancient Civilization*, 58; Rostovtzeff. *History, of the Ancient World*. II 317.
28. Frank, *Economic Survey*. IV, 220.
29. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 419.
30. Collingwood and Myres. 206.
31. Health, II, 448.
32. Plato, *Laws* 819.
33. Ball, W. W., *Short History of Mathematics*, 96.
34. Justinan, *Digest*, i 1.4.
35. *Hist. Aug.*,"SeverusAlexander,51
36, Roberts, W. R., introd. to "*Longinus*" *on the Sublime*, Loeb Library.
37. Heliodorus, *Greek Romances*, I.
38. Ibid., 289.
39. In *Catullus,Tibullus*, etc., p. 343
40. In Burckhardt. J., *Dell Zeit Constantantins*, 54.
41. CAH, XII, 273; Frank *Economic Survey* III, 683.
42. Ferrero, *Ancient Rome and Modren America*. 88.
43. Toutain. 326.
44. West, l. c. 102.
45. Rostovtzeff,*Ancient World*,II.329.
46. Toutain, 326. CAH XII, 271 : *Cambridge Medieval History* 1,52
47. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 474.
48. Commingham, W. C., *Western Civilization in its Economic Aspects* I. 191-2.
49. Paul-Louis, 283-5.
50 Translation based on that of Elsa Glaser in Frank *Econmic Survey* V, 312.
51. Ibid., The prices are calculated on the valuation of gold at S35 per oz. in the United States of 1944.
52. Frank *Sarvey* III. 612.
53. Lactantius. *De Mortibus Persecutorum*. vii.
54. Ibid vii, 3.
55. Charlesworth, 98.
56. West, 105. Ferrero, *Ruin of Ancient Civilzation* 106.
57. Cunningham. I, 188.
58. Frank, *Survey* II, 245. IV, 241.
59. Reid,*Municipalities*;492; Arnold 265.
60. Heitland, 382.
61. Daivis. W. S., 233.
62. Frank, *Economic History*. 404. Rostovtzeff. *Roman Empire*. 409.
63. Gibbon. I. 377.

CHAPTER XXX

1. Renan, *Marc*, 592.
2. Tertullian *Apol*.. xl, 1.
3. Minucius Felix, *Octavius*, ix, 5 in Tertullian, *Apol*.
4. Guignebert. *Christianity*, 164,
5. I Cor. vi 1; Renan. *Marc*, 597.

6. Origen *Contra Celsum*, viii, 69, in Haliday, 27.
7. Tertullian, *Apol.*, xv, 1-7; Duchesne, I, 34.
8. Friedländer, III, 186.
9. Tertullian, *Apol*, iv, 1.
10. Ramsay, 253; CAH, X, 503.
11. Duchesne, I, 82.
12. Bury, J., *History of Freedom of Thought*, 42
13. Tertullian, *Apol.*, v, 4, Eusebius iii, 17.
14. Pliny the Younger, 96-7.
15. Recript of Hadrian in Eusebius, iv, 9. For a defense of its authenticity cf. Ramsay, 320.
16. From an account said to have been sent to the Christian churches by the elders of the church at Smyrna, in Lake, *Apostolic Fathers*, II, 321.
17. Renan, *Marc*, 331.
18. Tertullian, *Apol.*, xlv, 14.
19. *Memoirs of St. Perpetua*, in Davis and West, *Readings in Ancient History*, 287,
20. Rostovtzeff, *Ancient World* II,349.
21. Duchesne I, 267,
22. Lactantius, *De Mortibus Percutorum*, x.
23. Eusebius, viii, 1f.
24. Gibbon, II, 57.
25. Eusebins, viii, 17.
26. Tertullian, *Apol.*, 1, 13.
27. Ambrose in *Enc. Brit*, VI, 297.
28. Eusebius, *Life of Constantine* i,28
29. Eusebius, *E.H.*, viii, 2.
30. Id., *Life of Constine*, i, 28.
31. Lactantius, *De Mortibus*, xlv, 5.
32. *Cambridge Medievnl History*, 1,4.
33. For the detailed evidence cf. Burckhardt, 252f.
34. *Hist Aug.*, "Elagabalus," xxxiv, 4.
35. Lot, 29.
36. Flick, A. C., *Rise of the Medieval Church*, 123-4.
37. Duruy, V., *History of the Roman People* VII, 510.
38. Kalthoff, 172; Lot, 98.
39. Eusebius, *Life*, ii, 36.
40. Ibid., iii, 62f.
41. Duchesne, I, 290.
42. Eusebius, *E.H.*, viii, 1.
43. Duchesne, II, 99.
44. Eusebius, *Historical View of the Council of Nice*, 6.
45. Ibid.
46. Eusebius *Life*, ii, 69, 70.
47. Eusebius, *Nice*, 6.
48. Ibid., 15.
49. *CambridgeMedievalHistory*, i,121
50. Socrates, *Ecclesiastical History*, i,8
51. Duchesne, II, 125.
52. Ferrero, *Ruin*, 170.
53. Gatteshi 24, Reimach, *Apollo*, 89.
54. Gibbon, VI, 553.
55. Lactantius, *Divinae Institions*, v, 19.
56. Eusebius, *Life*. i, 1.
57. *Cambridge Medieval History*, I,15.

EPILOGUE

1. Reid. J. S., in *Cambridge Medieval History*, I, 54.
2. Cyprian; *Ad Demetrinm*, 3, in Inge, *Plotuns*, I, 25.
3. Cf. West, op. cit., 103.
4. Frank, *Survey*, III, 575.
5. In Eusebius, *E.H.*, vii, 21.
6. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 424.
7. Frank, *Survey*, III, 74.
8. Gibbon, I, 274.
9. Davis, *Influence of Wealth*, 214.
10. Gibbon, 274.
11. Id, chap. xvi, etc.
12. Renan, *Marc*, 589; Ferrero *Ruin* 7, 74; White, E.L., *Why Rome Fell, passim*.
13. Montesquieu, *Grandeur et décadence des Romains*, 36.
14. *Cambridge Medieval History*, I, 10
15. Abbott, 201.
16. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 445.

فهرس عام

بالأحداث التى أرخ لها فى الكتاب

مسلسلة حسب السنين

السنون قبل الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
٣٠٠٠٠	بدء الحضارة (أيام الرجل الأورنياسى)	٤٤
١٢٠٠٠	إنتقال فرنسا من العصر الحجرى القديم إلى العصر الحجرى الحديث (تقريباً)	٤٤
٢٠٠٠	إنشاء صناعة البرنز (تقريباً)	٤٠
٢٠٠٠	انتقال فرنسا إلى عصر البرنز (تقريبا)	٤٤
١٢٠٠	عبور فرع من قبائل الكلت البحر من غالة واستقراره فى إنجلترا (تقريبا)	٥٤
١٠٠٠	شروع الفينيقيين فى البحث عن ثروة إسبانيا المعدنية (تقريباً)	٤٠
٩٠٠	الفينيقيون يؤسسون فى مدينة (أويا) طرابلس قبل تمام العام ...	٣٣
٩٠٠	تسرب الجنس الألپى من ألمانيا إلى فرنسا وبريطانيا وإيرلندة	٤٤
٨٠٠	الأستيلاء على فادس ومالقة (تقريبا)	٤٠
٧٧٦	بدء قيام الألعاب الأولمبية	٧٥
٥٥٠	استيراد فن (لاتين) La Téne فى صناعة الحديد	٤٥
٥٢١	دارا الأول فى نقش بهستوم	٥٦
٥٠٠	استقرار اليونان فى الساحل الجنوبى الشرقى لأسبانيا (تقريبا)	٤٠
٤٠٠	الكلت يمتلكون معظم أوربا الوسطى وغالة	٤٧
٣٩٤	نهاية قيام الألعاب الأولمبية	٧٥
٣٩٠	الكلت يندفعون جنوبا نحو رومة	٤٧
٣٥٠	عبور پيثياس (المرتاد الماسليونى) المحيط الأطلنطى	٥٤
٣٠٢	مثرداتس يقيم مملكة تشمل كپدوكيا وپنتس	١٣٥
٢٨٦	اتخاذ مديولانم (ميلان) عاصمة الإمبراطورية الغربية بدل رومة	٩
٢٧٨	الكلت ينهبون دلفى ويستولون على فريجيا	٤٧
٢٤٨	خروج أرساسيس الزعيم السكوزى على حكم السلوقيين	١٥٧
٢٠٩	القرطاجنيون يدمرون مدينة جنوى	٨
٢٠٠	صناع الفخار والحديد ينتزعون أسواق ألمانيا والغرب من إيطاليا	٤٩
٢٠٠	نشأة المجلس الأعلى الإسرائيلى	١٧٢
١٨٩	رومة تهزم أنتيخوس الثالث	١٥٧
١٧٠–٦٦	تأليف كتاب أخنوخ	١٨٠

السنون قبل الميلاد ثم بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
١٤٣ قم – ٧٠ م	مدة الدولة اليهودية الثانية	٢٦١
٥٣ قم – ٢١٧ م	حروب روما مع بارثيا	١٥٨
٥٠ قم	استرابون السرديسى يجمع ديوان شعر كله غزل فى الغلمان	١١٩
٥٠ قم	نشر سفر مزامير سليمان	١٨٠
٤٦ قم	٣٠٠ صاحب مصرف وبائع جملة فى روما	٣٤
٤٣ قم	بيع ثلاثين ألف يهودى فى أسواق الرقيق	١٦٣
٤٣ قم	ظهور الاضطرابات الشيوعية فى أثينة	٢٩١
٣٧ – قم	حكم هيرورد بن انتباتر	١٦٣
٣٠	تعيين هلل رئيساً للسنهدرين	١٧٧
٢٨	كتابة الترجمة السبعينية للتوراة	١٨١
٢٥	أغسطس إيليوس يبعث جالس ليضم مملكة مأرب والعرب	١١٦
٩ قم – ٤٠	حكم الملك ارتاس الرابع	١١٧
٩ قم – ٤٠	مملكة بصرى تبلغ ذرى مجدها	١١٧
٨ – ٧ قم	سترينس حاكم سوريا يحصى اليهود	٢١٢
٧ قم	استرابون يخرج كتابه العظيم (الجغرافية)	١٤٢
٦ قم	الحكم على ألكسندر وإستبولس ابنى هيرود بالإعدام	١٦٩
٤ قم	موت هيرود	١٦٩
٤ قم	جنود أركلوس يقتلون ٣٠٠٠ يهودى جاءوا إلى أورشليم للاحتفال بعيد الفصح	١٨٤
٤ قم – ٣٢٥	شباب المسيحية	١٩٧
٢ – ١	قدم مولد المسيح	٢١٢
٦ – ٧ م	إحصا عام فى بلاد اليهود	٢١٢
٦ – ١٢ م	كويرنيوس حاكم سوريا	٢١٢
١٠ م	وفاة هلل	١٧٨
٢٨ – ٢٩ م	يوحنا يعمد يسوع المسيح	٢١٢
٣٠	تشييد هيكل الشمس	١٢٤
٣٠ ؟	اتهام اصطفانوس الشماس بالتجديف	٢٤٣
٣٠ – ٩٥	حياة رسل المسيح	٢٢٥
٣١ ؟	بولس يتزعم الاضطهاد الأول للمسيحيين فى أورشليم	٢٥٢
٣٦	إلغاء الملكية فى بلاد اليهود وجعلها ولاية رومانية	١٨٥
٤٠	وفدان من اليونان واليهود يعرضان قضاياهما على كلجيولا	١٠٢
٤٠ – ٩٠	ديوسكريديز يكتب كتابه فى العقاقير	١١٠
٤٠ – ١٤٠	ديوكريستوم (ديوذو الفم الذهبى)	١٤٣

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
٧٠ م	تخريب الهيكل	١٧٤
٧٠ م	مليون ومائة وسبعة وتسعون ألف يهودى يهلكون فى الحصار	١٨٨
٧٠ م	تشتيت الآلاف من اليهود	١٩٠
٧٠ م	بقاء بث الدعوة المسيحية بين اليهود	٢٤٧
٧٣	مقاومة اليهود	١٨٨
٧٥	تاريخ حرب اليهود مؤلف ليوسفوس	١٩١
٧٠٨ — ٨٤ م	أجركولا حاكم بريطانيا	٥٥
٧٩	ثورة بركان فيزوف	١٦
٨٢	دومتيان ينفى ديوكريستوم من إيطاليا وبيثينيا	١٤٣
٨٥ — ٩٠	كتابة إنجيل متى	٢٠٨
٩٠ ؟—	يوحنا الرسول يكتب الإنجيل	٢٧٤
٩٣	أقدم إشارة غير مسيحية تثبت وجود المسيح	٢٠٤
٩٥	أنباء باتخاذ دومتيان إجراءات جديدة ضد اليهود	١٩٣
٩٦	البابا كلمنت يرسل رسالة إلى كنيسة كورنثة	٣١٦
٩١ — ٣٠٩	نمو الكنيسة	٢٧٧
٩٧	كلمنت يشير إلى رسائل بولس	٢٦٣
١٠٠	اقتسام التجار مكاسبهم مع الثالوث التدمرى	١٢٤
١٠٠	الحاخام غماليل الثانى يفرض النظام الصارم	١٩٢
١٠٠	كلمنت الإسكندرى وآراؤه حول مولد المسيح	٢١٢
١٠٠	دفن موتى المسيحيين فى سراديب	٢٨٥
١٠٠	وصول عدوى تحديد النسل إلى طبقة الزراع	٤٠٦
١٠٦	تراجان يضم المملكة الشمالية إلى إمبراطوريته	١١٧
١١٠	أقدم الإشارات إلى المسيح فى خطاب بلنى الأصغر	٢٠٥
١١٠	كتابة رسالة راعى هرماس	٢٨٢
١١٥ ، ١١٦	يهود قورينة يرفعون علم الثورة على رومة	١٩٤
١١٦ م	سورانس الأفسوسى ينشر رسالة فى أمراض النساء . وولادة الأطفال والعناية بهم	١١١
١١٧	إنشاء مدينة تمجاد	٣٤
١١٧	بسيليدس وأنظمة الفيض الربانى والأيونات المجسدة	٢٩٢
١١٧ — ١٨٧	إيليوس أرستيديز	١٣٢
١٢٢ — ١٢٧ م	هدريان يشيد سورا	٥٦
١٢٤ م	ميلاد لوسيوس أبوليوس	٣٦
١٢٧ م — ١٥١ م	كلوديوس بطليموس يرصد الأجرام السماوية	١٠٦

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
١٣٠	هدريان يعلن اعتزام بناء ضريح لجوبتر	١٩٤
١٣١	هدريان يصدر مرسوماً بتحريم الختان ويحرم تعليم الشريعة اليهوديه	١٩٤
١٣٢	آخر وقفة لليهود فى التاريخ القديم لاستعادة حريتهم	١٩٤
١٣٥	پپياس ينكر شخصية يوحنا الأكبر	٢٠٧
١٣٥	پپياس يعزو سفر الرؤيا إلى يوحنا اللاهوتى	٢٧١
١٣٥	جستن مارتن يعزو سفر الرؤيا إلى الرسول يوحنا	٢٧١
١٣٥	پپياس ينفرد بذكر الإشارة إلى إنجيل مسيحى	٢٠٧
١٤٠	مرسيون يصل إلى رومة لتخليص المسيحية من اليهودية	٢٩٢
١٤٥	سوتيونيوس يؤرخ أضطهاد نيرون للمسيحية	٢٠٥
١٤٦	مولد سبتميوس سڤيرس	٣٢٢
١٥١	تاريخ الإدشارة إلى إنجيل مسيحى	٢٠٧
١٥٦	منتانس يندد بتعلق المسيحيين المتزايد بهذا العالم	٢٩٣
١٥٦	پوليكارب أسقف أزمير يزور رومة	٣١٧
١٦٠	مولد كونتس سپتميوس ترتليانس	٣٠٦
١٦٠	لوشيان يصف المسيحية	٢٧٩
١٦٠	ڤلنتينس وأنظمة الفيض الربانى والأيونات المجسدة	٢٩٢
١٦٤ – ١٦٨م	جالينوس يمارس الجراحة	
١٦٥	پرچرينس يجمع محرقته بنفسه ويوقد النار فيها ويحترق فى لهيبها ..	٨١
١٦٥	لوشيان يلقى عصا التسيار ويقيم فى أثينة	٩١
١٦٥	مدوسة المجالدين فى برجموم برومة	١١١
١٦٦	إعدام جستين السامرى مع ستة بن أتباعه	٣٠١
١٦٩	ماركس أورليوس يستدعى جالينوس ليعنى بكودس الصغير	١١٢
١٧٢	أورليوس يسكن الأسرى الألمان فى داخل الإمبراطورية	٢٤٢
١٧٨	أورليوس يقاتل المركمانيين على ضفاف الدانواب	١٩٦
١٨٠	برونوبور يبدأ سلسلة من الكتب الجدلية الحماسية	٢٠٤
١٨٠	ظهور الرموز المسيحية ذات الشأن	٢٨٦
١٨٠	تاريخ هتامة لاينيه كشفها مراتورى	٣١٥
١٨٧	ايرينيوس يحصى عشرين شيعة مختلفة من المسيحية	٣١٤
١٨٧	ايرنيو يكتب عن بطرس وعهده بمنصب الأسقفية الينس	٣١٦
١٩٠	البابا فكتور يكرر طلب أنتسيتس ويصوغه فى صيغة الأمر ..	٣١٧
١٩٣	اجتماع مجلس الشيوخ واختيار برتناكس إمبراطورا بعد اغتيال كودس فى أول يوم من يناير	٣٢١

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
١٩٣	عثور طريبون على الإمبراطور جايانس يبكى فى قصره وأخـذه إلى حمام وقطع رأسه فى ٢ يونية	٣٢٢
١٩٣ — ٣٠٥	إنهيار الإمبراطورية	٣٢١
٢٠٠	تقنين الهلاكا (الأحاديث الشفوية بين العلماء)	١٩٣
٢٠٠	اتخاذ عادة وضع الأيادى فى الرسامة	٢٨٥
٢٠٠	ترتليان يذكر أن المسيحيين ملأوا العالم كله	٢٨٩
٢٠٠	بردسانس يصف الأيونات شعراً بلغة السريان الأدبية	٢٩٢
٢٠٠	ترتليان يؤيد إيرنيو فى عهد بطرس	٣١٦
٢٠٠	ترتليان يبشر بسقوط الدولة الرومانية فى كتابه (نهاية عهد)	٤٠٤
٢٠٢	القبض على والد أرجنيز أرمنتيوس بتهمة أنه مسيحى وإعدامه	٣٠٩
٢٠٢ — ٢١٨	زفرينس يخلف البابا فكتور	٣١٧
٢٠٣	أرجنيز أدمنتيوس يخلف كلمنت فى رياسة المدرسة الأفريقية وهو فى العشرين من عمره	٢٠٩
	مولد أفلوطينس فى نيقوبولس	٢٩٩
٢٠٣	استشهاد كثير من المسيحيين فى قرطاجنة	٢٧٦
٢٠٩	موت فلوجاسيس الرابع	١٦٠
٢١٠ ؟	ديوكاسيوس ككيانس يؤلف تاريخ رومة	٣٥١
٢١٢	فرض ضريبة ١٠ ٪ على التركات شاملة جميع الراشدين فى الإمبراطورية	٣٢٦
٢١٧	مكرنيس يبتاع الصلح من ارتياس	١٥٨
٢١٧	هزيمة كراسس فى كارى	٢١٧
٢١٨	إقامة كنيسة وبابوية بعد إعلان هپوليس للقساوسة أنه لا يصلح لمنصبه	٣٢٧
٢١٩	دخول ألجابالس رومة فى خريف العام	٣٢٨
٢٢٢	مجلس الشيوخ يبايع الإسكندر إمبراطوراً	٣٣٠
٢٢٥	فلستراتس يتحدث عن الإخصائيين فى فروع علم الطب فى مدينة الإسكندرية	١١٠
٢٢٧	أردشير يتغلب على ارتبانس	١٦٠
٢٢٨	مقتل اليبان أكبر القانونيين فى رومة	٢٤٨
٢٣٠	غزو أردشير بلاد النهرين وتهديده سوريا	٣٣٣
٢٣٥	نهاية انشقاق هپوليتس	٣١٨
٢٣٥	جنود مكسمينس يقتحمون خيمة الإسكندر ويقتلونه هو وأمه	٢٣٤
٢٤٢	مانى الطشقونى يتوج شابور ويعلن أنه المسيح المنتظر	٢٩٥
٢٤٤	مقتل جرديان الثالث بيد جنوده وهو يحارب الفرس	٢٣٦
٢٤٤	رحلة أفلوطينس إلى رومة وبقاؤه فيها إلى أن يموت	٣٠٠

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
٢٤٨	أرجن يكتب دفاعه المسمى ضد سلس	٣١٢
٢٤٩	فليب العربى يهزم ديسيوس ويقتله فى ڤيرونا	٣٣٦
٢٥٠	وصول اضطهاد ديسيوس للمسيحيين إلى قيصرية والقبض على أرجن	٣١٢
٢٥٠	سيرة ديوفانتس الاسكندرية (الديوانى اليونانى)	٣٤٦
٢٠٥ -	إعدام اسقفى رومة وطولوز	٣٧٧
٢٥٠	سپريان يرد على مااتهم به المسيحيون من أنهم أصل ماحاق بالإمبراطورية	٤٠٤
٢٥٠	سكان الإسكندرية ينقصون إلى نصف ما كانوا عليه	٤٠٦
٢٥١	مقتل فليب العربى وهزيمته أشنع الهزائم	٣٣٦
٢٥١	نهاية حدة الاضطهاد الدينى قبل عيد الفصح	٣٧٧
٢٥٢	سپريان أسقف قرطاجنة يهيب بجميع المسيحيين أن يقبلوا زعامة كرسى رومة الأسقفى	٣١٦
٢٥٣	الإمبراطور جالس ، قتله بيد جنوده	٣٣٧
٢٥٤ — ٢٥٧	البابا استيفن يقرر أنه لا ضرورة لتعميد من يعتنقون المسيحية من الطوائف غير المؤمنة	٣١٨
٢٥٥	القوط يغزون مقدونية ودلماشية	٣٣٧
٢٥٧	استيلاء القوط على مملكة بسپورس	٣٣٧
٢٥٨	استيلاء القوط على خلقدون وغيرها	٣٣٧
٢٥٩	الألمان يغيرون على إيطاليا	٣٣٧
٢٦٠	الفرس يهزمون ڤلديان عند الرها	٣٣٨
٢٦٠ — ٢٦٥	تفشى الوباء فى الإمبراطورية وهلاك ٥٠٠٠ كل يوم فى رومة لمدة أسابيع	٤٠٧
٢٦١	أوناثس يطرد الفرس من الجزيرة ويهزمهم فى طشقونة	٢٣٨
٢٦٣	القوط يسيرون بحراً بسواحل أيونيا وينهبون إفسوس ويحرقون هيكل أرتميس	٢٣٨
٢٦٦	اغتيال أوناثس واستيلاء زنوبيا على العرش	٢٣٨
٢٦٧	فرع قوطى يستولى على جزائر بحر إيجه	٣٣٩
٢٦٩	كلوديوس الثانى يهزم القوط عند نايسس	٣٤٠
٢٦٩	انقضاض جموع القوط على مقدونية	٣٤٠
٢٧٠	موت كلوديوس الثانى أثناء وباء كان يفتك بالقوط والرومان على السواء	٢٥٦
٢٧٢	مقتل لنجينس	٢٥٧
٢٧٤	أورليان يهزم تتريكس عند شالون	٢٥٧
٢٧٥	اغتيال الإمبراطور أورليان بيد جماعة من ضباطه	٢٥٨

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
٣١٥	إقامة قوس يشرف على طريق النصر	٣٩٨
٣١٦	دوناتس أسقف قرطاجنة يؤيد قرار التشهير بالدوناتية...	٣٩١
٣١٧	قسطنطين يمحو الصور الوثنية من النقود	٣٨٩
٣١٨	أريوس القس المصرى يتقدم إلى أسقفه بآراء غريبة عن طبيعة المسيح تدعو إلى مجمع نيقية	٣٩٢
٣٢٣	انفراد قسطنطين بالإمبراطورية بعد انتصاره	٣٨٦
٣٢٣	قسطنطين يجعل نقوش النقود محايدة لا هى مسيحية ولا هى وثنية ...	٣٨٩
٣٢٤	إعدام ليستنيوس بتهمة العودة إلى الدسائس	٣٨٦
٣٢٥	باخوميوس يجمع الرهبان فى دير عند طابين فى مصر	٣٩١
٣٢٥	نشأة الرهبية الجماعية	٣٩١
٣٢٥	عقد مجمع الأساقفة فى نيقية (مجمع نيقية)	٣٩٤
٣٢٥	يوسبيوس ينشر تاريخا كنسيا عاما	٤٠٠
٣٢٦	بناء روما الجديدة وسط خرائب بيزنطية	٣٩٧
٣٢٦	قتل كرسپس بأمر والده قسطنطين	٤٠٢
٣٣٠	قسطنطين يتخذ القسطنطينية عاصمة له	٣٩٧
٣٣٢	قانون بقاء الزارع حتى يؤدى المتأخر عليه من الديون أو العشور ...	٣٦٧
٣٣٥	قسطنطين يوصى بتقسيم الإمبراطورية بين أولاده وأولاد أخته ...	٤٠٢
٣٣٧	الاحتفال بمرور ثلاثين عاماً من حكم قسطنطين	٤٠٢
٣٥٥	الهون أو الشىأونج — يو يصلون إلى نهرى الفلجا وجيحون	٤١٣
٣٥٧ — ٣٥٨	الإمبراطور يوليان يقضى الشتاء فى لوتيريا	٥٢
٣٧٦	السماح للقوط بعبور الدانوب واستيطان موئيزيا	٤١٣
٣٧٨	القوط يهزمون جيشاً رومانيا عند (أدرنه) ويهددون القسطنطينية	٤١٣
٣٨٤	إيفانيوس يحصى ثمانين شيعة مختلفة	٣١٤
٣٩٠	جيروم مؤرخ فى القرن الرابع الميلادى	٢٤٦
٣٩٤	ثيودوس يمنع إقامة المباريات الأولمبية...	٧٥
٤٠٠	البابا أنستيسيوس يطعن فى آراء أرجن التجديفية	٣١٣
٤٠٠	ألريك يقود القوط الغربيين ويعبر بهم جبال الألب	٤١٣
٤١٠	القوط يستولون على روما وينهبونها	٤١٣
٤٢٩	جيسيرك يقود الوندال لفتح أسبانيا وأفريقية	٤١٣
٤٥١	أتلا يقود الهون ويهجم على غالة وإيطاليا ويجتاح لمبارديا رغم هزيمته عند شالون	٤١٣
٤٥٥	القوط يستولون على روما ثانية...	٤١٣
٤٧٢	أرستيز القائد البانونى يعين ابنه رميولوس أوغسطولس إمبراطوراً	٤١٣
٤٨٦	الجنود البرابرة المرتزقة يخلعون الأغسطس الصغير رميولوس... ...	٤١٤

٢ — فهرس الأعلام

(ب)

(ت)

(ح)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(م)

(و)

(ى)

فهرس الأماكن

(ت)

(ث)

(ج)

(ش)

(ك)

(ل)

(و)

(لا)

(ى)



ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة

محمد بدران

الجزء الأول من المجلد الرابع

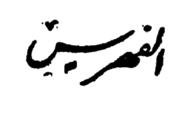




تونس



بيروت



الباب الرابع : أوربا تتشكل

الباب الخامس : چستنيان

الباب السادس : الحضارة البيزنطية

الموضوع

الباب السابع : الفرس

مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

باسم الله نبدأ الجزء الأول من المجلد الرابع من مجلدات قصة الحضارة السبعة ، وقد صدر منها بعد هذا مجلد خامس فى حضارة عصر النهضة . أما هذا المجلد فيروى قصة حضارة العصور الوسطى من قسطنطين إلى دانتى ، وهى فترة دامت أكثر من ألف عام ؛ وقد أطلق المؤلف على هذا العهد اسم عصر الإيمان لأنه كان عصر العقيدة الدينية القوية ، ولأن فيه أضحت المسيحية دين الدولة الرومانية ، وفيه ظهر الدين الإسلامى وانتشر فى آسية وأفريقية وأوربا ، وبلغت الحضارة الإسلامية فيه ذروة مجدها فى الشرق والغرب على السواء .

وهذا المجلد الرابع — وإن لم يشمل من الزمن إلا هذه الفترة القصيرة من تاريخ العالم — من أكبر مجلدات هذه القصة ؛ فهو فى الأصل الإنجليزى يبلغ نحو ألف ومائتى صفحة مقسمة إلى خمسة « كتب » سنصدرها باللغة العربية فى ستة أجزاء .

وهذه الفترة من أهم الفترات وأبقاها أثراً فى تاريخ العالم ، وحسبنا أن نعيد ما قلناه من قبل وهو أن فيها ثبتت دعائم المسيحية ، وظهر الإسلام ، وقام الصراع بين اليهودية والمسيحية . وفيها بدأت أوربا تتشكل ، وتحطمت الإمبراطورية الرومانية وظهرت الأمم الأوربية الحديثة ، ونشبت الحروب الصليبية ، وظهر الإسلام وعم نوره الآفاق ، ولاحت تباشير عصر النهضة .

وسيجد القارئ ذلك كله مفصلا فى هذا الجزء والأجزاء التالية إن شاء الله .

ونرى مرة أخرى أن نكرر الشكر للإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية وللجنه التأليف والترجمة والنشر وللقراء الكرام الذين كان إقبالهم على الأجزاء السابقة أكبر مشجع لنا على مواصلة الجهد فى ترجمة هذا المجلد الضخم ونرجو ألا يطول انتظارهم لبقية الأجزاء ؟



صورة رقم ١

تمثال لدانتي من البرنز في المتحف القومي بنابلي

مقدمة

إلى القارئ

إن الغرض الذى أبغيه من تأليف هذا الكتاب هو أن أعرض على القارئ قصة حضارة العصور الوسطى من عام ٣٢٥م إلى عام ١٣٠٠ كاملة بقدر ما تتسع لها صفحاته ، بعيدة عن الهوى بقدر ما تسمح به الطبيعة البشرية ، والطريقة التى اتبعتها فى تأليفه هى النظر إلى التاريخ كله على أنه وحدة شاملة يكمل بعضه بعضاً — أى تصوير جميع مظاهر حضارة من الحضارات أو عصر من العصور فى صورة جامعة شاملة ، وإيراد قصة تلك الحضارة وذلك العصر بهذه الطريقة عينها . ولقد كان اضطرارنا إلى الإحاطة بجميع النواحى الاقتصادية ، والسياسية ، والقانونية ، والحربية ، والأخلاقية ، والاجتماعية ، والدينية ، والتربوية ، والعلمية ، والطبية ، والفلسفية ، والأدبية ، والفنية لأربع حضارات متباينة — البيزنطية ، والإسلامية ، واليهودية ، والأوربية الغربية ، مما جعل وحدة المنهج والإيجاز من أشق الأمور . فأما من حيث الوحدة فإن التقاء الحضارات الأربع واصطراعها أيام الحروب الصليبية قد خلع على هذا المنهج شيئاً منها ، وأما الإيجاز فنى وسع القارئ المتعب ، الذى يرهقه طول الكتاب ، أن يجد شيئاً من العزاء إذا علم أن المخطوط فى صورته الأصلية كان يزيد على هذا النص الذى بين يديه بقدر نصف طوله(*) . ذلك أننا لم نبق من المخطوط الأصلى إلا ما كان فى رأينا لا غنى عنه لفهم تلك الفترة من تاريخ العالم على الوجه الصحيح ، أو لجعل القصة حية واضحة زاهية .

على أن فى وسع القارئ غير المتخصص أن يمر ببعض الفقرات العويصة

(*) إن الثغرات التى يجدها القارئ أحيانا فى ترقيم المراجع سببها ما حذفناه من العبارات فى اللحظة الأخيرة .

دون أن يقف عندها طويلا ، ولن يخل هذا بسياق القصة أو يشوه الصورة ، وهذا المجلد هو القسم الرابع من قصة الحضارة التي ستكون بعد تمامها مؤلفة من ستة أقسام(*) : القسم الأول هو « تراث الشرق » (١٩٣٥) ، وقد أحطنا فيه بتاريخ مصر والشرق الأدنى من أقدم العهود إلى أن فتحهما الإسكندر حوالى ٣٣٠ ق . م ، وبتاريخ الهند والصين واليابان إلى الوقت الحاضر ؛ والقسم الثانى وهو « حياة اليونان » (١٩٣٩) ، يروى تاريخ اليونان والشرق الأدنى ويصف حضارتهما إلى أن فتح الرومان بلاد اليونان فى عام ١٤٦ ق . م ؛ والقسم الثالث « قيصر والمسيح » (١٩٤٤) يروى تاريخى رومة والمسيحية من بدايتهما ، وتاريخ الشرق الأدنى من عام ١٤٦ ق . م ، إلى مجمع نيقية الذى عقد فى عام ٣٢٥ م . ويواصل هذا الكتاب دراسة حياة الرجل الأبيض حتى موت دانتى فى عام ١٣٢١ . ويشمل القسم الخامس « النهضة والإصلاح » تاريخ الفترة الواقعة بين عامى ١٣٢١ ، ١٦٤٨ ونعتزم إصداره فى عام ١٩٥٥ ؛ وأما الجزء السادس «عصر العقل ، الذى يصل بالقصة إلى الوقت الحاضر ، فسيصدر بمشيئة الله فى عام ١٩٦٠ وفى هذا الوقت يكون المؤلف قد قرب من الشيخوخة قرباً يضطره إلى أن يتخلى عن ميزة تطبيق الطريقة الجامعة التى سار عليها فى الأقسام الستة على الأمريكتين .

والخطة التى اتبعناها فى هذه الأقسام الستة هى أن يكون كل منها وحدة مستقلة بذاتها ، ولكن القراء الذين درسوا « قيصر والمسيح » سيجدون أن من السهل عليهم أكثر من غيرهم أن يمسكوا بخيوط القصة التى نرويها فى هذا الكتاب . وسيضطرنا تاريخ الحوادث وتسلسلها إلى أن نبدأه بأقل ما يعنى به الناس عادة من نواحى حضارة العصور الوسطى الرباعية وهو الحضارتان البيزنطية

(*) وقد عاد المؤلف فجعلها سبعة إذ خص الإصلاح بمجلد كامل وقد صدر المجلد الخامس فى عصر النهضة وحدة وشرعنا فعلا فى ترجمته . (المترجم)

والإسلامية ؛ وسيدهش القارئ المسيحي من كثرة الصحف التي اختصصنا بها الثقافة الإسلامية ، كما أن العالم الذي درس حضارة الإسلام سيأسف أشد الأسف للحيز الضيق الذي خصصنا به حضارة المسلمين الزاهرة في العصور الوسطى ولاضطرارنا إلى اختصار تاريخها هذا الاختصار الشديد . ولقد بذلنا جهدنا على الدوام في أن نكون بعيدين عن الهوى والتحيز ، وأن ننظر إلى كل دين وكل ثقافة كما ينظر إليهما أهلهما ؛ ولكنا مع هذا لا ندعي العصمة من الهوى ، ولا ننكر أنه قد بقي في قصتنا شيء من التحيز في اختيار مادة الكتاب وفي توزيع صحفه على موضوعاته المختلفة إن لم يكن في غير هاتين الناحيتين . ذلك أن العقل كالجسم سجين في جلده لا يستطيع الفكاك منه .

ولقد أعدنا كتابة المخطوط ثلاث مرات ، وكنا في كل مرة نكشف فيه عن أخطاء جديدة ، وما من شك في أنه لا يزال به كثير منها ، غير أننا قد ضحينا بتحسين الجزء بغية إكمال الكل ، وإنا لنرحب بكل ما يبلغ إلينا من هذه الأخطاء .

ولقد كان من الواجب على أن أهدي هذا الكتاب إلى زوجتي كما أهديت إليها الكتب السابقة ، فلقد ظلت سبعة وثلاثين عاماً تحبوني في صبر جميل بقدر من تسامحها ، وحمايتها ، وإرشادها ، وإلهامها لا تفي به هذه المجلدات جميعها . ولكنها هي التي أشارت علىّ بأن أهدي هذا الكتاب إلى ابنتنا ، وإلى زوجها ، وإلى حفيدنا .

في الثاني والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٤٩ — ول ديورانت

الكتاب الأول

الدولة البيزنطية فى أوج مجدها

٣٢٥ – ٥٦٥

ثبت مسلسل بالحوادث التاريخية

التواريخ المذكورة أمام أسماء الحكام والبابوات هى تواريخ حكمهم والتواريخ كلها بعد الميلاد

٢٢٦ أردشير نيوسس الأسرة الساسانية
٢٤١ — ٢٧٢ شابور الأول ملك فارس
٢٥١ — ٣٥٦ القديس أنطونيوس المصرى
٢٩٣ — ٣٧٣ أثاناسيوس
٣٠٠ — ٣٦٧ هيلارى البواتييرى
٣٠٩ — ٣٧٩ شابور الثانى ملك فارس
٣١٠ — ٤٠٠ أوسنيوس ، الشاعر
٣١١ — ٣٨١ ألفلاس رسول إلى القوط
٣٢٥ مجمع نيقية
٣٢٥ — ٤٠٣ أوربسيوس ، الطبيب
٣٢٥ — ٣٩١ أميانس مرسلانس ، المؤرخ
٣٢٩ — ٣٧٩ القديس بازل
٣٢٩ — ٣٨٩ جريجورى نزيانزين
٣٣١ مولد يوليان المرتد
٣٣٧ موت قسطنطين
٣٤٠ — ٣٩٨ القديس أمبروز
٣٤٠ — ٤١٠ القديس چيروم
٣٤٥ — ٤٠٧ القديس يوحنا كريستوم
٣٤٥ — ٤١٠ سماكس ، عضو مجلس الشيوخ
٣٤٨ — ٤١٠ پرودنتيوس ، الشاعر
٣٥٣ — ٣٦١ قنسطنطيوس ينفرد بالملك
٣٥٤ — ٤٣٠ القديس أوغسطين
٣٥٩ — ٤٠٨ استلكو الشريف
٣٦١ — ٣٦٣ يوليان إمبراطوراً

٣٦٣ — ٣٦٤ چوڤيان إمبراطوراً
٣٦٤ — ٣٦٧ ڤلنتنيان الأول ، إمبراطور الغرب
٣٦٤ — ٣٧٨ ڤالنز إمبراطور الشرق
٣٦٥ — ٤٠٨ كلوديان الشاعر
٣٦٦ — ٣٨٤ البابا دماسس الأول
٣٧٢ الهون يعبرون الفلجا
٣٧٥ — ٣٨٣ جراتيان إمبراطور الغرب
٣٧٨ معركة هدريا نوپل
٣٧٩ ثيون الإسكندرى ، العالم الرياضى
٣٧٩ — ٣٩٥ ثيودوسيوس الأول ، الإمبراطور
٣٨٢ — ٣٩٢ مسألة مذبح النصر
٣٨٣ — ٣٩٢ ڤلنتنيان الثانى إمبراطور الغرب
٣٨٦ — ٤٠٤ چيروم يترجم الكتاب المقدس
٣٨٧ تعميد أوغسطين
٣٨٩ — ٤٦١ القديس پتريك
٣٩٠ توبة ثيودوسيوس
٣٩٢ — ٣٩٤ يوچنيوس إمبراطور الغرب
٣٩٤ نهاية الألعاب الأولمبية
٣٩٤ — ٤٢٣ هونوريوس إمبراطور الغرب
٣٩٥ — ٤٠٨ أركاديوس إمبراطور الشرق

م	ق	
٣٩٥ – ٤٠١		ألريك الأول ملك القوط الغربيين
٣٩		اعترافات القديس أوغسطين
حوالى ٤٠٠		ساترناليا لمكروبيوس
٤٠٢		هزيمة ألريك عند پلنتيا
٤٠٣		رافنا تصبح عاصمة الغرب
٤٠٤		نهاية ألعاب المجالدين
٤٠٧		الفيالق الرومانية تغادر انجلترا
٤٠٨ – ٤٥٠		ثيودوسيوس الثانى إمبراطور الشرق
٤٠٩		بلاجيوس ، العالم الدينى
٤١٠		ألريك ينهب رومة
٤١٠ – ٤٨٥		پركلس ، العالم الرياضى
٤١٣		أورسيوس ، المؤرخ
٤١٣ – ٤٢٦		« مدينة الله » لأوغسطين
٤١٥		اغتيال هيپاشيا
٤٢٥		جامعة القسطنطينية
٤٢٥ – ٤٥٥		ڤلنتنيان الثالث إمبراطور الغرب
٤٨٢ – ٤٣١		نسطوريوس بطرق القسطنطينية
٤٢٩		الوندال يفتحون إفريقية
٤٣١		مجمع إفسوس
٤٣٢ – ٤٨٢		سيدنيوس أپلينارس
٤٣٢ – ٤٦١		القديس باترك فى أيرلندة
٤٣٣ – ٤٥٤		إيتيوس ، الشريف
٤٣٨		قانون ثيودوسيوس
٤٣٩		جيرسريك يستولى على قرطاجنة
٤٤٠ – ٤٦١		البابا ليو الأول
٤٤٠		موسى القورينى المؤرخ
٤٤٩		الإنجليز — السكسون يغزون بريطانيا
٤٥٠ – ٤٦٧		سارسيان إمبراطور الشرق
٤٥٠ – ٥٥٠		عصر البناء والفسيفساء العظيم فى رافنا
٤٥١		هزيمة أتلا فى ترويس
٤٥٢		ليو الأول يصد أتلا عن رومة
٤٥٣		موت أتلا
٤٥٤		ڤلنتنيان الثالث يذبح إيتيوس
٤٥٥		جيسريك ينهب رومة
٤٥٦		ريسيمر يحكم الغرب
٤٥٧ – ٤٦١		ماچريان إمبراطور الغرب
٤٦٦ – ٤٨٣		القوط الغربيون يفتحون أسپانيا
٤٧٤ – ٤٩١		زينون إمبراطور الشرق
٤٧٥ – ٤٧٦		روميولوس أوغسطولس
٤٧٥ – ٥٢٦		ثيودوريك ملك القوط الشرقيين
٤٧٥ – ٥٢٤		بوئثيوس ، الفيلسوف
٤٧٦		خاتمة الدولة الرومانية الغربية
٤٨٠ – ٥٧٣		كسيودوروس ، المؤرخ
٤٨١		كلوڤس والفرنجة يبدءون فتح غالة
٤٨٣ – ٥٣١		كاڤادة الأول ؛ الشيوعية المزادقية
٤٩٠ – ٥٧٠		پروكپيوس ، المؤرخ
٤٩١ – ٥١٨		أنستاسيوس الأول إمبراطور الشرق
٤٩٣ – ٥٢٦		ثيودوريك يحكم إيطاليا
٥٢٥ – ٦٠٥		الإسكندر الترالى ، الطبيب

م	ق	
٥٢٧ — ٥٦٥		جستنيان الأول الإمبراطور
٥٢٩		جستنيان يغلق مدارس أثينة ، القديس بندكت يؤسس منتى كسينو
٥٣٠ — ٦١٠		فرتناتس الشاعر
٥٣١ — ٥٧٩		كسرى الأول ملك فارس
٥٣٢ — ٥٣٧		كنيسة أيا صوفيا
٥٣٣		بلساريوس يستعيد إفريقية
٥٣٥ — ٥٥٣		« الحرب القوطية » في إيطاليا
٥٣٨ — ٥٩٤		جريجورى التورى المؤرخ
٥٤٦ — ٥٥٣		توتيلا يحكم إيطاليا
٥٥٢		دخول صناعة الحرير في أوربا
٥٧٠ — ٦٣٦		إزدور الأشبيلى ، صاحب دائرة المعارف
٥٧٧		انتصار الإنجليز — السكسون في ديورهام
٥٨٩ — ٦٢٨		كسرى الثانى ملك فارس
٦١٦		الفرس يفتحون مصر
٦٣٧ — ٦٤٢		العرب يفتحون فارس
٦٤١		نهاية الأسرة الساسانية

الباب الأول

توليان المرتد

٣٣٢ - ٦٣

الفصل الأول

تراث قسطنطين

لما أحس الإمبراطور قسطنطين بدنو أجله جمع حوله فى عام ٣٣٥ أبناءه وأبناء أخيه وقسم بينهم حكم الإمبراطورية الضخمة التى استولى عليها ، وكان عمله هذا مثلا من أمثلة الحمق الذى تدفع إليه معزة الأبناء . وقد خص ابنه الأكبر قسطنطين الثانى بالغرب - بريطانيا ، وغالة ، وأسبانيا ؛ وخص ابنه قنسطنطيوس Constantius بالشرق - بآسية الصغرى ، وسوريا ، ومصر ؛ وخص ابنه الأصغر قنسطانس Constans بشمالى أفريقية وإيطاليا ، وإليركم ، وتراقية بما فى ذلك العاصمتان الجديدة والقديمة - القسطنطينية ورومة - ، وأعطى ابنى أخ له أرمينية ومقدونية وبلاد اليونان . وكان الإمبراطور المسيحى الأول قد بذل حياته وحيوات كثيرة غير حياته ، فى إعادة الملكية ، وتوحيد العقيدة الدينية فى الدولة الرومانية ؛ فلما مات فى عام ٣٣٧ تعرض هذا كله للخطر الشديد ، ولم يكن أمامه إلا واحدة من اثنتين ليس فيهما حظ لمختار ، فإما أن تقسم حكومة البلاد وإما أن تتعرض لخطر الحرب الأهلية ؛ ذلك أن حكمه لم يدم حتى يخلع عليه القداسة طول الزمن ، ولم يكن يضمن والحالة هذه أن تنعم البلاد بالسلم إذا خلفه

على العرش وارث واحد ، ولهذا بدا له أن شر تقسيم البلاد بين عدة حكام أهون من شر الحرب الأهلية .

غير أن البلاد مع هذا لم تنج من الحرب الأهلية ، ويسر الاغتيال حل مشكلة التقسيم . ذلك أن الجيش رفض كل سلطان عدا سلطان أبناء قسطنطين ، واغتيل جميع الذكور من أقارب الإمبراطور السابق عدا جالس Gallus ويوليان Julian ابني أخيه ، فأما جالس فكان عليلا يرجى ألا تطول حياته كثيراً ، وأما يوليان فكان في سن الخامسة ، ولعل سحر الطفولة هو الذي رقق قلب قنسطنطيوس الذي تعزو إليه الروايات المتواترة ، ويعزو إليه أمنيوس ، هذه الجرائم[1] . وأوقد قنسطنطيوس مرة أخرى نار الحرب مع بلاد الفرس وهي حلقة من النزاع القديم بين الشرق والغرب ، ذلك النزاع الذي لم تخمد جذوته واقع الأمر من أيام مرثون ، وأجاز لإخوته أن يبيد بعضهم بعضاً بسلسلة من الاغتيالات الأخوية . ولما انفرد بالملك (٣٥٣) عاد إلى القسطنطينية ، وحكم الدولة التي وجدت من جديد حكماً بذل فيه كل ما اتصف به من عجز يصحبه الإخلاص ، واستقامة شديدة ، ولم يكن يهنأ له عيش لارتيابه في الناس وسوء ظنه بهم ، ولا يحبه أحد لقسوته ، ولا يرقى إلى مصاف العظماء لكبريائه وغروره .

وكانت المدينة التي سماها قسطنطين روما الجديدة Nova Roma ، والتي سميت باسمه في أثناء حياته ، قد أقامها على مضيق البسفور جماعة من المستعمرين اليونان حوالى عام ٦٥٧ ق . م ، وظلت ما يقرب من ألف عام تعرف باسم بيزنطية ، وسيظل لفظ بيزنطي عنواناً لحضارتها وفنها على مر الأيام ، ولم يكن ثمة موضع آخر في الأرض كلها أصلح منها لإقامة عاصمة لدولة ما . وقد أطلق عليها نابليون في تلزت Tilsit عام ١٨٠٧ اسم إمبراطورية العالم ، وأبى أن يسلمها إلى الروسيا التي كانت تتوق إلى السيطرة عليها مسوقة إلى هذا باتجاه ما يخترق بلادها من الأنهار . وتستطيع الدولة المسيطرة عليها أن تغلق

فى أى وقت تشاء باباً رئيسياً بين الشرق والغرب ، وفيها تجتمع تجارة ثلاث قارات ، وتفرغ غلات مائة من الدول ، وهنا يستطيع جيش أن يصمد ليصد الفرس المتحضرين ، والهون الهمج الشرقيين ، وصقالبة الشمال ، وبرابرة الغرب . وتحميها المياه الدافقة من جميع الجهات إلا جهة واحدة يستطاع حمايتها بالأسوار المنيعة ، وتستطيع الأساطيل الحربية والسفن التجارية أن تجد فى القرن الذهبى — وهو خليج صغير من خلجان البسفور — مرفأ أميناً يقيها هجمات السفن المعادية والأعاصير المدمرة . ولعل اليونان قد سموا هذا الخليج قرناً Keras لشكله الذى يشبه القرن ، أما وصفه بالذهبى فقد أضيف إليه فيما بعد ليوحى إلى سامعيه بما ينعم به هذا المرفأ من ثروة عظيمة يأتى إليه بها السمك والحبوب والتجارة . ورأى الإمبراطور المسيحى أنه واجد فى هذا المكان ، بين السكان الذين تدين كثرتهم بالمسيحية ، والذين طال عهدهم بالملكية والأبهة الشرقيتين ، من تأييد الشعب ما لا يستطيع أن يجده فى رومة ، وما يضن به عليه مجلس شيوخها المتغطرس وسكانها الوثنيون . وهنا عاشت الدولة الرومانية ألف عام بعد وفاته رغم هجمات جحافل البرابرة التى أغرقت رومة فيما بعد ، فقد هدد القوط ، والهون ، والوندال ، والأفار ، والفرس ، والعرب ، والبلغار ، والروس العاصمة الجديدة ، وعجزوا جميعاً عن الاستيلاء عليها ، ولم تسقط فى تلك القرون العشرة إلا مرة واحدة ، وكان سقوطها فى أيدى الصليبيين المسيحيين الذين كان حبهم للذهب يزيد قليلا على حبهم للدين . وظلت بعد ظهور الإسلام ثمانية قرون تصد جيوش المسلمين التى اكتسحت أمامها آسية وإفريقية ، وأسپانيا . وفيها ظلت الحضارة اليونانية قائمة لا ينضب معينها تحتفظ للعالم بشعلة أنقذته فيما بعد من الهمجية ؛ وعضت بالنواجذ على كنوزها القديمة ، حتى أسلمتها آخر الأمر إلى إيطاليا فى عصر النهضة ، ومنها إلى العالم الغربى .

وفى عام ٣٢٤ سار قسطنطين الأكبر على رأس جماعة من قواده الجند ،

والمهندسين ، والقساوسة ، وانتقل بهم من مرفأ بيزنطية، واجتاز ما حوله من التلال ، ليرسم حدود العاصمة التى كان يعتزم إنشاءها . ولما عجب بعضهم من اتساع رقعتها رد على هؤلاء بقوله : « سأواصل السير حتى يرى الله الذى لا تدركه الأبصار أن من الخير أن أقف[٢] » . وكانت هذه سنته التى جرى عليها طوال حكمه ، فلم يكن يتردد قط فى القيام بأى عمل ، أو النطق بأى لفظ ، يمكن أن تنال به خططه أو دولته ذلك التأييد القوى الذى ينبعث من عاطفة الشعب الدينية وولائه للكنيسة المسيحية .

ثم جاء « إطاعة لأمر الله »[٣] بآلاف الصناع والفنانين لإقامة أسوار المدينة ، وحصونها ، ودور المصالح الحكومية ، وقصورها ، ومنازل سكانها . وزين الميادين والشوارع بالفساقى ، والأبهاء ذات العمد ، وبالنقوش التى جاء بها من مختلف المدن فى دولته الواسعة بلا تمييز بينها ؛ وهداه حرصه على تسلية العامة وإيجاد متنفس ينصرف فيه شغبها واضطرابها ، فأنشأ مضماراً للسباق تستطيع فيه الجماهير أن تشبع غريزة اللعب والمقامرة على نطاق لم يُر له مثيل إلا فى رومة أيام انحلالها . وأعلنت رومة الجديدة عاصمة للدولة الشرقية فى اليوم الحادى عشر من شهر مايو سنة ٣٣٠ ، واتخذ ذلك اليوم بعدئذ عيداً يحتفل به فى كل عام بأعظم مظاهر الأبهة والفخامة . وكان ذلك إيذاناً بانتهاء عهد الوثنية من الوجهة الرسمية وبداية العصور الوسطى عصور انتصار الإيمان من الوجهة الرسمية أيضاً إذا صح ذلك التعبير . وبذلك انتصر الشرق فى معركته الروحية على الغرب الظافر بقوته المادية الجسمية ، وسيطر على الروح الغربية مدى ألف عام .

وما كان يمضى على اتخاذ القسطنطينية عاصمة للدولة حتى أصبحت أغنى مدائن العالم وأجملها وأعظمها حضارة ، وظلت كذلك مدى عشرة قرون كاملة . وبينا كان عدد سكانها فى عام ٣٣٧ لا يزيد على ٥٠٫٠٠٠ نسمة إذا هم يبلغون فى عام ٤٠٠ حوالى مائة ألف ، وفى عام ٥٠٠ ما يقرب من مليون[٤] . وثمة وثيقة

رسمية (يرجع تاريخها إلى حوالى عام ٤٥٠) تقول إنه كان بالمدينة وقت كتابة هذه الوثيقة خمسة قصور إمبراطورية وستة قصور لسيدات الحاشية ، وثلاثة لعظماء الدولة ، و٤٣٨٨ من الدور الفخمة ، و٣٢٢ شارعاً ، ٥٢ مدخلا ذا عمد ؛ هذا فضلا عن نحو ألف حانوت ، ومائة مكان للهو ، وكثير من الحمامات الفخمة ، والكنائس المزدانة بالنقوش الجميلة ، والميادين الواسعة العظيمة التي كانت متاحف حقة لفن العالم القديم(*) . وقد أنشئت على التل الثاني من التلول التي كانت تعلو بالمدينة فوق ما يحيط بها من المياه سوق قسطنطين ، وهي ساحة رحبة إهليلجية الشكل يدخل الإنسان إليها من كلا جانبيها تحت قوس من أقواس النصر . وكان يحيط بالساحة مداخل ذات عمد ، وتماثيل ، وكان في ناحيتها الشمالية بناء فخم لمجلس الشيوخ ، وفي وسطها عمود من حجر السماق يعلو فوق الأرض ١٢٠ قدماً ، ويتوجه تمثال لأپلو ، ويقال إن هذا العمود من صنع فدياس نفسه(*) :

وكان يمتد من السوق العامة في اتجاه الغرب طريق وسط تقوم على جانبيه قصور وحوانيت ، وتظلله طائفة من العمد ، ويخترق المدينة إلى الأوغسطيوم Augusteum ، وهو ميدان واسع طوله ألف قدم وعرضه ثلثمائة ، وسمي بهذا الاسم نسبة إلى هلينا Helena أم قسطنطين بوصفها Augusta (العظيمة) . وعند الطرف الشمالي من هذا الميدان قامت في صورتها الأولى كنيسة أيا صوفيا Sophia — أي كنيسة الحكمة القدسية . وكان عند طرفه الشرقي قاعة ثانية لمجلس الشيوخ ؛ وعند طرفه الجنوبي شيد القصر الرئيسي للإمبراطور ، كما شيدت حمامات زيوكسپس Zeuxippus الضخمة التي كانت تحتوي على مئات من التماثيل المنحوتة من الرخام ، أو المصبوبة من البرنز . وعند الطرف الغربي للطريق الأوسط كان يقوم بناء ضخم مكون من عقود — يعرف باسم الميليون milion

(*) وقد اسود لونه بتأثير الزمن والحرائق ، وأصبح الآن يعرف بالعمود المحروق .

أو شاخص الميل — ومنه تتشعب الطرق العظيمة الكثيرة (التى لا يزال بعضها باقياً للآن) ، والتى تربط عاصمة الدولة بمختلف ولاياتها . وهنا أيضاً فى غرب الأوغسطيوم أنشئ ميدان السباق العظيم ، وبينه وبين كنيسة أياصوفيا كان يمتد القصر الإمبراطورى أو القصر المقدس ، وهو بناء معقد من الرخام تحيط به مائة وخمسون فداناً من الحدائق والأبواب ذات العمد . وانتشرت فى انحاء مختلفة من المدينة وضواحيها بيوت الأشراف . وفى الشوارع الجانبية الضيقة الملتوية المزدحمة بالسكان كانت حوانيت التجار ومساكن العامة على اختلاف أنواعها . وكان الطريق الأوسط ينتهى عند طرفه الغربى « بالباب الذهبى » فى سور قسطنطين ، ويطل من هذا الباب على بحر مرمرة . وكانت القصور تقوم على الشواطئ الثلاثة وتضطرب ظلالها الفخمة فى أمواج البحار .

وكان جل أفراد الطبقة العليا من سكان المدينة من الرومان ، أما الكثرة الساحقة من غير هذه الطبقة فكانوا من اليونان . وكان هؤلاء وأولئك وغيرهم من السكان يسمون أنفسهم « يونانا » . وكانت اللاتينية لغة الدولة الرسمية ، ولكن اليونانية ظلت لغة الشعب حتى حلت قبيل مستهل القرن السابع محل اللاتينية فى المصالح الحكومية نفسها . وكانت تلى طبقة كبار الموظفين وأعضاء مجلس الشيوخ طبقة من الأشراف قوامها ملاك الأراضى الذين يقيمون فى المدينة تارة وفى ضياعهم فى الريف تارة أخرى . وكانت هناك طبقة أخرى هى طبقة التجار تحتقرها الطبقات السالفة الذكر ولكنها تنافسها فى الثراء . وكان هؤلاء التجار يستبدلون ببضائع القسطنطينية والإقليم الذى من خلفها غلات بلاد العالم . ويلى طبقة التجار فى المدينة طبقة أخرى مطردة الزيادة من موظفى الحكومة ، ومن تحتهم أصحاب الحوانيت ورؤساء الصناع الذين يعملون فى مختلف الحرف ، وتليهم طبقة يعد أفرادها عمالا أحراراً من الوجهة الرسمة الشكلية ، لا حق لهم فى الانتخابات العامة ، جبلوا على الشغب والاضطراب ، أذلهم الجوع وخضعوا

عادة لرجال الشرطة ، يشترى هدوؤهم بالألعاب وسباق الخيل ، وبما يوزع عليهم فى كل يوم من الخبز أو الحبوب التى تبلغ ثمانين ألف مكيال ، ليظلوا هادئين مسالمين . وكانت أحط طبقات المجتمع فى القسطنطينية ، كما كانت أحطها فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، طبقة الأرقاء ، وكان عددهم وقتئذ أقل من عددهم فى رومة أيام قيصر ، وكانوا يلقون من المعاملة خيراً مما كانوا يلقونه فى أيامه بفضل شرائع قسطنطين وتأثير الكنيسة التى خففت عن كاهلهم كثيراً من الأعباء ، وأشعرت سادتهم الرحمة بهم والإشفاق عليهم .

وكان السكان الأحرار يخرجون من أعمالهم فى مواسم معينة ، ويجتمعون فى ميدان السباق ، فيَغَصُّ بهم على سعته . وكان فى هذا الميدان مدرج طوله خمسمائة وستون قدماً وعرضه ثلثمائة وثمانون ، وتتسع مقاعده لعدد من النظارة يتراوح بين ثلاثين ألفاً وسبعين(٧) ، يحميهم عن المجتلد خندق ذو شكل إهليلجى ؛ وكان فى وسعهم خلال الفترات التى بين الألعاب أن يتنزهوا فى طريق ظليل ذى خطار من الرخام طوله ٢٧٦٦ قدماً(٨) . وكان يخترق مضمار السباق جدار منخفض يمتد فى وسطه فى أكبر طوليه من إحدى نهايتيه إلى الأخرى ويسمى الأسپينا spina أو عموده الفقرى ؛ وقد صفت التماثيل على جانبيه ، وقامت فى وسطه مسلة من مسلات الملك تحتمس الثالث جيء بها من مصر . وكان فى طرفه الجنوبى عمود مكون من ثلاث جهات من البرنز ملتوية بعضها على بعض . أقيم فى بادئ الأمر فى دلفى تخليداً لذكرى معركة پلاتيه plataea (٤٧٩ ق . م) ؛ ولا تزال المسلة والعمود قائمين حتى الآن . وقد ازدانت الكاثزما Kathisma أى مقصورة الإمبراطور فى القرن الخامس بتماثيل لأربعة جياد من البرنز المذهب من عمل ليسيوس فى الزمن القديم . وفى هذا المضمار كان يحتفل بالأعياد القومية العظيمة ، فتسير فيه المواكب ، وتقام المباريات الرياضية ، والألعاب البهلوانية ، وتقتتل الحيوانات وتصاد ، وتعرض الوحوش والطيور الأجنبية الغريبة . وبفضل التقاليد

اليونانية والعاطفة المسيحية كانت أسباب التسلية واللهو فى القسطنطينية أقل قسوة من نظائرها فى رومة ، وشاهد ذلك أننا لا نسمع فى العاصمة الجديدة عن قتال المجالدين ؛ ومع هذا فإن أشواط سباق الجياد والعربات البالغة أربعة وعشرين شوطاً ، وهى الجزء الأهم من منهاج الاحتفالات ، كانت تثير فى نفوس الجماهير ما تثيره حفلات الأعياد الرومانية فى نفوس الرومان من حماسة بالغة . وكان ركاب الخيل والعربات المحترفون يقسمون إلى فئات زرق ، أو خضر ، أو حمر ، أو بيض حسب من يستخدمونهم من أصحاب الخيل والعربات ، وحسب ما يرتدون من ثياب ؛ وعلى هذا النحو أيضاً ينقسم النظارة ، بل وينقسم سكان المدينة على بكرة أبيهم . وكان الحزبان الرئيسيان — الزرق والخضر — يقتتلان بالخناجر فى المضمار وبالخناجر أحياناً فى شوارع المدينة : ولم يكن فى وسع السكان أن يعبروا عن مشاعرهم إلا فى أثناء هذه الألعاب والمباريات ، ففيها كانوا يطالبون بحقهم فى أن ينالوا رعاية الحكام ، أو فيما يريدونه من ضروب الإصلاح ، أو فى الشكوى من ظلم الحكام ، وكانوا فى بعض الأحيان يعتبون على الإمبراطور نفسه وهو جالس فى مقعده الأمين الرفيع الذى كان يتصل بقصره بمخرج يقوم عليه حراس مدججون بالسلاح .

أما فيما عدا هذا فقد كانت جمهرة السكان لا حول لها ولا طول من الناحية السياسية . ذلك أن دستور قسطنطين ، الذى لم يكن فى واقع الأمر إلا استمراراً لدستور دقلديانوس ، كان دستور دولة ملكية مطلقة سافرة : وقد كان فى وسع مجلسى الشيوخ فى القسطنطينية وفى رومة أن يناقشا المسائل المعروضة عليهما ، وأن يشرعا ، ويفصلا فى بعض القضايا ، ولكن هذا كله كان يخضع لحق الرفض المخول للإمبراطور . وقد استحوذ على حقوقهما التشريعية مجلس الحاكم الاستشارى المعروف باسم المجلس التشريعى الأعلى المقدس : يضاف إلى هذا أنه كان من حق الإمبراطور أن يسن القوانين بمراسيم يصدرها بنفسه ، كما أن إرادته كانت هى

القانون الأعلى . وكان الأباطرة يرون أن الدمقراطية قد أخفقت فى تحقيق أغراضها ، وأنها قد قضت عليها الإمبراطورية التى ساعدت هى على إقامتها . نعم إنه قد يكون فى وسعها أن تحكم مدينة ، ولكنها عجزت عن حكم مائة ولاية مختلفة الأوضاع ، ولقد أسرفت فى الحرية حتى جعلتها إباحية ، ثم أسرفت فى الإباحية حتى أصبحت فوضى ، وحتى هددت حروبها الأهلية وحروب الطبقات الحياة الاقتصادية والسياسية لعالم البحر المتوسط ، وانتهى دقلديانوس وقسطنطين إلى أن النظام لا يمكن أن يعود إلا بقصر المناصب العليا على الأشراف ما بين كنت Conites ودوق Duces ، لا يختارون على أساس مولدهم ، بل يعينهم الإمبراطور الذى يتحمل تبعة الحكم كاملة ، ويستمتع بالسلطه كاملة ، والذى تحيط به هالة رهيبة من المهابة ، والترفع ، والعزلة عن الشعب ، والأبهة الشرقية ، وما تخلعه عليه الكنيسة من مراسم التتويج ، والتقديس ، والتأييد . ولعل هذا النظام كان له ما يبرره من الظروف المحيطة بالدولة فى ذلك الوقت ، ولكنه لم يفرض على إرادة الحاكم قيوداً إلا مشورة أعوان يهمهم أن يرضوه ، وإلا خوفه من الموت المفاجئ . نعم إن هذا النظام قد أوجد أداة إدارية وقضائية قديرة إلى أقصى حدود القدرة ، وأطال حياة الإمبراطورية البيزنطية نحو ألف عام كاملة ، ولكنها اشترت هذه الحياة بالركود السياسى وبالجمود فى كل مناحى الحياة العامة ، وبمؤامرات الحاشية ، ودسائس الخصيان ، وحروب الوراثة ، وبعشرات الثورات التى شبت نارها فى القصر ، والتى رفعت إلى العرش أباطرة كفاة فى بعض الأحيان ، ولكنها قلما رفعت إليه أباطرة ذوى استقامة خلقية ؛ وما أكثر من رفعت إليه من المغامرين الذين لا ضمير لهم ، أو من العصابات الأجركية ، أو من الحمقى البلهاء .

الفصل الثانى

المسيحيون واليهود

فى القرن الرابع الميلادى كانت الشئون الكنسية ، فى عالم البحر المتوسط الذى تعتمد فيه الدولة اعتماداً كبيراً على الدين ، قلقة مضطربة إلى حد شعرت الحكومة معه أن لا بد لها من أن تتدخل فى أسرار الدين وخفاياه : ذلك أن مجمع نيقية الذى عقد فى عام ٣٢٥ لم يضع حداً للنقاش الحاد الذى احتدم أواره بين أثناسيوس وأريوس ، بل ظل كثير من الأساقفة — كانوا هم الكثرة الغالبة فى الشرق[٩] — يناصرون أريوس سراً أو جهراً ؛ أى أنهم كانوا يرون أن المسيح ابن الله ، ولكنه لا يشترك مع الأب فى مادته ولا فى خلوده . ولم يستنكف قسطنطين نفسه ، بعد أن قبل قرار المجمع ، وطرد أريوس من البلاد ، أن يدعوه إلى اجتماع شخصى معه (٣٣١) ؛ فلما اجتمع به لم يجد فى أقواله ما يستطيع أن يعده خروجاً على الدين ، وأوصى بأن ترد إلى أريوس وأتباعه كنائسهم . واحتج أثناسيوس على ذلك ، فاجتمع فى صور مجلس من أساقفة الشرق وقرر خلعه من كرسى الإسكندرية الدينى (٣٣٥) ، وظل عامين طريداً فى غاله . أما أريوس فقد زار قسطنطين مرة أخرى ، وأعلن قبوله للعقيدة التى قررها مؤتمر نيقية بعد أن أضاف إليها تحفظات دقيقة لا ينتظر من إمبراطور أن يفهمها . وآمن قسطنطين بأقواله ، وأمر الإسكندر بطرق القسطنطينية أن يقبله فى العشاء الربانى . وفى هذا يقص سقراط المؤرخ الكنسى هذه القصة المحزنة المؤلمة :

« كان ذلك يوم السبت ، وكان أريوس يتوقع أن يجتمع بالمصلين فى اليوم الذى يليه ، ولكن القصاص الإلهى عاجله فأحبط عمله الإجرامى الجرىء . ذلك

أنه لما خرج من القصر الإمبراطورى . . . واقترب من العمود السماق المقام فى سوق قسطنطين ، تملكه الرعب ، وأصيب بإسهال شديد . . . خرجت فيه أمعاؤه من بطنه ، وأعقبه نزيف حاد ، ونزلت أمعاؤه الدقاق . ومما زاد الطين بلة أن طحاله وكبده قد انفصلا من حدة النزيف ومات لساعته[١٠] » .

ولما بلغ هذا التطهير العاجل مسامع قسطنطين بدأ يسائل نفسه : ألم يكن أريوس فى واقع الأمر كافراً زنديقاً ؟ لكنه لما مات فى السنة التالية تلقى مراسم التعميد على يد صديقه ومشيره يوسبيوس أسقف نقوميديا ، وهو من أتباع أريوس نفسه .

وعنى قنسطنطيوس بشئون الدين عناية أكثر جدية من عناية أبيه ، فشرع يبحث بنفسه أبوة المسيح ، وخرج من هذا البحث باعتناق مذهب أريوس ، وشعر بأن واجبه الأدبى يحتم عليه أن يعرض هذه الآراء على جميع العالم المسيحى . وطرد أثناسيوس من كرسى الإسكندرية مرة أخرى (٣٣٩) ، وكان قد عاد إليه بعد موت قسطنطين . ودعيت مجالس الكنائس تحت إشراف الإمبراطور الجديد ، وأيدت تشابه المسيح والأب دون اتحادهما فى المادة . وأخرج الكهنة الذين استمسكوا بعقائد مجمع نيقية من كنائسهم ، وكان الغوغاء فى بعض الأحيان هم الذين يخرجونهم منها ، وأتى على المسيحية نصف قرن من الزمان لاح فيه أنها ستؤمن بالتوحيد وتتخلى عن عقيدة ألوهية المسيح ؛ وكان أثناسيوس فى هذه الأيام العصيبة يقول عن نفسه إنه يقف وحده فى وجه العالم كله ، فقد كانت جميع قوى الدولة تقاومه ، بل إن أتباع كنيسة الإسكندرية خرجوا عليه واضطر فى خمس مرات مختلفة أن يفر من كرسيه معرضاً حياته فى معظمها لأشد الأخطار ، وأن يهيم على وجهه فى البلاد الأجنبية . وظل خمسين عاماً (٣٢٣ — ٣٧٣) صابراً يكافح ويدافع عن عقيدته كما حددها مجمع نيقية بزعامته ، مستعيناً على ذلك بمهارة الدبلوماسى وعنف الرجل البليغ . ولم تلن له قناة حتى بعد أن ضعف البابا

ليبريوس واستسلم . وإليه يرجع معظم الفضل فى استمساك الكنيسة بعقيدة التثليث .

وعرض أثناسيوس قضيته على البابا يوليوس الأول (٣٤٠)، فرده يوليوس إلى كرسيه ، ولكن مجمعاً من أساقفة الشرق عقد فى أنطاكية (٣٤١) ، وأنكر على البابا حقه فى هذا الحكم، ورشح جريجورى ، وهو رجل من أتباع أريوس، أسقفاً لكرسى الإسكندرية . لكن جريجورى لم يكد يصل إلى تلك المدينة حتى أثارت أحزابها المتنافسة فتنة صماء قتل فيها عدد كبير من الأهلين ، واضطر أثناسيوس على أثرها إلى التخلى عن كرسيه حقناً للدماء (٣٤٢)[١١] . وثارت فى القسطنطينية فتنة أخرى من نوعها ؛ كان سببها أن قنسطنطيوس أمر أن يستبدل ببولس ، الرجل الوطنى المستمسك بالدين القويم، مقدونيوس الأريوسى ، فهب جماعة من مؤيدى بولس يقاومون جند الإمبراطور، وقتل فى الاضطرابات التى أعقبت هذه المقاومة ثلاثة آلاف شخص، وأكبر الظن أن الذين قتلوا من المسيحيين بأيدى المسيحيين فى هذين العامين (٣٤٢ — ٣٤٣) يزيد عددهم على من قتلوا بسبب اضطهاد الوثنيين للمسيحيين فى تاريخ رومة كله. واختلف المسيحيون وقتئذ فى كل نقطة عدا نقطة واحدة ، هى أنه يجب إغلاق الهياكل الوثنية ، ومصادرة أملاكها ، واستخدام أسلحة الدولة التى كانت توجه من قبل لقتال المسيحية فى قتال هذه المعابد وقتال من يتعبدون فيها[٢١] . وكان قسطنطين قد قاوم القرابين والاحتفالات الوثنية وإن لم يكن قد حرمها تحريماً باتاً ؛ فلما جاء قنسطانس حرمها وأنذر من يعصى أمره بالموت ؛ ثم جاء قنسطنطيوس فأمر بإغلاق جميع الهياكل الوثنية فى الدولة، ومنع جميع الطقوس الوثنية، وأنذر من يعصى أمره بقتله ومصادرة أملاكه، كما فرض هاتين العقوبتين بعينهما على حكام الولايات الذين يهملون تنفيذ هذا الأمر[١٣]. ومع هذا كله فقد بقيت جزائر وثنية متفرقة فى بحر المسيحية الآخذ فى الاتساع ، فكان فى المدن القديمة — أثينة، وأنطاكية ؛ وأزمير ، والإسكندرية

وروما – وبخاصة بين الأشراف وفي المدارس طوائف كبيرة من الوثنيين متفرقين في أحيائها المختلفة . وظلت الألعاب تقام في أولمبيا إلى أيام ثيودوسيوس الأول (٣٧٩ – ٣٩٥) ، والطقوس الخفية يحتفل بها في إلوسيس ، حتى جاء ألريك فهدم هيكلها في عام ٣٩٦؛ ولم تنقطع مدارس أثينة عن إذاعة تعاليم أفلاطون ، وأرسطو ، وزينون ، وإن فسرتها تفسيرات تلطف من وثنيتهم . (أما تعاليم أبيقور فقد حرمت وأصبح اسم هذا الفيلسوف مرادفاً للكفر) : وظل قسطنطين وولده يؤديان ما كان مقرراً من رواتب لرؤساء المدارس الفلسفية وأساتذتها الذين يكونون ما يمكن أن نسميه ببعض التساهل جامعة أثينة ؛ كما ظل المحامون والخطباء يهرعون إلى تلك المدينة ليتعلموا فيها أساليب الخطابة وحيلها ؛ وكان السوفسطائيون الوثنيون – أو معلمو الحكمة – يعرضون بضاعتهم على كل من يستطيع شراءها : وكانت أثينة كلها مولعة ومعجبة ببروهيرسيوس Prohaeresius ، الذي جاءها شاباً فقيراً ، واشترك مع طالب آخر في فراشه وردائه ، وما زال يرتقي حتى شغل كرسي البلاغة الرسمي ، واحتفظ حتى سن السابعة والثمانين بوسامته ، وقوته ، وفصاحته ، احتفاظاً جعل تلميذه يونپيوس يرى أنه « إله لا يهرم ولا يموت »[١٤] :

ولكن حامل لواء السوفسطائيين في القرن الرابع هو ليبانيوس Libanius ؛ وكان مولده في أنطاكية عام ٣١٤ ، ولكنه انتزع نفسه من أمه المولعة به ، ووفد إلى أثينة للتعلم والدرس ، ولما عرض عليه في بلده أن يتزوج من وارثة غنية إذا بقي فيها قال إنه يرفض الزواج من إلهة إذا حال ذلك بينه وبين رؤية دخان أثينة[١٥] . ولم يكن يرى أن معلميه في هذه المدينة أنبياء ملهمون بل كان يراهم مجرد منبهين إياه للتأمل والتفكير ، ولهذا فقد علم هو نفسه وسط متاهة من الأساتذة والمدارس . وبعد أن ظل يحاضر وقتا ما في القسطنطينية ونقوميديا عاد إلى أنطاكية (٣٥٤) ، وأقام فيها مدرسة ظلت مدى أربعين عاما أشهر مدارس الإمبراطورية وأكثرها طلابا . وقد بلغ من الشهرة (كما يؤكد لنا هو نفسه) حداً جعل الناس يتغنون بالفقرات الأولى من تعاليمه[١٦] وكان من بين تلاميذه أميانس مرسلينس

Ammianus Marcellinus والقديس يوحنا كريسستوم St. John Chrysostom والقديس باسيلى St. Basil . وكان يستمتع برضاء الأمراء المسيحيين ، وإن كان يخطب ويكتب فى الدفاع عن الوثنية ، ويقرب القرابين فى الهياكل . ولما أضرب خبازو أنطاكية عن العمل اختاره الطرفان المتنازعان حكماً بينهما ؛ ولما ثارت أنطاكية على ثيودوسيوس الأول اختارته المدينة المعذبة ليدافع عن قضيتها أمام الإمبراطور(١٧) . وقد طالت حياته ما يقرب من جيل كامل بعد أن اغتيل صديقه يوليان ، وبعد أن انهارت دعائم النهضة الوثنية .

وتشكلت وثنية القرن الرابع بأشكال مختلفة : فكان منها المثراسية ، والأفلاطونية الجديدة ، والرواقية ، والكلبية ، وكان منها الطقوس المحلية التى تقام لآلهة المدن أو الريف ، ثم فقدت المثراسية مكانتها ، ولكن الأفلاطونية الجديدة ظلت ذات قوة وأثر فى الدين والفلسفة . وكان للعقائد التى كساها أفلوطين ظلا من الحقيقة — كالقول بوجود نفس ثلاثية تؤلف بين الحقائق كلها وتربطها برباط واحد ؛ وبالعقل أو الإله الوسيط الذى قام بعملية الخلق ، والروح وهى بوصفها الجزء القدسى ، والمادة وهى الجسم ومبعث الشر ، وبمناطق الوجود التى هبطت على درجاتها غير المنظورة النفس البشرية من الله إلى الإنسان ، والتى تستطيع أن ترقى عليها من الإنسان إلى الله — كان لهذه العقائد والأفكار الصوفية الخفية أثرها فى آراء الرسولين بولس ويوحنا وفى كثير ممن حذا حذوهما من المسيحيين ، وفى تشكيل كثير من العقائد المسيحية الخارجة على الدين القويم(١٨) . وقد ضم أيمبلقوس Iamblichus من أهل خلقيس Chalcis السورية المعجزات إلى الشعائر الخفية فى الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، فقال إن الرجل المتصوف لا يكتفى بإدراك الأشياء التى لا تدركها الحواس بل إنه — بفضل اتصاله بالله فى أثناء نشوته — قد أصبحت له مواهب ربانية من السحر والاطلاع على الغيب . ثم جمع مكسموس الصورى تلميذ أيمبلقوس بين دعوى المواهب الصوفية

والوثنية المؤمنة المخلصة الفصيحة التى انتصرت على يوليان وأخضعته لسلطانها ؟ وإلى القارئ فقرة من أقوال مكسموس يدافع فيها عن استخدام الأوثان فى العبادات الوثنية ويرد على استهزاء المسيحيين بها :

« الله الأب الذى صور كل ما هو كائن أقدم من الشمس ومن السماء ، وأعظم من الزمان ، ومن الخلود ومن مجرى الكينونة ، لا يستطيع أن يسميه مشترع أو أن ينطق به صوت ، أو أن تراه عين ، لكننا نحن لعجزنا عن إدراك جوهره نستعين بالأصوات ، والأسماء ، والصور ، وبالذهب المطروق ، والعاج ، والفضة ، وبالنبات ، والأنهار ، وبالسيول ، وقلل الجبال فى إشباع حنيننا إلى معرفته ؛ ونداري عجزنا بأن ننحت من طبيعته أسماء لكل ما هو جميل فى هذا العالم . . . فإذا ما تاق يونانى لأن يتذكر الله حين يبصر تحفة فنية من عمل فدياس أو تاقت نفس مصرى لهذه الذكرى فعبد الحيوان ، أو مجد غيرهما ذكراه بعبادة نهر أو نار ، فإن اختلافهم عنى لا يغضبنى ؛ وكل ما أطلبه إليهم أن يلاحظوا وأن يذكروا ، وأن يحبوا[١٩] .

وكانت فصاحة ليبانيوس ومكسموس من الأسباب التى جعلت يوليان يرتد من المسيحية إلى الوثنية ، ولما أن اعتلى تلميذهما عرش الإمبراطورية هرع مكسموس إلى القسطنطينية ، وأنشد ليبانيوس فى أنطاكية نشيد النصر والفرح : « هانحن أولاء قد عدنا حقاً إلى الحياة ، وهب على الأرض كلها نسيم السعادة لما أن حكم العالم إله حق فى صورة إنسان » [٢٠] .

الفصل الثالث

قيصر الجديد

ولد فلافيوس كلوديوس يوليانوس Flavius Claudius Julianus فى القصر الإمبراطورى فى القسطنطينية فى عام ٣٣٢ ، وكان ابن أخى قسطنطين . وقد قتل أبوه ، وأخوه الأكبر ، ومعظم أبناء عمه ، فى المذبحة التى حدثت أيام حكم أبناء قسطنطين . وأرسل هو إلى نقوميديا ليتلقى فيها العلم على الأسقف يوسبيوس ؛ ولقن من علوم اللاهوت المسيحية أكثر ما يطيقه عقله ، وظهرت عليه سمات تدل على أنه سيكون قديسا . ولما بلغ السابعة من عمره بدأ يدرس الآداب القديمة على مردونيوس Mardonius ، وسرى حب هومر وهزيود والتحمس لآدابهما من الخصى الهرم إلى تلميذه ، ودخل يوليان إلى عالم الأساطير اليونانية الشعرى الزاهر بدهشة وبهجة غظيمتين .

وفى عام ٣٤١ نفى يوليان وأخوه جالوس Gallus إلى كپدوكيا لأسباب لا نعلمها الآن ، وظلا ست سنين يكادان أن يكونا فيها سجينين فى حصن ماسلوم Macellum ولما أطلق سراحهما سمح ليوليان أن يعيش وقتاً ما فى القسطنطينية ولكن مرح الشباب ، وما امتاز به من إخلاص وذكاء حبباه إلى الشعب حباً أقلق بال الإمبراطور ؛ فأرسله مرة أخرى إلى نيقوميديا حيث أخذ يدرس الفلسفة . ولما أراد أن يستمع فيها إلى محاضرات ليبانيوس حرم عليه هذا ، ولكنه استطاع أن يحصل على مذكرات وافية لدروس هذا المعلم . وكان وقتئذ شابا فى السابعة عشرة من عمره ، بهى الطلعة ، جياش القلب بالعواطف ، متأهباً لأن يبهره سحر الفلسفة الخطر ، وبينا كانت الفلسفة ، وبينا كان التفكير الحر يأتيان إليه بكل ما فيهما من إغراء ، كانت المسيحية تعرض عليه بوصفها مجموعة من العقائد التعسفية

التى لا تقبل الجذل ، وكنيسة تمزقها الفضائح ، منقسمة على نفسها بسبب منازعات أريوس وأتباعه ، وبسبب تبادل اللعنات بين الشرق والغرب ، وتكفير كل منهما الآخر .

وفى عام ٣٥١ جعل جالوس قيصراً أى ولياً للعهد — وعهد إليه حكم أنطاكية ؛ وأحسن يوليان وقتاً ما بأنه آمن من ريبة الإمبراطور فأخذ يتنقل من نيقوميديا إلى برجموم ثم إلى إفسوس ، يدرس فيها الفلسفة على إدسيوس Edesius ، ومكسموس ، وكريسنثيوس Chrysanthius وقد أتم هؤلاء تحويله سراً إلى الدين الوثنى . وفى عام ٣٥٤ استدعى قسطنطين جالوس ويوليان إلى ميلان حيث كان يعقد محكمة للنظر فى أمرهما . ذلك أن جالوس تعدى حدود السلطة المخولة له ، وحكم الولايات الأسيوية حكما بلغ من استبداده وقسوته أن ارتاع له قسطنطين نفسه . وحوكم الرجل أمام الإمبراطور ، ووجهت إليه عدة تهم ، وأدين ، وصدر عليه الحكم بالإعدام ، ونفذ على الفور : وأما يوليان فقد ظل تحت الحراسة فى إيطاليا عدة أشهر ، حتى أفلح أخيراً فى أن يقنع الإمبراطور المرتاب أن السياسة لم تكن له على بال فى يوم من الأيام ، وأن اهتمامه كله موجه إلى الفلسفة ؛ واطمأن قنسطنطيوس إذ عرف أن غريمه ليس إلا وجلا فيلسوفاً ، فنفاه إلى أثينة (٣٥٥) . وإذ كان يوليان قبل هذا النفى يتوقع الإعدام ، فإنه لم يجد صعوبة فى الرضا بالنفى إلى بلد هو منبع العلم ، والدين ، والتفكير الوثنى ؛

وقضى فى تلك المدينة ستة أشهر ، كانت من أسعد أيام حياته ، يدرس الفلسفة فى الغياض التى استمعت إلى صوت أفلاطون فى الزمن القديم ، وعقد فيها أواصر الصداقة مع ثامسطيوس Themistius وغيره من الفلاسفة المخلدين والمنسيين ، الذين أعجبوا بشغفه بالعلم ، وكسب قلوب أهل المدينة برقة شمائله ، وتواضعه ، وجميل مسلكه . وكان يُشَبِّه هؤلاء الوثنيين المثقفين المهذبين الذين ورثوا ثقافة قرون عشرة بعلماء الدين الوقورين الذين كانوا يحيطون به فى نقوميديا

أو بأولئك الساسة والحكام الأتقياء الذين رأوا من الواجب عليهم أن يقتلوا أباه وإخوته وكثيرين غيرهم من خلق الله ؛ وخلص من هذا كله إلى أنه ليس ثمة وحوش أكثر تعطشاً للدماء من المسيحيين[٢١] . وكان إذا سمع أن معابد مشهورة قد دمرت ، وأن كهنة وثنيين قد حكم عليهم بالإعدام ، وأن أملاكهم قد وزعت على الخصيان وأشياع السلطان أجهش بالبكاء[٢٢] . وكان هذا فى أغلب الظن هو الوقت الذى قبل فيه أن يتعلم سراً وفى حذر شديد طقوس إليسيز الخفية وأسرارها ؛ وكانت المبادئ الأخلاقية الوثنية تتجاوز عما لجأ إليه فى ارتداده من مخادعة ورياء . هذا إلى أن أصدقاءه ومعلميه المطلعين على سره لم يكونوا يوافقون على أن يجهر بهذا الارتداد ، فقد كانوا يعرفون أنه إذا فعل سيتوجه قنسطنطيوس فى غير الوقت الملائم ، بتاج الشهداء . وكانوا هم يتطلعون إلى الوقت الذى يرث فيه صنيعتهم عرش الإمبراطورية ، ويعيد إليهم رواتبهم وآلهتهم . ولهذا قضى يوليان عشر سنين كاملة يؤدى جميع الشعائر والعبادات المسيحية الظاهرة ، بل لقد بلغ من أمره أن كان يقرأ الكتاب المقدس علناً فى الكنيسة[٢٣] .

وفى وسط هذا التخفى والخوف استدعى مرة أخرى إلى المثول بين يدى الإمبراطور فى ميلان ؛ وتردد أول الأمر فى الذهاب خشية العقاب ، لكن الإمبراطورة يوزيبيا أرسلت إليه تبلغه أنها دافعت عنه لدى الإمبراطور ، وأنه لن يصاب بمكروه ، وما كان أشد دهشته حين زوجه الإمبراطور من أخته هلينا Helena ، وخلع عليه لقب قيصر ، وعهد إليه حكم غالة (٣٥٥) . وارتدى الرجل الأعزب الحيى الذى قدم على الإمبراطور فى ثياب الفيلسوف الخشنة حلة القائد الرسمية على مضض ، وقام بواجبات الزوجية . وما من شك فى أنه قد ضايقه فوق هذا وحيره أن يعرف أن الألمان قد اغتنموا فرصة اشتعال نيران الحرب الأهلية التى كادت تقضى على ما للإمبراطورية فى الغرب من قوة حربية ، فغزوا الولايات الرومانية الممتدة على ضفاف الرين ، وشتتوا شمل جيش رومانى ، ونهبوا المستعمرة الرومانية

القديمة فى كولونى ، واستولوا على أربع وأربعين مدينة غيرها ، وفتحوا الألساس كلها ، وتقدموا مدى أربعين ميلا فى غالة . ولما أن واجه قنسطنطيوس هذه الأزمةالعصيبة ، طلب إلى الشاب الذى يرتاب فيه ويزدريه أن يبدل نفسه من فوره فيجعل منها نفس جندى محارب وإدارى حازم . وأعطى يوليان حرساً مؤلفاً من ثلثمائة وستين رجلا ، وكلفه بإعادة تنظيم الجيش المرابط فى غالة ، وأمره بعبور جبال الألب .

وقضى يوليان الشتاء فى ڤين Vienne ويانه على نهر الرون ، يدرب نفسه التدريب العسكرى ، ويدرس فنون الحرب دراسة الرجل المجد المتحمس لأداء واجبه . وفى ربيع عام ٣٥٦ جمع جيشاً عند ريمس Reims صد به الغزاة الألمان واسترد منهم كولونى ؛ ولما حاصرته قبيلة الألمانى — التى أصبح اسمها علما على ألمانيا كلها — فى سنس Sens ظل يصد هجمات المحاصرين ثلاثين يوما ، واستطاع أن يحصل على ما يحتاجه جنوده وأهل المدينة من المؤن حتى نفد صبر الأعداء . ثم زحف نحو الجنوب والتقى بجيش قبيلة الألمانى الأكبر عند استرسبورج ، ونظم جيشه على شكل إسفين هلالى ، وقاده قيادة الرجل العارف بأفانين الحرب ، المملوء القلب بالشجاعة ، فانتصر نصراً على قوات العدو التى تفوق قواته عددا[٢٤] ، وتنفست غالة الصعداء بعد هذا النصر المؤزر ؛ ولكن قبائل الفرنجة الضاربة فى الشمال كانت لا تزال تعيث فساداً فى وادى الموز Meuse ، فزحف عليها يوليان بنفسه ، وأوقع بها هزيمة منكرة ، وأرغمها على عبور الرين ، ثم عاد إلى باريس عاصمة الولاية متوجا بأكاليل النصر ، ورحب به أهل غالة ، وشكروا له حسن صنيعه ، ورأوا فى قيصر الصغير يوليوسا Julius جديداً ؛ وما لبث جنوده أن جهروا بأملهم فى أن يجلس عما قريب على عرش الإمبراطورية .

وبقى فى غالة خمس سنين ، يعمر الأرض المخربة بالسكان ، ويعيد تنظيم وسائل الدفاع عن نهر الرين ، ويمنع استغلال الأهلين الاقتصادى والفساد

السياسى ، ويعيد الرخاء إلى الولاية ، ويملأ خزائنها بالمال ، ويخفض فى الوقت عينه ما كان مفروضا على البلاد من الضرائب . وعجب الناس كيف استطاع هذا الشاب الغارق فى التفكير ، الذى لم ينتزع من بين كتبه إلا من وقت قريب ، أن يبذل نفسه فيجعل منها — كأنما قد مسته عصا ساحر — قائداً محنكا ، وحاكما عظيما ، وقاضيا عادلا رحيما[٢٥] . وكان هو الذى وضع فى القضاء ذلك المبدأ القائل بأن المتهم يعد بريئاً حتى تثبت إدانته . وكان سبب تقرير هذا المبدأ أن نومريوس Numerius أحد حكام غالة النربونيه السابقين اتهم باختلاس الأموال التى عهد إليه تحصيلها ؛ ولكنه أنكر التهمة ، ولم يكن من المستطاع دحض حجة من الحجج التى أدلى بها . واغتاظ القاضى دلفديوس Delfedius لنقص الأدلة التى تثبت التهمة عليه فصاح قائلا : « أى قيصر العظيم ! هل يمكن أن يدان إنسان إذا كان مجرد إنكاره التهمة يكفى لبراءته ؟ » فكان جواب يوليان . وهلا يمكن أن يبرأ إنسان إذا كان كل ما فى الأمر أنه اتهم ؟ » « وكان هذا » كما يقول أمنيانوس « شاهداً من الشواهد الكثيرة ، الدالة على رحمته »[٢٦] .

غير أن إصلاحاته قد خلقت له أعداء . فالموظفون الذين كانوا يخشون بحثه وتنقيبه ، أو يحسدونه لحب الناس له ، أخذوا يتهمونه سراً لدى قنسطنطيوس بأنه يعمل للاستيلاء على عرش الإمبراطورية : فلما علم بذلك يوليان رد عليهم بأن كتب يمتدح الإمبراطور مدحا فيه كثير من المبالغة . ولكن ذلك لم يبدد شكوك قنسطنطيوس ، فاستدعى إليه سالست Sallust الذى كان من أخلص أعوان يوليان . وإذا جاز لنا أن نصدق أميانوس فإن الإمبراطورة يوزيبيا ، التى لم يكن لها ولد ، والتى كانت الغيرة من يوليان وزوجته تأكل قلبها ، قد رشت بعض حاشية زوجة يوليان بأن يعطوها عقارا مجهضا كلما حملت . ولما أن وضعت هلينا ، على الرغم من هذا ، طفلا ذكراً ، قطعت القابلة حبل سرته قريبا من جسمه إلى حد

نزف منه الدم حتى مات[٢٧] . وبينا كانت هذه المتاعب كلها تحيط بيوليان تلقى فى عام ٣٦٠ أمراً من قنسطنطيوس بأن يبعث بخير عناصر جيوشه فى غالة لينضموا إلى الجيش الذى يحارب فارس .

وكان لعمل قنسطنطيوس هذا ما يبرره . فقد طالب شابور الثانى أن ترد إليه بلاد النهرين وأرمينية (٣٥٨) ، فلما رفض قنسطنطيوس هذا الطلب حاصر شابور أميدا Amida (ديار بكر الحالية فى ولاية كردستان التركية) . ونزل قنسطنطيوس الميدان وأمر يوليان أن يمد الجيوش الإمبراطورية بثلثمائة رجل من كل فيلق من الفيالق الغالية لتشترك فى هذه الحرب الأسيوية . ورد يوليان على هذا الطلب بأن هؤلاء الجنود قد تطوعوا فى تلك الفيالق على ألا يدعوا إلى الخدمة وراء حدود جبال الألب ، وحذر الإمبراطور من عاقبة هذا العمل قائلا إن غالة لن تأمن على نفسها إذا ما تعرض جيشها لهذا النقص الكبير ، (وقد حدث أن نجح الألمان فى غزو غالة بعد ست سنين من ذلك الوقت) ولكنه مع ذلك أمر جنوده أن يطيعوا رسل الإمبراطور ، غير أن الجنود عصوا هذا الأمر ، وأحاطوا بقصر يوليان ، ونادوا به أغسطسا Augutus أى إمبراطوراً ، ورجوه أن يستبقيهم فى غالة ، فنصحهم مرة أخرى بإطاعة أمر الإمبراطور ، ولكنهم أصروا على الرفض ، وأحس يوليان ، كما أحس قيصر آخر من قبله ، أن الأقدار قد قررت مصيره ، فقبل اللقب الإمبراطورى ، واستعد للقتال لإنقاذ الإمبراطورية وإنقاذ حياته ، وأقسم الجيش الذى أبى قبل أن يغادر غالة ، أن يزحف على القسطنطينية ويجلس يوليان على العرش .

وكان قنسطنطيوس فى كليكية حين بلغته أنباء الفتنة ، وظل عاما آخر يقاتل الفرس ، معرضاً عرشه للضياع فى سبيل الدفاع عن بلاده . ثم عقد هدنة مع شابور وزحف بفيالقه غرباً لملاقاة ابن عمه . وتقدم يوليان نحوه ومعه قوة صغيرة ، ثم وقف بعض الوقت عند سرميوم Sirmium (بالقرب من بلغراد الحالية) ، وفيها

أعلن إلى العالم اعتناقه الوثنية ، وكتب إلى مكسموس رسالة حماسية قال فيها : « إننا الآن نجهر بعبادة الأرباب ، وكذلك يخلص فى عبادتها جميع الجنود الذين اتبعونى »[٢٨]. وقد ساعده الحظ فأنجاه من مأزق حرج : ذلك أن قنسطنطيوس توفى فى نوفمبر من عام ٣٦١ على أثر حمى أصيب بها فى طرسوس ، وكانت وفاته فى الخامسة والأربعين من عمره . وبعد شهر من وفاته دخل يوليان القسطنطينية وجلس على العرش دون أن يلقى مقاومة ، وأشرف على جنازة ابن عمه قنسطنطيوس بجميع مظاهر الحب .

الفصل الرابع

الإمبراطور الوثنى

وكان يوليان وقتئذ فى الحادية والثلاثين من عمره ، ويصفه أميانوس الذى كان يراه كثيراً بقوله :

كان متوسط القامة ، وكان شعره مرسلا ناعماً كأنه قد عنى بتمشيطه ، وكانت لحيته كثة مستدقة ، وعيناه براقتين تومضان ناراً ، وتكشفان عن حدة ذهنه . وكان حاجباه دقيقين وأنفه معتدلا ، وفمه كبيراً بعض الشىء ، وشفته السفلى ممتلئة ، ورقبته غليظة منحنية ، ومنكباه كبيرين عريضين . وكان جسمه كله من أعلى رأسه إلى أطراف أصابع قدميه حسن التناسب ، ولهذا كان قوياً سريع العدو(٢٩) .

غير أن الصورة التى يصور هو بها نفسه لم تكن بهذا الحسن فهو يقول : إن الطبيعة لم تخلع على وجهى كثيراً من الوسامة ، ولم تهبه نضرة الشباب ، ومع هذا فإنى بعنادى قد أضفت إليه هذه اللحية الطويلة . . . ولم أعبأ بالقمل الذى كان يسرح فيها ويمرح كأنها أجمة للوحوش البرية . . . أما رأسى فنكوش ، لأنى قلما أقص شعرى أو أقلم أظافرى ، وأصابعى لا تكاد ترى إلا سوداء ملوثة بالحبر(٣٠) .

وكان يفخر بأنه يحتفظ ببساطة الفيلسوف وسط ترف البلاط . وما كاد يجلس على العرش حتى تخلص من الخصيان ، والحلاقين ، والجواسيس ، الذين كانوا فى خدمة قنسطنطيوس . ولما ماتت زوجته فى شبابها صمم على ألا يتزوج بعدها أبداً ، ولهذا لم يكن فى حاجة إلى الخصيان ، وكان يشعر أن فى وسع حلاق واحد أن يعنى بجميع موظفى القصر ؛ أما الطهاة فلم يكن فى حاجة إليهم لأنه لم يأكل

إلا أبسط الأطعمة التي يستطيع أن يعدها أي إنسان[٣١]. وكان هذا الإمبراطور الوثني يعيش عيشة الرهبان ويلبس كما يلبسون . ويلوح أنه لم يتصل اتصالا جنسياً بالنساء بعد أن ماتت زوجته ، وكان ينام على قش خشن في حجرة غير مدفأة[٣٢] ، ولا يسمح بتدفئة أية حجرة من حجراته طوال فصل الشتاء « لكي يعتاد تحمل البرد » . ولم يكن يميل إلى اللهو والتسلية ، فكان يهاب دور التمثيل ، وما فيها من مسرحيات صامتة مثيرة للغريزة الجنسية ، وأثار غضب العامة بالابتعاد عن ميدان السباق ؛ فقد كان في الاحتفالات الكبرى يقضي فيه قليلاً من الوقت ، ولكنه يجد أن لا فرق بين سباق وسباق ، فلا يلبث أن يغادره . وقد أكبر الشعب في بادئ الأمر فضائله ، وزهده ، وانهماكه في العمل ، وفي أزمات الحكم ؛ وكانوا يشبهونه بتراجان في حسن قيادته العسكرية ، وبأنطونينس بيوس في تقواه وصلاحه ، وبماركس أورليوس في الجمع بين الملكية والفلسفة[٣٣]. وإنا ليدهشنا أن نرى هذا الوثني الشاب قد رضيت عنه على الفور مدينة ودولة لم تعرفا منذ جيل من الزمان إلا أباطرة مسيحيين .

وقد أرضى مجلس شيوخ بيزنطية بمحافظته على تقاليده وحقوقه دون أن يفخر بذلك أو يمن به عليه . وكان يقوم من مقعده ليحيي القناصل ، ويمثل جميع المظاهر التي يتصف بها الإمبراطور من الوجهة النظرية ، وهي أنه خادم لشيوخ الأمة وشعبها ومندوب عنهم . وقد حدث مرة أن اعتدى من غير قصد على أحد الامتيازات الخاصة بمجلس الشيوخ ، فما كان منه إلا أن حكم على نفسه بغرامة قدرها عشرة أرطال من الذهب ، وأعلن أنه يخضع كما يخضع كل المواطنين لجميع قوانين الإمبراطورية وتقاليدها . وكان يقضي وقته من الصباح إلى المساء يكدح في أداء واجبات الحكم ، لا ينقطع عن ذلك إلا فترة صغيرة بعد الظهر ، يخصها بالدرس . ويحدثنا المؤرخون أن ما كان يتناوله من طعام خفيف قد أكسب جسمه وعقله نشاطاً عصبياً ، كان يستطيع بفضله أن ينتقل من واجب إلى واجب

ومن زائر إلى زائر ، وأن يرهق بالعمل ثلاثة من أمناء السر فى كل يوم.
وكان يظهر فى قيامه بواجبات القاضى منتهى النشاط والجلد والاهتمام ؛ ويكشف فى أثناء ذلك عن سفسطة المحامين ، ويخضع فى تواضع وأدب جم لآراء القضاة المدعمة بالبراهين والتى تخالف آراءه هو ، وأعجب الناس جميعاً بعدالة أحكامه . ومن أعماله أنه خفض الضرائب المفروضة على الفقراء ، ورفض التيجان الذهبيــة التى كانت التقاليد تقضى بأن تقدمها كل ولاية للإمبراطور الجديد ، وألغى ما تجمع على إفريقية من الضرائب المتأخرة ، وتجاوز عن الجزية الباهظة التى كانت مفروضة حتى ذلك الوقت على اليهود(٣٤).
وأصر على إلزام كل من يريد ممارسة مهنة الطب أن يحصل على ترخيص بممارستها ، واشتد فى تنفيذ ذلك كثيراً ، وقصارى القول أنه توج انتصاراته العسكرية بنجاحه فى الأعمال الإدارية . ويقول أميانوس إن « شهرته أخذت تنتشر شيئاً فشيئاً حتى عمت جميع بقاع العالم »(٣٥).

ومع هذا النشاط الجم فى شئون الحكم كان أهم ما يولع به هو الفلسفة ، وكانت غايته التى لم يغفل عنها يوماً ما هى أن يعيد الشعائر الدينية القديمة إلى سابق عهدها . ولكى يحقق هذه الغاية أمر بإصلاح الهياكل الوثنية وفتحها ، ورد ما صودر من أملاكها ، وإعادة ما كان لها من موارد . كذلك بعث بالرسائل إلى كبار الفلاسفة فى عهده يدعوهم إلى القدوم إليه ليعيشوا ضيوفاً عليه فى بلاطه .
ولما أن قدم مكسموس ، وكان يوليان يلقى خطبة فى مجلس الشيوخ ، قطع خطبته ، وجرى بأسرع ما يستطيع ليحيى أستاذه ، وقدمه إلى المجلس ، وأثنى عليه الثناء المستطاب ، وعبّر له عن شكره واعترافه بفضله . واغتنم مكسموس تحميس الإمبراطور فارتدى أحسن الثياب ، وعاش عيشة الترف حتى أثار حوله الريب ، ولما أن مات يوليان حوسب حساباً عسيراً على الوسائل التى جمع بها تلك الثروة الطائلة فى هذا الوقت القصير(٣٦). لكن يوليان لم يكن يلقى بالاً إلى المتناقضات التى بدت فى حياة الرجل لأن حب الفلسفة قد ملك عليه كل تفكيره . ولهذا

لم يصرفه عنها أى نقص فى سلوك الفلاسفة . . وقد كتب فى ذلك إلى يومنيوس يقول : « إذا جاءك أحد من الناس ليقنعك بأن ثمة شيئاً أعظم نفعاً للجنس البشرى من دراسة الفلسفة على مهل ومن غير أن يعوقه عن دراستها عائق ، فاعلم أنه مخدوع يريد أن يخدعك »[٣٧] .

وكان مولعاً بالكتب ، يحمل معه مكتبته فى حروبه ، وقد وسع دار الكتب التى أنشأها قسطنطين ، وأنشأ غيرها من الدور . وكتب فى ذلك يقول : « من الناس من هو مولع بالخيل ، ومنهم من هو مولع بالطير أو بالوحوش البرية ؛ أما أنا فقد كنت منذ نعومة أظفارى مولعاً أشد الولع باقتناء الكتب »[٣٨] . وكان يفخر بأنه مؤلف وحاكم سياسى معاً ، فصرف غير قليل من جهده فى تبرير خططه السياسية بمحاورات على طريقة لوشيان Lucian ، أو خطب من طراز خطب لبانيوس ، أو رسائل لا تكاد تقل سحراً وطرافة عن رسائل شيشرون ، أو مقالات فلسفية طوال . وقد شرح عقيدته الوثنية الجديدة فى « ترنيمة لابن ملك » ؛ وأوضح فى مقاله « ضد أهل الجليل » الأسباب التى من أجلها ارتد عن المسيحية ، وكتب فى مقال له من النقد العالى يقول إن الأناجيل يناقض بعضها بعضاً ، وإن أهم ما تتفق فيه هو أنها أبعد ما تكون عن العقل ؛ فإنجيل يوحنا يختلف كل الاختلاف عن الثلاثة الأناجيل الأخرى فى روايتها وفيما تحتويه من أصول الدين ، وقصة الخلق التى جاءت فى سفر التكوين تفترض تعدد الآلهة .

« فإذ لم تكن كل قصة من هذه القصص (الواردة فى سفر التكوين) أسطورة لا أكثر ، وإذا لم يكن لها ، كما أعتقد بحق ، تفسير يخفى على الناس ، فهى مليئة بالتجديف فى حق الله . ذلك أنها تمثله ، أول ما تمثله ، جاهلا بأن التى خلقها لتكون عوناً لآدم ستكون سبب سقوطه . ثم تمثله ثانياً إلهاً حقوداً حسوداً إلى أقصى الحقد والحسد ، وذلك بما تعزوه إليه من أنه يأبى على الإنسان أن يعرف الخير والشر (وهى دون غيرها المعرفة التى تؤلف بين عناصر

العقل البشرى وتجعله وحدة متناسقة) ، وأنه يخشى أن يصبح الإنسان مخلداً إذا طعم من شجرة الحياة . ولم يكون إلهكم غيوراً حسوداً إلى هذا الحد فيأخذ الأبناء بذنوب الآباء ؟ ... ولم يغضب الإله العظيم ذلك الغضب الشديد على الشياطين والملائكة والآدميين ؟ ألا فوازنوا بين سلوكه وسلوك ليقورغ نفسه والرومان أنفسهم إزاء من يخرجون على القوانين . يضاف إلى هذا أن العهد القديم يقر التضحية الحيوانية ويتطلبها كما تقرها وتتطلبها الوثنية) ... ولم لا تقبلون الشريعة التى نزلها الله على اليهود ؟ ... تقولون إن الشريعة الأولى ... كانت مقصورة على زمان ومكان معينين ، ولكن فى وسعى أن أنقل إليكم من أسفار موسى عشرات الآلاف — لا العشرات فقط — من الفقرات التى تقول إن الشريعة نزلت ليعمل بها فى جميع الأزمان[٣٩] »

ولما أراد يوليان أن يعيد الوثنية وجد أنها لا تناقض بعضها بعضاً فى العقائد والعبادات فحسب ، بل أنها فوق ذلك تحتوى فى جميع أجزائها من المعجزات والأساطير التى لا يقبلها العقل أكثر مما تحتويه المسيحية ؛ وأدرك من ثم أنه ما من دين يأمل أن يستميل إليه النفس البشرية العادية ويحركها إلا إذا خلع على مبادئه الأخلاقية غلالة من خوارق العادات ، والقصص والطقوس التى تبهر العقول . ولشد ما تأثر بقدم الأساطير وبانتشارها بين أمم العالم أجمع . ومن أقواله فى هذا : « إن الإنسان لعاجز عن أن يعرف متى اخترعت الأساطير أول الأمر ... عجزه عن أن يعرف من هو أول رجل عطس[٤٠]» ، ولهذا كله أسلم نفسه لدراسة الأساطير ، ولم ير عيباً فى أن تستخدم فى غرس المبادئ الأخلاقية الفاضلة فى عقول غير المتعلمين[٤١] ؛ ولم يستنكف هو نفسه أن يكرر قصة سيبيل Cybele ، وكيف جىء بالأم العظمى فى صورة حجر أسود من فريجيا إلى رومة ؛ وليس فى مقدور أى إنسان يقرأ قصته أن يظن أنه يشك فى ألوهية الحجر ، أو فى قدرته على أن يستحيل أماً عظمى . ولقد تبين شدة الحاجة إلى الرموز الحسية لتنقل إلى الناس

المبادئ الروحية . وكان يعد العبادة المثراسية للشمس ديناً يحل عند عامة الشعب محل إجلال الفلاسفة للعقل والاستنارة . ولم يكن عسيراً على هذا المليك — الشاعر أن يكتب ترنيمة هليوس الملك ، الشمس مصدر الحياة كلها ، وواهب النعم التى لا تحصى للخلق . ويقول إن هذا هو الكلمة المقدسة التى خلقت العالم والتى هى الآن سنده ودعامته ؛ وقد أضاف يوليان إلى هذا المبدإ الأسمى والعلة الأولى ، فى الأديان الوثنية القديمة من أرباب وجن يخطئهم الحصر ، وكان يظن أن الفيلسوف المتسامح لا يجد حرجاً من قبولهم بقضهم وقضيضهم .

وإنا لنخطئ إذا صورنا يوليان فى صورة الرجل الحر التفكير الذى يستبدل العقل بالأساطير ؛ ذلك أنه كان يشنع بالكفر ويعده من الحيوانية(٤٢) ، ويعلم الناس مبادئ لا تقل بعداً عن الأمور الطبيعية المعقولة عما نجده فى أى دين من الأديان ؛ وقلما كتب إنسان من السخف مثل ما كتب يوليان فى ترنيمته للشمس ؛ وقد قبل التثليث الذى تقول به الأفلاطونية الحديثة ، وقال إن الأفكار الخلاقة الأولى التى يقول بها أفلاطون هى بعينها عقل الله ؛ وكان يرى أنها هى الحكمة التى صنعت كل شىء ، وينظر إلى عالم المادة والجسم كأنه عقبة من فعل الشيطان يضعها فى طريق الفضيلة المؤدى إلى تحرير الروح السجينة ؛ وفى اعتقاده أن النفس البشرية ، إذا ما سلكت طريق التقى والصلاح والفلسفة ، قد تتحرر من سجنها هذا وتسمو إلى آفاق التفكير فى الحقائق والشرائع الروحية ، وتندمج بهذا فى الحكمة الإلهية ، بل ربما اندمجت فى الله الأزلى نفسه . ولم تكن أرباب الشرك الكثيرة ، فى اعتقاد يوليان ، إلا قوى غير شخصية ؛ كما أنه لم يكن فى وسعه أن يؤمن بها فى صورها المجسدة البشرية كما يؤمن عامة الناس ، ولكنه كان يعرف أن الناس قلما تسمو بهم أفكارهم إلى التجريدات التى تسمو إليها عقول الفلاسفة ، أو إلى الرؤى الصوفية التى يراها القديسيون ؛ وكان يمارس الشعائر القديمة فى السر والعلن ، وبلغ ما ضحى به من الحيوانات للآلهة من

الكثرة حداً جعل المعجبين به أنفسهم يغضون أبصارهم حياء من هذه المجازر[٤٣] . وكان فى أثناء حروبه ضد الفرس يستشير مهابط الوحى ، ويتفاءل ويتطير كما كان يفعل القواد الرومان ، ويعنى أشد العناية بالاستماع إلى تفسير الأحلام ، ويبدو أنه كان يؤمن بسحر مكسموس .

وكان يرى كما يرى كل مصلح أن العالم فى حاجة إلى تجديد من الناحية الأخلاقية ؛ ولكى يصل إلى هذه الغاية لم يقصر همه على سن القوانين الخارجية بل سعى إلى أن يتقرب عن طريق الدين إلى قلوب الناس وسرائرهم . وقد تأثر أشد التأثر بطقوس إليوسز وإفسوس الرمزية ، وكان يرى أنه ليس ثمة طقوس أصلح منها لأن تبعث فى قلوب الناس حياة جديدة أنبل من حياتهم السابقة ، ويأمل أن المراسم المتبعة مع من يريد الاندماج فى أصحاب هذه الطقوس وفى رسامتهم يمكن أن تتسع فتتعدى القلة الأرستقراطية إلى طائفة كبيرة من الشعب . ويحدثنا ليبانيوس أنه «كان يفضل أن يسمى قساً من أن يسمى إمبراطوراً[٤٤] » . وكان يحسد السلطة الكهنوتية المسيحية ، على نظمها الحسنة وعلى إخلاص قساوستها ونسائها ، وروح المساواة التى تسود المصلين والمتعبدين فى كنائسها ، والصدقات التى تؤلف بين قلوب أهل ذلك الدين وتستميل نفوسهم إليه . ولم يكن يترفع عن أن يأخذ خير ما فى الدين الذى يرجو أن يقوض أركانه ويستبدل به غيره ، وقد أدخل عناصر جديدة فى الكهانة الوثنية ، ونظم كنيسة وثنية وضع نفسه على رأسها ، وألح على من دونه من الكهنة أن يجادلوا رجال الدين المسيحيين ويتفوقوا عليهم فى تعليم الشعب ، وتوزيع الصدقات على الفقراء ، وفى استضافة الغرباء ، وفى ضرب أحسن الأمثلة للناس فى التقى والصلاح[٤٥] . وقد أنشأ فى كل مدينة مدارس تلقى فيها المحاضرات فى الدين الوثنى وتعرض فيها مبادئه . وكان يكتب لكهنته الوثنيين كما كتب من بعده القديس فرنسيس لأتباعه من الرهبان فيقول :

« عاملونى بما تظنون أنى سأعاملكم به ، ودعونا نتعاهد فيما بيننا على أن أبين

لكم آرائى فى جميع شئونكم ، وأن تفعلوا أنتم معى فى مقابل هذا نفس العمل فيما يختص بأقوالى وأعمالى ، وفى اعتقادى أن ليس ثمة شىء أعظم قيمة من تبادل الرأى على هذا النحو ....[٤٦] ومن واجبنا أن نقتسم مالنا مع الناس جميعاً ، وعلى الأخص مع الصالحين ، والضعفاء والفقراء . وأصار حكم القول ، وإن بدا لكم أن فى قولى هذا تناقضاً ، إن من الأعمال الدالة على التقى والصلاح أن نقتسم ثيابنا وطعامنا مع الأشرار ؛ ذلك أننا حين نعطى إنما نعطى الإنسانية الممثلة فى الناس ، ولا نعطى خلقه طيبين كانوا أو خبيثين[٤٧] .

والحق أن هذا الرجل الوثنى كان مسيحياً فى كل شىء عدا عقيدته ؛ ونحن إذا ما قرأنا ما كتبه ، وغضضنا النظر عن أساطيره المجردة من الحياة ، خيل إلينا أنه مدين بكثير من تطورات خُلُقه إلى المبادئ الأخلاقية المسيحية التى لُقِّنها فى طفولته وشبابه المبكر . فكيف كان مسلكه إذن إزاء الدين الذى ربى فى أحضانه ؟ لقد ترك للمسيحية كامل حريتها فى الوعظ ، والعبادة ، وممارسة جميع شعائرها ، وأعاد الأساقفة المستمسكين بدينهم القويم ، والذين نفاهم قنسطنطيوس . لكنه منع عن الكنيسة المسيحية ما كانت تقدمه لها الدوله من إعانات مالية ، وحرم على المسيحيين أن يشغلوا كراسى البلاغة ، والفلسفة ، والأدب فى الجامعات ، وكانت حجته فى ذلك أن هذه الموضوعات لا يمكن أن تجد مدرسين يعطفون عليها إلا من بين الوثنيين[٤٨] ؛ ووضع حداً لإعفاء رجال الدين المسيحيين من الضرائب وغيرها من الفروض المدنية المرهقة ، ولحق القساوسة فى أن ينتفعوا من غير أجر بالمزايا والتسهيلات المخولة للموظفين العموميين . كذلك حرم الوصية بالمال للكنائس ، كما حرم المناصب الحكومية على المسيحيين[٤٩] ، وأمر الجماعات المسيحية فى كل بيئة أن يعوضوا الهياكل الوثنية تعويضاً كاملا عما أنزلوه بها من الأضرار فى أثناء حكم الأباطرة السابقين ؛ وأجاز هدم الكنائس المسيحية المقامة على الأراضى التى اغتصبت ظلماً وعدواناً من المزارات والأضرحة الوثنية . ولما أن

وقع الاضطراب والظلم والشغب نتيجة لهـذا المنطق المتهور حاول يوليان إن يرد الأذى عن المسيحيين ، ولكنه أبى أن يلغى ما سنه من القوانين . ولقد أظهر قدرته على السخرية التى قلما تليق بفيلسوف مثله ، حين ذكَّر بعض المسيحيين الذين وقع عليهم العدوان،بأن «كتابهم المقدس يهيب بهم أن يصبروا على الأذى [٥٠] » وعوقب المسيحيون الذين ردوا على هذه القوانين بالعنف أو الإهانات عقاباً صارماً ، أما الوثنيون الذين لجأوا إلى الإهانة فى معاملتهم للمسيحيين فقد عوملوا باللين[٥١] . من ذلك أن العامة من الوثنيين أهل الإسكندرية كانوا يحقدون أشد الحقد على چورچ ، الأسقف الأريوسى الذى اغتصب كرسى أثناسيوس ، لأنه أثار حفيظتهم بموكب عام سخر فيه من الطقوس المثراسية ، فقبضوا عليه ومزقوا جسمه إرباً ؛ ومع أن المسيحيين ، إلا قلة منهم لا تستحق الذكر ، لم يهتموا بالدفاع عنه ، فقد قتل أو جرح كثيرون من المسيحيين فيما صحب هذه الفتنة من اضطراب (٣٦٢) . وأراد يوليان أن يعاقب من أحدثوا الشغب ، ولكن مستشاريه أقنعوه بأن يكتفى بإرسال خطاب احتجاج شديد إلى أهل الإسكندرية . وفى هذا الوقت خرج أثناسيوس من مخبئه واستعاد كرسى أسقفيته ، ولكن يوليان أنكر عليه هذا العمل قائلا إنه لم يؤخذ فيه رأيه ، وأمر أثناسيوس أن يعتزل منصبه . وصدع الأسقف الشيخ بالأمر ، ولكن الإمبراطور توفى فى السنة التالية ، وعاد البطرق رمز أهل الجليل المنتصرين إلى كرسيه ، ولبث فيه إلى أن مات فى الثمانين من عمره ، بعد عشر سنين من ذلك الوقت ، مثقلا بمظاهر الشرف ومثخناً بالجراح .

وكان اندفاع يوليان ومثابرته الشديدة على تنفيذ منهجه سبباً فى إخفاقه آخر الأمر . ذلك أن من أساء إليهم كانوا يقاومونه بإصرار ومعاندة ، ومن اجتباهم لم يستجيبوا له فى حماسة . ومرد هذا أن الوثنية كانت قد ماتت من الناحية الروحية ، ولم يبق فيها ما يجدد شبابها ، أو يواسيها فى أحزانها ، أو يبعث فى

أهلها الأمل فى الدار الآخرة ، نعم إن بعض الناس قد اعتنقوها فى تلك الأيام الأخيرة ، ولكن معظمهم لم يفعلوا ذلك إلا لما كاوا ينتظرون أن ينالوه من المطامع السياسية أو الذهب الإمبراطورى . كذلك عادت بعض المدن إلى تقديم القرابين الرسمية ، ولكنها كانت تؤدى بهذا ثمن ما تناله من العطف عليها والعناية بمصالحها. وقد اضطر يوليان فى پسينس Pessinus نفسها ، وهى بيت سيبيل ، أن يرشو أهلها لكى يعظموا الأم العظمى. وقام كثير من الوثنيين يفسرون الوثنية بأنها مراعاة الذمة والضمير فى انتهاب الملذات ؛ وساءهم أن يجدوا يوليان أكثر تزمتاً من المسيح ، فقد كان هذا الرجل الحر فى التفكير أتقى رجل فى الدولة ، وكان أصدقاؤه أنفسهم يجدون من أصعب الأشياء عليهم أن يجاروه فى ورعه ، ومنهم من كانوا متشككة يسخرون سراً من أربابه الذين ولى زمانهم ومن الذبائح التى كان يستعطف بها أولئك الأرباب . ذلك أن عادة التضحية بالحيوان على المذابح كانت قد ماتت أو كادت تموت فى الشرق ، وفى كل ما عدا رومة من بلاد الغرب ، وشرع الناس ينظرون إليها على أنها عمل يجلل صاحبه العار ، أو أنها فى القليل طعام يشترك فى أكله الناس . وكان يوليان يسمى حركته هذه « الهلينية » ، ولكن هذه التسمية قد اشمأزت منها نفوس الوثنيين الطليان ، الذين كانوا يحتقرون كل شىء يونانى غير ميت . وكان يفرط فى الاعتماد على الجدل الفلسفى الذى لم يصل فى يوم من الأيام إلى أن يكون الأساس العاطفى للدين ؛ كذلك لم يكن أحد يفهم مؤلفاته إلا الفئة المتعلمة ، التى كان تعليمها يحول بينها وبين قبول ما فى هذه المؤلفات من الأفكار ، ولم تكن عقائده إلا توفيقاً مصطنعاً بين متناقضات ، وكانت خالية من الجذور التى تمتد إلى آمال الناس أو خيالهم. ولقد لاحت بوادر إخفاقه حتى قبل وفاته ، ولم يستنكف الجيش الذى أحبه وحزن عليه أن يرشح مسيحياً ليخلفه على العرش .

الفصل الخامس

خاتمة المطاف

وكان حلمه الأخير العظيم أن يفعل ما فعله الإسكندر وتراجان: فيرفع العلم الروماني على العواصم الفارسية، ويقضي القضاء النهائي على الخطر الفارسي الذي كان يهدد أمن الدولة الرومانية وسلامتها. وللوصول إلى هذه الغاية عني أعظم عناية بتنظيم الجيش، وباختيار ضباطه، وترميم الحصون المشيدة على التخوم وخزن المؤن في المدن القائمة على طريق نصره. فلما تم له ذلك جاء إلى أنطاكية في خريف عام ٣٦٢، وجمع فيها جنوده؛ واغتنم تجار المدينة احتشاد الجند فيها فرفعوا أسعار الحاجيات، وشكا الناس قائلين « إن كل شيء موفور ولكن كل شيء غالي الثمن ». فما كان من يوليان إلا أن استدعى إليه رؤساء الأعمال الاقتصادية وأخذ ينصحهم بالحد من مكاسبهم، فوعدوه بذلك ولكنهم لم يوفوا بوعدهم؛ فلما يئس منهم « حدد ثمناً عادلا لكل سلعة وأعلنه للناس جميعاً »، ثم عمل على استيراد أربعمائة ألف موديوس(*) من القمح من بلدان سوريا ومصر[٥٢] واحتج التجار بأن الأثمان التي حددها لم تترك لهم شيئاً من الأرباح، وابتاعوا في الخفاء القمح المستورد، ونقلوه هو وبضاعتهم إلى مدن أخرى، ووجدت أنطاكية نفسها تزخر بالنقود وتفتقر إلى الطعام. وسرعان ما قام العامة يندِّدون بيوليان لتدخله في هذه الشئون، وأخذ الفكهون يسخرون من لحيته ومن انهماكه في خدمة الآلهة الأموات. ورد عليهم يوليان بنشرة أصدرها سماها « كاره اللحى » (Misopogon) حوت من الفكاهة والمتعة ما لا يتفق مع مقام إمبراطور. فقد اعتذر في سخرية عن لحيته، وعنف أهل أنطاكية على وقاحتهم،

(*) تعادل نحو ١٨٣٦٠ إردبا مصرياً. (المترجم)

وطيشهم ، وإسرافهم ، وفساد أخلاقهم ، واستخفافهم بآلهة اليونان . وكانت الحديقة الشهيرة المعرفة باسم دافنى Daphne ، والتى كانت من قبل مزاراً مقدساً لأبلو ، قد حولت إلى مكان للهو والتسلية ، فأصدر يوليان أمره أن يمنع اللهو منها وأن تعود مزاراً مقدساً كما كانت من قبل ؛ وما كاد هذا العمل يتم حتى التهمتها النيران ؛ وظن يوليان أن الحريق من فعل المسيحيين فأغلق كنيسة أنطاكية ، وصادر أملاكها ، وعذب كثيرين من الشهود ، وقتل أحد القساوسة(٥٢) . ولم يجد الإمبراطور أنطاكية ساوى إلا « وليمة العقل » التى اجتمع فيها بليبانيوس .

وأخيراً تأهب الجيش للنزول إلى الميدان ، وبدأ يوليان الحرب فى شهر مارس من عام ٣٦٣ ، فسار على رأس جيوشه وعبر نهر الفرات ، ثم نهر دجلة ، وطارد الفرس المتقهقرين ، ولكنه لاقى الأمرين ، وكاد يلاقى الهزيمة من جراء « إجداب الأرض » وهى الخطة التى اتبعها الفرس وأرادوا بها إحراق جميع المحصولات فى كل جزء يخلونه من البلاد ، حتى كان جنود يوليان يموتون من الجوع مرة بعد مرة . وقد أظهر الإمبراطور فى هذه الحروب المضنية أحسن ما اتصف به من خلال ، فكان يشارك جنوده كل ما يعترضهم من صعاب ، ويكتفى مثلهم بالقليل وبأقل من القليل ويسير مثلهم على قدميه فى القيظ ، ويخوض مجارى المياه ، ويحارب فى الصفوف الأولى فى جميع المعارك . وكان من بين الأسرى فارسيات ذوات جمال فى نضرة الشباب ، ولكنه لم يقتحم عليهن خلوتهن ، ولم يسمح لإنسان أن يمس بأذى شرفهن . وتقدم الجنود تحت قيادته القديرة حتى طرقوا أبواب طشقونة Ctesiphon ، وضربوا عليها الحصار ، ولكنهم اضطروا إلى الارتداد عنها لعجزهم عن الحصول على الطعام . واختار شابور الثانى رجلين من أشراف الفرس وجدع أنفيهما وأمرهما أن يذهبا إلى يوليان ويدعيا أنهما قد فرا من عند الملك لقسوته عليهما واعتدائه الصارخ على كرامتهما ، ثم يقودانه هو وجيشه إلى صحراء جدباء . وفعل الرجلان ما أمرا به ، وصدقهما يوليان وسار خلفهما هو

وجيشه مسافة عشرين ميلا حتى وجد نفسه فى صحراء جدباء لا ماء فيها ولا نبات ، وبينا كان يحاول إنقاذ رجاله من هذا الفخ الذى نصب له هاجمته قوة من الفرس ، ولكنه صد هجومها وردها على أعقابها ، وفر الفرس لا يلوون على شيء . وكان يوليان فى مقدمة المطاردين غير عابئ بأنه ليس على جسمه دروع ، فأصابته حربة فى جنبه نفذت إلى كبده ، فسقط عن ظهر جواده وحمل إلى خيمة ، وأنذره طبيبه بأنه لن تطول حياته أكثر من بضع ساعات . ويقول ليبانيوس إن الذى رماه بالحربة رجل مسيحى ، ومما هو جدير بالذكر أن أحداً من الفرس لم يطالب بالمكافأة التى وعد بها شابور من يقتل الإمبراطور . ومن المسيحيين من يؤيد رواية ليبانيوس ويثنى على القاتل « الذى أقدم على هذا العمل الجرىء حباً فى الله وفى الدين »(٥٤) ، ومن هؤلاء سوزومين Sozomen . وكانت الساعة الأخيرة من حياة يوليان خليقة بتقاليد سقراط وسنكا ، وقد وصفها أميانوس فقال : إن يوليان وهو مسجى فى خيمته خاطب رفاقه المحزونين الذين ملك الأسى قلوبهم بقوله : « أيها الأصدقاء ، إن هذه الساعة لهى أنسب الأوقات التى أغادر فيها هذه الحياة ، وأردها إلى الطبيعة بعد أن طلبت ردها إليها » . . . وبكى جميع الحاضرين فلامهم على بكائهم محتفظاً حتى فى تلك الساعة بسلطانه عليهم ، وقال لهم إنه لا يليق بهم أن يحزنوا من أجل زعيم دعى للاتحاد بالسماء وبالنجوم . ولما أن أسكتهم بقوله هذا دخل مع الفيلسوفين مكسموس وبرسكوس فى حوار دقيق عن شرف النفس ونبلها . وفى أثناء هذا النقاش اتسع الجرح الذى فى جانبه فجاءة ، وحال ضغط الدم المتدفق بينه وبين التنفس ؛ وبعد أن تناول جرعة من الماء البارد طلبها إلى الحاضرين أسلم الروح وكان فى الثانية والثلاثين من عمره(٥٥)(*) .

(*) وقد ذكرت القصة القائلة بأنه صاح عند موته : « غلبت ياجليلى » لأول مرة فى كتاب ثيودريت Theodoret المؤرخ الموسيقى من رجال القرن الخامس ، ولكن العلماء الآن مجمعون على رفضها ويعدونها مجرد خرافة(٥٦) .

• كان الجيش لا يزال معرضاً للخطر وفى حاجة إلى قائد ، فاختار زعماؤه جوفيان Jovian قائد الحرس الإمبراطورى . وعقد الإمبراطور الجديد الصلح مع فارس ، بأن رد إليها أربعا من الولايات الخمس التى انتزعها منها دقلديانوس منذ سبعين عاماً . ولم يضطهد جوفيان إنساناً ، ولكنه لم يلبث أن حول تأييده من الهياكل الوثنية إلى الكنيسة المسيحية . واحتفل مسيحيو أنطاكية بموت الإمبراطور الوثنى احتفالا عاماً أظهروا فيه الفرح والابتهاج(٥٧) ، وإن كان زعماء المسيحيين المنتصرين كانوا فى معظم الأحوال يحضون جماعات المصلين أن يكونوا كراماً ، وأن ينسوا ما أصاب المسيحية من أذى(٥٨) . وانقضت بعد ذلك أحد عشر قرناً قبل أن تشهد المسيحية يوماً آخر كهذا اليوم .

الباب الثانى

انتصار البرابرة

٣٢٥ – ٤٧٦

الفصل الأول

التخـوم المهددة

لم تكن بلاد الفرس إلا قطاعاً من تخوم يبلغ طولها عشرة آلاف ميل تتعرض فيها الإمبراطورية الرومانية المؤلفة من مائة أمة مختلفة للغزو فى أية نقطة وفى أية ساعة على أيدى قبائل لم تفسدها الحضارة ، ولكنها تطمع فى ثمارها . وكان الفرس وحدهم مشكلة مستعصية على الحل ، فقد كانوا يزدادون قوة لا ضعفاً ؛ ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى استعادوا كل ما كان دارا الأول يبسط عليه سلطانه قبل ألف عام من ذلك الوقت – إلا قليلا منه . وكان فى غرب بلادهم العرب ، ومعظمهم من البدو الفقراء ؛ ولو أن إنساناً فى ذلك الوقت قد قال إن أولئك الأقوام الرحل الواجمين قد كتب لهم أن يستولوا على نصف الإمبراطورية الرومانية وعلى بلاد الفرس كلها لسخر من قوله هذا أحكم الساسة وأنفذهم بصيرة . وكان فى جنوب الولايات الرومانية الإفريقية الأحباش ، واللوبيون ، والبربر ، والنوميديون ، والمغاربة ؛ وكان هؤلاء كلهم يتربصون بالإمبراطورية الدوائر ، وينتظرون على أحر من الجمر تداعى الحصون الإمبراطورية أو قوى البلاد المعنوية . ولاح أن أسپانيا ستظل رومانيـــة آمنة من الغزو وراء جبالها المنيعة وبحارها التى لا يستطيع المغيرون اجتيازها ؛ ولم يكن أحد يظن أنها

ستصبح فى هذا القرن الرابع ألمانية ، وفى القرن الثامن بلاداً إسلامية . أما غالة فقد كانت وقتئذ تفوق إيطاليا اعتزازاً برومانيتها ، كما تفوقها فى النظام وفى الثراء ، وفى الآداب اللاتينية من شعر ونثر ؛ ولكنها كان عليها فى كل جيل أن تدفع عن نفسها غارات النيوتون الذين كانت نساؤهم أعظم خصباً من حقولهم . ولم يكن فى وسع الدولة الرومانية أن تستغنى إلا عن حامية قليلة لتدفع بها عن بريطانيا غارات الاسكتلنديين والپكتيين من الغرب والشمال ؛ وغارات أهل الشمال والقراصنة السكسون من الشرق أو الجنوب ؛ فقد كانت شواطئ النرويج بجميع أجزائها معششاً لهؤلاء القراصنة ، وكان أهلها يرون الحرب أقل مشقة من حرث الأرض ، ويعتقدون أن الإغارة على السواحل الأجنبية عملا شريفاً لذوى البطون الخاوية وفى أيام الفراغ . ويدعى القوط أن موطنهم الأول هو جنوبى السويد وجزائرها الصغرى ، ولا يبعد أن يكون ذلك الموطن هو الإقليم المحيط بنهر الفستيولا Vistula ؛ ولكنهم أياً كان موطنهم انتشروا باسم القوط الغربيين نحو نهر الدانوب الجنوب ، واستقروا باسم القوط الشرقيين بين نهرى الدنيستر Dniester والدن Don . وفى قلب أوربا — الذى تحده أنهار الفستيولا والدانوب والرين — كانت تجول قبائل قدر لها أن تغير خريطة أوربا وتبدل أسماء أممها : هى قبائل الثورنچيين Thuringians ، والبرغنديين ، والإنجليز ، والسكسون ، والجوت ، والفريزيين Frisians ، والچپيديين Gipidae ، والكوادى Quadi ، والوندال ، والألمانى ، والسوبى Suevi ، واللمبارد ، والفرنجة . ولم يكن للإمبراطورية كلها — عدا بريطانيا — أسوار تصد تيار هذه الأجناس ، وكل ما كان لها من هذا القبيل هو حصون أو حاميات فى أماكن متفرقة على طول الطرق البرية أو مجارى الأنهار التى كانت فى أطراف الدولة الرومانية . وكانت تفوق البلاد الخارجية عن حدود الدولة الرومانية فى نسبة مواليدها ، وتفوقها هى على هذه البلاد فى مستوى معيشة أهلها ، مما جعل الهجرة

إليها أو الإغارة عليها قضاء محتوماً لا مفر لها منه فى ذلك الوقت ، كما أنهما الآن قضاء محتوم على أمريكا الشمالية .

ولعل من واجبنا أن نعدل بعض التعديل تلك الرواية التى تصف تلك القبائل الألمانية بأنها قبائل متبربرة . نعم إن اليونان والرومان حين أطلقوا على أولئك الأقوام لفظ برابرة barbari لم يكونوا يقصدون بذلك الثناء عليهم ، وأكبر الظن أن هذا اللفظ يقابل لفظ ڤرڤارا varavar فى اللغة السنسكريتية ، ومعناه الفظ الجاف ، غير المثقف[1] ؛ وهو شديد الصلة أيضاً بلفظ بربر berber ؛ ولكن اتصال الألمان مدى خمسة قرون بالحضارة الرومانية عن طريق التجارة والحرب كان لا بد أن يترك فيهم أثراً قوياً ؛ وقبل أن يحل القرن الرابع بزمن طويل كانوا قد تعلموا الكتابة وأقاموا لهم حكومة ذات قوانين ثابتة . وكانت مبادئهم الأخلاقية من الناحية الجنسية أرقى منها عنـــد الرومان واليونان(*) إذا استثنينا منهم قبائل الفرنجة المروفنجيين ؛ وكثيراً ما كانوا يفوقون الرومان فى الشجاعة ، وكرم الضيافة ، والأمانة ، وإن كانت تعوزهم رقة الحاشية ودماثة الخلق ، وهما الخلتان اللتان يتصف بهما المثقفون . ولسنا ننكر أنهم كانوا قساة القلوب ، ولكنهم لم يكونوا أشد قسوة من الرومان ؛ وأكبر الظن أنهم قد روعهم أن يعرفوا أن الشريعة الرومانية كانت تجيز تعذيب الأحرار لتنتزع منهم الشهادات أو الاعترافات[2]. وكانت نزعتهم فردية إلى حد الفوضى ، على حين أن الرومان كانوا فى الوقت الذى نتحدث عنه قد روِّضوا على حسن المعاشرة

(*) وعمدتنا فى هذا أيضا هو تاسيتوس Tacitus صاحب النزعة الأخلاقية (فى كتابه جرمانيا ص ١٨ — ١٩) ، ولكنا نحيل القارئ أيضا إلى رسالة للأسقف بنيفاس Boniface (حوالى ٧٥٦) يقول فيها : « وكان من عادة الأهلين فى سكسونيا القديمة : إذا ارتكبت جريمة الزنا عذراء فى بيت أبيها أو امرأة متزوجة تحت حماية زوجها ، أن يحرقوها حية ، أو يخنقوها بيديها ، ويشنقوا من زنى بها فوق قبرها ؛ أو أنهم كانوا يشقون أثوابها حتى وسطها ويسلطون عليها نساء شريفات جاوزن سن الشباب فيضربنها بالسياط ويطعنها بالسكاكين حتى يقضين عليها »[2] . وتلك طريقة شنيعة فى التعذيب .

والميل إلى السلم : وكان أهل الطبقات العليا منهم يقدرون الآداب والفنون بعض التقدير ، وقد اندمج منهم استلكو Stilicho ، ورسمر Ricimer ، وغيرهما من الألمان فى الحياة الثقافية العليا التى كانت تسود المجتمعات فى رومة ، وكتبوا أدباً لاتينيا أقر سماكوس Simmachus أنه وجد فيه كثيراً من المتعة . وكان الغزاة بوجه عام — وخاصة القوط — يبلغون من الحضارة درجة تمكنهم من أن يعجبوا بالحضارة الرومانية ويعترفوا أنها أرقى من حضارتهم ، ويسعون لاكتسابها لا لتدميرها ؛ وظلوا قرنين من الزمان لا يطلبون أكثر من أن يسمح لهم بالدخول فى بلاد الإمبراطورية والاستقرار فى أراضيها المهملة ؛ وطالما اشتركوا فى الدفاع عنها بجد ونشاط. ولهذا فإنا إذا ما ظللنا نستخدم لفظ البرابرة فى حديثنا عن القبائل الألمانية فى القرنين الرابع والخامس ، فإنما نفعل ذلك بحكم العادة التى جعلت هذا اللفظ يجرى به القلم ، مع مراعاة هذه التحفظات والاعتذارات السالفة الذكر .

وكانت هذه القبائل التى تكاثر أفرادها قد دخلت بلاد الإمبراطورية فى جنوب نهر الدانوب وجبال الألب بطريق الهجرة السلمية وبدعوة من الأباطرة فى بعض الأحيان . وقد بدأ أغسطس هذه السياسة ، فسمح للبرابرة أن يستقروا داخل حدود الإمبراطورية ليعمروا ما خلا من أرضها ، ويسدوا ما فى فيالقها من ثغرات بعد أن عجز الرومان عن تعمير أولاها وسد ثانيتها لقلة تناسلهم وضعف روحهم العسكرية . وجرى على هذه السنة نفسها أورليوس ، ولورليان ، وبروبوس . وقبل أن ينصرم القرن الرابع كانت كثرة السكان فى بلاد البلقان وفى غالة الشرقية من الألمان . وكذلك كان الجيش الرومانى ، وكانت مناصب الدولة السياسية منها والعسكرية فى أيدى التيوتون . وكانت الإمبراطورية فى وقت من الأوقات قد صبغت أولئك الأقوام بالصبغة الرومانية ؛ أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فإنهم هم الذين بربروا الرومان(*) ؛ فقد أخذ الرومان أنفسهم يرتدون

ملابس من الفراء على طراز ملابس البرابرة ، وأخذوا كذلك يرسلون شعورهم مثلهم ؛ ومنهم من لبسوا السراويل ، (البنطلون) ، واستثاروا بذلك غضب الأباطرة ، فأصدروا فى غيظهم مراسيم بتحريم هذه الثياب . (٣٩٧ ، ٤١٦)[٦] . وجاءت القوة التى دفعت هذه القبائل إلى غارتها الكبرى على الإمبراطورية الرومانية من سهول المغول النائية . وتفصيل ذلك أن الزيونج نو Hsiung-nu أو الهيونج — نو Hung-nu أو الهون Hun — وهم فرع من الجنس الطورانى ، كانوا فى القرن الثالث الميلادى يحتلون الأصقاع الواقعة فى شمال بحيرة بلكاش وبحر آرال . وكانت سحنتهم ، كما يقول چردانيس Jordanes هى أقوى أسلحتهم :

فقد كانت ملامحهم الرهيبة تلقى الرعب فى قلوب أعدائهم ؛ ولعلهم هم لم يكونوا أقدر على الحروب من هؤلاء الأعداء . فقد كان أعداؤهم يستولى عليهم الفزع فيفرون من أمامهم لأن وجوههم الكالحة كانت تقذف الرعب فى القلوب . . ولأنهم كانت لهم فى مكان الرأس كومة لا شكل لها فيها ثقبان بدل العينين . وهم يقسون على أولادهم من يوم مولدهم ، لأنهم يقطعون خدود الذكور بالسيف حتى يعودهم تحمل ألم الجروح قبل أن يذوقوا طعم اللبن ، ولهذا فإنهم لا تنبت لهم لحى إذا كبروا وتشوه ندب جروح السيوف وجوههم . وهم قصار القامة ، سريعو الحركة ، خفاف مهرة فى ركوب الخيل ، بارعون فى استعمال الأقواس والسهام ، عراض الأكتاف صلاب الرقاب ؛ منتصبوا الأجسام على الدوام[٧] .

وكانت الحرب صناعتهم ، ورعاية الماشية رياضتهم و « بلادهم » كما ورد فى أحد أمثالهم « هى ظهور خيلهم »[٨] . وتقدم أولئك الأقوام إلى الروسيا حوالى عام ٣٥٥ ، مسلحين بالأقواس والسهام ، مزودين بالشجاعة والسرعة ، يدفعهم من خلفهم جدب بلادهم وضغط أعدائهم الشرقيين ، فهزموا فى زحفهم قبائل الألانى Alani ، وعبروا نهر الفلجا (٣٧٢ ؟) ، وهاجموا فى أكرانيا القوط الشرقيين الذين كادوا أن يصبحوا أقواماً متحضرين . وقاومهم إرمنريك

Ermanaric المعمر ملك القوط الشرقيين مقاومة الأبطال ، ولكنه هزم ومات بيده لا بيد أعدائه كما يقول بعض المؤرخين . واستسلم بعض القوط الشرقيين وانضووا تحت لواء الهون ، وفر بعضهم متجهين نحو الغرب إلى أراضي القوط الغربيين الواقعة شمال الدانوب . والتقى جيش من القوط الغربيين بالهون الزاحفين عند نهر الدنيستر ، فأوقع به الهون هزيمة منكرة ، وطلب بعض من نجوا من القوط الغربيين إلى ولاة الأمور الرومان فى البلاد الواقعة على نهر الدانوب أن يأذنوا لهم بعبور النهر والإقامة فى مؤيزيا Moesia وتراقية . وأرسل الإمبراطور فالنز Valens إلى عماله أن يجيبوهم إلى طلبهم على شرط أن يسلموا أسلحتهم ويقدموا شبانهم ليكونوا رهائن عنده . وعبر القوط الغربيون الحدود ، ونهب موظفو الإمبراطورية وجنودها أموالهم غير مبالين بما يجللهم عملهم هذا من عار . واتخذ الرومان الذين افتتنوا بيناتهم وغلمانهم أولئك الغلمان والبنات عبيداً لهم وإماء ، ولكن المهاجرين استطاعوا بفضل الرشا التى نفحوا بها ولاة الأمور الرومان أن يحتفظوا بأسلحتهم . وبيع لهم الطعام بما يباع به فى أيام القحط ، فكان القوط الجياع يبتاعون شريحة اللحم أو رغيف الخبز بعشرة أرطال من الفضة أو بعبد ، بل إن القوط قد اضطروا فى آخر الأمر أن يبيعوا أطفالهم بيع الرقيق لينجوا من الهلاك جوعاً[٩] . ولما بدت عليهم أمارات التمرد دعا القائد الرومانى زعيمهم فرتجيرن Fritigern إلى وليمة وفى نيته أن يقتله ؛ ولكن فرتجيرن نجا وأثار حمية القوط المستيئسين وحرضهم على القتال ، فأخذوا ينهبون ، ويحرقون ، ويقتلون ، حتى أصبحت تراقية كلها تقريباً خراباً يباباً تعانى الأمرين من جوعهم وغيظهم . وأسرع فالنز من بلاد الشرق لملاقاتهم والتحم بهم فى سهول هدريانوپل Hadrianople ، ولم يكن معه إلا قوة صغيرة معظم رجالها من البرابرة الذين كانوا فى خدمة رومة (٣٧٨) . وكانت النتيجة ، كما يقول أميانوس « أشنع هزيمة حلت بجيوش الرومان منذ واقعة كانى Cannae » التى حدثت قبل ذلك اليوم

بخمسمائة وأربع وتسعين سنة[١٠] . وفيها تفوق الفرسان القوط على المشاة الرومان ، وظلت حركات الفرسان وفنونهم العسكرية من ذلك اليوم حتى القرن الرابع عشر هى المسيطرة على فن الحرب الآخذ فى الاضمحلال . وهلك فى هذه المعركة ثلثا الجيش الرومانى ، وأصيب ڤالنز نفسه بجرح بالغ ، وأشعل القوط النار فى الكوخ الذى آوى إليه ، ومات الإمبراطور ومن كان معه محترقين بالنار . وزحفت الجموع المنتصرة على القسطنطينية ، ولكنها عجزت عن اختراق وسائل الدفاع التى أقامتها ومنيكا أرملة ڤالنز . وأخذ القوط الغربيون ، ومن انضم إليهم من القوط الشرقيين والهون الذين عبروا الحدود غير المحمية عند نهر الدانوب ، يعيثون فساداً فى بلاد البلقان من البحر الأسود إلى حدود إيطاليا .

الفصل الثانى

الأباطرة المنقذون

٣٦٤ — ٤٠٨

ولم تُقفر الإمبراطورية فى هذه الأزمة من الحكام القادرين : فقد نقل الجيش ومجلس الشيوخ تاج الإمبراطورية إلى ڤلنتنيان وهو جندى فظ مقطوع الصلة بالثقافة اليونانية يذكرنا بفسپازيان . وعين ڤلنتنيان أخاه الأصغر ڤالنز ، ووافقه مجلس الشيوخ ، أوغسطس وإمبراطوراً على الشرق ، واختار هو لنفسه الغرب الذى كان يبدو وقتئذ أشد خطراً من الشرق . ثم أعاد تحصين حدود إيطاليا وغالة ، وأعاد إلى الجيش قوته ونظامه ، وصد مرة أخرى الغزاة الألمان إلى ما وراء نهر الرين ، وأصدر من عاصمته ميلان تشريعات مستنيرة حرم فيها على الآباء قتل الأبناء ، وأنشأ الكليات الجامعية ، ووسع نطاق المساعدات الطبية الحكومية فى رومة ، وخفض الضرائب ، وأصلح النقد الذى كان قد انخفضت قيمته ، وقاوم الفساد السياسى ، ومنح جميع سكان الإمبراطورية حرية العقيدة والعبادة . وكان لهذا الإمبراطور عيوبه ونقاط ضعفه . من ذلك أنه كان يقسو أشد القسوة على أعدائه ؛ وإذا جاز لنا أن نصدق سقراط المؤرخ فإنه شرع الزواج باثنتين لكى يجيز لنفسه أن يتزوج جستينا[11] ، التى غالت زوجته فى وصف جمالها له . ومع هذا كله فقد كان موته العاجل (٣٧٥) مأساة كبرى حلت برومة . وخلفه ابنه جراتيان Gratian على عرش الإمبراطورية فى الغرب ، وسار فيها سيرة أبيه عاماً أو عامين ، ثم أطلق العنان للهو والصيد ، وترك أزمة الحكم إلى موظفين فاسدين عرضوا جميع المناصب والأحكام للبيع . لهذا خلعه القائد مكسموس عن العرش وغزا إيطاليا ليحاول تنحية ڤلنتنيان الثانى خلف

جراتيان وأخيه غير الشقيق عن ولاية الملك ، ولكن ثيودوسيوس الأول الأكبر الإمبراطور الجديد على الشرق زحف غرباً ، وهزم الغاصب ، وثبت الشاب ڤلنتنيان على عرشه فى ميلان (٣٨٨) .

وكان ثيودوسيوس من أصل أسبانى ، أظهر مواهبه الحربية ومهارته فى القيادة فى أسبانيا ، وبريطانيا ، وتراقية . وكان قد أقنع القوط المنتصرين بالانضواء تحت لوائه بدل أن يحاربوه ، وحكم الولايات الشرقية بحكمة وروية فى كل شىء إلا فى عدم تسامحه الدينى ؛ فلما تولى الملك روع نصف العالم بما اجتمع فيه من صفات متناقضة هى جمال خلقه ، ومهابته ، وغضبه السريع ورحمته الأسرع ، وتشريعاته الرحيمة ، وتمسكه الصارم بمبادىء الدين القويم . وبينما كان الإمبراطور يقضى الشتاء فى ميلان حدث فى تسالونيكى (سالونيكا) اضطراب كان من خصائص تلك الأيام . وكان سببه أن بثريك Botheric نائب الإمبراطور فى ذلك البلد قد سجن سائق عربة محبوب من أهل المدينة جزاء له على جريمة خلقية فاضحة ، فطلب الأهلون إطلاق سراحه ، وأبى بثريك أن يجيبهم إلى طلبهم ، وهجم الغوغاء على الحامية وتغلبوا عليها ، وقتلوا الحاكم وأعوانه ومزقوا أجسامهم إرباً ، وطافوا بشوارع المدينة متظاهرين يحملون أشلاءهم دلالة على ما أحرزوه من النصر . ولما وصلت أنباء هذه الفتنة إلى مسامع ثيودوسيوس فاستشاط غضباً وبعث بأوامر سرية تقضى بأن يحل العقاب بجميع سكان تسالونيكى . فدعى أهل المدينة إلى ميدان السباق لمشاهدة الألعاب ، ولما حضروا انقض عليهم الجند المترصدون لهم وقتلوا منهم سبعة آلاف من الرجال والنساء والأطفال ، (٣٩٠)[١٢] . وكان ثيودوسيوس قد بعث بأمر ثان يخفف به أمره الأول ولكنه وصل بعد فوات الفرصة .

وارتاع العالم الرومانى لهذا الانتقام الوحشى وكتب الأسقف أمبروز Ambrose الذى كان يجلس على كرسى ميلان ويصرف منه شئون الأبرشية

الدينية بالجرأة والصلابة الخليقتين بالمسيحية الحقة ، كتب إلى الإمبراطور يقول إنه (أى الأسقف) لا يستطيع بعد ذلك الوقت أن يقيم القداس فى حضرة الإمبراطور إلا إذا كفر ثيودوسيوس عن جرمه هذا أمام الشعب كله . وأبى الإمبراطور أن يحط من كرامة منصبه بهذا الإذلال العلنى وإن كان فى خبيئة نفسه قد ندم على ما فعل ، وحاول أن يدخل الكنيسة ، ولكن أمبروز نفسه سد عليه الطريق ، ولم يجد الإمبراطور بداً من الخضوع بعد أن قضى عدة أسابيع يحاول فيها عبثاً أن يتخلص من هذا المأزق ، فجرد نفسه من جميع شعائر الإمبراطورية ، ودخل الكنيسة دخول التائب الذليل ، وتوسل إلى الله أن يغفر له خطاياه (٣٩٠) . وكان هذا الحادث نصراً وهزيمة تاريخيين فى الحرب القائمة بين الكنيسة والدولة .

ولما عاد ثيودوسيوس إلى القسطنطينية تبين أن ڤلنتنيان الثانى ؛ وهو شاب فى العشرين من عمره ، عاجز عن حل المشاكل التى تحيط به . فقد خدعه أعوانه وجمعوا السلطة كلها فى أيديهم المرتشية ، واغتصب أربوجاست Arbogast الفرنجى الوثنى قائد جيشه المرابط السلطة الإمبراطورية فى غالة ، ولما قدم ڤلنتنيان إلى ڤين ليؤكد فيها سيادته قتل غيلة (٣٩٢) . ورفع أربوجاست على عرش الغرب تلميذاً وديعاً سلس القياد يدعى أوچينوس Eugenius وبدأ بعمله هذا سلسلة من البرابرة صانعى الملوك . وكان أوچينوس مسيحياً ، ولكنه كان وثيق الصلة بالأحزاب الوثنية فى إيطاليا إلى حد جعل أمبروز يخشى أن يصبح يوليانا ثانياً . وزحف ثيودوسيوس مرة أخرى نحو الغرب ليعيد إلى تلك الأنحاء السلطة الشرعية ويردها إلى الدين القويم . وكان تحت لوائه جيش من الهون والقوط ، والألانى ، وأهل القوقاز ، وأيبيريا ، وكان من بين قواده جيناس Gainas القوطى الذى استولى فيما بعد على القسطنطينية ، واستلكو الوندالى الذى دافع فى المستقبل عن رومة ، وألريك القوطى الذى نهبها . ودارت بالقرب من أكويليا معركة

دامت يومين ، هزم فيها أربوجاست وأوچنيوس (٣٩٤) ؛ فأما أوچنيوس فقد ذبح بعد أن أسلمه جنوده ، وأما أربوجاست فقد قتل نفسه بيده . واستدعى ثيودوسيوس ابنه هونوريوس Honorius وهو غلام فى الحادية عشرة من عمره ليقيمه إمبراطوراً على الغرب ، ورشح ابنه أركاديوس Arcadius البالغ من العمر ثمانى عشرة سنة ليكون إمبراطوراً معه على الشرق ثم مات بعدئذ فى ميلان منهوكاً من كثرة الحروب (٣٩٥) ولما يتجاوز الخمسين من عمره . وانقسمت بعد موته الإمبراطورية التى طالما وحدها ، ولم يجتمع شملها مرة أخرى بعد ذلك الوقت إلا فى فترة قصيرة تحت حكم چستنيان .

وكان ولدا ثيودوسيوس شخصين ضعيفين مخنثين ، درجا فى مهد الأمن والدعة الموهن للعزيمة ، فلم يكونا خليقين بأن يوجها سفينة الدولة فيما يحيط بها من عواصف ، وإن كانت أخلاقهما لاتقلان طيبة عن نواياهما ، وسرعان ما أفلت زمام الأمور من أيديهما ، وأسلما أعمال الدولة الإدارية والسياسية — إلى وزيرهما — إلى روفينوس Rufinus المرتشى الشره فى الشرق ، وإلى استلكو القدير المجرد من الضمير فى الغرب . ولم يلبث هذا الشريف الوندالى أن زوج ابنته مارية Maria بهونوريوس فى عام ٣٩٨ راجياً أن يصبح بهذا الزواج جداً لإمبراطور وصهراً لآخر . ولكن هونوريوس أثبت أنه مجرد من العاطفة تجرده من الفطنة ، فكان يقضى وقته فى إطعام الدجاج الإمبراطورى ويحبو هذا الدجاج بحبه وعطفه ، حتى ماتت مارية عذراء بعد أن لبثت زوجة عشر سنين(١٣) .

وكان ثيودوسيوس قد جعل القوط يجنحون إلى السلم باستخدامهم فى الحرب ، وبتقديم معونة سنوية من المال لهم بوصفهم حلفاء له ؛ ولكن خلفه قطع عنهم هذه المعونة ، ولما جاء استلكو سرح جنوده من القوط ؛ وقام المحاربون المتعطلون يطلبون المال والمغامرات وهيأ لهم ألريك زعيمهم الجديد كليهما واستعان على ذلك

بمهارة بزّ بها الرومان فى الحرب وفى السياسة على السواء ، وقال لأتباعه إنه لا يدرى كيف يَخضع القوطُ ذوو الأنفة والرجولة ويعملون أجراء عند الرومان أو اليونان الضعفاء المنهوكين ، بدل أن يعتمدوا على بسالتهم وقوة سواعدهم فيقتطعوا من الإمبراطورية المتداعية المحتضرة مملكة لهم ؟ وقاد ألريك فى السنة التى مات فيها ثيودوسيوس قوط تراقيه كلهم تقريباً وزحف بهم على بلاد اليونان ، واجتاز ممر ترموبيلى دون أن يلقى مقاومة ، وذبح كل من لقى فى طريقه من الرجال الذين فى سن العسكرية ، وسبى النساء ، وخرب بلاد البلوبونيز ، ودمر هيكل دمتر فى إليوسيز ، ولم يبق على أثينة إلا بعد أن افتدت نفسها بفدية استنفدت معظم ثروتها غير العقارية (٣٩٦) . وجاء استلكو لينقذها ولكنه وصل إليها بعد فوات الفرصة ، فاستدرج القوط إلى موقع غير حصين ، ولكن ثورة شبت فى إفريقيــة اضطرته إلى أن يعقد معهم هدنة عاد بعدها إلى الغرب . ثم وقع ألريك ميثاق حلف مع أركاديوس أجاز فيه ثانيهما للأول أن يستقر أتباعه من القوط فى إپيروس ، وبسط السلم لواءه بعدئذ على الإمبراطورية أربع سنين .

وفى هــذه السنين الأربع ألقى سينيسيوس القورينى ، وهو أسقف نصف مسيحى وفيلسوف نصف وثنى ، خطاباً فى القسطنطينية أمام حاشية أركاديوس المترفة وصف فيها فى وضوح وقوة المشكلة التى تواجهها رومة وبلاد اليونان والتى لا بد لها أن تختار فيها واحدة من اثنتين . وكان مما قاله فى هذه الخطبة : كيف تستطيع الإمبراطورية البقاء إذا ظل أهلها يتهربون من الخدمة العسكرية ، ويكلون الدفاع عنها إلى الجنود المرتزقة تجندهم من الأمم التى تهدد كيانها ؟ وعرض على ولاة الأمور أن يضعوا حداً للترف والنعيم ، وأن يجيشوا جيشاً من أهل البلاد بالتطوع أو التجنيد الإجبارى يدافع عنها وعن حريتها ؛ وأهاب بأركاديوس وهونوريوس أن ينفضا عنهما غبار الخمول وأن يوجها ضربة قاصمة إلى جموع البرابرة الوقحين الذين فى داخــل الإمبراطورية ، وأن يردوهم إلى مرابضهم

وراء البحر الأسود ونهرى الدانوب والرين . وصفق رجال الحاشية إعجاباً بما حواه خطاب سينيسيوس من عبارات منمقة بليغة ، ثم عادوا من فورهم إلى ولائمهم(١٤) . وكان ألريك فى هذه الأثناء يرغم صناع الأسلحة فى أبيروس على أن يصنعوا لرجاله القوط كل ما هم فى حاجة إليه من الحراب والسيوف والخوذ والدروع .

وفى عام ٤٠١ غزا إيطاليا ، بعد أن نهب كل ما مر به فى طريقه من البلاد ، وهرع آلاف من اللاجئين إلى ميلان ورافنا ، ثم فروا منهما إلى رومة . واحتمى الزراع فى داخل المدن المسورة ، وجمع الأغنياء كل ما استطاعوا نقله من ثروتهم ، وحاولوا وهم فى شدة الذعر أن يعبروا البحر إلى كورسكا ، وسردينية ، وصقلية . وجرد استلكو ولايات الدولة من حامياتها ليجمع منها جيشاً يستطيع صد تيار القوط الجارف ، وانقض به عليهم فى پولنتيا Pollentia فى صباح يوم عيد القيامة من عام ٤٠٢ حين وقفوا أعمال النهب ليؤدوا الصلاة . ونشبت بين الجيشين معركة لم تكن فاصلة ، ارتد على أثرها ألريك إلى رومة التى لم تكن فيها من يدافع عنها ، ولم يغادر إيطاليا إلا بعد أن نفحه هونوريوس برشوة سخية .

وكان الإمبراطور الوجل قد فكر أثناء زحف ألريك على ميلان أن ينقل عاصمته إلى غالة ، أما الآن فقد أخذ يبحث له عن مكان آخر أعظم منها أمناً ، فوجد ذلك المكان فى رافنا ، التى تجعلها المناقع والبحيرات الضحلة ، منيعة من البر ، والشواطىء الرقراقة مستعصية على العدو من جهة البحر . ولكن العاصمة الجديدة أخذت ترتجف من الخوف كالعاصمة القديمة حين زحف ردجيسيوس Radagaisus البربرى بجيش تبلغ عدته مائتى ألف مقاتل من الألانى ، والكوادى ، والقوط الشرقيين ، والوندال ، وعبر بهم جبال الألب ، وهاجم مدينة فلورنتيا الناشئة . وفى هذه الساعة العصيبة برهن استلكو مرة أخرى على براعته فى القيادة ، فهزم الجحفل المختلط بجيش أقل منه عدداً ، وساق ردجيسيوس مكبلا بالأغلال أمام هونوريوس . وتنفست إيطاليا الصعداء مرة أخرى ، وعادت

حاشية الإمبراطور ، من أشراف وأميرات ، وأساقفة ، وخصيان ، وطيور داجنة وقواد إلى ما ألفته من ترف ، وفساد ، ودسائس .

وكان أولمپيوس وزير الإمبراطور ، يغار من استلكو ويرتاب فى نواياه . فقد ساءه أن يتغاضى القائد العظيم ، كما بدا له ، عن هرب ألريك المرة بعد المرة . وخيل إليه أنه قد كشف ما بين القائد الألمانى والغزاة الألمان من عطف كامن . واحتج على الرشا التى نفح بها ألريك أو وعد بها بناء على طلب استلكو . وتردد هونوريوس فى إقصاء الرجل الذى لبث ثلاثة وعشرين عاماً يقود جيوش رومة من نصر إلى نصر ، والذى أنجى الغرب مما كان يتهدده من أخطار ؛ فلما أن أقنعه أولمپيوس بأن استلكو يأتمر به ليجلس ابنه هو على العرش ، وافق الشاب الوجل على قتل قائده ، وأرسل أولمپيوس من فوره سرية من الجند لينفذوا قرار الإمبراطور . وأراد أصدقاء استلكو أن يقاوموا ولكنه أمرهم ألا يفعلوا ومد رقبته للسيف (٤٠٨) .

وبعد بضعة أشهر من هذا الحادث عاد ألريك إلى إيطاليا .

الفصل الثالث

ما كان يحدث فى إيطاليا

كانت الدولة الرومانية الغربية فى أواخر القرن الرابع تطالعنا بصورة معقدة مركبة من الانتعاش والاضمحلال ، ومن النشاط والعقم الأدبى ، ومن الأبهة السياسية والانحلال العسكرى . وكانت غالة فى هذه الأثناء تزدهر ويعمها الرخاء ، وتنازع إيطاليا سيادتها فى جميع الميادين ؛ فقد كان عدد الغاليين فى الإمبراطورية عشرين مليوناً أو يزيدون من سكانها الذين يقربون من سبعين مليوناً ، فى حين أن الإيطاليين لا يكادون يبلغون ستة ملايين[١٥] ؛ وأما من عدا هؤلاء وأولئك فكانت كثرتهم من الشرقيين الذين يتكلمون اللغة اليونانية . وقد استحالت رومة نفسها منذ بداية القرن الثانى بعد الميلاد مدينة شرقية من حيث الأجناس التى تسكنها . لقد كانت رومة من قبل تعتمد فى حياتها على الشرق كما كانت أوربا الحديثة تعتمد فى حياتها على فتوحها ومستعمراتها إلى أواسط القرن العشرين ؛ وكانت الفيالق الرومانية تستحوذ على غلات ولاياتها التى تزيد على عشر ، وتنتزع منها معادنها الثمينة التى كانت تنساب فى قصور الظافرين وخزائنهم . أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فقد انقضى عهد الفتوح وبدأ عهد التقهقر والتراجع ، واضطرت إيطاليا إلى الاعتماد على مواردها البشرية والمادية التى اضمحلت اضمحلالا ينذر بأشد الأخطار من جراء تحديد النسل ، والقحط والوباء ، والضرائب الفادحة ، والإتلاف والحرب . ولم تزدهر الصناعة يوماً ما فى شبه الجزيرة الطفيلية ؛ والآن وقد أخذت تفقد أسواقها فى الشرق وفى غالة ، لم يعد فى وسعها أن تعول سكان المدن الذين كانوا يحصلون على الكفاف من العيش بالكدح فى الحوانيت وفى البيوت . وكانت الكليچيا Collegia أو نقابات أصحاب الحرف تعانى الأمرين

من جراء عجز أفرادها عن بيع أصواتهم فى دولة ملكية مطلقة كان التصويت فيها نادراً . وكسدت التجارة الداخلية ، وانتشر قطاع الطرق ، وأخذت الطرق التى كانت من قبل مضرب الأمثال فى العظمة تضمحل وتتحطم وإن ظلت وقتئذ أحسن من أى طريق فى العالم كله قبل القرن التاسع عشر .

وكانت الطبقات الوسطى قبل ذلك الوقت عماد حياة المدن فى إيطاليا ؛ أما الآن فقد ضعفت هى الأخرى من جراء الانحلال الاقتصادى والاستغلال المالى ؛ فقد كان كل ذى مال يخضع لضرائب مطردة الزيادة لإعالة بيروقراطية آخذة فى الاتساع ، أهم ما تقوم به من الأعمال هو جباية الضرائب . وكان الهجاءون الفكهون حين يشكون من هذه الحال يقولون إن « الذين يعيشون على الأموال العامة أكثر عدداً من الذين يمدونهم بهذه الأموال[١٦] .

وكانت الرشا تستنفد الكثير مما يجبى من الضرائب ؛ وسن ألف قانون وقانون لمقاومة اختلاس إيرادات الحكومة أو أملاكها ، والكشف عن هذه الاختلاسات ومعاقبة مرتكبيها ، وكان الكثيرون من الجباة يفرضون على البسطاء أكثر مما يجب أن يؤدوه ، ويحتفظون بالزيادة لأنفسهم ؛ وكان فى وسعهم فى مقابل هذا أن يخففوا الضرائب عن الأغنياء نظير جعل يأخذونه منهم[١٧] .

وكان الأباطرة يبذلون غاية جهدهم لكى تراعى الأمانة فى جبايتها ؛ من ذلك أن فلنتيان الثانى عين فى كل بلدة موظفاً يسمى « المدافع عن المدينة » ليحمى أهلها من حيل الجباة ، وأعفى هونوريوس المدن التى كانت تعانى الأزمات المالية مما كان متأخراً عليها من الضرائب . ومع هذا فإن بعض سكان المدن — إذا صدقنا قول سلفيان Salvian — كانوا يفرون إلى خارج الحدود ليعيشوا تحت حكم الملوك البرابرة الذين لم يتعلموا بعد فن جباية الضرائب كاملا ، فقد بدا لهم أن عمال الخزانة أشد رهبة من العدو »[١٨] . وكان من أثر هذه الظروف أن قلت الرغبة فى النسل فأخذ عدد السكان فى النقصان ، وبقيت آلاف الأفدنة من الأراضى

الصالحة للزراعة بوراً لا تجد من يفلحها ، فنشأ من ذلك فراغ اقتصادى اجتمع إلى ما بقى فى المدن من ثروة فأدى إلى اجتذاب البرابرة الذين كانوا فى أشد الحاجة إلى تملك الأرض . ووجد كثيرون من أصحاب الأراضى الزراعية أنهم عاجزون عن أداء الضرائب أو الدفاع عن مساكنهم ضد الغزاة أو اللصوص ، فتخلوا عن أملاكهم لمن هم أكبر منهم من الملاك أو أعظم قوة ، وعملوا عندهم زراعاً (Coloni) ، وأخذوا على أنفسهم أن يقدموا لسادتهم قدراً معيناً من غلة الأرض ومن العمل والوقت ، على أن يضمن لهم أولئك السادة ما يكفيهم من العيش ، ويحموهم فى وقتى السلم والحرب . وبهذا كانت إيطاليا ، التى لم تعرف فيما بعد الإقطاع بمعناه الكامل ، من أوائل الأمم التى أعدت أسس هذا الإقطاع . وكانت خطة شبيهة بهذه تحدث فى مصر وإفريقية وغالة .

وكان الاسترقاق آخذاً فى الزوال على مهل ، وسبب ذلك ألا شىء فى الحضارة الراقية يعدل أجر الرجل الحر أو مرتبه أو مكسبه من حيث هو دافع اقتصادى للعمل والإنتاج . ولم يكن كدح الأرقاء مجزياً من هذه الناحية إلا حين يكثر عددهم ؛ وكانت أعباء الاحتفاظ بهم قليلة ؛ ولكن نفقات الحصول عليهم زادت حين لم تعد الفيالق الرومانية تنقل إلى بلادها ثمار النصر من الآدميين ؛ يضاف إلى هذا أن فرار الأرقاء من سادتهم أصبح الآن أمراً يسيراً بسبب ضعف الحكومة ؛ هذا إلى أنه كان لابد من العناية بهم إذا مرضوا أو تقدمت بهم السن . ولما أن زادت تكاليف الأرقاء رأى سادتهم أن يحافظوا على الأموال التى استثمروها فيهم بحسن معاملتهم لهم ؛ ولكن أولئك الأسياد كان لا يزال لهم على عبيدهم حق الحياة والموت ، وإن كان هذا الحق مقيداً ببعض القيود[١٩] ، كما كان فى مقدور السيد أن يستعين بالقانون للقبض على العبد الآبق ، وأن يشبع شهوته الجنسية مع من يهوى منهم رجالا كانوا أو نساء ؛ وهل أدل على هذا من أن بولينوس البلائى Paulinus of Pella كان يفخر بطهارة ذيله فى شبابه

حين « كبحت جماح شهواتى . . . فلم أستجب لعشق امرأة حرة . . . واكتفيت بالإماء اللاتى كن فى بيتى » [٢٠] .

وكان معظم الأغنياء يعيشون الآن فى بيوتهم الريفية بمنجاة من ضجيج المدن وغوغائها ، غير أن الجزء الأكبر من ثروة إيطاليا كان لا يزال ينصب فى رومة ؛ ولم تكن المدينة العظيمة ، كما كانت من قبل ، عاصمة الدولة ، وقلما كانت ترى الإمبراطوار ، ولكنها ظلت مركز الحياة الاجتماعية والذهنية فى الغرب . وفى رومة كانت أعلى درجات الطبقة الأرستقراطية الإيطالية الجديدة . ولم تكن هذه ، كما كانت من قبل ، طبقة وراثية ، بل كانت طائفة يختارها الأباطرة بين الفينة والفينة على أساس الملكية العقارية . وكان أعضاء مجلس الشيوخ يعيشون بأعظم مظاهر الأبهة والفخامة وإن كان مجلسهم قد فقد بعض هيبته وكثيراً من سلطانه . وكانوا يشغلون بعض المناصب الإدارية الهامة ويظهرون فيها كثيراً من المقدرة والكفاية ، ويقيمون الألعاب العامة على نفقتهم الخاصة . وكانت بيوتهم غاصة بالخدم مملوءة بالأثاث الغالى الثمن ، وليس أدل على ذلك من أن طنفسة واحد قد كلفت صاحبها ما قيمته أربعمائة ألف ريال أمريكى [٢١] . وتكشف رسائل سماكوس Symmacus وسيدنيوس Sidonius . كما يكشف شعر كلوديان عن الناحية الطيبة من حياة أولئك الأشراف الجدد ، وما تمتاز به من نشاط اجتماعى وثقافى ، وخدمة للدولة وولاء لها ، وما كان بينهم من صداقة ورقة ، وإخلاص متبادل بينهم وبين أزواجهم ، وحب لأبنائهم وعطف عليهم .

لكن قساً من مرسيلية عاش فى القرن الخامس قد صور الحالة فى إيطاليا وغالة بصورة أقل جاذبية من الصورة السابقة . فقد عالج سلفيان Salvian فى كتابه « عن حكومة الله » (حوالى ٤٥٠) نفس المشكلة التى أوحت إلى أوغسطين بكتابه « مدينة الله » وإلى أورسيوس Arosius بكتابه « التاريخ ضد الوثنيين » — وهى كيف يستطاع التوفيق بين الشرور الناجمة من غزوات البرابرة وبين

العناية الإلهية الرحيمة الخيرة ؟ وقد أجاب سلڤيان عن هذا السؤال بأن الآلام التي يقاسيها سكان الإمبراطورية إن هي إلا قصاص عادل لما كان متفشياً في العالم الروماني من استغلال اقتصادي ، وفساد سياسي ، واستهتار أخلاقي ؛ ويؤكد لنا أنا لا نستطيع أن نجد بين البرابرة مثل ما نجده بين الرومان من ظلم الأغنياء للفقراء ، لأن قلوب البرابرة أرق من قلوب الرومان ؛ ولو أن الفقراء وجدوا وسيلة للانتقال لهاجروا بقضهم وقضيضهم ليعيشوا تحت حكم البرابرة[٢٢] . ويواصل هذا الواعظ الأخلاقي وصفه فيقول إن الأغنياء والفقراء ، والوثنيين والمسيحيين ، في داخل الإمبراطورية كلهم غارقون في حمأة من الفساد لا يكاد التاريخ يعرف لها مثيلا ؛ فالزنى ، وشرب الخمر قد أصبحا من الرذائل المألوفة في هذه الأيام ، كما أضحت الفضيلة والاعتدال مثار السُخرية ومبعث الآلاف من الفكاهات القذرة ؛ وصار اسم المسيح لفظاً تدنسه أفواه الذين يسمونه إلهاً[٢٣] . ويمضي هذا التاستس Tacitus الثاني(*) فيدعونا إلى أن ننظر إلى الفرق بين هذا كله وبين ما يتصف به الألمان من قوة وشجاعة ، ومن مسيحية مليئة بالتقى خالية من التعقيد ، ومن لين في معاملتهم للرومان المغلوبين ، ومن ولاء متبادل بينهم ، ومن عفة قبل الزواج ، ووفاء بعده . لقد ذهل جيسريك Gaiseric الزعيم الوندالي إذ وجد حين استولى على قرطاجنة المسيحية أنه لا يكاد يخلو ركن فيها من بيت للدعارة ، فما كان منه إلا أن أغلق هذه المواخير وخير العاهرات بين الزواج والنفي . وجملة القول أن العالم الروماني سائر إلى الانحطاط جسمياً ، وقد فقد كل ما كان يتصف به من شجاعة أدبية ، وترك الدفاع عنه إلى الأجانب المأجورين . ويختم سلڤيان هذا الوصف بقوله إن الإمبراطورية الرومانية « إما أن تكون قد ماتت وإما أنها تلفظ آخر أنفاسها » ؛ وإذا كنا نراها في ذروة ترفها وألعابها ، فإنها تضحك حين تموت Moritur et ridet[٢٤] .

(*) أي الذي ينحو منحى تاستس في تهجمه . (المترجم)

تلك صورة مروعة ، ظاهر فيها الغلو ، لأن البلاغة قلما تصحبها الدقة ، وما من شك فى أن الفضيلة قد توارت حياء فى ذلك الوقت كما تتوارى الآن ، وأفسحت الطريق للرذيلة ، والبؤس ، والسياسة ، والجريمة . ويرسم أوغسطين صورة لا تقل عن هذه الصورة قتاما يهدف بها إلى مثل هذه الغاية الأخلاقية ؛ فهو يشكو من أن الكنائس كثيراً ما تخلو من المصلين لأن البنات الراقصات فى دور التمثيل يجتذبن الناس منها بما يعرضنه من فتنهن السافرة(٣٥). وكانت الألعاب العامة لا تزال تشهد قتل الأسرى والمجرمين ليستمتع الناس بهذه المناظر البشعة فى أعيادهم . وفى وسعنا أن نتصور ما فى هذه المناظر من قسوة حين نقرأ ما يقوله سماكوس من أنه أنفق ما قيمته ٩٠٠ر٢٠٠ ريال

أمريكى فى إقامة حفلة واحدة ، ومن أن المجالدين السكسون التسعة والعشرين الذين وقع الاختيار عليهم ليقاتلوا فى المجتلد قد فوتوا عليه غرضه بأن خنقوا بعضهم بعضاً فانتحروا جميعاً قبل أن تبدأ الألعاب(٢٦). وكان لرومة فى القرن الرابع ١٧٥ عيداً فى العام ، منها عشرة تقام فيها مباريات المجالدين ، وأربعة وستون تعرض فيها ألعاب الوحوش ، وما بقى منها بعد ذلك تعرض فيه مناظر فى دور التمثيل(٢٧) . واغتنم البرابرة فرصة ولع الرومان بهذه المعارك الزائفة فانقضوا على قرطاجنة ، وأنطاكية ، وترير Trier حين كان الأهلون منهمكين فى مشاهدتها فى المدرجات أو حلبات اقتتال الوحوش(٢٨) . وحدث فى عام ٤٠٤ أن أقيمت فى رومة ألعاب للمجالدين احتفالا بذكرى انتصار استلكو فى پولنتيا نصراً مشكوكاً فيه . وحين بدأ الدم يراق قفز راهب شرقى يدعى تلمكس Telemachus من مقاعد النظارة إلى المجتلد ونادى بوقف القتال . ولكن النظارة استشاطوا غضباً فأخذوا يرجمونه بالحجارة حتى قتلوه ؛ وأثر هذا المنظر فى الإمبراطور هونوريوس فأصدر مرسوماً بإلغاء

ألعاب المجالدين(*) . أما السباق فقد بقى حتى عام ٥٤٩ حين قضى عليه استنزاف الحروب القوطية لثروة المدن .

أما من الناحية الثقافية فلم تشهد رومة منذ أيام بلنى وتاستوس عصراً نشطت فيه الثقافة مثل ما نشطت فى ذلك الوقت . لقد كان كل إنسان مولعاً بالموسيقى حتى لقد شكا أميانوس(٢٩) من أنها قد حلت محل الفلسفة ، وأنها قد « حولت دور الكتب إلى مقابر » ؛ وهو يصف لنا أراغن مائية ضخمة ، وقيثارات فى حجم المركبات . وكانت المدارس كثيرة العدد ، ويقول سماكوس إن كل إنسان كان يجد الفرصة سانحة لتنمية ملكاته(٣٠) . وكانت « جامعات » الأساتذة الذين تؤدى لهم الدولة رواتبهم تعلم النحو ، والبلاغة ، والأدب ، والفلسفة لطلاب جاءوا إليها من جميع الولايات الغربية ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه البرابرة المحيطون بالدولة يدرسون فنون الحرب . إن كل حضارة ثمرة من ثمار شجرة الهمجية الصلبة وهى تسقط حين تسقط عند أبعد نقطة من جزع هذه الشجرة .

وجاء إلى المدينـــة التى يبلغ عدد سكانها مليوناً من الأنفس حوالى عام ٣٦٥ يونانى سورى ، كريم المحتد ، وسيم الخلق ، يدعى أميانوس مرسلينوس الأنطاكى . وكان من قبل جندياً تحت قيادة أرسينوس Ursinus فى أرض الجزيرة ، واشترك بنشاط فى حروب قنسطنطيوس ويوليان ، وچوڤيان . وقد عاش هذا الرجل عيشة الجد والعمل قبل أن يشتغل بالكتابة . ولما عاد السلام إلى ربوع الشرق ارتحل إلى رومة وأخذ على عاتقه إتمام العمل الذى بدأه ليڤى وتاستوس ، وذلك بكتابة تاريخ الإمبراطـــورية من عهد نيفا إلى عهد ڤالنز . وكتب بلغة لاتينية عسيرة معقدة ، تشبه اللغة الفرنسية إذا ما كتبها ألمانى ؛ وكان من أسباب هذا العسر والتعقيد فى

(*) ومرجعنا الوحيد فى هذا هو « التاريخ الكنسى Historia Ecclesiastica » (فى المجلد العشرين) تأليف ثيودريت الأنطاكى . وقد تكون هذه القصة من الأكاذيب التى توحى بها التقوى للمؤرخين .

كتاباته كثرة ما قرأه من كتابات تاستوس وطول الزمن الذى كان يتكلم فيه اللغة اليونانية . وكان هذا الرجل وثنياً سافراً ، من المعجبين بيوليان ، ومن الذين يزدرون الترف الذى كان يعزوه إلى أساقفة رومة ؛ ولكنه رغم هذا كله كان بوجه عام منزها عن الهوى فيما كتب ، يمتدح كثيراً من فضائل المسيحية ، ويلوم يوليان على تقييده الحرية العلمية، ويقول إن هذا خطأ يجب « أن يقضى عليه بالسكوت الأبدى »[٣١] . وكان قد حصل من العلم أقصى ما يسمح وقت الجندى له بتحصيله . وكان يؤمن بالشياطين والسحر ، ويقتبس من شيشرون أكبر المعارضين للقدرة على معرفة الغيب ما يؤيد به هذه العقيدة[٣٢] . ولكنه كان إلى حد كبير رجلا شريفاً لا يداجى ولا يجامل ، عادلا مع جميع الناس وجميع الأحزاب ؛ « لا أزين قصتى بالألفاظ الخداعة ، أمين على الحقائق إلى أبعد حدود الأمانة »[٣٣] . وكان يكره الظلم ، والبذخ ، والمظاهر الكاذبة ، ويجهر برأيه فيها أينما وجدت ؛ وكان آخر المؤرخين اليونان والرومان الأقدمين ، وكان كل من جاء بعده فى العالم اللاتينى مجرد إخباريين ..

لكن مكروبيوس Macerobius قد وجد فى هذه المدينة نفسها ، أى فى رومة ، التى كانت أخلاقها فى نظر أميانوس وضيعة متعاظمة فاسدة ، مجتمعاً من الناس ، يجملون ثراءهم باللطف والكياسة ، والثقافة ، ومحبة الناس . وكان مكروبيوس هذا فى أول الأمر من رجال العلم مولعاً بالكتب وبالحياة الهادئة ، لكننا نجده فى عام ٣٩٩ يعمل مبعوثاً للإمبراطور فى أسپانيا . وقد أصبح تعليقه على كتاب شيشرون المسمى « أحلام سپيو » الوسيلة التى انتقل بها تصوف الأفلاطونية الجديدة وفلسفتها إلى عامة الشعب . وخير كتبه على الإطلاق هو كتاب الساترناليا Saturnalia أو عيد زحل الذى لا يكاد كتاب تاريخى فى الخمسة عشر قرناً الأخيرة يخلو من مقتبسات منه . وهو مجموعة من (غرائب الأدب) أورد فيه المؤلف ما حصله من معلومات غير متجانسة فى أيام جده ودراسته ،

ولياليه الطوال التى قضاها ينقب فى بطون الأسفار . وقد تفوق فى كتاباته على ألوس چليوس Oulus Gellius فى الوقت الذى كان يسطو عليه ، ذلك بأنه صاغ المادة التى أخذها عنه فى صورة حوار خيالى بين رجال حقيقيين هم پريتكستاتوس Proetextatus وسياخوس Symmachus ، وفلاڤيان ، وسرڤيوس وغيرهم ممن اجتمعوا ليحتفلوا بعيد الساترناليا بالخمر الطيب ، والطعام الشهى ، والنقاش العلمى . وألقيت فى هذا النقاش على الطبيب ديزاريوس Disarius أسئلة علمية منها : هل الطعام البسيط خير من الطعام المتعدد الألوان ؟ ولم يندر أن ترى امرأة سكرى ؟ ولم يسكر المسنون من الرجال على الدوام ؟ هل طبيعة الرجال أقل أو أكثر حرارة من طبيعة النساء ؟ . ويدور النقاش حول التقويم ، وفيه تحليل طويل لألفاظ ڤرچيل ، ونحوه ، وأسلوبه ، وفلسفته ، وسرقاته ؛ وفيه فكاهات مأخوذة من جميع العصور ؛ ورسالة عن الولائم الدسمة ، والأطعمة النادرة . وتبحث فى المساء مسائل أخف من هذه يتسلى بها هؤلاء العلماء منها : لم تحمر وجوهنا من الخجل وتصفر من الخوف ؟ — ولم يبدأ الصلع من أعلى الرأس ؟ وأيهما أسبق من الآخر الفرخ أو البيضة ؟

ونجد فى مواضع متفرقة من هذا الخليط المهوش فقرات سامية كالتى يتحدث فيها پريتكستاتوس عن الرق فيقول :

لن أقدّر الناس بمراكزهم بل بآدابهم وأخلاقهم ، لأن الثانية ثمرة طباعنا أما الأولى فهى نتيجة الصدفة . . وينبغى لك يا إفنجيلوس أن تبحث عن أصدقائك فى منزلك لا فى السوق العامة ولا فى مجلس الشيوخ . عامل عبدك بالرفق والحسنى ، وأشركه فى حديثك ، وأدخله أحياناً فى مجالسك الخاصة . وقد عمل أباؤنا على محو الكبرياء من نفس السيد والخجل من نفس العبد بأن سموا الأول « والد الأسرة » وسموا الثانى « أحد أفراد الأسرة » وإن عبيدك يبادرون إلى احترامك أكثر من مبادرتهم إلى خوفك(٣٥) .

وكانت ندوة شبيهة بهذه الندوة هى التى رحبت فى عام ٣٩٤ بأن ينضم إليها شاعر شاءت الأقدار أن يتغنى بمجد رومة فى ساعة احتضارها . ولد كلودبوس كلوديانوس Claudius Claudianus كما ولد أميانوس ، فى بلاد الشرق ، وكانت لغته الأصلية هى اللغة اليونانية . ولكنه تعلم اللاتينية بلا ريب فى حداثة سنه ، لأنه كان يكتب بها بأسلوب سلس . وبعد أن أقام فى رومة زمناً قصيراً نزح إلى ميلان ، واستطاع أن يجد له مكاناً فى أركان حرب استلكو ، ثم صار شاعراً غير رسمى لبلاط الإمبراطور هو نوريوس ، وتزوج سيدة ذات ثراء من أسرة شريفة . وكان كلوديوس يترقب أن تواتيه الفرصة الكبرى ولا يحب أن يموت وهو خامل الذكر . ولذلك كان يمدح استلكو بقصائد عصماء ويهاجم أعداءه بقصائد أخرى حوت أقذع الألفاظ . وعاد إلى رومة فى عام ٤٠٠ ولقى منها أعظم آيات الشكر والترحاب حين مدح المدينة الخالدة فى قصيدة « عن قنصلية استلكو » لا تقل روعة عن قصائد فرجيل نفسه :

أيا قنصل الناس جميعاً ، ويا من تضارع الآلهة فى المنزلة ، وأنت حامى المدينة التى لا تدانيها مدينة يحيط بها الهواء الذى على سطح الأرض ، ولا تبلغ مداها العين ، ولا يتصور جمالها الخيال ، ولا يوفيها صوت مهما علا حقها من الثناء . إنها ترفع هامتها الذهبية تحت ما جاورها من النجوم ، وتحاكى بتلالها السبعة السبع السموات العلى . هى أم الجيوش والشرائع التى عنت بجبروتها الأرض بأجمعها وكانت أقدم مهد للعدالة على ظهر الأرض . تلك هى المدينة التى نشأت نشأة متواضعة ، ولكنها امتدت إلى القطبين وبسطت سلطانها من مكانها الصغير حتى بلغ مداه منتهى ما يصل إليه ضياء الشمس . . . فهى دون غيرها من البلاد قد فتحت صدرها لاستقبال من غلبتهم على أمرهم ، وعاملت الجنس البشرى معاملة الأم الرؤوم لا معاملة الحاكم المتغطرس ، فحمته وخلعت عليه اسمها ، ودعت من هزمتهم إلى مشاركتها فى حقوق المواطنية ، وربطت الشعوب البعيدة برباط

المحبة . وبفضل حكمها السلمى أصبح العالم كله وطناً لنا ، نعيش فيه أينما شئنا ، وأصبح فى مقدورنا أن نزور ثول Thule ونرتاد براريها التى كانت من قبل تقذف الرعب فى القلوب ، والتى أصبح ارتيادها الآن نزهة هينة ، وبفضلها يستطيع كل من أراد أن يشرب من مياه الرون ويعب من مجرى نهر العاصى ، وبفضلها صرنا كلنا شعبا واحدا(٣٦) .

وأراد مجلس الشيوخ أن يعبر لكلوديوس عن شكره واعترافه بفضله فأقام فى سوق تراچان تمثالا « لأجلّ الشعراء » الذى جمع بين سلاسة ڤرچيل ، وقوة هومر . وقضى كلوديان بعض الوقت يقرض الشعر فى موضوعات تدر عليه المال ، ثم وجه مواهبه وجهة أخرى فأنشأ قصيدته « اغتصاب برسبرين Brosperine » وقص فيها القصة القديمة وصور البر والبحر وأسبغ على تلك الصورة من رقيق النغم ما يعيد إلى الذاكرة روايات الحب اليونانية فى العصر الذى ظهرت فيه أول مرة . وبلغه فى عام ٤٠٨ أن استلكو قد قتل غيلة ، وأن الكثيرين من أصدقاء هذا القائد قد قبض عليهم وأعدموا . واختفى الرجل بعدئذ من ميدان التاريخ فلم نعرف باقى قصته .

وبقيت فى رومة كما بقيت فى الإسكندرية أقليات وثنية كبيرة العدد ، وكان فيها حتى نهاية القرن الرابع سبعمائة هيكل وثنى(٣٧) . ويبدو أن چوڤيان وڤلنتنيان الأول لم يغلقا الهياكل التى فتحها يوليان ؛ فظل القساوسة الرومان حتى عام ٣٩٤ يجتمعون فى مجامعهم المقدسة ، وظلت أعياد اللوپركاليا يحتفل بها بكل ما فيها من شعائر نصف همجية ، كما ظلت الطريق المقدسة تتردد فيها بين الفينة والفينة أصداء خوار الأثوار التى تساق للضحية .

وكان أعظم الناس إجلالا بين الوثنيين فى رومة فى أيامها الأخيرة هوفتيوس پريتكستاتوس ، زعيم الأقلية الوثنية فى مجلس الشيوخ . وكان الناس جميعا يعترفون بفضائله — باستقامته ، وعلمه ، ووطنيته ، وحياته العائلية اللطيفة . ومن

الناس من يقول إنه يماثل كاتو وسنسناتوس Cincinnatus ؛ ولكن الزمان يذكر أكثر منه صديقه سياخوس (٣٤٥ — ٤١٠) ، الذى ترسم رسائله صورة رائعة ساحرة للأرسقراطية التى كانت تظن نفسها مخلدة وهى تحتضر . وحتى أسرته نفسها قد بدت أنها من المخلدين : فقد كان جده قنصلا فى عام ٣٦٤ ، وكان هو نفسه حاكماً فى عام ٣٨٤ ، وقنصلا فى عام ٣٩١ . وكان ابنه بريتورا ، وحفيده قنصلا فى عام ٤٨٥ بعد وفاة جده ، وكان اثنان من أحفاد أحفاده قنصلين فى عام ٥٢٢ . وكان سو دا نروة طائلة ؛ فقد كانت له ثلاثة قصور ريفية بالقرب من رومة ، وسبعة أخرى فى لانيوم ، وخمسة على خليج نابلى ، فضلا عن قصور أخرى مثلها فى أماكن أخرى من إيطاليا ؛ وبفضل هذه القصور «كان فى وسعه أن يسافر من أقصى شبه الجزيرة إلى أقصاها ثم يأوى إلى منزله فى كل مكان يحل به[٣٨] » . ولا يذكر لنا التاريخ أن أحداً من الناس كان يحسده على ثرته ، لأنه كان ينفق منها بسخاء وينميها بحياة الدرس ، والخدمة العامة ، والأخلاق الفاضلة ، وأعمال البر والإنسانية ، التى لا تعرف فيها شماله ما تفعل يمينه . وكان من أصدقائه الأوفياء مسيحيون ووثنيون ، وبرابرة ورومان . ولعله كان يضع وثنيته قبل وطنيته ؛ فقد كان يظن أن الثقافة التى يمثلها ويستمتع بها وثيقة الصلة بالدين القديم ، وكان يخشى أن يؤدى سقوط أيهما إلى سقوط كليهما . ويعتقد أن المواطن بإخلاصه للشعائر القديمة يحس أنه حلقة فى سلسلة مترابطة متصلة أعجب اتصال — تمتد من رميولوس إلى ثلنتنيان ، وأن هذا الإخلاص يبعث فى نفسه حب المدينة وحب الحضارة التى نشأت بفضل الأجيال المتعاقبة خلال ألف عام . وقد استحق كونتوس أورليوس سياخوس بفضل خلاله الطيبة أن يختاره مواطنوه ممثلا لهم فى آخر كفاحهم الرائع فى سبيل آلهتهم .

وقد استطاع أمبروز أن يجعل الإمبراطور جراتيان مسيحياً متحمساً لدينه ، وأغراه تحمسه للدين القديم أن يعلن على الملأ أن العقيدة النيقية فريضة واجبة

« على جميع الشعوب الخاضعة لحكمنا الرحيم » ، وأن أتباع غيرها من العقائد « مفتونون مسلوبو العقول »[٣٩] ، وفى عام ٣٨٢ أمر ألا تؤدى خزانة الإمبراطورية أو خزائن البلديات أية إعانات لإقامة الاحتفالات الوثنية ، أو للعذارى القستية أو الكهنة الوثنيين ، ثم صادر الأراضى التى تملكها الهياكل ، وجماعات الكهنة ، وأمر أتباعه بأن يرفعوا من قاعة مجلس الشيوخ فى رومة تمثال إلهة النصر الذى أقامه فيها أغسطس فى عام ٢٩ ق . م ، والذى ظل اثنا عشر جيلا من الشيوخ يقسمون بين يديه يمين الولاء للإمبراطور ؛ وانتدب مجلس الشيوخ وفدا برياسة سياخوس يشرح لجراتيان قضية تمثال النصر هذا ، ولكن جراتيان أبى أن يستقبل الوفد ، وأمر بنفى سياخوس من رومة (٣٨٢) ؛ وفى عام ٣٨٣ قتل جراتيان وبعث هذا الأمل فى مجلس الشيوخ فأرسل وفداً إلى خليفته على العرش ؛ وكانت الخطبة التى ألقاها سياخوس بين يدى ڤلنتنيان الثانى آية من آيات الدفاع البليغ ، وكان مما قاله فيها إنه ليس من الحكمة فى شىء أن يقضى هذا القضاء العاجل المفاجئ على شعائر دينية ظلت طوال ألف عام مرتبطة أشد الارتباط باستقرار النظام الاجتماعى وهيبة الدولة ، ثم قال : « ماذا يهمنا ، فى آخر الأمر ، أى طريق يسلكه إنسان ليصل به إلى الحقيقة ؟ والحق أن فى وسع الناس أن يصلوا إلى معرفة هذا السر العظيم من طريق واحد »[٤٠] .

وتأثر ڤلنتنيان الشاب بهذا القول ، ويقول أمبروز إن من كان فى المجلس الإمبراطورى من المسيحيين أنفسهم قد أشاروا على الإمبراطور بإعادة تمثال النصر إلى مكانه ، ولكن أمبروز ، وكان فى ذلك الوقت غائبا فى بعثة دبلوماسية للدولة ، تغلب على المجلس برسالة قوية مليئة بالكبرياء والغطرسة أرسلها إلى الإمبراطور . وعدد فيها حجج سياخوس حجة بعد حجة ، ثم دحضها كلها بما وهب من قوة وبلاغة . وقد حوت هذه الرسالة ما يعد فى الواقع تهديداً

للإمبراطور بإخراجهمن حظيرة الدين إذا أجاب الوفد إلى طلبه ، « قد يكون فى وسعك أن تدخل الكنيسة ولكنك لن تجد فيها قساً يستقبلك ، أو أنك قد تجدهم فيها ايحرموا عليك دخولها »[41] . وكان من أثر ذلك أن رفض ڤلنتنيان طلب مجلس الشيوخ .

وبذل الوثنيون فى إيطاليا مجهوداً آخر فى عام ٣٩٣ ، فأعلنوا الثورة وخاطروا فى سبيل غايتهم بكل شىء . وكان ثيودوسيوس قد أبى أن يعترف بالإمبراطور يوچنيوس نصف الوثنى ، فرأى هذا الإمبراطور أن يستعين بوثنى الغرب فى دفاعه عن نفسه ، فأعاد تمثال النصر إلى مكانه ، وتباهى بقوله إنه حين يتم له النصر على ثيودسيوس سيربط خيله فى الكنائس المسيحية . وسار نقوماكس خوس فلاڤيانوس Nicomachus Flavianns زوج ابنة سماخوس ، على رأس جيش ليساعد به يوجنيوس ، فقاسمه الهزيمة وانتحر . وزحف ثيودوسيوس على رومة ، وأرغم مجلس الشيوخ على أن يعلن إلغاء الوثنية بجميع أشكالها (٣٩٤) . ولما نهب ألريك رومة حسب الوثنيون أن ما أصاب هذه المدينة التى كانت من قبل سيدة العالم من إذلال كان نتيجة غضب الآلهة الذين تخلت عنهم . وفككت حرب الأديان هذه وحدة الشعب . وحطمت قواه المعنوية ، ولما أن وصل إليهم سيل الغزو الجارف لم يجدوا وسيلة يواجهونه بها إلا تبادل اللعنات والصلوات المتنافرة .

الفصل الرابع

تيار البرابرة الجارف

عقب أولمبيوس على الأمر القاضى بقتل استلكو بأمر آخر يقضى بقتل آلاف من أتباعه ومنهم رؤساء فيالقه البربرية . وكان ألريك يتحين الفرصة السانحة له وراء جبال الألب ، فوجد فى هذا فرصته السانحة ولم يدعها تفلت من يده ؛ فقال إن الأربعة الآلاف من الأرطال الذهبية التى وعد الرومان بأدائها إليه لم تصله بعد ، وقال إنه فى نظير هذا المال يرضى أن يقدم أنبل الشباب القوطى ضماناً لولاته فى مستقبل الأيام . فلما رفض هونوريوس طلبه اجتاز جبال الألب ونهب أكويليا وكرمونا ، وضم إليه ثلاثين ألفاً من الجنود المرتزقة الذين أغضبهم قتل زعمائهم ، وزحف بطريق فلامنيوس حتى وصل الى أسوار رومة (٤٠٨) . ولم يلق فى هذا الزحف مقاومة اللهم إلا من راهب واحد قال له إنه قاطع طريق ، فرد عليه ألريك بجواب حيره إذ قال له إن الله نفسه قد أمره بهذا الغزو . وارتاع مجلس الشيوخ كما ارتاع فى أيام هنيبال ، ودفعه الروع إلى ارتكاب أعمال وحشية . فقد ظن أن أرملة استلكو كانت تساعد ألريك فأمر بقتلها ؛ ورد ألريك على هذا بقطع كل الطرق التى يمكن أن يصل منها الطعام إلى العاصمة ، وسرعان ما أخذ الناس يموتون فيها من الجوع ، وشرع الرجال يقتل بعضهم بعضاً ، والنساء يقتلن أبناءهن ليتخذنهم طعاماً . وسار وفد من أهل المدينة إلى ألريك ليسأله عن شروط الصلح ؛ وهددوه بأن ألف ألف من الرومان على استعداد لمقاومته ، فتبسم ضاحكاً من قولهم وأجابهم « كلما ازداد سمك القش كان حصده أيسر » . ثم رق قلبه فرضى أن ينسحب إذا أعطى كل ما فى المدينة من ذهب وفضة ، وكل ما تحتويه من ثروة منقولة قيمة . ولما سأله المبعوثون : « وأى شىء بعد هذا يبقى لنا ؟ »

أجابهم فى ازدراء : « حياتكم » . وآثرت رومة أن تمضى فى المقاومة ؛ ولكن الجوع اضطرها أن تطلب شروطاً جديدة للاستسلام ؛ فقبل ألريك منها ٥٠٠٠ رطل من الذهب وثلاثين ألف رطل من الفضة ، وأربعة آلاف قباء من الحرير ، وثلاثة آلاف من جلود الحيوان ، وثلاثة آلاف رطل من الفلفل .

وفى هذا الوقت عينه فر عدد لا يحصى من البرابرة الأرقاء من أسيادهم الرومان وانضموا تحت لواء ألريك . وكأن الأقدار شاءت أن تعوض الرومان عن هذه الخسارة ، ففر من جيش ألريك قائد قوطى يدعى ساروس Sarus وانضم إلى هونوريوس ، وأخذ معه قوة كبيرة من القوط ، وهاجم بها جيش البرابرة الرئيسى . وعد ألريك هذا العمل نقضاً للهدنة التى وقعها الطرفان ، فعاد إلى حصار رومة . وفتح أحد الأرقاء أبواب المدينة للمحاصرين ؛ وتدفق منه القوط ، واستولى العدو على المدينة الكبرى لأول مرة فى ثمانمائة عام (٤١٠) . ولبثت ثلاثة أيام مسرحاً للسلب والنهب بلا تمييز بين أماكنها أو أهلها اللهم إلا كنيستى القديسين بطرس وبولس فلم يمسسهما أحد بسوء ، وكذلك نجا اللاجئون الذين احتموا فيهما . غير أنه لم يكن من المستطاع السيطرة على من كان فى الجيش البالغ عدده أربعين ألف مقاتل من الهون والأرقاء . فذبح مئات من أغنياء المدينة ، واغتصبت نساؤهم ثم قتلن ، وبلغ من كثرة القتلى أن لم يعد من المستطاع دفن الجثث التى امتلأت بها الشوارع . ووقع فى أيدى الغزاة آلاف من الأسرى بينهم أخت لهونوريوس غير شقيقة تدعى جلا بلاسيديا Galla Placidia . وأخذ الفاتحون كل ما وقع فى أيديهم من الذهب والفضة ؛ وصهرت التحف الفنية للاستيلاء على ما فيها من معادن نفيسة ، وحطم العبيد السابقون روائع فنى النحت والخزف وهم فرحون مغتبطون انتقاماً منهم لما كانوا يعانونه من فقر وكدح ، هما اللذان أثمرا هذا الجمال وهذه الثروة . ثم أعاد ألريك النظام وزحف بجيشه جنوباً ليفتح صقلية ؛ ولكنه أصيب بالحمى فى هذه السنة عينها ومات بها فى كوسنزا Cosenza . وحول الأرقاء

مجرى نهر بوسنتو Busento ليفسحوا مكاناً آمناً رحباً ينشئون فيه قبره ، ثم أعيد النهر إلى مجراه الأصلى ، وقتل العبيد الذين قاموا بهذه الأعمال مبالغة فى إخفاء المكان الذى دفن فيه .

واختير أتلف Atilf (أدلف Adolf) صهر ألريك ليخلفه فى ملكه ورضى الملك الجديد أن يسحب جيشه من إيطاليا إذا تزوج بلاسيديا Placidia ، وأعطى القوط بوصفهم أحلاف رومة المتعاهدين معها غالة الجنوبية بما فيه نربونة Narbonne وطُلوشة (طولوز) ، وبردو ، ولتكون مملكة لهم يحكمونها مستقلة استقلالا ذاتياً . ورفض هونوريوس الشرط الخاص بالزواج ، لكن بلاسيديا قبلته ، وأعلن الزعيم القوطى أنه لا يبغى تدمير الإمبراطورية ، بل يريد المحافظة عليها وتقويتها ، وسحب جيشه من إيطاليا ، وأنشأ مملكة للقوط الغربيين فى غالة مستعيناً على إنشائها بمزيج من الدهاء السياسى والقوة الحربية . وكانت هذه المملكة من الوجهة النظرية خاضعة للإمبراطورية ، واتخذ طلوشة عاصمة لها (٤١٤) . وقتل الزعيم القوطى بعد سنة واحدة ، واعتزمت بلاسيديا من فرط حبها له أن تعيش من بعده أرملة طول حياتها ولكن هونوريوس وهبها للقائد قنسطنطيوس . ولما مات قنسطنطيوس (٤٢١) وهونوريوس (٤٢٣) أصبحت بلاسيديا وصية على ابنها فلنتنيان الثالث ، وحكمت الإمبراطورية الغربية ثلاثين عاماً حكماً يشرف بنات جنسها .

وكان الوندال حتى فى أيام ناستون ، أمة قوية كثيرة العدد تمتلك الأجزاء الوسطى والشرقية من روسيا الحالية . وكانوا قبيل حكم قسطنطين قد زحفوا جنوبا إلى بلاد المجر ، ولما بدد القوط الغربيون شملهم فى إحدى الوقائع الحربية ، طلب الباقون منهم أن يؤذن لهم بعبور الدانوب ودخول الإمبراطورية الرومانية . ووافق قسطنطين على طلبهم هذا ، وظلوا سبعين عاماً يتكاثرون ويتضاعف عديدهم فى

بنونيا Pannonia . وأثارت انتصارات ألريك حميتهم ؛ ولما سحبت الدولة فيالقها من وراء جبال الألب لتدافع بها عن إيطاليا ، تفتحت لهم أبواب الغرب واستهواهم بثروته ، حتى إذا كان عام ٤٠٦ زحفت جموع كبيرة من الوندال ، والألانى ، والسويڤى وعبرت نهر الرين وعاثت فساداً فى بلاد غالة ، ونهبوا مينز Manz وذبحوا كثيراً من أهلها ، ثم تحركوا شمالا إلى بلچيكا ، ونهبوا مدينة تيير Tier العظيمة وأحرقوها . ثم أقاموا الجسور على نهرى الموز Meause والآين Aisne ونهبوا ريمس Reims ، وأمين Amiens ، وأراس Arras ، وتورناى Tournai ، وواصلوا الزحف حتى كادوا يبلغون بحر المانش . ثم اتجهوا نحو الجنوب وعبروا نهرى السين Scine واللوار Loire ودخلوا أكوتانيا Aquitaine وصبوا جام غضبهم الوحشى على جميع مدنها تقريباً ما عدا طلوسة ، التى دافع عنها إكسبريوس Exuperius دفاع الأبطال . ورقفوا عند جبال البرانس ، ثم ولوا وجههم نحو الشرق ونهبوا نربونة ، وشهدت غالة من التخريب والتدمير الكامل ما لم تشهد له مثيلا من قبل .

وفى عام ٤٠٩ دخلوا أسپانيا وكان عددهم وقتئذ نحو مائة ألف . وكان الحكم الرومانى فى تلك البلاد قد أثقل كاهل أهلها بالضرائب ، وأدخل فيها إدارة منظمة ، وجمع الثروة ضياع واسعة ، وجعل الكثرة الغالبة من سكانها عبيداً ، أو رقيق أرض ، أو أحراراً يعانون ويلات الفقر المدقع . ولكن أسپانيا كانت بفضل ما فيها من استقرار وسلطان للقوانين أعظم ولايات الإمبراطورية رخاء ، وكانت مريدة ، وقرطاجنة ، وقرطبة ، وأشبيليه ، وطركونه Tarragona من أغنى مدائن الإمبراطورية وأعظمها ثقافة . وانقض الرندال والسويڤى والألانى على هذه الشبه الجزيرة التى كانت تبدو آمنة حصينة ، وأعملوا فيها السلب والنهب عامين كاملين حتى لم ينج فيها مكان من جبال البرانس إلى مضيق جبل طارق ، بل إن فتوحهم امتدت إلى سواحل إفريقية الشمالية . وأدرك هونوريوس أنه عاجز عن حماية

لأراضى الرومانية بالجيوش الرومانية ، فأغرى القوط الغربيين بالمال الوفير ليردوا إليه أسبانيا . وقام ملكهم القدير واليا Wallia بهذا العمل بعد عدة وقائع حربية أحكم خططها (٤٢٠) ، فارتد السويفى إلى شمالى أسبانيا ، كما ارتد الوندال إلى إقليم الأندلس (Andalusia) الذى لا يزال يسمى باسمهم حتى اليوم ، وأعاد ولاية أسبانيا إلى حوزة الإمبراطورية ، وكشف بذلك عما فى أخلاق ساسة الرومان من غدر ونكث بالعهود .

وكان الوندال لا يزالون يتوقون إلى الفتح والخبز ، فعبروا البحر إلى أفريقية (٤٢٩) . وإذا جاز لنا أن نصدق بروكپيوس Procopius[٤٣] ، وجردانيس Jordanes قلنا إنهم جاءوا إليها بدعوة من بنيفاس Boniface حاكم أفريقية الرومانى ليستعين بهم على منافسة إيتيوس Eetius الذى خلف استلكو ، لكن هذه القصة لا تعتمد على مصدر موثوق به . ومهما يكن من أمرها فإن ملك الوندال كان قادراً على خلق هذه الخطة . وكان جيرسيك ملك الوندال ابنا غير شرعى لعبد رقيق ، وكان أعرج لكنه قوى الجسم ، متقشفا زاهداً ، لا يهاب الردى فى القتال ، يتلهب غيظا إذا غضب ، ويقسو أشد القسوة على عدوه ولكنه عبقرى لا يغلب فى شئون الحرب والمفاوضة . ولما نزل إلى أفريقية انضم إلى من كان معه من الوندال ، والآلانى ، من جند ، ونساء ، وأطفال المغاربة الأفريقيين الذى ظلوا عهوداً طوالا حانقين على الحكم الرومانى ، كما انضم إليهم الدناتيون Donatist المارقون الذين كانوا يقاسون أشد أنواع الاضطهاد من المسيحيين أتباع الدين القويم . ورحب هؤلاء وأولئك بالغزاة الفاتحين وبالحكم الجديد . ولم يستطيع بينفاس أن يحشد من سكان شمالى أفريقية الرومانى البالغ عددهم ثمانية ملايين إلا عدداً ضئيلا يساعد جيشه الرومانى . ولما هزمته جحافل جيسريك هزيمة منكرة تقهقر إلى هبو Hippo حيث أثار القديس أوغسطين الطاعن فى السن حمية السكان فهبوا يدافعون عن بلدهم دفاع الأبطال ، وقاست المدينة أهوال الحصار أربعة عشر

شهراً كاملة (٤٣٠ — ٤٣١) ، انسحب بعدها جيسريك ليلقى جيشاً رومانياً آخر ، وأوقع به هزيمة منكرة اضطر على أثرها سفير فلنتنيان إلى أن يوقع شروط هدنة يعترف فيها باستيلاء الوندال على فتوحهم فى أفريقية . وحافظ جيسريك على شروط الهدنة حتى غافل الرومان وانقض على قرطاجنة الغنية واستولى عليها دون أن يلقى أية مقاومة (٤٣٩) . وجرد أشراف المدينة وقساوستها من أملاكهم ونفاهم أو جعلهم أقنان أرض . ثم استولى على كل ما وجده من متاع سواء منه ما كان لرجال الدين أو لغيرهم من الأهلين ، ولم يتردد فى الالتجاء إلى التعذيب للوقوف على مخابئه .

وكان جيسريك لا يزال وقتئذ فى شرخ الشباب ، وكان إدارياً قديراً أعاد تنظيم أفريقية وجعل منها دولة ذات ثراء تدر عليه المال الوفير ، ولكن أسعد أوقاته كان هو الوقت الذى يشتبك فيه فى القتال . وقد أنشأ له أسطولا ضخماً ، نهب به سواحل أسبانيا ، وإيطاليا ، وبلاد اليونان . وكان يفاجئ تلك البلاد حتى لم يكن أحد يدرى أى الشواطئ سترسو فيها سفنه المثقلة بالفرسان ، ولم تنتشر القرصنة فى غرب البحر المتوسط طوال أيام الحكم الرومانى دون أن تلقى مقاومة كما انتشرت فى تلك الأيام . واضطر الإمبراطور فى آخر الأمر أن يعقد الصلح مع ملك البرابرة ليحصل بذلك على القمح الذى تطعم منه رافنا ورومة ، ولم يكتف بذلك بل وعده أن يزوجه إحدى بناته . وكانت رومة فى هذه الأثناء لا تزال تضحك وتلعب لاهية عما سيحل بها بعد قليل من دمار .

وكانت ثلاثة أرباع قرن قد انقضت مذ دفع الهون أمامهم البرابرة الغزاة بعبورهم نهر الفلجا . ثم تباطأ بعد ذلك زحف الهون نحو الغرب فكان هجرة على مهل ، وكان أشبه بانتشار المستعمرين فى القارة الأمريكية منه بفتوح ألريك وجيسريك . وما لبثوا أن استقروا بعدئذ شيئاً فشيئاً فى داخل بلاد المجر ، وبالقرب منها ، وأخضعوا لحكمهم كثيراً من القبائل الألمانية .

ومات روا Rua ملك الهون حوالى عام ٤٣٣ وأورث عرشه بليدا Baleda وأتلا Atilla ابنى أخيه . ثم قتل بليدا — بيد أتلا كما يقول بعضهم — حوالى عام ٤٤٤ ، وتولى أتلا (ومعنى اللفظ باللغة القوطية الأب الصغير) حكم القبائل المختلفة الضاربة شمال نهر الدانوب من الدن إلى الرين . ويصفه جردانس المؤرخ القوطى وصفاً لا نعرف مقدار ما فيه من الدقة فيقول :

هو رجل ولد فى هذا العالم ليزلزل أقدام الأمم ، هو سوط عذاب سلط على الأرض ، روع سكان العالم أجمع بما انتشر حوله من الشائعات فى خارج البلاد ، وكان جباراً متغطرساً فى قوله ، يقلب عينيه ذات اليمين وذات الشمال ، يظهر فى حركات جسمه ما تنطوى عليه نفسه من قوة وكبرياء . وكان فى الحق أخا غمرات محباً للقتال ، ولكنه يتمهل فيما يقدم عليه من أعمال ، وكان عظيماً فيما يسدى من نصيح ، غفوراً لمن يرجو منه الرحمة ، رؤوفاً بمن يضع نفسه تحت حمايته . وكان قصير القامة ، عريض الصدر ، كبير الرأس ، صغير العينين ، رقيق شعر اللحية قد وخطه الشيب . وكان أفطس الأنف ، أدكن اللون ، تنم ملامحه على أصله[٤٦] .

وكان يختلف عن غيره من البرابرة فى أنه يعتمد على الختل أكثر من اعتماده على القوة . وكان يحكم شعبه باستخدامه خرافاته لتقديس ذاته العليا ، وكان يمهد لانتصاراته بما يذيعــه من القصص المبالغ فيها عن قسوته ، ولعله هو الذى كان ينشئ هذه القصص إنشاء ، حتى لقد سماه أعداؤه المسيحيون آخر الأمر « بسوط الله » ، وارتاعوا من ختله ارتياعاً لم ينجهم منه إلا القوط ، وكان أمياً لا يستطيع القراءة أو الكتابة ، ولكن هذا لم ينقص من ذكائه الفطرى . ولم تكن أخلاقه كأخلاق المتوحشين ، فقد كان ذا شرف ، وكان عادلا ، وكثيراً ما أظهر أنه أعظم كرماً وشهامة من الرومان . وكان بسيطاً فى ملبسه ومعيشته ، معتدلا فى مأكله ومشربه ، يترك الترف لمن هم دونه ممن يحبون التظاهر بما عندهم من آنية فضية وذهبية ، وسروج ، وسيوف وأثواب مزركشة تشهد بمهارة أصابع أزواجهم .

وكان لأتلا عدد كبير من أولئك الأزواج ولكنه كان يحتقر ذلك الخليط من وحلة الزواج والدعارة الذى كان منتشراً عند بعض الطوائف فى راڤنا وروما . وكان قصره بيتاً خشبياً ضخماً أرضه وجدرانه من الخشب المسوى بالمسحج ، ولكنه يزدان بالخشب الجميل الصقل والنحت ، فرشت فيه الطنافس والجلود ليتقى بها البرد . وكانت عاصمة ملكه قرية كبيرة أغلب الظن أنها كانت فى مكان بودا Buda الحالية ، وقد ظل بعض المجريين حتى هذا القرن يطلقون على هـــذه المدينة اسم إتزلنبرج Etzelnburg أى مدينة أتلا .

وكان الوقت الذى نتحدث عنه (٤٤٤) أقوى رجل فى أوربا ، وكان ثيودوسيوس الثانى إمبراطور الدولة الشرقية ، وفلنتنيان إمبراطور الغرب يعطيانه الجزية يشتريان بها السلام ، ويتظاهرون أمام شعوبهما بأنها ثمن لخدمات يؤديها أحد أقيالهما . ولم يكن أتلا ، وهو القادر على أن ينزل إلى الميدان جيشا من خمسمائة ألف مقاتل ، يرى ما يحول بينه وبين السيادة على أوربا كلها وبلاد الشرق بأجمعها . ففى عام ٤٤١ عبر قواده وجنوده نهر الدانوب ، واستولوا على سرميوم Sirmium ، وسنجديونوم Singidiunum (بلغراد) ونيسوس Naissus (نيش) وسرديكا Sardica (صوفيا) ، وهددوا القسطنطينية نفسها . وأرسل ثيودوسيوس الثانى جيشاً لملاقاتهم ، ولكنه هزم ، ولم تجد الإمبراطورية الشرقية بدأ من أن تشترى السلم برفع الجزية السنوية من سبعمائة رطل من الذهب إلى ألفى رطل ومائة . وفى عام ٤٤٧ دخل الهون تراقية ، وتساليا ، وسكوذيا ، (جنوبى روسيا) ونهبوا سبعين مدينة وساقوا آلافا من أهلها أرقاء . وأضيفت السبايا إلى أزواج المنتصرين ، ونشأ من ذلك جيل اختلطت فيه دماء الفاتحين والمغلوبين ترك آثاراً من الملامح المغولية فى الأقاليم الممتدة من الشرق حتى باڤاريا Bavaria ، وخربت غارات الهون بلاد البلقان تخريبا دام أربعة قرون ، وأتى على نهر الدانوب

حين من الدهر لم يعد فيه كما كان طريق التجارة الرئيسى بين الشرق والغرب ، واضمحلت لهذا السبب المدن القائمة على شاطئيه .

ولما أن استنزف أتلا دماء الشرق بالقدر الذى ارتضاه ولى وجهه نحو الغرب وتذرع لغزوه بحجة غير عادية . وخلاصة تلك الحجة أن هونوريا Honoria أخت فلنتنيان الثالث كانت قد نفيت إلى القسطنطينية بعد أن اعتدى على عفافها أحد رجال التشريفات فى قصرها . وتلمست هونوريا أية وسيلة للخلاص من النفى فلم تر أمامها إلا أن تبعث بخاتمها إلى أتلا وتستجيره ليساعدها فى محنتها ، واختار الملك الداهية ، الذى كانت له أساليبه الخاصة فى الفكاهة ، أن يفسر إرسال الخاتم بأنه عرض منها للزواج بها ، فطالب من فوره بهونوريا وبنصف الإمبراطورية الغربية بائنة لها ، ولما احتج وزراء فلنتنيان على الطلب أعلن أتلا الحرب . هذا هو السبب الظاهرى ، أما السبب الحقيقى فهو أن مرسيان Marcian الإمبراطور الجديد فى الشرق أبى أن يستمر على أداء الجزية وأن فلنتنيان قد حذا حذوه .

وفى عام ٤٥٠ زحف أتلا ومعه نصف مليون رجل على نهر الرين ، ونهبوا تريير ومتز Metz وأحرقوهما وقتلوا أهلهما . فقذف ذلك الرعب فى قلوب غالة كلها فقد علموا أن الغزاة ليس على رأسهم جندى متمدين كقيصر ، أو مسيحى — ولو كان من أتباع أريوس — مثل ألريك أو جيسريك ، بل كان الزاحف عليهم هو الهونى الرهيب ، سقوط الله المبعوث لعذاب المسيحيين والوثنيين على السواء لما هنالك من فوق شاسع بين أقوالهم وأعمالهم . وجاء ثيودريك الأول Theadoric 1 ملك القوط المعمر لينقذ الإمبراطورية من محنتها ، وانضم إلى الرومان بقيادة إيتيوس ، والتقت الجيوش الضخمة فى حقول قطلونيا Catalaunia بالقرب من ترويس ، ودارت بينها معركة من أشد معارك التاريخ هولا ، جرت

فيها الدماء أنهارا ، حتى ليقال إن ١٦٢٠٠٠ رجل قد قتلوا فيها من بينهم ملك القوط البطل المغوار ؛ وانتصر الغرب فى هذه المعركة نصراً غير حاسم ، فقد تقهقر أتلا بانتظام ، وأنهكت الحرب الظافرين ، أو لعلهم كانوا منقسمين على أنفسهم فى خططهم ، فلم يتعقبوا أتلا وجنوده ولهذا غزا إيطاليا فى العام التالى .

وكانت أول مدينة استولى عليها فى زحفه هى أكويليا Aquileia ، وقد دمرها تدميراً قضى عليها قضاء لم تقم لها بعده قائمة حتى اليوم ؛ أما فرونا Verona وفيسنزا Vicenza فقد عوملتا بشىء من اللين والرحمة واشترت پاڤيا وميلان نفسيهما من الغزاة بتسليم كل ما فيهما من ثروة منقولة . وبعد هذا فتحت الطريق إلى رومة أمام أتلا ؛ وكان جيش إيتيوس قليل العدد لا يقوى على أية مقاومة جدية ، ولكن أتلا تباطأ عند نهر الپو ، وفر فلنتنيان الثالث إلى رومة ، ثم أرسل إلى ملك الهون وفداً مؤلفاً من البابا ليو الأول واثنين من أعضاء مجلس الشيوخ . وما من أحد يعلم ما جرى حين اجتمع هذا الوفد بأتلا . وكان ليو رجلا مهيب الطلعة ، يعزو إليه المؤرخون معظم ما أحرزه الوفد من نصر لم ترق فيه دماء . وكل ما يذكره التاريخ عن هذا النصر أن أتلا قد ارتد لأن الطاعون فشا بين جنوده ، ولأن مؤونتهم كانت آخذة فى النفاد ، ولأن مرسيان كان يرسل المدد من الشرق (٤٥٢) ؛

وقاد أتلا جحافله فوق جبال الألب وعاد بها إلى عاصمته فى بلاد المجر ، متوعداً إيطاليا بالعودة إليها فى الربيع التالى إذا لم ترسل إليه هونوريا ، ليتخذها زوجة له . وقد استعاض عنها فى هذه الأثناء بشابة تدعى إلديكو Ildico ضمها إلى نسائه . وكانت هذه الفتاة هى الأساس التاريخى الواهى لقصة Kriemhild المسماة نيبل أنجليد Nibelungenlied . واحتفل بزفافها له احتفالا أثقلت فيها الموائد بالطعام والشراب . ولما أصبح الصباح وجد أتلا ميتاً فى فراشه إلى جانب زوجته

الشابة . وكان سبب موته انفجار أحد الأوعية الدموية ، فكتم الدم الذى تدفق منه نفسه وقضى عليه (٤٥٣)[٤٧] . وقسمت مملكته بين أولاده ، ولكنهم عجزوا عن المحافظة عليها ، فقد دبت الغيرة بينهم .ورفضت القبائل التى كانت خاضعة لأبيهم أن تظل على ولائها لهؤلاء الزعماء المتنازعين ، ولم تمض إلا بضع سنين حتى تقطعت أوصال الإمبراطورية التى كانت تهدد بإخضاع اليونان والرومان والألمان والغاليين لحكمها ، وتطبع وجه أوربا وروحها بطابع آسية ، ومحيت اليونان من الوجود .

الفصل الخامس

سقوط رومة

توفيت پلاسيديا فى عام ٤٥٠ ، وانفرد ڤلنتنيان بالملك يخبط فيه خبط عشواء ، وكان من أوخم أخطائه عاقبة أن استمع إلى نصيحة پترونيوس مكسموس فقتل إيتيوس الذى وقف زحف أتلا عند ترويس كما استمع هونوريوس إلى أولمپيوس فقتل استلكو الذى وقف زحف ألريك عند پولنتيا . ولم يكن لڤلنتنيان ولد ذكر ولم يرتح إلى رغبة إيتيوس فى أن يزوج ابنه يودوشيا Budocia ابنة ڤلنتنيان . وانتابت الإمبراطور نوبة جنونية من الغضب فأرسل فى طلب إيتيوس ، وذبحه بيده (٤٥٤) . وقال له رجل من رجال الحاشية : « مولاى ، لقد قطعت يمينك بشمالك » ولم تمض على هذا العمل بضعة أشهر حتى استطاع پترونيوس أن يغرى رجلين من أتباع إيتيوس بقتل ڤلنتنيان ، ولم يهتم أحد بتعقب القاتلين لأن القتل كان قد أصبح من عهد بعيد البديل الوحيد للانتخاب . واختار پترونيوس نفسه للجلوس على العرش ، وأرغم يودكسيا Eudoxia أرملة ڤلنتنيان على أن تتزوجه ، كما أرغم يودوشيا على أن تتزوج ابنه پلاديوس . وإذا جاز لنا أن نصدق أقوال پروكپيوس[٤٨] ، فإن يودكسيا استعانت بجيسريك ، كما استغاثت هونوريا قبل ذلك بأتلا . وكان لدى جيسريك من الأسباب ما يجعله يلبى هذه الاستغاثة : فقد أصبحت رومة غنية مرة أخرى على الرغم من انتهاب ألريك لها ، ولم يكن الجيش الرومانى بالجيش القوى الذى يستطيع الدفاع عن إيطاليا . وأبحر ملك الوندال بأسطول قوى لا يغلب (٤٥٥) ، ولم يقف أحد بينه وبين أستيا Ostia ورومة إلا پاپا أعزل وحمه بعض قساوسة رومة . ولم يقو البابا لوون في هذه المرة على

إقناع الفاتح بالارتداد عن رومه ، وكل ما استطاع أن يحصل عليه منه هو وعده بأن يمتنع عن ذبح السكان وتعذيبهم وإحراق المدينة . وأسلمت المدينة أربعة أيام كاملة للجند ينهبون فيها ويسلبون ؛ ونجت الكنائس المسيحية ، ولكن كل ما كان باقياً فى المعابد من كنوز نقل إلى سفن الوندال ، وكان من بين هذه الغنائم المناضد الذهبية ، والماثلات ذات الشعب السبع ، وغيرها من الآنية المقدسة التى جاء بها تيتوس Titus من هيكل سليمان إلى رومة منذ أربعة قرون . ونهب كذلك كل ما كان فى القصر الإمبراطورى من المعادن الثمينة ، والحلى ، والأثاث وكل ما كان باقياً فى بيوت الأغنياء من أشياء ذات قيمة . واتخذ آلافا من الأسرى عبيداً ، وفرق بين الأزواج وزوجاتهم ، وبين الأبناء وآبائهم ، وأخذ جيسريك الإمبراطورة يودكسيا وابنتيهما معه إلى قرطاجنة ، وزوج يودوسيا ابنه هونريك Huneric ؛ وأرسل الإمبراطورة وپلاسيديا (صغرى ابنتيهما) إلى القسطنطينية استجابة لطلب الإمبراطور ليو الأول . ولم يكن انتهاب رومة على هذا النحو فى واقع الأمر تخريبا لا يراعى فيه عرف أو قانون ، بل كان يتفق كل الاتفاق مع الشرائع القديمة للحروب . لقد ثأرت قرطاجنة لنفسها من قسوة رومة عليها فى عام ١٤٦ وكانت فى انتقامها هذا رقيقة رحيمة .

وضربت الفوضى وقتئذ أطنابها فى إيطاليا . ذلك أن خمسين عاما من الغزو والقحط والوباء قد تركت آلاف الضياع مخربة ، وآلاف الأفدنة بورا ؛ ولم يكن هذا لأن تربتها أنهكت من الاستغلال ، بل لأن هذه الأراضى أعوزها الرجال ؛ وأخذ القديس أمبروز (حوالى عام ٤٢٠) يرثى لخراب بولونيا Bologna ومودينا Modena ، وبياسنزا Piacenza ونقص عامرها ، ووصف البابا جلاسيوس Gelassius (حوالى ٤٨٠) أقاليم واسعة فى شمالى إيطاليا بأنها تكاد تكون مقفرة من الآدميين .

وتقص سكان رومة نفسها من مليون ونصف إلى ثلاثمائة ألف فى قرن

واحد [٤٩]؛ واختص الشرق وقتئذ دون غيره بجميع المدائن الكبرى الإمبراطورية . وهجر الناس الكمبانيا Campagna المحيطة برومة والتي كانت من قبل ملأى بالضياع الخصبة والقصور الصغيرة ولجأوا إلى المدن المسورة ليحتموا فيها من غارات الأعداء ؛ وانكمشت المدن نفسها فلم تعد تزيد مساحة أرضها على أربعين فداناً أو نحوها كي تكفي موارد أهلها تسويرها وحمايتها من الأعداء ؛ وكثيراً ما كانت الأسوار تبنى على عجل من أنقاض دور التمثيل والباسلقات والهياكل التي كانت من قبل بهجة المدن الإيطالية وسبب رونقها . على أن رومة قد بقي فيها قليل من الثروة حتى بعد جيسريك ، وانتعشت هي وغيرها من المدن الإيطالية فيما بعد تحت حكم ثيودريك واللمبارديين ؛ ولكن الفقر العام الذي حل في عام ٤٧٠ بالحقول والمدن ، وبأعضاء مجلس الشيوخ والعامة على السواء ، سحق أرواح الشعب الذي كان من قبل عظيماً وأذل نفسه ، فملك عليه اليأس والاستسلام قلبه ، وتشكك في الآلهة كلهم عدا بريابوس Priapus[*] واستولى عليه وجل كوجل الأطفال جعله يهاب تبعات الحياة ، وجبن غاضب ثائر يندد بكل استسلام ويفر من جميع الواجبات الحربية ، وكان يصحب هذا الانحطاط الاقتصادي والحيوي عفن ينخر سوسه في جميع طبقات الشعب ، في أرستقراطية في وسعها أن تخدم ولكنها عاجزة عن أن تحكم ؛ وفي رجال الأعمال المنهمكين في مكاسبهم الشخصية إنهماكاً يحول بينهم وبين العمل لإنقاذ شبه الجزيرة ، وفي قواد ينالون بالرشوة أكثر مما يستطيعون نيله بقوة السلاح ، وبيرقراطية منشعبة متضخمة خربت رواتبها خزائن الدولة ، وفسدت فساداً مستعصياً على العلاج وقصارى القول أن جذع هذه الشجرة العظيمة قد تعفن ، وآن لها أن تسقط .

وتوالت على عرش الإمبراطورية في السنين الأخيرة من حياتها طائفة من

(*) من آلهة الأقدمين وكان يمثل قوة التناسل عند الذكور ويقصد المؤلف بقوله هذا أن همهم كله كان في إشباع شهواتهم الجنسية . (المترجم)

الأباطرة ليس فيهم من هو فوق المتوسط . فقد أعلن القوط فى غالة قائداً لهم يدعى أفتوس Avitus إمبراطوراً (٤٥٥) ، ولكن مجلس الشيوخ أبى أن يقره ، فاستحال أسقفاً ؛ ولم يدخر ماچوريان Magorian (٤٥٦—٤٦١) جهداً فى إعادة النظام ، ولكن رئيس وزرائه رسمر Ricimer القوطى الغربى أنزله عن العرش . وكان سفيروس (٤٦١ — ٤٥٦) آلة صماء فى يد رسمر يفعل به ما يشاء ، وكان أنثيميوس Antheimus (٤٦٧—٤٧٢) فيلسوفاً نصف وثنى لا يرضى عنه الغرب ؛ فما كان من رسمر إلا أن ضرب عليه الحصار وقبض عليه وأمر بقتله وحكم أوليبريوس Olybrius برعاية رسمر شهرين (٤٧٢) ؛ ثم مات ميتة غريبة فى ذلك الوقت إذ كانت ميتة طبيعية . وسرعان ما خلع جليسريوس (٤٧٣) ، وظلت رومة عامين يحكمها يوليوس نيپوس Julius Nepos . وبينا كانت هذه الأحداث جارية فى ايطاليا ، انقض عليها خليط آخر من البرابرة — الهرولى Heruli ، والاسكيرى Sciri ، والروجى Rugii وغيرهم من القبائل التى كانت من قبل تعترف بحكم أتلا . وقام فى الوقت نفسه پنونيانى Pannonian يدعى أرستيز Orestes فخلع نيپوس ، وأجلس ابنه رميولوس (الملقب أوغسطولس استهزاء به) على العرش (٤٧٥) . وطلب الغزاة الجدد إلى أرستيز أن يعطيهم ثلث إيطاليا ، فلما أبى ذبحوه وأجلسوا قائدهم أدوسر Odoacer على العرش بدل رميولوس (٤٧٦) ولم يكن هذا القائد — وهو ابن إدكون وزير أتلا — مجرداً من الكفايات . وقد بدأ بأن جمع مجلس الشيوخ المرتاع ، وعن طريقه عرض على زينون Zeno الإمبراطور الجديد فى الشرق أن تكون له السيادة على جميع الإمبراطورية على شرط أن يحكم أدوسر إيطاليا بوصفه وزيراً له ، ورضى زينون بهذا العرض وانتهت بذلك سلسلة الأباطرة الغربيين .

ويبدو أن أحداً من الناس لم ير فى هذا الحادث « سقوطاً لرومة » بل بدا لهم على عكس هذا أنه توحيد مبارك للإمبراطورية وعودتها إلى ما كانت عليه .

فى عهد قسطنطين . وقد نظر مجلس الشيوخ فى رومة إلى المسألة هذه النظرة ، وأقام فى رومة تمثالا لزينون ، ذلك أن اصطباغ الجيش ، والحكومة ، والزراع ، فى إيطاليا بالصبغة الألمانية قد ظل يجرى زمناً بلغ من طوله أن بدت معه النتائج السياسية تحولا عديم الشأن على سطح الحياة القومية .

أما الحقيقة التى لا نزاع فيها فهى أن أدوسر كان يحكم إيطاليا بوصفه ملكاً عليها دون أن يعبأ بزينون . ذلك أن الألمان قد فتحوا فى واقع الأمر إيطاليا ، كما فتح جيسريك أفريقية ، وكما فتح القوط الغربيون أسپانيا ، وكما كان الإنجليز والسكسون يفتحون بريطانيا ، والفرنجة يفتحون غالة . ولم يعد للإمبراطورية العظمى فى الغرب وجود .

وترتبت على فتوح البرابرة هذه نتائج لا حصر لها ، لقد كان معناها من الناحية الاقتصادية تحول الحياة من المدن إلى الريف . ذلك أن البرابرة كانوا يعيشون على الحرث ، والرعى ، والصيد ، والحرب ، ولم يكونوا قد تعلموا بعد الأعمال التجارية المعقدة التى تنتعش بها المدن ؛ وكان انتصارهم إيذاناً بالقضاء على الصبغة المدنية للحضارة الغربية قضاء دام سبعة قرون . وأما من الوجهة العنصرية فإن هجرات البرابرة المتعددة أدت إلى امتزاج جديد بين العناصر البشرية — وإلى دخول دم ألمانى غزير فى إيطاليا ، ودم غالى فى أسپانيا ، ودم أسيوى فى روسيا والبلقان وبلاد المجر . ولم يعيد هذا الامتزاج القوة والنشاط إلى الإيطاليين أو الغاليين بطريقة خفية معجزة الدرك ، بل إن ما حدث لم يزد على إفناء الأفراد والسلالات الضعيفة بسبب الحروب وغيرها من ضروب التنافس ، وعلى اضطرار كل إنسان لأن ينمى قوته ، وحيويته ، وشجاعته ، وصفات الرجولة التى طمس معالمها طول الاستسلام إلى الأمن والسلام ؛ وعلى تأثير الفقر فى عودة أساليب للحياة أصح وأكثر بساطة من الأساليب التى ولدها ترف المدن واعتماد الأهلين على الأرزاق التى تقدمها لهم الحكومة .

وأما من الوجهة السياسية فقد أحلت الفتوح صورة دنيا من الملكية محل صورة عليا منها . فقد زادت من سلطان الأفراد وقللت من سلطان القوانين ومن اعتماد الناس عليها لحمايتهم : واشتدت النزعة الفردية وازداد العنف : وفى الناحية التاريخية حطمت الفتوح الهيكل الخارجي للملك الجسم الذى تعفن من الداخل ، وأزالت من الوجود ، بوحشية يؤسف لها ، نظاما من نظم الحياة ، شاخ ووهن وبلى ، وفقد كل قدرة على التجدد والنماء ، رغم ما كان فيه من فضائل النظام والثقافة ، والقانون ؛ وبهـذا أصبح من المستطاع أن تبدأ حياة جديدة غير متأثرة بالماضى . فانمحت إمبراطورية الغرب ولكن دول أوربا الحديثة قد ولدت — لقد دخل إيطاليا قبل المسيح بألف عام غزاة من الشمال ، أخضعوا أهلها لسلطانهم ، وامتزجوا بهم وأخذوا عنهم حضارتهم ، وبنوا وإياهم فى خلال ثمانية قرون حضارة جديدة ، وبعد المسيح بأربعمائة عام تكررت العملية نفسها ، ودارت عجلة التاريخ دورة كاملة ، وكانت البداية هى نفس النهاية ، ولكن النهاية كانت على الدوام بداية ؟

الباب الثالث

تقـــدم المسيحية

٣٦٤ — ٤٥١

احتضنت الكنيسة الحضارة الجديدة وبسطت عليها حمايتها . ذلك بأن جيشاً فذاً من رجال الكنيسة قام ليدافع بنشاط ومهارة عن الاستقرار الذى عاد إلى الوجود ، وعن الحياة الصالحة بعد أن اندكت معالم النظام القديم فى غمار الفساد والجبن والإهمال . وكانت مهمة المسيحية من الناحية التاريخية هى أن تعيد الأسس الكريمة للأخلاق وللمجتمع بما تفرضه من مثوبة ومعونة إلهيتين لمن يعملون وفق قواعد النظام الاجتماعى وإن خالفت أهواءهم أوكان فيها مشقة عليهم وأن تغرس فى نفوس البرابرة الهمج السذج مُثُلاً للسلوك أرق وأجمل من مثلهم الأولى ، عن طريق عقيدة تكونت تكوناً تلقائيا من الأساطير والمعجزات ، ومن الخوف والأمل والحب . لقـــد كان الدين الجديد يجاهد للاستحواذ على عقول الخلق المتوحشين أو المنحلين الفاسدين وأن يُقيم منها دولة دينية عظمى تؤلف بينهم وتجمع ما تفرق من شملهم ، كما كان يجمعهم سحر اليونان أو عظمة الرومان . وإن فى هذا الجهاد لعظمة لا تقل عما نجده فى سير أبطال الملاحم وإن لوثته الخرافة والقسوة ، وليست النظم والعقائد إلا وليدة الحاجات البشرية ؛ فإذا شئنا أن نفهم هذه النظم والعقائد على حقيقتها وجب أن ندرسها فى ضوء هذه الحاجات .

الفصل الأول

تنظيم الكنيسة

إذا كان الفن هو تنظيم المادة فإن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أروع الآثار الفنية في التاريخ . ذلك أنها قد استطاعت أن تؤلف بين اتباعها المؤمنين برسالتها خلال تسعة عشر قرنا كلها مثقلة بالأزمات الشداد ، وأن تسير وراءهم إلى أطراف العالم وتقوم على خدمتهم ، وتكون عقولهم ، وتشكل أخلاقهم ، وتشجعهم على التكاثر ، وتوثق عقود زواجهم ، وتواسيهم في الملمات والأحزان ، وتسمو بحياتهم الدنيوية القصيرة فتجعل منها مسرحية أبدية ، وتستغل مواهبهم ، وتتغلب على كل ما يقوم في وجهها من زيغ وثورة ، وتعيد بناء كل ما يتحطم من سلطانها في صبر وأناة . ترى كيف نشأ هذا النظام الرائع الجليل ؟

لقد قام هذا النظام على ما كان هناك من خواء روحي يعانيه الرجال والنساء الذين أنهكهم الفقر ، وأضناهم الشقاق والنزاع ، وأرهبتهم الطقوس الخفية التي لا يدركون كنهها ، وتملكهم الخوف من الموت . وقد بعثت الكنيسة في أرواح الملايين من البشر إيماناً وأملا حببا إليهم الموت وجعلاه أمراً مألوفاً لديهم . ولقد أصبح هذا الإيمان أعز شيء عليهم يموتون في سبيله ويقتلون غيرهم من أجله ، وعلى صخرة الأمل هذه قامت الكنيسة . وكانت في بادئ أمرها هيئة بسيطة من المؤمنين تختار لها واحدا أو أكثر من الكبراء أو القساوسة ليرشدها ، وواحداً أو أكثر من القراء ، والسدنة . والشمامسة ، ليساعدوا الكاهن . ولما كثر عدد العابدين ، وتعقدت شئونهم ، اختاروا لهم في كل مدينة قساً سموه إيسكوپس episcopos أي مشرفاً أو أسقفاً لينسق هذه الشئون . ولما زاد عدد الأساقفة أصبحوا هم أيضاً في حاجة إلى من يشرف على أعمالهم وينسقها ؛ ولهذا بدأنا نسمع

فى القرن الرابع عن كبار الأساقفة ، أو المطارنة المشرفين على الأساقفة والمسيطرين على الكنائس فى ولاية بأكلها ؛ وكان يحكم هذا الطبقات من رجال الدين بطارقة يقيمون فى القسطنطينية ، وأنطاكية ، وبيت المقدس ، والإسكندرية ، ورومة . وكان الأساقفة وكبار الأساقفة يجتمعون بناء على دعوة البطرق أو الإمبراطور فى المجمع المقدس ؛ فإذا كان هذا المجمع لا يمثل إلا ولاية بمفردها سمى مجمع الولاية ، وإذا كان يمثل الشرق أو الغرب سمى المجمع الكلى ؛ وإذا ما مثلهما جميعاً كان مجمعاً عاما ، وإذا ما كانت قراراته ملزمة لجميع المسيحيين كان هو المجمع الأكبر . وكانت الوحدة الناشئة من هـــذا النظام هى التى أكسبت الكنيسة اسم الكاثوليكية أو العالمية .

وكان هذا النظام الذى تعتمد قوته فى آخر الأمر على العقيدة والهيئة يتطلب شيئاً من تنظيم الحياة الكنسية . ولم يكن يطلب إلى القس فى الثلاثة القرون الأولى من المسيحية أن يظل أعزب ، وكان فى مقدوره أن يحتفظ بزوجته إذا كان قد تزوج بها قبل رسامته ، ولكنه لم يكن يجوز له أن يتزوج بعد أن يلبس الثياب الكهنوتية ، ولم يكن يجوز لرجل تزوج باثنتين أو بأرملة ، أو طلق زوجته أو اتخذ له خليلة ، أن يصبح قسيساً . وكان فى الكنيسة ، كما كان فى معظم الهيئات المنظمة متطرفون يزعجونها بتطرفهم ، من ذلك أن بعض المتحمسين من المسيحيين ، فى ثورتهم على ما كان فى أخلاق الوثنيين من إباحية جنسية ، استنتجوا من فقرة إحدى رسائل القديس بولس أن كل اتصال بين الجنسين خطيئة ، ولذلك كانوا يعارضون فى الزواج بوجه عام ، وتستك مسامعهم من الهلع إذا سمعوا أن قساً تزوج . وقد أعلن مجلس جنجرا Gengra الدينى (حوالى ٣٦٢) أن هذه الآراء لا تتفق مع الدين ، ولكن الكنيسة مع ذلك ظلت تطالب

قساوستها وتلح عليهم إلحاحا متزايداً أن يظلوا بلا زواج . ولقد ظلت الأملاك توهب للكنائس ويزداد مقدارها زيادة مطردة ، وكان يحدث من آن إلى آن أن يوصى لقس متزوج ، وأن ينتقل المال الموصى له إلى ذريته من بعده . وكان زواج رجال الدين يؤدى في بعض الأحيان إلى الزنى أو غيره من الفضائح ، وإلى انحطاط مكانة القس فى أعين الشعب ، ولهذا فإن مجمعا مقدساً عقد فى عام ٣٨٦ أشار على رجال الدين بالعفة المطلقة ، وبعد عام من ذلك الوقت أمر البابا سريسيوس Siricius بتجريد كل قس يتزوج أو يبقى مع زوجته التى تزوج بها من قبل . وأيد جيروم ، وأمبروز ، وأوغسطين هذا المرسوم بقواتهم الثلاث ، وبعد أن لقى مقاومة متفرقة ، دامت جيلا بعد جيل من الزمان ، نفذ فى الغرب بنجاح قصير الأجل .

وكانت أخطر المشاكل التى لاقتها الكنيسة ، والتى تلى فى خطورتها مشكلة التوفيق بين مثلها العليا وبقائها ، هى الوسيلة التى تمكنها من الحياة مع الدولة ذلك أن قيام نظام كهنوتى إلى جانب موظفى الحكومة كان من شأنه أن يخلق نزاعا على السلطة لا يسود معه سلم إلا إذا خضعت إحدى الهيئتين للأخرى ؛ فأما فى الشرق فقد خضعت الكنيسة ، وأما فى الغرب فقد أخذت تحارب دفاعا عن استقلالها ، ثم أخذت بعدئذ تحارب تأييداً لسيادتها على الدولة . وكان اتحاد الكنيسة والدولة فى كلتا الحالتين يتضمن تعـديلا أساسيا فى المبادئ الأخلاقية المسيحية . من ذلك أن ترتليان Tertullian وأرجن Origen ، ولكتنتيوس Lactantius كانا يعلّمان من قبل أن الحرب غير مشروعة فى جميع الأحوال ، أما الآن فإن الكنيسة ، وقد أصبحت تحت حماية الدولة ، قد رضيت بالحروب التى تراها ضرورية لحماية الدولة أو الكنيسة ، وكانت الكنيسة نفسها عاجزة

عن اصطناع القوة ، ولكنها إذا رأت أن القوة لازمة لها كانت تلجأ إلى القوة الدنيوية لفرض إرادتها . وكانت تتلقى من الدولة ومن الأفراد هبات قيمة من المال ، والمعابد والأراضي ؛ فأثرت وأصبحت فى حاجة إلى الدولة لتحمى كل ما كان لها من حقوق الملكية ، وظلت تحتفظ بثروتها حتى بعد أن سقطت الدولة . ذلك أن الفاتحين البرابرة ، فمهما كان خروجهم على الدين ومخالفة أوامره قلما كانوا ينهبون الكنائس أو يجردونها من أملاكها لأن سلطان القول أصبح بعد قليل يضارع سلطان السيف ...

الفصل الثانى

المـــارقون

لقد كان أشق الواجبات التى واجهها التنظيم الكنسى هو منع تفتت الكنيسة بسبب تعدد العقائد المخالفة لتعاريف العقيدة المسيحية كما قررتها المجالس الدينية . ولم تكد الكنيسة تظفر بالنصر على أعدائها حتى امتنعت عن المناداة بالتسامح ، فكانت تنظر إلى الفردية فى العقيدة بنفس النظرة المعادية التى تنظر بها الدولة إلى الانشقاق عنها أو الثورة عليها ، ولم تكن الكنيسة ولا الخارجون عليها يفكرون فى هذا المروق على أنه مسألة دينية خالصة ، وكان المروق فى كثير من الحالات مظهراً فكرياً لثورة محلية تهدف إلى التحرر من سلطان الإمبراطورية فاليعقوبيون Monophsityes كانوا يريدون أن يحررا سوريا ومصر من سيطرة القسطنطينية وكان الدوناتيون(*) يرجون أن يحرروا أفريقية من نير روما ، وإذ كانت الكنيسة والدولة قد توحدتا فى ذلك الوقت ، فقد كان الخروج على إحداهما خروجاً على الاثنتين معاً . وكان أصحاب العقيدة الدينية الرسمية يقاومون القومية ، كما كان المارقون يؤيدونها ويدافعون عنها ؛ وكانت الكنيسة تعمل جاهدة للمركزية وللوحدة ، أما المارقون فكانوا يعملون فى سبيل الاستقلال المحلى والحرية .

وأحرزت الآريوسية نصراً مؤزراً بين البرابرة بعد أن غلبت على أمرها فى داخل الإمبراطورية . وكانت المسيحية قد جاءت إلى القبائل التيوتونية على أيدى

(*) شيعة مسيحية قامت فى أفريقية فى القرنين الرابع والخامس كانت تعارض فى كل ما ينقص من الاحترام الواجب لشهداء الكنيسة ، وتعامل الخاطئين بمنتهى القسوة ، وتعيد تعميد من يعتنقون مبادئها من أتباع الكنيسة الكاثوليكية . وهى تنتسب إلى دوناتس Donatus أحد زعمائها . (المترجم)

الأسرى الرومان الذين قبض عليهم القوط أثناء غزوهم آسية الصغرى فى القرن الثالث . ولم يكن « الرسول » ألفلاس Alfilas (٣١١ ؟ — ٣٨١) رسولا بالمعنى الصحيح لهذا اللفظ ، بل كان من أبناء أسير مسيحى من كبدوكية ، ولد بين القوط الذين كانوا يعيشون فى شمال نهر الدانوب وتربى بين ظهرانيهم . وفى عام ٤٣١ رسمه يوسبيوس مطران نقوميديا الأريوسى أسقفا عليهم . ولما اضطهد أثنريك Athanaric الزعيم القوطى من كان فى أملاكه من المسيحيين أذن قنسطنطيوس الأريوسى لألفلاس أن يعبر بالجالية القوطية المسيحية القليلة العدد نهر الدانوب ، وينزلها فى تراقية ، وأراد أن يعلم معتنقى دينه من القوط أصول هذا الدين ، وأن يكثر عددهم ، فترجم فى صبر وأناة جميع أسفار الكتاب المقدس إلى اللغة القوطية ما عدا أسفار الملوك فقد حذفها لأنها فى رأيه ذات نزعة عسكرية خطرة ؛ وإذ لم يكن للقوط وقتئذ حروف هجائية يكتبون بها ، فقد وضع لهم هذه الحروف معتمداً فى وضعها على الحروف اليونانية . وكانت ترجمته هذه أول عمل أدبى فى جميع اللغات التيوتونية . ووثق القوط بحكمة ألفلاس واستقامته لشدة إخلاصه وتمسكه بأهداب الفضيلة ، ثقة حملتهم على أن يقبلوا مبادئه المسيحية الأريوسية دون مناقشة . وإذا كان غير هؤلاء من البرابرة قد تلقوا أصول المسيحية فى القرنين الرابع والخامس عن القوط أنفسهم ، فقد كان جميع من غزوا الإمبراطورية ، إلا قليلا منهم ؛ من الأريوسيين ، كما كانت الممالك الجديدة ، التى أقاموها فى البلقان ، وغالة وأسبانيا ، وإيطاليا ؛ وأفريقية أريوسية من الناحية الرسمية . ولم يكن الفرق بين دين الغالبين والمغلوبين إلا فرقاً ضئيلا : ذلك أن أتباع الدين القويم كانوا يعتقدون أن المسيح مطابق فى كينونته (homoousios) لله الأب ، أما الأريوسيون فكانوا يعتقدون أنه مشابه لا أكثر ، فى كينونته (homorousios) لله الأب . ولكن هذا الفرق الضئيل أصبح عظيم الأثر فى الشئون السياسية فى القرنين الخامس والسادس . وبفضل تتابع الحوادث على هذا النحو ثبتت الأريوسية حتى غلبه

الفرنجة أتباعُ الدين القويم القوطَ الغربيين فى غالة ، وفتح بلساريوس Belisarius أفريقية الوندالية ، وإيطاليا القوطية ، وغير ريكارد Recared (٣٨٩) عقيدة القوط الغربيين فى أسپانيا .

وليس فى وسعنا الآن أن نشغل أنفسنا بجميع العقائد الدينية المختلفة التى كانت تضطرب بها الكنيسة فى تلك الفترة من تاريخها — عقائدَ اليونوميين Eunomians والأنوميــين Anomeans والأبليناريين Appollinarians والمقدونيين ، والسبليين Sabellians ، والمساليين Maasalians ، والنوفاتيين Norvatians ، والپرسليانيين Priscillianists ، وكل ما فى وسعنا أن نفعله هو أن نرثى لهذه السخافات التى امتلأت بها حياة الناس ، والتى ستظل تملؤها فى المستقبل . ولكن من واجبنا أن نقول كلمة عن المانية Manicheism تلك العقيدة التى لم تكن مروقا من المسيحية بقدر ما كانت ثنائية فارسية تجمع بين الله والشيطان ، والخير والشر ، والضوء والظلام . وقد حاولت أن توفق بين المسيحية والزردشتية ، ولكن الدينين قاوماها مقامة شديدة . وقد واجهت هذه العقيدة بصراحة منقطعة النظير مشكلة الشر ، وما فى العالم الذى تسيطر عليه العناية الإلهية من عذاب وآلام كثيرة يبدو أن من ينوءون بها لا يستحقونها ، وشعرت بأن ليس أمامها إلا أن تفترض وجود روح خبيثة ، أزلية ، كالروح الخيرة . واعتنق المانية كثيرون من الناس فى الشرق والغرب ، ولجأ بعض الأباطرة فى مقاومتها إلى وسائل غاية فى القسوة ، وعدها جستنيان من الجرائم الكبرى التى يعاقب عليها بالإعدام ؛ ثم ضعف شأنها شيئاً فشيئاً وأخذت فى الزوال ، إلا أنها تركت بعض آثارها فى بعض الطوائف المارقة المتأخرة كالپوليسية Paulicians ، والبجوميلية Bogomiles ، والألبجنســية Albegensians . وقد اتهم أسقف أسبانى يدعى پرسليان Pricilian فى عام ٣٨٥ بأنه يدعو إلى المانية وإلى العزوبة العامة ؛ وأنكر الرجل التهمة ، ولكنه

حوكم أمام مكسموس الإمبراطور المغتصب فى ترير ، وكان اللذان اتهماه اثنين من الأساقفة ، وأدين الرجل وحرق هو وعدد من رفاقه فى عام ٣٨٥ بالرغم من احتجاج القديسين أمبروز ومارتن .

وبينا كانت الكنيسة تواجه كل أولئك المهاجمين ، إذ وجدت نفسها يكاد يغمرها سيل المارقين الدوناتيين فى أفريقية . وتفصيل ذلك أن دوناتوس Donatus ، أسقف قرطاجنة (٣١٥) ، كان قد أنكر ماللعشاء الربانى الذى يقدمه القساوسة من أثر فى الخطيئة ، ولم تشأ الكنيسة أن تنتزع من رجالها هذه الميزة الكبيرة فهددتها حكمتها إلى عدم الأخذ بهذه الفكرة . ولكن هذه العقيدة المارقة أخذت تنتشر على الرغم من هذا انتشاراً سريعاً فى شمالى أفريقية ، وتحمس لها الفقراء من الأهلين ، واستحال هذا الانحراف الدينى إلى ثورة اجتماعية ، وغضب الأباطرة أشد الغضب على هذه الحركة ، وأصدروا المراسيم المتعاقبة ضد من يستمسكون بها ، وفرضوا عليهم الغرامات الفادحة ، وصادروا أملاكهم ، وحرموا على الدوناتيين حق التصرف فيما يمتلكون بالبيع أو الشراء أو الوصية ، وأخرجهم جنود الأباطرة من كنائسهم بالقوة ، وأعطيت هذه الكنائس للقساوسة أتباع الدين القويم . وسرعان ما تألفت عصابات مسيحية — شيوعية فى آن واحد — وسميت باسم الجوابين Circumcelliones ، وأخذت تندد بالفقر والاسترقاق ، فألغت الديون ، وحررت الرقيق ، وحاولت أن تعيد المساواة المزعومة التى كان يتمتع بها الإنسان البدائى . وكانوا إذا قابلوا عربة يجرها عبيد ، أركبوا العبيد العربة ، وأرغموا سيدهم على أن يجرها خلفه . وكانوا يقتنعون عادة بالسرقة وقطع الطريق على المارة ، ولكنهم كانوا فى بعض الأحيان يغضبون من المقاومة ، فيعمون أعين أتباع الدين القويم أو أعين الأغنياء بمسحها بالجير ، أو يضربونهم بالعصى الغليظة حتى يموتوا . وكانوا إذا واجهوا الموت ابتهجوا به لأنه يضمن لهم الجنة . واستبد بهم التعصب الدينى آخر الأمر ، فكانوا يسلمون أنفسهم إلى ولاة

الأمور معترفين بأنهم مارقون من الدين ، ويطالبون بالاستشهاد . وكانوا يعترضون السابلة ، ويطلبون إليهم أن يقتلوهم ، ولما أن تعب أعداؤهم أنفسهم من إجابتهم إلى ما يريدون أخذوا يطلبون الموت بالقفز في النيران المتقدة أو بإلقاء أنفسهم من فوق الأجراف العالية ، أو بالمشي فوق ماء البحر[٢] . وحارب أوغسطين الدوناتيين بكل ما كان لديه من الوسائل ، وبدا في وقت من الأوقات أنه قد تغلب عليهم ؛ ولكن الدوناتيين عادوا إلى الظهور أكثر مما كانوا عددا حين جاء الوندال إلى أفريقية ، وسروا أعظم السرور لطرد قساوسة الدين القويم . وبقي الحقد الطائفي يأكل الصدور ، وينتقل من الأبناء إلى الآباء ، وهو أشد ما يكون قوة ، حتى جاء العرب إلى أفريقية في عام ٦٧٠ فلم يجدوا في البلاد قوة متحدة تقف في وجههم .

وكان بلاجيوس Pelagius في هذه الأثناء يثير قارات ثلاثاً بهجومه على عقيدة الخطيئة الأولى ، كما كان نسطوريوس يطلب الاستشهاد بما يجهر به من شكوك في أم المسيح ، وكان نسطوريوس في بدء حياته من تلاميذ ثيودور المبسوستياني Theodore of Mopsuestia (٣٥٠ ؟ — ٤٢٨ ؟) الذي كاد أن يبتدع النقد الأعلى للكتاب المقدس . وكان من أقوال ثيودور هذا أن سفر أيوب إن هو إلا قصيدة مأخوذة بتعديل من مصادر وثنية ، وأن نشيد الإنشاد إن هو إلا إحدى أغاني الفرس ذات معنى شهواني صريح ؛ وأن الكثير من نبوءات العهد القديم التي يزعم الزاعمون أنها تشير إلى يسوع ، لا تشير إلا إلى حوادث وقعت قبل المسيحية ؛ وأن مريم ليست أم الله ، بل هي أم الطبيعة البشرية في يسوع[٣] . ورفع نسطوريوس نفسه إلى كرسي الأسقفية في القسطنطينية (٤٢٨) ، والتفت حوله الجموع لفصاحته وذلاقة لسانه ، ولكنه خلق له أعداء بتعسفه في عقائده ، وأتاح الفرصة لهؤلاء الأعداء بقبوله فكرة ثيودور غير الكريمة في مريم . وكانت كثرة المسيحيين تقول : إذا كان المسيح إلها ، كانت مريم قد حملت في الله theotokos

أى أنها أم الله ؛ ولكن نسطوريوس يقول إن هذا أكثر مما يطيق ويرد عليهم بقوله إن مريم لم تكن أم الطبيعة الإلهية فى المسيح بل أم طبيعته البشرية ، وإن خيراً من تسميتها بأم الله أن تسمى أم المسيح .

وألقى سيريل Cyril ، كبير أساقفة الإسكندرية ، موعظة فى يوم عيد القيامة من عام ٤٢٩ أعلن فيها العقيدة التى تدين بها كثرة المسيحيين ، وهى أن مريم ليست أم الله الحق بل هى أم كلمة الله ، المشتملة على طبيعتى المسيح الإلهية والبشرية معاً[٤] . واستشاط البابا سلستين Celestine الأول غضباً على أثر رسالة تلقاها من سيريل فعقد مجلساً فى رومة (٤٣٠) ، طالب بأن يرجع نسطوريوس عن آرائه أو يعزل من منصبه . فلما رفض نسطوريوس كلا المطلبين اجتمع فى إفسوس (٤٣١) مجلس عام ، لم يعزل نسطوريوس فحسب بل حرمه أيضاً من الكنيسة المسيحية ، واحتج على ذلك كثيرون من الأساقفة ، ولكن أهل إفسوس قاموا بمظاهرات صاخبة يعلنون فيها ابتهاجهم بقرار الحرمان ، وكانت مظاهرات أحيت بلا ريب ذكريات ديانا — أرتميس . وسمح لنسطوريوس أن يرتحل إلى أنطاكية ، ولكنه وهو فيها ظل يدافع عن آرائه ، ويطالب بالعودة إلى منصبه ، فنفاه الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى إلى واحة فى صحراء ليبيا ، بقى فيها سنين كثيرة ، حتى أشفقت عليه حاشية الإمبراطور فى الدولة الشرقية فبعثت إليه بعفو إمبراطورى . فلما جاءه الرسول وجده يحتضر (حوالى ٤٥١) وانتقل أتباعه من بعده إلى شرق سوريا ، وشادوا لهم كنائس وأنشأوا مدرسة لتعليم مذهبهم فى الرها وترجموا التوراة وكتب أرسطو وجالينوس إلى اللغة السريانية ، وكان لهم شأن أيما شأن فى تعريف المسلمين بعلوم اليونان وطبهم وفلسفتهم . ولما اضطهدهم الإمبراطور زينون انتقلوا إلى فارس وأنشأوا مدرسة عظيمة الأثر فى نصيبين . وعلا شأنهم بسبب اضطهاد الفرس لهم ، وتكونت منهم جماعات فى بلخ وسمرقند وفى الهند والصين ؛ ولا يزالون حتى الآن يعيشون جماعات متفرقة فى آسية ، ولا يزالون ينكرون عبادة مريم .

وكانت آخر الشيع المارقة الكبرى فى ذلك العصر المضطرب وأعظمها أثراً فى تاريخ المسيحية هى التى أنشأها أوتيكيس Eutyches رئيس دير قريب من القسطنطينية . وكان أوتيكيس هذا يقول إن المسيح ليست له طبيعتان بشرية وإلهية ، بل إن له طبيعة واحدة هى الطبيعة الإلهية . ودعا فلاڤيان Flavian بطريق القسطنطينية مجمعاً محليا مقدساً أنكر هذه البدعة القائلة بالطبيعة الواحدة ، وحرم أوتيكيس من الكنيسة المسيحية . ولجأ الراهب إلى أسقفى الإسكندرية ورومة ، وأقنع ديوسكوراس ، الذى خلف سيريل ، الإمبراطور ثودوسيوس بأن يدعو مجلساً آخر فى إفسوس (٤٤٩) . وكان الدين وقتئذ خاضعاً للسياسة ؛ وكان كرسى الإسكندرية لا يزال يعارض كرسى القسطنطينية ؛ فبرئ أوتيكيس وهوجم فلاڤيان هجوماً خطابياً عنيفاً قضى على حياته[٥] . وأصدر المجلس قراراً بلعنة كل من يقول بوجود طبيعتين للمسيح . ولم يحضر البابا ليو الأول المجلس ، ولكنه بعث إليه بعدة رسائل يؤيد فيها فلاڤيان . وارتاع ليو من التقرير الذى أرسله إليه مندوبوه ، فأطلق على هذا المجلس اسم « مجمع اللصوص » وأبى أن يوافق على قراراته ثم عقد مجلس آخر فى خلقيدون Chalcedon عام ٤٥١ أبدى استحسانه لرسائل ليو وسخطه على أوتيكيس ، وأيد من جديد ازدواج طبيعة المسيح . ولكن القاعدة الثامنة والعشرين من القواعد التى أقرها المجلس أكدت مساواة سلطة أسقف القسطنطينية لسلطة أسقف رومة . وكان ليو قبل ذلك يدافع عن حقه فى أن تكون لكرسيه السلطة العليا لأنه يرى ذلك ضرورياً لوحدة الكنيسة وسلطانها . ولذلك رفض هذه القاعدة وبدأ بذلك نزاع طويل الأمد بين الكرسيين .

وزاد الاضطراب حتى أوفى على غايته حين رفضت كثرة المسيحيين فى سوريا ومصر عقيدة الطبيعتين فى شخص المسيح المفرد ، وظل رهبان سوريا يعلمون الناس عقائد اليعقوبيين ، ولما أن عين أسقف لكرسى الإسكندرية من أتباع الدين القويم قتل ومزق جسمه إرباً فى كنيسته فى يوم الجمعة الحزينة[٦] . وأصبحت

اليعقوبية من ذلك الحين الدين القومى لمصر واثيوبيا المسيحيتين ، ولم يحل القرن السادس حتى كانت لها الغلبة فى غربى سوريا ، وأرمينية ، بينما انتشرت النسطورية فيما بين النهرين وشرقى سوريا . وكان نجاح الثورة الدينية من أكبر العوامل فى نجاح الثورة السياسية ، ولما تدفق سيل العرب الجارف على مصر والشرق الأدنى فى القرن السابع رحب بهم نصف سكانهما ورأوا فيهم محررين لهم من استبداد العاصمة البيزنطية الدينى والسياسى والمالى .

الفصل الثالث

الغرب المسيحى

(١) رومــة

لم يظهر أساقفة رومة فى القرن الرابع بالمظهر الذى يشرف الكنيسة ، ويعلى من قدرها . فهاهو ذا سلفستر (٣١٤ — ٣٣٥) يعزى إليه فضل اعتناق قسطنطين المسيحية . ثم تقول الطائفة التقية المتدينة إنه تلقى من قسطنطين هبته المعروفة « بعطية قسطنطين » وهى غرب أوربا بأكمله تقريباً ، ولكنه لم يسلك مسلك من يمتلك نصف عالم الرجل الأبيض . وقد أكد يوليوس الأول (٣٣٧ — ٣٥٢) سلطة كرسى رومة العليا ، ولكن ليبريوس (٣٥٢ — ٣٦٦) خضع بسبب شيخوخته أو ضعفه إلى أوامر قسطنطين الأريوسية . ولما مات تنازع دماسوس Damasus ويورنسوس Urinsus البابوية ، وانقسم الغوغاء أيضاً فى تأييد المتنازعين بكل ما عرفته تقاليد الدمقراطية الرومانية من عنف يستطيع القارئ أن يتصوره إذا عرف أنه قتل فى يوم واحد وفى كنيسة واحدة ١٣٧ شخصاً فى نزاع قام بين أنصار الرجلين[٧] . وقد أدى هذا إلى أن نفى بريتكستاتوس ، حاكم رومة الوثنى ، يورنسوس منها ، فاستتب الأمر لدماسوس وظل يصرف الشئون الدينية بغير قليل من المتعة والحذق . وكان الرجل من علماء الآثار ، فأخذ يزين قبور الشهداء الرومان بالنقوش الجميلة ، وكان كما يقول بعض الوقحين ، من الذين « يخدشون آذان السيدات » أى أنه كان بارعاً فى جلب الهدايا إلى الكنيسة من نساء رومة الموسرات[٨] .

وجلس ليو الأول ، الملقب بليو الأكبر ، على عرش بطرس خلال جيل (٤٠٠ — ٤٦١) من الأزمات ، استطاع فيه بشجاعته وحسن سياسته أن يزيد

سلطة الكرسي الرسولى وهيبته . ولما أبى رفض هيلارى أسقف بواتييه Hilary of Poitiers أن يذعن لحكمه فى نزاع شجر بينه وبين أسقف غالى آخر ، أرسل إليه ليو أوامر حاسمة عاجلة ، أيدها الإمبراطور فلنتنيان الثالث بمرسوم من أهم المراسيم الإمبراطورية يؤكد فيه سلطة أسقف رومة على جميع الكنائس المسيحية ، واعترف أساقفة الغرب بوجه عام بهذه السلطة العليا ، أما أساقفة الشرق فقاوموها . وقال بطارقة القسطنطينية وأنطاكية ، وبيت المقدس ، والإسكندرية إن لهم من السلطة ما لكرسى رومة ، وظل الجدل العنيف قائماً بين الكنائس الشرقية ، وكانت فى خلاله لا تطيع أوامر أسقف رومة إلا فى القليل النادر . واجتمعت صعاب النقل والاتصال مع اختلاف اللغة فزادت الفرقة بين الكنيسة الشرقية والغربية . لكن بابوات الغرب أخذوا يزيدون من نفوذهم حتى فى غير الشئون الدينية . لقد كانوا يخضعون فى غير الشئون الدينية إلى الدولة الرومانية وإلى حكام رومة ، وظلوا حتى القرن السابع يطلبون إلى الإمبراطور أن يعتمد اختيارهم لمنصبهم الدينى . ولكن بعدهم عن أباطرة الشرق وضعف حكام الغرب قد تركا البابا صاحب السلطان الأعلى فى رومة ؛ ولما أن فر أعضاء مجلس الشيوخ وفر الإمبراطور من وجه الغزاة ، وتقوضت دعائم الحكومة المدنية ، وظل البابوات فى مناصبهم لم يرهبهم شىء من هذا كله ، لما حدث هذا ارتفعت مكانتهم ارتفاعاً سريعاً ، وزادت هيبتهم . ولما اعتنق البرابرة الغربيون المسيحية زاد ذلك من سلطة كرسى رومة ونفوذه زيادة كبرى .

ولما تركت الأسر الغنية والأرستقراطية الدين الوثنى واعتنقت المسيحية كان للكنيسة الرومانية نصيب متزايد من الثروة التى جاءت إلى عاصمة الدولة الغربية ، ولشد ما دهش أميانوس حين وجد أن أسقف رومة يعيش عيشة الأمراء فى قصر لاتران Lateran ، ويمشى فى المدينة بمظاهر الأبهة الإمبراطورية[٩] . وازدانت المدينة وقتئذ بالكنائس الفخمة ، ونشأ فيها مجتمع دينى راق اختلط فيه رجال

الدين الظرفاء اختلاطاً ممتعاً بالغانيات الموسرات ، وساعدوهن على أن يكتبن وصاياهن .

وكانت جمهرة الشعب المسيحى تشترك مع البقية الباقية من الوثنيين فى مشاهدة التمثيل والسباق والألعاب ، ولكن أقلية منهم حاولت أن تحيا حياة تتفق مع ما جاء فى الأناجيل . وكان أثناسيوس قد جاء إلى رومة براهبين مصريين ، وكتب ترجمة لحياة أنطونيوس ، وكان روفينوس Rufinus قد نشر فى الغرب تاريخ الأديرة فى الشرق ، فتأثرت عقول أتقياء المسيحيين بما ذاع عن تدين أنطونيوس ، وشنوده ، وباخوم ، وأنشأ سكستوس الثالث Sextus III (٤٣٢ — ٤٤٠) وليو الأول أديرة فى رومة ، ورضيت كثير من الأسر أن تحيا حياة العفة والفقر التى يحياها الرهبان فى الأديرة ، وإن ظلت تقيم فى منازلها . وخرجت كثير من السيدات ذوات الثراء مثل مرسلا Marcella ، وپولا ، وثلاثة أجيال من أسرة ملانيا عن الجزء الأكبر من مالهن للصدقات ، وأنشأن المستشفيات والأديرة ، وحججن إلى رهبان الشرق ، وبلغ من تقشفهن وزهدهن أن مات بعضهن من الحرمان . وأخذت الدوائر الوثنية فى رومة تشكو من أن هذا النوع من المسيحية لا يتفق مع حياة الأسر ، أو مع نظام الزواج ، أو مع القوة التى تحتاجها الدولة ، وثار الجدل الشديد حول آراء زعيم الزاهدين فى الغرب ، وهو فى الوقت نفسه من أكبر العلماء وأنبه الكتاب الذين أنجبتهم الكنيسة المسيحية .

٢ — القديس چيروم

ولد حوالى عام ٣٤٠ فى استريدو Strido القريبة من أكويليا ، وأغلب الظن أنه من أصل دلماشى ، وكأنما كان أهله يتنبئون بما سيكون له من شأن فسموه يوسبيوس هيرونيموس سفرونيوس Eusebius Hieronymus Sophronius « أى الحكيم المبجل صاحب الاسم المقدس » ، ونال قسطاً كبيرا من التعليم فى ترير ورومة ، ودرس الكتب اللاتينية القديمة دراسة طيبة ، وأحبها حبا وصل

فى ظنه إلى حد الخطيئة . ولكنه مع هذا كان مسيحيا شديد التمسك بدينه ، عاملا بأوامره ، ساعياً إلى خيره ، انضم إلى روفينوس وغيره من أصدقائه فى تكوين جماعة من الإخوان الزهاد فى أكويليا . وكان يعظهم مواعظ يدعوهم فيها إلى الكمال ، حتى لامه أسقفه لقلة صبره على ما فى الطبيعة البشرية من أسباب الضعف . وكان جواب چيروم أن قال للأسقف إنه جاهل ، فظ ، آثم ، خليق بالقطيع العالمى الذى يقوده ، مرشد غير حاذق لسفينة ضالة[١٠] . وترك چيروم وبعض أصدقائه مدينة أكويليا تتردى فى خطاياها ، ورحلوا إلى الشرق الأدنى ودخلوا ديراً فى صحراء خلقيس بالقرب من أنطاكية (٣٧٤) ، ولكنهم لم يحتملوا حرها القاسى غير الصحى فمات اثنان منهم ، وأوشك چيروم هو أيضاً أن يموت . ولكن هذا لم يثنه عما أراده لنفسه ، فغادر الدير ليعيش عيشة النساك فى صومعة فى الصحراء ، وكان يرجع بين الفنية والفينة إلى ڤرچيل وشيشرون . ذلك أنه جاء معه بمكتبته ، ولم يكن فى وسعه أن يقطع صلته بالشعر والنثر اللذين كان جمالها يستهويه كما يستهوى جمال الفتيات غيره من الرجال . وإن ما يقوله هو نفسه عن هذا ليكشف عن طبيعة الناس فى العصور الوسطى ، فقـــد رأى فيما يراه النائم أنه مات :

« وجىء بى إلى مجلس القضاء الأعلى ، وطلب إلىّ أن أفصح عن أمرى ، فأجبت بأنى مسيحى . ولكن من كان يرأس الجلسة قال : « إنك لتكذب ، فما أنت بمسيحى ، ولكنك من أتباع شيشرون ، فحيثما يكون كنزك يكون أيضاً قلبك » فعقد لسانى من فورى ولم أحر جوابا ، « ثم شعرت » بضربات السوط لأنه أمر بى أن أجلد . . . وفى آخر الأمر خر من كانوا يشهدون المحاكمة سجدا بين يدى رئيس الجلسة وتوسلوا إليه أن يرحم شبابى ويتيح لى فرصة التوبة من ذنبى ، على أن يصب على أقصى أنواع العذاب إذا ما عدت إلى قراءة كتب المؤلفين غير المسيحيين ... ولم تكن هذه التجربة أضغاث أحلام لذيلة ... بل إنى

لأقر بأن جلد كتفى قد ازرق واسود من شدة الضرب ، وأنى لبثت أحس بالرضوض بعد أن صحوت بزمن طويل . . . وأخذت من ذلك الحين أقرأ كتب الله بحماسة أكثر من التى كنت أقرأ بها من قبل كتب بنى الإنسان »(١١) .

وعاد إلى أنطاكية فى عام ٣٧٩ ورسم فيها قسيساً . وفى عام ٣٨٢ نجده فى رومة أميناً للبابا دماسوس الذى كلفه بترجمة العهـــد الجديد إلى اللغة اللاتينية ترجمة خيراً من التراجم الموجودة فى ذلك الوقت . وظل فى منصبه الجديد يلبس الثوب القاتم والجلباب اللذين كان يلبسهما أيام نسكه ، ويعيش عيشة الزهد فى بلاط البابا المترف ، وكانت مرسلا وپولا التقيتان تستقبلانه فى بيتهما الأرستقراطيين وتهتديان بهديه الروحى ، وكان نقاده الوثنيون يظنون أنه يستمتع بصحبة النساء أكثر مما يليق برجل مثله يمدح بأقوى الألفاظ عزوبة الرجال ، وبقاء البنات عذارى . وقد رد عليهم بأن وجه إلى المجتمع الرومانى فى عصره هجاء بألفاظ سيظل يذكرها الناس إلى أبد الدهر قال :

أولئك النسوة اللائى يصبغن خدودهن بالأصباغ الحمراء ، ويكتحلن بالإثمد ويضعن المساحيق على وجوههن ... واللاتى لا تقنعهن السنون مهما طالت بأنهن قد تقدمت بهن السن ، واللائى يكدسن الغدائر المستعارة ، على رءوسهن . ويسلكن أمام أحفادهن مسلك فتيات المدارس اللائى يرتجفن من الخوف . . . إن الأرامل الخارجات على الدين المسيحى يتباهين بأثوابهن الحريرية ، ويتحلين بالجواهر البراقة ، وتفوح منهن رائحة المسك . . . ومن النساء من يلبسن ملابس الرجال ، ويقصصن شعرهن . . . ويستحين من أنوثتهن ، ويفضلن أن يظهرن بمظهر الخصيان . . . ومن النساء غير المتزوجات من يستعن بالسوائل لمنع الحمل ، ويقتلن بنى الإنسان قبل أن يحملن بهم ، ومنهن من إذا وجدن أنهن قد حملن نتيجة لإثمهن ، يجهضن أنفسهن بما يتعاطين من العقاقير . . . لكن من النساء من

يقلن : « إن كل شيء طاهر عند الطاهرات . . . فلم إذن أحرم على نفسي ما خلقه الله لأستمتع به ؟ »[١٢] .

وهو يؤنب امرأة رومانية بعبارات تنم عن تقديره لجمال النساء :

« إن صدرتك مشقوقة عن عمد . . . وثدييك مشدودان بأربطة من التيل ، وصدرك سجين في منطقة ضيقة . . . وخمارك يسقط أحياناً حتى يترك كتفيك البيضاوين عاريتين ، ثم تسرعين فتغطين به ما كشفته عن قصد »[١٣] .

ويضيف جيروم إلى تحير الرجل الأخلاقي مغالاة الفنان الأديب الذي يصور عصراً من العصور ، والمحامي الذي يتبسط في ملخص دعوى . ويذكرنا هجاؤه بهجاء جوفنال ، أو بما نقرأه من هجاء هذه الأيام . ومن الطريف أن نعرف أن النساء كن على الدوام ذوات سحر ودلال كما هن في هذه الأيام . ويشبه جيروم جوفنال في أنه خبن يطعن في أمر لا يرضيه يتقصاه بنزاهة وشجاعة . وقد روعه أن يجد التسري منتشراً حتى بين المسيحيين ، وروعه أكثر من هذا أن وجده يتخفى وراء ستار التعفف من أشق السبل . ومن أقواله في هذا : ترى من أي مصدر وجد هذا الوباء وباء « الأخت العزيزة المحبوبة » طريقه إلى الكنيسة ؟ ومن أين جاءت هذه الزوجات اللاتي لم يتزوج أحد بهن ؟ هذه السراري الحديثات ، وهذه العاهرات اللاتي اختص بهن رجل واحد ؟ إنهن يعشن مع أصدقائهن من الذكور في بيت واحد ويشغلن معهن حجرة واحدة ، وكثيراً ما يشتركن معهم في فراش واحد ؛ ومع هذا فهم يقولون عنا إننا نسيء بهن الظن إذا رأينا في هذا عيباً[١٤] » . وهو يهاجم القساوسة الرومان الذين كان في مقدورهم أن يرفعوه بتأييدهم إلى كرسي البابوية ، ويسخر من رجال الدين الذين يعقصون شعورهم ، ويعطرون ثيابهم ، ويترددون على المجتمعات الراقية ، والقسيسين الذين يجرون وراء الوصايا ويستيقظون قبل مطلع الفجر ليزوروا النساء قبل أن يقمن من فراشهن[١٥] ، ويندد بزواج القساوسة ، وبشذوذهم الجنسي ؛ ويدافع دفاعاً قوياً

عن بقاء رجال الدين بلا زواج ؛ ويقول إن الرهبان وحدهم هم المسيحيون الحقيقيون المبرءون من الملك والشهوات ، والكبرياء ؛ ويدعو چيروم الناس كافة ، ببلاغة لو سمعها كسنوڤا Casanova لتعلق به وصار من أتباعه ، لأن يخرجوا عن كل مالهم ويتبعوا المسيح ؛ ويطالب إلى الأمهات أن يهبن أول أبنائهن إلى الله ، لأن أولئك الأبناء من حقه عليهن حسب نص الشريعة(١٦) ؛ وينصح صديقاته من النساء أن يعشن عذارى فى بيوتهن إذا تعذر عليهن أن يدخلن الدير . ويكاد چيروم أن يعد الزواج من الخطايا ويقول : « إنى لا أمدح الزواج إلا لأنه يأتينى بالعذارى(١٧) » ، ويريد أن « يقطع بفأس البكورية خشب الزواج »(١٨) ؛ ويفضل يوحنا الرسول الأعزب على بطرس الذى تزوج(١٩) . وأظرف رسائله كلها هى التى كتبها إلى فتاة (٣٨٤) تدعى أوستكيوم Eustochium فى لذة البكورية ، ويقول فيها إنه لا يعارض فى الزواج ، ولكن الذين يتجنبونه ينجون من سدوم Sodom ومن آلام الحمل ، وصراخ الأطفال ، ومتاعب البيوت ، وعذاب الغيرة . وهو يعترف بأن طريق العفة شاق أيضاً ، وأن ثمن البكورية هو اليقظة الدائمة :

« إن فكرة واحدة قد تكفى لضياع البكورية . . . فليكن رفاقك هم صفر الوجوه الذين هزلت أجسامهم من الصوم . . . وليكن صومك حادثاً يتكرر فى كل يوم ، اغسلى سريرك ، ورشى مخدعك كل ليلة بالدموع . . . ولتكن عزلة غرفتك هى حارسك على الدوام . . . ودعى الله عريسك هو الذى يلعب معك فى داخلها . . . فإذا غلبك النوم جاءك من خلف الجدار ، ومد يده من خلال الباب ، ومس بها بطنك ، فصحوت من النوم وقمت واقفة وناديته « إنى أهيم بحبك » فتسمعينه يقول : « إن أختى ، حبيبتى ، جنة مغلقة ، وعين ماء غير مفتوحة ، وينبوع مختوم »(٢٠) .

ويقول چيروم إنه لما نشرت هذه الرسالة : « حياها الناس بوابل من

الحجارة » ؛ ولعل بعض قرائها قد أحسوا فى هذه النصائح بلوعة سقيمة فى رجل يبدو أنه لم يسلم بعد من حرارة الشهوات . ولما ماتت بليسلا Blesilla الفتناة الزاهدة بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت (٣٨٤) ، أخذ الكثيرون ينددون بالزهد الصارم الذى علمها إياه چيروم ، وأشار بعض الوثنيين بإلقائه هو وجميع رهبان رومة فى نهر التيبر . لكن چيروم لم يندم على ما فعل ، ووجه إلى أمها الثكلى ، التى كاد الحزن أن يذهب بعقلها ، رسالة تعزية وتقريع . ولما توفى البابا دماسوس فى ذلك العام نفسه لم يجدد خلفه تعيين چيروم أميناً لسره ، فخرج من رومة فى عام ٣٨٥ ولم يعد إليها أبداً ، وصحب معه پولا Paula أم بليسلا وأوستكيوم أختها . وأنشأ فى بيت لحم ديراً للرهبان صار هو رئيسه ، وآخر للراهبات تولت رياسته پولا ومن بعدها أوستكيوم ، كما أنشأ كنيسة ليتعبد فيها الرهبان والراهبات مجتمعين ، ومضيفة لحجاج الأراضى المقدسة .

واتخذ له خلوة فى كهف جمع فيها كتبه وأوراقه ، وقضى وقته كله فى الدرس والكتابة ، وتعليم الناس الأسرار القدسية ، وأقام فيها الأربعة والثلاثين عاماً الباقية من حياته . وكان يجادل بقلمه كريسستوم ، وأمبروز ، وپلاجيوس ، وأوغسطين . وكتب نحو خمسين كتابا فى المشكلات الدينية ، وفى تفسير الكتاب المقدس ، تمتاز كلها بقوة العقيدة التى لاتقبل جدلا ، وكان أعداؤه وأصدقاؤه على السواء يحرصون على قراءة كتبه . وقد أنشأ مدرسة فى بيت لحم ، كان هو نفسه يعلم فيها الأطفال من غير أجر وبتواضع منقطع النظير كثيراً من الموضوعات المختلفة ، منها اللغة اللاتينية واليونانية . والآن وقد أصبح قديساً ثابت العقيدة أحس بأن لاحرج عليه فى أن يقرأ مرة أخرى الكتب القديمة التى حرمها على نفسه فى شبابه . وواصل دراسة اللغة العبرية ، وكان قد بدأ يدرسها حين أقام فى بلاد الشرق أول مرة ، وأخرج بعد ثمانية عشر عاماً من الجلد والدرس تلك الترجمة اللاتينية العظيمة الرائعة للكتاب المقدس ، وهى الترجمة اللاتينية الشائعة

التي تعد حتى الآن أهم الأعمال الأدبية التي تمت فى القرن الرابع وأعظمها أثراً . ولسنا ننكر أن فى الترجمة ، كما فى كل عمل عظيم مثلها ، أخطاء ، وأن فيها « عجمة » وعبارات عامية ينفر منها المدقق الحريص على نقاء اللغة ؛ ولكن لغة الكتاب اللاتينية أضحت هى لغة الدين والأدب طوال العصور الوسطى ، وصبت سيلا من العواطف والخيالات العبرية فى قوالب لاتينية ، وأدخلت فى الأدب آلافا من العبارات الرائعة الفصيحة القوية ، التى تعد من جوامع الكلم(*) وبفضل هذه الترجمة عرف العالم اللاتيني الكتاب المقدس كما لم يعرفوه من قبل .

ولم يكن چيروم قديساً إلا فى أنه كان يحيا حياة الزهد ، وأنه وهب نفسه للكنيسة ، لكننا لا نستطيع أن نعده قديساً فى أخلاقه أو أقواله . ومما يؤسف له أشد الأسف أن يجد الإنسان فى أقوال هذا الرجل العظيم كثيراً من العبارات الدالة على الغيظ والحقد والجدل ، وتحريف القول ، والشراسة فى الجدل ، فهو يلقب يوحنا بطريق بيت المقدس بيهوذا (خائن المسيح) ، وبالشيطان ، ويقول إن الجحيم لا تجد فيها ما يليق به من العقاب[٢١] ؛ ويصف الرجل العظيم أمبروز بأنه « غراب مشوه الخلق »[٢٢] ، وقد خلق المتاعب لصديقه القديم روفينوس بأن أخذ ينقب لأرجن Origen بعد وفاته عن أخطاء ، وكان فى عمله هذا عنيفاً إلى حد لم ير معه البابا أنستاسيوس بدأ من إدانته (٤٠٠) ، ولو أن جيروم قد ارتكب بعض الخطايا المادية لغفرناها له أكثر مما نغتفر هذا الحقد الروحى الشديد .

(*) كانت ترجمة چيروم فى معظم أجزائها من اللغة العبرية أو اليونانية الأصلية مباشرة . لكنه كان فى بعض الأحيان يترجم عن النص اليونانى الذى كتبه أكويلا ، أو سيماكوس أو ثيدروتيون . ولا تزال ترجمته التى روجعت فى عامى ١٥٩٢ ، ١٩٠٧ هى النص المعتمد للكتاب المقدس فى جميع البلاد التى تدين بالمذهب الكاثوليكى الرومانى . و« كتاب دويه Douai المقدس » هو النص الإنجليزى لهذه الترجمة اللاتينية .

ولم يتوان نقاده عن أن ينزلوا به أشد القصاص ، فلما رأوه يُعلّم الكتب اليونانية واللاتينية ، اتهموه بالوثنية ؛ ولما رأوه يَدْرس اللغة العبرية على أحد اليهود ، اتهموه بأنه قد ارتد إلى الدين اليهودى ؛ ولما أهدى كتبه للنساء قالوا إن الباعث له على هذا هو الجشع المادى ، أو ما هو أسوأ من الجشع المادى[٢٣] . ولم يكن سعيداً فى شيخوخته ؛ ذلك أن البرابرة انقضوا على بلاد الشرق الأدنى ، واجتاحوا سوريا وفلسطين (٣٩٥) « وكم من أديرة استولوا عليها ، وكم من أنهار خضبت مياهها بالدماء ! » ثم ختم أقواله بهذه العبارة « إلى العالم الرومانى يتساقط »[٢٤] . وماتت فى أثناء حياته پولا ومرسالا ، وأوستكيوم وكن اعزيزات عليه . وظل الرجل يواصل العمل فى كتاب بعد كتاب ، وقد ذبل جسمه وضعف صوته من فرط زهده ، وتقوس عوده . وحضرته الوفاة وهو يكتب شرحاً لسفر أرميا : لقد كان رجلا عظيما أكثر مما كان رجلا صالحا ؛ وكان هجاء لإذعاً لا يقل فى ذلك عن جوڤنال ، وكاتب رسائل لا تقل فصاحة عن سنكا ، وعالما مجدا لا ينقطع عن الدرس والتبحر فى الدين .

٣ — الجنود المسيحيون

لم يكن چيروم وأوغسطين إلا أعظم الرجلين فى هذا العصر العجيب ، فقد امتاز من « آباء » الكنيسة فى بداية العصور الوسطى ثمانية من علماء الدين : منهم فى الشرق أثناسيوس ، وباسيلى ، وجريجورى ، ونزيانزين ، ويوحنا كريسستوم ، ويوحنا الدمشقى ؛ وفى الغرب أمبروز ، ، وچيروم ، وأوغسطين ، وجريجورى الأكبر .

وتدل سيرة أمبروز (٣٤٠ ؟ — ٣٩٥) على قدرة الكنيسة على أن تجتذب لخدمتها رجالا من الطراز الأول ، لو أنهم وجدوا قبل وقتهم بجيل واحد لكانوا خدما للدولة . وقد ولد أمبروز فى ترير ، وكان أبوه والياً على غالة ، وكانت مخايل الأمور كلها والسوابق بأجمعها توحى بأنه سيكون من رجال السياسة . ولسنا ندهش

حين نسمع بعد ذلك أنه كان والياً على شمالى إيطاليا . وكان بحكم إقامته فى ميلان وثيق الصلة بإمبراطور الغرب ، وقد وجد فيه الإمبراطور الخلال الرومانية القديمة : العقل الراجح ، والقدرة على التنفيذ ، والشجاعة الهادئة . ولما علم أن الأحزاب المتنازعة قد اجتمعت فى الكنيسة لتختار أسقفاً جديداً ، أسرع إلى مكان الاجتماع وقمع بهيبته وقوة عبارته بوادر الفتنة بين المجتمعين . ولما عجزت الأحزاب المتنازعة عن الاتفاق على رجل يختارونه لهذا المنصب الدينى ، اقترح بعضهم أمبروز ، وما كاد يُسمع اسمه حتى اجتمعت كلمة الحاضرين فى حماسة منقطعة النظير ، وأُخِذ الحاكم من فوره رغم احتجاجه فعُمد ، لأنه لم يكن قد عمد بعد ، ورسم شماساً ، ثم قساً ، ثم أسقفاً ، وتم ذلك كله فى أسبوع واحد (٣٧٤)[٢٥] .

وشغل الرجل منصبه الجديد ، بالهيبة والمقدرة الخليقتين بالحاكم القدير ، وبادر بالتخلى عن زخرف المنصب السياسى ، وعاش عيشة تعد مضرب المثل فى البساطة ، فوزع أمواله وأملاكه على الفقراء ، وباع الآنية المقدسة فى كنيسته ليفتدى بثمنها أسرى الحرب[٢٦]. وكان عالما متفقها فى الدين دافع بكل قوة عن المبادئ التى أقرها مجمع نيقية ، وكان خطيباً مفوها لمواعظه الفضل فى هدى أوغسطين ، وشاعراً ألف عدداً من أقدم ترانيم الكنيسة وأنبلها ، وقاضياً فضح بعلمه واستقامته مفاسد المحاكم المدنية ، وسياسياً تعهد إليه الكنيسة والدولة بأشق المهام وأعظمها خطراً ، ومنظما دقيقاً كان سنداً قويًّا للبابا وإن كان قد غطى عليه وحجبه ، وعالما دينيا أرغم ثيودسيوس العظيم على التوبة ، وكانت له السيطرة على خطط ڤلنتنيان الثالث . وكان سبب هذه السيطرة أن كانت للإمبراطور الشاب أم أريوسية العقيدة تدعى چيستينا Justina ، حاولت أن تحصل على كنيســـة فى ميلان لقس أريوسى . ولكن المصلين من أتباع أمبروز ظلوا فى الكنيسة المحاصرة ليلا ونهاراً « معتصمين فيها ، اعتصاماً مقدسا يتحدون أمر الإمبراطورة بتسليم البناء » ومن ثم » كما يقول أوغسطين « نشأت عادة إنشاد الترانيم والأغانى ، تقليداً لعادات الولايات الشرقية

لإنقاذ الشعب من أن يضنيه طول يقظته وحزنه »(٢٧) ، وقاوم أمبروز الإمبراطورة مقاومة عنيفة ذاع صيتها فى الخافقين ونال التعصب على يديه نصراً مؤزراً .

وكان پولينوس Paulinus (٣٥٣ — ٤٣١) يمثل فى نولا Nola بجنوب إيطاليا نوعا من القديسين أرق حاشية وألطف معشراً من أمبروز . وكان پولينوس ينتمى إلى أسرة مثرية عريقة تقطن بردو Bordeaux ، وقد تزوج من سيدة تنتمى إلى أسرة لاتقل عن أسرته فى كرم المحتد ، ودرس على الشاعر أوسنيوس Ausonius ، وخاض غمار السياسة وارتقى رقيا سريعا . ثم « انقلب » فجأة وتحول عن العالم تحولا تاما : فباع أملاكه ، ووزع ماله كله على الفقراء ؛ ولم يبق لنفسه منه إلا ما يسد ضرورات الحياة ، ورضيت زوجته ثرازيا Therasia أن تعيش معه « أختاً له فى المسيح » طاهرة . ولم تكن حياة الأديرة قد نشأت فى الغرب ولهذا فقد اتخذا من بينهما المتواضع فى نولا ديراً خاصا ، عاشا فيه خمسة وثلاثين عاماً ممتنعين عن اللحم والخمر ، يصومان عددا كثيراً من الأيام فى كل شهر ، وكانا سعيدين لأنهما تخلصا من متاعب الثروة ومشاغلها . واعترض أصدقاء شبابه الوثنيون ، وخاصة أوسنيوس أستاذه القديم ، على ما بدا لهم أنه هروب من واجبات الحياة المدنية ، فكان جوابه أن دعاهم ليشاركوه فى سعادته . وقد احتفظ إلى آخر حياته بروح التسامح فى هذا القرن المليء بالحقد والعنف . ولما مات اشترك الوثنيون واليهود مع المسيحيين فى تشييع جنازته .

وكتب پولينوس شعراً مطرباً ساحراً ، ولكنه لم يكتبه إلا عرضاً ، أما الشاعر الذى كان يمثل النظرة المسيحية إلى الحياة فى ذلك العصر أصدق تمثيل فهو أورليوس پرودنتيوس كلمنز Aurelius Prudentius Clemens الأسپانى (٣٤٨—٤١٠ تقريبا) . فبينا كان كلوديان وأوسنيوس يملآن أشعارهما بالآلهة الموتى ، كان پرودنتيوس يترنم بالأوزان القديمة فى الموضوعات الحية الجديدة : كقصص الشهداء (فى كتاب التيجان) ، ويضع الترانيم لكل ساعة من ساعات اليوم ، ويكتب

بالشعر ردا على دفاع سيماكوس عن تمثال النصر . وفى هذه القصيدة الأخيرة وجه إلى هونوريوس تلك الدعوة الحارة الذائعة الصيت ، التى أهاب به فيها أن يمنع معارك المجالدين . ولم يكن يكره الوثنيين ، بل إنا لنجد فى أقواله ألفاظاً طيبة عن سيماكوس ، وعن يوليان نفسه ، وكان يرجو أبناء دينه المسيحيين ألا يتلفوا أعمال الوثنيين الفنية . وكان يشارك كلوديان فى إعجابه برومة ، ويثلج صدره أن يستطيع الإنسان التنقل فى معظم أنحاء عالم الرجل الأبيض وهو خاضع لقوانين واحدة آمن على حياته أينما حل ، « نعيش زملاء مواطنين أينما كنا »[٢٨] . وإنا لنجد فى أقوال هذا الشاعر المسيحى آخر أصداء أعمال رومة المجيدة وسيادتها .

ولم يكن أقل مفاخر رومة أن أصبحت لغالة فى ذلك الوقت حضارة من أرقى الحضارات . فقد كان فى القرن الرابع أساقفة عظام لا يقلون شأناً عن أوسنيوس وسيدونيوس فى عالم الأدب ، نذكر منهم هيلارى البواتيرى Hilary of Poitiers وريمى الريمسى Remi of Reims ويفرونيوس الأوتونى Euphaonius of Autun ، ومارتن التورى Martin of Tours . وكان هيلارى (المتوفى حوالى عام ٣٦٧) من أنشط المدافعين على قرارات مجمع نيقية ، وقد كتب رسالة من اثنتى « عشرة مقالة » حاول فيها أن يشرح عقيدة التثليث . ولكننا نراه فى كرسيه المتواضع فى پواتييه يحيا الحياة الصالحة الخليقة بالرجل المسيحى المخلص لدينه — يستيقظ فى الصباح الباكر ، ويستقبل كل قادم عليه ، ويستمع للشكايات ، ويفصل فى الخصومات ، ويتلو القداس ، ويعظ ، ويعلم ، ويملى الكتب والرسائل ، ويستمع فى أثناء وجبات الطعام لقراءات من الكتب الدينية ، ويقوم فى كل يوم ببعض الأعمال اليدوية كزرع الأرض أو نسج الثياب للفقراء[٢٩] وكان بسيرته هذه يمثل رجل الدين الصالح أصدق تمثيل .

وقد خلف القديس مارتن St. Martin شهرة أوسع من شهرة هؤلاء جميعاً . ففى فرنسا الآن ٣٦٧٥ كنيسة و ٤٢٥ قرية تسمى كلها باسمه . وقد ولد فى پتونيا

حوالى عام ٣١٦ ؛ وأراد ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، أن يكون راهباً ، ولكن أباه أرغمه ، وهو فى الخامسة عشرة ، على الانضمام إلى الجيش ؛ فلما فعل كان فيه جندياً غير عادى ، فكان يهب مرتبه للفقراء ، ويساعد البائسين ، ويتحلى بالوداعة والصبر كأنه يريد أن يتخذ من معسكر الجيش ديراً . ونال مارتن أمنيته بعد أن قضى فى الخدمة العسكرية خمس سنين ، فغادر الجيش ليعيش راهباً فى صومعة ، فى إيطاليا أولا ، ثم فى پواتييه بالقرب من هيلارى الذى كان يحبه . وفى عام ٣٧١ خرج أهل تور يطالبون بأن يكون أسقفاً عليهم ، على الرغم من ثيابه الرثة وشعره الأشعث . فوافق على طلبهم ، ولكنه أصر على أن يعيش كما كان عيشة الرهبان . وأنشأ فى مرموتييه Marmoutier على بعد ميلين من تور ديراً جمع فيه ثمانين راهباً ؛ وعاش معهم عيشة التقشف الخالية من الادعاء والتظاهر . وكان الأسقف فى رأيه رجلا لا يكتفى بالاحتفال بالقداس ، والوعظ ، وتقسيم العشاء الربانى ، وجمع المال ، بل يعمل أيضاً على تقديم الطعام للجياع ، والكساء للعرايا ، وعيادة المرضى ، ومساعدة البائسين . وقد أحبته غالة كلها حباً جعل الناس فى جميع أنحائها يروون القصص عن معجزاته ، ولقد بالغوا فى هذا حتى قالوا إنه أحيا ثلاثة من الأموات(٣٠) . وقد اتخذته فرنسا من قديسيها الشفعاء .

وكان الدير الذى أنشأه مارتن فى پواتييه (٣٦٢) بداية أديرة كثيرة نشأت بعدئذ فى غالة . وإذ كانت فكرة الأديرة قد جاءت إلى رومة عن طريق كتاب أثناسيوس المسمى « حياة أنطونيوس » ، ودعوة چيروم القوية التى أهاب فيها بالناس أن يحيوا حياة الزهد ، فقد كان طراز الرهبنة الذى انتشر فى الغرب هو أشقها وأكثرها عزلة ، وقد حاول أصحابه أن يمارسوا أقسى شعائرها فى جو غير رحيم كما كان يمارسها المصريون فى شمس مصر الدفيئة وجوها المعتدل . فقد عاش الراهب ولفليك Wulfilaich عدة سنين عارى الساقين حافى القدمين فوق

عمود فى تيبر ؛ وكانت أظافر أصابع قدميه تتساقط فى الشتاء ، وتتعلق قطع الجليد بلحيته . وحبس القديس سينوخ نفسه بالقرب من تور فى مكان ضيق بين أربعة جدران لم يستطع فيه أن يحرك النصف الأسفل من جسمه . وعاش على هذا النحو سنين كثيرة ، كان فيها موضعاً لإجلال الشعب(٣١). وأدخل القديس يوحنا كسيان John Cassian فى الرهبنة آراء باخوم ليوازن بها نشوة أنطونيوس الروحية . فقد أوحت إليه بعض مواعظ كريستوم أن ينشئ ديراً للرجال وآخر للنساء فى مرسيلية (٤١٥) ، وأن يضع لهما أول ما وضع فى الغرب من قوانين لحياة الرهبنة . وكان خمسة آلاف راهب فى پروڤانس Provence يعيشون حسب ما وضعه من القواعد قبل أن يموت فى عام ٤٣٥ . وبعد عام ٤٠٠ بقليل أنشأ القديسان هونوراتوس Honoratus وكبراسيوس Caprasius ديراً على جزيرة ليرن Lérins المواجهة لمدينة كان Cannes . وكانت هذه الأديرة تعوّد الناس التعاون فى العمل ، والدرس ، والتبحر فى العلوم ، أكثر مما تعلمهم التعبد فى عزلة ، ولم تلبث أن صارت مدارس لتعليم أصول الدين ، كان لها أبلغ الأثر فى أفكار الغرب . ولما تولى القديس بندكت حكم غالة من الوجهة الدينية فى القرن التالى ، أقام حكمه على تقاليد كاسيان التى كانت من خير النظم الدينية فى التاريخ كله.

الفصل الرابع

الشرق المسيحى

١ - رهبان الشرق

لما أن أصبحت الكنيسة منظمة تحكم الملايين من بنى الإنسان ، ولم تعد كما كانت جماعة من المتعبدين الخاشعين ، أخذت تنظر إلى الإنسان وما فيه من ضعف نظرة أكثر عطفاً من نظرتها السابقة ، ولا ترى ضيراً من أن يستمتع الناس بملاذ الحياة الدنيا، وأن تشاركهم أحياناً فى هذا الاستمتاع : غير أن أقلية من المسيحيين كانت ترى فى النزول إلى هذا الدرك خيانة للمسيح ، واعتزمت أن تجد مكانها فى السماء عن طريق الفقر ، والعفة ، والصلاة ، فاعتزلت العالم اعتزالا تاماً . ولربما كان مبشرو أشوكا Ashoka (حوالى ٢٥٠ ق . م) قد جاءوا إليه بنظرية البوذية وقوانينها الأخلاقية ؛ ولربما كان النساك الذين وجدوا فى العالم قبل المسيحية أمثال سرابيس Serapis فى مصر أو جماعات الإسينيين فى بلاد اليهود قد نقلوا إلى أنطونيوس وباخوم المثل العليا للحياة الدينية الصارمة وأساليب هذه الحياة . وكان الكثيرون من الناس يرون فى الرهبنة ملاذاً من الفوضى والحرب اللذين أعقبا غارات المتبربرين ؛ فلم يكن فى الدير ولا فى الصومعة الصحراوية ضرائب ، أو خدمة عسكرية ، أو منازعات حربية ، أو كدح ممل . ولم يكن يطلب إلى الراهب ما يطلب إلى القسيس من مراسم قبل رسامته ، وكان يوقن أنه سوف يحظى بالسعادة الأبدية بعد سنين قليلة من حياة السلام .

ويكاد مناخ مصر أن يغرى الناس بحياة الأديرة ، ولهذا غصت

بالرهبان النساك الفرادى والمتجمعين فى الأديرة يعيشون فى عزلة كما كان يعيش أنطونيوس ، أوجماعات كما كان يعيش باخوم فى تابن Tabenne . وأنشئت الأديرة للرجال والنساء على طول ضفتى النيل ، وكان بعضها يحتوى نحو ثلثمائة من الرهبان والراهبات . وكان أنطونيوس (٢٥١ — ٣٥٦) أشهر النساك الفرادى ، وقد أخذ ينتقل من عزلة إلى عزلة حتى استقر به المقام على جبل القلزم القريب من شاطئ البحر الأحمر . وعرف مكانه المعجبون به فحذوا حذوه فى تعبده ونسكه ، وبنوا صوامعهم فى أقرب مكان منه سمح لهم به ، حتى امتلأت الصحراء قبل موته بأبنائه الروحيين . وقلما كان يغتسل ، وطالت حياته حتى بلغ مائة وخمساً من السنين . ورفض دعوة وجهها إليه قسطنطين ، ولكنه سافر إلى الإسكندرية فى سن التسعين ليؤيد أثناسيوس ضد أتباع أريوس . وكان يليه فى شهرته باخوم الذى أنشأ فى عام ٣٢٥ تسعة أديرة للرجال وديراً واحداً للنساء . وكان سبعة آلاف من أتباعه الرهبان يجتمعون أحياناً ليحتفلوا بيوم من الأيام المقدسة ، وكان أولئك الرهبان المجتمعون يعملون ويصلون ، ويركبون القوارب فى النيل من حين إلى حين ليذهبوا إلى الإسكندرية حيث يبيعون ما لديهم من البضائع ويشترون حاجياتهم ويشتركون فى المعارك الكنسية — السياسية .

ونشأت بين النساك الفرادى منافسة قوية فى بطولة النسك يتحدث عنها دوشين Abbé Duchesne بقوله إن مكاريوس الإسكندرى « لم يكن يسمع بعمل من أعمال الزهد إلا حاول أن يأتى بأعظم منه » ، فإذا امتنع غيره من الرهبان عن أكل الطعام المطبوخ فى الصوم الكبير امتنع هو عن أكله سبع سنين ؛ وإذا عاقب بعضهم أنفسهم بالامتناع عن النوم شوهد مكاريوس وهو « يبذل جهد المستميت لكى يظل مستيقظاً عشرين ليلة متتابعة » . وحدث مرة فى صوم كبير أن ظل واقفاً طوال هذا الصوم ليلا ونهاراً لا يذوق الطعام إلا مرة واحدة فى الأسبوع ، ولم يكن طعامه هذا أكثر من بعض أوراق الكرنب ،

ولم ينقطع خلال هذه المدة عن ممارسة صناعته التى اختص بها وهى صناعة السلال(٣٢) . ولبث ستة أشهر ينام فى مستنقع ، ويعرض جسمه العريان للذباب السام(٣٣) . ومن الرهبان من أوفوا على الغاية فى أعمال العزلة ؛ من ذلك سرابيون Serapion الذى كان يعيش فى كهف فى قاع هاوية لم يجرؤ على النزول إليها إلا عدد قليل من الحجاج . ولما وصل چيروم وپولا إلى صومعته هذه وجدوا فيها رجلا لا يكاد يزيد جسمه على بضعة عظام وليس عليه إلا خرقة تستر حقويه ، ويغطى الشعر وجهه وكتفيه ، ولا تكاد صومعته تتسع لفراشه المكوّن من لوح من الخشب وبعض أوراق الشجر . ومع هذا فإن هذا الرجل قد عاش من قبل بين أشراف رومة(٣٤) . ومن النساك من كانوا لا يرقدون قط أثناء نومهم ومنهم من كان يداوم على ذلك أربعين عاماً مثل بساريون Bessarion أو خمسين عاماً مثل باخوم(٣٥) . ومنهم من تخصصوا فى الصمت وظلوا عددا كبيراً من السنين لا تنفرج شفاههم عن كلمة واحدة . ومنهم من كانوا يحملون معهم أوزاناً ثقالا أينما ذهبوا . ومنهم من كانوا يشدون أعضاءهم بأطواق أو قيود أو سلاسل ؛ ومنهم من كانوا يفخرون بعدد السنين التى لم ينظروا فيها إلى وجه امرأة(٣٦) . وكان النساك المنفردون جميعهم تقريباً يعيشون على قدر قليل من الطعام ؛ ومنهم من عمّروا طويلا . ويحدثنا چيروم عن رهبان لم يطعموا شيئاً غير التين وخبز الشعير . ولما مرض مكاريوس جاءه بعضهم بعنب فلم تطاوعه نفسه على التمتع بهذا الترف ، وبعث به إلى ناسك آخر ، وأرسله هذا إلى ثالث حتى طاف العنب بجميع الصحراء — (كما يؤكد لنا روفينس) ، وعاد مرة أخرى كاملا إلى مكاريوس(٣٧) . وكان الحجاج ، الذين جاءوا من جميع أنحاء العالم المسيحى ليشاهدوا رهبان الشرق ، يعزون إلى أولئك الرهبان معجزات لا تقل فى غرابتها عن معجزات المسيح ، فكانوا — كما يقولون — يشفون الأمراض ويطردون الشياطين باللمس أو بالنطق بكلمة ؛ وكانوا يروّضون الأفاعى أو الآساد بنظرة

أو دعوة ، ويعبرون النيل على ظهور التماسيح . وقد أصبحت مخلفات النساك أثمن ما تمتلكه الكنائس المسيحية ، ولا تزال مدخرة فيها حتى اليوم .

وكان رئيس الدير يطلب إلى الرهبان أن يطيعوه طاعة عمياء ، ويمتحن الرهبان الجدد بأوامر مستحيلة التنفيذ يلقيها عليهم . وتقول إحدى القصص إن واحداً من أولئك الرؤساء أمر راهباً جديداً أن يقفز فى نار مضطرمة فصدع الراهب الجديد بالأمر ؛ فانشقت النار حتى خرج منها بسلام . وأُمر راهب جديد آخر أن يغرس عصا رئيسه فى الأرض ويسقيها حتى تخرج أزهاراً ؛ فلبث الراهب عدة سنين يذهب إلى نهر النيل على بُعد ميلين من الدير يحمل منه الماء ليصبه على العصا ، حتى رحمه الله فى السنة الثالثة فأزهرت[٣٨] . ويقول چيروم[٣٩] إن الرهبان كانوا يؤمرون بالعمل « لئلا تضلهم الأوهام الخطرة » . فمنهم من كان يحرث الأرض ، ومنهم من كان يعنى بالحدائق ، أو ينسج الحصر أو السلال ، أو يصنع أحذية من الخشب ، أو ينسخ المخطوطات . وقد حفظت لنا أقلامهم كثيراً من الكتب القديمة . على أن كثيرين من الرهبان المصريين كانوا أميين يحتقرون العلوم الدنيوية ويرون أنها غرور باطل[٤٠] . ومنهم من كان يرى أن النظافة لا تتفق مع الإيمان ؛ وقد أبت العذراء سلفيا أن تغسل أى جزء من جسدها عدا أصابعها ، وكان فى أحد الأديرة النسائية ١٣٠ راهبة لم تستحم واحدة منهن قط أو تغسل قدميها . لكن الرهبان أنسوا إلى الماء حوالى آخر القرن الرابع ، وسخر الأب اسكندر من هـذا الانحطاط فأخذ يحن إلى تلك الأيام التى لم يكن فيها الرهبان « يغسلون وجوههم قط »[٤١] .

وكان الشرق الأدنى ينافس مصر فى عدد رهبانها وراهباتها وعجائب فعالهم . فكانت أنطاكية وبيت المقدس خليتين مليئتين بالصوامع وبالرهبان والراهبات ، وكانت صحراء سوريا غاصة بالنساك ، منهم من كان يشد نفسه بالسلاسل إلى صخرة ثابتة لا تتحرك كما يفعل فقراء الهنود ، ومنهم من كان يحتقر هذا النوع المستقر

من المساكن ، فيقضى حياته فى الطواف فوق الجبال يطعم العشب البرى[٤٢] . ويروى لنا المؤرخون أن سمعان العمودى Simeon Stylites (٣٩٠ ؟ –٤٥٩) كان لا يذوق الطعام طول الصوم الكبير الذى يدوم أربعين يوماً . وقد أصر فى عام من الأعوام أثناء هذا الصوم كله على أن يوضع فى حظيرة وليس معه إلا قليل من الخبز والماء . وأُخرج من بين الجدران فى يوم عيد الفصح فوجد أنه لم يمس الخبز أو الماء . وبنى سمعان لنفسه فى عام ٤٢٢ عموداً عند قلعة سمعان فى شمالى سوريا وعاش فوقه . ثم رأى أن هذا اعتدال فى الحياة يجلله العار فأخذ يزيد من ارتفاع العمد التى يعيش فوقها حتى جعل مسكنه الدائم فوق عمود يبلغ ارتفاعه ستين قدماً ولم يكن محيطه فى أعلاه يزيد على ثلاث أقدام ، وكان حول قمته سور يمنع القديس من السقوط على الأرض حين ينام . وعاش سمعان على هذه البقعة الصغيرة ثلاثين عاماً متوالية معرضاً للمطر والشمس والبرد ، وكان أتباعه يصعدون إليه بالطعام وينقلون فضلاته على سلم يصل إلى أعلى العمود : وقد شد نفسه على هذا العمود بحبل حز فى جسمه ، فتعفن حوله ، ونتن وكثرت فيه الديدان ، فكان يلتقط الدود الذى يتساقط من جروحه ويعيده إليها ويقول : « كلى مما أعطاك الله ! » . وكان يلقى من منبره العالى مواعظ على الجماهير التى تحضر لمشاهدته ، وكثيراً ما هدى المتبربرين ، وعالج المرضى ، واشترك فى السياسة الكنسية ، وجعل المرابين يستحون فينقصون فوائد ما يقرضون من المال إلى ستة فى المائة بدل اثنى عشر[٤٣] . وكانت تقواه سبباً فى إيجاد طريقة النسك فوق الأعمدة ، وهى الطريقة التى دامت اثنى عشر قرناً ، ولا تزال باقية حتى اليوم بصورة دنيوية خالصة .

ولم ترض الكنيسة عن هذا الإفراط فى التقشف ، ولعلها كانت تحس بشىء من الفخر الوحشى فى هذا الإذلال النفسى ، وبشىء من الشراهة الروحية فى هذا الإنكار الذاتى ، وبشىء من الشهوانية الخفية فى هذا الفرار من النساء ومن العالم

كله . وسجلات أولئك الزهاد حافلة بالرؤى والأحلام الجنسية ، وصوامعهم تتردد فيها أصداء أنينهم وهم يقاومون المغريات الخيالية والأفكار الغرامية . وكانوا يعتقدون أن الهواء الذى يحيط بهم غاص بالشياطين التى لا تنفك تهاجمهم ؛ ويبدو أن الرهبان قد وجدوا أن حياة الفضيلة فى العزلة أشق منها لو أنهم عاشوا بين جميع مغريات المدن . وكثيراً ما كان الناسك تختل موازين عقله ؛ فها هوذا روفينس يحدثنا عن راهب شاب دخلت عليه فى صومعته امرأة جميلة ، فلم يستطع أن يقاوم سحر جمالها ، ثم اختفت من فوزها فى الهواء كما ظن هو . فما كان من الراهب إلا أن خرج هائماً على وجهه ، إلى أقرب قرية له ، وقفز فى فرن حمام عام ليطفئ النار المستعرة فى جسمه . وتروى قصة أخرى عن فتاة استأذنت فى الدخول إلى صـــومعة راهب مدعية أن الوحوش تطاردها فرضى أن يؤويها وقتاً قصيراً ، ولكن حدث فى تلك الساعة أن مست جسمه مصادفة ، فاشتعلت نار الشهوة فيه كأن سنى التقشف الطوال التى مرت به قد انقضت دون أن تحدث فيها أقل أثر . وحاول الراهب أن يمسك بها ، ولكنها اختفت عن ذراعيه وعن عينيه . ويقول الرواة إن جماعة من الشياطين أخذت تغنّى وتهلل طرباً وتضحك من سقطته . ويقول روفينس إن الراهب لم يطق حياة الرهبنة بعد تلك الساعة ؛ فقد عجز كما عجز بفنوس Paphnuce فى مسرحية تييس Thais لأناتول فرانس عن أن يبعد عنه رؤيا الجمال التى أبصرها أو تخيلها ، فغادر صومعته وانغمس فى حياة المدينة ، وسار وراء هذه الرؤيا حتى أوصلته آخر الأمر إلى الجحيم(٤٤) .

ولم يكن للكنيسة النظامية سلطة ما على الرهبان فى أول الأمر ؛ وقلما كان أولئك الرهبان يحصلون على أية رتبة كهنوتية ، غير أنها مع ذلك كانت تحس بأن تبعة إفراطهم هذا واقعة عليها ، فقد كان لها نصيب من المجد الذى ينالونه بأعمالهم . ولم يكن فى وسع الكنيسة أن ترضى كل الرضا عن المثل العليا للرهبنة .

نعم إنها كانت تمتدح العزوبة ، والبكورية ، والفقر ، ولكن لم يكن وسعها أن تعد الزواج ، أو الأبوة ، أو الملكية من الخطايا ، بل لقد أصبح الآن من مصلحتها أن يدوم الجنس البشرى ويتناسل ويكثر . وكان بعض الرهبان يغادرون الأديرة باختيارهم ، ويضايقون الناس بإلحافهم فى السؤال . ومنهم من كانوا يتنقلون من بلدة إلى بلدة ، يدعون إلى الزهد ويبيعون مخلفات حقيقية أو زائفة ، ويرهبون المجامع الدينية المقدسة ، ويحرضون ذوى الطبائع الحامية من الناس على تدمير الهياكل أو التماثيل الوثنية ، أو يدعونهم فى بعض الأحيان إلى قتل امرأة من طراز هيباشيا Hypatia . ولم تكن الكنيسة راضية عن هذه الأعمال الفردية التى يأتيها هؤلاء الرهبان من تلقاء أنفسهم . وقد قرر مجلس خلقدون (٤٥١) أن تفرض رقابة شديدة على من يدخلون الأديرة ، وأن الذين يهبون أنفسهم لها لا يجوز لهم أن يخرجوا بعدئذ منها ، وألا يسمح لإنسان بأن ينشئ ديراً أو يغادره إلا إذا أذن له بذلك أسقف الأبرشية .

٢ — الأساقفة الشرقيون

لقد نالت المسيحية فى الوقت الذى نتحدث عنه نصراً فى بلاد الشرق يكاد أن يكون تاما ، ففى مصر أصبح المسيحيون المحليون أو القبط(*) هم أغلبية السكان ، وكانوا يمدون بالمال مئات من الكنائس والأديرة . واعترف تسعون أسقفاً مصريا بسلطة بطريق الإسكندرية ، وهى سلطة تكاد تضارع سلطة الفراعنة والبطالمة . وكان بعض هؤلاء البطارقة ساسة من رجال الدين ومن طراز غير محبوب أمثال توفيلس الذى حرق هيكل سرابيس الوثنى ومكتبته(٣٨٩) . وكان خيراً منه وأحب إلى النفوس الأب سينسيوس Sinesius أسقف بطوليمايس

(*) كلمة Copt الأوربية مأخوذة من كلمة قبط العربية وهذه محرفة من إيچپتوس Aigyptos اليونانية ومعناها مصرى .

المتواضع . وكان مولده فى قوريني (حوالى عام ٣٦٥) ، وقد درس علوم الرياضة والفلسفة فى الإسكندرية على هيباشيا ؛ وظل إلى آخر أيام حياته صديقها الوفى ، وكان يسميها : « الشارحة الحقة للفلسفة الحقة » . ثم زار أثينة ، وفيها قويت عقيدته الوثنية ، ولكنه تزوج بإمرأة مسيحية فى عام ٤٠٣ ، واعتنق على أثر ذلك الدين المسيحى ، ووجد أن من المجاملة البسيطة لزوجته أن يحول ثالوث الأفلاطونية الحديثة المكوّن من الواحـــد ، والفكر ، والنفس ، إلى الأب ، والروح ، والابن[٤٥] . وكتب كثيراً من الرسائل البديعة ، وبعض الكتب الفلسفية القليلة الشأن التى لا يوجد بينها شىء ذو قيمة للقارئ فى هذه الأيام ، إذا استثنينا مقاله « فى مدح الصلع » . وفى عام ٤١٠ عرض عليه توفيلس أسقفية بطوليمايس ، وكان وقتئذ من سراة الريف وممن كان مالُهم أكثر من مطامعهم ، فقال إنه غير أهل لهذا المنصب ، وإنه لا يؤمن ببعث الجسم (كما تتطلب ذلك عقائد مؤتمر نيقية) وإنه متزوج ، ولا يريد أن يهجر زوجته . ولكن العقائد المقررة كانت فى نظر توفيلس مجرد آلات ، فغض النظر عن هذه المخالفات وعيّن سينسيوس أسقفاً قبل أن يفصل الفيلسوف فى أمره . ومن الحادثات الطريفة التى تتفق مع ما عرف عن هذا الأسقف أن آخر رسالة كتبها كانت موجهة إلى هيپاشيا وأن آخر صلاة له كانت للمسيح[٤٦] .

وعوملت الهياكل الوثنية فى سوريا بالطريقة التى تتفق مع طباع توفيلس ، فقد صدر أمر إمبراطورى يقضى بإغلاقها ؛ وقاومت البقية الباقية من الوثنيين أمره هذا ولكنهم استسلموا أخيراً للهزيمة حين رأوا آلهتهم ترضى بتخريب هياكلها دون مبالاة . وكان للمسيحية فى آسية زعماء أعظم حكمة من زعمائها فى مصر(*) . فمن هؤلاء باسيلى العظيم الذى تعلم فى حياته القصيرة التى لا تزيد على

(*) شغل القديس نقولا Micholas فى القرن الرابع كرسى أسقفية ميرا Myra فى ليشيا Lycia . وكان جم التواضع لم يدر قط بخلده أنه سيصبح فى يوم من الأيام القديس =

خمسين عاماً (٣٢٩؟ — ٣٧٩) البلاغة على ليبانيوس فى القسطنطينية ، ودرس الفاسفة فى أثينة ، وزار النساك فى مصر وسوريا ، ولم يوافق على زهدهم وانطوائهم على أنفسهم ، ثم صار أسقفاً لقيصرية فى كپدوكيا ، ونظم شئون المسيحية فى بلاده ، فأعاد النظر فى شعائرها ، وأدخل فيها نظام رهبنة الأديرة التى تنتج كل ما يحتاجه المقيمون فيها ، ووضع قانوناً للأديرة لا يزال هو المسيطر على جميع أديرة العالم اليونانى الصقلبى . وقد نصح أتباعه بأن يتجنبوا ما يأتيه النساك المصريون من أعمال القسوة المسرحية ، وأن يستعيضوا عنها بخدمة الله وخدمة صحتهم وعقولهم بالعمل النافع . وهو يرى أن حرث الأرض من خير أنواع العبادة . ولا يزال الشرق المسيحى حتى الآن يعترف بما له فى المسيحية من أثر لا يضارعه أثر أحد غيره .

أما القسطنطينية فلم يكد يبقى فيها أثر للعبادات الوثنية . بيد أن المسيحية نفسها قد تفرقت شيعاً بسبب النزاع الدائم بين أهلها . فقد كانت الأريوسية لا تزال قوية ، وكانت بدع دينية خارجة على الدين لا تنقطع عن الظهور ، حتى ليكاد يكون لكل رجل فيها آراؤه الخاصة فى الدين . وفى ذلك يقول جريجورى النيسى Gregory of Nyassa أخو باسيلى : « هذه المدينة ملأى بالصناع والعبيد ، وكلهم من المتفقهين فى الدين الذين يعظون الناس فى الشوارع والحوانيت . فإذا طلبت إلى أحد منهم أن يبدل لك قطعة نقود فضية ، أخذ يحدثك عن الفوارق بين الابن والأب ، وإذا سألت عن ثمن رغيف . . . قيل لك إن الابن أقل منزلة من الأب ؛ وإذا سألت هل أعدّ لك الحمّام ، كان الجواب أن الابن قد خُلق من لا شىء »[٤٧] . وكان أول دير أنشئ فى العاصمة الجديدة هو الذى أنشأه إسحق السورى فى أيام ثيودوسيوس الأول ، وسرعان ما تضاعف

— زاعى روسيا ، وراعى اللصوص ، والأولاد ، والبنات ، ثم يدخل أخيراً باسمه الهولندى — سنتا كلوز Santa Claus فى الأساطير المسيحية المنتشرة فى نصف العالم المسيحى .

عدد الاديرة فيها حتى إذا وافى عام ٤٠٠ كان الرهبان طائفة ذات قوة وبأس تنشر الرعب فى المدينة ، وكان لهم شأن صاخب فى النزاع القائم بين هذا البطريق وذاك وبين البطريق والإمبراطور .

وتعلم جريجورى نزيانزين مرارة الحقد الطائفى حين قبل دعوة وجهها إليه مسيحيو القسطنطينية لأن يكون أسقفاً عليهم (٣٧٩) . وكان ڤالنز قد مات تواً ، ولكن أتباع أريوس الذين ناصرهم الإمبراطور من قبل ، كانوا لا يزالون يتولون معظم المناصب الكنسية ، ويقيمون صلواتهم فى كنيسة أياصوفيا . ولذلك اضطر جريجورى أن يصنع مذبحه ويأوى أتباعه فى بيت صديق له ، ولكنه أطلق على كنيسته المتواضعة اسماً يدل على كبير أمله فيها ، فقد سماها أناستازيا Anastasia (البعث) . وكان رجلا أوتى من التقوى بقدر ما أوتى من العلم ، درس فى أثينة مع مواطنه باسيلى ، ولم يكن أحد أفصح منه إلا الرجل الذى جاء بعد خلفه . وزاد أتباعه زيادة مطردة حتى كانوا أكثر من المتعبدين فى الكنائس الرسمية . وفى عشية عيد الفصح من عام ٣٧٩ هجم جماعة من الأريوسيين على كنيسة الأناستازيا ورجموها بالحجارة ، وبعد ثمانية عشر شهراً من هذا الحادث أخذ الإمبراطور ثيودوسيوس بيد جريجورى ورفعه على عرشه الخليق به فى كنيسة أياصوفيا وسط مظاهر التكريم والنصر العظيم . ولكن السياسة الكهنوتية لم تلبث أن قضت على هدوئه واطمئنانه ، فقام جماعة من شانئيه الأساقفة يعلنون أن تعيينه باطل ، وأمروه أن يدافع عن نفسه أمام مجلس دينى . ورأى جريجورى أنه أكبر من أن يدافع عن كرسيه ، فاعتزل منصبه (٣٨١) ، وعاد إلى نزيانزوس Nazianzus فى كپدوكيا ليقضى فيها الثمانى السنين الباقية من حياته بعيداً عن أعين الخلق فى عزلة وهدوء .

وخلفه فى منصبه رجل خامل غير خليق بالذكر ، ولما مات دعت الحاشية الإمبراطورية إلى كنيسة أياصوفيا قساً من أنطاكية يعرف فى التاريخ باسم

القديس يوحنا كريستوم — أى صاحب الفم الذهبى . وقد ولد حوالى عام ٣٤٥ من أسرة شريفة ، وتلقى فنون البلاغة على ليبانيوس ، وألم بالآداب والفلسفة الوثنية ، وكان الأحبار الشرقيون بوجه عام أغزر علماً وأكثر براعة فى الجدل من أحبار الغرب . وكان يوحنا رجلا قوى الذهن حاد الطبع ، أزعج أتباعه الجدد باصطناع الجد فى المسيحية ، والتنديد بمظالم العصر وفساده الخلقى بأصرح الألفاظ(٤٨) . وصف المسرح بأنه معرض للنساء الفاجرات ، ومدرسة للفسق والغوايات والدسائس . وأخذ يسائل سراة المسيحيين فى العاصمة لِمَ ينفقون الكثير من أموالهم فى الخلاعة والمجون ، ولا يهبون الكثير منها إلى الفقراء كما أمرهم المسيح . ويعجب كيف يكون لبعض الناس عشرون قصراً ، وعشرون حماما ، وألف عبد ، وأبواب من العاج ، وأرض من الفسيفساء ، وجدران من الرخام ، وسقف من الذهب ؛ وينذر الأغنياء بعذاب النار لأنهم يحيون ضيوفهم بالبنات الفاسدات الراقصات(٤٩) . وكان يلوم أتباعه من رجال الدين على حياة التبطل والنعيم(٥٠) ، وعلى قيام النساء بخدمتهم فى بيوتهم الكنسيّة مما يحمل الناس على الارتياب فيهم وإساءة الظن بهم . وقد أقال ثلاثة عشر أسقفاً من الخاضعين لسلطته لفساد أخلاقهم أو متاجرتهم بالدين ، وأنب رهبان القسطنطينية لأنهم يقضون فى الشوارع من الوقت أكثر ممـا يقضونه فى صوامعهم . وكان هو نفسه يضرب أحسن الأمثلة فى العمل بما يعظ به : فلم يكن ينفق إيراد دائرته الدينية فى المظاهر الكاذبة التى كانت من مميزات الأسقفيات الشرقية ، بل كان ينفقها فى بناء المستشفيات ، ومساعدة الفقراء . ولم تسمع القسطنطينية قبله مواعظ تضارع مواعظه قوة ، وبلاغة ، وصراحة ؛ فلم تكن مليئة بالمعنويات الدالة على التقى والورع ، بل كانت سننا مسيحية تطبق تطبيقاً صارماً إلى أقصى حدود الصرامة .

« هل فى الناس من هم أظلم من الملاك ؟ فأنت إذا نظرت إلى الطريقة التى يعاملون بها مستأجرى أملاكهم رأيتهم أشد وحشية من البرابرة . فهم يفرضون

ضرائب فادحة لا آخر لها على الذين أنهك الجوع والكدح أجسامهم طوال حياتهم ، ثم يفرضون عليهم فوق ذلك خدمات لا طاقة لهم بها . . . يرغمونهم على العمل طوال فصل الشتاء فى البرد والمطر ، ويحرمونهم من النوم ويرسلونهم إلى بيوتهم محرومين من كل شىء . . .

« وإن ما يقاسيه أولئك الرجال على أيدى عمال الملاك من عذاب ، وضرب ، وما يرغمون على أدائه من ضرائب فادحة ، وخدمات خالية من الرحمة ، لأشد عليهم من ألم الجوع . ومن ذا الذى يستطيع إحصاء الوسائل التى يلجأ إليها أولئك الوكلاء لاستخدام المستأجرين فى جر المغانم لهم ثم حرمانهم من ثمار كدحهم ؟ فهم يديرون بقوة عضلاتهم ما يمتلكه أولئك الوكلاء من معاصر الزيتون ، ولكنهم لا ينالون نصيباً مهما قل من الزيت الذى يرغمون على تعبئته فى الزجاجات لأولئك الوكلاء ظلماً وعدواناً ؛ وهم لا يؤجرون على عملهم هذا إلا أجراً ضئيلا[٥١] » .

وبعد ، فإن جماعة المصلين فى الكنائس يحبون أن يؤنبوا ، ولكنهم لا يحبون أن يقوّموا . ومن أجل هذا ظلت النساء يتعطرن ، وظل الأغنياء يقيمون المآدب الفخمة ، وظل رجال الدين منهمكين فى شئونهم النسائية الخاصة ، وبقيت دور التمثيل تعرض مناظرها المألوفة ؛ وسرعان ما وقفت كل طائفة فى المدينة ، عدا الفقراء الذين لا حول لهم ولا طول ، تعارض الرجل ذا الفم الذهبى . وكانت الإمبراطورة يودكسيا زوجة أركاديوس تتزعم الطائفة المتنعمة من أهل العاصمة فى حياة الترف . وقد فسرت إحدى العبارات الواردة فى مواعظ يوحنا بأنها تشير إليها هى ، وطلبت إلى زوجها الضعيف أن يعقد مجلساً دينياً لمحاكمة البطريق . وأجابها الإمبراطور إلى طلبها ، وعقد فى عام ٤٠٣ مجلس من أساقفة الشرق فى خلقيدون . ورفض يوحنا المثول أمامه محتجاً بأنه يجب ألا يحاكم أمام أعدائه فقرر المجلس خلعه ؛ وذهب الرجل إلى المنفى فى هدوء ، ولكن

الناس ضجوا بالاحتجاج ضجيجاً أخاف الإمبراطور ، فأرجعه إلى كرسيه .
ولم تمض إلا بضعة أشهر حتى قام مرة أخرى يندد بالطبقات الغنية ، ويبدى بعض آراء انتقادية على تمثال للإمبراطورة ، فطلبت يودكسيا مرة أخرى طرده ، وقام توفيلس بطريق الإسكندرية ، وهو الرجل المتأهب على الدوام لأن يضعف الكرسى المنافس له ، يذكر أركاديوس بأن قرار خلقيدون القاضى بخلعه لا يزال قائما ، يمكن تطبيقه عليه . وأرسل الجند للقبض على كريسستوم ؛ ونقل الرجل إلى الضفة الأخرى من البسفور ونفى فى قرية من قرى أرمينية (٤٠٤) . ولما أن سمع أتباعه الأوفياء بهذا النبأ ثاروا ثورة عنيفة ، أحرقت فى أثنائها كنيسة أياصوفيا ومجلس الشيوخ القريب منها . وأرسل كريسستوم من منفاه رسائل استغاثة إلى هونوريوس وإلى أسقف رومة ، فأمر أركاديوس بنقله إلى صحراء پتيوس البعيدة فى پنطس . ولكن الأب المنهوك القوى مات فى الطريق عند بلدة كومانا Comana فى الثانية والستين من عمره (٤٠٧) . وظلت الكنيسة الشرقية من ذلك اليوم حتى الآن — مع استثناء فترات قصيرة — خادمة للدولة خاضعة لأوامرها .

الفصل الخامس

القديس أوغسطين

١ — الآثم

كانت أفريقية الشمالية التى وُلد فيها أوغسطين موطن خليط من الأجناس والعقائد ، امتزج فى أهلها الدم البونى والنوميدى بالدم الرومانى ، ولعلهما امتزجا فى أوغسطين . وكان كثيرون من الناس يتكلمون اللغة البونية — وهى لغة قرطاجنة الفينيقية القديمة ، وقد بلغوا من الكثرة حداً اضطر معه أوغسطين وهو أسقف ألاّ يعين من القساوسة إلا من كان يتكلم هذه اللغة . وكانت الدوناتية فيها تتحدى الديانة القويمة ، والمانية تتحداهما جميعاً ، ويلوح أن كثرة الأهلين كانت لا تزال وثنية(٥٢) . وكان مسقط رأس أوغسطين هو بلدة تاجستى Tagaste فى نوميديا . وكانت أمه القديسة منكا Monica مسيحية مخلصة قضت حياتها كلها تقريباً فى العناية بولدها الضال والدعاء له بالهداية . أما والده فكان رجلا قليل المال ، ضعيف المبادئ ، صبرت مونكا على عدم وفائه ليقينها أنه لن يستمر على هذا إلى أبد الدهر .

ولما بلغ الغلام الثانية عشرة من عمره أرسل إلى المدرسة فى مدورا Madaura ، ولما بلغ السابعة عشرة أُرسل ليتم دراساته العليا فى قرطاجنة . وقد وصف سلفان أفريقية بعد ذلك الوقت بقليل بأنها « بالوعة أقذار العالم » ، كما وصف قرطاجنة بأنها « بالوعة أقذار أفريقية » . ومن أجل هذا كانت النصيحة التى أسلتها مونكا لولدها وقت وداعه هى كما جاءت على لسانه

« إنها أمرتنى ، وحذرتنى فى جد وصرامة من مخالفة أمرها ، وألاّ أرتكب

الفحشاء ، وخاصة ألا أدنس عرض امرأة متزوجة . وخيل إلى أن هذه الأقوال لا تعدو أن تكون نصائح امرأة ، وأن من العار على أن أعمل بها ... واندفعت فى غوايتى اندفاع الأعمى ، حتى كنت أخجل وأنا بين لداتى من أن أرتكب ذلك الجرم الشنيع فأكون أقل منهم قحة حين كنت أستمع إليهم يتفاخرون أعظم الفخر بآثامهم ؛ نعم فقد كان تفاخرهم يعظم كلما زادت حيوانيتهم . وكنت أسر من هذه الأعمال الفاضحة ، ولم يكن ذلك لما فيها من لذة فحسب ، بل لما أناله بسببها من المديح . . . فإذا عدمت فرصة ارتكاب عمل من الأعمال الإجرامية ، التى تسلكنى مع السفلة الخاسرين . تظاهرت بأنى قد فعلت ما لم أفعله قط »(٥٤) .

وقد أظهر أوغسطين أنه تلميذ مجد فى اللغة اللاتينية ، وفى العلوم الرياضية ، والموسيقى والفلسفة « وكان عقلى القلق عاكفاً على طلب العلم »(٥٥). ولم يكن يحب اللغة اليونانية ، ولذلك لم يتقنها أو يتعلم آدابها ، ولكنه افتتن بأفلاطون افتتانا جعله يلقبه « نصف الإله »(٥٦) ، ولم يمتنع عن أن يكون أفلاطونيا بعد أن صار مسيحيا . وقد هيأه مرانه الوثنى فى المنطق والفلسفة لأن يكون أعظم الفقهاء دهاء فى الكنيسة المسيحية .

ولما أتم دراسته أخذ يعلم النحو فى تاجستى ثم البلاغة فى قرطاجنة . وإذ كان قد بلغ وقتئذ السادسة عشرة من عمره فقد « كثر الكلام حول اختيار زوجة لى » . ولكنه فضل أن يتخـذ له خليلة — وهى طريقة سهلة ترضاها المبادئ الأخلاقية الوثنية والقوانين الرومانية . وإذ لم يكن أوغسطين قد عمد بعد ، فقد كان فى وسعه أن يستمد مبادئه الخلقية أنى شاء . وكان اتخاذه خليلة له ارتقاء من الناحية الأخلاقية ، فقد انقطع بعدها عن الاختلاط الجنسى الطليق ، ويلوح أنه ظل وفيا لخليلته حتى افترقا فى عام ٣٨٥ . ووجد أوغسطين نفسه فى عام ٣٨٢ وهو لا يزال فى الثامنة عشرة من عمره أبا لولد ذكر على كره منه ؛ وقد لقب هذا الولد فى وقت من الأوقات « ابن خطيئتى » ، ولكنه كان يسميه عادة أديوداتوس

Adeodatus — أى عطية الله ، وقد أحب الولد فيا بعد حبا شديداً ، ولم يكن يسمح له أن يبتعد عنه قط .

ولما بلغ التاسعة عشرة من العمر غادر قرطاجنة إلى عالم رومة الواسع . وخشيت أمه ألا يعمد فرجته ألا يذهب إلى رومة ، فلما أصر على الذهاب ، توسلت إليه أن يأخذها معه . فتظاهر بموافقتها على توسلها ، ولكنه حين ذهب إلى الميناء تركها تصلى فى معبد صغير وأبحر دون أن يأخذها معه(٥٧) . وقضى عاماً فى رومة يعلم البلاغة ، ولكن تلاميذه لم يؤدوا إليه أجره ، فطلب أن يعين أستاذاً فى ميلان ، وامتحنه سياخوس ووافق على طلبه وأرسله إلى ميلان ببريد الدولة . وهناك لحقت به أمه الشجاعة ، وأقنعته بأن يستمع معها إلى مواعظ أمبروز ، وتأثر هو بهذه المواعظ ، ولكنه تأثر أكثر من هذا بالترنيمة التى ترنم بها المصلون . وأقنعته منكا فى الوقت عينه بأن يتزوج ، ثم خطبت له عروساً بالفعل ، وكان الآن فى الثانية والثلاثين من عمره ، وكانت عروسه بنتاً صغيرة السن عظيمة الثراء ورضى أوغسطين أن ينتظر عامين حتى تبلغ الثانية عشرة . وكان أول ما استعد به لزواجه أن أعاد حظيته إلى أفريقية ، حيث دفنت أحزانها فى دير النساء . وكان امتناعه عن النساء أسابيع قليلة كافياً لأن يسبب له انهيارا فى أعصابه ، فاستبدل بالزواج حظية أخرى ، ودعا الله قائلا : « ارزقنى العفة ، ولكنها لم يحل أوانها بعد »(٥٨) .

وقد وجد فى خلال هذه المشاغل المختلفة وقتاً لدراسة العلوم الدينية . لقد بدأ الرجل حياته بعقيدة أمه البسيطة ، ولكنه نبذها بأنفة وكبرياء حين ذهب إلى المدرسة ، ثم ظل تسع سنين معتنقا عقيدة الأثنينية المانية لأنه رأى فيها وسيلة لفهم العالم المركب من الخير والشر بلا تمييز بينهما . وقضى بعض الوقت يداعب تشكك المجمع العلمى المتأخر ، ولكن مزاجه الشديد التأثر والانفعال لم يكن يطيق البقاء زمنا طويلا معلق الحكم . ودرس وهو فى رومة وميلان كتب أفلاطون وأفلوطين

وتأثرت فلسفته أشد التأثر بالأفلاطونية الجديدة ، وظلت تسيطر عن طريقه على علوم الدين المسيحية إلى أيام أبيلار Abélard . وكانت هذه الفلسفة سبيل أوغسطين إلى المسيحية . وكان أمبروز قد أشار عليه بأن يقرأ الكتاب المقدس على ضوء ما قاله بولس من أن « الحرفية تقتل ولكن الروح تعمل للحياة » . ووجد أوغسطين أن التفسير الرمزى للكتاب المقدس يزيل ما كان يبدو له فى سفر التكوين من سخف . ولما قرأ رسائل ... س شعُر بأنه قد وجد رجلا مرت به مثله آلاف الشكوك ، فلما ثبتت عقيدته آخر الأمر لم يكن عقلا أفلاطونياً مجرداً بل وجد كلمة الله التى أصبحت إنساناً . وبينا كان أوغسطين جالساً فى يوم من الأيام فى إحدى حدائق ميلان مع صديقه أليپيوس ، خيل إليه أنه يسمع صوتاً يطن فى أذنيه ويناديه : « خذ واقرأ ، خذ واقرأ » . ففتح رسائل بولس مرة أخرى وقرأ :

لا بالبطر والسكر ، لا بالمضاجع والعهر ، لا بالخصام والحسد . بل البسوا الرب يسوع المسيح ، ولا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات(*) .

وكانت هذه الفقرة خاتمة تطور طويل الأمد فى مشاعر أوغسطين وأفكاره

وقد وجد فى هذا الدين العجيب شيئاً أعظم حرارة وأعمق فكراً من كل ما فى منطق الفلسفة ؛ لقد جاءته المسيحية لترضى فيه عاطفته المنفعلة القوية ؛ فلما أن تخلص من التشكك الذهنى وجد لأول مرة فى حياته دافعاً خُلقيَّاً قوياً ، وراحة عقلية ، وأقر صديقه أليپيوس أنه هو الآخر مستعد لأن يخضع مثله لهذا الصوت الجديد . وتلقت مُنِيكا هذا الاستسلام منهما فعكفت على الصلاة حمداً لله على هذه النعمة .

(*) من رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية الأصحاح الثالث عشر الآية ، ١٤ : (المترجم)

وفى يوم عيد الفصح من عام ٣٨٧ عَمَّد أمبروز أوغسطين ، وأليپيوس وأديوداتس ، ووقفت مُنيكا إلى جانبهم أثناء التعميد فرحة مستبشرة . وصمم أربعتهم على أن يذهبوا إلى أفريقية ليعيشوا فيها معيشة الرهبان . ثم ماتت منكا فى أستيا Ostia وهى واثقة من أنها ستجتمع بهم فى الجنة . ولما وصلوا إلى أفريقية باع أوغسطين ما خلفه له أبوه من ميراث صغير ووزع ثمنه على الفقراء ، ثم ألف هو وأليپيوس وطائفة من الأصدقاء جماعة دينية وعاشوا معاً فى تاجستى ، فقراء ، عزاباً ، منقطعين للدرس والصلاة . وعلى هذا النحو وُجدت الطريقة الأوغسطينية (٣٨٨) ، وهى أقدم أخوة رهبانية فى الغرب كله .

٢ – العالم الدينى

توفى أديوداتس فى عام ٣٨٩ وحزن عليه أوغسطين كأنه لم يزل وقتئذ يشك فيما ينتظره الذين يموتون وهم مؤمنون بالمسيح من سعادة أبدية . وكان عزاؤه الوحيد فى هذا الحزن العميق هو العمل والكتابة ؛ وفى عام ٣٩١ استعان به ڤليريوس أسقف هپو Hpoo (بونة الحالية) على إدارة أبرشيته ، ورسمه قسيساً ليمكنه من القيام بهذا العمل . وكثيراً ما كان ڤليريوس يترك له منبر الخطابة ، فكانت بلاغة أوغسطين تؤثر أبلغ الأثر فى المصلين سواء فهموها أو لم يفهموها . وكانت هپو ثغراً يسكنه نحو أربعين ألفاً من السكان ، وكان للكاثوليك فيه كنيسة ، وللدوناتيين كنيسة أخرى ، وكانت بقية السكان من المانيين(*) ، أو الوثنيين . وكان فرتونانس Fartunatus الأسقف المانى صاحب السيطرة الدينية فى هذه البلدة ، ولهذا انضم الدوناتيون إلى الكاثوليك فى تحريض أوغسطين على أن يقابله فى نقاش دينى ، وقبل أوغسطين هذا الطلب ، ولبث

(*) أتباع مانى وهو من أهل همذان (إكباتانا) عاش فى القرن الثالث وكان يقول : إن كل شىء ينشأ من أصلين رئيسيين النور والظلمة أو الخير والشر . (المترجم)

هذان الحصان ، أو إن شئت فقل المجالدان الجديدان يومين كاملين فى جدلهم أمام حشد كبير امتلأت به حمامات سوسيوس Socios . وفاز أوغسطين على مناظره ، فغادر فرتوناتس هپو ولم يعد إليها أبدا (٣٩٢) .

وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت طلب ڤلير يوس إلى أتباعه أن يختاروا خلفه معللا طلبه هذا بشيخوخته ، فأجمعوا أمرهم على اختيار أوغسطين ، لكنه عارض فى هذا الاختيار وبكى ، وتوسل إليهم أن يسمحوا له بالعودة إلى ديره ، غير أنهم تغلبوا عليه ؛ وظل الأربعة والثلاثين عاماً الباقية من عمره أسقفاً لهپو .

ومن هذه البقعة الصغيرة كان يحرك العالم . فبدأ عمله باختيار شماس أو شماسين ، وجاء براهبين من ديره ليساعداه فى عمله ، وعاشوا جميعاً عيشة الدير الشيوعية فى مسكنهم الكنسى ، ولذلك استولت بعض الدهشة على أوغسطين حين رأى أحد أعوانه يترك حين وفاته ميراثاً لا بأس به(٥٩) . وكانوا جميعاً يعيشون على الخضر ويبقون اللحم للأضياف والمرضى . وقد وُصف أوغسطين نفسُه بأنه قصير القامة ، نحيل الجسم ، ضعيف البنية على الدوام ؛ وكان يشكو اضطراباً فى الرئة ، وكان شديد التأثر بالبرد . وكان مرهف الأعصاب ، سريع التهيج ، قوى الخيال مكتئبه ، حاد الذهن ، مرن العقل . وما من شك فى أنه كان يتصف بكثير من الخلال المحبوبة رغم تمسكه الشديد بآرائه ، وتعسفه فى أحكامه الدينية ، وعدم تسامحه فى بعض الأحيان . وقبل كثيرون ممن جاءوه ليأخذوا عنه فنون البلاغة زعامته الدينية ، وظل أليپيوس من أتباعه إلى آخر حياته .

ولم يكد أوغسطين يجلس على كرسى الأسقفية حتى بدأ كفاحه الذى استمر مدى الحياة ضد الدوناتية . فكان يتحدى زعماءهم ويدعوهم إلى المناقشة العلنية ، ولكن لم يقبل دعوته إلا عدد قليل منهم ؛ ثم دعاهم إلى مؤتمرات حبية ، ولكنهم أجابوه بالصمت ، ثم بالإهانة ، ثم بالعنف ؛ وشنوا هجوماً شديداً على عدد من الأساقفة الكاثوليك فى شمالى أفريقية ؛ ويبدو أن عدة محاولات قد

بذلت لاغتيال أوغسطين نفسه[٦٠] . على أننا لا نستطيع أن نقطع فى هذا برأى حاسم لأنه ليس لدينا ما يقوله الدوناتية فى هذا الشأن ؛ وفى عام ٤١١ اجتمع مجلس دينى فى قرطاجنة استجابة لدعوة الإمبراطور هونوريوس ليضع حداً للنزاع مع الدوناتية ؛ وأرسل الدوناتيون ٢٧٩ من أساقفتهم ، كما أرسل الكاثوليك ٢٨٦ أسقفاً — لكننا يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن لفظ أسقف لم يكن له فى أفريقية معنى أكثر من لفظ قسيس . وبعد أن سمع مرسلينوس Marcellinus مندوب الإمبراطور حجج كل من الفريقين أمر ألا يعقد الدوناتية اجتماعاً عاماً بعد ذلك اليوم ، وأن يسلموا جميع كنائسهم إلى الكاثوليك . ورد الدوناتية على ذلك بأعمال فى منتهى العنف منها ، على ما يقال ، أنهم قتلوا رستتيوتوس Restitutus أحد قساوسة هپو وبتروا بعض أعضاء رجل من رجال أوغسطين ، وألح أوغسطين على الحكومة أن تنفذ قرارها بالقوة[٦١] ، وخرج على آرائه القديمة القائلة بأنه « يجب ألا يرغم أحد على القول بوحدة المسيح . . . وأنه ينبغى لنا ألا نقاتل الناس إلا بقوة الحجة ، وألا نتغلب إلا بقوة العقل »[٦٢] . وختم دعوته بقوله إن الكنيسة هى الأب الروحى لجميع الناس ، ومن ثم يجب أن يكون لها ما للأب من حق فى عقاب الإبن المشاكس لرده إلى ما فيه الخير له[٦٣] ؛ وقد بدا له أن إيقاع الأذى ببعض الدوناتية خير « من أن تنصب اللعنة على الجميع لحاجتهم إلى من يرغمهم »[٦٤] . وكان فى الوقت نفسه يكرر الدعوة إلى موظفى الدولة ألا ينفذوا عقوبة الإعدام على المارقين[٦٥] .

وإذا غضضنا النظر عن هذا النزاع المرير ، وعن المشاغل التى تتطلبها أعمال منصبه الدينى ، حق لنا أن نقول إن أوغسطين كان يعيش فى مملكة العقل وإن معظم عمله كان بقلمه . فقد كان يكتب فى كل يوم تقريباً رسالة لا يزال لها أعظم الأثر فى أصول المذهب الكاثوليكى ؛ وإن مواعظه وحدها لتملأ مجلدات ضخمة . ومع أن بعضها قد أفسدته البلاغة المصطنعة وما فيه من جمل متقابلة متوازنة ؛ ومع

أن الكثير من هذه المواعظ يبحث فى موضوعات محلية ، لا شأن لها بغير الوقت الذى قيلت فيه ، ويبحث فيها بأسلوب بسيط يتفق مع عقلية الجماعات غير المتعلمة التى كانت تستمع إليه ، ومع هذا كله فإن الكثير من هذه المواعظ يسمو إلى منزلة عليا من الفصاحة منشؤها عاطفته الصوفية القوية ، والعقيدة الثابتة المتأصلة فى أعماق نفسه . ولم يكن فى وسعه أن يحصر عقله فى أعمال أبرشيته لأنه عقل دأب على العمل ومرن على منطق المدارس . وقد بذل غاية جهده فيما أصدره من الرسائل التى كان بعضها يأخذ برقاب بعض فى أن يوفق بين العقل وبين عقائد الكنيسة التى كان يجلها ويرى أنها دعامة النظام والأخلاق الفاضلة فى هذا العالم الحرب المضطرب . وكان يدرك أن التثليث هو العقبة الكؤود فى سبيل هذا التوفيق ، ولهذا قضى خمسة عشر عاما يعمل فى أدق كتبه وأحسنها تنظيما وهو كتاب التثليث De Trinitate — الذى حاول فيه أن يجد فى التجارب الإنسانية نظائر لثلاثة أشخاص فى إله واحد . ومما حيره أكثر من هذه المسألة ، وملأ حياته كلها بالدهشة والمجادلة ، مشكلة التوفيق بين حرية الإرادة وعلم الله الأزلى السابق لأعمال الإنسان . فإذا كان علم الله يشمل كل شىء فهو يرى المستقبل بكل ما فيه ، ولما كانت إرادة الله ثابتة لا تتغير فإن ما لديه من صورة للحوادث التى سوف تقع فى المستقبل يحتم عليها أن تقع وفقاً لهذه الصورة ، فهى إذن مقررة من قبل لا تبديل فيها ولا تغيير . فكيف والحالة هذه يكون الإنسان حراً فى أعماله ؟ ألا يجب على الإنسان إذن أن يعمل وفق ما هو سابق فى علم الله ؟ وإذ كان الله عليما بكل شىء ، فقد عرف منذ الأزل المصير الأخير لكل روح خلقها ؛ فلم إذن خلق الأرواح التى قدر عليها اللعنة ؟

وكان أوغسطين قد كتب فى السنين الأولى من حياته المسيحية رسالة « فى حرية الإرادة De libero arbitrio » . حاول فيها وقتئذ أن يوفق بين وجود الشر وبين الخير الذى يتصف به الله القادر على كل شىء . وكان الحل الذى

وصل إليه فى هذه المشكلة هو أن الشر نتيجة لحرية الإرادة ؛ ذلك أن الله لا يمكن أن يترك الإنسان حراً ، دون أن يمكنه من أن يعمل الشر كما يعمل الخير . ثم تأثر فيها بعد برسائل بولس فقال إن خطيئة آدم قد وصمت الجنس البشرى بوصمة الميل إلى الشر ، وإن الأعمال الصالحة مهما كثرت لا تستطيع أن تمكن النفس البشرية من التغلب على هذا الميل ، ومحو هذه الوصمة ، والنجاة منها ؛ بل الذى يمكنها من هذا هو النعمة الإلهية التى يهبها الله لكل من أراد . ولقد عرض الله هذه النعمة على الناس جميعاً ولكن الكثيرين منهم رفضوها . وكان الله يعلم أنهم سيرفضونها ، ولكن العقاب الذى قد يحل بهم نتيجة لهذا الرفض هو الثمن الذى يؤدونه لهذه الحرية الأخلاقية التى بغيرها لا يكون الإنسان إنساناً . وعلم الله السابق لا يتعارض مع هذه الحرية ، إذ كل ما فى الأمر أن الله يرى من قبل ما سيختاره الإنسان بمحض حريته(٦٦) .

ولم يبتدع أوغسطين عقيدة الخطيئة الأولى ؛ ذلك أن بولس ، وترتليان ، وسبريان ، وأمبروز كلهم قد علموها الناس ؛ ولكن الخطايا ، التى اوتكبها « والصوت » الذى هداه قد غرسا فيه اعتقاداً مقبضاً بأن إرادة الإنسان تنزع من مولده إلى عمل الشر ، وألا شىء يستطيع ردها إلى الخير إلا فضل الله الذى يهبه للناس من غير مقابل . ولم يكن فى مقدور أوغسطين أن يفسر نزعة الإرادة البشرية إلى الشر بأكثر من أنها نتيجة لخطيئة حواء ، وحب آدم لها . ويقول أوغسطين إننا ونحن كلنا أبناء آدم ، نشاركه فى إثمه ، بل إننا فى الواقع أبناء هذا الإثم : لأن الخطيئة الأولى كانت نتيجة شهوته ، ولا تزال هذه الشهوة تدنس كل عمل من أعمال التناسل ؛ وبفضل هذه الصلة بين الشهوة الجنسية والأبوة ، كان الجنس البشرى « جمعا من الخاسرين » وحلت اللعنة على الكثرة الغالبة من الآدميين . نعم إن بعضنا سوف ينجو ، ولكن نجاة هؤلاء لن تكون إلا نعمة ينالونها بسبب ما قاساه ابن الله من آلام ؛ وبشفاعة الأم التى حملت

فيه من غير دنس . « لقد حل بنا الهلاك بفعل امرأة ، وعادت إلينا النجاة بفضل امرأة »(٦٧) .

ولقد انحدر أوغسطين أكثر من مرة إلى مبالغات حاول فيما بعد أن يخفف منها ، وكان سبب انحداره إليها كثرة ما كتب وسرعته فى كتابته التى كثيراً ما كان يمليها إملاء كما نظن . فكان فى بعض الأحيان يدعو إلى العقيدة الكلفنية القائلة بأن الله قد اختار بمحض إرادته منذ الأزل « الصفوة » التى سيهبها نعمة النجاة(٦٨) . وقد قامت طائفة كبيرة من النقاد تصب عليه جام غضبها لأخذه بأمثال هذه النظرية ؛ ولكنه لم يتراجع عن شىء منها بل دافع عن كل نقطة منها إلى آخر أيام حياته . وجاءه من إنجلترا الراهب پلاجيوس Pelagius وهو أقدر معارضيه بدفاع قوى عن حرية الإنسان ، وعن قدرة الأعمال الصالحة على نجاته من العذاب . وكان مما قاله پلاجيوس إن الله فى واقع الأمر يعيننا على الخير بما ينزله علينا من الشرائع والوصايا ، وبما يضربه قديسوه من الأمثلة الصالحة قولا وفعلا ، وبمياه التعميد المطهرة ، وبدم المسيح المنقذ . ولكن الله لا يرجح كفة خسراننا بأن يجعل الطبيعة البشرية آثمة بفطرتها . فلم تكن ثمة خطيئة أولى ، ولم يكن هناك سقوط للإنسان ، ولن يعاقب على الذنب إلا من ارتكبه ، ولن ينتقل منه جرم إلى أبنائه(٦٩) . والله لا يُقَدِّر على هؤلاء الأبناء أن يكون مصيرهم الجنة أو النار ، ولا يختار متعسفاً من يلعنه ومن ينجيه ، بل يترك لنا نحن أن نختار مصيرنا . ويمضى پلاجيوس فيقول إن القائلين بفساد الإنسان الأخلاقى إنما يلومون الله على خطايا البشر . إن الإنسان يشعر بأنه مسئول عما يعمل ومن أجل هذا فهو مسئول عنه حقاً ، « وإذا كنت مرغماً فإنى قادر » .

وجاء پلاجيوس إلى رومة حوالى عام ٤٠٠ وعاش فيها مع أُسر صالحة ، واشتهر بالتقى والفضيلة . وفى عام ٤٠٩ فرَّ من ألريك ، وكان فراره إلى قرطاجنة ثم إلى فلسطين ، حيث عاش فى سلام حتى جاء أورسيوس الشاعر الأسپانى من

عند أوغسطين يحذر منه چيروم (٤١٥) : وعقد مجمع دينى شرقى ليحاكم الراهب ، ولكنه قرر صحة عقائده ؛ غير أن مجمعاً أفريقياً نقض هذا الحكم بتحريض أوغسطين ولجأ إلى البابا إنوسنت Innocent الأول فأعلن أن پلاجيوس مارق من الدين ؛ وحينئذ ملأ الأمل صدر أوغسطين فأعلن أن « القضية قد أصبحت مفروغا منها Causa finita est »[*] . ثم مات إنوسنت وخلفه زوسموس Zosimus وأعلن أن پلاجيوس برىء . ولجأ أساقفة أفريقية إلى هونوريوس ، وسرّ الإمبراطور أن يصحح خطأ البابا ؛ وخضع زوسموس للإمبراطور (٤١٨) ، وأعلن مجلس إفسوس أن ما يراه پلاجيوس من أن فى مقدور الإنسان أن يكون صالحا دون أن يستعين بنعمة الله زيغ وضلال :

وفى استطاعة الباحث أن يجد فى أقوال أوغسطين متناقضات وسخافات بل وقسوة سقيمة فى التفكير ، ولكن ليس من السهل أن يتغلب عليه لأن الذى يشكل آراءه الدينية فى آخر الأمر هو مغامراته الروحية ، ومزاجه الجياش بالعاطفة لا تفكيره المنطقى المتسلسل . ولقد كان يعرف ما ينطوى عليه العقل البشرى من ضعف ، ويدرك أن تجارب الفرد القصيرة هى التى تحكم حكما طائشاً على تجارب الجنس البشرى كله ويقول : « كيف تستطيع أربعون عاماً فهم أربعين قرناً ؟ » وقد كتب إلى صديق له يقول : « لا تعارض بحجج قوية هائجة فيما لايزال عسير الفهم عليك ، أو فيما يبدو لك فى الكتاب المقدس ... من تباين وتناقض ، بل أجّل ... فى وداعة اليوم الذى تفهمه فيه »[71] إن الإيمان يجب أن يسبق الفهم . لا تحاول أن تفهم لكى تؤمن ، بل آمن لكى تفهم »[72] . « وقوة الأسفار المنزلة أعظم من جميع جهود الذكاء البشرى »[73] . لكنه يرى

(*) ليس فى مقدورنا أن نجد فيما لدينا من مؤلفات أوغسطين أو فى الروايات الموثوق بها عنه تلك الألفاظ التى تعزى له غالبا بهذه المناسبة وهى : « لقد تكلمت رومة وانتهت القضية » (Roma locuta est, Causa finita)

أن ليس من المحتم أن تفهم ألفاظ الكتاب المقدس حرفياً ؛ فقد كتبت أسفاره لكى تفهمها العقول الساذجة ، ولهذا كان لا بد من أن تستخدم فيه ألفاظ خاصة بالجسم للدلالة على الحقائق الروحية(٧٤) . وإذا اختلف الناس فى تفسيرها كان علينا أن نرجع إلى حكم مجالس الكنيسة أى إلى الحكمة الجامعة المستمدة من أعظم رجالها حكمة(٧٥) .

على أن الإيمان نفسه لا يكفى وحده للفهم الصحيح ؛ بل يجب أن يصحبه قلب طاهر يسمح بأن ينفذ فيه ما يحيط بنا من أشعة قدسية . فإذا تطهر الإنسان وتواضع على هذا النحو ارتقى بعد سنين كثيرة إلى الغاية الحقة وإلى جوهر الدين وهو « الاستحواذ على الله الحى » ؛ « إنى أريد أن أعرف الله والنفس ، وهل ثمة شىء أكثر من هذا ؟ لا شىء أكثر من هذا على الإطلاق »(٧٦) . إن أكثر ما تتحدث عنه المسيحية الشرقية هو المسيح ، أما عِلم أوغسطين فيتحدث عن « الشخص الأول » . يتحدث ويكتب عن الله الأب وإلى الله الأب . وهو لا يخلع على الله أوصافاً ، لأن الله وحده هو الذى يعرف الله حق المعرفة(٧٧). والراجح أن « الله الحق ليس بذكر ولا بأنثى ، وليس له عمر ولا جسم »(٧٨)، ولكن فى وسعنا أن نعرف الله ، معرفة أكيدة بمعنى ما ، عن طريق خَلْقه ، لأن كل شىء فى العالم أعجوبة من أعظم العجائب فى نظامها وفى وظيفتها ، ولا يمكن أن توجد إلا إذا أوجدها عقل خلاّق(٧٩) ؛ وإن ما فى الكائنات الحية من نظام ، وتناسب ، واتزان ، ليدل على وجود نوع من القدرة الإلهية الأفلاطونية يتوحد فيها الجمال والحكمة(٨٠) .

ولا شىء يضطرنا إلى الاعتقاد بأن العالم خُلِق فى ستة « أيام » ؛ وأكبر الظن أن الله قد خَلَق فى أول الأمر كتلة سديمية (nebulosa species) ، ولكن النظام البذرى ، أو المقدرة الإنتاجية rationes seminales كانت كامنة فى هذا النظام . ومن هذه القدرة الإنتاجية نشأت الأشياء كلها بعلل طبيعية(٨١) .

وكان أوغسطين يرى — كما يرى أفلاطون — أن ما فى العالم من أشياء حقيقية وحوادث قد وجدت كلها أولا فى عقل الله قبل أن توجد على سطح الأرض « كما يوجد تخطيط البناء فى عقل المهندس قبل أن يقيمه »(٨٢) ، ويتحدث الخلقُ فى الوقت المناسب حسب هذه الصورة الأزلية الموجودة فى العقل الإلهى .

٣ — الفيلسوف

تُرَى كيف نستطيع فى هذا الحيز الصغير أن نوفى صاحب هذه الشخصية القوية وهذا القلم الخصيب حقه من التمجيد والتكريم ؟ إن هذا الرجل لم يكد يترك مشكلة دينية أو سياسية إلا جهر فيها برأيه وبحثها فى رسائله البالغ عددها ٢٣٠ رسالة ، كتبها بأسلوب يفيض بقوة الشعور الحار وبعبارات خلاّبة استعمل فيها ألفاظاً جديدة صاغها من معينه الذى لا ينضب . فقد بحث فى حياء ودهاء طبيعة الزمن(٨٣) ، وسبق ديكارت إلى قوله : « إنى أفكر ولهذا فأنا موجود » ففند آراء رجال المجمع العلمى الذين يقولون إن الإنسان لا يستطيع أن يكون واثقاً من أى شى ، وقال : « مَنْذا الذى يشك فى أنه حى وأنه يفكر ؟ . . . ذلك بأنه إن شك فهو حى »(٨٤) . وكذلك سبق برجسن Bergeson فى شكواه من أن العقل لطول بحثه فى الأشياء الجسمية قد أصبح مادى النزعة ؛ وأعلن كما أعلن كانت Kant أن الروح هى أكثر الحقائق كلها علماً بنفسها ، وعبر تعبيراً واضحاً عن النزعة المثالية القائلة إنه « لما كانت المادة لا تعرف إلا عن طريق العقل فليس فى مقدورنا من الناحية المنطقية أن نهبط بالعقل فنجعله مادة(٨٥) . وأشار إلى مبحث شوپنهور فى أن الإرادة ، لا العقل ، هى العنصر الأساسى فى الإنسان ، واتفق مع شوپنهور فى أن العالم يصلح إذا وقف كل ما فيه من تناسل(٨٦) .

ومن مؤلفاته كتابان يُعدان من خير كتب الأدب القديم فى العالم كله .

فاعترافاته (حوالى عام ٤٠٠) هى أول ما كتب من التراجم الذاتية وأوسعها شهرة . والكتاب موجه إلى الله مباشرة بوصفه توبة إليه من الذنوب صيغت فى مائة ألف كلمة . ويبدأ الكتاب بوصف ما اقترفه من الذنوب فى صباه ، ثم يروى قصة هدايته فى وضوح ، وتتخلل هذه القصة أحياناً نشوة قوية من الصلوات والأدعية . إن الاعترافات كلها ستار للجريمة ، ولكن فى اعترافات أوغسطين بالذات إخلاصاً ذهل منه العالم كله . ولقد قال هو نفسه — بعد أن بلغ الرابعة والستين من عمره وأصبح أسقفا — إن الصورة الشهوانية القديمة ، « لا تزال حية فى ذاكرتى ، تندفع إلى أفكارى . . . فهى تساورنى فى نومى لا لتسرنى فحسب بل قد يبلغ بى الأمر أن أرضى عنها وأوافق عليها وأحب أن أخرجها من التفكير إلى التنفيذ »[٨٧] . وتلك صراحة وتحليل نفسانى لا نجدهما عادة فى الأساقفة . وكتابه هذا الذى يعد خير كتبه كلها هو قصة نفس بلغت أعلى درجات الإيمان والسلام . وإنا لنجد فى سطوره الأولى خلاصة له كله : « لقد خلقتنا يا رب لنفسك ولن تعرف قلوبنا الراحة حتى تستريح لديك » . ولما بلغ هذه المرحلة كانت عقيدته ثابتة لا تتسرب إليها ريبة مؤمنة بما فى خلق الكون من عدالة :

« لقد أحببتك يارب بعدفوات الأوان ، يا إلهى يا ذا الجمال التليد والطارف .. إن السماء والأرض وكل ما فيهما لتوحى إلىّ من جميع نواحىّ أن الواجب علىّ أن أحبك ... فأى شيء أحب الآن حين أحبك يا رب؟ ... لقد سألت الأرض فأجابت لست أنا الذى تحب ... وسألت البحر والأعماق البعيدة وكل ما يدب على الأرض فأجابت كلها : لسنا نحن إلهك ، فابحث عنه من فوقنا . وسألت الرياح العاصفة فأجابنى الهواء بكل ما فيه : لقد كان أنكسمانس مخدوعاً ، لست أنا الله . وسألت السموات ، والشمس والقمر والنجوم فقالت : لسنا نحن الله الذى تبحث عنه . فأجبتها كلها ... حدثينى عن الله ؛ إذا لم تكونى أنت

هو فحدثيني عنه . فصاحت كلها بصوت عال : لقد خَلَقتَنا ... وإن الذين لا يجدون السرور فى كل شيء خَلَقْته لقوم فقدوا عقولهم ... وفى رضاك يا إلهى عنا سلامنا(*)(٨٨) .

واعترافات أوغسطين شعر فى صورة نثر ؛ أما كتابه الآخر « مدينة الله » (٤١٣ — ٤٢٦) فهو فلسفة فى صورة تاريخ . وكان الباعث له على كتابته أنه لما ترامت إلى أفريقية أنباء نهب ألريك لرومة ، وما أعقبه من فرار آلاف اللاجئين ثارت نفس أوغسطين ، كما ثارت نفوس چيروم وغيره ، لهذه الفاجعة التى بدت لهم كلهم عملاً شيطانيا لايفعله من أوتى ذرة من العقل . وتساءل الناس قائلين : لم يترك الإله الخير الرحيم تلك المدينة التى أبدع الناس جمالها وأنشأوا قوائمها وظلوا يجلونها القرون الطوال ، والتى أضحت الآن حصن المسيحية الحصين ، لم يتركها الإله إلى البرابرة يعيثون فيها فساداً ؟ وقال الوثنيون فى كل مكان إن المسيحية هى سبب ما حل بالمدينة من دمار : ذلك أن الآلهة القديمة قد تخلت عن حماية رومة بسبب ما أصاب تلك الآلهة من نهب ، وثل لعروشها ، وتحريم لعبادتها . وكانت هذه المدينة قد نمت وازدهرت وعمها الرخاء مدى ألف عام بفضل هداية هذه الآلهة . وتزعزع إيمان كثيرين من المسيحين بسبب هذه الكارثة . وشعر أوغسطين فى قرارة نفسه بهذا التحدى ، وأدرك أن ذلك الصرح الدينى العظيم الذى شاده لنفسه على مر السنين ، يوشك أن ينهار إذا لم يعمل شيئاً يخفف من هذا الذعر المستولى على النفوس . ولهذا قرر أن يبذل كل ما وهب من عبقرية لإقناع العالم الرومانى أن هـــذه الكارثة وأمثالها لا تعيب المسيحية ولا تزرى بفضلها . وظل ثلاثة عشر عاما يواصل الليل بالنهار فى تأليف هذا الكتاب بالإضافة إلى ما كان يقوم به من واجبات وما يحيط به من مشاغل تشتت أفكاره . وكان ينشره أجزاء متقطعة فى فترات متباعدة حتى نسى وسطه

(*) انظر قول دانتى فى الجنة Peradiso (٣ : ٨٥) إن إرادته هى سلامنا .

أوّله ولم يدر ما سيكون آخره . ومن أجل هذا كان لابد أن تصبح صفحاته البالغة ١٢٠٠ صفحة سلسلة من المقالات المهوشة فى جميع الموضوعات من الخطيئة الأولى إلى يوم الحساب . ولم يرفعه من الفوضى السارية فيه إلى أعلى مكانة فى أدب الفلسفة المسيحية إلا عمق تفكيره وبراعة أسلوبه .

وكان جواب أوغسطين الأول عما يدور بخلد الناس من أسئلة محيرة أن ما حل برومة لم يكن عقابا لها لاعتناقها الدين الجديد بل كان جزاء لها على ما لا تنفك ترتكبه من آثام ، ثم أخذ يصف ما يمثل على المسرح الوثنى من مفاسد ، ونقل عن سالست وشيشرون ما قالاه عن مفاسد السياسة الرومانية ، وقال إن الرومان كانوا فى وقت من الأوقات أمة من الرواقيين يبعث فيها القوة رجال من أمثال كاتو وسپيو ، وكادت أن تخلق القانون خلقا ، ونشرت لواء السلم والنظام على نصف العالم ، وفى هذه الأيام القديمة أيام النبل والبطولة تجلى الله عليها بوجهه ، وأشرق عليها بنوره ، ولكن بذور الفساد الخلقى كانت كامنة فى دين رومة القديم نفسه ، كامنة فى ثنايا تلك الآلهة التى كانت تشجع الغرائز الجنسية بدل أن تقاومها ، تشجع الإله فرچنيوس على أن يحل حزام العذراء ، وسبجوس Subigus على أن يضعها تحت الرجل ، وپريما Prema على أن تتكئ عليها . ؟ ؟ وتشجع پريابوس Priapus الذى أُمرت العروس الجديدة أن تقوم وتجلس فوق عضوه الضخم الحيوانى(٨٩) . لقد عوقبت رومة ، لأنها كانت تعبد أمثال تلك الآلهة لا لأنها غفلت عن عبادتها . ولقد أبقى البرابرة على الكنائس المسيحية وعلى الذين لجأوا إليها ، ولكنهم لم يرحموا المعابد الوثنية ، فكيف إذن يكون الغزاة صوت عذاب فى أيدى الآلهة الوثنية ؟

وكان رد أوغسطين الثانى ضربا من فلسفة التاريخ — فقد كان محاولة منه لتفسير الحوادث التى وقعت فى أزمنة التاريخ المدون على أساس عام واحد . فقد استمد أوغسطين من فكرة أفلاطون عن الدولة المثالية القائمة

« فى مكان ما فى السماء » ، ومن فكرة القديس بولس عن وجود مجتمع من القديسين الأحياء منهم والأموات(٩٠) ، ومن عقيدة تيكنيوس Tyconius الدوناتى عن وجود مجتمعين أحدهما لله والآخر للشيطان ، استمد من هذا كله الفكرة الأساسية التى قام عليها كتابه وهو أنه قصة مدينتين : مدينة أرضية يسكنها رجال هذه الدنيا المنهمكون فى شئون الأرض ومباهجها ، ومدينة إلهية هى مدينة عباد الله الواحد الحق فى الماضى والحاضر والمستقبل . ولماركس أورليوس فى هذا المعنى عبارة ما أعظمها : « فى وسع الشاعر أن يقول لأثينة : أى مدينة سكربس Cecrops الجميلة ! فهلاّ قلت أنت للعالم أى مدينة الله الجميلة ؟ » (٩٢) . وكان أورليوس يقصد بقوله هذا الكون المنظم كله . ويقول أوغسطين إن مدينة الله قد نشأت بخلق الملائكة وإن المدينة الأرضية قد قامت بعصيانه بسبب الشياطين » . والجنس البشرى منقسم قسمين مختلفين : منهم قسم يعيش طبقاً لسنن الآدميين ، وقسم يعيش طبقاً لسنة الله . ونحن نطلق على هذين القسمين اسمين رمزيين فنسميهما « المدينتين » أو « المجتمعين » . فواحدة منهما قُدّر لها أن تحكُم إلى أبد الدهر مع الله ، وأخرى قد حُكِم عليها أن تعذّب إلى أبد الدهر مع الشيطان »(٩٣) . وليس حتما أن تنحصر المدينة أو الإمبراطورية الواقعية من جميع نواحيها فى داخل نطاق المدينة الأرضية ؛ فقد تقوم بأعمال طيبة ، فتسنّ الشرائع الحكيمة ، وتصدر الأحكام العادلة ، وتساعد الدين ، كأن هذه الأعمال الصالحة تحدث فى داخل مدينة الله ؛ كذلك ليست المدينة الروحية هى بعينها الكنيسة الكاثوليكية ، فإن الكنيسة أيضاً قد تكون لها مصالح أرضية ، وقد ينحط أتباعها فيعملون لمصلحتهم الخاصة ، ويرتكبون الذنوب ، وينحدرون من إحدى المدينتين إلى الأخرى ، ولن تنفصل المدينتان وتصبح كلتاهما بمعزل عن الأخرى إلاّ فى يوم الحساب(٩٤) .

وفى وسع الكنيسة أن تكون هى بعينها مدينة الله ، وإن أوغسطين ليجعلها

كذلك فى بعض الأحيان ، وذلك بأن تتسع عضويتها اتساعاً رمزياً للأرواح السماوية والأزواح الأرضية ، وللصالحين من الناس الذين عاشوا قبل المسيحية وفى أيام المسيحية(٩٥) . وقد احتضنت المسيحية فيما بعد هذه الفكرة القائلة بأنها هى مدينة الله واتخذتها سلاحاً أدبياً استخدمته فى الشئون السياسية ، كما أنها استنتجت استنتاجاً منطقياً من فلسفة أوغسطين عقيدة الدولة الدينية تخضع فيها السلطات الدنيوية المستمدة من البشر إلى السلطة الروحية الممثلة فى الكنيسة والمستمدة من الله . وقد قضى هذا الكتاب على الوثنية بوصفها فلسفة ، كما بدأت به المسيحية من حيث هى فلسفة ، وهو أول صياغة محددة جازمة لعقلية العصور الوسطى .

٤ — البطريق

وكان البطل المؤمن الشيخ لايزال فى منصبه حين هجم الوندال على شمالى أفريقية ، وقد بقى فى صراعه الدينى إلى آخر أيام حياته يقضى على البدع الجديدة ، ويلاقى الناقدين ، ويرد على المعترضين ، ويحل المشاكل . وكان يبحث فى جد هل تبقى النساء نساء فى الدار الآخرة ، وهل يبعث المشوهون ، والمبتورو الأعضاء ، والنحاف والسمان فى تلك الدار كما كانوا فى حياتهم الدنيوية ، وكيف السبيل إلى عودة الذين أكلهم غيرهم فى أيام القحط ؟(٩٦). ولكن الشيخوخة أدركته ولحقته معها إهانات محزنة ، وسئل فى ذلك الوقت عن صحته فأجاب : « أما من حيث الروح فأنا سليم . . . وأما من حيث الجسم فأنا طريح الفراش ، لاأقوى على المشى أو الوقوف أو الجلوس لإصابتى بالبواسير المتورمة . . . ومع ذلك فما دام هذا هو الذى ارتضاه لى الله ، فماذا أقول غير أنى فى حالة طيبة ؟ »(٩٧).

وكان قد بذل غاية جهده فى أن يؤجل خروج بنيفاس على رومة ، واشترك فى دعوته إلى الاحتفاظ بولائه لها . ولما تقدم جيسريك فى زحفه استشاره كثيرون

من الأساقفة والقساوسة هل يبقون فى مناصبهم أو يلجأون إلى الفرار ؟ فأمرهم بالبقاء وضرب لهم المثل بنفسه . ولما أن حاصر الوندال مدينة هپوكان أوغسطين يعمل على تقوية الروح المعنوية للأهلين الجياع بمواعظه ودعواته ، وظل كذلك حتى مات فى الشهر الثالث من أشهر الحصار فى السادسة والسبعين من عمره ، ولم يترك وصية لأنه لم يكن يمتلك شيئاً ، ولكنه كتب بنفسه قبريته : « ما الذى يثقل قلب المسيحى ؟ إن الذى يثقله .هو أنه حاج مشتاق إلى بلده »(٩٨) .

وقل أن نجد فى التاريخ رجلا يضارعه فى نفوذه وقوة أثره . نعم إن الكنيسة الشرقية لم تشغف بتعاليمه ؛ ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أنه كان بعيداً كل البعد عن اليونانية فى قلة علمه وفى إخضاعه الفكر للشعور والإرادة ؛ كما يرجع بعضه إلى أن الكنيسة الشرقية قد خضعت قبل أيامه لسلطان الدولة . أما فى الغرب فقد طبع المذهب الكاثوليكى بطابعه الخاص ، وسبق جريجورى السابع وإنسنت الثالث فيما طلبته الكنيسة من أن تكون لها السلطة العليا على عقول الناس وعلى الدولة ، ولم تكن المعارك الكبرى التى شبت بين البابوات والأباطرة والملوك إلا نتيجة سياسية لتفكيره . ولقد ظل حتى القرن الثالث عشر المسيطر على الفلسفة الكاثوليكية ، وصبغها بصبغة الفلسفة الأفلاطونية ، وحتى أكويناس الأرسطوطيلى النزعة قد سار فى ركابه . وكان ويكلف Wyclif ، وهوس Huss ، ولوثر Luther ، يعتقدون أنهم يعودون إلى أوغسطين حين خرجوا على الكنيسة . ولقد أقام كلفن Calvin عقيدته الصارمة على نظريات أوغسطين الخاصة بالصفوة المختارة والطائفة الملعونة . وفى الوقت الذى كان يبعث رجال الفكر على التدبر والتفكير ، كان هو الملهم لمن كانت مسيحيتهم خارجة من القلب أكثر من خروجها من العقل . فكان المتصوفة يحاولون أن يترسموا خطاه وهم يتطلعون إلى رؤية الله ، وكان الرجال والنساء يجدون فى خشوعه ورقة دعواته وصلواته حاجتهم من الغذاء الروحى ومن الألفاظ القوية التى تأخذ

بمجامع القلوب ولعل سر نفوذه وسلطانه على الأجيال التالية أنه ألف بين العناصر الفلسفية والصوفية فى الديانة المسيحية ، وبعث فيها قوة لم تكن لها من قبل ، فمهد بذلك الطريق لتومس أكوناس ولتومس أكمبيس Thomas à Kempis أيضاً .

وكانت عباراته القوية العاطفية التى لا يلجأ بها إلى العقل بل إلى الشعور ، إيذاناً بانتهاء الأدب القديم ، وانتصار أدب العصور الوسطى . وإذا شئنا أن نفهم العصور الوسطى على حقيقتها وجب علينا أن ننسى نزعتنا العقلية الحديثة ، وثقتنا التى نفخر بها بالعقل والعلم ، ودأبنا فى البحث عن الثروة والسلطان والجنة الأرضية ، ثم يجب علينا بعدئذ أن ندرك مزاج أولئك الرجال الذين كانت آمالهم فى هذه المطالب ، والذين وقفوا عند نهاية ألف عام من أعوام النزعة العقلية ، ووجدوا أن جميع ما كانوا يحلمون به من قيام دولة فاضلة خالية من جميع الآلام والآثام قد حطمتها الحرب والفقر والبربرية ، فأخذوا يبحثون عن عزاء لهم فيما يؤملونه من سعادة فى الدار الآخرة ، ووجدوا لهم سلوى وراحة وإلهاماً فى قصة المسيح وفى شخصيته ، فألقوا بأنفسهم تحت رحمة الله ورضوانه ، وعاشوا حياتهم يفكرون فى وجوده السرمدى ، وفى حسابه الذى لا مفر منه ، وفى موت ابنه الذى كفر به عن خطاياهم . ويكشف أوغسطين أكثر من غيره ، حتى فى أيام سماخوس ، وكلوديان ، وأوسنيوس عن هذه النزعة ويعبر عنها أحسن تعبير . وبهذا كان أقوى وأصدق وأفصح صوت ارتفع فى المسيحية فى عصر الإيمان .

الفصل السادس

الكنيسة والعالم

كانت حجج أوغسطين ضد الوثنية آخر رد فى أعظم جدل قام فى التاريخ ، وقد بقيت بعده الوثنية بمعناها الأخلاقى أى بوصفها إطلاقاً ممتعاً للشهوات الغريزية ؛ أما بوصف كونها ديناً فلم تبق إلا فى صوة طقوس قديمة وعادات تغتفرها ، أو تقبلها ، الكنيسة الكثيرة التسامح ثم تعدلها بعد قبولها . ولقد حلت عبادة القديسين المخلصة الواثقة محل شعائر الآلهة الوثنية ، وأرضت نزعة الشرك التى توائم أصحاب العقول الساذجة أو الشعرية . وبُدّل اسما تماثيل إيزيس وحورس باسمى مريم وعيسى ، وأصبح عيد اللوپركاليا وتطهير إيزيس عيد مولد المسيح[٩٩] ؛ واستبدلت بحفلات الساترناليا حفلات عيد الميلاد ، وبحفلات عيد الزهور حفلات عيد العنصرة ، وبعيد قديم للأموات عيد جميع القديسين[١٠٠] ، وببعث أتيس بعث المسيح[١٠١] . وأعيد تكريس المذابح الوثنية للأبطال المسيحيين ، وأدخل فى طقوس الكنيسة ما كان يغتبط به الناس فى الشعائر القديمة من بخور ، وأنوار ، وأزهار ، ومواكب ، وملابس ، وترانيم ؛ وتسامت العادة القديمة عادة ذبح الضحية الحية فكانت هى التضحية الروحية فى العشاء الربانى .

وكان أوغسطين قد عارض فى عبادة القديسين ، واحتج على ذلك بعبارات خليقة بأن ينطق بها ڤلتير فى تدشين كنيسته فى فيرنى Ferney . « علينا ألا ننظر إلى القديسين على أنهم آلهة ، إنا لانريد أن نقلد أولئك الوثنيين الذين يعبدون الموتى ، ولهذا يجب ألا نبنى لهم معابد ، ولا نقيم لهم مذابح ، بل أن نرفع بمخلفاتهم مذبحا إلى الإله الواحد »[١٠٢] . لكن الكنيسة قبلت عن حكمة هذا التجسد

الذى لا بد منه فى دين الشعب . لقد قاومت فى بادئ الأمر[١٠٣] ، عبادة القديسين ومخلفاتهم ، ثم استعانت بعدئذ بها ، ثم أساءت استخدامها . وعارضت فى عبادة التماثيل والصور ، وحذرت المؤمنين من تعظيمها إلا إذا فعلت ذلك بوصفها رموزا[١٠٤] لا أكثر ؛ ولكن قوة الشعور العام تغلبت على هذا التحذير ، وأدت إلى ذلك الإسراف الذى أثار مشاعر محطمى الصور والتماثيل الدينية البيزنطيين . كذلك قاومت الكنيسة السحر والتنجيم ، والتنبؤ بالغيب ، ولكن آداب العصور الوسطى ، كالآداب القديمة ، ملأى بهذا كله ؛ وما لبث الشعب والقساوسة أن استخدموا علامة الصليب على أنها رقية سحرية تفيد فى طرد الشياطين أو إبعادها . وكانت التعاويذ تقرأ على رأس طالب التعميد ، كما كان يطلب إليه أن يغمره الماء وهو عار من جميع ملابسه حتى لا يختبئ شيطان فى ثوب يلبسه أو حلية يزين بها[١٠٥] . وأضحى العلاج بالأحلام الذى كان يسعى إليه من قبل فى هيكلى ايسكولابيوس Aesculapius موفوراً فى محراب القديسين كزمس Cosmos ودميان فى رومة ، ثم أصبح من المستطاع أن يحصل عليه فى مائة ضريح أخرى ، ولم يكن رجال الدين هم الذين أفسدوا الشعب فى هذه الأمور ، بل إن الشعب هو الذى أقنع رجال الدين بما يريد . ذلك أن روح الرجل الساذج لا تتأثر إلا عن طريق الحواس والخيال ، والحفلات والمعجزات ، والأساطير ، والخوف ، والأمل ؛ فإذا خلا الدين من هذا كله رفضه ، أو عدله حتى يدخله فيه . ولقد كان من الطبيعى أن يلجأ الشعب الخائف الذى يحيط به الحرب والخراب ، والفقر والمرض ، إلى الأضرحة والكنائس الصغرى والكبرى ، وإلى الأضواء الخفية ، ونغمات الأجراس المطربة ، وإلى المواكب ، والأعياد ، والطقوس الممتعه ليجد فيها سلواه .

واستطاعت الكنيسة بالتجائها إلى هذه الضرورات الشعبية أن تغرس فى قلوب الناس مبادئ أخلاقية جديدة . فقد حاول أمبروز ، وهو الإدارى الرومانى الحازم فى جميع مراحل حياته ، أن يصوغ المبادئ الأخلاقية الرومانية

فى ألفاظ وعبارات رواقية ، وبَدّل عبارات شيشرون لكى توافق حاجاته ، وكانت أخلاق عظماء المسيحيين فى العصور الوسطى ، من أوغسطين إلى سفنرولا ، وفضيلتا ضبط النفس والتمسك التام بأهداب الفضيلة وهما من المثل العليا للرواقية ، كانت هذه هى التى شكلت النمط المسيحى للأخلاق ، لكن أخلاق الرجولة لم تكن هى المثل الأعلى عند عامة الشعب ؛ لقد طال عهد الشعب بالرواقيين ، ورأوا فضائل الرجولة تصبغ نصف العالم بالدماء ، وتاقت نفوسهم إلى أساليب أرق وأهدأ من الأساليب السابقة ، يُستطاع بفضلها إقناع الناس بأن يعيشوا مستقرين مسالمين ؛ ولذلك أخذ معلمو الجنس البشرى ينشرون على الناس لأول مرة فى تاريخ أوربا مبادئ الرأفة والحنان ، والطاعة ، والخشوع ، والصبر ، والرحمة ، والطهارة ، والعفة ، والرقة ، وكلها فضائل لعلها مستمدة من الأصول الاجتماعية الدنيا للكنيسة المسيحية ومن كثرة انتشارها بين النساء ، ولكنها خليقة إلى أعظم حد بأن تعيد النظام إلى شعب فقد قوته المعنوية ، وأن تروض أخلاق البرابرة النهابين ، وأن تهدئ من عنف العالم المتداعى الآخذ فى الانهيار .

وكان أعظم إصلاح قامت به الكنيسة هو الخاص بالمسائل الجنسية بين الرجال والنساء . ذلك أن الوثنية قد أجازت الدعارة على أنها وسيلة لتخفيف مشاق وحدة الزواج ، فجاءت الكنيسة تشن على الدعارة حملة شعواء لا هوادة فيها ، وتطلب إلى الرجل والمرأة أن يلتزما فى زواجهما مستوى واحداً من الوقار لا تفريق فيه بينهما . نعم إنها لم تنجح النجاح كله ؛ فقد رفعت من المستوى الأخلاقى فى البيت ، ولكن البغاء ظل على حاله ، وإن اندفع إلى الخفاء وإلى الدرك الأسفل من الانحطاط . ولعل الأخلاق الجديدة قد أرادت أن تقاوم الغريزة الجنسية التى تحللت من جميع القيود ، فتغالت فى العفة حتى جعلتها شغلها الشاغل ، وجعلت الزواج والأبوة أقل منزلة من العزوبة أو البكورية مدى الحياة ، ورفعت هذه العزوبة أو البكورية إلى مقام المثل العليا ، ومضى بعض الوقت قبل أن يدرك آباء الكنيسة أن لا بقاء لأى

مجتمع يعيش على هذه المبادئ العقيمة . على أن من اليسير أن يدرك الإنسان هذا الارتداد إلى التزمت إذا ذكرنا ما كان عليه المسرح الرومانى من فساد خلقى طليق ، وإلى ما كان فى بعض الهياكل اليونانية والرومانية من بغاء ، وإلى انتشار الإجهاض وقتل الأطفال ، وإلى ما كان يرسم على جدران بمبى من الرسوم المخلة بالآداب ، وإلى رذائل الشذوذ الجنسى التى كانت واسعة الانتشار فى بلاد اليونان والرومان ، وإلى الإفراط الشائع عند الأباطرة ، والشهوانية المنتشرة بين الطبقات العليا كما يكشف عنها كاتلوس ومارتيال ، وتاسيتوس ، وجوڤنال . ووصلت الكنيسة فى آخر الأمر إلى آراء أسلم من هذه وأحكم ، ووقفت بعد زمن ما موقفا لينا معتدلا من خطايا الجسم . غير أنه قد أسيء بعض الإساءة إلى فكرة الأبوة والأسرة ، فقد كثر فى هذه القرون الأولى عدد المسيحيين الذين يظنون أن خير ما يؤدونه من خدمات لله سبحانه وتعالى — أو على الأصح أن خير طريقة ينجون بها من عذاب النار — أن يتركوا آباءهم ، أو أزواجهم ، أو أبناءهم ، ويفروا من تبعات الحياة سعيا وراء النجاة بأشخاصهم نجاة قائمة على الأثرة المرذولة ، مع أن الأسرة كانت فى عهد الوثنية وحدة اجتماعية ودينية ؛ وكان من أعظم الخسائر أن أصبح الفرد هو هذه الوحدة فى مسيحية العصور الوسطى .

غير أن الكنيسة قد قوت الأسرة لما أحاطت به الزواج من مراسم جدية رهيبة ورفعته من تعاقد إلى عمل مقـــدس إنها جعلت رابطة الزواج غير قابلة للحل فرفعت بذلك كرامة الزوجة وأمنتها على مركزها . وشجعت على الصبر الذى يولده فقد الأمل . ولقد أصاب منزلة المرأة بعض الأذى القصير الأجل من جراء عقيدة بعض آباء الكنيسة المسيحية القائلة بأن المرأة أصل الخطيئة وأداة الشيطان ، ولكن هذه العقيدة قد خفف من أثرها ما تلقاه أم الإله من تكريم . ولما كانت الكنيسة قد رضيت عن الزواج ، فقد حبذت كثرة النسل وباركته ، وحرمت الإجهاض وقتل الأطفال تحريما قاطعا ؛ ولعل تحريمها هذا وذاك هو الذى

حدا بعلماء الدين المسيحيين إلى إنزال اللعنة على كل طفل يموت من غير تعميد ، وإلى القول بأن جزاءه فى الدار الآخرة هو السجن فى الظلام السرمدى . وبفضل نفوذ الكنيسة جعل قلنتنيان الأول وأد الأطفال من الجرائم التى يعاقب عليها بالإعدام .

ولم تحرم الكنيسة الاسترقاق ، بل كان أتباع الدين القويم والمارقون ، والرومان ، والبرابرة ، كان هؤلاء جميعاً يرون أن الاسترقاق نظام طبيعى لا يمكن القضاء عليه . وقام عدد كبير من الفلاسفة يحتجون على هذا الرأى ، ولكنهم هم أيضاً كان لهم عبيد . والشرائع التى سنها الأباطرة المسيحيون فى هذا الموضوع لا تسمو إلى منزلة شرائع أنطونينس پيوس أو ماركس أورليوس . مثال ذلك أن الشرائع الوثنية كانت تحكم على المرأة الحرة التى تتزوج رقيقاً بأن تكون هى الأخرى جارية ، أما قوانين قسطنطين فكانت تقضى بقتل هذه المرأة، وإحراق العبد الذى تزوجها حياً . وأصدر الإمبراطور جراتيان مرسوماً يقضى بأن يحرق العبد حياً إذا وجه لسيده أى تهمة عدا تهمة الخيانة العظمى للدولة ، وأن تنفذ فيه العقوبة على الفور دون بحث أو تحقيق فى صحة التهمة(١٠٦) . ولكن الكنيسة ، وإن رضيت بالاسترقاق وعدته جزءاً من قوانين الحرب ، قد فعلت أكثر من أية هيئة أخرى فى ذلك الوقت لتخفيف شرور الرق . فقد أعلنت مثلا ، على لسان آباء الكنيسة ، المبدأ القائل بأن الناس جميعاً أكفاء ، ولعل المعنى الذى كانت تقصده من هذا اللفظ أنهم أكفاء فى الحقوق القانونية والأدبية ؛ وطبقت هذا المبدأ فرضيت أن يدخل فيها الناس جميعاً من كل الطوائف والطبقات ؛ وكان فى وسع أفقر رجل حر أن يرقى إلى أعلى المناصب الدينية ، وإن لم يكن فى مقدور العبد أن يكون قسيساً . وألغت الكنيسة ما كان فى الشرائع الوثنية من تمييز بين الضرر الذى يلحق بالحر ، والذى يلحق بالعبد . وكانت تشجع عتق العبيد ، فجعلت فك الرقاب من وسائل التكفير عن الذنوب ، والاحتفال بحظ يصيب صاحب العبد

والقرب من كرسى القضاء الإلهى . وقد أنفقت أموالاً طائلة فى تحرير المسيحيين أسرى الحروب من الاسترقاق[١٠٧] . لكنّ الاسترقاق ، رغم هذا ، ظل قائما طوال العصور الوسطى ، ولما مات لم يكن لرجال الدين فضل فى موته .

وكان أكبر فضل للكنيسة من الناحية الأخلاقية هو ما وضعته للصدقات من نظام واسع النطاق . وكان الأباطرة الوثنيون قد قرروا إعانات من أموال الدولة للأسر الفقيرة ، كما كان أعيان الوثنيين يعينون « مواليهم » وفقراءهم : ولكن العالم لم يشهد قبل المسيحية نظاما لتوزيع الصدقات كالنظام الذى أقامته الكنيسة ؛ فقد كانت تشجع الإيصاء بالمال للفقراء ، على أن توزعه هى عليهم . ولسنا ننكر أن بعض المفاسد والخيانات قد تسربت إلى هذا النظام ، ولكن حرص الإمبراطور يوليان على منافسة الكنيسة فى هذه الناحية يشهد بأنها قد قامت بواجبها على نطاق واسع . فقد كانت تساعد الأرامل ، واليتامى ، والمرضى ، والعجزة ، والمسجونين ، وضحايا الكوارث الطبيعية ؛ وكثيراً ما تدخلت لحماية الطبقات الدنيا من الاستغلال أو الضرائب الباهظة[١٠٨] . وكثيراً ما كان القساوسة يهبون أملاكهم كلها للفقراء إذا وصلوا إلى مرتبة الأساقفة . وخصصت كثير من النساء مثل فبيولا Fabiola ، وپولا ، وملانيا ثروات طائلة للأغراض الخيرية ، وقد حذت الكنيسة حذو الوثنيين فى إقامة المصحات والمستشفيات ، فأنشأت أو أنشأ أثرياؤها مستشفيات عامة على نطاق لم يعرف قط من قبل . فأقام باسيلى مستشفى ذائع الصيت ، كما أقام فى قيصرية بكپدوكيا أول مستشفى للمصابين بالجذام . وقامت خانات للاجئين أو أبناء السبيل على طول طرق الحجاج ، وقرر مجمع نيقية أن يقام خان من هذا النوع فى كل مدينة . واستخدمت الكنيسة الأرامل لتوزيع الصدقات فوجدن فى هذا العمل قيمة جديدة لحياة الوحدة . وكان الوثنيون يعجبون بدأب المسيحيين على العناية بالمرضى فى المدن التى يجتاحها القحط أو الوباء[١٠٩] .

هذا ما فعلته الكنيسة في تلك العهود لأجسام الناس ، فماذا فعلت لعقولهم ؟ لقد كانت المدارس الرومانية لا تزال قائمة فى ذلك الوقت ، ولهذا لم تر من واجبها أن تعمل على ترقية العقول . هذا إلى أنها كانت ترفع الشعور فوق العقل ، وبذلك كانت المسيحية من هذه الناحية بمثابة رد فعل « إبداعى » على الإيمان « الإتباعى » بالعقل والاعتماد عليه ؛ ولم يكن روسو من هذه الناحية إلا أوغسطين مصغرا . ولم يكن يخالج الكنيسة شك فى أن بقاءها يتطلب تنظيمها ، وفى أن هذا التنظيم يتطلب الاتفاق على مبادئ وعقائد أساسية ، وأن الكثرة الغالبة من أتباعها تتوق إلى أن ترجع إلى عقائد مقررة ثابتة ، فحددت من أجل ذلك عقيدتها فى قواعد مقررة لا تبديل فيها ، وجعلت الشك فى هذه القواعد ذنباً ، وتورطت فى نزاع لا نهاية له مع عقل الإنسان المرن وآرائه المتغيرة . وادعت الكنيسة أنها قد وجدت عن طريق الوحى الإلهى جواباً لكل مسألة من المسائل القديمة المتعلقة بأصل الخلق ، وطبيعتهم ، ومصيرهم ، وفى ذلك كتب لكتنيوس (٣٠٧) يقول : « نحن الذين أخذنا عن الكتاب المقدس علم الحقيقة نعرف بداية العالم ونهايته »[١١٠] وكان ترتليان قدقال هذا القول نفسه قبل ذلك الوقت بقرن من الزمان (١٩٧) . وأراد أن يغلق باب الفلسفة أمام الناس[١١١] . وإذ كانت المسيحية قد حولت اهتمام الناس من الدار الدنيا إلى الدار الآخرة ، فقد عرضت عليهم تفسيرات سماوية للحادثات التاريخية ، فقاومت بذلك مقاومة سلبية البحث عن العلل الطبيعية ؛ وضحت بكل ما أنتجه العلم اليونانى من تقدم خلال سبعمائة عام فى سبيل علم نظام الكون وأصل الحياة كما وصفهما سفر التكوين .

وبعد فهل أدت المسيحية إلى اضمحلال فى الأدب؟ لسنا ننكر أن معظم آباء الكنيسة كانوا يعادون الآداب الوثنية ؛ لأنها تسرى فيها كنها عقيدة الشرك الشيطانية ، والفساد الخلقى المزرى بكرامة الإنسان ؛ ولكن أعظم هؤلاء الآباء كانوا على الرغم من هذا يحبون الآداب القديمة ، وكان المسيحيون أمثال فرتناتوس

وپرودنتيوس ، وچيروم ، وسيدنيوس ، وأوسنيوس ، يتطلعون إلى أن يكتبوا شعراً كشعر ڤرچيل ، أو نثراً كنثر شيشرون ؛ وإن كفة جريجورى نزينزين ، وكريسستوم ، وأمبروز ، وجيروم ، وأوغسطين لترجح ، من الناحية الأدبية نفسها ، على كفة معاصريهم الوثنيين أمثال أميانوس ، وسياخوس ، وكلاوديان ، ويوليان . لكن أسلوب النثر تدهور بعد أيام أوغسطين ، وتسربت من اللغة العامية إلى الكتابة اللاتينية المفردات الخشنة غير المصقولة ، وقواعد البناء الخالية من العناية والدقة ، وانحط الشعر اللاتيني فى وقت من الأوقات حتى صار مجرد نظم ركيك ، قبل أن تصاغ الأنماط الجديدة فى الترانيم الدينية الفخمة .

لكن العلة الأساسية فى تدهور الثقافة لم تكن المسيحية بل البربرية ، ولم تكن الدين بل الحروب . ذلك أن تيار البرابرة الجارف قد خرب المدن والأديرة ودور الكتب ، والمدارس ، أو أقفرها ، وجعل حياة طالب العلم أو العالم مستحيلة . ولو أن الكنيسة لم تحتفظ بقدر من النظام فى هذه الحضارة المتداعية لكان الخراب أشد والبلية أعظم ؛ وفى ذلك يقول أمبروز « لقد ظلت الكنيسة ثابتة لا تزعزعها العواصف الهوج وسط ما حل بالعلم من اضطراب ، فالفوضى ضاربة أطنابها فى كل شىء حولها ، أما هى فتقدم لجميع المنكوبين مرفأ هادياً يجدون فيه الأمن والسلامة »[١١٢] ، ولقد كان هذا شأنها فى معظم الأوقات .

وكانت الإمبراطورية الرومانية قد رفعت العلم ، والرخاء ، والسلطان ، إلى الذروة التى بلغتها فى العهد القديم ، فلما اضمحلت الإمبراطورية فى الغرب ، وعم الفقر وساد العنف ، تطلب هذا مثلاً أعلى جديداً ، وأملا جديداً ، ليكونا للناس سلوى وعزاء مما حل بهم من أرزاء ، وتشجيعاً لهم على الكدح المتواصل : فحل عصر الإيمان محل عصر السلطان . وسارت الحال على هذا المنوال فلم يرفض العقل الإيمان ، ويترك السماء لينشئ المدينة الفاضلة على الأرض ، إلا بعد أن عاد الثراء والكبرياء إلى العالم فى عصر النهضة . ولكن إذا ما خاب العقل وعجز عن حل

المشكلات ، ولم يجد العلم جواباً للأسئلة الكثيرة المحيرة ، بل زاد المعرفة والسلطان من غير أن يصلح ضمائر الناس أو يرقى بأهدافهم ، وإذا ما انهار كل ما تصوره الناس من مدائن فاضلة انهياراً تاماً لاستمرار الأقوياء على الإساءة إلى الضعفاء : إذا ما حدث هذا كله أدرك الناس لماذا ولى أسلافهم ظهورهم فى بربرية القرون المسيحية الأولى نحو العلم ، والمعرفة ، والسلطان والكبرياء ، ولجأوا مدى ألف عام إلى الإيمان ، والأمل ، والصدقات ، وما تستلزمه من تذلل وخشوع .

الباب الرابع

أوربا تتشكل

٣٢٥ — ٥٢٩

الفصل الأول

بريطانيا تصبح إنجلترا

٣٢٥ — ٥٧٧

. أثرت جميع الطبقات فى بريطانيا تحت حكم الرومان عدا طبقة ملاك الأراضى الزراعية . ذلك أن الضياع الكبيرة زادت مساحتها بما نقص من مساحة الأملاك الصغرى ، فقد اشترى الملاك الكبار فى كثير من الأحيان أراضى صغار الزراع الأحرار ، وأصبح هؤلاء زراعاً مستأجرين أو من صعاليك المدن ، وأيد كثيرون من الفلاحين الغزاة الإنجليز — السكسون ضد كبار الملاك[1] . وإذا استثنينا هذه الطبقة — طبقة صغار الزراع — استطعنا أن نقول إن بريطانيا الرومانية قد عمها الرخاء ، فقد كثرت المدن ونمت ، وازداد الثراء[2] ، واستمتعت كثير من المنازل بوسائل التدفئة المركزية ، والنوافذ الزجاجية[3] ، وأقام كثير من الكبراء قصوراً ذات حدائق ، وأخذ النساجون البريطانيون من ذلك الوقت البعيد يصدرون المنسوجات الصوفية الممتازة التى لا يزال لها المقام الأول بين أقمشة العالم الصوفية . وكانت بضعة فيالق رومانية تكفى فى القرن الثالث لضمان الأمن الخارجى والسلام الداخلى .

لكن هذا الأمن أصبح فى القرنين الرابع والخامس مهدداً من جميع الجهات : فكان يهدده من الشمال بكت (Picts) كلدونيا ، ومن الشرق والجنوب المغيرون من أهل الشمال ومن السكسون ، ومن الغرب كيلت Celt ويلز الذين لم يخضعوا للرومان ، والجيل Gaels « والاسكتلنديون » المغامرون أهل أيرلندة . وازدادت غارات « الاسكتلنديين » والسكسون على سواحل بريطانيا بين عامى ٣٦٤ ، ٣٦٧ حتى أصبحت خطراً مروعاً يتهدد البلاد ، وصدها الجنود البريطانيون والجيل ، ولكن هذه الغارات لم تنقطع ، واضطر استلكو إلى أن يعيد الكرة عليهم بعد جيل من ذلك الوقت . وسحب مكسموس من بريطانيا فى عام ٣٨١ والمغتصب قسطنطين فى عام ٤٠٧ الفيالق التى كانا فى حاجة إليها ليدافعا بها عن قلب الدولة وعن أغراضهما الشخصية ، ولم يرجع من هذه الفيالق بعدئذ إلى بريطانيا إلا عدد قليل . وبدأ الغزاة يجتاحون التخوم ، وطلبت بريطانيا المعونة من استلكو (٤٠٠) ، ولكنه كان منهمكاً فى صد القوط والهون عن إيطاليا وغالة . ولما استغاثوا مرة أخرى بالإمبراطور هونوريوس أجابهم بأن على البريطانيين أن يعتمدوا على أنفسهم على أحسن وجه يستطيعون[٤] . و « فى عام ٤٠٩ انتهى حكم الرومان فى بريطانيا »[٥] ، كما يقول بيدى Bede .

وألقى الزعيم البريطانى ڤرتچيرن Vortigern نفسه أمام غزوة كبرى يشنها البكت Picts ، فاستغاث ببعض قبائل الچرمان الشمالية[٦] ، فأقبل عليه السكسون من إقليم نهر الإلب Elbe ، والإنجليز من سلزوج Schleswig ، والچوت Jutes من چتلندة Jutland . وتقول بعض الروايات — أو لعلها القصص الخرافية — إن الچوت جاءوا فى عام ٤٤٩ بقيادة أخوين يسميان باسمين يدعوان إلى الريبة ، هما هنجست Hengist وهورسا Horsa ، أى الحصان والفرس . وطرد الجرمان الأشداء البكت « والاسكتلنديين » وكوفئوا على عملهم هذا بمساحات من الأراضى ، وأدركوا ما كانت عليه بريطانيا من الضعف من

الناحية الحربية ، وبعثوا بهذا النبأ السار إلى مواطنيهم فى بلادهم الأصلية(٧) :
وجاءت جموع كبيرة من الجرمان ، ونزلت على سواحل بريطانيا من غير دعوة من أهلها ، وقاومهم الأهلون بشجاعة تفوق ما كان لديهم من مهارة ، وظلوا قرناً كاملا بين كروفر يحاربونهم حرب العصابات ، وانتهى هذا القتال بأن هزّم التيوتون البريطانيين عند ديرهام Deorham (٥٧٧) ، وأصبحت لهم السيادة على البلاد التى سميت فيما بعد أرض الإنجليز « إنجلند England أو إنجلتر Angletere » . وقبل معظم البريطانيين فيما بعد هذا الفتح ، ومزجوا دماءهم بدماء الفاتحين ، وارتدت أقلية شديدة البأس إلى جبال ويلز وواصلت الحرب ضد الغزاة ، وعبر غيرهم القناة وأطلقوا اسمهم على بريطانى Brittany فى فرنسا الحالية . وخربت مدائن بريطانيا فى خلال هذا النزاع ، واضطربت وسائل النقل ، واضمحلت الصناعة ، وفسد القانون والنظام ، وحل بالفن سبات عميق ، وطغت على مسيحية الجزيرة — وكانت لا تزال فى بداية عهدها — الآلهة الوثنية والعادات الجرمانية . وأصبحت إنجلترا ولغتها تيوتونية ، واختفت منها الشرائع والنظم اليونانية ، وحلت العشائر الفردية محل الهيئات البلدية ، ولكن عنصرا كلتيا ظل باقياً فى دم الإنجليز ، وملامحهم ، وأخلاقهم ، وأدبهم ، وفنهم ؛ وأما اللغة الإنجليزية فلم يبق فيها من هذا العنصر الكلتى إلا القليل الذى لا يكاد يذكر ، وأمست اللغة الإنجليزية فى هذه الأيام مزيجاً من اللغتين الألمانية والفرنسية .

وإذا شئنا أن نعرف ما كان يسود تلك الأيام المريرة من اضطراب وثوران فى النفوس فعلينا أن ننتقل من التاريخ إلى قصص الملك آرثر Arthur وفرسانه ، وما كالوه من الضربات الشداد « لتحطيم الكفرة وتأييد المسيح » . ويحدثنا القديس جلداس St. Gildas وهو راهب من ويلز فى كتاب له عجيب « عن

« تدمير بريطانيا On the Destruction of Britain » (٥٤٦ ؟) خلط فيه التاريخ بالمواعظ ، يحدثنا عن « حصار منزبادنكس Mons Badonicus » فى تلك الحروب ، كما يحدثنا مؤرخ بريطانى بعده يدعى ننيوس Nennius (حوالى ٧٩٦) عن اثنتى عشرة معركة حارب فيها الملك آرثر كانت آخرها عند جبل بادون Mt. Dadon بالقرب من باث Bath[٨] . ويورد چفرى المنموثى Geoffrey of Monmouth (١١٠٠ ؟ — ١١٥٤) تفاصيل روائية يصف فيها : كيف خلف الملك آرثر والده أثر پندراجون Uther Pendragon على عرش بريطانيا ، وكيف قاوم الغزاة السكسون ، وفتح أيرلندة ، وأيسلندة ، والنرويج ، وغالة ، وحاصر باريس فى عام ٥٠٥ وطرد الرومان من بريطانيا ، وقمع فتنة أوقد نارها مدرد Modred ابن أخيه كلفته كثيراً من الخسائر فى الأنفس ، وقتله فى واقعة ونشستر Winchester التى جرح فيها هو جرحاً بليغاً مميتا ، مات من أثره فى السنة الثانية والأربعين بعد الخمسمائة من تجسد إلهنا »[٩] . ويحدثنا كاتب آخر يدعى وليم من أهل ملمزبرى Malmesbury (١٠٩٠ ؟ — ١١٤٣) فيقول :

ولما مات ڤرتمر Vortimer (أخو ڤرتچيرن Vortigern) ، اضمحلت قوة البريطانيين ، ولولا ما قام به أمبروزيوس Ambrosius ، الذى بقى وحده من الرومان ... من صد تيار البرابرة المتغطرسين بفضل ما قدمه له الملك آرثر صاحب البأس الشديد من معونة صادقة ، لولا هذا لهلك البريطانيون على بكرة أبيهم . وقضى آرثر زمناً طويلا يدعم كيان الدولة المنهارة ، ويثير روح مواطنيه المحطمة ويحرضهم على القتال . ثم نازل بمفردة فى آخر الأمر ٩٠٠ من الأعداء معتمداً على صورة للعذراء ثبتها فى درعه ، وبدد شملهم بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة لا يصدقها العقل[١٠] .

فلنقل مع القائلين أن هذا لا يصدقه العقل . وعلينا أن نقنع بأن آرثر شخصية غامضة ، ولكنه على أية حال شخصية تاريخية اتصفت بأهم الصفات الجوهرية التى يحدثنا عنها الكتاب ، وأنه عاش فى القرن السادس ؛ والراجح أنه لم يكن من القديسين ، أو من الملوك . أما فيما عدا هذا فلنتركه إلى كرتين Chrétien من أهل تروى ، وإلى ملورى Malory الكاتب المطرب المبدع وإلى تنيسن Tennyson العف الطاهر .

الفصل الثاني

أيرلنـــدة

١٦٠ — ٥٢٩

يقول الأيرلنديون — ولا نستطيع أن نكذبهم فيما يقولون — إن جزيرتهم جزيرة « الضباب والفاكهة الرطبة » قد سكنها فى أول الأمر اليونان والسكوذيون قبل ميلاد المسيح بألف عام أو أكثر ، وإن زعماءهم الأولين ، كتشلين Cutchalain ، وكونور Conor ، وكونال Conall ، من أبناء الآلهة(١٢) . وقد مس هملكو Himilco المستكشف الفينيقى أرض أيرلندة حوالى عام ٥١٠ ق . م ووصفها بأنها بلاد خصبة كثيرة السكان »(١٣) ولعل جماعة من المغامرين الكلت قد عبروا البحر إلى أيرلندة من غالة أو بريطانيا أو منهما معاً فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وغلبوا الأهلين الأصليين الذين لا نعرف عنهم شيئاً . ويبدو أن قد جاءوا معهم إلى أيرلندة بثقافة عصر الحديد الهولستاتية Hallstatt ، كما جاءوا معهم بنظام قوى من الصلات العائلية يجعل الفرد فخوراً بقبيلته فخراً يمنعه أن يكون دولة مستقرة ؛ وظلت القبائل تحارب بعضها بعضاً ، والممالك تقتتل نحو ألف عام ، فإذا سكتت حرب القبائل أو الممالك فترة من الزمان اقتتل أفراد القبائل فيما بينهم ؛ فإذا ماتوا دفن الأيرلنديون الصالحون قبل أيام القديس پاترك Patrick واقفين متأهبين للقتال ، ووجوههم متجهة نحو أعدائهم(١٤) . وقد مات معظم ملوك البلاد فى المعارك الحربية أو اغتيلوا(١٥). وتقول الروايات الأيرلندية إنه كان من حق هؤلاء الملوك أن يفضوا بكارة كل زوجة قبل أن يسلموها إلى زوجها ، ولعلهم كانوا يفعلون هذا لأنه فريضة تتطلبها الرغبة فى تحسين النسل ، أو لعلهم

كانوا يفعلونها بوصفهم خدام الآلهة الذين يتطلبون أن يجنوا هم أولى الثمار وقد وُجِّه إلى الملك كنكوبار Conchobar أعظم الثناء لحرصه الشديد على أداء هذا الواجب(١٦) . وكانت كل قبيلة تحتفظ بسجل لأفرادها ، ونسبهم ، ولملوكها ووقائعها الحربية ، وتاريخها القديم « منذ بداية العالم »(١٧) .

وفرض الكلت سلطانهم على البلاد بوصفهم الطبقة الحاكمة ، ووزعوا قبائلهم فى خمس ممالك ؛ ألستر Ulster ، ولينستر Leinster الشمالية ، ومونستر Munster ، وكنوت Connaught . وكان كل ملك من هؤلاء الملوك تام السيادة فى مملكته ، ولكن القبائل كلها رضيت أن تكون تارا Tara من أعمال ميث Meath عاصمتها القومية ، فيها يتوج كل ملك من الملوك ، وفيها يجمع فى بداية حكمة الفيس Feis أو مؤتمر أعيان أيرلندة كلها لإقرار التشريعات التى تخضع لها الممالك بأجمعها ، ولتصحيح أنساب القبائل وتدوينها ، ثم تسجيلها فى المحفوظات الأهلية . وشاد الملك كرماك ماك إيرت Cormac Mac Airt فى القرن الثالث بهواً كبيراً لا يزال أساسه باقياً حتى الآن لتعقد فيه جلسات هذا المؤتمر . وكان مجلس إقليمى يدعى الأوناك Aonach يجتمع مرة كل سنة أو كل ثلاث سنين فى عاصمة كل مملكة ، ليسن قوانينها ، ويقر الضرائب التى يجب على أهلها أداؤها ، ويقوم بوظيفة محكمة الإقليم . وكانت الألعاب والمباريات تسير على النمط التقليدى الآتى : الموسيقى ، والغناء ، وألعاب الشعوذة ؛ والتمثيل الهزلى ، والقصص ، وإنشاد الشعر ، وكانت تعقد فى أثنائها الزيجات فتزيدها بهجة ، وكان عدد كبير من السكان يشتركون فى هذه الحفلات . ويبدو لمن يرجع بفكره من خلال القرون الطوال ، التى تخلع على القديم رواء وسحراً ، إلى هذا التوفيق بين الحكومة المركزية والحرية الإقليمية أنه هو المثل الأعلى للنظم الحكومية . وظل المؤتمر (الفيس feis) قائماً حتى عام ٥٦٠ . أما المجلس المحلى (الأوناك Aonach) فقد بقى حتى عام ١١٦٨ .

وأول شخصية تستطيع أن نعدها واثقين شخصية تاريخية بحق هى شخصية تواثال Tuathal الذى حكم لينستر Leinster وميث حوالى عام ١٦٠ م . ومن ملوك أيرلندة أيضاً الملك نيال Niall (حوالى ٣٥٨) الذى غزا ويلز وعاد منها بغنائم لا تحصى ، وأغار على غالة ، ثم قتله رجل من أهل أيرلندة عند نهر اللوار . وكان معظم ملوك أيرلندة الذى جاءوا بعده من نسله . وفى السنة الخامسة من حكم ولده ليجير Laeghaire (ليرى Leary) وفد القديس پتريك على أيرلندة . وكان الأيرلنديون قد استنبطوا لهم حروفاً هجائية مكونة من خطوط مستقيمة ؛ وكان لهم أدب واسع من شعر وقصص يأخذه الناس مشافهة بعضهم عن بعض ، وكانت لهم مصنوعات طيبة من الخزف والبرنز والذهب. وكان دينهم من أديان الشرك وعبادة الطبيعة ؛ فكانوا يعبدون الشمس والقمر وغيرهما من مختلف الأجسام الطبيعية ، وقد أسكنوا بقاعاً لا حصر لها فى أيرلندة بالجن والشياطين والعفاريت . وكانت طائفة من الكهنة ذوى الثياب البيض تتنبأ بالغيب ، وتسيطر فى زعمها على الشمس والرياح بعصى وعجلات سحرية ، وتنزل أمطاراً وتوقد نيراناً سحرية ، وتحفظ أخبار القبائل وأشعارها عن ظهر قلب ، وتلقنها إلى من يأتون بعدها ، وتدرس مواقع النجوم ، وتعلم الشبان ، وتسدى النصح إلى الملوك ، وتجلس للقضاء بين الناس ، وتسن الشرائع ، وتقرب القرابين للآلهة من فوق مذابح قائمة فى الهواء الطلق . وكان من بين أوثانهم المقدسة تمثال مغطى بصفائح الذهب يسمونه كرم كرواك Crom Cruach ؛ وكان هو إله جميع القبائل الأيرلندية ؛ ويلوح أنه كان يُقَرَّب إليه الابن الأول الذى يولد لكل أسرة فى البلاد[١٨] — وربما كان منشأ هذه العادة الرغبة فى الحد من كثرة النسل . وكان الأيرلنديون يؤمنون بتجسد الأرواح بعد الموت ، ولكنهم كانوا يحلمون بوجود جزيرة سماوية وراء البحر ، « ليس فيها عويل أو غدر ، ولا خشونة أو عنف ، بل فيها موسيقى حلوة تشنف الأسماع ، وفيها أرض جميلة عجيبة ذات منظر لا يدانيه شىء آخر فى روعته

وبهائه »[١٩] ؛ وتقول إحدى القصص إن الأمير كونال Conall تأثر بهذا الوصف فأبحر فى قارب من اللؤلؤ ليكشف هذه الجزيرة السعيدة :

وكانت المسيحية قد دخلت إنجلترا قبل قدوم القديس پتريك إليها بنحو جيل أو أكثر من جيل . وقد ورد فى أحد التواريخ الإخبارية ، التى يؤيدها بيدى ، ضمن حوادث عام ٤٣١ أن « البابا سلستينى Celestine قد رسم پلديوس Palladius أسقفاً وأرسله إلى من يؤمنون بالمسيح من الأيرلنديين ليكون أول أسقف لهم » ، لكن پلديوس توفى فى ذلك العام ذاته ونال القديس پتريك راعى أيرلندة وحاميها شرف اعتناق أيرلندة المذهب الكاثوليكى الذى لم تتحول عنه قط .

وكان مولده حوالى عام ٣٨٩ فى قرية بناڤنتا Bonnaventa من قرى غربى إنجلترا ، من أسرة متوسطة الثراء والجاه . وإذ كان الطفل ابن مواطن رومانى فقد سمي باسم رومانى هو پتريكيوس Patricius . ولم ينل من التعليم إلا قسطاً قليلا ، ولهذا كان يعتذر للناس عن خشونته ، ولكنه درس الكتاب المقدس دراسة متقنة يستطيع معها أن يورد منه شواهد من الذاكرة فى كل ما يعرض له من المناسبات . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره أسره جماعة من المغيرين « الأسكتلنديين » (أى الأيرلنديين) وجاءوا به إلى أيرلندة ، حيث أقام ست سنين يرعى الخنازير[٢١] . و « تحول » فى هذه الساعات التى كان يقضيها بعيداً عن الخلق فتبدلت حاله من عدم المبالاة بشئون الدين إلى الصلاح البالغ الحد ؛ ويقول هو عن نفسه إنه كان يستيقظ فى كل يوم قبل الفجر ، ثم يخرج للصلاة مهما يكن الجو — سواء كان يتساقط فيه البرد أو المطر أو الثلج . ثم استطاع آخر الأمر أن يفر ، واتخذ سبيله إلى البحر ، وعثر عليه جماعة من الملاحين فى مكان مقفر ، فأخذوه معهم إلى غالة أو لعلهم أخذوه إلى إيطاليا . ثم تمكن من أن يسلك سبيله إلى إنجلترا ، وأن ينضم مرة أخرى إلى أسرته ، وأن يعيش معها بضع سنين .

ولكن شيئاً ما دعاه أن يعود إلى أيرلندة — وقد يكون هذا الشيء هو ذكرى جمالها الريفى ، أو طيبة قلوب أبنائها وحنوهم . وفسر هو هذا الإحساس بأنه رسالة إلهية ، تدعوه إلى نشر المسيحية بين الأيرلنديين . فذهب من ليرنز Lerins وأوكسير Auxerr ودرس اللاهوت ، ورسم قسيساً . ولما وصل إلى أوكسير نبأ وفاة پلديوس ، عين پتريك أسقفاً ، وأعطى بعض مخلفات بطرس وبولس ، وأرسل إلى أيرلندة (٤٣٢) .

ووجد فيها ملكاً وثنياً مستنيراً يدعى ليچير يجلس على عرش تارا . وعجز پتريك عن هداية هذا الملك إلى الدين المسيحى ، ولكنه حصل على عهد منه بأن يكون له مطلق الحرية فى التبشير بهذا الدين . وقاومه كهنة البلاد ، وعرضوا على الناس سحرهم . وقابل پتريك عملهم هذا بأن عرض على الأهلين تعاويذ طاردى الأرواح الخبيثة ، وهم طائفة من صغار الكهان جاء بهم معه ليستعينهم على طرد الشياطين . ويحدثنا پتريك فى « الاعترافات » التى كتبها حين تقدمت به السن عما تعرض له من الأخطار فى عمله فيقول : إن حياته تعرضت للخطر اثنتى عشرة مرة ؛ وإنه هو ورفاقه قبض عليهم فى يوم من الأيام ، وظلوا فى الأسر أسبوعين ، وهددوا بالقتل ؛ ولكن بعض أصدقائهم أفلحوا فى إقناع من قبضوا عليهم بإطلاق سراحهم[٣٢] . وتقص الروايات المتواترة الصادرة عن بعض الأتقياء الصالحين من الكتاب مئات من القصص المدهشة عن معجزات پتريك . من ذلك ما قاله ننيوس Nennius من أنه « رد البصر للعمى والسمع للصم[٣٣] ، وطهر المجذومين ، وأخرج الشياطين ، وأعاد الأسرى ، وأحيا تسعة من الموتى ، وكتب ٣٦٥ كتاباً » . ولكن أغلب الظن أن أخلاق پتريك لا معجزاته هى التى هدت الأيرلنديين إلى الدين المسيحى — هدتهم ثقته التى لا تتزعزع بعقيدته ، ودأبه على عمله وتحمسه له . ولم يكن الصبر من طبعه ، وكان استعداده لأن يصب اللعنات لا يقل عن استعداده لمنح البركات[٣٤] ، على أن هذا العمل نفسه كان

يصدر عن إقناع تمليه عليه عقائده الواثق بها والتى لا يقبل فيها جدلا . وكان يعين القساوسة ، ويشيد الكنائس ، وينشئ الأديرة للرجال والنساء ، ويترك حاميات روحية قوية لتقوم بحراسة فتوحه الدينية فى كل مكان غزاه ، وجعل الناس يظنون أن قبولهم فى دولته الكهنوتية مغامرة من أسمى المغامرات وأجلها خطراً ، وجمع حوله رجالا ونساء من ذوى الشجاعة والإخلاص ، يتحملون جميع ضروب الحرمان ليبشروا الناس بأن الإنسان قد نجا من الخطيئة . على أن بتريك لم يهد أيرلندة كلها ، بل بقيت فيها للوثنية جيوب منعزلة ، كما بقى لها شعرها ، ولا تزال فيها إلى الآن آثار من الدين القديم ، لكنه حين وافته منيته (٤٩١) كان يمكن أن يقال عنه ، ما لا يمكن أن يقال عن رجل غيره . وهو أن رجلا واحداً قد هدى أمة بأجمعها .

وأقرب الناس بعده لقلوب الأيرلنديين امرأة كان لها أكبر الفضل فى تثبيت دعائم نصره ، تلك هى القديسة بردجد Brigid . ويقال إنها ابنة عبد وملك ، ولكننا لا نعرف عنها شيئاً موثوقاً به قبل أن تترهب فى عام ٤٧٦ . وقد استطاعت أن تنشئ «كنيسة شجرة البلوط» . (كل دارا Cill-dara) بعد أن تغلبت على عقبات يخطئها الحصر ؛ ولا يزال الموضع الذى أقامتها فيه يسمى بهذا الاسم كلدير Kildare حتى اليوم . وسرعان ما استحالت الكنيسة ديراً للرجال وللنساء ، ومدرسة لا تقل شهرة عن المدرسة الأخرى التى قامت فى أرماغ Armagh . وتوفيت بردجد فى عام ٥٢٥ ، معززة مكرمة من جميع الأيرلنديين ، ولا يزال عشرة آلاف من الأيرلنديات يسمين باسم مارى الجيلية Mary of Gael . وبعد جيل من ذلك الوقت صب القديس روادهان لعنة على تارا ؛ ثم هجرت الأبهاء القديمة بعد عام ٥٥٨ حين مات الملك ديرمويد Diarmuid ، واعتنق ملوك أيرلندة الدين المسيحى وإن ظلوا مع هذا وثنيين فى ثقافتهم .

الفصل الثالث

بداية تاريخ فرنسا

١ ـ الأيام الأخيرة من تاريخ غالة القديمة

كانت غالة فى القرنين الرابع والخامس أكثر الولايات الغربية فى الإمبراطورية الرومانية رخاء من الناحية المادية وأعظمها رقياً من الناحية العقلية . فقد كانت تربتها خصبة كريمة ، وصناعاتها اليدوية متقدمة ، وأنهارها وبحارها تعج بالمتاجر وكان فى نربونه وأرليز ، وبردو ، وطولوز (طلوشة) ، وليون ، ومرسيلية ، وپواتيه ، وتريبه جامعات مزدهرة تنفق عليها الدولة ، وكان للمدرسين ، والخطباء ، والشعراء ، والحكماء منزلة لا ينالها فى العادة إلا رجال السياسة والملاكون . وفى أيام أوسنيوس وسيدنيوس عقد لغالة لواء الزعامة الأدبية فى أوربا كلها .

وكان ديسموس مجنوس أوسنيوس Deecimus Magnus Ausonius شاعر العصر الفضى فى غالة ، وفيه تتمثل روح هذا العصر . وقد ولد فى بردو حوالى عام ٣١٠ ، وكان والده كبير أطبائها ، وفيها تلقى علومه ، وقد حدث العالم فيما بعد فى شعر كريم سداسى الأوتاد عن فضائل معلميه ، ذكر فيه بسماتهم وأغفل ضرباتهم(٢٥) . وسارت حياته بعدئذ سيراً هادئاً مطمئناً حتى عين أستاذاً فى بردو وظل يعلم « النحو » (وكان يقصد به وقتئذ الأدب) و« البلاغة » (أى الخطابة والفلسفة) نحو ثلاثين عاماً ، وكان مربياً للإمبراطور جراتيان قبل أن يتولى عرش الإمبراطورية . وإن فيما كتبه عن والديه وأعمامه وأخواله ، وزوجته ، وأبنائه وتلاميذه ما يوحى بأن حياته فى البيت وفى خارجه كانت شبيهة بحياة المدن الجامعية فى الولايات المتحدة الأمريكية فى القرن التاسع عشر . وهو يصف بعبارات جذابة البيت والحقول التى ورثها عن أبيه ، ويحدثنا عن المكان الذى يرجو أن

يقضى فيها أخريات أيامه ، ويقول لزوجته فى سنى زواجهما الأولى :
« فلنعش على الدوام كما نعيش الآن ، ولنحتفظ بالاسمين اللذين سمى بهما كلانا الآخر فى بداية حبنا . . . ويجب أن يبقى كلانا فى سن الشباب ، وستكونين على الدوام جميلة فى عينى ، وعلينا ألا نحسب حسابا لمر السنين »(٢٦) . على أنهما سرعان ما فقدا أول طفل رزقه منها ، وقد كتب يحيى ذكراه بعبارات تفيض بالحب فقال : « لن أتركك دون أبكيك يا بكر أبنائى وياسمى . لقد اختطفك الموت منا فى الوقت الذى كنت تحاول فيه أن تبدل لغطك إلى أولى كلمات الطفولة ... إنك الآن ترقد على صدر والد جدك الذى تشاركه قبره »(٢٧) . وماتت زوجته ولما يمض على زواجهما الموفق إلا زمن قليل ، وتركت له ابنا وبنتاً ؛ وقد بلغ من حبه ووفائه لها أنه لم يتزوج قط بعدها ؛ ووصف فى شيخوخته ألمه لفقدها ولوعته التى لم يخففها مر السنين ، كما وصف السكون المحزن المخيم على بينهما الذى طالما عرف عناية يديها وأحس بنغم وقع قدميها .

وكان الناس فى أيامه يحبون قصائده لما فيها من عواطف رقيقة ، وصور ريفية جميلة ، وللغتها اللاتينية الخالصة ، ولشعرها الذى لا يكاد يقل فى رقته عن شعر فرچيل .

وكان پولينس ، الذى أصبح فيما بعد من القديسين ، يشبه نثره بنثر شيشرون ، وكان سياخوس يقول إنه لا يستطيع أن يجد فى شعر فرچيل شيئاً أجمل من قصيدة موزلا Mosella التى وصف فيها أوسنيوس نهر الموزل . وكان الشاعر قد أولع بذلك النهر حين كان مع جراتيان فى تربيه . ويقول فى وصفه إنه يجرى وسط جنة حقة من الكروم ، والبساتين والقصور الصغيرة ذات الحدائق ، والمزارع الفاخرة الغنية . ونكاد نحس فى وقت ما بخضرة شواطئه ، وموسيقى جريانه . ثم لا يلبث أن يتدلى من هذا المستوى الرفيع فيصف فى عبارات تتكرر مراراً ما فى مجرى النهر من سمك لطيف . وتذكرنا هذه الرغبة الجامحة فى ذكر الأقارب

والمدرسين ، والتلاميذ ، والسمك بكتابات هوتمان Whitman ولكنها ينقصها شعور هوتمان الفياض وفلسفته القوية اللذين يخففان من سآمتها . وسبب ذلك النقص أن أوسنيوس بعد أن ظل ثلاثين عاما يعلم النحو كان يصعب عليه أن يضمن عباراته شيئاً غير العاطفة الأدبية . فقصائده مسبحة صداقة ، وأوراد مدح ، ولكن الذين لم يعرفوا منا أمثال أولئك الأعمام والأخوال الذين نفتتن بحبهم ، أو الأساتذة الذين يُغروننا بتمجيدهم قلما يتأثرون بهذا المديح .

ولما توفى ڤلنتنيان الأول (٣٧٥) ، وجلس جراتيان على عرش الإمبراطورية استدعى إليه معلمه القديم ، وأفاض عليه وعلى من معه كثيراً من المنح السياسية . فعين أوسنيوس حاكما على إليركم Illyricum ، وإيطاليا ، وأفريقية ، وغالة ، واحدة بعد واحدة فى فترة قصيرة ، ثم عين آخر الأمر قنصلا وهو فى سن التاسعة والستين ، وبفضل مشورته أصدر جراتيان مراسيم تفرض إعانات من الدولة لشئون التعليم ، وللشعراء ، والأطباء ، ولحماية روائع الفن القديم . وبفضل نفوذه أيضاً عين سماكس حاكما على رومة ، وپولينس والياً على إحدى الولايات وحزن أوسنيوس حين اعتزل پولينس شئون الدنيا وانقطع للدين ، لأن الإمبراطورية المهددة من جميع نواحيها كانت فى حاجة إلى أمثاله . نعم إن أوسنيوس نفسه كان أيضاً مسيحياً ، ولكنه لم يكن جاداً كل الجد فى مسيحيته ، فقد كانت ميوله ، وموضوعات شعره ، وأوزانه ، وما فيه من أساطير كلها وثنية سارة مطربة .

ولما بلغ الشاعر الشيخ سن السبعين عاد إلى بردو حيث عاش عشرين سنة أخرى . وكان وقتئذ حيا ، فى وسعه أن يوفق فى قصائد البنوة التى نظمها فى شبابه وبين حب الأجداد لأحفادهم حين يبلغ هؤلاء الأجداد الشيخوخة . انظر إليه وهو يقول لحفيده : « لا تخف ، وإن كان صدى الضربات الكثيرة يتردد فى المدرسة ، وإن تجهم وجه المدرس ، ولا ترتعد فرقاً إذا سمعت فى أثناء ساعات الصباح صراخاً أو طرق أذنيك صوت العصا ، فإذا كان المدرس يتخذ العصا

صوبحاناً يهزه بيده ، وإذا رأيت لديه مجموعة كاملة من العصى ... فليس هذا وذاك إلا مظهراً خارجياً يبعث به الخوف الكاذب فى النفوس . لقد مر أبوك وأمك بهذا كله فى أيامهما ، ثم عاشا بعدهما ليخففا عنى فى شيخوختى الهادئة الصافية عبء السنين »[٢٨] . وما أسعد حظ أوسنيوس إذ عاش ومات قبل أن يجتاح البلاد تيار البرابرة الجارف .

وكانت منزلة أبلينارس سيدونيوس Appollinaris Sidonius فى النثر الغالى أثناء القرن الخامس كمنزلة أوسنيوس فى الشعر الغالى فى القرن الرابع : لقد خرج سيدونيوس على العالم فجأة من مدينة ليون (٤٣٢) حيث كان يقيم أبوه حاكم غالة . وكان جده قد شغل هذا المنصب نفسه قبل أبيه ، وكانت أمه من أقارب أفتوس Avitus الذى جلس على عرش الإمبراطورية فى عام ٤٥٥ . والذى تزوج سيدونيوس بابنته عام ٤٥٢ . وكانت كل هذه سبلا ممهدة يصعب على الإنسان أن يجد خيراً منها . وجاءت إليه ثروة بائنة هى قصر ريفى مترف بالقرب من كليرمنت Clermont ، وقد قضى عدداً من سنى حياته فى الذهاب لزيارة أصدقائه من النبلاء والعودة من هذه الزيارات . وكان أولئك الأصدقاء أناساً ذوى ثقافة ورقة يميلون إلى الدعة والمغامرة[٢٩] ، يعيشون فى بيوتهم الريفية ، وقلما يغمسون أيديهم فى رجس السياسة . وكان فى وسعهم أن يحموا حياتهم الناعمة المترفة من الغزاة القوط : ولم يكونوا يهتمون بحياة المدن ، فقد أخذ ذوو الثراء الواسع من الإنجليز والفرنسيين من ذلك العهد يرون ما فى حياة الريف من متع لا توجد فى المدن . وقد جمعت هذه البيوت الريفية المنبسطة ذات الحدائق كل وسائل الراحة وأسباب الجمال ، من أرض مرصوفة بالفسيفساء ، وأبهاء ذات عمد ، وجدران منقوشة عليها مناظر طبيعية ، وتماثيل من الرخام أو البرنز ومواقد فخمة ، وحمامات ، وحدائق وملاعب للتنس[٣٠] ، ومن حولها غياض يستطيع الرجال والسيدات أن يصيدوا فيها ويطلقوا البزاة . وكان بعضها يحتوى ١٢٥ حجرة ، وفى كل منها

إلا القليل النادر مكتبة عامرة بالكتب ، فيها كتب الوثنيين القديمة وبعض النصوص المسيحية الجليلة[٣١] . وكان بعض أصدقاء سودونيوس نفسه من هواة جمع الكتب ، ولا ريب فى أنه كان فى غالة كما كان فى رومة كثير من الأثرياء الذين يقدرون تجليد الكتب الجميل أكثر مما يقدرون محتوياتها وحدها ، ويقنعون بالثقافة التى يستطيعون أن يحصلوا عليها من جلود كتبهم .

ويضرب لنا سيدونيوس أحسن مثل لهذه الحياة اللطيفة — حياة حسن الضيافة والمجاملة ، والبهجة ، والآداب الراقية ، وما فيها من شعر جيد الصقل ، ونثر حلو النغم . ولما ذهب أفتوس إلى رومة ليجلس على عرش الإمبراطورية ، صحبه سودونيوس ، واختير ليلقى بين يديه خطاب الترحيب (٤٥٦) ، ثم عاد إلى غالة بعد سنة من ذلك الوقت مع أفتوس المخلوع ؛ ولكننا نجده فى رومة مرة أخرى فى عام ٤٦٨ يشغل منصب محافظ المدينة حين كانت الدولة فى آخر مرحلة من مراحل الانهيار . وكان الرجل يسير مطمئنا وسط هذه الفوضى ، فاستطاع بذلك أن يصف المجتمعات العليا فى غالة ورومة فى رسائل من طراز رسائل پلنى وسياخوس ، ولا تقل عن رسائلهما مباهاة وظرفا .

ولم يكن الأدب فى ذلك الوقت يجد ما يتحدث عنه إلا القليل ، وقد بُذل فى هذا القليل من العناية ما أبقى على شكل هذا الأدب وسحر ألفاظه بعد أن ذهب كل ما عداهما ، وخير ما يمكن أن يقال عن هذه الرسائل أنها حوت ما فى طبيعة الرجل المهذب المتعلم من تسامح وظرف وتفاهم وتعاطف . وهى الصفات التى ازدان بها أدب فرنسا منذ تلك الأيام التى لم يكن فيها أدبا فرنسيا . وقد جاء سيدونيوس إلى غالة بما يمتاز به الرومان من حب الحديث الممتع اللطيف الذى بدأ بشيشرون وسنكا وانتقل عن طريق پلنى وسياخوس ، ومكروبيوس ، وسيدونيوس إلى منتانى ومنتسيكو ، وفلتير ، ورينان ، وسانت بيف ، وأناتول فرانس ، وهؤلاء يكونون سلسلة متصلة الحلقات ، ومن نعم الله أنهم

يكادون يكونون كلهم ذوى عقلية واحدة .

وإذ كنا لا نحب أن نعطى القارئ صورة غير صادقة لسودونيوس ، فلابد لنا أن نضيف هنا أنه كان مسيحيا صالحاً ، وأسقفاً شجاعاً . وقد وجد الرجل نفسه ، على حين غفلة ، وعلى كره منه ، يندفع من منزلته المدنية العلمانية إلى أسقفية كلرمنت . وكان على الأسقف فى تلك الأيام أن يكون حاكما إداريا وهادياً روحيا فى آن واحد . وقد كان ذوو التجارب والثراء أمثال أمبروز وسيدونيوس يمتازون بمؤهلات أقوى أثراً وأعظم نفعاً فى مناصبهم الجديدة من علوم الدين مهما تعمقوا فيها . وإذا كان سيدونيوس لم يُحصِّل من هذه العلوم إلا القليل ، فإنه لم يكن يصبّ اللعنات الدينية إلا على القليلين ، وكان بدل أن يشغل نفسه بهذا يعطى صحافه الفضية للفقراء ، ويغفر ذنوب الناس بسرعة روّعت الكثيرين من رجال الدين . ونتبين من إحدى رسائله أنه كان فى بعض الأحيان يقطع صلوات المصلين فى كنيسته حتى يتناولوا بعض المرطبات[٣٢] . ثم حطمت الحقيقة المرة هذه الحياة الممتعة حين قرر أوريك Euric ملك القوط الغربيين أن يضم أوفرنى Auvergne إلى البلاد الخاضعة لحكمه . وظل القوط يحاصرون كلرمنت عاصمة هذه الولاية كلما حل فصل الصيف أربع سنين متوالية . وكان سيدونيوس يقاتلهم بالسياسة وبالصلوات ، ولكنه عجز عن صدهم . ولما سقطت المدينة آخر الأمر ، أسر ، وسجن فى حصن بالقرب من كاركسن Carcassonne (٤٧٥) ؛ ثم أطلق سراحه بعد عامين وأعيد إلى كرسيه . ولسنا نعرف كم من الزمن عاش بعدئذ ، ولكننا نعلم أنه قبل أن يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره كان يتمنى أن « يتخلص من آلام الحياة الحاضرة ومتاعبها بأن يعجل الله بمنيته »[٣٣] . ذلك أنه كان قد فقد إيمانه بالإمبراطورية الرومانية ، وبنى كل آماله فى تقدم الحضارة على الكنيسة الرومانية . وقد غفرت له الكنيسة ما فى شعره من نزعة وثنية وضمته إلى جماعة القديسين .

٢ — الفرنجـــة

٣٤٠ — ٥١١

أرخى ليل الهمجية سدوله على غالة بعد موت سيدونيوس . على أننا ليس من حقنا أن نبالغ فى ظلام هذا الليل . فقـــد ظل الناس فى خلاله يحتفظون بمهارتهم فى الشئون الاقتصادية ، فكانوا يتجرون ، ويسكّون النقود ، ويقرضون الشعر ، ويشتغلون بالفن ؛ وقد بلغت مملكة القوط الغربيين فى جنوبى غالة الغربى أيام ملكيها أوريك Euric (٤٦٦ — ٤٨٤) وألريك الثانى (٤٨٤ — ٥٠٧) درجة من النظام ، والحضارة ، والرقى ، أطلقت لسان سيدونيوس نفسه بالثناء عليها[٣٤] . وفى عام ٥٠٦ نشر ألريك الثانى موجزاً من القوانين لمملكته ، وكان دستوراً مستنيراً بالنسبة لغيره من دساتير ذلك الوقت ، فقد كان يقرر العلاقة بين السكان الرومان الغالبين والفاتحين على قواعد ثابتة قائمة على العقل . وسنّ ملوك برغندية فى عام ٥١٠ دستوراً شبيهاً بهذا ، وكان هؤلاء الملوك قد أسكنوا شعبهم فى جنوبى غالة الشرقى وبسطوا سلطانهم على هـــذا الإقليم بطريق السلم . وظلت أوربا اللاتينية تحكمها الشرائع القوطية والبرغندية وشرائع الفرنجة التى لا تختلف عنهما كثيراً ، حتى عادت الشرائع الرومانية إلى الوجود فى بولونيا فى القرن الحادى عشر الميلادى .

ويبدأ التاريخ يحدثنا عن الفرنجة فى عام ٢٤٠ حين هزمهم الإمبراطور أورليان بالقرب من ميْنز . واستقر الفرنجة الربواريون Ripuarian (أى الشاطئيوز) فى بداية القرن الخامس على منحدرات الرين الغربية ، واستولوا على كولونى (٤٦٣) ، واتخذوها عاصمة لهم ، وبسطوا سلطانهم على وادى الرين من آخن Aechen إلى متز . وبقيت بعض قبائل الفرنجة على ضفة النهر الشرقية وأطلقوا اسمهم على فرنكونيا Franconia . وربما كان الفرنجة الساليون The Salic Franks

قد اشتقوا اسمهم من نهر سالا Sala (المعروف الآن باسم إچسل Ijssel الذى يجرى فى الأرض الوطيئة . ثم تحركوا من هذا الإقليم نحو الجنوب والغرب ، واحتلوا حوالى عام ٣٥٦ الإقليم الواقع بين نهر الموز Meuse والمحيط ونهر السوم Somme . وكان أكثر انتشارهم بطريق الهجرة السلمية ، بل إن الرومان أنفسهم كانوا يدعونهم أحيانا إلى أن يعمروا الأراضى القليلة السكان . وبهذه الوسائل المختلفة أصبحت غالة الشمالية نصف فرنجية قبل أن يحل عام ٤٣٠ . وقد جاء الفرنجة معهم بلغتهم الألمانية وعقيدتهم الوثنية ، وكان من أثر هذا أن اللغة اللاتينية لم تعد اللغة التى يتحدث بها المقيمون على مجرى الرين الأدنى ، كما لم تعد المسيحية دين هؤلاء الأقوام .

ويصف الفرنجة الساليون أنفسهم فى مقدمة « قانونهم السالى » بأنهم « الشعب المجيد ، الحكيم فى مجالسه ، النبيل فى جسمه ، الذى تشع منه الصحة والعافية ، الممتاز بجماله ، الجرىء ، السريع ، الذى لا تلين له قناة ... هذا هو الشعب الذى ألقى عن عاتقه نير الطغاة الرومان »[٣٥] . ولم يكونوا يعدون أنفسهم برابرة بل كانوا يقولون إنهم رجال أحرار انتزعوا حريتهم بأيديهم ، ومعنى لفظ فرنجة Franks هو الحر ، الذى نال حقوقه السياسية . وكانوا طوال القامة ، شقر الوجوه ، يجمعون شعرهم الطويل ويعقدونه فوق رؤوسهم ، ثم يتركونه يسقط منها وهو أشبه ما يكون بذيل الحصان ، وكانوا يطيلون شواربهم ، ويحلقون لحاهم ، ويشدون قباءهم على وسطهم بأحزمة من الجلد مغطاة فى بعض أجزائها بقطع من الحديد المطلى بالميناء ، وفى هذه المنطقة يعلق السيف ، والبلطة الحربية ، وبعض أدوات الزينة كالمقصات والأمشاط[٣٦] ؛ وكان الرجال كالنساء مولعين بالحلى ، يتزينون بالخواتم ، والأساور وعقود الخرز . وكان كل رجل قوى الجسم جندياً محارباً ، يتعلم منذ صباه الجرى ، والقفز ، والسباحة ، وإصابة الهدف بالحربة أو البلطة . وكانت الشجاعة عندهم أسمى الفضائل كلها ، من أجلها يغتفر

القتل ، والنهب ، والاغتصاب . ولكن التاريخ ، بما يلقيه من ضوء ساطع على بعض الحوادث دون بعضها الآخر ، يخطئ فى تصوير الفرنجة إذ يدخل فى روعنا أنهم أقوام محاربون لا غير . والحق أن فتوحهم ووقائعهم الحربية لم تكن أكثر من فتوحنا نحن ووقائعنا ، كما كانت أقل منها اتساعاً وتخريباً . ويستدل من شرائعهم على أنهم كانوا يشتغلون بالزراعة والصناعات اليدوية ، وأنهم أنشأوا فى شمالى غالة الشرقى مجتمعاً ريفياً مزدهراً يتمتع عادة بالسلام .

وقننت الشرائع السالية فى بداية القرن السادس ، وأكبر الظن أن ذلك كان فى نفس الجيل الذى شهد آخر مرحلة من مراحل تطور قوانين جستنيان الرومانية . ويقولون إن « أربعة من الزعماء الموقرين » هم الذين كتبوه ، وإن ثلاثة جمعيات شعبية متتالية قد بحثته وأقرته[٣٧] . وكانت الطريقة المتبعة فى محاكمة المتهمين هى طريقة التحكيم الإلهى والاستعانة بالشهود الذين يقسمون أن المتهم برىء . فإذا شهد عدد كان من الشهود الصالحين لهذه الشهادة أن المدعى عليه طيب الخلق ، برئ من أية تهمة لا يوجد دليل قاطع على أنه ارتكبها . وكان عدد الشهود يختلف تبعاً لجسامة الجرم المنسوب إلى المتهم : فسبعة وسبعون شاهداً يكفون لتبرئة المتهم بالقتل ، ولكن لما أن اتهمت إحدى ملكات فرنسا فى عفتها تطلب الأمر ثلثمائة من النبلاء يشهدون بصحة انتساب ابنها إلى أبيه[٣٨] . فإذا ظل الأمر بعد هذا موضعاً للشك اتبع قانون التحكيم الإلهى . من ذلك أن المتهم كانت تربط يداه وقدماه ويلقى فى النهر ، فإذا غطس كان بريئاً ، وإذا طفا كان مذنباً (وذلك لأن الماء كانت تقرأ عليه رقى خاصة فى حفل دينى تجعله يرفض الشخص المذنب)[٣٩] ؛ أو كان يطلب إلى المتهم أن يمشى حافى القدمين فى نار متقدة أو فوق حديد يحمى حتى يحمر من الحرارة ؛ أو يمسك بيده قطعة من الحديد محمية إلى هذه الدرجة ويظل قابضاً عليها مدة محددة من الزمن ؛ أو يضع ذراعه عارية فى وعاء به ماء يغلى ويخرج شيئاً من قاع الإناء ؛ أو يقف

المدعى والمدعى عليه ويمدان ذراعيهما على هيئة صليب ويظلان كذلك حتى تثبت التهمة على أحدهما إذا أنزل ذراعه من شدة التعب ؛ أو يأخذ المتهم ماء القربان المقدس ، فإذا كان مذنباً فلا بد أن تحل به نقمة الله . وكانت المبارزة تفصل أحياناً فى النزاع بين حزبين إذا بقى بعد إيراد الأدلة القانونية مجال للشك المعقول . وتدل الأبستاق على أن التحكيم الإلهى بالماء المغلى كان من الوسائل التى يستخدمها الفرس الأقدمون . وقد ورد فى قوانين مانو Mnau (قبل عام ١٠٠ م) شىء عن التحكيم الإلهى عند الهنود بالإغراق فى الماء ، كما ورد ذكر التحكيم الإلهى بطريق النار أو الحديد المحمى فى مسرحية أنتيجون لسفكليز[٤٠] . أما الساميون فكانوا يرون أن هذا التحكيم يأباه الدين ولذلك كانوا يرفضونه ، وكان الرومان يرون أنه خرافة ، أما الألمان فقد ساروا فيه إلى آخر مراحله ؛ وقبلته الكنيسة المسيحية وهى كارهة ، وأحاطته بمراسم دينية ، وأيمان مغلظة .

والمحاكمة بالاقتتال قديمة قدم التحكيم الإلهى . ويصفه ساكسو جرامانيكوس Saxo Grammaticus ، بأنه كان إجبارياً فى الدنمرقة فى القرن الأول الميلادى ؛ وتدل شرائع الإنجليز ، والسكسون ، والفرنجة ، والبرغنديين ، واللمبارد على أنه كان شائعاً بينهم ، وقد وجده القديس پتريك فى أيرلندة ، ولما أن شكا مسيحى رومانى إلى جندوباد Gondobad ملك برغانديا وقال له إن هذا التحكيم لا يحكم على الجريمة بل على المهارة ، أجابه الملك بقوله : « أليس حقاً أن نتائج الحروب والمبارزات إنما تتقرر بقضاء الله ، وأن العناية الإلهية تؤيد بنصرها القضية العادلة ؟ »[٤١] . وكان كل ما حدث فى هذا الأمر بعد أن اعتنق البرابرة الدين المسيحى أن تبدل اسم الإله الذى يحكمونه فيما بينهم . وليس فى وسعنا أن نحكم على هذه العادات أو نفهمها إلا إذا وضعنا أنفسنا فى مكان قوم يؤمنون إيماناً لا يقبل الجدل بأن الله هو الذى يسبب الحوادث جميعها ، وأنه لا يرضى عن أى حكم غير عادل . وأمام هذه التجربة المرعبة كان المدعون الذين لا يثقون

من عدالة قضاياهم أو من قوة بيناتهم يترددون كثيراً قبل أن يشغلوا المحاكم بقضاياهم وشكاياتهم ؛ كما أن المتهمين المجرمين كانوا يتهربون من التحكيم الإلهي ويعرضون أن يؤدوا بدلا منه تعويضاً للمدعين .

ذلك أنه كان لكل جريمة ثمنها ، وكان فى وسع المتهم عادة أن يفتدى نفسه بأن يؤدى التعويض المقرر للجريمة المتهم بها على أن يكون ثلثه للحكومة ، وثلثاه لمن وقعت عليه الجريمة أو لأسرته . وكان المبلغ المفروض يختلف باختلاف منزلة من وقعت عليه الجريمة ، ولهذا كان المجرم الملم بالشئون الاقتصادية يدخل فى حسابه عدداً كبيراً من الحقائق . فإذا لطم رجل يد امرأة فى غير حياء فرضت عليه غرامة مقدارها خمسة عشر ديناراً(*) (نحو دولارين أمريكيين وربع دولار) ؛ وإذا لطم عضدها غرم خمسة وثلاثين ديناراً (٥,٢٥ دولارات) ، فإذا مس صدرها بغير رضاها غرم خمسة وأربعين ديناراً (٦,٧٥ دولارات)[٤٢] . ولم يكن هذا التقدير باهظاً إذا قيس بغيره من الغرامات : فقد كان جزاء اعتداء رومانى على فرنجى أو سرقته بإكراه غرامة قدرها ٢٥٠٠ دينار (٣٧٥ دولاراً) ؛ وتخفض هذه الغرامة إلى ١٤٠٠ دينار إذا اعتدى فرنجى على رومانى أو سرقة ؛ وإذا قتل رومانى فرنجياً غرم القاتل ٨٠٠٠ دينار تخفض إلى أربعة آلاف[٤٣] إذا كان المقتول رومانياً ؛ إلى هذه الدرجة انحطت منزلة الرومانى العظيم فى أعين الفاتحين . وإذا لم ينل المعتدى عليه أو أقاربه التعويض الكافى ، كان من حقهم أن ينتقموا لأنفسهم من المعتدى ؛ وبهذه الطريقة كانت سلسلة الانتقام وسفك الدماء تدوم بين الخصوم عدة أجيال ؛ وكانت الغرامات والمبارزات القضائية خير الوسائل التى

(*) يقدر القانون السالى (فى المادة الرابعة عشرة) الدينار بجزء من أربعين جزءا من السوليدوس **Solidus** الذى كان وقتئذ يحتوى على سدس أوقية من الذهب أو ٥,٨٣ من دولارات الولايات المتحدة فى عام ١٩٤٦ . لكن قلة الذهب والنقد فى العصور الوسطى كانت تجعل للمبالغ الواردة فى النص قيمة فى الشراء أو العقاب أعظم كثيراً من قيمتها فى هذه الأيام .

استطاع الألمان البدائيون ابتكارها لكبح جماح غريزة الانتقام وإحلال القانون محلها .

ونصت أهم مادة فى القانون السالى على أنه « لا يجوز أن ترث امرأة شيئاً من الأراضى السالية (المادة السادسة) . واعتمدت فرنسا على هذه المادة فى القرن الرابع عشر فرفضت ادعاء الملك إدورد الثالث ملك إنجلترا حقه فى عرش فرنسا الذى يرثه عن طريق أمه إزابل Esabelle ؛ وأدى هذا الرفض إلى نشوب حرب السنين المائة . وكانت هذه المادة مقصورة على الأملاك الثابتة (العقار) ، التى يفترض أنها تحتاج فى حمايتها إلى قوة الرجال العسكرية ، ويمكن القول بوجه عام إن القانون السالى لم يكن يرفع من شأن النساء . نعم إن دية المرأة كانت ضعفى دية الرجل(٤٤) ، لأنهم كانوا يدخلون فى تقديرها أنها قد تكون أما للكثيرين من الرجال ، ولكنه يفعل بهن ما يفعله القانون الرومانى فى أوائل عهده ، فيضعهن على الدوام تحت وصاية آبائهن أو أزواجهن أو أبنائهن . وقد جعل القتل عقاب الزوجة الزانية ، ولكنه لم يكن يعاقب الزانى(٤٥) ، وكان يبيح الطلاق للرجل متى شاء هواه(٤٦) . وكانت العادة تبيح للملوك الفرنجة أن يتزوجوا بأكثر من واحدة ، وإن لم يبح ذلك القانون نفسه .

وكان أول ملوك الفرنجة المعروفين باسمهم هو كلوديو Chlodio الذى هاجم كولونى فى عام ٤٣١ ؛ ولقد هزمه إيتيوس Aetius ، ولكن كلوديو نجح فى احتلال غالة من شرقها إلى نهر السوم فى الغرب ، واتخاذ تورناى عاصمة له ؛ وخلفه على العرش ملك آخر يدعى مروفك Merovech (ابن البحر) — وقد يكون هذا مجرد خرافة — وهو الذى سميت باسمه الأسرة المروفنجية Merovingian التى حكمت الفرنجة حتى عام ٧٥١ . وأغوى ابنه كلدريك Childeric باسينا Basina زوجة أحد الملوك الثورنجيين Thuringian ؛ فجاءت إليه لتكون ملكته ، وقالت : إنها لا تعرف رجلا أخصف منه عقلا ، أو أقوى منه جسما ؛

أو أجمل منه خلقاً . وولدت له كلوفيس Clovis ، الذى أنشأ فرنسا والذى تسمى باسمه ثمانية عشر من الملوك الفرنسيين(*) .

وورث كلوفيس عرش المروفنچيين فى عام ٤٨١ ، وكان وقتئذ فى الخامسة عشرة من عمره ؛ ولم تكن مملكته تشغل وقتئذ إلا ركناً من أركان غالة ، فقد كانت قبائل أخرى من الفرنجة تحكم أرض الرين ، وكانت مملكتا القوط الغربيين والبرغنديين القائمتان جنوبى غالة قد استقلتا استقلالا تاماً بعد سقوط رومة . وكان الطرف الشمالى الغربى من غالة ، الخاضع بالاسم لحكم رومة حتى ذلك الوقت ، ضعيفاً لا يجد من يدافع عنه ، فغزاه كلوفيس ، واستولى على كثير من مدنه وعلى عدد من أكابر رجاله ، ثم قبل الفدية منهم ، وباع الغنائم ، وابتاع الجند والمؤن ، والأسلحة ، وزحف على سواسون Soissons وهزم جيشا « رومانيا » (٤٨٦) . ثم وسع فتوحه فى السنين التالية حتى لامست حدود شبه جزيرة بريطانى ، ونهر اللوار . وضم إلى جانبه السكان الغاليين بأن ترك لهم أراضيهم ، كما ضم إليه رجال الدين المسيحيين بأن احترم دينهم وأبقى لهم ثروتهم . وفى عام ٤٩٣ تزوج مسيحية تدعى كلوثيلد Clothilde ، وما لبث أن اعتنق بتأثيرها الدين المسيحى على أساس العقائد النيقية ، وعمده ريمى الأسقف والقسيس فى ريمز أمام حشد من رجال الدين والأعيان ، دعوا لهذا الغرض ولحكمة لا تخفى ، من جميع أنحاء غالة ، ثم تقدم كلوفيس إلى ميدان القتال يتبعه ثلاثة آلاف جندى . وربما كان سبب اعتناق كلوفيس الدين الجديد أنه كان يتوق إلى الوصول إلى شواطئ البحر المتوسط ، وأنه كان يرى أن ملك فرنسا خليق بأن يعتنق من أجله هذا الدين . وأخذ أتباع الدين القويم فى غالة القوط الغربيين ، وغالة البرغنديين ، ينظرون إلى حكامهم شزراً ، وأصبحوا من ذلك الحين حلفاء الملك الفرنجى المشاتوئة فى السر أو فى العلن .

(*) كلدفج ، ولدفج ، وكلوفيس ، ولويس Chlodwig, Ludwig, Clovis, Louis كلها اسم واحد .

ورأى ألريك الثانى بداية هذا التيار الجارف ؛ وحاول أن يصده بالكلام المعسول ، فدعا كلوفيس إلى الاجتماع به ، واجتمعا بالفعل فى أمبواز Amboise ، وعقدا ميثاق الصداقة الدائمة . ولكن ألريك قبض على جماعة من الأساقفة أتباع الدين الأصيل بعد عودته إلى طولوز ، لتآمرهم مع الفرنجة ، فدعا كلوفيس جمعيته الحربية وخطبها قائلا : « يعز على نفسى أرى هؤلاء الأريوسيين يمتلكون جزءاً من غالة ، فلنخرج لطردهم منها بمعونة الله»[٤٧] . ودافع ألريك عن نفسه بكل ما وسعه الدفاع ومعه شعب منقسم على نفسه ؛ ولكنه هزم فى ڤوييه Vouillé القريبة من پواتييه (٥٠٧) ، وقتله كلوفيس بيده . « وبعد أن قضى كلوفيس فصل الشتاء فى بردو » ، كما يقول جريجورى التورى Gregory of Tours واستولى على جميع كنوز ألريك التى كانت فى طولوز ، زحف لحصار أنجوليم Angoulême . ومن الله عليه بفضله فتساقطت أسوار المدينة من تلقاء نفسها » . وها نحن أولاء نرى منذ ذلك الزمن[٤٨] نغمة المؤرخ الإخبارى التى تمتاز بها العصور الوسطى . وكان سجيبرت الشيخ ملك الفرنجة الربواريين حليفا لكلوفيس من زمن بعيد : والآن أوحى كلوفيس إلى ابن سجيبرت بالميزات التى ينالها بعد موت أبيه . فقتل الابن والده وأرسل كلوفيس إلى القاتل شعائر الود والصداقة ومعها عماله ليقتلوه . فلما تم ذلك لكلوفيس زحف على كولونى وأقنع زعماء الربواريين بأن يرتضوه ملكا عليهم . ويقول جريجورى فى ذلك « وجعل الله أعداءه يخرون فى كل يوم صرعى تحت قدميه . . . لأنه كان يسير أمام الله بقلب سليم ، ولأنه كان يفعل ما تقر به عين الله »[٤٩] .

وسرعان ما اعتنق الأريوسيون المغلوبون المذهب الصحيح ، وسمح لقساوستهم أن يحتفظوا بمناصبهم الدينية بعد أن تخلوا عن الفارق بين المذهبين وهو فارق ليس ذا شأن كبير : ونقل كلوفيس عاصمته إلى باريس وسار إليها مثقلا بالأسرى والعبيد ، والدعوات الصالحات ، ومات فيها بعد أربع سنين فى سن الخامسة

والأربعين . وجاءت الملكة كلوثيلد ، التى كان لمعونتها بعض الفضل فى إنشاء فرنسا الغالية ، « إلى تور بعد موت زوجها ، وأدت الصلاة فى كنيسة القديس مارتن ، وعاشت فى ذلك المكان عفيفة رحيمة طول أيام حياتها »[٥٠] .

٣ — المروفنجيون

٥١١ — ٦١٤

كان كلوفيس يتوق إلى أن يكون له أبناء ذكور ، وقد كان له قبل وفاته أكثر مما كان يحب ، ولهذا قسم مملكته بينهم لكى يتجنب نشوب حرب للوراثة بعد وفاته . فأعطى كلدبرت Childebert الإقليم المحيط بباريس ، وولى كلودمر Chlodemer إقليم أورلين Orleans ، وأعطى كلوتار Chlotar إقليم سواسون Soissons وثيودريك إقليم متز وريمز وواصل الأبناء بهمتهم البربرية السياسة المؤدية إلى توحيد فرنسا عن طريق الفتح ، فاستولوا على ثورنجيا فى عام ٥٣٠ ، وعلى برغندية فى ٥٣٤ ، وعلى پروڤانس فى ٥٣٦ ، وعلى باڤاريا وسوابيا فى ٥٥٥ . وعاش كلوتار بعد أن مات إخوته جميعا فورث ممالكهم ، وكانت غالة تحت حكمه أوسع رقعة من فرنسا فى العهود المستقبلة . وقبيل موته فى عام ٥٦١ قسم غالة مرة أخرى ثلاثة أقسام : إقليم ريمز ومتز المعروف بأستراسيا Austrasia (أى الشرق) وخص به ابنه سجبرت Sigebert ، وبرغندية وأعطاها إلى جنثرام Gunthram ، وأعطى إقليم سواسون المعروف بنوستريا Neustria (أى القسم الثانى الغربى) إلى كلبريك Chilperic .

ولقد كان تاريخ فرنسا منذ زواج كلوفيس إلى وقتنا هذا مزيجاً من الرجولة والأنوثة جامعاً بين الحب والحرب . من ذلك أن سجبرت أرسل هدايا غالية إلى أثاناجلد Athanagild ملك أسبانيا من القوط الغربيين ، وطلب إليه أن يزوجه بابنته برنهلدا Brunhilda ، ووافق أثاناجلد على هذا الزواج لخوفه من الفرنجة

وإن أرسلوا الهدايا ؛ وأقبلت برنهلدا لتزدان بها أبهاء متزوريمز (٥٦٦) . ودب الحسد فى قلب كلبريك ، لأنه لم يكن له إلا زوجة ساذجة تدعى أودوڤيرا Audovera وعشيقة فظة تدعى فردجندا Fredegunda ؛ فطلب إلى أثاناجلد أن يزوجه أخت برنهلدا ؛ وجاءت جلزونثا Galswintha إلى سواسون وأحبها كلبريك لأنها جاءت معها بكنوز عظيمة ، ولكنها كانت أكبر سناً من أختها ؛ فعاد كلبريك إلى أحضان فردجندا . وطلبت جلزونثا أن تعود إلى أسپانيا ؛ فأمر كلبريك بقتلها خنقا (٥٦٧) ، وأعلن سجيبرت الحرب على كلبريك وهزمه ، ولكن فردجندا بعثت إليه بعبدين قتلا سجيبرت ، وقبض على برنهلدا ولكنها استطاعت الفرار وتوجت ابنها الشاب كلدبرت الثانى ، وحكمت البلاد باسمه حكما أظهرت فيه كثيراً من الحزم والكفاية .

ويصف المؤرخون كلبريك كأنه نيرون ذلك الوقت وهيروده ، يصفونه بأنه غليظ القلب ، سفاك للدماء ، شهوانى نهم شره ، فى جمع الذهب . ويفسر جريجورى التورى ، وهو عمدتنا الوحيد فى هذه المعلومات ، تلك الصفات إلى حد ما بأن يصوره كأنه فردريك الثانى فى عصره ، فيقول إن كلبريك كان يسخر من فكرة وجود ثلاثة أشخاص فى إله واحد ، وبتصوير الله كأنه إنسان ، وكان يعقد مع اليهود مناقشات مزرية ، ويحتج على ثروة الكنيسة الطائلة ، وعلى نشاط الأساقفة السياسى ، وألغى الوصايا التى يترك بها الناس ما لهم للكنائس ، وكان يبيع كراسى الأساقفة لمن يؤدى أكثر الأثمان ، وحاول أن يخلع جريجورى نفسه من كرسى تور[٥١] . ويصف الشاعر فرتناتوس هذا الملك نفسه بأنه جماع الفضائل ، فهو حاكم عادل لطيف ، شيشرون زمانه فى الفصاحة ؛ ولكن يجب ألا ننسى أن كلبريك قد أجاز فرتناتوس على شعره .

ومات كلبريك بطعنة خنجر فى عام ٥٨٤ ، وربما كان طاعنه مسلطا عليه من برنهلدا ، وترك وراءه ولداً رضيعاً هو كلوتار الثانى فحكمت فردجندا نستريا

بالنيابة عنه ، بمهارة ، وغدر ، وقسوة لا تقل عن مثيلاتها فى أى رجل من رجال ذلك الوقت . من ذلك أنها جاءت بشاب من رجال الدين ليقتل برنهلدا ، ولما عاد دون أن يؤدى مهمته أمرت بقطع يديه وقدميه . لكن مرجعنا فى هذه الأخبار هو أيضاً جريجورى(٥٣). وكان أعيان أستراسيا فى هذا الوقت لا ينقطعون عن الثورة على برنهلدا المتغطرسة ، يشجعهم على هذا كلوتار الثانى ؛ وكانت تخمد هذه الثورات بقدر ما تستطيع وتستعين على ذلك بالختل والاغتيال ؛ ولكنهم أفلحوا آخر الأمر فى خلعها وهى فى الثمانين من عمرها ، وظلوا يعذبونها ثلاثة أيام كاملة ، ثم ربطوها من شعرها وإحدى يديها وقدميها فى ذيل حصان وضربوه بالسياط (٦١٤) . وورث كلوتار الثانى الممالك الثلاث وتوحدت مرة أخرى دولة الفرنجة .

وقد يحملنا هذا السجل الملطخ بالدماء على أن نبالغ فى الهمجية التى كانت تخيم على غالة ولما يكد يمضى على موت سيدونيوس المتحضر المثقف قرن من الزمان ، ولكن الناس لا بد لهم أن يجدوا وسيلة يستخدمونها إذا أعوزتهم الانتخابات . ولقد أفسد خلفاء كلوفيس ما بذله من جهود لتوحيد البلاد كما فعل خلفاء شارلمان بملكه بعده . على أن أقل ما يقال فى هذا الثناء على هذا العهد أن الحكومة قد ظلت تؤدى واجباتها ، وأن غالة لم تكن كلها تطيق وحشية ملوكها وتعدد زوجاتهم ، وأن ما يبدو من استبداد الملوك كان محدداً بقوة النبلاء الذين يحسدونهم على سلطتهم ، وكان الملك يكافئهم على ما يؤدون له من خدمات فى الإدارة والحرب بأن يهبهم ضياعاً يكادون يكونون فيها سادة مستقلين ؛ وفى هذه الأملاك الواسعة بدأ نظام الإقطاع الذى حارب الملكية الفرنسية ألف عام . وكثر أرقاء الأرض ، وبدأ الاسترقاق يحيا مرة أخرى بسبب الحروب الجديدة ، وانتقلت الصناعات من المدن إلى بيوت الريف ، فضاقت رقعة المدن ، وخضعت لسيطرة السادة الإقطاعيين ؛ وكانت التجارة لا تزال

نشيطة ، ولكنها كان يقف فى سبيلها عدم ثبات النقد ، وكثرة اللصوص وقطّاع الطرق ، وارتفاع الضرائب الإقطاعيـــة . وكان القحط والوباء يحاربان بنجاح غريزة التكاثر الآدمية .

وتزوّج زعماء الفرنجة بمن بقى من نساء طبقة أعضاء الشيوخ الغاليين — الرومان ، ونشأ من هذا التزاوج أشراف فرنسا . وكانوا فى ذلك الوقت أشرافاً يتصفون بالقوة ، يحبون الحرب ، ويحتقرون الآداب ، ويتباهون بلحاهم الطويلة ، وأثوابهم الحريرية ، وكثرة من يتزوجون من النساء . ولسنا نجد فى التاريخ طبقة عليا لا تعبأ بالمبادئ الأخلاقية كما لم تعبأ بها هذه الطبقة ؛ ولم يكن لاعتناقها المسيحية أثر فيها على الإطلاق ، فقد بدت المسيحية لهم كأنها مجرد وسيلة كثيرة النفقة للحكم وتهدئة الشعب ؛ ولما « انتصرت البربرية وانتصر الدين » كانت البربرية صاحبة الكلمة العليا مدى خمسة قرون . وكان الاغتيال ، وقتل الآباء ، والإخوة ، والتعذيب ، وبتر الأعضاء ، والغدر ، والزنى ، ومضاجعة المحارم ؛ كان هذا كله هو الوسيلة التى يخففون بها ملل الحكم . فقد قيل إن كلبريك أمر بأن يكوى كل مفصل من مفاصل سجيلا Sigila القوطى بالحديد المحمى ، وأن ينزع كل عضو من أعضائه من موضعه(٥٤) ، وكان لكاريبرت Charibert عشيقتان أختان وإحداهما راهبة ، وجمع دجوبرت Dagobert (٦٢٨ — ٦٣٩) بين ثلاث زوجات فى وقت واحد . وربما كان الإفراط الجنسى هو السبب فيما أصاب المروفنجيين من عقم منقطع النظير : ومن أمثلة هذا العقم أن واحداً لا أكثر من أبناء كلوفيس الأربعة وهو كلوتار كان له أبناء ، وأن واحداً من أبناء كلوتار الأربعة كان له طفل . وكان الملوك يتزوجون فى الخامسة عشرة من عمرهم ويفقدون قوّتهم متى بلغوا سن الثلاثين ، ومات كثيرون منهم قبل الثامنة والعشرين(٥٥) . ولم يحل عام ٦١٤ حتى كان بيت المروفنجيين قد استنفد جميع حيويته وتأهب لأن يخلى مكانه لغيره .

وفى غمار هذه الفوضى لم يكد يكون للتعليم وجود ، فلم يحل عام ٦٠٠ حتى كانت معرفة القراءة والكتابة ترفاً لا يتمتع به إلا رجال الدين ، أما العلوم الطبيعية فقد امحت أو كادت . وبقى الطب ، لأننا نسمع عن وجود أطباء فى حاشية الملوك ، أما بين الشعب فقد كان السحر والصلاة فى نظرهم خيراً من الدواء . وقد ندد جريجورى أسقف تور (٥٣٨ ؟ — ٥٩٤) بمن يستخدمون الأدوية بدل الصلوات فى علاج المرضى ، وقال : إن هذا إثم يعذبهم عليه الله . ولما مرض هو أرسل يدعو إليه طبيباً ، ولكنه سرعان ما صرفه لأنه لم ينفعه بشىء ، ثم شرب قدحا من الماء ممزوجاً بتراب جىء به من قبر القديس مارتن شفى على أثره شفاء تاما[٥٦] . وكان جريجورى هذا أشهر كتاب النثر فى أيامه ، وكان يعرف كثيرين من الملوك المروفنجيين معرفة شخصية ، وكثيرا ما كانوا يستخدمونه فى بعثات لهم . وقد روى فى كتابه تاريخ الفرنجة قصة العصر المروفنجى المتأخر بطريقة فجة ، مضطربة قائمة على الهوى والخرافة ، ولكنه روى هذه القصة بأسلوب واضح ، وكانت حوادثها مما شاهده بنفسه ، ولغته اللاتينية فاسدة ، قوية ، خالية من الالتواء . وهو يعتذر عن أغلاطه النحوية ، ويرجو ألا يعاقبه الله فى يوم الحساب على ما ارتكبه من إثم بسبب هذه الأخطاء[٥٧] . وهو يؤمن بالمعجزات وخوارق العادات ، ويتصورها تصور الطفل الذى لا يخالجه فيها أدنى ريب أو يؤمن بها إيمان الأسقف الحصيف الماكر اللطيف ويقول : « وسنمزج فى قصتنا معجزات القديسين بمذابح الأمم »[٥٨] . ثم يمضى فيؤكد أن الأفاعى سقطت من السماء فى عام ٥٨٧ ، وأن قرية قد اختفت فجأة بجميع مبانيها وسكانها[٥٩] . وهو يشهر بكل شىء فى أى إنسان لا يؤمن بالله أو يعمل ما يضر بالكنيسة ، ولكنه يقبل ما يرتكبه أبناء الكنيسة المؤمنون من أعمال وحشية ، وغدر ، وخيانة ، وفساد خلقى ، ولا يجد فى هذا ما تشمئز منه

نفسه . وهو صريح فى تحيزه وعدم نزاهته ، ومن اليسير علينا أن نتغاضى عن بعض عيوبه ، والصورة الأخيرة التى لا تنطبع فى ذهننا عنه هى أنه رجل ساذج محبوب .

وأصبحت آداب غالة بعده تغلب عليها الصبغة الدينية فى موضوعاتها ، والصبغة البربرية فى لغتها وأسلوبها إلا فى حالة واحدة دون غيرها ، تلك هى كتابات ڤنانتيوس فرتناتوس Vanantius Fortunatus (حوالى ٥٣٠ — ٦١٠) البليغة . وقد ولد هذا الكاتب فى إيطاليا ، وتعلم فى راڤنا ، ثم انتقل إلى غالة فى الثلاثين من عمره ، وكتب يمدح أساقفتها وملكاتها ، وأحب ردجندا زوجة كلوتار الأول حباً عذرياً أفلاطونياً . ولما أنشأت هى ديراً صار فرتناتوس قسيساً ، ودخل فى خدمتها ، وما زال يرقى فى الدرجات الكهنوتية حتى أصبح أسقف پواتييه ؛ وكتب قصائد جميلة يمدح بها الأحبار ، والقديسين ، منها تسع وعشرون قصيدة فى مدح جريجورى التورى وحده ؛ ثم كتب ترجمة شعرية للقديس مارتن . وكان أحسن ما كتبه بعض ترانيم حلوة النغم منها واحدة تدعى Pange lingua أوحت إلى تومس أكويناس بقصيدة تشبهها فى موضوعها وتعلو عليها فى أسلوبها ؛ ومنها قصيدة أخرى تدعى Vexilla regis أصبحت هى الجزء الأخير من القداس الكاثوليكى . وقد برع فى مزج الإحساس القوى بالشعر البليغ ، وإذا ما قرأنا أبياته الدائمة الجدة ، اللطيفة الأسلوب ، تبينا ما كان ينطوى عليه قلبه من رحمة ، وإخلاص ، وعواطف رقيقة وسط ما كان يتصف به عصر المروڤنجيين من وحشية وجرائم يرتكبها الملوك .

الفصل الثالث

أسبانيا تحت حكم القوط الغربيين

٤٥٦ — ٧١١

سبق القول إن القوط الغربيين حكام غالة استردوا أسبانيا من الوندال فى عام ٤٢٠ ، وعادوا بعدئذ إلى رومة ، ولكن رومة كانت عاجزة عن حماية أسبانيا ، ولهذا فإن السويڤى Suevi خرجوا من معاقلهم فى التلال الواقعة فى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة واجتاحوها كلها ، فانقض عليها القوط الغربيون مرة أخرى بقيادة ثيودريك الثانى (٤٥٦) وأوريك (٤٦٦) بعد أن عبروا جبال البرانس ، وفتحوا معظم أسبانيا واحتفظوا بالبلاد فى هذه المرة وضموها إلى أملاكهم ، وحكمت أسبانيا من ذلك الوقت أسرة من القوط الغربيين وظلت على عرشها حتى جاءها المسلمون .

وأنشأت الملكية الجديدة ، فى بلدة طيطلة عاصمة فخمة ، وجمعت فيها حاشية موفورة الثراء . وكان أثاناجلد Athanagild (٥٦٣ — ٥٦٧) وليوڤيجلد Leovigild (٥٦٨ — ٥٨٦) ملكين قويين ، هزما الغزاة الفرنجة فى الشمال وجيوش بيزنطية فى الجنوب ؛ وكانت ثروة أثاناجلد هى التى أكسبت ابنتيه ميزة فذة هى أنهما قتلتا وهما ملكتان لملكين من الفرنجة . وحدث فى عام ٥٨٩ أن غير ريكارد Recared مذهبه ومذهب الكثرة الغالبة من القوط الغربيين فى أسبانيا من الأريوسية إلى المسيحية الأصيلة . ولعل سبب هذا التغيير أنه قرأ من قبل تاريخ ألريك الثانى . ومن ذلك الحين أصبح الأساقفة أكبر المؤيدين للملكية وأقوى سلطة فى الدولة ؛ فقد سيطروا بفضل تفوقهم فى العلم ودقة النظام على

الأشراف الذين كانوا يجتمعون معهم فى مجالس الحكم فى طليطلة ؛ ومع أن سلطة الملك كانت سلطة مطلقة من الوجهة النظرية ، ومع أنه كان هو الذى يختار الأساقفة ، فإن هذه المجالس كانت هى التى تختاره ، وتأخذ عليه قبل أن يباشر الحكم المواثيق بشأن السياسة التى تريد منه أن يتبعها ، ووضعت بإرشاد رجال الدين طائفة من القوانين (٦٣٤) ، كانت أوفى جميع شرائع البرابرة وأقلها تسامحاً . وقد أصلحت من شأن الإجراءات القضائية بأن عمدت إلى تقدير شهادة الشهود فى تقدير أخلاق المتهمين بدل شهادات الأصدقاء ، وطبقت قوانين واحدة على الرومان والقوط الغربيين ، فوضعت بذلك مبدأ المساواة أمام القانون(٦٠). ولكنها لم تأخذ بمبدأ حرية العبادة ، وحتمت على جميع السكان أن يعتنقوا المسيحية الصحيحة ، وأقرت اضطهاد يهود أسبانيا الذى دام طويلا ، وارتكبت فيه أشد ضروب القسوة .

ونسى القوط الغربيون قبل أن ينقضى قرن على فتحهم أسبانيا لغتهم الألمانية بتأثير نفوذ الكنيسة التى ظلت تستخدم اللغة اللاتينية فى مواعظها وطقوسها الدينية ، وأفسدوا اللاتينية المستعملة فى شبه الجزيرة بأن أدخلوا عليها قوة الرجولة والجمال النسوى اللذين تمتاز بهما اللغة الأسبانية الحاضرة ، وكانت المدارس الملحقة بالأديرة والأسقفيات هى التى تقوم بالتعليم ، وكان معظمه تعليما كنسياً ، ولكنه كان يشمل شيئاً من دراسة الكتب القديمة ، وأنشئت مجامع علمية فى بقلارا Vaclara وطليطلة ، وسرقسطة ، وأشبيلية . وكان الشعر يلقى تشجيعاً كبيراً ، أما التمثيل فكان يقاوم لما فيه من فحش وبذاءة .

ولم يحفظ التاريخ من أسماء الأدباء فى أسبانيا القوطية إلا اسم إزدور Isidore الأشبيلى (حوالى ٥٦٠ — ٦٣٦) . وتروى إحدى الأقاصيص الطريفة كيف هرب غلام أسبانى من بيته غضبا من تأنيبه من أجل كسله ، وأخذ يطوف بالبلاد حتى أنهكه التعب ، فجلس إلى جانب بئر . فاستلفت نظره شق عميق فى

حجر مجاور لحافة البئر . ومرت به فى ذلك الوقت فتاة فقالت له إن هذا الشق من أثر احتكاك الحبل الذى ينزل الدلو فى البئر ويرفعها . فلما سمعها إزدور قال فى نفسه : « إذ كان فى إستطاعة هذا الحبل اللين بدأ به على العمل فى كل يوم أن يشق الحجر ، فما من شك فى أن المثابرة يمكن أن تتغلب على بلادة عقلى » . ثم عاد من فوره إلى بيت أبيه وواصل الدرس حتى أصبح أسقف أشبيلية المتبحر فى العلم(٦١) . ولسنا نعلم إلا القليل عن حياته ، وكل ما نستطيع أن نقوله إنه وجد بين مشاغله الدينية الكثيرة ، التى كان يقوم بها بما يرضى ضميره ، متسعا من الوقت يكتب فيه ستة كتب . ولعله أراد أن يعين ذاكرته فجمع فى خلال عدد كبير من السنين فقرات مختلفة فى جميع الموضوعات نقلها من كتب المؤلفين الوثنيين والمسيحيين واستحثه صديقه بروليو Broulio أسقف سرقسطة على أن ينشر هذه المختارات ، فأجابه إلى طلبه ، وحورها حتى أضحت من أقوى كتب العصور الوسطى أثراً وسماها « عشرون كتابا فى الإشتقاقات والأصول » ويضمها الآن مجلد ضخم يحتوى على ٩٠٠ صفحة من القطع الكبير . وهو موسوعة علمية ولكنها غير مرتبة على الحروف الهجائية ؛ وتبحث على التوالى فى المجموعة الثلاثية من العلوم القديمة وهى النحو ، والبلاغة ، والمنطق ؛ ثم فى الحساب ، والهندسة ، والموسيقى ، والفلك وهى المجموعة الرباعية عند الأقدمين ؛ ثم تبحث فى الطب ، والقانون ، والتواريخ ، والدين ، والتشريح ، ووظائف الأعضاء ، وعلم الحيوان ، وعلم الكون ، والجغرافية الطبيعية ، والهندسة المعمارية ، والمساحة ، والتعدين ، والزراعة والحرب ، والألعاب الرياضية ، والسفن ، والملابس ، والأثاث ، والأدوات المنزلية ، ... وكلما انتقل المؤلف إلى موضوع من هذه الموضوعات عرف مصطلحاته الأساسية ، وبحث عن منشأها . مثال ذلك أنه يقول إن الإنسان يسمى باللاتينية (هومو Homo) لأن الله قد خلقه من التراب (هومس Humus) ، والركبتان تسميان genus ، لأنهما يكونان مقابل الجدين genae) فى الجنين(٦٢) . وكان إزدور

عالماً مجداً وإن لم يعن بالتفرقة بين موضوعات درسه ؛ وكان واسع الاطلاع على اللغة اليونانية ، يعرف الكثير من كتابات لكريتيوس Lukretius (وهو الذى لا يذكر إلا فى العصور الوسطى) ، وقد حفظ لنا قطعاً مختارة من فقرات كثيرة من الآداب الوثنية لولاه لضاعت عن آخرها . وبحوثه خليط من الاشتقاق الغريب ، والمعجزات التى لا يقبلها عقل ، ومن تفسيرات مجازية خيالية للكتاب المقدس ؛ ومن العلوم الطبيعية والتاريخ حورت لكى تثبت مبادئ أخلاقية ، وأخطاء فى الحقائق يكفى القليل من الملاحظة لتصحيحها . وكتابه هذا أثر خالد يدل على ما كان فاشياً فى هذا العهد من جهالة .

ولا يكاد يبقى شىء من الفنون التى كانت فى أسبانيا فى عهد القوط الغربيين . ويلوح أن طليطلة ، وإيطالكا ، وقرطبة ، وغرناطة ، ومديرا وغيرها من المدن كانت تحتوى على كنائس ، وقصور ، ومبان عامة جميلة المنظر ، أقيمت على الطرز القديمة ، ولكنها ميزت عنها بالرموز المسيحية ، والنقوش البيزنطية[٦٣] . ويقول المؤرخون المسلمون إن العرب الفاتحين وجدوا فى قصور طليطلة وكنيستها الكبيرة خمسة وعشرين تاجاً من الذهب المرصع بالجواهر ، وكتاباً مزخرفاً للتراتيل الدينية مكتوباً على ورقة من الذهب بمداد مصنوع من الياقوت المصهور ، وأقمشة منسوجة بخيوط من الذهب والفضة ، ودروعاً ، وسيوفاً ، وخناجر مرصعة بالجواهر ، ومزهريات مملوءة بها ، ومنضدة من الزمرد مطعمة بالفضة والذهب — وكانت هذه المنضدة إحدى الهدايا الكثيرة الغالية التى أهداها أغنياء الغربيين إلى كنيستهم التى تحميهم وترد الأذى عنهم .

وظل استغلال الأقوياء والمهرة للبائسين والسذج يجرى مجراه فى عهد القوط الغربيين كما كان يجرى فى عهد سائر الحكومات القديمة . فكان الأمراء والأحبار يجتمعون فى حفلات دينية أو دنيوية فخمة ، ويضعون قواعد للتحليل والتحريم ، ويدبرون وسائل للإرهاب والرعب ليتغلبوا بذلك كله على مشاعر

الجماهير ويهدئوا أفكارهم . وتركزت الثروة فى أيدى عدد قليل من الأفراد ، وكانت الثغرة الواسعة التى تفصل الأغنياء عن الفقراء ، والمسيحيين عن اليهود تقسم الأمة ثلاث دول مختلفة ؛ فلما أن جاء العرب لم يبال الفقراء واليهود بسقوط دولة ملكية وكنيسة لم تظهرا شيئاً من الاهتمام بفقرهم وسامتهم كثيراً من أنواع الاضطهاد الدينى .

ولما مات وتيزا Witiza ملك أسبانيا الضعيف فى عام ٧٠٨ لم يقبل الأشراف أن يخلفه على العرش أحد من أبنائه ، بل أجلسوا عليه ردريك (لزريق) Roderick ، ففر أبناء وتيزا إلى أفريقية ، واستغاثوا بزعماء المسلمين . وقام المسلمون ببضع غارات تمهيدية على السواحل الأسبانية ، عرفوا بها أن أسبانيا منقسمة على نفسها ، وأنها تكاد تكون مجردة من وسائل الدفاع ، فجاءوا إليها فى عام ٧١١ بقوة أكبر من قوتهم السابقة . والتقت جيوش طارق ولزريق فى معركة على سواحل بحيرة يندا Janda فى ولاية قادس ، انضمت فيها قوة من القوط إلى العرب ؛ واختفى لزريق من المعركة . وتقدم المسلمون المنتصرون إلى أشبيلية ، وقرطبة ، وطليطلة ؛ وفتحت كثير من المدائن الأسبانية أبوابها للغزاة . وأقام قائد العرب موسى ابن نصير فى العاصمة الأسبانية (٧١٣) ، وأعلن أن أسبانيا أصبحت من ذلك الوقت ملكا للمسلمين وللخليفة الأموى فى دمشق .

الفصل الخامس

إيطاليا تحت حكم القوط الشرقيين ٤٩٣ – ٥٣٦

١ – ثيودريك

لما تصدعت أركان مملكة أتلا بعد وفاته فى عام ٤٥٣ استعاد القوط الشرقيون استقلالهم ، وكان قد أخضعهم من قبل لحكمه . وكان البيزنطيون يرشونهم ليصدوا غيرهم من البرابرة الألمان نحو الغرب ، وكافئوهم على عملهم هذا بأن أقطعوهم ولاية پنونيا ، وأخذوا ثيودريك ابن ملكهم ثيودمير – ولم يكن قد جاوز السابعة من عمره – رهينة فى أيديهم إلى القسطنطينية ليضمنوا بذلك ولاء القوط الشرقيين لهم . وقضى ثيودريك فى بلاط إمبراطور القسطنطينية أحد عشر عاماً اكتسب فيها فطنة وذكاء ، وإن لم يتلق فيها تعليما ؛ وحذق فنون الحرب والحكم ، ولكن يبدو أنه لم يتعلم قط الكتابة[٦٤] ؛ وأعجب به الإمبراطور ليو الأول ، فلما مات ثيودمير (٤٧٣) ، اعترف ليو بثيودريك ملكاً على القوط الشرقيين .

وخشى زينون الذى خلف ليو على عرش الإمبراطورية الشرقية أن يسبب ثيودريك المتاعب لبيزنطية ، فأشار عليه أن يفتح إيطاليا . وكان أدوكر قد اعترف اسمياً بخضوعه للإمبراطور الشرقى ولكنه كان يتجاهله فعلا ، وكان زينون يأمل أن يعيد ثيودريك إيطاليا إلى حكم بيزنطية ؛ وسواء تم هذا أو لم يتم فإن زعيمى القبائل الألمانية الخطرة سيسلى أحدهما الآخر ويتركان زينون يدرس الدين على مهل . وأعجب ثيودريك بهذه الفكرة – ويقول بعضهم إنه هو صاحبها . وقاد ثيودريك القوط الشرقيين بوصفه وزير زينون ، وكان تحت لوائه عشرون ألف محارب ،

وعبر بهم جبال الألب (٤٨٨) . وعاون أساقفة إيطاليا القائد الأريوسى وإن كانوا هم من أتباع الدين الصحيح لأنهم كانوا يكرهون أريوسية أدوكر ، ولأن ثيودريك فى رأيهم يمثل إمبراطوراً يكاد يكون من أتباع الدين القويم . وبفضل هذه المساعدة استطاع ثيودريك أن يحطم مقاومة أدوكر الشديدة بعد حرب طاحنة دامت خمس سنين ، وأقنعه على أن يعقد معه صلحاً ينزل فيها كلاهما عن مطالبه . ثم دعا أدوكر وابنه إلى الطعام معه فى راڤنا ، وبعد أن أكرم وفادتهما قتلهما بيده (٤٩٣) . وبهذا الغدر بدأ عهد من أكثر العهود استنارة فى التاريخ .

وكانت بضع حملات عسكرية كافية لأن تخضع لحكم ثيودريك غربى البلقان ، وجنوبى إيطاليا ، وصقلية . وظل ثيودريك خاضعاً خضوعاً اسمياً إلى بيزنطية ، وضرب النقود باسم الإمبراطور ، وكان يكتب الرسائل إلى مجلس الشيوخ ، الذى ظل يعقد جلساته فى رومة ، بما يليق به من التوقير واتخذ لنفسه لقب ركس rex أى الملك . وكان هذا اللفظ فى الزمن القديم من أبغض الألفاظ إلى الرومان ، ولكنه كان وقتئذ لقباً عاماً لحكام الأقاليم التى تعترف بسيادة بيزنطية عليها . وقبل قوانين الإمبراطورية الغربية التى زالت من الوجود ونظمها ، وحرص أشد الحرص على الدفاع عن آثارها وأشكالها ، ووهب كل ما أوتى من جد ونشاط لإعادة الحكم المنظم إلى البلاد والرخاء الاقتصادى إلى الشعب الذى أخضعه لحكمه . وقصر عمل القوط الذين جاءوا معه على وظائف الشرطة والخدمة العسكرية ، وسكن تذمرهم بما كان يؤديه لهم من الأجور العالية . أما مناصب الإدارة والقضاء فقد ظلت فى أيدى الرومان ، وترك ثلثى أرض إيطاليا الزراعية للرومان أنفسهم ووزع الثلث الباقى على القوط ، ومع هذا فقد بقيت بعض الأراضى الصالحة للزراعة فى إيطاليا من غير أن تفلح . وافتدى ثيودريك الرومان الذين وقعوا فى أسر الأمم الأخرى ، وأسكنهم إيطاليا ، وأقطعهم فيها أرضاً يزرعونها ؛

وجفف المستنقعات البنتية ، وأعادها أرضاً صالحة للزراعة غير مضرة بالصحة . وكان ثيودريك يؤمن بضرورة تنظيم الحالة الاقتصادية وإخضاعها لسيطرة الحكومة ، فأصدر « مرسوماً خاصاً بالأثمان التي يجب أن تكون في رافنا » . ولسنا نعرف كيف كانت هذه الأثمان ، وكل ما يقال لنا هو أن نفقات الطعام في حكم ثيودريك كانت أقل مما كانت عليه قبل بمقدار ثلثها . وأنقص عدد موظفي الحكومة ومرتباتهم ، ومنع الإعانات التي كانت تعطى للكنيسة ، وخفض الضرائب . ومع هذا فقد كانت إيرادات الدولة تكفي لإصلاح كثير من الضرر الذي ألحقه الغزاة بروما وإيطاليا ، ولإقامة قصر متواضع في رافنا وكنيستي سنتا أبليناري Sant' Appollinare وسان ڤيتال San Vitale . وفي أيامه استعادت ڤيرونا ، وپاڤيا ، ونابلي ، واسپوليتو Spoleto وغيرها من مدن إيطاليا ما كان بها في أيام عزها من مبان فخمة . وبسط ثيودريك حمايته على الكنائس التابعة للمذهب الأصيل من حيث أملاكها وحرية العبادة فيها وإن كان هو من أتباع المذهب الأريوسي ؛ وصاغ وزيره كسيودوروس Cassiodorus الكاثوليكي المذهب سياسة الحرية الدينية في تلك العبارة الخالدة ! « ليس في مقدورنا أن نسيطر على الدين ، لأنا لا نستطيع أن نرغم أحداً على أن يؤمن بما لا يريد أن يؤمن به »(*)(٦٦) . وكتب مؤرخ بيزنطي يدعى پروكپيوس Procopius من مؤرخي الجيل التالي يثني على الملك « البربري » ثناء ليس فيه شيء من المحاباة فقال :

لقد كان ثيودور شديد الحرص على مراعاة العدالة . . . وبلغ أعلى درجات الحكمة والرجولة . . . . ومع أنه كان من الناحية الاسمية مغتصباً للملك ، فقد كان في واقع الأمر إمبراطوراً بحق ، لا يقل في ذلك عن أي إمبراطور ممن ميزوا أنفسهم في هذا المنصب الخطير منذ بداية التاريخ . وكان القوط والرومان جميعاً

(*) يذكرنا هذا بقول الله عز وجل يخاطب نبيه الكريم : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » . (المترجم)

يحبونه أعظم الحب . . . ولم يكن كل ما تركه قبل وفاته هو الرعب الذى قذفه فى قلوب أعدائه ، بل إنه ترك فوق ذلك فى قلوب رعاياه شعوراً قوياً بالخسارة والحرمان(٦٧) .

٢ — بؤيثيوس

وفى هذه البيئة التى عمها السلم والأمن بلغ الأدب اللاتينى آخر مرحلة من مراحل الرقى والازدهار . ومن أشهر أدباء ذلك العصر فلاڤيوش ماجنوس أورليوس كسيودورس Flavius Magnus Aurelius Cassiodorus (٤٨٠ ؟ — ٥٧٣) الذى كان أمين سر أدوكر وثيودريك . وقد ألَّف ، بناء على إشارة ثيودريك ، *تاريخ القوط*(٦٨) . وكان يهدف إلى أن يظهر للرومان المتشامخين أن للقوط أيضاً أبناء نبلاء وأعمالا مجيدة . ولعل أكثر من هذا موضوعية تاريخه الإخبارى الذى أرّخ فيه العالم كله من آدم إلى ثيودريك ، ونشر فى أواخر حياته السياسية مجموعة من رسائله وأوراقه المتعلقة بشئون الدولة ، بعضها سخيف بعض السخف ، وبعضها كثير المبالغة والتباهى ، وبعضها يكشف عن مستوى أخلاقى رفيع ومقدرة إدارية عظيمة كان يتصف بهما الوزير ومليكه . ولما شهد فى عام ٥٤٠ اضمحلال الحكومة التى خدمها ثم سقوطها اعتزل منصبه وآوى إلى ضيعته فى اسكويلاس Squillace بكلبريا Calabria ، وأنشأ هناك ديرين ، وعاش فيها عيشة وسطاً بين عيشة الرهبان والعظماء حتى وافته المنية فى سن الثالثة والتسعين . وقد علم زملاءه الرهبان أن ينسخوا المخطوطات ، الوثنية منها والمسيحية ، وأعد لهذا العمل حجرة خاصة . وحذت بعض المعاهد الدينية الأخرى حذوه ، ولهذا فإن كثيراً مما لدينا من الكنوز الحديثة المنقولة عن الأدب القديم هو ثمرة من ثمار أعمال النسخ التى تمت فى الأديرة ، والتى بدأها كسيودورس وزملاؤه الرهبان . وألّف فى أواخر سنى حياته كتاباً مدرسيا سماه : *منهجا فى*

الديو والدراسات غير الدينية دافع فيه دفاعاً جريئاً عن قراءة الآداب الوثنية ، واتبع فيه منهج الدراسة المدرسي الذي وضعه مريانوس كاپلا Marianus Capella والذي قسم فيه العلوم إلى مجموعتين : المجموعة الثلاثية والمجموعة الرباعية ، وهو التقسيم الذي ظل متبعاً في التعليم طوال العصور الوسطى .

وكانت حياة أنيسيوس مانليوس سفرينوس بوئيثيوس Anicius Manlius Severinus Boethius (٤٧٥ ؟ — ٥٣٤) شبيهة بحياة كسيودورس في كل شيء إلا في قصر مدتها . فكلاهما من أبناء الأسر الرومانية الغنية ، وكلاهما كان وزيراً لثيودريك ، وكلاهما بذل جهداً كبيراً لسد الثغرة التي تفصل الوثنية عن المسيحية ، وكتب كتباً مملة ظلت ألف عام تقرأ وتعدّ من الذخائر القيمة . وكان والد بوئيثيوس قنصلا في عام ٤٨٣ ، وكان والد زوجته سياخوس الأصغر من نسل سياخوس الذي دافع عن مذبح الحرية . وتعلّم أحسن تعليم تستطيع رومة أن تقدمه لأبنائها ، ثم قضى بعدئذ ثمانية عشر عاماً في مدارس أثينة عاد بعدها إلى قصوره الريفية في إيطاليا ، وانهمك في الدرس ، واعتزم أن ينقذ عناصر الثقافة اليونانية واللاتينية القديمة التي رآها آخذة في الزوال ، فوهب وقته كله — وهو أكبر ما يعتز به العالم المجد — في تلخيص كتب إقليدس في الهندسة النظرية ونقوماخوس في الحساب ، وأرخميديز في علم الحيل (الميكانيكا) وبطليموس في الفلك . . . وكانت ترجمته لرسالة أرسطو في المنطق (Organon) وكتاب برفيرى Porhyry المعروف باسم *مقدمة لمقولات أرسطو* هي التي استمد منها علم المنطق في السبعة القرون التالية أهم نصوصه وأفكاره ، وهي التي مهدت السبيل للجدل الطويل بين الواقعية والاعتبارية . وحاول بوئيثيوس أن يكتب أيضاً في اللاهوت : فألّف رسالة في التثليث دافع فيها عن النظرية المسيحية السائدة ، ووضع المبدأ القائل إنه إذا اختلف الدين والعقل وجب اتباع الدين . وليس في

هذه المؤلفات كلها ما هو خليق بالقراءة فى هذه الأيام ، ولكننا مهما أطنبنا فى وصف آثارها فى التفكير فى العصور الوسطى فإنا لا يمكن أن نتهم بالمبالغة فى هذا الوصف .

وأوحت إليه تقاليد أسرته أن يتنحى عن هذه الأعمال المغلقة على الأفهام ، وأن ينزل إلى خضم الحياة السياسية . وارتقى فى هذه الحياة رقيا سريعاً ، فكان قنصلا ، ثم وزيراً ، ثم سيد المناصب — أى رئيس الوزراء (٥٢٢) . وامتاز فى هذه المناصب كلها بحبه للإنسانية وبفصاحته ، وكان الناس يشبهونه بدمستين وشيشرون . لكن العظمة تخلق للعظيم أعداء ، فقد ساء الموظفين القوط فى بلاط الملك ما رأوه من عطفه على السكان الرومان والكاثوليك ، وأثاروا شكوك الملوك فيه ، وكان ثيودريك وقتئذ فى التاسعة والستين من عمره ، ضعيف الجسم والعقل لا يدرى كيف ينقل إلى خليفته حكما مستقراً تتولاه أسرة قوطية أريوسية على أمة تسعة أعشارها من الرومان ، وثمانية أعشارها كاثوليك . وكان لديه من الأسباب ما يحمله على الاعتقاد بأن الكنيسة والأشراف يناصبانه العداء ، وأنهما يترقبان موته بفارغ الصبر . وكان مما قوى هذه الشكوك أن جستنيان نائب الإمبراطور فى بيزنطية أصدر مرسوماً يقضى بنفى جميع المانيين من الإمبراطورية ، وتحريم جميع المناصب المدنيـــة والعسكرية على جميع الوثنيين والمارقين — بما فيهم جميع الأريوسيين ما عدا القوط . وظن ثيودريك أن هذا الاستثناء لا يقصد به إلا إضعاف حجته ، وأن جستنيان سيرجع فيه عند أول فرصة ، ورأى أن هذا المرسوم جزاء غير عادل للحريات التى منحها أتباع العقيدة الكنسية الأصيلة فى الغرب . ألم يرفع إلى أعلى مناصب الدولة بؤيثيوس الذى كتب رسالة عن التثليث يعارض فيها العقيدة الأريوسية ؟ وفى تلك السنة نفسها سنة ٥٢٣ أهدى إلى كنيسة القديس بطرس مائلتين فخمتين من الفضة المصمتة دليلا على مجاملته للبابا . لكنه مع هذا قد أغضب طائفة كبيرة من

السكان بحمايته لليهود ، ذلك أنه حين دمر الغوغاء معابدهم فى ميلان ، وجنوى ، وروما أعاد بناءها من الأموال العامة :

وفى هذه الظروف تراءى إلى ثيودريك أن مجلس الشيوخ يأتمر به ليخلعه . وقيل له إن زعيم المؤامرة هو ألبينوس Albinus رئيس مجلس الشيوخ وصديق بوئيثيوس . فما كان من العالم الكريم إلا أن أسرع إلى ثيودريك وأكد له براءة ألبينوس وقال له : « إذا كان ألبينوس مذنباً فإنى أنا ومجلس الشيوخ كله لا تقل عنه جرما » . وقام ثلاثة رجال ذوى سمعة سيئة يتهمون بوئيثيوس بالاشتراك فى المؤامرة ، وقدموا وثيقة عليها توقيع بوئيثيوس ، موجهة إلى إمبراطور بيزنطية تدعوه إلى فتح إيطاليا . وأنكر بوئيثيوس هذه التهم كلها ، وقال إن الوثيقة مزورة ، لكنه اعترف فيما بعد بأنه : « لو كان هناك أمل فى أن يوصلنا ذلك إلى الحرية لما ترددت فيه ، ولو أننى عرفت أن هناك مؤامرة على الملك . . . لما عرفتم نبأها منى »(٧٠) . فلما قال هذا قبض عليه (٥٢٣) .

وسعى ثيودريك لأن يتفاهم مع الإمبراطور ، وكتب إلى جستين رسالة خليقة بالملك الفيلسوف قال فيها :

« إن من يدعى لنفسه حق السيطرة على الضمائر يغتصب حق الله وحده على عباده ، أما سلطان الملوك فهو بطبيعة الأشياء مقصور على الحكومة السياسية ، وليس من حقهم أن يعاقبوا إنساناً إلا إذا عكر صفو السلم العام . وليس ثمة أشد خطورة من مروق الملك الذى يفصل نفسه عن قسم من رعاياه لأنهم لا يؤمنون بما يؤمن هو به »(٧١) .

ورد عليه جستين بقوله : إن من حقه أن يحرم من مناصب الدولة من لا يثق بولائهم له ، وإن نظام المجتمع يتطلب وحدة العقيدة . وطلب الأريوسيون فى الشرق إلى ثيودريك أن يحميهم ، فطلب إلى البابا يوحنا الأول أن يسافر إلى القسطنطينية ليتوسط لدى الإمبراطور فى أمر الأريوسيين

المفصولين من وظائفهم . ورد عليه البابا بأن هذه رسالة لا تليق برجل أخذ على نفسه أن يقضى على الزيغ والضلال ، ولكن ثيودريك أصر على طلبه . وقوبل يوحنا فى القسطنطينية بحفاوة بالغة ، ثم عاد صفر اليدين ، فاتهمه ثيودريك بالخيانة ، وألقاه فى السجن ، حيث مات بعد سنة واحدة[٧٢] .

وفى هذه الأثناء كان ألبينوس وبوئيثيوس قد حوكما أمام الملك وأدينا وحكم عليهما بالإعدام . وروع هذا الحكم مجلس الشيوخ فأصدر مراسيم يتبرأ فيها منهما ويصادر أملاكهما ، ويقر العقوبة التى حكم بها عليهما . وقام سيماخورس يدافع عن زوج ابنته فاعتقل . وألف بوئيثيوس وهو فى السجن كتاباً من أشهر ما ألف من الكتب فى العصور الوسطى وهو كتاب *سلوى الفلاسفة* Consolatione Pphilosopniae ، وجمع فيه بين النثر العادى والشعر البديع الساحر ، لم يذرف فيه دمعه ، بل كان كل ما يحتويه هو تسليم كتسليم الرواقيين بتصرفات الأقدار التى تخبط خبط عشواء ، ومحاولة صادقة للتوفيق بين مصائب الأبرار وما يتصف به المولى سبحانه وتعالى من حب للخير ، وقدرة على كل شىء ، وعلم سابق بما يقع فى الكون من أحداث . ويذكر بوئيثيوس نفسه بجميع النعم التى توالت عليه فى حياته — من ثراء و« حمى نبيل ، وزوجة طاهرة » وأبناء بررة . ويتذكر المناصب العليا التى شغلها ، والساعة العظيمة التى هز فيها بفصاحة لسانه مشاعر أعضاء مجلس الشيوخ حين كان ولداه القنصلان هما رئيسيه . ويقول لنفسه إن هذه السعادة لا يمكن أن تدوم إلى أبد الدهر ، بل لابد أن توجه الأقدار بين الفينة والفينة لمن ينعم بها ضربة تطهره وتزكيه . وتلك السعادة العظيمة خليقة بأن تذهب تلك الجائحة القاصمة[٧٣] . ومع هذا فإن ذكرى تلك السعادة الماضية من شأنها أن تزيد من حدة الألم . وفى ذلك يقول بوئيثيوس فى بيت من الشعر يردد دانتى صداه على لسان فرنسسكا Francesca : « إن أعظم ما يشقى به

الإنسان حين تصرعه الشدائد هو ذكرى ما كان ينعم . من سعادة »[٧٤] وهو يسأل السيد الفلسفة — بعد أن ينزلها منزلة العقلاء كما كان يفعل أهل العصور الوسطى — عن موضع الفلسفة الحقة ، ويتبين أنها لا تكون فى المال أو المجد ، ولا فى اللذة أو السلطان ؛ ومن ثم يرى أنه لا توجد سعادة حقة أو دائمة إلا فى الاتصال بالله ، ويقول إن « النعمة الحقة هى الاتصال بالله »[٧٥] . ومن أغرب الأشياء أنه ليس فى الكتاب كله سطر واحد يشير إلى فساد الأخلاق الشخصية ، وليس فيه أية إشارة إلى المسيحية أو أية عقيدة من عقائدها ، ولا سطر واحد غير خليق بأن يكتبه زينون ، أو أبيقور ، أو أورليوس . ومن ثم فإن آخر كتاب فى الفلسفة الوثنية قد كتبه مسيحى تذكر فى ساعة موته أثينة لا جلجوتا Golgotha .

ودخل عليه الجلاد فى اليوم الثالث والعشرين من شهر اكتوبر من عام ٥٢٤ ، ثم ربطوا عنقه بحبل وشدوه حتى جحظت مقلتاه وخرجتا من وقبيهما ، ثم انهالا عليه ضرباً بالعصى الغليظة حتى قضى نحبه . وقتل سياخوس بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت . ويقول بروكبيوس[٧٦] إن ثيودريك بكى لما ارتكبه من ظلم فى حق بؤثيوس وسياخوس ، وفى عام ٥٢٦ لحق ضحيته إلى القبر . .

ولم تبق مملكته طويلا بعد موته ، وكان قبل وفاته قد اختار حفيده أثلريك Athalric ليخلفه على العرش ؛ ولم يكن حفيده هذا قد تجاوز العاشرة من عمره ولذلك حكمت أمه أمالاسنثا Amalasuntha ، وكانت امرأة نالت قسطاً كبيراً من التعليم والتثقيف ، وكانت صديقة لكسيدورس أو لعلها كانت تلميذة له ؛ فلما شرعت تحكم البلاد باسم ولدها دخل فى خدمتها كما كان من قبل فى خدمة أبيها ؛ ولكنها كانت تميل كل الميل إلى الأساليب الرومانية ، فأغضبت بذلك رعاياها القوط ، ولم يكونوا راضين عن الدراسات اليونانية واللاتينية القديمة التى

كانت تضعف بها ، كما يرون ، مليكهم الصغير . لهذا أسلمت ابنها إلى مربين من القوط ، وأطلق الصبي العنان لشهواته الجنسية ، ومات فى الثامنة عشرة من عمره . وأجلست أمالاسنثا ابن عمها ثيوداهاد Theodahad معها على العرش بعد أن أخذت عليه المواثيق بأن يترك لها شئون الحكم . ولكنه لم يلبث أن خلعها وألقاها فى السجن ، فطلبت إلى جستنيان ، الذى أصبح وقتئذ إمبراطور الدولة البيزنطية ، أن يخف لمعونتها ، فجاءها بلساريوس Belisarius .

الباب الخامس

چستنيان

٥٢٧ — ٥٦٥

الفصل الأول

الإمبراطور

توفى أركاديوس فى عام ٤٠٨ وخلفه ابنه ثيودوسيوس الثانى ، إمبراطورا على الشرق ولما يتجاوز السابعة من العمر . وقامت بلشيريا Pulcheria ، وكانت تكبره بعامين ، بتربيته ، وكانت طوال المدة التى أشرفت فيها على تربيته تظهر من الجزع والإشفاق عليه ما جعله غير أهل للحكم ، ولهذا ترك شئون الدولة لرئيس الحرس ولمجلس الشيوخ ، وانهمك هو فى نسخ المخطوطات القديمة وتزيينها ، ويبدو أنه لم يقرأ قط كتاب القوانين الذى خلد اسمه . وفى عام ٤١٤ أصبحت بلشيريا وصية على العرش وهى فى السادسة عشرة من عمرها ، وظلت تصرف شئون الإمبراطورية ثلاثا وثلاثين سنة ، ونذرت هى وأختاها أنفسهن بأن يظللن عذارى . ويبدو أنهن قد أوفين بالنذر ، فقد كن يلبسن ملابس بسيطة تنم عن الزهد والتقشف ، ويؤلفن وينشدن الترانيم الدينية ، ويصلين ، وينشئن المستشفيات ، والكنائس ، والأديرة ، ويغدقن عليها العطايا . واستحال القصر ديرا ، وحرم دخوله إلا على النساء وعدد قليـــل من رجال الدين . وفى وسط هذه المظاهر الدينية حكمت بلشيريا ، وبودسيا زوجة أخيها ، ووزراؤهما ، البلاد حكماً صالحاً ، وهب الإمبراطورية الشرقية فى خلال نيابتهما عن ثيودسيوس التى

دامت اثنتين وأربعين سنة هدوءاً لم تعهده من زمن بعيد ، بينا كانت الفوضى ضاربة أطنابها فى الغرب . وكان أهم حوادث ذلك العهد التى لم يمح ذكراها من صفحات التاريخ نشر شرائع ثيودوسيوس (٤٣٨) . فقد عهد فى عام ٤٢٩ إلى طائفة من فقهاء القانون بأن يجمعوا كل ما سن فى الإمبراطورية من قوانين مذ جلس قسطنطين على العرش ؛ ونفذت الشرائع الجديدة فى الشرق والغرب على السواء ، وظلت هى الشرائع المعمول بها فى الإمبراطورية حتى نشرت شرائع جستنيان التى كانت أعظم منها وأوسع .

وحكم الإمبراطورية الشرقية بين ثيودوسيوس الثانى وجستنيان الأول حكام كثيرون ، كان الناس يلهجون بذكرهم فى أيامهم ، أما الآن فلا يكاد يعرف عنهم أكثر من أسمائهم . إن سير العظماء كلها لتذكرنا بأن الخلود قصير الأجل ! وحسبنا أن نذكر من هؤلاء الحكام ليو الأول (٤٥٧ — ٤٧٤) الذى أرسل لمحاربة جيسريك (٤٦٧) أكبر أسطول حشدته حكومة رومانية ؛ ولكن هذا الأسطول هزم ودمر . وأحدث زينون الإصورى Zenothe Isaurian زوج ابنته شقاقاً خطراً بين الكنيستين اليونانية واللاتينية بسبب رغبته فى تهدئة ثائرة اليعقوبيين ، وذلك حين قرر فى رسالته « التوحيدية » المعروفة باسم الهنوتيكون Henoticon أن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة ، وكان أناستاسيوس (٤٩١ — ٥١٨) رجلا قديراً ، شجاعاً ، محباً للخير ؛ دعم مالية الدولة بإدارته الاقتصادية الحكيمة ، وخفض الضرائب ، وألغى صراع الآدميين مع الوحوش فى الحفلات والألعاب ، وجعل القسطنطينية أمنع من عقاب الجو بإنشاء « الأسوار الطويلة » ، التى كانت تمتد أربعين ميلا من بحر مرمرة إلى البحر الأسود ، وأنفق الكثير من أموال الدولة فى غير هذه من الأعمال العامة الكثيرة ، وترك فى خزائنها ٣٢٠٫٠٠٠ رطل من الذهب (١٣٤٫٤٠٠٫٩٠٠ ريال أمريكى) هى التى مهدت السبيل لفتوح جستنيان . لكن الشعب لم يعجبه اقتصاده وميوله

اليعقوبية ، فحاصر الغوغاء قصره ، وقتلوا ثلاثة من أعوانه . ثم أشرف عليهم تعلوه مهابة الشيخوخة التي قاربت الثمانين ، وعرض عليهم أن ينزل عن العرش إذا اتفق الشعب على من يختاره خليفة له . وكان هذا شرطاً مستحيل التنفيذ ، انتهى الأمر بعده بأن طلبت إليه الجماهير الثائرة أن يحتفظ بالتاج . ولما توفى بعد قليل من ذلك الوقت اغتصب الملك جستين ، وهو شيخ أمى (٥١٨ — ٥٢٧) ، يحب الراحة التي يميل إليها ابن السبعين ، ولذلك ترك حكم الإمبراطورية إلى جستنيان نائبه وابن أخيه .

ولم يكن هذا الاختيار ليروق فيما بعد "ومن يوم أن ولد جستنيان نفسه ، في عين بركبيوس مؤرخه وعدوه . ذلك بأن الإمبراطور قد ولد في عام ٤٨٣ من أبوين مزارعين من أصل اليرى — أو لعله صقلبي[١] — يقيمان بالقرب من سرديكا Sardica وهي مدينة صوفيا الحالية ". وجاء به عمه جستين إلى القسطنطينية ورباه تربية صالحة . ولما أصبح جستنيان ضابطا في الجيش ولبث تسع سنين ياوراً ومساعداً لجستين ، أظهر في عمله براعة عظيمة . ولما مات عمه (٥٢٧) خلفه على عرش الإمبراطورية ، وكان وقتئذ في الخامسة والأربعين من عمره ، متوسط القامة والبنية ، حليق الذقن ، متورد الوجه ، متجعد الشعر ، رقيق الحاشية ، تعلو ثغره ابتسامة تكفي لأن تخفي وراءها ما لا يحصى من الأغراض ، وكان متقشفاً في طعامه وشرابه تقشف الزهاد ، لا يأكل إلا قليلا ، ويعيش معظم أيامه على الخضر[٢] . وكثيراً ما كان يصوم حتى تكاد تخور قواه . وكان في أثناء صيامه لا ينقطع عما اعتاده من الاستيقاظ مبكراً ، وتصريف شئون الدولة « من مطلع الفجر إلى الظهيرة ، وإلى غسق الليل » ، وكثيراً ما كان يظن أعوانه أنه قد آوى إلى مضجعه ، بينا كان هو منهمكا في الدرس ، "يبذل جهده ليكون موسيقياً ومهندساً معمارياً ، وشاعراً ومشترعاً ، وفقيهاً في الدين وفيلسوفاً ، وإمبراطوراً يجيد تصريف شئون الإمبراطورية . ولكنه رغم هذا كله لم يتخل عن خرافات

عصره . وكان ذا عقل نشيط على الدوام ، عظيم الإلمام بالشئون الكبرى والتفاصيل الصغرى . ولم يكن قوى الجسم أو شجاعاً ، وقد حدثه نفسه بالتخلى عن الملك فى أثناء المتاعب التى قامت فى بداية حكمه ، ولم ينزل قط إلى الميدان فى حروبه الكثيرة . ولعل من عيوبه الناشئة من دماثة خلقه ورقة طبعه ، أن كان من السهل على أصدقائه أن يؤثروا فيه ، ومن أجل هذا كان كثيراً ما يتقلب فى سياسته . ويخضع فى أحكامه لزوجته . وقد خص پروكپيوس جستنيان بمجلد كامل من تاريخه ، يصفه بأنه « عديم الإخلاص ، مخادع ، منافق ، يخفى عن الناس غضبه ، يظهر غير ما يبطن ، حاذق ، قادر كل المقدرة على التظاهر بالرأى الذى يدعى أنه يعتنقه ، بل إنه يستطيع فى كثير من الأحيان أن يذرف الدمع من عينيه . . . إذا اقتضت الظروف ذلك »[٣] . وغير أن هذا كله يصح أن يكون وصفاً للدبلوماسى القدير . ويواصل پروكپيوس وصفه فيقول : « وكان صديقاً متقلباً فى صداقته ، عدواً إذا عقد هدنة لا يحافظ على عهده ، حريصاً كل الحرص على الاغتيال والنهب » . ويلوح أنه كان يتصف بهذا كله فى بعض الأوقات ، ولكنه كان يستطيع أن يكون كريماً رحيما . من ذلك أن قائداً يدعى پروبوس Probus قد اتهم بسبه ، فجيء به ليحاكم بتهمة الخيانة . ولما عرض التقرير الذى وضع عن محاكمته على جستنيان قام من مقعده وأرسل رسالة إلى پروبوس يقول فيها : « إنى أغفر لك ما ارتكبته من ذنب فى حقى ، وأدعو الله أيضاً أن يسامحك »[٤] . وكان يقبل النقد الصريح ولا يغضب منه « وكان هذا الرجل الظالم » ، الذى رزىء بمؤرخه « أسهل منالا من أى إنسان آخر فى العالم ، وكان أحقرُ الناس فى الدولة ، ومن لا شأن لهم فيها على الإطلاق ، يستطيعون كلما شاءوا أن يأتوا إليه ليتحدثوا معه »[٥] .

ومع هذا فقد عمل على أن يجعل ما كان يقام فى بلاط الإمبراطور من مراسم وحفلات غاية فى الأبهة والفخامة ، حتى فاقت ما كان يحدث منها فى أيام دقلديانوس.

وقسطنطين . وكان كناپليون يعوزه التأييد الذى يناله المليك الشرعى ، وذلك لأنه ورث الملك من مغتصب له . ولم يكن مهيباً فى مظهره أو منشئه ؛ ومن أجل هذا عمد إلى طقوس ومراسم تبعث الرعب فى القلوب كلما ظهر أمام الجماهير أو السفراء الأجانب . ولهذا السبب عينه شجع فكرة الملكية المقدسة ، واستخدم لفظ مقدس فى وصف شخصه وملكه ؛ وكان يطلب إلى من يمثلون أمامه أن يركعوا ويقبلوا أطراف ثوبه الأرجوانى ، أو أصابع قدميه من فوق حذاءيه(*) . وعمل على أن يعمده ويتوجه بطريق القسطنطينية ، ولبس قلادة من اللؤلؤ . وقصارى القول أنه ما من حكومة قد عملت ما عملته الحكومة البيزنطية لتنال إجلال الشعب لها عن طريق المراسم الفخمة . ولقد كان لهذه السياسة أثرها إلى حد كبير ؛ ولسنا ننكر أنه قد حدثت انقلابات كثيرة فى تاريخ بيزنطية ولكنها كانت فى معظم الأحوال انقلابات مفاجئة قام بها موظفو القصر ، لأن الحاشية نفسها لم تكن ترهبها ما وضعته لنفسها من مراسم وطقوس .

وكانت أكبر فتنة قامت فى عهد جستنيان هى التى حدثت فى بدايته (٥٣٢) وكادت أن تقضى على حياته . وكان سببها أن الخضر والزرق — وهم الحزبان اللذان انقسم إليهما أهل القسطنطينية حسب الثياب التى كان يلبسها راكبو خيول السباق المحببون — قد بلغت الخصومة بينهم حد العنف ، حتى أصبحت شوارع العاصمة غير مأمونة ، وحتى اضطر الأغنياء إلى أن يرتدوا ملابس الفقراء المساكين لينجوا بذلك من طعنات الخناجر فى الليل . وانقضت الحكومة آخر الأمر على الطائفتين المتنازعتين ، وقبضت على عدد كبير من زعمائهما ، فما كان من هذين الحزبين إلا أن ضما صفوفهما وقاما بفتنة مسلحة ضد الحكومة ، وأكبر

(*) لقد كان الرداء الأرجوانى من زمن بعيد الثوب الخاص الذى يميز الإمبراطور من غيره من رجال الدولة . وكانت عبارة « ارتداء الثياب الأرجوانية » فى ذلك الوقت مرادفة للجلوس على العرش .

الظن أن بعض الشيوخ قد اشتركوا فى هذه الفتنة ؛ وحاول رعاع المدن أن يقلبوها ثورة عارمة ، فهجموا على السجون ، وأطلقوا سراح المسجونين ، وقتلوا عدداً من رجال الشرطة والموظفين ؛ وأشعلت النار فى بعض المبانى ، وحرقت كنيسة أياصوفيا وأجزاء من قصر الإمبراطور . وهتفت الجماهير قائلة « Niha » أى النصر — وبذلك أطلق هذا الاسم على تلك الفتنة . وأفقد هذا النصر الشعب وعيه ، فطالب بإبعاد اثنين من أعضاء مجلس جستنيان ، لم يكن يحبهما ، ولعل سبب ذلك أنهما كانا من ظلمة الحكام ؛ ووافق الإمبراطور على هذا الطلب ، فازداد العصاة جرأة وأقنعوا هيپاشيوش Hypatius ، أحد الشيوخ ، بأن يقبل التاج ؛ فقبله على الرغم من معارضة زوجته وتوسلها إليه ألا يقبله ، وخرج بين هتاف الجماهير ليجلس على مقعد الإمبراطور فى الألعاب التى كانت قائمة على قدم وساق فى الميدان الكبير . واختبأ جستنيان أثناء ذلك فى القصر ، وأخذ يدبر أمر الهرب . ولكن الإمبراطورة ثيودورا أقنعته بالعدول عن هذه الفكرة ، وأشارت عليه بالمقاومة . وتعهد بلساريوس قائد الجيش أن يقوم بهذا العمل ، واختار من بين جنوده عدداً من القوط ، وسار على رأسهم إلى ميدان الألعاب ، وقتل ثلاثين ألفاً من العامة ، وقبض على هيپاشيوس ، وأمر بقتله فى السجن . وأعاد جستنيان الموظفين المفصولين إلى عملهما ، وعفا عن المتآمرين من أعضاء مجلس الشيوخ ، ورد إلى أبناء هيپاشيوس ما صودر من أملاكهم[٦] . وظل جستنيان بعد هذه الفتنة آمناً على نفسه وملكه خلال الثلاثين عاماً التالية ، ولكن يبدو أن إنساناً واحداً لا أكثر هو الذى كان يحبه .

الفصل الثانى

ثيودورا

وصف پروكپيوس فى كتاب له عن فن البناء تمثالا لزوجة چستنيان فقال : « إنه جميل ، ولكن جماله أقل من جمال الإمبراطورة ؛ ذلك بأن التعبير عن جمالها بالقول ، أو إبرازه فى تمثال عمل لا يستطيعه مخلوق من البشر»(٧) . ولسنا نجد فى كل ما كتب هذا المؤرخ — وهو أعظم المؤرخين البزنطيين على بكرة أبيهم — إلا الثناء على ثيودورا ، إذا استثنينا موضعاً واحداً لا أكثر من هذا التعميم . ولكن پروكپيوس قد كشف فى كتاب له لم ينشر فى أثناء حياته — ولهذا سمى الأنكدوتا Anecdota « أى الذى لم يخرج » — عن فضيحة للملكة قبل زواجها . وقد بلغت هذه القصة من الشناعة حداً بعث على الشك فيها وجعلها مثاراً للجدل مدى ثلاثة عشر قرناً . وهذا « التاريخ السرى » موجز لما كان فى صدر المؤرخ من حقد دفين صريح ، وقد كتبه من وجهة نظر واحدة ، وخصه كله بتسوئه سمعة چستنيان وثيودورا ، وبليساريوس بعد وفاتهم . وإذ كان پروكپيوس هو أهم المراجع التى نعتمد عليها فى تأريخ ذلك العصر ، وإذ كان هو نفسه يبدو فى مؤلفاته الأخرى دقيقاً نزيهاً ، فإنا لا نستطيع أن نرفض الأنكدوتا ونعدها كلها تزييفاً وافتراء ، وكل ما نستطيع أن نقوله فيها هو أنها انتقام عمد إليه رجل غاضب من رجال الحاشية لم تتحقق مطامعه . وهاهو ذا چون الإفسوسى ، الذى كان يعرف الإمبراطورة حق المعرفة ، لا يطعن عليها بأكثر من قوله فيها : « ثيودورة العاهر »(٨) . وفيما عدا هذا فإنا قلما نجد فى أقوال المؤرخين المعاصرين ما يؤيد التهم التى رماها بها پروكپيوس . نعم إن كثيرين من رجال الدين يندّدون بمروقها ، ولكن ما من أحد منهم يذكر شيئاً عن فجورها — وهو كرم منهم

لا يقبله العقل إذا كانت فاجرة بحق . وقد يكون فى مقدورنا أن نستنتج من كل ما يقال عن ثيودورا أنها بدأت حياتها سيدة غير مكملة ، واختتمتها ملكة متصفة بجميع صفات الملوك الطيبة .

ويقول پروكپيوس قول الواثق إنها ابنة مدرب دببه ، وإنها نشأت فى جو حلبة ألعاب الوحوش ، ثم صارت ممثلة وومسا ، تثير مشاعر أهل القسطنطينية ، وتدخل البهجة على قلوبهم بتمثيل المسرحيات الصامتة الخليعة . ونجحت أكثر من مرة فى إجهاض نفسها ، ولكنها ولدت ابناً غير شرعى ، وصارت عشيقة رجل سورى يدعى هسبولوس Hecebolus ، ثم هجرها هذا العشيق ، واختفت عن الأعين فترة من الزمان فى الإسكندرية ، عادت بعدها إلى الظهور فى القسطنطينية فقيرة ولكنها عفيفة شريفة ، تكسب قوتها بغزل الصوف . ثم أحبها چستنيان ، فاتخذها عشيقة له ، ثم تزوج بها وجعلها ملكة[٩] . وليس فى وسعنا الآن أن نعرف على وجه التحقيق ما فى هذه الأقوال من صدق وكذب ؛ ولكن الذى نستطيع أن نقوله إذا كانت هذه المقدمات لم تقلق بال إمبراطور فهى خليقة بألا نقف عندها طويلا . وتوج چستنيان فى كنيسة القديسة صوفيا بعد أن تزوجها بزمن قليل ، وتوجت ثيودورا إمبراطورة إلى جانبه ، ويقول پروكپيوس إنه « ما من قسيس أظهر غضبه لهذا الإجرام الشنيع »[١٠]

وأيا كان منشأ ثيودورا فإنها أضحت بعد زواجها بالإمبراطور سيدة لا يستطيع أحد أن يتهمها فى عفافها . وكانت تحب المال والسلطان حبا جماً ، وتثور فى بعض الأحيان ثورة جامحة ، وتدبر المؤامرات لتصل بها إلى أغراضها التى لا تتفق مع أغراض چستنيان . وكانت نؤوما ، تكثر من الطعام والشراب ، وتحب الترف ، والحلى ، والمظاهر ، وتقضى عدداً كبيراً من أشهر السنة فى قصورها القائمة على شاطئ البحر . لكن چستنيان ظل طول حياته يحبها رغم هذه الصفات ، ويصبر صبر الفلاسفة على تدخلها فى خططه وأعماله . لقد خلع عليها وهو كلف بها حلة

من السيادة لاتقل من الوجهة النظرية عن سيادته هو ، ولم يكن فى مقدوره أن يشكو إذا مارست هذه السيادة . وقد اشتركت اشتراكاً فعلياً فى السياسة الخارجية والشئون الكنسية ، وكانت تنصب البابوات والبطارقة وتخلعهم ، وتعزل أعداءها من مناصبهم . وكانت فى بعض الأحيان تصدر من الأوامر ما يتعارض وأوامر زوجها ، وكثيراً ما كانت أوامرها هى فى صالح الدولة ، ذلك أن ذكاءها كان يتناسب مع سلطانها . ويتهمها پروكپيوس بقسوتها على معارضيها ، وبأنها ألقت بعضهم فى الجب وقتلت عدداً قليلا منهم . وكان الذين يسيئون إليها إساءات شديدة يختفون دون أن يقف لهم أحد على أثر . وكانت تسير فى هذا على المبادئ الأخلاقية السائدة بيننا فى هذا القرن الذى نعيش فيه . لكنها لم يخل قلبها من الرحمة ، من ذلك أنها بسطت حمايتها على البطريق أنثميوس الذى أمر چستنيان بنفيه لمروقه من الدين ، وأخفته فى جناحها عامين كاملين . ولعلها كانت لينة فوق ما ينبغى مع زوجة بليساريوس التى عرفت بالزنى . ولكنها كفرت عن هذا بإقامة « دير للتوبة » جميل تلجأ إليه العاهرات التائبات . على أن بعض التائبات قد تبن من توبتهن ، وألقين بأنفسهن من النوافذ لأنهن ضقن ذرعاً بالدير وفضلن عليه الموت[١٢] . وكانت تعنى عناية الجدات بزواج صديقاتها ، وكان لها هى الفضل فى ترتيب هذه الزيجات ، وكثيراً ما كانت تجعل الزواج شرطاً أساسياً للرقى فى بلاطها . ولقد صارت فى شيخوختها حارسة قوية الشكيمة للأخلاق الكريمة وهو ما ينتظره الإنسان من أمثالها .

ثم وجهت عنايتها فى آخر حياتها لدراسة الدين ، وكانت تناقش زوجها فى طبيعة المسيح . فقد كان چستنيان يبذل غاية جهده ليوحد الكنيستين الشرقية والغربية لاعتقاده أن الوحدة الدينية لا بد منها لوحدة الإمبراطورية . غير أن ثيودورا لم تكن تستطيع أن تفهم وجود طبيعتين فى المسيح ، وإن لم تجد صعوبة ما فى وجود ثلاثة أقانيم فى الله . ومن أجل هذا اعتنقت مذهب اليعاقبة ،

وهى تعلم أن الشرق لا يمكن أن يخضع للغرب فى هذه العقيدة . لكنها كانت ترى أن قوة الإمبراطورية ومستقبلها إنما يعتمدان على ولاياتها الغنية فى آسية ، وسوريا ، ومصر ، لا على ولاياتها الغربية التى خربها البرابرة وأهلكتها الحروب . وكان لها الفضل فى تخفيف حدة تعصب جستنيان للمذهب الدينى الأصيل ، وبسطت حمايتها على الخارجين على هذا المذهب ، وتحدت البابوية ، وشجعت خفية قيام كنيسة يعقوبية مستقلة فى الشرق ؛ ولم تتردد فى سبيل تحقيق هذه الغايات فى أن تعارض بكل ما تستطيع من قوة الإمبراطور والبابا على السواء .

الفصل الثالث

بليساريوس

فى وسعنا أن نغتفر لجستنيان شغفه العظيم بالوحدة ، لأن هذا الشغف من أعظم ما يولع به الفلاسفة ورجال الحكم على السواء ؛ ولقد اقتضاهم فى بعض الأحيان أكثر مما اقتضتهم الحرب . ولم تكن استعادة أفريقية من الوندال ، وإيطاليا من القوط الشرقيين ، وأسبانيا من القوط الغربيين ، وغالة من الفرنجة ، وبريطانيا من السكسون ؛ ولم يكن طرد البرابرة إلى مرابضهم ، وإعادة الحضارة الرومانية إلى جميع ميادينها القديمة ، ونشر الشريعة الرومانية مرة أخرى فى جميع بقاع الرجل الأبيض من الفرات إلى سور هدريان ، لم تكن هذه المطامع كلها مطامع غير نبيلة ، وإن كانت قد أنهكت المنقذين ومن أريد إنقاذهم على السواء . وكان من الوسائل التى اتبعها جستنيان لبلوغ هذا الغرض أن أزال ما بين الكنيستين الشرقية والغربية من نزاع حول مسألة البابوية ، وكان من أكبر أمانيه أن يرد الأريوسيين واليعاقبة وغيرها من الخارجين على الدين إلى حظيرته ، ولم يكن أحد قد فكر فى هذا كله منذ أيام قسطنطين .

ولقد كان من حسن حظ جستنيان أن وهب قادة عظماء ، ومن سوء حظه أنه كانت موارده المالية قليلة — فلقد كان شعبه غير راغب فى الحروب التى يريد أن يخوض غمارها ، وغير قادر على أداء ما تتطلبه من نفقات . وسرعان ما استنفد الثلثمائة والعشرين ألف رطل من الذهب التى تركها أسلاف جستين فى خزانة الدولة ، واضطر بعد استنفادها أن يلجأ إلى الضرائب التى نفرت منه قلوب الشعب ، وإلى ضروب الاقتصاد التى عرقلت أعمال قواده . وكانت الخدمة العسكرية الإجبارية العامة قد امتنعت قبل عهده بنحو مائة عام ، وأصبح جيش

الإمبراطورية يتألف كله تقريباً من جنود مرتزقة من البرابرة يؤتى بهم من مائة قبيلة ودولة ، ويعيشون على النهب والسلب ، ويحلمون بالثراء والاغتصاب ؛ وكثيراً ما كانوا يشقون عصا الطاعة فى أشد أزمات القتال ، وكثيراً ما فقدوا ثمار النصر لاشتغالهم بجمع الغنائم والأسلاب ، ولم يكن شىء يجمعهم ويؤلف بينهم ، أو يشحذ هممهم إلا أداء أجورهم بانتظام أو خضوعهم لقواد عظام .

وكان بليساريوس ، كما كان جستنيان ، منحدراً من أسرة من الفلاحين الإليريين ، ويذكرنا بالأباطرة البلقانيين — أورليوس ، وپروبوس ، ودقلديانوس — الذين أنجوا الإمبراطورية فى القرن الثالث . ولسنا نعرف من أيام قيصر قائداً قبل بليساريوس انتصر فى وقائع كالتى انتصر فيها هذا القائد بمثل موارده القليلة من الرجال والمال . وما أقل من تفوقوا عليه فى رسم الخطط الحربية أو الحركات العسكرية ، وفى حب رجاله له وشفقته على أعدائه . ولعل مما يجدر ذكره فى هذا المقام أن أعظم القواد — كالإسكندر ، وقيصر ، وبليساريوس ، وصلاح الدين ، ونابليون — قد وجدوا أن الرحمة من أقوى أسلحة الحروب ؛ ولقد كان بليساريوس ، كما كان أولئك القواد ، ذا إحساس مرهف وقلب رقيق يجعلان من الجندى محباً والهاً بمجرد فراغه من واجباته الدموية . ومصداق هذا أن بليساريوس كان يشغف بحب أنطونينا كما كان الإمبراطور يشغف بحب ثيودورا . وكان هذا القائد يتحمل خيانتها له ، ولا يلبث أن ينسى غضبه من هذه الخيانة ، وكان يصحبها معه فى حروبه لكثير من الأسباب .

وكان أول ما نال من النصر فى حربه مع الفرس . ذلك أن الحرب قد تجددت بين الإمبراطوريتين بسبب المنافسة القديمة بينهما للسيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى أواسط آسية وبلاد الهند ، وبعد أن جنحتا للسلم مدى مائة وخمسين عاماً . وبينما كان بليساريوس يتابع انتصاراته المجيدة إذ استدعى فجأة إلى القسطنطينية ؛ وكان سبب استدعائه أن جستنيان عقد الصلح مع

بلاد الفرس (٥٣٢) بأن أدى إلى كسرى أنوشروان ١١٫٠٠٠ رطل من الذهب ، ثم أرسل قائده ليسترد أفريقية من الوندال . وكان جستنيان قد استقر رأيه على أنه لا يستطيع الاحتفاظ بفتوح دائمة فى بلاد الشرق لأسباب كثيرة : منها أن السكان سيظلون معادين له ، وأن الحدود يصعب عليه أن يدافع منها . أما الغرب ففيه أمم اعتادت الحكم الرومانى من عدة قرون ، وهى تبغض سادتها البرابرة الخارجين على الدين ، وتمد يد المساعدة للدولة الرومانية بالتعاون معها عليهم فى الحرب وبأداء الضرائب لها فى السلم . ومن أفريقية يستطاع أخذ الحبوب التى تسد أفواه أهل العاصمة فيسكتون عن توجيه اللوم للإمبراطور .

وكان جيسريك قد توفى بعد حكم دام تسعة وثلاثين عاماً (٤٧٧) ، وعادت أفريقية الوندالية بعد موته إلى معظم أساليبها الرومانية . فكانت اللاتينية لغتها الرسمية ، وكان الشعراء يكتبون بها شعراً ميتاً ليكرموا به الملوك المنسيين . وأعيد بناء دار التمثيل فى قرطاجنة ، وعاد الأهلون يمثلون المسرحيات اليونانية[١٤] ، ويعظمون آثار الفن القديم ، ويقيمون مبانى جديدة فخمة . ويصف پروكپيوس الطبقات الحاكمة بأنها من رجال مهذبين متحضرين ، تظهر عليهم فى بعض الأحيان مسحة من البربرية ولكنهم فى الأغلب الأعم قد أهملوا فنون الحرب ، وأخذوا يضعفون ويضمحلون شيئاً فشيئاً تحت أشعة الشمس[١٥] .

واجتمعت فى البسفور فى شهر يونية من عام ٥٣٣ خمسمائة سفينة نقالة ، وتسع وتسعون بارجة حربية ، وتلقت أوامر الإمبراطور ، وبركات البطريق ، وأبحرت إلى قرطاجنة . وكان پروكپيوس من الذين صحبوا بليساريوس ، وكتب وصفاً رائعاً « لحرب الوندال » . ونزل بليساريوس فى أفريقية بما لا يزيد على خمسمائة من الفرسان ، واكتسح وسائل الدفاع الواهية عن قرطاجنة ، ولم تمض أكثر من بضعة أشهر حتى قضى على قوة الوندال . وعجل جستنيان فدعاه إلى

احتفال بالنصر يقام بالقسطنطينية ، فانقض المغاربة من التلال على الحاميات الرومانية ؛ وأسرع بليساريوس بالعودة فى الوقت المناسب للقضاء على فتنة قامت بين جنوده ، وقادهم بعدها للنصر ، وبقيت أفريقية القرطاجنة من ذلك الحين خاضعة للحكم الرومانى إلى أن جاءها العرب فاتحين .

وكان جستنيان قد هداه دهاؤه السياسى إلى عقد حلف مع القوط الشرقيين حين كان بليساريوس يهاجم أفريقية ؛ فلما تم هذا الفتح أغرى الفرنجة بأن يعقدوا معه حلفاً آخر ، فى الوقت الذى أمر فيه بليساريوس بفتح إيطاليا التى كانت فى أيدى القوط الشرقيين . واتخذ بليساريوس بلاد تونس قاعدة له ، هاجم منها صقلية ، ولم يجد صعوبة فى الاستيلاء عليها ، ثم عبر البحر منها إلى إيطاليا فى عام ٥٣٦ ، واستولى على نابلى بأن أمر بعض جنوده أن يدخلوا المدينة زحفاً فى قنوات المياه المغطاة . وكانت قوات القوط الشرقيين ضعيفة منقسمة على نفسها ، ورحب سكان رومة ببليساريوس وحيوه تحية المحرر المنقذ ، كما رحب به رجال الدين لأنه من القائلين بالتثليث ، فدخل رومة دون أن يلقى مقاومة . وأمر ثيوداهاد Theadahad بقتل أمالاثنسا Amalathunsa ، فخلع القوط الشرقيون ثيوداهاد واختاروا وتجيس Witigis ملكاً عليهم . وحشد وتجيس جيشاً مؤلفاً من ١٠٥٫٠٠٠ رجل حاصر به بليساريوس فى رومة . ولما اضطر أهلها إلى الاقتصاد فى الزاد والماء ، والامتناع عن الاستحمام فى كل يوم ، بدءوا يتذمرون من بليساريوس الذى لم يكن معه إلا خمسة آلاف رجل مسلح ، دافع بهم عن المدينة بمهارة وشجاعة ، اضطر معهما وتجيس أن يعود إلى رافنا بعد ما بذل من الجهد الكبير مدة عام كامل . وظل بليساريوس ثلاث سنين يلح على جستنيان بأن يمده بعدد آخر من الجند ، حتى أرسلهم آخر الأمر ولكنه عقد لواءهم لقواد معادين لبليساريوس . وعرض القوط الشرقيون المحاصرون فى رافنا ، والذين أوشكوا على الهلاك جوعاً ، أن يسلموا المدينة إذا رضى بليساريوس أن يكون

ملكاً عليهم . وتظاهر بليساريوس بالقبول حتى استولى على المدينة ، ثم أسلمها إلى جستنيان (٥٤٠) .

وشكر له الإمبراطور حسن صنيعه وداخلته فيه الريبة . ذلك أن بليساريوس قد كافأ نفسه على عمله بالاستيلاء على قدر كبير من الغنائم ، هذا إلى أنه كسب ولاء جنوده إلى حد أزعج الإمبراطور وأنه قد عرضت عليه مملكة كاملة ؛ فهل يستبعد عليه مع هذا كله أن يتطلع إلى الاستيلاء على العرش من ابن أخي رجل اغتصبه من صاحبه الشرعي ؟ لهذا استدعاه جستنيان ، وشاهد وهو قلق مرتاب حاشية القائد العظيم ومظهرها الفخم . ويقول پروكپيوس « إن سكان بيزنطية كانوا يبتهجون حين يشهدون بليساريوس يخرج من بيته كل يوم . . . ذلك بأن خروجه منه وسيره في الطريق كان شبيهاً بموكب في عيد احتشد فيه كثير من الخلق ، لأنه كان يصحبه عدد كبير من الوندال ، والقوط ، والمغاربة . يضاف إلى هذا أنه كان بهي الطلعة ، طويل القامة ، جميل الوجه ؛ ولكنه كان وديعاً رقيق الحاشية ، دمث الأخلاق ، حتى لقد كان يبدو كأنه رجل فقير لا يعرفه أحد »(١٦) .

ولم يعن القواد الذين خلفوه في إيطاليا بنظام الجند ، وتنازعوا فيما بينهم ، فكسبوا لأنفسهم احتقار القوط ، فنادوا برجل قوطي ، جم النشاط ، موفور العقل ، رابط الجأش ، ملكاً على الشعب المغلوب . وجمع توتيلا Totila الملك الجديد مجندين ذوي بأس شديد من البرابرة الجوالين الذين لا مأوى لهم في إيطاليا واستولى بهم على نابلي (٥٤٣) وتيبور وضرب الحصار على رومة . وقد أدهش الناس برحمته ووفائه بوعده ، وعامل الأسرى معاملة طيبة انضووا بفضلها تحت لوائه ، واستمسك بما قطعه على نفسه من العهود التي استسلمت بها نابلي ، حتى بدأ الناس يتساءلون من هو البربري ومن هو اليوناني المتحضر . ولما وقعت زوجات بعض أعضاء مجلس الشيوخ أسيرات في يده عاملهن بلطف وشهامة وأطلق سراحهن ، وأما البرابرة الذين في خدمة الإمبراطور فلم يظهروا مثل هذه

الرقة فى المعاملة ؛ بل أخذوا يعيثون فى البلاد فساداً لأن جستنيان لم يؤد إليهم أجورهم لنفاد ما كان فى خزائنه من المال ، حتى أخذ السكان يتذكرون فى أسى وحنان حكم ثيودريك وما كان يسوده من عدل ونظام[١٧] .

وأمر بليساريوس أن يعود لإنقاذ الموقف . فلما عاد إلى إيطاليا تسلل وحده إلى رومة المحاصرة مخترقاً صفوف توتيلا . لكنه وصلها بعد فوات الوقت ، فقد فقدت الحامية اليونانية روحها المعنوية ، لأن ضباطها كانوا جبناء عاجزين ؛ وفتح بعض الخونة أبواب المدينة ، ودخلها جنود توتيلا البالغ عددهم عشرة آلاف رجل (٥٤٦) . وبعث بليساريوس وهو خارج منها رسالة إلى توتيلا يطلب إليه ألا يدمر المدينة التاريخية . وسمح توتيلا لجنوده الجياع الذين لم ينالوا أجورهم أن ينهبوها ، ولكنه منعهم من إيذاء السكان وحمى النساء من شهوات الجنود الجامحة ثم أخطأ إذ غادر رومة ليحاصر رافنا . فلما غاب عنها استردها بليساريوس ، ولما عاد توتيلا وحاصرها مرة أخرى عجز عن أن يخرج منها القائد اليونانى الموهوب . وظن جستنيان أن الغرب قد خضع له فأعلن الحرب على بلاد الفرس ، واستدعى بليساريوس ليذهب إلى الشرق . فلما ذهب استولى توتيلا على رومة من جديد (٥٤٩) ومن بعدها صقلية ، وكورسكا ، وسردينية ، وشبه الجزيرة كلها تقريباً وأخيراً أعطى جستنيان قائداً من الخصيان يدعى نارسيز Narses « مبلغاً كبيراً جداً من المال » وأمره أن يحشد جيشاً جديداً يطرد به القوط من إيطاليا . وأدى نارسيز هذه المهمة بمهارة وسرعة ، فهزم توتيلا ، وقتل فى أثناء فراره ، وسمح لمن بقى من القوط أن يخرجوا من إيطاليا سالمين ، وانتهت بذلك « الحرب القوطية » بعد أن دامت ثمانية عشر عاماً (٥٥٣) .

وأتمت هذه السنون خراب إيطاليا . ذلك أن رومة قد وقعت فى أيدى الجيوش المحاربة خمس مرات متوالية ، وحوصرت ثلاث مرات ، ونفد منها الطعام ، وتعرضت للنهب والسلب . ونقص عدد سكانها من مليون إلى أربعين

ألفا[١٨] ، نصفهم تقريبا من المعدمين الذين يعيشون على الصدقات البابوية ، ودمرت ميلان وقتل أهلها على بكرة أبيهم . وتدهورت مئات من المدن والقرى إلى هوة الإفلاس بسبب اغتصاب الحكام ونهب الجنود ، وبارت كثير من الأراضى التى كانت من قبل خصبة وهجرها السكان ، ونقصت موارد الطعام . ويقول الرواة إن خمسين ألفا ماتوا من الجوع فى پيسينوم Picenum وحدها فى خلال هذه الأعوام الثمانية عشر[١٩] . وتحطم كيان الأشراف ، فقد قتل كثيرون منهم فى المعارك الحربية وفى أعمال النهب ، وفر عدد كبير منهم إلى خارج البلاد حتى لم يبق منهم من يكفى لقيام مجلس شيوخ رومة ، فلم نعد نسمع عنه شيئا ما بعد عام ٥٧٩[٢٠] . وتهدمت قنوات مياه الشرب التى أصلحها ثيودريك من قبل وأهملت ، واستحالت الكمپانيا مرة أخرى مناقع واسعة تتفشى فيها الملاريا ، ولا تزال كذلك حتى يومنا هذا . وبطل استعمال الحمامات الفخمة التى كانت تمدها هذه القنوات بالماء وتهدمت ، وحطمت مئات من التماثيل التى نجت من عبث ألريك وجيسريك ، أو صهرت لتصنع من معادنها قذائف وعدد حربية فى أثناء الحصار . وكانت آثار الخراب والدمار هى كل ما يشهد بما كان لرومة القديمة عاصمة نصف العالم من عظمة وجلال . ولبث الإمبرطور الشرقى زمنا قليلا حاكما على إيطالية بعد هذا الخراب ، ولكن ما ناله من النصر كان نصراً عديم القيمة كلفه الكثير من المال والرجال والعناء ، ولم تنج رومة من آثار هذا النصر حتى عصر النهضة .

الفصل الرابع

قانون جستنيان

لقد نسى التاريخ حروب جستنيان ، وحق له أن ينساها ، ولا يذكر اسمه إلا مقترناً بقوانينه . وكان قد مضى قرن من الزمان منذ نشر قانون ثيودوسيوس ، وأضحت كثير من أصوله عتيقة لا تطبق لتغير الظروف التى شرعت فيها ، وسنت قوانين جديدة كثيرة اختلطت بعضها ببعض فى كتب القوانين ، ووجد تناقض كثير بين بعض القوانين والبعض الآخر عاق أعمال المحاكم والسلطة التنفيذية . يضاف إلى هذا أن تأثير المسيحية قد بدّل كثيراً من الشرائع وغيّر تفسيرها . ثم إن قوانين رومة المدنية كثيراً ما كانت تتعارض مع قوانين الأمم التى تتألف منها الإمبراطورية ، وإن كثيراً من التشريعات لم تكن تتفق مع تقاليد الشرق المصطبغ بالصبغة اليونانية . وقصارى القول أن شريعة رومة كلها أضحت أكداساً من المواد القانونية التجريبية لا قانوناً منطقيا واحداً .

ولم يكن جستنيان ، وهو صاحب النزعة القوية إلى الوحدة ، ليرضى عن هذه الفوضى كما لم يكن يرضى عن تمزيق أوصال الإمبراطورية . ولهذا عين فى عام ٥٢٨ عشرة من فقهاء القانون لينظموا قوانين الدولة ، ويوضحوها ، ويصلحوها . وكان أكثر أعضاء هذه اللجنة نشاطاً ونفوذاً هو الكوستر تريبونيان Tribonian الذى ظل إلى أن مات أشهر الموحين بخطط جستنيان التشريعية ، والناصحين له ، والمنفذين لآرائه ، وذلك رغم حرصه الشديد على المال ومظنة الكفر بالله . وأتمت اللجنة الجزء الأول من عملها بسرعة أكثر مما كان خليقاً بها ، وأصدرته فى عام ٥٢٩ باسم القانون الدستورى ، وأعلن الإمبراطور أنه هو قانون

الإمبراطورية ، وأنه يلغى جميع ما سبقه من التشريعات إلا ما تضمنه منها ، وصُدِّر بهذه العبارة الجميلة :

إلى الشبان الراغبين فى دراسة القانون : يجب أن يسلح جلالة الإمبراطور بالقانون كما يجب أن يعلو مجده بقوة السلاح ، حتى يسود بذلك الحكم الصالح فى الحرب والسلم على السواء ، وحتى يتبين للناس أن الحاكم . . . لا تقل عنايته بالعدالة عن عنايته بالنصر على أعدائه(٢١)

ثم انتقل أعضاء اللجنة إلى القسم الثانى من مهمتهم ، وهى أن يضموا فى مجموعة واحدة آراء فقهاء القانون الرومان ، التى رأوا أنها لا تزال خليقة بأن تكون لها قوة القانون، ونشرت هذه الآراء باسم مجموعة القوانين والفتاوى المدنية (٥٣٣) ؛ وقالت اللجنة إن آراء الفقهاء والشروح التى وردت فى هذه المجموعة ستصبح من ذلك الحين واجبة الطاعة على جميع القضاة ، وإن جميع ما عداها من الآراء قد فقدت ما كان لها من قوة شرعية ، وامتنع من ذلك الحين نسخ ما عدا هذه من آراء فقهاء القانون واختفى معظمها ، ويستدل مما بقى منها على أن المحررين قد حذفوا ما كان فيها من آراء مناصرة للحرية ، وأنهم عمدوا إلى الغش والتزوير فبدلوا بعض أحكام فقهاء القانون الأقدمين حتى تكون أكثر ملاءمة للحكم المطلق .

وبينا كانت اللجنة تقوم بهذا العمل الكبير أصدر تريبونيان Tribonian واثنان من زملائه كتاباً موجزاً فى القانون المدنى سماه القانون Institutiones (٥٣٣) . وكان هذا الكتاب فى جوهره عبارة عن شروح جايوس Gius ، معدلة ، ومصححة حتى تلائم روح ذلك العصر . وكان جايوس هذا قد لخص فى القرن الثانى بعد الميلاد القوانين المدنية المعمول بها فى أيامه . وأظهر فى هذا العمل من البراعة ما يثير الإعجاب . وكان جستنيان فى هذه الأثناء يصدر قوانين

جديده . فلما كان عام ٥٣٤ ضم تريبونيان وأربعة من مساعديه هذه القوانين إلى النسخة الجديدة المعدلة من كتاب القوانين . وبعد صدورها أصبحت النسخة الأولى غير ذات موضوع ، ولم يعثر عليها بعدئذ . ولما مات جستنيان نشر ما سنه من قوانين جديدة باسم التشريعات الجديدة . ولم تنشر هذه باللغة اللاتينية كما كانت تنشر الكتب السابقة بل نشرت باللغة اليونانية ، وكانت هي آخر ما صدر باللاتينية من كتب القانون في الإمبراطورية البيزنطية . وقد أطلق على هذه المؤلفات كلها فيما بعد اسم مجموعة القوانين المدنية . وكان يشار إليها في غير دقة باسم قانون جستنيان .

وجرى هذا القانون على ما جرى به قانون ثيودوسيان فجعل الشريعة المسيحية الأصلية قانون الدولة . وقد بدأ بتقرير التثليث وصب اللعنات على نسطوريوس ، وأوتيكيس ، وأبوليناريس . واعترف بالزعامة الدينية للكنيسة الرومانية وأمر كل الهيئات المسيحية بالخضوع إلى سلطانها . لكن الفصول التي جاءت بعد المقدمة أعلنت سلطة الإمبراطور على الكنيسة فقالت إن جميع القوانين الكنسية كجميع القوانين المدنية تصدر عن العرش ، ثم مضى كتاب القانون يذكر القوانين الخاصة بالمطارنة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، والرهبان ، ويحدد العقوبات التي توقع على القساوسة الذين يقامرون ، أو يرتادون دور التمثيل أو يشهدون الألعاب[٢٢] . وجعل عقوبة المانيين والمارقين المرتدين هي الإعدام . أما الدوناتيون ، والمنتانيون ، واليعقوبيون وغيرهم من الطوائف المنشقة فكان عقابهم أن تصادر أملاكهم ، وأن يحكم عليهم بأنهم غير أهل لأن يبيعوا أو يشتروا ، أو يرثوا أو يورثوا . وحرمت عليهم الوظائف العامة ، والاجتماعات ، كما حرموا من حق مقاضاة المسيحيين أتباع الدين القويم للحصول على ما لديهم قبلهم من الديون . وأباح القانون في بعض مواده الرحيمة للأساقفة أن يزوروا السجون ، ليحموا المسجونين من سوء استعمال القانون

وبدل القانون المميزات القديمة التى كانت تتمتع بها بعض الطبقات . من ذلك أن المعاتيق لم يعودوا يعاملون على أنهم طائفة خاصة قائمة بنفسها ؛ بل أصبحوا يتمتعون من ساعة تحريرهم بجميع مميزات الأحرار ، فيباح لهم أن يكونوا أعضاء فى مجلس الشيوخ وأن يكونوا أباطرة . وقسم الأحرار جميعاً إلى طبقة ذوى الشرف أو المرتبة ، وإلى طبقة عامة . وأقر القانون نظام الطبقات الذى نشأ منذ أيام دقلديانوس فقسمها إلى أشراف patricii ، وممتازين illustres ومحترمين specabites (وهى التى أخذت منها لفظ respecable أى محترم الإنجليزية) ، وأصفياء Clarissimi ، وأمجاد Gloriosi ولقد كان فى هذا القانون الرومانى كثير من العناصر الشرقية .

وظهرت فيما ورد فى هذه الشرائع من قوانين خاصة بالرق بعض آثار المسيحية أو الرواقية . مثال ذلك أن اغتصاب أمة كان عقابه الإعدام كاغتصاب الحرة سواء بسواء ؛ كذلك كان يحق للعبد أن يتزوج من حرة إذا وافق سيده على هذا الزواج. وكان جستنيان يشجع العتق كما تشجعه الكنيسة ، لكن القانون كان يجيز بيع الطفل حين يولد فى سوق الرقيق إذا كان أبواه معدمين[٢٣] . وكان فى قانون جستنيان فقرات تشجع استرقاق رقيق الأرض ، وتمهد السبيل لنظام الإقطاع . مثال ذلك أن الرجل الحر إذا زرع قطعة من الأرض ثلاثين عاماً كان يطلب إليه أن يبقى هو وأبناؤه إلى أبد الدهر مرتبطين بهذه الأرض[٢٤] . وكان القانون يبرر هذا بأن يمنع الزراع من من ترك الأراضى ؛ وإذا هرب رقيق الأرض أو صار من رجال الدين من غير رضاء سيده ، جاز لهذا السيد أن يطالب به كما يطالب السيد بعبده .

ورفع هذا القانون من منزلة المرأة إلى حد ما . وكان إخضاعها للوصاية عليها طول حياتها قد انتهى فى القرن الرابع ، وبطل المبدأ القديم القاضى بأن الأبناء الذكور هم وحدهم الذين يحق لهم أن يرثوا آباءهم ، وبذلت الكنيسة جهوداً

كبيرة لتأييد المبدأ الجديد لأن كثيرات من النساء كن يوصين لها بأملاكهن . وحاول جستنيان أن ينفذ آراء الكنيسة الخاصة بالطلاق ، وحرمه إلا إذا أراد أحد الزوجين أن يدخل ديراً للنساء أو الرجال . غير أن هذا العمل كان خروجاً متطرفاً على العادات والقوانين القائمة وقتئذ ، ولذلك عارضه كثيرون من الشعب بحجة أنه سيزيد من حوادث التسميم ، وذكرت فيما سن بعدئذ من القوانين فى الإمبراطورية الرومانية حالات كثيرة مختلفة يباح فيها الطلاق ، وظلت هذه معمولا بها ، فى الإمبراطورية البيزنطية حتى عام ١٤٥٣ فيما عدا فترات منقطعة (٢٥) . ومحى من القانون ما فرضه أغسطس من عقوبات على العزوبة والعقم . وكان قسطنطين قد جعل الزنى من الجرائم التى يعاقب مرتكبها بالإعدام ، وإن لم ينفذ هذا العقاب إلا فى حالات نادرة ، أما جستنيان فقد احتفظ بعقوبة الإعدام للزانى من الرجال ، أما الزانية فقد جعل عقابها الإقامة فى دير للنساء . وأباح القانون للزوج أن يقتل عشيق زوجته إذا وجدها فى منزله أو شاهدها تتحدث معه فى حانة بعد إنذارها ثلاث مرات أمام شهود . كذلك فرض القانون عقوبات صارمة على من يزنى بامرأة غير متزوجة أو بأرملة إلا إذا كانت حظية أو عاهراً . وكان هتك العرض غصباً يعاقب عليه بالإعدام ومصادرة الأملاك ، وكان ثمن هذه الأملاك المصادرة يعطى للمرأة المغتصبة . ولم يكتف جستنيان بتقرير عقوبة الإعدام للواط ، بل كان فى كثير من الأحيان يضيف إليها التعذيب ، وبتر الأعضاء ، وعرض المذنبين على الجماهير فى الشوارع قبل إعدامهما ، وإنا لنحس فى هذا التشريع الصارم ضد الشذوذ الجنسى بأثر المسيحية التى روعتها آثام الحضارة الوثنية فدفعتها إلى هذا التزمت الوحشى .

وغير جستنيان قانون الملكية تغييراً أساسيا . من ذلك أنه ألغى ما كان ينص عليه القانون القديم من حق الأقارب من العصب أن يرثوا من يموت دون أن يترك وصية ؛ وجعل حق الميراث لأبناء الميت وأحفاده الخ من الظهور والبطون ،

وشجع القانون الهبات والوصايا لجهات البر ؛ وأعلن أنه لا يجوز النزول عن شيء من أملاك الكنيسة ، سواء كانت ثابتة أو منقولة ، أو كانت أجور أملاك ، أو رقيق أرض ، أو عبيد ؛ فلم يكن يحق لأى رجل من رجال الدين أو غير رجال الدين ولا لأية جماعة دينية أو غير دينية النزول عن أى شيء تمتلكه الكنيسة أو بيعه أو الإيصاء به . وأضحت هذه القوانين التي وضعها ليو الأول وأنثميوس وأيدها قانون جستنيان هي الأساس الشرعي لثروة الكنيسة المتزايدة . فقد كانت أملاك غير رجال الدين تنقسم وتتفرق ، أما أملاك الكنيسة فظلت تتراكم وتزداد جيلا بعد جيل . وحاولت الكنيسة أن تحرم الربا ، ولكنها عجزت عن تحريمه ؛ وأجاز القانون القبض على المدينين الذين يتخلفون عن جلسات المحاكمة ، ولكنه أجاز إطلاق سراحهم بالكفالة أو إذا أقسموا أن يعودوا حين يطلبون للمحاكمة .

وحرم القانون سجن أى شخص إلا بأمر أحد كبار القضاة ، وحدد الزمن الذى يمكن أن ينقضى بين القبض عليه ومحاكمته تحديداً دقيقاً لا يتعداه . وبلغ عدد المحامين من الكثرة حداً جعل جستنيان يشيد لهم باسلقا خاصة نستطيع أن نتصور مساحتها إذا عرفنا أن مكتبتها كانت تضم ١٥٠,٠٠٠ مجلد أو ملف . وكان المتهم يحاكم أمام قاض يعينه الإمبراطور ، غير أنه كان من المستطاع تحويل القضية إلى محكمة الأسقف إذا رغب فى ذلك الطرفان المتقاضيان . وكانت نسخة من الكتاب المقدس توضع أمام القاضى فى كل جلسة . وكان وكيلا الطرفين يقسمان على الكتاب أنهما سيبذلان كل ما فى وسعهما للدفاع عن موكليهما بذمة وأمانة ، لكنهما يتخليان عن القضية إذا وجداها مما يخل بالشرف والأمانة . وكان المدعى والمدعى عليه يلزمان أيضاً بأن يقسم كل منهما على الكتاب المقدس أن قضيته عادلة . وكانت العقوبات التى ينص عليها القانون صارمة ولكنها قلما كانت ملزمة ؛ فقد كان فى وسع القاضى مثلا أن يخفف العقاب عن النساء ، والقصَّر ،

والسكارى الذين يقدمون للقضاء . وكان السجن يستخدم للمحافظة على المتهمين حتى يحاكموا ، ولكنه قلما كان يستخدم لعقاب المذنبين .

وقد أجاز قانون جستنيان عقاب المجرم ببتر أعضائه ، فكان هذا أكثر رجعية من قانونى هدريان وأنطونينوس بيوس . مثال ذلك أن جباة الضرائب الذين يزورون فى حساباتهم ، والذين ينسخون الآداب الدينية اليعقوبية كان يجوز عقابهم بقطع يدهم ، اتباعا للنظرية القائلة بأن العضو الذى اقترف ذنباً يجب أن يجازى بما اقترفه . وكثيراً ما يذكر القانون عقوبة جدع الأنف أو قطع الرقبة ، وأضافت القوانين البيزنطية إليهما سلم العينين ، وأكثر ما يكون ذلك لتشويه وجه الوارثين للعرش أو المتطلعين له . وكانت عقوبة الإعدام تنفذ فى الأحرار بقطع رءوسهم ، وفى بعض الأرقاء بصلبهم ؛ وكان السحرة والفارون من الجيش يحرقون أحياء ؛ وكان فى وسع المواطن المحكوم عليه أن يستأنف الحكم أمام محكمة أعلى درجة من المحكمة التى أصدرته ، ثم إلى مجلس الشيوخ ثم إلى الإمبراطور نفسه آخر الأمر .

وإنا لنعجب بقانون جستنيان إذا نظرنا إليه فى مجموعه أكثر مما نعجب به لو نظرنا إلى كل جزء من أجزائه على انفراد . وأكثر ما يختلف فيه عن القوانين التى صدرت قبله هو تشدده فى اتباع المبادئ والسنن المقررة ، وسد الطريق على التعديل والإصلاح ، وما يسرى فيه من ميل إلى القسوة فى الانتقام ، حتى لقد كان فى وسع الرومانى المتعلم أن يجد الحياة فى حكم الأنطونيين أكثر حضارة منها فى حكم جستنيان . وكان سبب هذه العيوب أن الإمبراطور لم يكن يستطيع التخلص من البيئة التى يعيش فيها والزمن الذى وجد فيه ، وقد اضطرته رغبته الملحة فى أن يوحد كل شىء على أن يقنن ما فى عصره من الخرافات والوحشية كما يقنن ما فيه من عدالة ورحمة . وكان القانون شديد التمسك بالقديم والمحافظة عليه ، شأنه فى هذا شأن كل ما هو بيزنطى ، وكان موائماً كل المواءمة لحضارة

خيل إلى أهلها أنها لن تموت أبداً . لكنه سرعان ما نقص الخاضعون له فلم يتعدوا أهل مملكة صغيرة آخذة فى النقصان . ذلك أن الشرقيين الخارجين على الدين والذين أذاقهم هذا القانون أشد العذاب قد فتحوا صدورهم للمسلمين وكانوا أكثر رخاء فى ظل القرآن منهم فى ظل هذا القانون . وأغفلت إيطاليا تحت حكم اللمبارد ، وغالة تحت حكم الفرنجة ، وإنجلترا تحت حكم الأنجليسكسون ، وأسبانيا تحت حكم القوط الغربيين — أغفلت هذه البلاد كلها أوامر جستنيان . لكن هذا القانون بالرغم من مسه دله ، ظل بضعة أجيال يبسط النظام والأمن على خليط من الشعوب ، وبفضله استطاع الناس أن يجتازوا حدود كثير من الأمم وينتقلوا فى شوارع مدنها وهم أكثر أمناً وأعظم حرية مما يستمتع به الذين ينتقلون فى ذلك الأقليم نفسه فى هذه الأيام . ولقد ظل هو قانون الإمبراطورية البيزنطية إلى آخر أيامها ، ولقد أحيا سننه مشترعو بولونيا بعد خمسة قرون من اختفائه فى الغرب ، وعمل به الأباطرة والبابوات ، وسرى فى نظم كثير من الدول الحديثة ، فكان هو الهيكل الذى قام عليه نظامها .

الفصل الخامس

الفقيه الديني الإمبراطوري

لم يبق بعدئذ أمام چستنيان إلا أن يوحد العقيدة الدينية ، وأن يجعل الكنيسة أداة متجانسة يتخذها وسيلة للحكم . وأكبر الظن أن چستنيان كان مخلصاً فى عقيدته الدينية ، وأن غرضه من توحيد الدين لم يكن سياسياً فحسب ، فقد كان هو نفسه يعيش فى قصره عيشة الراهب فى ديره على قدر ما تسمح له بذلك ثيودورا ؛ يصوم ، ويصلى ، وينكب على دراسة المؤلفات الدينية ، ويناقش دقائق العقائد الدينية مع الفلاسفة ، والبطارقة ، والبابوات . وينقل پروكپيوس فى هذا المعنى قول أحد المتآمرين على چستنيان دون أن يخفى موافقته التامة على ما ينقله : « إن من أوتى أقل قسط من عزة النفس لا يليق به أن يرفض العمل على قتل چستنيان ؛ وخليق به ألا يداخله أقل خوف من رجل يجلس على الدوام فى ردهة قصره من غير حرس ويقضى الجزء الأكبر من الليل يقلب صفحات الكتب المسيحية المقدسة هو وجماعة من القساوسة الطاعنين فى السن »[٣٦] . ويكاد يكون من أول الأعمال التى استعان فيها چستنيان بسلطته وهو نائب عن چستين أنه رتق الفتق الذى اتسع بين الكنيستين الشرقية والغربية على أثر نشر رسالة الإمبراطور زينون المعروفة باسم هنوتوكون Henotucon . وقد استطاع چستنيان أن يكسب تأييد القساوسة الإيطاليين أتباع الدين الأصيل ضد القوط ، وإخوانهم فى الشرق ضد اليعقوبيين ، بقبوله وجهة نظر البابوية فى المسائل التى كانت موضوع الخلاف .

وكانت هذه الشيعة الأخيرة التى تقول بأن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة قد كثر عددها فى مصر حتى كاد يعادل عدد الكاثوليك . وبلغ من كثرتهم فى

الإسكندرية أن انقسموا هم أيضاً إلى طائفتين يعقوبيتين إحداهما تؤمن بنصوص الكتاب المقدس وأخرى لا تؤمن به . وكان أفراد الطائفتين يقتتلون في شوارع المدينة بينما كانت نساؤهم يتبادلن القذائف من سطوح المنازل . ولما أن أجلست قوات الإمبراطور المسلحة أسقفاً كاثوليكياً فى كرسى أثناسيوس كانت أول تحية حياه بها المصلون أن رجموه بوابل من الحجارة ، ثم قتله جنود الإمبراطور وهو جالس على كرسيه . وبينما كانت الكثلكة تسيطر على أسقفية الإسكندرية ، كان الخارجون عليها يزداد عددهم زيادة مطردة فى ريف مصر ، فكان الفلاحون لا يأبهون بقرارات البطريق أو بأوامر الإمبراطور ، وكانت مصر قد خرجت عن طاعة الإمبراطورية أو أوشكت أن تخرج عن طاعتها قبل أن يفتتحها العرب بقرن كامل .

وتغلبت ثيودورا بثباتها على چستنيان المتردد فى هذه المسألة كما تغلبت عليه فى كثير من المسائل الأخرى ، فأخذت تأتمر مع شماس رومانى يدعى ڤيجليوس Vigilius وتعرض عليه أن تنصبه بابا إذا قبل بعض مطالب اليعقوبيين . وأثمرت هذه المؤامرة ثمرتها ، فأخرج بليساريوس البابا سلڤريوس من رومة (٥٣٧) ونفى إلى جزيرة پلماريا Palmaria حيث مات مما لقيه من قسوة ، ونصب ڤيچليوس بابا فى مكانه بأمر الإمبراطور . وقبل چستنيان فى آخر الأمر رأى ثيودورا القائل بأن مذهب اليعاقبة لا يمكن القضاء عليه ، فحاول أن يسترضى أتباعه فى وثيقة دينية إمبراطورية تعرف باسم الفصول الثلاثة . ثم استدعى ڤيچليوس إلى القسطنطينية وألح عليه بأن يوافق على هذه الوثيقة . وأجابه ڤيجليوس إلى طلبه على كره منه ، فما كان من رجال الدين الكاثوليك فى أفريقية إلا أن أعلنوا طرده من الكنيسة وتجريده من رتبة الكهنوتية (٥٥٠) . وحينئذ قام چستنيان بمحاولة سافرة للسيطرة على البابوية لم يقم بها إمبراطور غيره من قبله . ذلك أنه دعا مجلساً عاماً للاجتماع فى القسطنطينية (٥٥٣) ، لم يكد يحضره أحد

من أساقفة الغرب ، ووافق المجلس على المبادئ التى وضعها چستنيان ، ولكن الكنيسة الغربية رفضتها ، وعاد النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية إلى ما كان عليه من قبل ، ولم يخمد لظاه مدة قرن من الزمان .

وتغلب الموت آخر الأمر على كل هذا الجدل ، فقد توفيت ثيودورا فى عام ٥٤٨ ، وكانت وفاتها أشد الضربات التى حطمت شجاعة چستنيان ، وصفاء ذهنه ، وقوة بدنه . وكان وقتئذ فى الخامسة والستين من عمره ، وكان قد أضعفه نسكه وما حل به من أزمات متعاقبة . فترك شئون الحكم لعماله ، وأهمل وسائل الدفاع التى بذل غاية جهده لإقامتها ، وانهمك فى البحوث الدينية ، وحلت بالبلاد كوارث لا حصر لها نغصت عليه حياته فى السبعة عشر عاماً التى عاشها على حافة القبر . فقد امتاز حكمه بكثرة ما حدث فيه من الزلازل التى دمرت اثنتى عشرة مدينة وكادت تمحو آثارها من الوجود ، ونضب معين خزانة الدولة من جراء النفقات التى تطلبتها إعادة بنائها ؛ وفشا الطاعون فى البلاد فى عام ٥٤٢ ، وجاء بعده القحط فى عام ٥٥٦ ، وعاد الطاعون مرة أخرى فى عام ٥٥٨ . وفى عام ٥٥٩ اجتاز الهون الكتريجور Kutrigur Huns نهر الدانوب ، وهتكوا أعراض الأمهات والعذارى والراهبات ، وألقوا إلى الكلاب بالأطفال الذين ولدتهم السبايا اللائى أخذوهن معهم فى زحفهم ، وتقدموا حتى بلغوا أسوار القسطنطينية . واستغاث الإمبراطور فى هلعه الشديد بالقائد العظيم الذى طالما أنجاه من الكوارث من قبل . وكان بليساريوس وقتئذ ضعيفاً منهوك القوى ، ولكنه انتضى سيفه ولبس درعه ، وجمع ثلثمائة من جنوده المحنكين الذين حاربوا معه فى إيطاليا ، وضم إليهم بضع مئين من الجنود غير المدربين ، وسار بهم ليلاقى الهون البالغ عددهم سبعة آلاف رجل. ووزع قواه بما تعوّد من حذق وبعد نظر ، فأخفى مائتين من خيرة جنوده فى غابات قريبة من ميدان القتال ، فلما أن تقدم الهون لقتاله انقض هؤلاء على جناحهم ، بينا كان بليساريوس يتلقى هجوم أعدائه على رأس جيشه الصغير .

وارتد البرابرة على أعقابهم وولوا الأدبار قبل أن يصاب رومانى واحد بجرح خطير . وغضبت الجماهير فى العاصمة لأن بليساريوس لم يقتفِ أثر العدو ويقبض على قائد الهون ويأت به أسيراً . ودبت الغيرة فى قلب الإمبراطور فاستمع إلى وشاية الواشين بقائده الكبير ، واتهمه بالتآمر عليه ، وأمره بأن يسرح جنوده المسلحين . ولما مات بليساريوس فى عام ٥٦٥ صادر جستنيان نصف ممتلكاته .

وعاش الإمبراطور بعد قائده ثمانية أشهر . وأثمرت دراسته للدين فى سنيه الأخيرة ثمرة عجيبة ! وهل أعجب من أن يخرج على الدين حامى حمى الدين . فقد أعلن جستنيان أن جسد المسيح غير قابل للدنس ، وأن طبيعة المسيح البشرية لم تتعرض فى يوم من الأيام لحاجة من حاجات الجسد الفانى ، ولا لشىء من مساوئه . وأنذره رجال الدين بأنه إذا مات قبل أن يرجع عن هذه الخطيئة « فسيلقى فى نار جهنم ويبقى فيها إلى أبد الآبدين »[٢٧] . ولكنه مات قبل أن يتوب من ذنبه (٥٥٦) ، بعد حياة دامت ثلاثة وثمانين عاماً ، جلس منها على العرش ثمانية وثلاثين .

وكان موت جستنيان نقطة أخرى من النقاط التى يمكن أن تعد خاتمة التاريخ القديم . لقد كان فى حياته إمبراطوراً رومانيا بحق ، يفكر فى جميع شئون الإمبراطورية شرقيها وغربيها على السواء ، ويبذل كل ما وسعه من جهد ليصد عنها البرابرة ، وليعيد إلى الإمبراطورية الواسعة حكما منظما وشرائع متجانسة . ولقد أفلح فى تحقيق جانب كبير من هذا الغرض : فقد استرد أفريقية ، ودلماشيا ، وإيطاليا ، وقورسقة ، وسردينيا ، وصقلية ، وبعض أسپانيا ، وطرد الفرس من سوريا ، وتضاعفت رقعة الإمبراطورية فى عهده ضعفين . وتمثل شريعته بما فيها من وحدة ، ووضوح ، واتساع فى الأفق ، ذروة فى تاريخ القانون . ولسنا ننكر أن إدراته لشئون الإمبراطورية قد لوثها فساد الموظفين ، ورشوة الحكام ، وفدح الضرائب ، وتدخل الأهواء ، والنزوات فى العفو والعقاب ؛ ولكنها مع ذلك

كانت تمتاز بالعمل المتواصل على تنظيم أداة حكم الإمبراطورية وشئونها الاقتصادية ؛ ولقد أفلحت فى إقامة صرح من النظام إن يكن معادياً للحرية فإنه قد حفظ كيان الحضارة فى ركن من أركان أوربا فى الوقت الذى غرقت فيه سائر القارة فى ظلمات العصور المظلمة . هذا إلى أنه قد خلد اسمه فى تاريخ الصناعة والفن كما يشهد بذلك جامع أياصوفيا الذى هو أثر من آثاره . وما من شك فى أن أشياعه من معاصريه قد بدا لهم أن الإمبراطورية استطاعت مرة أخرى أن تصد تيار التدهور وأن تبعد عنها يد الردى إلى حين .

غير أن الذى يؤسف له أن ذلك لم يكن أكثر من مهلة جد قصيرة . فقد ترك چستنيان خزائن الدولة خاوية ، وكان قد وجدها عامرة ، وكانت شرائعه القاسية الخالية من التسامح الدينى ، وكان جباته اللصوص ، سبباً فى نفور الأمم التى استولت جيوشه على بلادها ، فلم يطل ولاؤها له ، وكانت هذه الجيوش قد ضعفت مِرَّتها ، وتبدد شملها ، ولم تنل أجورها ، فلم يكن فى وسعها أن يطول دفاعها عن البلاد التى افتتحتها وأحلت بها الخراب والدمار . وسرعان ما تركت أفريقية للبربر ، وسوريا ، وفلسطين ، ومصر ، ثم أفريقية وأسپانيا للعرب ، وإيطاليا للمبارد . وقبل أن ينقضى قرن واحد على موت چستنيان خسرت الإمبراطورية أكثر مما كسبه هو لها . وإذا ما عدنا ببصرنا إلى الماضى أدركنا من خلال ثناياه ، وامتلأت نفوسنا زهواً بهذا الإدراك ، ما كان فى نظام حكم الإمبراطورية من أخطاء . وبدا لنا أنه كان من الخير كل الخير أن تجمع القوميات والمذاهب الدينية الناشئة فى نظام اتحادى ، وأن تمديد الصداقة إلى القوط الشرقيين الذين حكموا إيطاليا حكماً صالحاً إلى حد كبير ، وأن تكون الدولة أداة لحفظ الثقافة القديمة من الضياع ومَعِيناً غزيراً تستمد منه الدول الجديدة أسباب حضارتها ورفاهيتها .

وليس ثمة مايضطرنا إلى قبول حكم پروكپيوس على چستنيان ، فقد كفانا

پروكپيوس نفسه مؤونة دحض هذا الحكم(٢٨) : لقد كان الإمبراطور حاكما عظيما ، نشأت أخطاؤه من إخلاصه لعقيدته وجريه فيها على سنن المنطق : فنشأ اضطهاده من ثقته ، ونشأت حروبه من نزعته الرومانية ، ومصادرته للأملاك من هذه الحروب . فنحن نأسف أشد الأسف لضيق أفقه وعنف أساليبه ، ونطرب لتحقيقه أغراضه . لقد كان هو وبليساريوس ، لابنياس وإيتيوس ، آخر الرومان .

الباب السادس

الحضارة البيزنطية

٣٣٦ – ٥٦٥

الفصل الأول

العمل والثروة

كان الاقتصاد البيزنطى مزيجاً من المشروعات الفردية ، والتنظيم الحكومى ، والصناعات المؤممة ، شبيهاً بما يجرى به العمل فى هذه الأيام . وكان امتلاك الفلاحين للأراضى التى يزرعونها لا يزال فى عهد جستنيان هو القاعدة المعمول بها فى الزراعة ؛ ولكن الضياع كانت آخذة فى الاتساع ، وكان كثير من الزراع يضطرون شيئاً فشيئاً إلى الخضوع الإقطاعى لكبار الملاك ؛ وكان الذى يرغمهم على هذا الخضوع هو الجفاف ، والفيضان ، والتنافس ، والعجز عن فلح الأرض ، والضرائب ، والحروب . وكانت الموارد المعدنية التى فى باطن الأرض ملكاً للدولة ولكن معظمها كانت تستغله الهيئات الخاصة التى تستأجره من الحكومة . وكانت مناجم بلاد اليونان قد نضب معينها ، ولكن مناجم قديمة وجديدة كانت تستغل فى تراقية ، وپنطس ، وبلاد البلقان . وكان معظم عمال الصناعة « أحراراً » أى أنهم لم يكن يرغمهم على العمل إلا عدم رغبتهم فى الموت جوعاً ؛ ولم يكن للاسترقاق المباشر فى خارج الخدمة المنزلية وصناعة النسيج إلا شأن ضئيل ، ولكن الدولة كانت تلجأ إلى السخرة فى سوريا ، وفى مصر وشمالى أفريقية على الأرجح المحافظة على قنوات الرى الكبرى[1] . وكانت الحكومة تنتج فى مصانعها معظم

ما يحتاجه الجيش والموظفون ، والحاشية من البضائع[٢] .

وأثار جماعة من الرهبان النساطرة من أواسط آسية حوالى عام ٥٥٢ اهتمام الإمبراطور چستنيان بصناعة الحرير ، إذ عرضوا عليه أن يمدوا الإمبراطورية بموارد منه مستقلة عن غيرها من البلاد . وإذا ذكرنا كثرة الحروب التى شبت نارها بين بلاد اليونان والرومان من جهة وبلاد الفرس من جهة أخرى للسيطرة على الطرق التجارية الموصلة إلى الصين والهند ، ولاحظنا اسم « طريق الحرير » الذى كان يطلق على الممرات الشمالية الموصلة إلى بلاد الشرق الأقصى ، واسم « سريكا Serica » (أرض الحرير) الذى كان الرومان يطلقونه على بلاد الصين واسم « سرنديا Serindia » الذى كانوا يطلقونه على الإقليم الواقع بين الصين والهند ، إذا ذكرنا هذا كله أدركنا سبب قبول چستنيان لهذا الاقتراح والتحمس له . وعاد الرهبان إلى أواسط آسية ثم جاءوا إليه ومعهم بويضات دود القز ، وأكبر الظن أنهم جاءوا معهم أيضاً ببذور شجر التوت[٣] . وكانت صناعة الحرير قائمة قبل ذلك فى بلاد اليونان ، ولكنها كانت قائمة فى نطاق ضيق ، وكانت تعتمد على دود القز البرى الذى يعيش على أوراق أشجار البلوط والدردار والسرو . وكانت نتيجة هذا الاقتراح أن قامت صناعة الحرير فى نطاق واسع فى بلاد الإمبراطورية وخاصة فى سوريا وبلاد اليونان ، وتقدمت فى بلاد البلوبونيز تقدماً أكسب شبه الجزيرة اسم موريا Morea — أى أرض شجر التوت Morus Alba .

وكانت الدولة تحتكر صناعة بعض أنواع من المنسوجات الحريرية والصبغات الأرجوانية فى مدينة القسطنطينية ، وكانت هاتان الصناعتان تقومان فى حوانيت داخل القصر الإمبراطورى أو قريبة منه[٤] . ولم يكن يسمح بارتداء الثياب الحريرية المصبوغة الغالية إلا لكبار موظفى الحكومة ، وكان أغلاها كلها لا يسمح به لغير أفراد الأسرة الإمبراطورية . ولما أخرجت المشروعات الفردية خفية منسوجات حريرية تماثل منسوجات الحكومة وباعتها لغير الطبقات الممتازة

قضى چستنيان على هذه « السوق السوداء » بأن أزال معظم القيود المفروضة على لبس الحرير الغالى والملابس ذات الصبغة الغالية ، وأغرق الحوانيت بالمنسوجات الحكومية ، وباعها لها بأثمان لا تستطيع المصانع الخاصة مجاراتها ؛ ولما قضى بهذه الطريقة على المنافسة عادت الحكومة فرفعت الأثمان مرة أخرى (٥) . وحذا چستنيان حذو دقلديانوس فعمل على بسط السيطرة الحكومية على جميع الأثمان والأجور . وحدث بعد انتشار الطاعون فى عام ٥٤٢ أن نقصت الأيدى العاملة ، وارتفعت أجور العمال ، وتضاعفت أثمان السلع . وعمل چستنيان ما عمله البرلمان الإنجليزى فى عام ١٣٥١ بعد طاعون ١٣٤٨ ، فأراد أن يساعد أصحاب الأعمال والمستهلكين بمرسوم يحدد الأثمان والأجور جاء فيه :

لقد وصل إلى علمنا أن التجار ، والصناع ، والزراع ، والبحارة قد تغلبت عليهم ، بعد أن حل بنا غضب الله ، روح الجشع ، فأخذوا يطلبون أثماناً وأجوراً تعادل ضعفى ما كانوا ينالونه قبل أو ثلاثة أضعافه . . . . لذلك نحرم على هؤلاء جميعاً وأمثالهم أن يطلبوا أثماناً أو أجوراً أكثر مما كانوا يطلبونه من قبل . كذلك نحرم على متعهدى البناء ، أو الأعمال الزراعية أو غيرهما أن يؤدوا للعمال أعلى مما جرت العادة بآدائه فى الأيام الماضية (٦) . وليس لدينا ما يدلنا على ما كان لهذا المرسوم من أثر .

وراجت التجارة الداخلية والخارجية فى الإمبراطورية البيزنطية من عهد قسطنطين إلى أواخر حكم چستنيان . وكان ما فيها من الطرق والجسور الرومانية يتعهد ويصلح بانتظام ، ودفع الحرص الشديد على الكسب وما يبعثه من إبداع وإنشاء إلى بناء أساطيل بحرية ربطت العاصمة بمئات الثغور فى الشرق والغرب . وظلت القسطنطينية من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر أعظم الأسواق التجارية ومراكز النقل البحرى فى العالم كله ، وانحطت الإسكندرية التى كانت لها السيادة فى هذه الناحية منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، فأصبحت منزلتها فى

التجارة بعد أنطاكية(٧) . وكانت سوريا كلها تعج بالمتاجر والمصانع ، ويرجع هذا إلى موقعها بين بلاد الفرس والقسطنطينية ، وبين القسطنطينية ومصر ، وإلى ما اتصف به تجارها من حذق وحب للمغامرة بحيث لم يكن ينافسهم فى انتشار تجارتهم ودهائهم إلا اليونان الذين لا يجارونهم فى المثابرة والجلد ، كما يرجع إلى انتشارهم هم أنفسهم فى جميع بلاد الإمبراطورية ، فكانوا بذلك عاملا فى إيجاد ذلك الطابع الأخلاقى والفنى الذى طبعت به الحضارة البيزنطية .

وإذا كان الطريق التجارى القديم بين سوريا وأواسط آسية يخترق بلاد الفرس المعادية للدولة البيزنطية ، فقد أراد جستنيان أن ينشئ طريقاً جديداً بإقامة صلات ودية بينه وبين الحميريين المقيمين فى الطرف الجنوبى الغربى من جزيرة العرب ، وملوك الحبشة ، وكان هؤلاء أولئك يسيطرون على أبواب البحر الأحمر الجنوبية . وكانت السفن التجارية البيزنطية تخترق هذه المضايق والمحيط الهندى فى طريقها إلى الهند ؛ ولكن الفرس الذين كانوا يسيطرون على ثغور الهند كانوا يفرضون على هذه التجارة رسوماً عالية كأنها تمر ببلاد إيران نفسها . فلما خاب رجاء جستنيان فى هذا الطريق شجع إنشاء المرافئ البحرية على البحر الأسود ، فكانت المتاجر ترد إلى هذه المرافئ ثم تنقل فى السفن إلى خلقيس Colchis ومنها يطرق القوافل إلى سجديانا Sogdiana ، حيث يلتقى تجار الصين وتجار الغرب ويتسلمون دون أن يتدخل الفرس فيما بينهم . وبفضل هذه التجارة الناشطة التى كانت تسير فى هذا الطريق الشمالى ارتفعت سمرنديا إلى أعلى درجات الثروة والفن فى العصور الوسطى . وظلت التجارة اليونانية فى هذه الأثناء محتفظة بمنافذها القديمة فى الغرب .

وكان من أكبر العوامل فى هذا النشاط الاقتصادى الكبير النقد الإمبراطورى الذى كان عملة مقبولة فى جميع أنحاء العالم تقريباً لثباته وسلامته . وكان قسطنطين قد سك نقداً جديداً ليحل محل الأوريوس Aurues الذى سكه

قيصر . وكانت هذه القطعة النقدية الجديدة المعروفة باسم صوليدوس Solidus أو بيزنت Bezant تزن ٤٫٥٥ جرامات أو جزءاً من ستة أجزاء من الأوقية الإنجليزية من الذهب ، وتعادل قيمته ٥٫٨٣ من الدولارات فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٦ . وإن تدهور الصوليدوس فى قيمته المعدنية والاقتصادية حتى صار هو الصلدى ليدل أوضح دلالة على ارتفاع الأثمان خلال عصور التاريخ المختلفة ، وعلى انحطاط قيمة النقد ، ويوحى بأن الادخار فضيلة تتطلب ممارستها كثيراً من الدقة والحصافة . وارتقت أعمال المصارف كثيراً فى ذلك الوقت ، وفى وسعنا أن نعرف ما كان يسود الإمبراطورية البيزنطية من رخاء عند ما ارتقى جستنيان العرش إذا عرفنا أنه حدد سعر الفائدة بما لا يزيد على أربعة فى المائة لقروض الفلاحين ، وستة فى المائة للقروض التجارية ، واثنى عشر فى المائة للنقود المستثمرة فى المشروعات البحرية(٨) . ولم تكن فوائد القروض منخفضة هذا الانخفاض فى ذلك الوقت فى أى بلد آخر من بلاد العالم .

وكان أعضاء مجلس الشيوخ وكبار التجار يستمتعون بثراء عظيم وبمظاهر من الترف قلما استمتع بهما أمثالهم قبلهم فى رومة وذلك بفضل ما كان يمتلكه الأولون من أراض واسعة ، وما يقدم عليه الآخرون من مغامرات تجارية فى أقطار نائية تتناسب أرباحها مع ما كانت تتعرض له أموالهم من الخطر . وكان الأشراف فى الشرق أرقى ذوقاً من نظائرهم فى رومة فى أيام شيشرون وجوفنال . فلم يكن أفراد هذه الطبقة يتخمون بطونهم بالأطعمة الغريبة يحضرونها من البلاد النائية ، وكان الطلاق عندهم أقل منه فى رومة ، وكانوا أكثر منهم إخلاصاً وجداً فى خدمة الدولة ، وكان أكثر ما يسرفون فيه هو الملابس المزركشة ، والأثواب ذات الأهداب ، المغطاة بالفراء والأصباغ البراقة ، والجلابيب الحريرية المصبوغة بصبغات غالية والمطرزة بخيوط الذهب والمنقوشة عليها مناظر مستمدة من الطبيعة أو من التاريخ .

وكان بعض الناس أشبه « بجدران مصورة متحركة » . من ذلك أن أحد أعضاء مجلس الشيوخ قد صورت على ثوبه قصة المسيح من أولها إلى آخرها[٩] ؛ وكان تحت هذه الطبقة ذات الغشاء الذهبي طبقة وسطى ترزح تحت أعباء الضرائب ، وطبقة أخرى كادحة من موظفي الدولة ، وخليط من الرهبان الذين لا ينقطعون عن التدخل في شئون الناس ، وأمشاج من صعاليك المدن كانوا ضحية نظام الأثمان ، لا يخفف عنهم أعباء الحياة إلا ما يتلقونه من الدولة من إعانات .

ولم تكن المبادئ الخلقية من الناحيتين التجارية والجنسية تختلف اختلافاً بيناً عن أمثالها في الثقافات الأخرى في نفس هذه المرحلة من التطور الاقتصادى . لقد كان كريستوم يندد بالرقص ويقول إنه يثير الشهوات ، ولكن القسطنطينية لم تنقطع عن الرقص رغم تنديد كريسستوم ، وظلت الكنيسة ترفض تعميد الممثلين ، ولكن المسرح البيزنطى ظل يعرض تمثيلياته الصامتة الإيمائية ، لأن الناس يجب أن يجدوا ما يخفف عنهم متاعب وحدة الزواج وملل الحياة الرتيبة . ويقول پروكپيوس في كتابه التاريخ السرى ، وهو الذى لا يوثق به قط ، إن النساء في وقته « كن جميعهن تقريباً فاسدات »[١٠] . وكانت وسائل منع الحمل من الموضوعات التى لا ينفك الناس عن دراستها والبحث فيها . وقد أفرد لها أريباسيوس Oribasius أشهر أطباء القرن الرابع فصلا خاصاً في كتابه الموجز في الطب . وأوصى كاتب آخر في الطب يدعى إيتيوس Aetius من رجال القرن السادس باستخدام الخل وماء البحر ، أو الامتناع عن الجماع في بداية فترة الحيض ونهايتها[١١]. وحاول جستنيان وحاولت ثيودورا أن يقللا من الدعارة بنفى القوادات وأصحاب المواخير من القسطنطينية . ولكن نتيجة العمل لم تدم طويلا . وكانت منزلة المرأة بوجه عام عالية ، ولم تكن النساء في أى عصر من العصور السابقة أقل تقيداً بالقوانين والعادات أو أعظم نفوذاً في الحكومة منهن في ذلك العصر .

الفصل الثانى

العلم والفلسفة

٣٦٤ – ٥٦٥

ترى ماذا كان حظ التربية والتعليم ، والأدب ، والعلوم والفلسفة فى هذا المجتمع الذى يبدو فى ظاهره مجتمعاً دينياً ؟

لقد ظل التعليم الابتدائى فى أيدى مدرسين خصوصيين يؤدى لهم الآباء أجورهم قدراً معيناً عن كل تلميذ فى فترة محددة من الزمن . أما التعليم العالى فقد ظل إلى أيام ثيودوسيوس الثانى يقوم به محاضرون ليس لغيرهم سلطان عليهم ، وأساتذة تؤدى لهم المدينة أو الدولة أجورهم . ويشكو لبيانيوس من ضآلة أجور هؤلاء الأساتذة ويقول إنهم كانوا يتوقون من شدة الجوع إلى الذهاب إلى الخباز ، ولكنهم يمتنعون عن الذهاب إليه خشية أن يطالبهم بأداء ما عليهم من الديون(١٢) . غير أننا مع ذلك نقرأ عن مدرسين أمثال يومانيوس يتقاضون ٦٠٠ر٠٠٠ سسترس (٣٠ر٠٠٠ ريال أمريكى ؟) فى كل عام(١٣) . وكان أحسن الأفراد فى هذه المهنة وأسوأهم يتناولون أجوراً أكثر مما يستحقون ، أما من عداهم فإنهم يتقاضون أقل مما يجب أن يتقاضوه . وعمل يوليان على نشر الوثنية بأن جعل الامتحانات التى تقوم بها الدولة والتعيين من قبلها هو القاعدة المتبعة فى تعيين أساتذة الجامعات كلهم(١٤) . وجاء ثيودوسيوس الثانى ، لأسباب عكس هذا لسبب السابق ، فجعل الإقدام على التعليم بغير ترخيص من الدولة جناية ، وما لبث هذا الترخيص أن اقتصر على أتباع الدين الرسمى للدولة .

وكان مقر الجامعات الكبرى فى الدولة فى الإسكندرية ، وأثينة ،

والقسطنطينية ، وأنطاكية ؛ وكانت هذه الجامعات تتخصص على التوالى فى تعليم الطب ، والفلسفة ، والأدب ، والبلاغة . وجمع أريباسيوس Oribasius البرجومى (حوالى عام ٣٢٥ — ٤٠٣) طبيب يوليان موسوعة طبية مؤلفة من سبعين « كتاباً » ؛ وألف إيتيوس الأميدى Aëtius of Amida طبيب البلاط فى عهد جستنيان موسوعة أخرى شبيهة بهذه الموسوعة تمتاز بأحسن ما فى الطب القديم من تحليل لأمراض العين ، والأذن ، والأنف ، والفم ، والأسنان ؛ وبفصول شيقة فى تضخم الغدة الدرقية والصرع ، والعمليات الجراحية من استئصال اللوز إلى جراحة البواسير . وكان الإسكندر الترالى Alexander of Tralles (حوالى عام ٥٢٥ — ٦٠٥) أكثر مؤلفى الطب ابتكاراً فى ذلك العهد : فقد وضع أسماء لكثير من الطفيليات المعوية المختلفة ، ووصف اضطرابات القناة الهضمية وصفاً دقيقاً ؛ وبحث فى أمراض الرئتين وعلاجها بحثاً وافيا لا نظير له فيما سبقه من البحوث . وترجم كتابه المدرسى فى علم الأمراض الباطنية وطبائعها ، وفى الطب العلاجى ، إلى اللغات السريانية ، والعربية ، والعبرية ، واللاتينية ، وكان له فى العالم المسيحى أثر لا يعلو عليه إلا أثر كتب أبقراط ، وجالينوس ، وسورانوس(١٥) :

ويقول أوغسطين إن تشريح الأجسام الآدمية كان مألوفا فى القرن الخامس(١٦) . ثم طغت الخرافات على الطب شيئاً فشيئاً ، فآمن معظم الأطباء بالتنجيم ، وأشار بعضهم باستخدام طرق فى العلاج تختلف باختلاف مواقع الكواكب(١٧) . وكان مما أشار به إيتيوس لمنع الحمل أن تضع المرأة بالقرب من شرجها سن طفل(١٨) ، وسبق مارسلوس فى كتابه فى الطب De medicamentis (٣٩٥) المحدثين فأشار بلبس قدم أرنب(١٩) . وكان للبغال حظ أحسن من حظ الآدميين ؛ ذلك أن أحسن كتاب علمى فى ذلك العهد هو كتاب فلاڤيوس الڤجتيوسى Flavius Vegitius (٣٨٣ — ٤٥٠) المعروف باسم : Digestorum artis mulomedicinae libri IV ، ويكاد هذا الكتاب أن يكون هو الأساس

الذى قام عليه الطب البيطرى ، وقد ظل هو المرجع الذى يعتمد عليه حتى عصر النهضة .

وسارت الكيمياء والكيمياء الكاذبة جنباً إلى جنب . وكانت الإسكندرية مركزهما جميعاً . وكان الباحثون فى الكيمياء الكاذبة بوجه عام مخلصين فى بحثهم ، يستخدمون الطرق التجريبية بأمانة أكثر مما يستخدمها غيرهم من العلماء الأقدمين . وقد كان لهم الفضل فى تقدم كيمياء المعادن والسبائك تقدما كبيراً ؛ ولسنا واثقين من أن المستقبل لن يحقق ما كانوا يسعون إليه من أغراض . كذلك كان للتنجيم أساس صحيح شريف ؛ فقد كان الناس جميعا يؤمنون إيماناً لا يقبل الشك بأن النجوم ، والشمس ، والقمر ، تؤثر كلها فيما يقع على الأرض من أحداث ، ولكن الدجالين أقاموا على هذه الأسس صرحاً عجيباً من السحر ، والتنبؤ بالغيب والتمائم والرقى المستمدة من أسماء الكواكب . وكان استطلاع الأبراج السماوية لمعرفة مستقبل الناس أكثر انتشاراً فى مدائن العصور الوسطى منه فى نيويورك أو باريس فى هذه الأيام . وشاهد ذلك أن القديس أوغسطين يحدثنا عن صديقين كانا يرصدان بعناية مواقع النجوم وقت مولد حيواناتهما المستأنسة[٢٠] . ولقد كان كثير مما عند العرب من سخافات فى التنجيم والكيمياء الكاذبة مما ورثه المسلمون عن اليونان الأقدمين .

وكانت أظرف شخصية فى علوم ذلك العصر هى شخصية هيباشيا الفيلسوفة والعالمة الرياضية ، وكان والدها ثيون Theon هو آخر من سجلت أسماؤهم فى سجل أساتذة متحف الإسكندرية . وقد كتب شرحاً لكتاب Syntaxis لبطليموس أقر فيه بما كان لابنته من نصيب فى تأليفه . ويقول سويداس إن هيباشيا كتبت شروحا لكتاب القوانين الفلكية لبطليموس ، وكتاب المخروطات لأپلونيوس البرجى[٢١] ، لكن مؤلفاتها كلها لم يبق منها شىء .

ثم انتقلت من الرياضيات إلى الفلسفة ، وسلكت فى بحوثها على هدى أفلاطون وأفلوطين ، و « بزت جميع فلاسفة زمانها » (على حد قول سقراط المؤرخ المسيحى)(٢٢) . ولما عينت أستاذة للفلسفة فى متحف الإسكندرية هرع لسماع محاضراتها عدد كبير من الناس من شتى الأقطار النائية . وهام بعض الطلاب بحبها ، ولكن يبدو أنها لم تتزوج قط . ويحاول سويداس أن يقنعنا بأنها تزوجت ، وبأنها رغم زواجها بقيت عذراء طول حياتها(٢٣) . وينقل لنا هو نفسه قصة أخرى ، لعل أعداءها هم مخترعوها مضمونها أن شاباً ضايقها بإلحاحه حتى عيل صبرها فما كان منها إلا أن رفعت ثيابها وقالت له : « إن الذى تحبه هو هذا الذى يرمز إلى التناسل القذر وليس هو شيئاً جميلا قط »(٢٤). وقد بلغ من حبها للفلسفة أنها كانت تقف فى الشوارع وتشرح لكل من يسألها النقط الصعبة فى كتب أفلاطون أو أرسطو . ويقول سقراط المؤرخ إنه « قد بلغ من رباطة جأشها ودماثة أخلاقها الناشئتين من عقلها المهذب المثقف أن كانت فى كثير من الأحيان تقف أمام قضاة المدينة وحكامها دون أن تفقد وهى فى حضرة الرجال مسلكها المتواضع المهيب الذى امتازت به عن غيرها ، والذى أكسبها احترام الناس جميعاً وإعجابهم بها » .

لكن هذا الإعجاب لم يكن فى واقع الأمر يشمل الناس جميعاً ، فما من شك فى أن مسيحيى الإسكندرية كانوا ينظرون إليها شزراً ، لأنها لم تكن كافرة فاتنة فحسب ، بل كانت إلى ذلك صديقة وفية لأرستيز Arestes حاكم المدينة الوثنى . ولما أن حرض سيريل Cyril كبير الأساقفة أتباعه الرهبان على طرد اليهود من الإسكندرية أرسل أرستيز إلى ثيودوسيوس الثانى تقريراً عن الحادث بعيداً عن النزاهة بعداً استاء منه كبير الأساقفة ورجاله أشد الاستياء . وقذف بعض الرهبان الحاكم بالحجارة ، فأمر بالقبض على زعيم الفتنة وتعذيبه حتى مات (٤١٥) . واتهم أنصار سيريل هيپاشيا بأنها صاحبة السلطان الأكبر على أرستيز ، وقالوا إنها هى

وحدها التي تحول دون الاتفاق بين الحاكم والبطريق . وفي ذات يوم هجم عليها جماعة من المتعصبين يتزعمهم « قارئ » أي كاتب صغير من موظفي سيريل ، وأنزلوها من عربتها ، وجروها إلى إحدى الكنائس ، وجردوها من ملابسها ، وأخذوا يرجمونها بقطع القرميد حتى قضوا على حياتها ، ثم قطعوا جسمها إرباً ، ودفنوا ما بقي منه في مرح وحشي شنيع (٤١٥)[٢٥]. ولم يعاقب أحد من المجرمين واكتفى الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني بأن قيد حرية الرهبان في الظهور أمام الجماهير ، (سبتمبر عام ٤١٦) ، وحرم المناصب العامة على الوثنيين (ديسمبر عام ٤١٦) . وبذلك كان انتصار سيريل انتصاراً كاملا .

ورحل أساتذة الفلسفة الوثنيون بعد موت هيپاشيا إلى أثينة ليتقوا فيها الأذى ، وكان التعليم غير المسيحي لا يزال حراً نسبياً ولا يزال معلموه آمن على أنفسهم من غيرهم في المدن الأخرى . وكانت حياة الطلاب فيها لا تزال نشيطة يسودها معظم ما يسود الحياة العلمية الراقية من ضروب السلوى — من تآخ بين الطلاب ، وأثواب تميزهم من غيرهم ، وعقاب يفرض عليهم في صورة عمل إضافي ، ومرح عام وبهجة[٢٧] . وكانت المدرستان الرواقية والأبيقورية قد اختفتا من المدينة ، ولكن المجمع العلمي الأفلاطوني كان يتدهور ذلك التدهور الرائع الذي آل إليه أمره في عهد ثمستيوس وپرسكوس Priscus وبركلوس Proclus . وكان لثمستيوس (حوالي ٣٨٠) بما كتبه من شروح على كتب أرسطو أثر كبير في ابن رشـد وغيره من زعماء الفكر في العصور الوسطى . وكان پرسكسوس في فترة من الزمن صديق يوليان ومشيره ، وقد قبض عليه ڤالنز وفلنتنيان الأول واتهماه باستخدام السحر لكي تصيبهما الحمى ، ثم عاد بعد ذلك إلى أثينة وظل يعلم فيها حتى توفي عام ٣٩٥ وهو في سن التسعين . واتخذ پركلوس (٤١٠ — ٤٨٥) الرياضيات طريقاً إلى الفلسفة كما يفعل الأفلاطونيون الحقيقيون . وكان هذا الفيلسوف رجل صبر وجلد ، فرتب آراء الفلسفة اليونانية كلها في نظام واحد ،

وخلع عليها صورة علمية سطحية . ولكنه إلى هذا كان يتصف أيضاً بشيء من المزاج الصوفى للفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، وكان يظن أن فى وسع الإنسان بفضل صومه وتطهير نفسه أن يكون على صلة بالكائنات غير البشرية(٢٨) . وكانت مدارس أثينة قد فقدت حيويتها بعد أن أغلقها جستنيان فى عام ٥٢٩ ، واقتصر عملها على ترديد نظريات المعلمين الأقدمين وإعادتها مراراً وتكراراً ؛ وكان التراث الغظيم الذى آل إليها قد أثقلها حتى كاد يقضى عليها ، ولم تخرج عليه إلا إلى نزعة تصوفية تستعير مادتها من المذاهب المسيحية البعيدة عن الدين الأصيل . ثم أغلق جستنيان مدارس علماء البلاغة كما أغلق مدارس الفلاسفة ؛ وصادر أملاكها وحرم الاشتغال بالتعليم على جميع الوثنيين ؛ وبذلك انقضى عهد الفلسفة اليونانية بعد حياة دامت أحد عشر قرناً من الزمان .

ويبدو الانتقال من الفلسفة إلى الدين ، ومن أفلاطون إلى المسيح ، واضحاً جلياً فى بعض الكتابات اليونانية العجيبة التى يعزوها مفكرو العصور الوسطى عن ثقة ويقين إلى ديونيسيوس الأريوباجى Dionysius the Areopagite ، وهو رجل من أهل أثينة اعتنق تعاليم بولس . وأهم مؤلفات هذا الكاتب أربعة هى : فى السلطة الكهنوتية السماوية ، وفى السلطة الاكليروسية ، وفى الأسماء القدسية ، وفى اللاهوت الصوفى .

ولسنا نعرف من هو ديونيسيوس صاحب هذه المؤلفات ، ولا متى أُلفت أو أين ألفت . وتدل محتوياتها على أنها كتبت بين القرنين الرابع والسادس ، وكل الذى نعرفه أنه قلما كان لغيرها من الكتب ما لها من أثر عميق فى علم اللاهوت المسيحى . وقد ترجم يوحنا اسكوتوس أرجينا John Scotus Erigena واحداً منها وبنى عليه تعاليمه . وكان ألبرتوس مجنوس Albertus Magnus وتومس أكويناس يجلانها ، وكان

مائة من المتصوفة اليهود ، والمسلمين ، والمسيحيين على السواء يستمدون آراءهم منها ، وكان فنانو العصور الوسطى ورجال الدين الشعبيون يتخذونها مرشداً هادياً معصوما من الزلل يصل بهم إلى الكائنات العليا وطبقات الصديقين الأبرار . وكان غرضها العام أن تجمع بين الأفلاطونية الحديثة وعلوم الكون المسيحيه . ومن تعاليمها : أن الله موجود في جميع الكائنات ، وأنه مصدر حياتها جميعاً ، وإن كان جلاله فوق مدارك العقل ، وأن بين الله والبشر ثلاث طبقات ثلاثية من الكائنات غير البشرية هي : السيرافيم ، والشيروبيم ، وحملة العرش ، والقوى المسيطرة ، والفضائل ، والسلطات ؛ ثم الملائكة العليا وكبار الملائكة ، والملائكة (وليذكر القارئ كيف رتب دانتي هذه الطوائف التسع حول عرش الله ، وكيف جمع ملتن بعض أسمائها في بيت له طنان رنان) . وتقول هذه الكتب إن الخلق هو عملية انبعاث : أي أن الأشياء جميعها تنبعث من الله عن طريق تلك الطبقات من الملائكة ، ثم تنعكس الآية فتقود هذه الطبقات التسع من الهيئة السماوية العليا بني الإنسان وجميع المخلوقات وتعود بهم إلى الله .

الفصل الثالث

الأدب

٣٦٤ — ٥٦٥

أعاد ثيودوسيوس الثانى ، والنائبون عنه فى عام ٤٢٥ تنظيم التعليم العالى فى القسطنطينية وقرروا رسمياً إنشاء جامعة مؤلفة من واحد وثلاثين مدرساً ، منهم واحد للفلسفة ، واثنان للقانون ، وثمانية وعشرون « لنحو » اللغة اليونانية واللاتينية وبلاغتها . وكان العلمان الأخيران يشملان دراسة آداب اللغتين ، وتوحى كثرة عدد المدرسين المخصصين لهذه الآداب بما كان يوجه إلى الأدب من عناية كبيرة . وقد وضع أحد أولئك الأساتذة واسمه پرسكيان Priscian حوالى عام ٥٢٦ كتاباً ضخماً فى نحو اللغتين اللاتينية واليونانية أصبح من أهم الكتب الدراسية فى العصور الوسطى . ويبدو أن الكنيسة الشرقية لم تكن تعترض وقتئذ على نسخ الآداب الوثنية[٢٩] . وقد ظلت مدرسة القسطنطينية ، حتى آخر عهد الإمبراطورية البيزنطية ، تنقل بأمانة روائع الأدب القديم رغم احتجاج عدد قليل من القديسين . وحوالى عام ٤٥٠ أنشأ موسايوس Musaeus ؛ وهو رجل لا يُعرَف موطنه الأصلى ، قصيدته الذائعة الصيت ، هيرو وليندر Hero & Leander ، ذكر فيها كيف حاول ليندر كما حاول بيرن Byron من بعده أن يعبر مضيق الهلسپنت سباحة لكى يصل إلى حبيبته هيرو ، وكيف غرق أثناء هذه المحاولة ، وكيف أبصرته هيرو يقذف به الموج ميتاً أسفل برجها « فألقت بنفسها من فوق الصخرة الوعرة الشامخة تطلب لنفسها مع حبيبها الميت جدثاً لها بين الأمواج»[٣٠] .

وكان المسيحيون المهذبون من رجال الحاشية البيزنطية هم الذين وضعوا آخر ما تحتويه السجلات اليونانية القديمة من قصائد غزلية جميلة ، كتبت بالأوزان

والروح القديمة وبعبارات تشير إلى الآلهة الوثنية . وها هى ذى أغنية منقولة عن أجاثياس Agasthias (حوالى ٥٥٠) لعلها قد أعانت بن چنسن Ben Jonson على كتابة إحدى روائع مسرحياته :

« لا أحب الخمر ، ولكن إن شئت أن تبدلى بالفرح أحزان رجل حزين، فارتشفى منها الرشفة الأولى ، ثم قدمى لى الكأس أتناولها من يدك . فإذا مسنها شفتاك فلن أبقى بعدئذ صابراً جاسياً أتجنب الكأس الحلوة ، لأنها تحمل إلى قبلتك وتحدثنى عما نالته من الابتهاج بك » .

وأهم ما كتب من أدب ذلك العصر هو ما كتبه المؤرخون . فقد كتب أونابيوس السرديسى Eunapius of Sardis **تاريخاً عاما** لذلك العصر من عام ٢٧٠ إلى ٤٠٠ جعل بطله چستنيان ، وترجم لثلاثة وعشرين من السوفسطائيين ورجال الأفلاطونية الحديثة ترجمة لا تخرج عما كان يدور على الألسنة من سيرهم . وقد ضاع هذا الكتاب ولم يبق له أثر . وكتب سقراط ، وهو مسيحى من أهل القسطنطينية ومن أتباع الدين الرسمى فيها ، **تاريخ الكنيسة** من عام ٣٠٩ إلى ٤٣٩ وهو كتاب دقيق نزيه إلى حد كبير كما يدلنا على ذلك ما كتبه عن هيپاشيا . ولكن المؤلف يحشو قصته بالخرافات والأقاصيص والمعجزات ويتحدث كثيراً عن نفسه كأنه يصعب عليه أن يفرق بين نفسه وبين العالم الذى يكتب عنه . ويختم كتابه بحجة طريفة يدعو بها إلى قيام السلام بين الشيع المختلفة ، فيقول إنه إذا ساد السلام فلن يجد المؤرخون حسب ظنه شيئاً يكتبون عنه ، فتنقرض لهذا السبب تلك الطائفة من كتاب المآسى(٣٢) . ومن الكتب الأخرى التى أُلّفت فى ذلك العصر كتاب **التاريخ الكنسى** Ecclesiastical History لسوزومن Sozomen ومعظمه منقول من سقراط . وكان سوزمن هذا رجلا فلسطينياً اعتنق الدين المسيحى ، وكان يكسب قوته محامياً فى العاصمة . ويبدو أن دراسة القانون لم تحل

بينه وبين الإيمان بالخرافات . وألف سوزموس Sozimus القسطنطيني حوالى عام ٤٧٥ كتابا فى **تاريخ الإمبراطورية البيزنطية** . وكان سوزموس هذا رجلا وثنيا ، ولكنه لم يخضع لما خضع له منافسوه المسيحيون من الأوهام والسخافات. وأشار ديونيسيوس إجزجيوس Dionysius Exiguus — أو دِنس القصير — حوالى عام ٥٢٥ باتباع طريقة جديدة فى تأريخ الحوادث تبدأ من السنة التى قيل إن المسيح وُلد فيها . غير أن الكنيسة اللاتينية لم تقبل هذه الطريقة إلا فى القرن العاشر ، وظل البيزنطيون إلى آخر أيام دولتهم يؤرخون سنيهم من بدء خلق الدنيا . ألا ما أكثر الأشياء التى كانت معروفة فى بواكير حضارتنا والتى خفيت عنا نحن فى هذه الأيام !

وكان پروكپيوس هو المؤرخ العظيم الوحيد فى ذلك العهد . وقد ولد هذا الكاتب فى قيصرية من أعمال فلسطين (٤٩٠) ، ودرس القانون ، ثم انتقل إلى القسطنطينية وعين أميناً ومستشاراً لبليساريوس . وصحب ذلك القائد فى حروبه فى سوريا ، وأفريقية ، وإيطاليا ، ثم عاد معه إلى العاصمة . ونشر فى عام ٥٥٠ **كتب الحروب** . وإذا كان قد عرف من صلته بالقائد والإمبراطور عظمة أول الرجلين ، وبخل ثانيهما ، فقد خلع على بليساريوس ثوب البطولة البرّاق وترك چستنيان منزوياً فى الظلام . وقابل الجمهور كتابه أحسن قبول ، وسكت عنه الإمبراطور . وكتب پروكپيوس بعدئذ كتابه المعروف باسم **الأنكدوتا أو التاريخ السرى** ، ولكنه أفلح فى أن يبقيه دون أن ينشره أو يذيع ما فيه حتى طلب إليه چستنيان فى عام ٥٥٤ أن يكتب شيئا عن الأبنية التى أنشئت أثناء حكمه . فأصدر پروكپيوس فى عام ٥٦٠ كتابه المسمى « **الصروح** De Aedificiis » وأسرف فيـــه فى الثناء على الإمبراطور إسرافا يحملنا على الظن بأن الإمبراطور قد شك فى إخلاصه أو حسبه يسخر منه ، ولم ينشر **التاريخ السرى** إلا بعـــد وفاة

جستنيان — وربما بعد وفاة بروكبيوس نفسه أيضا . وهو كتاب شيق ممتع يحتوى على فضائح شبيهة بما تكتب عن جيراننا ، وإن كان التشنيع الأدبى على من لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم أمراً غير مستحب ، وإن كان كل مؤرخ يجهد نفسه فى إثبات بحث من البحوث لا يسعه إلا أن يمسخ الحقائق .

ولا تخلو كتب پروكپيوس من أخطاء فى الأمور البعيدة عن تجاربه فقد كان فى الأحيان ينقل ما كتبه هيرودوت عن أخلاق معاصريه وفلسفتهم . وفى البعض الآخر ينقل خطب توكيديدز وحصار المدن فى أيامه ، وكان يشارك أبناء عصره فى خرافاتهم ، وسود صحف كتبه بأخبار النذر ، والتنبؤات ، والمعجزات ، والأحلام . أما حين يكتب عما يشاهده فقد أثبتت الأيام صدقه : وكان شجاعا فيما أقدم عليه من عمل عظيم ، منطقيا فى ترتيب مادته ، يستحوذ على لب القارئ وانتباهه فى قصصه ، ولغته اليونانية واضحة خالية من الالتواء والتعقيد ، وهى فصيحة لا تكاد تقل فى فصاحتها عن لغة اليونان الأقدمين .

وبعد فهل كان پروكپيوس مسيحيا ؟ أما فى الظاهر فنعم ، غير أننا نراه يردد أصداء من ينسج على منوالهم ، كما تتبين فى كتاباته جبرية الرواقية ، وتشكك الأكاديمية . وهو يتحدث عن « طبيعة الخط المعوجة المتمردة وإرادته التى لا ضابط لها . واعتقادى أن هذه أشياء لم يدركها عقل الإنسان فى الماضى ولن يدركها قط فى المستقبل . ومع هذا فالناس لا ينفكون يتحدثون كثيراً عن هذه الموضوعات ولا ينقطعون عن تبادل الآراء فيها ... لأن كل واحد منها يبحث عما يدارى به جهله ... وأرى أن من الحماقة والجنون أن نبحث فى طبيعة الله ... ولهذا سأكون حصيف الرأى فألزم الصمت فى مثل هذه الموضوعات ، وكل ما أبغيه من هذا ألا أزعزع إيمان الناس بما يجلونه من العقائد القديمة »[٣٣] .

الفصل الرابع

الفن البيزنطى

٣٢٦ — ٥٦٥

١ – الانتقال من الوثنية

كانت أعظم مآثر الحضارة البيزنطيـــة هى الإدارة الحكومية وفن الزخرفة : فقد أقاموا دولة دامت أحد عشر قرناً من الزمان ، وأنشئوا أياصوفيا القائمة فى هذه الأيام .

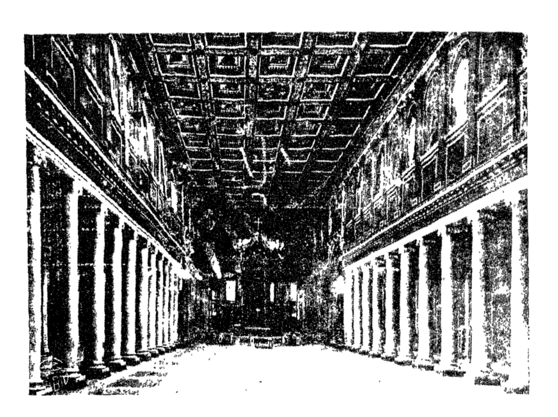
وكان الفن الوثنى قد لفظ أنفاسه الأخيرة قبيل عهد چستنيان ، وكان نصف ما خلفه من الآثار قد شُوِّه أو هدم . فقد بدأ تخريب البرابرة ، وانتهاب الأباطرة ، وتدمير الأتقياء ورجال الدين ، بدأ عمل هؤلاء وهؤلاء عهداً من الإتلاف المتعمد والإهمال دام حتى قام پترارك فى القرن الرابع عشر يدافع عما بقى منه فى أيامه . وكان من العوامل التى زادت أعمال التخريب اعتقاد الجماهير أن الآلهة الوثنية شياطين ، وأن الهياكل مأواها . وأياً كانت عقيدة أهل ذلك الوقت فقد كانوا يشعرون أن مواد هذه الآثار الفنية يمكن أن ينتفع بها على خير وجه فى تشييد الكنائس المسيحية أو أسوار المنازل ، وكثيراً ما كان الوثنيون أنفسهم يشاركون المسيحيين فى أعمال التدمير . وقد بذل بعض الأباطرة ، وخاصة هونوريوس وثيودوسيوس الثانى ، كل ما فى وسعهم لحماية المنشئات القديمة[٣٤] ، وأبقى المستنيرون من رجال الدين على الپارثنون ، وهيكل ثسيوس ، والپارثينون ، وغيرها من الصروح بأن أعادوا تدشينها بوصفها أضرحة مسيحية .

وكانت المسيحية فى بادئ الأمر ترتاب فى الفن وتراه عماداً للوثنية ، وعبادة

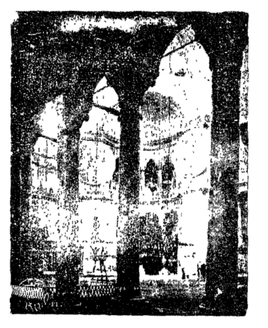
الأصنام ، وفساد الأخلاق ؛ وترى أن هذه التماثيل العارية لا تتفق مع ما يجب أن تحاط به البكورة والعزوبه من إجلال . ولما خيل إلى الناس أن الجسم أداة الشيطان ، وأصبح الراهب مثل الرجولة الأعلى بدل الرجل الرياضى ، اختفت من الفن دراسة التشريح ، ولم يبق فى فنى النحت والتصوير إلا وجوه كئيبة وثياب لا شكل لها . فلما انتصرت المسيحية على الوثنية واحتاجت إلى صروح ضخمة تأوي عبادها المتزايدين ، أخذت تقاليد الفن المحلية والقومية تثبت وجودها مرة أخرى ، وارتفع فن البناء فوق الأنقاض . يضاف إلى هذا أن تلك الصروح الرحبة كانت تلح فى طلب الزخرفة والزينة ، وكان العابدون فى حاجة إلى تماثيل للمسيح ومريم يقوى بها خيالهم ، وإلى صور تحدث السذج الأميين عن قصة إلههم المصلوب ؛ وهكذا ولدت فنون النحت والفسيفساء والتصوير من جديد .

ولم يكن الفن الجديد فى رومة يختلف إلا اختلافاً قليلا عن الفن القديم . فقد انتقلت من الوثنية إلى المسيحية متانة البناء ، وبساطة الشكل ، وطرز الباسلقا المعمدة . ومثال ذلك أن مهندسى قسطنطين خططوا كنيسة القديس بطرس الأولى بالقرب من ساحة الألعاب الحيوانية التى أنشأها نيرون على تل الفاتيكان ، وجعلوا طولها ٣٨٠ قدماً وعرضها ٢١٢ . وقد ظلت هذه الكنيسة مدى اثنى عشر قرناً أعظم كنائس المسيحية اللاتينية حتى هدمها برامنتى ليقيم فى مكانها كنيسة أكبر منها هى كنيسة القديس بطرس الحالية . وأعاد فلنتنيان الثانى وثيودوسيوس الأول بناء الكنيسة التى أقامها قسطنطين « للقديس بولس خارج الأسوار San Paolo fuori le mura » فى المكان الذى قيل إن الرسول استشهد فيه . وهذه الكنيسة أقل اتساعاً من كنيسة القديس بطرس ، فقد كان طولها أربعمائة قدم وعرضها مائتين(*) . ولا تزال كنيسة القديسة قنسطنزا Santa Constanza التى أقامها

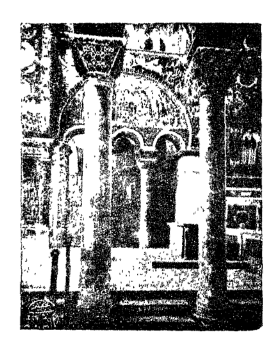
(*) وقد دمرتها النيران فى عام ١٨٢٣ ولكنها أعيدت على الطراز القديم فى ١٨٥٤ — ١٨٧٠ . وقسيها المحكمة وأعمدتها الفخمة تجعلها من أعظم الصروح التى شاهدها بنو الإنسان .



صورة رقم ٢
داخل كنيسة سانتا ماريا مجيوري بروما



صوره رقم ٣
داخل كنيسة أياصوفيا بالقسطنطينية



صورة رقم ٤
داخل كنيسة سان ڤيتالى د افنا



صورة رقم ٥

نقش بارز على الصخر . طاق البستان

أقامها قسطنطين لتكون ضريحا لأخته قنسطنطيا فى معظم أجزائها بالصورة التى كانت عليها وقت بنائها فى ٣٢٦ — ٣٣٠ ، وأعيد بناء كنائس سان جيوفنى San Geovanni فى لترانا Latrana وسانتا ماريا فى ترستفيرى Trastevre « وسان لورنزو خارج الأسور » فى خلال قرن بعد أن بدأها قسطنطين ، وأعيد بناؤها مراراً كثيرة من ذلك الحين . وأنشئت كنيسة سانتا ماريا مجيورى Santa Maria Maggiore فى عام ٤٣٢ على غرار أحد الهياكل الوثنية . ولا يزال صحنها فى جوهره كما كان منذ إنشائها إذا استثنينا ما حلى به من النقوش فى أيام النهضة .

ولا يزال طراز الباسلقا من ذلك الوقت حتى الآن الطراز المحبب فى الكنائس المسيحية ؛ ذلك بأن اعتدال نفقاته وجلال بساطته ، وتناسق بنائه ، وعظم متانته قد جعلته محببا إلى الناس فى جميع الأجيال . ولكنه لم يتقبل فى يسر ما يراد إدخاله عليه من التطور والتغيير ، ولهذا بدأ البناءون الأوربيون يتلفتون حولهم ليبحثوا عن آراء هندسية جديدة حتى وجدوها فى بلاد الشرق ، بل وجدوها أيضا فى اسپالاتو Spalato المركز الأدرياوى الأمامى لبلاد الشرق . ففى هذا المكان القائم على ساحل دلماشيا أطلق دقلديانوس كامل الحرية لفنانيه ، وعهد إليهم أن يجربوا كافة الوسائل التى تمكنهم من أن يقيموا له قصراً يلجأ إليه إذا أراد الاستجمام من عناء الحكم ؛ وفيه أحدث أولئك الفنانون انقلاباً كبيراً فى العمارة الأوروبية . ففيه كانت الأقواس ترفع مباشرة من تيجان الأعمدة ، وليس بينها وبين تلك التيجان عوارض ؛ وهكذا مهدت السبيل بخطوة واحدة إلى الطرز البزنطية ، والرومانية ، والقوطية . وفى هذا القصر أيضاً استبدلت بالأفاريز ذات الصور والتماثيل زخرفة عجيبة من الخطوط المتعرجة ، التى يتنفر منها عيون الأقدمين والتى ألفها الشرق من زمن بعيد . وبذلك كانت اسپلاتو هى النذير الأول بأن

أوربا لن يغلبها على أمرها دين شرقى فحسب ، بل سيغلبها كذلك فن شرقى إن لم يكن فى جميع أنحائها ففى العالم البيزنطى على الأقل

٢ — الفنانون البيزنطيون

ترى من أين جاء إلى القسطنطينية ذلك الفن ذو اللون الفذ ، البراق المقبض الذى نسميه الفن البيزنطى؟ ذلك سؤال ثار فيه الجدل بين علماء الآثار بقوة لا تكاد تنقص عن قوة الجنود المسيحيين فى حروبهم ، وكان النصر النهائى فى هذه المعركة الكبرى لبلاد الشرق . وتفصيل ذلك أنه حين قويت سوريا وآسية الصغرى بفضل ما حدث فيهما من تقدم صناعى ، وحين ضعفت رومة بسبب الغزو الأجنبى ، ارتد التيار الهلنستى الذى اندفع نحو الشرق إثر فتوح الإسكندر من آسية إلى أوربا ، وتلاقت فى بيزنطية مؤثرات الفن الشرقى المنصبة من فارس الساسانية ، وسوريا النسطورية ، ومصر القبطية ، ووصلت هذه المؤثرات إلى إيطاليا ، بل تعدتها إلى غالة ، وتخلى الفن اليونانى الممثل للطبيعة عن مكانه إلى الفن الشرقى ذى الزخارف الرمزية . وكان الشرق يفضل الألوان عن الخطوط والأقواس والقباب عن السقف الخشبى ، والزينة الكثيرة عن البساطة الصارمة ، والأثواب الحريرية الفخمة عن الجبة التى لا شكل لها . وكما أن دقلديانوس وقسطنطين قد اتخذا فى نظم الحكم أشكال الملكية الفارسية ، فكذلك شرع فن القسطنطينية يغض النظر شيئاً فشيئاً عن الغرب الذى ألقى الآن بنفسه فى أحضان البربرية ، وأخذ يرنو ببصره إلى آسية الصغرى وأرمينية ، وفارس ، وسوريا ، ومصر ولعل انتصار جيوش الفرس فى عهد شابور الثانى وكسرى أنوشروان قد عجل خطوات البواعث والأساليب الشرقية . وكانت الرها ونصيبين فى ذلك الوقت مركزين مزدهرين من مراكز ثقافة ما بين النهرين ، وهى الثقافة التى

مزجت العناصر الإيرانية ، والأرمينية ، والكبدوكية والسورية[٣٥] ، ونقلها التجار ، والرهبان ، والفنانون إلى أنطاكية ، والإسكندرية ، وإفسوس ، والقسطنطينية ، ثم نقلوها أخيراً إلى رافنا وروما ؛ فكادت النظم اليونانية والرومانية القديمة تفقد قيمتها فى هذا العالم المعمارى الجديد ، عالم العقود والأقواس ، والقباب .

ولما اتخذ الفن البيزنطى هذه الصورة الجديدة عمل على نشر العقائد المسيحية وإظهار مجد الدولة . فأخذ يقص على الثياب والقماش المزركش ، وفى نقوش الفسيفساء ورسوم الجدران ، حياة المسيح وأحزان مريم ، وأعمال الرسل أو الشهداء الذين تضم الكنائس عظامهم ؛ أو دخل بلاط الأباطرة ، وزين قصر الإمبراطور ، وغطى ملابس الموظفين بصورة رمزية أو رسوم تاريخية ، وخطف أبصار رعاياه بالمناظر الزاهية الكثيرة الألوان ، وانتهى أمره بأن صور المسيح ومريم فى صورتى إمبراطور وملكة . ذلك أن الفن البيزنطى لم يكن له كثير من المؤيدين يختار من بينهم من يناصره ، ولهذا لم يكن له مجال واسع يختار منه موضوعه وطرازه ، فكان الإمبراطور أو البطرق هو الذى يحدد له ما يعمل ويبين له طريق العمل ، وكان الفنانون يعملون جماعات ، ولهذا قلما يذكر التاريخ أسماء فنانين أفراداً ، ولكنهم أتوا بالمعجزات فى بهاء الألوان ؛ وكان الفنان يرفع من شأن الناس أو يحط من قدرهم بمستحدثاته الرائعة ؛ ولكن هذه المنزلة اقتضته استمساكاً بالأشكال والأنماط المتبعة ، وضيقاً فى المجال ، وجموداً فى خدمة ملك مطلق التصرف ودين لا يقبل التغيير .

وكان تحت تصرفه موادّ كثيرة يستخدمها فى عمله ؛ كانت لديه محاجر الرخام فى بروكنسوس Proconnesus ، وأتكا ، وإيطاليا ؛ وكانت لديه عمد وتيجان ينتهبها من كل هيكل وثنى قائم ، وكان لديه الآجر يكاد ينمو كالنبات فى الأرض التى تجففها الشمس . وكان أكثر ما يعمل فيه الآجر المثبت بالملاط ؛ ذلك أنه

كان يسهل استخدامه فى الأشكال المنحنية التى فرضتها عليه الأنماط الشرقية . وكثيراً ما كان يقنع بالشكل الصليبى — شكل الباسلقا ذات الجناحين التى تستطيل حتى تنتهى بقباء . وكان فى بعض الأحيان يقطع الباسلقا فيجعلها مثمنة الجوانب كما فعل فى كنيستى القديسين سرجيوس وباخوس فى القسطنطينية ، أو فى كنيسة القديس ڤيتالى فى راڤنا . ولكن الطراز الذى برع فيه وبز فيه جميع الفنانين الذين سبقوه أو جاءوا بعده هو القبة المستديرة المقامة على هيكل كثير الأضلاع . وكانت الطريقة التى اتبعها للوصول إلى هذه الغاية هى إنشاء قوس أو نصف دائرة من الآجر فوق كل ضلع من أضلاع السطح المتعدد الزوايا والأضلاع ، ثم إقامة مثلث دائرى من الآجر متجه إلى أعلى وإلى الداخل بين كل نصف دائرة ، ثم بناء قبة فوق الحلقة المستديرة الناشئة من هذا كله . وكانت المثلثات الدائرية تبدو متدلية من حافة القبة إلى قمة المضلع ، وبهذا ربعت الدائرة من الوجهة المعمارية ، وبعد هذا كاد طراز الباسلقا أن يختفى من الشرق :

وقد أفاء البنّاء البيزنطى على هذا البناء من الداخل ما أسعفته به عشرات الفنون المختلفة . وقلما كان يستخدم التماثيل لهذا الغرض ، ذلك أنه لم يكن يريد أن يصور رجالا ونساء ، بل كان يعمل لخلق جمال مجرد من الصور الرمزية . ولكن المثالين البيزنطيين كانوا رغم هذا القيد عمالا يمتازون بالكفاية والصبر وسعة الحيلة . وقد نحتوا التاج « الثيودوسى » للعمد بأن جمعوا بين « آذان » النمط الأونى ، وأوراق النمط الكورنثى ؛ وكأنهم أرادوا أن يجعلوا هذه الوفرة من الطرز أشمل وأعم ، فحفروا على هذا التاج المركب أجمة من النبات والحيوان . وإذ كانت نتيجة هذا لا تتناسب مع الجدران أو الأقواس فقد وضعوا بينها وبين التاج عصابة مربعة وعريضة من أعلاها ، ومستطيلة وضيقة نوعاً ما عند قاعدتها ، ثم حفروا على توالى الأيام أزهاراً على هذه العصابات نفسها . وهنا أيضاً كانت الغلبة للفُرس على اليونان ، كما كانت للأولين الغلبة فى مربع القبة . ثم طلب إلى

المصورين أن يزينوا الجدران بصور تثبت عقيدة الناس أو ترهبهم ؛ ووضع عمال الفسيفساء مكعباتهم المتخذة من الحجر أو الزجاج الملون البراق فوق أرضية زرقاء أو ذهبية ، وزينت الأرض والجدران ، أومذابح الكنائس ، أوما بين العقود ، أوأى جزء من البناء لاتطيق عين الشرقى أن تراه خالياً من الزخرف . وكان الصناع يزينون الملابس ، والمذابح ، والعمد ، والجدران بالجواهر والأحجار الكريمة ؛ وصناع المعادن يضعون فيها صفائح الذهب والفضة ؛ وصناع الخشب ينقشون المنابر وأسوار المحاريب ، والنساجون يعلقون الأنسجة المزخرفة على الجدران ويفرشون الأرض بالطنافس ، ويغطون المذابح والمنابر بالأقمشة المطرزة وبالحرير . ولم يذكر التاريخ قبل ذلك العهد فناً أوتى ما أوتيه الفن البيزنطى من وفرة الألوان ، ودقة الرموز ، وغزارة الزينة ؛ وقدرة على تهدئة الذهن وتنبيه الروح .

٣ — أياصوفيا

ولم تكن العناصر اليونانية والرومانية ، والشرقية ، والمسيحية قد أتمت امتزاجها ليكون منها الفن البيزنطى قبل عهد جستنيان . فلقد أتاحت له فتنة نيقا Níka ، كما أتاح حريق رومة لنيرون من قبل ، فرصة بناء عاصمته من جديد ؛ ذلك أن الغوغاء فى لحظة من لحظات نشوة الحرية أحرقوا دار مجلس الشيوخ ، وحمامات زيوكسپوس Zeuxippus وأروقة الأوغسطيوم ، وجناحا من أجنحة القصر الإمبراطورى ، وأياصوفيا كنيسة البطريق الكبرى ، وكان فى وسع جستنيان أن يعيد بناء هذه كلها حسب تخطيطها القديم فلايتطلب هذا منه أكثر من عام أوعامين . لكنه لم يفعل هذا وصمم على أن ينفق فى بنائها مزيداً من الوقت والمال ، وأن يستخدم فى هذا البناء عدداً كبيراً من الرجال ، وأن يجعل عاصمة ملكه أجمل من رومة ، وأن يقيم فيها كنيسة لا يدانيها صرح آخر

فى العالم كله . وكانت بداية عمله أن وضع فى ذلك الوقت منهجاً للأبنية أوسع وأعظم من أى منهج آخر وضع لها فى التاريخ : وكان هذا المنهج يشمل حصوناً ، وقصوراً وأديرة ، وكنائس ، وأروقة معمدة ، وأبواباً أقيمت فى جميع أنحاء الإمبراطورية . ففى القسطنطينية أعاد بناء مجلس الشيوخ من الرخام الأبيض ، وشاد حمامات زيوكسيوس من الرخام المتعدد الألوان ، وبنى رواقاً معمداً من الرخام ، ومتنزهاً فى الأوغسطيوم ، ونقل الماء العذب إلى المدينة فى قناة مبنية جديدة تضارع أحسن ما وجد من القنوات فى إيطاليا . أما قصره فلم يكن يعلو عليه قصر آخر فى البهاء والترف . فقد كانت أرضه وجدرانه من الرخام ، وسقفه تقص بالفسيفساء البراقة ما ناله من النصر فى أيام حكمه ، وتصور الشيوخ فى حفلاتهم يقدمون للإمبراطور مظاهر الإجلال والتعظيم التى « لا تكاد تقل عما يقدم منها لله »[36] ؛ وبنى على الجانب الآخر من البسفور ، بالقرب من خلقيدون مسكناً صيفياً لتيودورا وحاشيتها هو قصر هريون الذى كان له مرفؤه ، وسوقه ، وكنيسته وحماماته الخاصة به .

وبعد أربعين يوماً من خمود نار فتنة نيقا بدأ يبنى كنيسة أياصوفيا الجديدة . ولم يقمها إلى قديسة تحمل ذلك الاسم ، بل أقامها إلى المقدسة صوفيا **Hagia Sophia** أو الحكمة القدسية ، أو العقل الخلاق ، أو إلى الله نفسه . واستدعى لهذا الغرض من تراليس فى آسية الصغرى ، ومن ميليتس الأيونية ، أنثميوس وأزدور أعظم المهندسين الأحياء ، ليضعا رسوم البناء ويشرفا على تشييده . ولم يتبع المهندسان شكل الباسلقا الذى جرت عليه التقاليد ، بل وضعا للبناء تصميماً تكون صرته قبة واسعة لا ترتكز على جدران بل على أكتاف ضخمة ، وتسندها نصفا قبتين من كلا الجانبين . واستخدم فى العمل عشرة آلاف عامل ، وأنفق عليه ٣٢٠٫٠٠٠ رطل من الذهب (١٣٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار أمريكى) وهو كل ما كان فى خزانة الدولة ، وأمر حكام الولايات بأن يبعثوا إلى الكنيسة الجديدة بأجمل ما بقى من

الحامات القديمة ، وجيء بعشرات الأنواع والألوان من الرخام من مختلف الأقطار وصبت فى النقوش والزينات مقادير هائلة من الذهب ، والفضة ، والعاج ، والحجارة الكريمة . واشترك چستنيان نفسه اشتراكاً عملياً فى تخطيط البناء وإقامته ، وكان له نصيب غير قليل (كما يقول المؤرخ المداهن الساخر) فى حل ما يعترض العمل من المشاكل الفنية . فكان يتردد عليه فى كل يوم وعليه ثياب بيض ، وفى يده عصا طويلة ، وعلى رأسه منديل ، يشجع العمال ويحثهم على أن يتقنوا العمل ويتموه فى موعده المقرر . وتم بناء الصرح العظيم فى خمس سنين وعشرة أشهر ؛ وفى اليوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر من عام ٥٣٧ أقبل الإمبراطور والبطريق ميناس يتقدمان موكباً مهيباً لافتتاح الكنيسة المتلألئة الفخمة . وسار چستنيان بمفرده إلى المنبر ورفع يديه إلى السماء ونادى قائلا : « المجد لله الذى رآنى خليقاً بأن أتم هذا العمل الجليل ! أى سليمان ! لقد انتصرت عليك ! » .

وقد خطّ البناء على شكل صليب يونانى طوله ٢٥٠ قدماً وعرضه ٢٢٥ ، وغطى كل طرف من أطرافه بقبّة صغرى ، وقامت القبة الوسطى على المربع (البالغ ١٠٠ قدم × ١٠٠) والمكون من الضلعين المتقاطعين ، وكانت ذروة القبة تعلو عن الأرض مائة قدم وثمانين قدما وقطرها مائة قدم — أى أقل من قطر قبة البنثيون فى رومة باثنتين وثلاثين قدماً . وكانت هذه القبة الثانية قد صبت من الأسمنت المسلح قطعة واحدة مصمتة ، أما قبة أياصوفيا فقد بنيت من الآجر فى ثلاثين سطحاً تلتقى كلها فى نقطة واحدة — وهو طراز أضعف من الطراز الأول(*) . وليست ميزة هذه القبة فى حجمها بل فى دعائمها : فهى لا تقوم على بناء دائرى كما تقوم قبة البنثيون بل على أربطة من أعلاها ، وعلى عقود

(*) حدث فى عام ٥٥٨ زلزال صدع القبة الوسطى فانهارت فى صحن الكنيسة ، وأعاد بناءها إزذور بن إزذور المتوفى ، وقوى دعائمها ، ورفعها خمساً وعشرين قدماً فوق ما كانت عليه . وفى هذه القبة شروخ تنذر بأنها تحيا الآن حياة مزعزة .

بين حافتها المستديرة وقاعدتها المربعة . ولم تحلّ هذه المشكلة المعمارية قبل ذلك الوقت حلا أكثر توفيقاً من هذا . وقد وصف بروكپيوس القبة بأنها « عمل مجيد يبعث الروعة فى النفوس . . . وهى لا تبدو قائمة على ما تحتها من البناء بل تبدو كأنها معلقة بسلسلة من الذهب فى أبراج السماء »(٣٧) .

وأما من الداخل فكانت الكنيسة صورة رائعة من الزخرف البرّاق . فقد كانت أرضها وجدرانها من المرمر المتعدد الألوان : أبيض ، وأخضر ، وأحمر ، وأصفر ، وأرجوانى ، وذهبى . وأقيم منه كذلك طابقان من العمد يخيل إلى الناظر إليها أنها حديقة من الأزهار . وكانت تيجان العمد ، والعقود وما بينهما ، والأفاريز ، والطنف مغطاة بنقوش على الحجارة مكونة من أوراق الأكنثوس والكرم . وكان يطلّ من الجدران والقباب فسيفساء لا مثيل لها فى روعتها وسعتها . وكانت تضيؤها أربعون مائلة من الفضة معلقة من حافة القبة تضاف إلى ما فيها من النوافذ الكثيرة . وإن ما يحس به الناظر إلى هذه الكنيسة من سعة تبعثها فى نفسه أجنحتها الطويلة ، وبناؤها الرئيسى ، والفضاء الخالى من العمد تحت القبة الوسطى ؛ وما فى حظارها الفضى المواجه للقباء من زخارف معدنية ، والحظار المعدنى الجميل الذى فى الإيوان الأعلى ، والمنبر المرصع بالعاج والفضة والحجارة الكريمة ؛ وعرش البطريق المصنوع من الفضه المصمتة ، والسجف المنسوجة من خيوط الحرير والفضة ، والتى ترتفع فوق المذبح وعليها صورتا الإمبراطور والإمبراطورة تتلقيان بركات المسيح ومريم ؛ والمذبح الذهبى اللون المصنوع من الرخام النادر الوجود وعليه الأوانى المقدسة من الفضة والذهب — وهو بعض ما فى الكنيسة من زخرف وزينة — ليجل عن الوصف . ولو أن جستنيان قد تباهى بما تباهى به أباطرة المغول من بعده ، وهو أنهم كانوا يبنون كما يبنى الجبابرة ، ويزينون مبانيهم كما يزينها الصياغ ، لكان على حق فى مباهاته .

وكانت أياصوفيا بداية الطراز المعمارى البيزنطى وخاتمته فى آن واحد .

وكان الناس فى كل مكان يسمونها « الكنيسة الكبرى » وحتى بروكپيوس المتشكك نفسه تحدّث عنها حديث الرجل المرتاع فقال : « إذا دخل الإنسان هذه الكنيسة للصلاة ، أحس بأنها ليست من أعمال القوى البشرية . . . ذلك أن الروح حين ترقى إلى السماء تدرك أن الله هنا قريب منها ؛ وأنه يبتهج بهذا البيت ، بيته المختار »(*) .

٤ — من القسطنطينية إلى راڤنا

كانت أياصوفيا أجلّ ما قام به چستنيان من الأعمال ، وكانت أبقى على الدهر من فتوحه أو قوانينه ، ولكن پروكپيوس يصف أربعاً وعشرين كنيسة أخرى بناها چستنيان أو أعاد بناءها فى عاصمة ملكه . ويقول : « لو رأيت كنيسة منها بمفردها لحسبت أن الإمبراطور لم يبنْ كنيسة سواها بل قضى سنى حكمه جميعها فى بنائها وحدها »[٣] . وظلت حمى البناء منتشرة فى جميع أنحاء الإمبراطورية طوال حياة چستنيان ، حتى كان القرن السادس وهو بداية العصور المظلمة فى الغرب من أكثر العصور ازدهاراً فى تاريخ العمارة فى الشرق . فكانت ألف كنيسة فى إفسوس ، وأنطاكية ، وغزة ، وبيت المقدس ، والإسكندرية ، وسلانيك ، وراڤنا ، ورومة ، والبلاد الممتدة من كرش فى بلاد القرم إلى صفاقس فى شمالى أفريقية ، تحتفل بانتصار المسيحية على الوثنية ، وبالطراز الشرقى — البيزنطى على الطراز اليونانى — الرومانى . وحلّت العقود والقباب محل الأعمدة الخارجية ، والعوارض ، والقواصر ، والطنف . وازدهرت فى سوريا

(*) لما استولى الأتراك على القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ م غطوا فسيفساء أياصوفيا بالجص ، لكراهيتهم ما عليها من صور منحوتة ، يعدونها من عبادة الأصنام . ولكن الحكومة التركية قد أذنت منذ قليل إلى طائفة من العمال من المعهد البيزنطى ببسطن بولاية مسشوستس أن يكشفوا عن هذه النماذج الفنية من أعمال الفسيفساء التى لا تسمو عليها نماذج أخرى فى العالم كله . وكاد الفاتحون الأتراك يكفرون عما فعلوه بهذه الكنيسة بإقامة أربع مآذن رشيقة تتناسب أتم التناسب مع أشكال القباب .

نهضة حقة فى القرن الرابع ، والخامس ، والسادس ؛ فكانت مدارسها القائمة فى أنطاكية ، وبيروت ، والرها ، ونصيبين ، تخرج العدد الجم من الخطباء ، والمحامين ، والمؤرخين ، والخارجين على الدين . وبرع صنّاعها فى أعمال الفسيفساء ، والنسيج ، وجميع الفنون الزخرفية ، وشاد مهندسوها مائة كنيسة زيّنها مثّالوها بما لا حصر له من النقوش البارزة .

وكانت الإسكندرية المدينة الوحيدة فى الإمبراطورية التى كان ازدهارها متصلا لم ينقطع أبداً . ذلك أن مؤسسها قد اختارلها مكاناً يكاد يرغم عالم البحر المتوسط على استعمال مرافئها وزيادة تجارتها .. ولم تبق الأيام على شىء مما أقيم فيها من عمائر فى تاريخها القديم أو فى أوائل العصور الوسطى ، ولكن ما بقى من أعمالها فى المعادن ، والعاج ، والخشب ، والتصوير ، متفرقاً فى أماكن مختلفة يوحى بأن أهلها قد بزوا غيرهم فى الشهوانية ، والحمية الدينية . وكان الطراز الشرقى فى عهد جستنيان هو الطراز الغالب فى فنّ العمارة القبطى الذى بدأ بالباسلقا الرومانية .

وبدأ مجد رافنا المعمارى بعد أن اتخذها هونوريوس عاصمة الإمبراطورية الغربية فى عام ٤٠٤ بزمن قليل . وعم الرخاء المدينة فى الفترة الطويلة التى كانت فيها جلا پلاسيدياGalla Placidia نائبة عن الإمبراطور ، وكانت صلتها الوثيقة بالقسطنطينية سبباً فى قدوم الصنّاع الشرقيين ، واختلاطهم بالمهندسين الإيطاليين ، وفى دخول الأنماط الشرقية وامتزاجها بالأشكال الإيطالية . وظهر فيها الطراز الهندسى الشرقى المؤلف من قبة مقامة على قاعدة ذات شكل صليبى منذ عام ٤٥٠ فى الضريح الذى لقيت فيه پلاسيديا ربها ؛ ولا يزال فى وسعنا أن نرى فيه النقش الفسيفسائى الذائع الصيت الذى يمثل المسيح فى صورة الراعى الصالح . وفى عام ٤٥٨ أضاف الأسقف نيون Neon إلى مكان التعميد المقبب فى باسلقا أرسيانا Basilica Ursiana سلسلة من قطع الفسيفساء من بينها صورة مفردة

للرسل . وشاد ثيودريك حوالى عام ٥٠٠ كنيسة كبرى سماها باسم القديس ابلينارس الذى يقال إنه مؤسس العشيرة المسيحية فى راڤنا . وهنا يظهر على الفسيفساء التى طبقت شهرته آفاق العالم القديسيون ذوو الثياب البيض فى وقارهم الشديد الذى ينبئ ببداية الطراز البيزنطى .

وكان استيلاء بليساريوس على راڤنا من الأسباب التى عجلت بانتصار الفن البيزنطى فى إيطاليا . وسرعان ما تمت كنيسة سان ڤيتالى San Vitale (٥٤٧) فى عهد چستنيان وثيودورا ، اللذين وهباها المال اللازم لتزيينها ، كما وهباها أيضاً وجهيهما غير الجذابين لينقشا على جدرانها . وما من شك فى أن الإمبراطور والإمبراطورة قد أوتيا حظا كبيراً من الشجاعة إذ أجازا أن تنقل صورتاهما إلى الخلف . ومواقف أولئك الحكام ، والقساوسة ، والخصيان تنبئ كلها عن صلابة وحدة فى الطباع ، وإن مظهرها الأمامى الجامد ليعد انقلاباً فى الصور التى كنا نشهدها قبل عصور اليونان والرومان الأقدمين . وأثواب النساء كثيرة الزركشة تعلن انتصار نقوش الفسيفساء ؛ ولكننا لا نجد هنا رشاقة مواكب البارثنون المرحة السعيدة ، أو نصب السلام لأغسطس أو ما نشاهده فى الصور المنقوشة على أبواب شارترز وريمز من نبل ورقة .

وبعد عامين من افتتاح كنيسة سان ڤيتال افتتح أسقف راڤنا كنيسة سانت أبلينارى فى كلاس Classe وهى ثانى كنيسة أقيمت لهذا القديس راعى المدينة ؛ وكان موضعها فى ضاحيتها التى على شاطئ البحر ، والتى كانت فى وقت ما قاعدة الأسطول الرومانى على البحر الأدرياوى . ونشاهد فيها التصميم الباسلقى الرومانى القديم ، ولكن تيجان الأعمدة المختلطة الأشكال تظهر عليها مسحة بيزنطية تنم عنها أوراق الأقنتا(*) الملفوفة الملتوية على خلاف ما كان يظهر فى الأنماط اليونانية والرومانية القديمة ، كأنما هبت عليها ريح شرقية . وإن ما فى هذه الكنيسة من

(*) Acanthus ويسمى أيضا الكنكر ، وشوك الجمل ، وشوك اليهود .

صفوف الأعمدة الكاملة الطويلة ، وفى حليات العقود والمثلثات المحصورة بينها من فسيفساء زاهية (من القرن السابع) ، وما فى موضع المرنمين من لوحات جميلة من المصيص ، وما فى الصليب القائم فى القبا من الجواهر مرصعة بها أرضية من النجوم فى الفسيفاء ، إن فى هذا كله ما يجعل هذه الكنيسة من أشهر كنائس شبه الجزيرة التى تكاد تكون كلها معرضا عظيما للفنون الجميلة .

٥ — الفنون البيزنطية

لقد كان فن العمارة أروع ما خلفه الفنان البيزنطى ، ولكنه كان فى ثناياه أو من حوله فنون أخرى كثيرة نبغ فيها نبوغا خليقا بالتنويه . نعم إنه لم يكن يعنى بالنحت المجسم ، وأن مزاج العصر كان يفضل الألوان على الخطوط ، ولكن پروكپيوس يثنى على المثالين فى ذلك العصر ، وأكبر الظن أنه يعنى بهم أصحاب النقش البارز ، ويقول إنهم لايقلون مهارة عن فدياس و پركستليز ؛ وإنا لنجد على بعض التوابيت الحجرية المصنوعة فى القرن الرابع والخامس والسادس صوراً آدمية منحوتة برشاقة تكاد تضارع الرشاقة الهلينية ، مختلطة بها كثير من نقوش الزينة الآسيوية . وكان النقش على العاج من الفنون المحببة إلى البيزنطيين ، وكانوا يصنعون منه ألواحا ذات طيتين أو ثلاث طيات ، ويجلدون به الكتب ، ويصنعون منه العلب ، وصناديق العطور ، والتماثيل الصغيرة ، ويطعمون به التحف ويزينون به ما لا يحصى من الأشياء . وقد بقيت الفنون الهلنستية فى هذه الصناعة لم يمسسها سوء ، وكل ما حدث فيها أنها استبدلت المسيح والقديسين بالآلهة والأبطال . وإن الكرسى العاجى الذى كان يجلس عليه الأسقف مكسميان فى الباسلقا أرسيا Basilica Ursiana (حوالى ٥٥٠) ليعد تحفة عظيمة فى فن من الفنون الصغرى .

وبينا كان الشرق الأقصى يجرى التجارب على الرسم بألوان الزيت[٤٠] ،

كان التصوير البيزنطى لا يزال مستمسكا بالأساليب اليونانية التقليدية كتثبيت ألوان الرسوم بالحرارة – بحرق الألوان فى سطوح الخشب ، والخيش ، ونسيج التل ؛ وكالمظلمات يصنعونها بخلط الألوان بالجير ووضعها على سطوح من الجبس المبلل ، ومزج اللون بمحلول الماء والصمغ أو الغراء وبزلال البيض ثم وضعها على المربعات الخشبية أو على الجبس بعد أن يجف. وقد عرف الرسام البيزنطى كيف يمثل البعد والعمق ، ولكنه كان يهرب عادة من صعاب النظور بأن يملأ خلفية الصورة بالمبانى والسجف . وقد أخرج عدداً كبيراً من اللوحات المصورة ، ولكنها لم يبق منها إلا القليل . وكانت جدران الكنائس تزدان بالرسوم . وتدل القطع الباقية منها على الواقعية غير المتقنة كالأيدى العديمة الشكل ، والأجسام الصغيرة ، والوجوه الشاحبة ، والشعر المصفف تصفيفا غير معقول .

وقد برع الفنان البيزنطى فى الأشياء الدقيقة وأظهر فيها مرحه وظرفه . وليست روائع التصوير الباقية إلى هذا اليوم من أعماله هى رسوم الجدران أو اللوحات الكثيرة ، بل هى الرسوم الصغرى ذات الألوان البراقة التى كان يزين بها ما ينشر من الكتب فى عصره . ذلك أن الكتب كانت كثيرة النفقات فى ذلك العصر ، ولهذا كانت تحلى كما يحلى غيرها من الأشياء النفيسة . وكان الفنان يبدأ عمله هذا برسم ما يريده من الحليات على البردى أو الرق أو الجلد بفرشاة دقيقة أو قلم ، ثم يضع أرضية تكون عادة ذات لون ذهبى أو أزرق ، ثم يضع ما يريده من الألوان ، ثم يزين الأرضية والحواشى بأشكال رشيقة دقيقة . وكان فى بادئ الأمر يقتصر على تحسين الحرف الأول من كل فصل أو صفحة ؛ وكان يحاول فى بعض الأحيان أن يرسم صورة للمؤلف ، ثم انتقل بعدئذ إلى توضيح النصوص بالصور ؛ فلما تقدم فنه آخر الأمر كاد ينسى النص ويملأ الكتاب بالزخارف ويبنيها على أساس هندسى أو رمز دينى يكرره بأشكال مختلفة يخططها

الحصر ، حتى تصبح الصفحة كلها وكأنها صورة واحدة بديعة من الألوان والخطوط كأن النص دخيل عليها من عالم أكثر منها خشونة .

وكانت زخرفة المخطوطات مألوفة فى مصر أيام الفراعنة والبطالمة ، ثم انتقلت منها إلى بلاد اليونان الهلنستية ورومة . وتحتفظ الفاتيكان بإنياذة ، والمكتبة الأمبروزية ' ميلان بإلياذة ، تعزى كلتاهما إلى القرن الرابع ؛ وهما مزدانتان زينة يونانية ورومانية قديمة ، ويبدو الانتقال من الزخرفة الوثنية إلى المسيحية واضحا فى **الطبوغرافية المسيحية** لصاحبها كزماس انديكپلوستيز Cosmas Indicoplenstes (حوالى ٥٤٧) . وقد نال لقبـــه هذا « إنديكلپوستيز » لأنه سافر إلى الهند بحراً ، كما نال شهرته لأنه حاول أن يثبت أن الأرض مستوية . وأقدم كتاب دينى مزخرف باق إلى هذا اليوم هو سفر التكوين المكتوب من القرن الخامس والمحفوظ الآن فى مكتبة ڤينا . والنص مكتوب بحروف من الفضة والذهب على أربع وعشرين « ورقة » من الجلد الأرجوانى الرقيق . ويحتوى على أربعة وعشرين زخرفا بيضاء وخضراء ، وبنفسجية ، وحمراء ، وسوداء، تصور قصة الإنسان من سقوط آدم حتى موت يعقوب . ولا يقل عنه جمالا **الملف الصغير لكتاب يوشع** المحفوظ فى الفاتيكان **وكتاب الأناجيل** الذى زخرفه الراهب رابولا Rabula فى أرض الجزيرة فى عام ٥٨٦ . ومن أرض الجزيرة وسوريا جاءت الصور والرموز التى كانت لها الغلبة فى الكتابة التصويرية التى ذاعت فى العالم البيزنطى . وقد تكررت هذه الكتابة فى الفنون الصغرى واتخذت لها ألف شكل وشكل حتى ثبتت وأصبحت تقليداً وعرفاً متبعاً ، وكان لها نصيب موفور فى جمود الفن البيزنطى .

وإذا كان المصور البيزنطى مولعاً بالتصوير البراق الدائم فقد اتخذ الفسيفساء وسيلته إلى هذين الغرضين . ومن أجل هذا اختار لأرض حجراته مربعات من

الرخام الملون كما كان يفعل المصريون واليونان والرمان من قبل . أما السطوح الأخرى فكان يستخدم فيها مكعبات من الزجاج أو الميناء من جميع الألوان ومختلف الحجوم ، ولكن سطحها فى العادة كان يبلغ ⅛ بوصة مربعة . وكانت الحجارة الثمينة تختلط أحيانا بالمكعبات ، وكثيراً ما كانت الفسيفساء تستخدم فى صنع الصور الصغيرة والنصمات(*) التى توضع فى الكنائس أو البيوت . أو تحمل فى الأسفار عوناً لأصحابها على الزمن ودليلا على التقى والخشوع . غير أن صانع الفسيفساء كان يفضل على هذه الصور الصغرى مجالا أوسع هو جدران الكنائس والقصور . فكان فى مرسمه يجرب وضع المكعبات على قطعة من الخيش عليها رسم ملون . وهنا كان يجهد عبقريته الفنية ليضع تحت يده الألوان المدرجة الذائبة بعضها فى بعض كما يجب أن يراها الناظر من بعيد . وفى هذه الأثناء كانت طبقة من الأسمنت الغليظ ، ثم طبقة أخرى من الأسمنت الرقيق توضعان على السطح المراد تغطيته . ثم يأتى صانع الفسيفساء ويضغط مكعباته فى هذا القالب على غرار النموذج الذى وضعه لنفسه فوق خيشه ، وقد جرت عادته على أن يضع حافاتها المقطوعة إلى الأمام لكى يقع عليها الضوء . وكان يفضل السطوح المنحنية كسطوح القباب ، وأنصاف القباب الشبيهة بالأصداف لأنها تمتص فى أوقات مختلفة وبزواياها المختلفة أنواعا عدة من الأضواء المظللة . ومن هذا الفن الشاق الذى يتطلب المهارة والجلد ألهم الفن القوطى فى مستقبل الأيام غير قليل من فن تلوين الزجاج .

وقد ورد ذكر هذا الزجاج الملوّن فى النصوص الباقية من القرن الخامس ، ولكن شيئاً منه لم يبق حتى الآن ، ويبدو أن صبغته كانت من خارجه لم تمزج فيه مزجاً (٤١). وكان صنع الزجاج بالنفخ وتقطيعه قدمضى عليهما الآن ألف عام ،

(*) النصمة الصورة تعبد وقد ترجمنا بها كلمة icon . (المترجم)

وكانت سوريا ، أقدم مواطن الصناعتين ، لا تزال مركزاً من مراكزهما . وكان فن الحفر على المعادن الثمينة والحجارة الكريمة قد انحط بعد أيام أورليوس ؛ ولهذا نرى الجواهر ، والنقود ، والأختام البيزنطية غير دقيقة الشكل والصناعة . لكن الصناع مع هذا كانوا يبيعون منتجاتهم لكل طبقة من الطبقات تقريباً ، لأن البيزنطيين كانوا مولعين أشد الولع بالحلى . وكانت محال صنع التحف الذهبية والفضية كثيرة العدد فى العاصمة ؛ كما كانت الحقاق ، والأقداح ، وعلب المخلفات المصنوعة كلها من الذهب تزدان بها كثير من مذابح الكنائس ؛ وكانت الصحاف الفضية تغطى موائد ذوى اليسار .

وكان فى كل بيت ، بل يكاد يكون لدى كل شخص ، شىء من النسيج الرقيق ؛ وكانت لمصر الزعامة فى هذا الميدان بما كان فيها من منسوجات رقيقة ، متعددة الألوان ، مزدانة بالصور ، تصنع منها الثياب ، والستر ، وأغطية الفراش ، وكان قبط مصر سادة هذه الميادين . وتكاد بعض الأقمشة المصرية التى كانت تزدان بها الجدران فى تلك الأيام تضارع من الناحية الفنية أقمشة الجوبلين Goblins[٤٢] . وكان النساجون البيزنطيون ينسجون الحرير المطرز ، والثياب المطرزة ، بل والأكفان المطرزة أيضاً — فقد كانت المنسوجات التيلية تصور عليها بالفعل ملامح الموتى . وكان الناس فى القسطنطينية يعرفون بما يلبسونه من الثياب ، ذلك أن كل طبقة من أهلها كانت تعتز بنوع خاص من الثياب يميزها من غيرها وتدافع عنه أقوى دفاع ؛ وما من شك فى أن أية جماعة بيزنطية كانت تبدو للناظر براقة كذيل الطاووس .

وكانت الموسيقى محببة لجميع الطبقات منتشرة بينها ، وكان لها شأن متزايد فى طقوس الكنيسة ، وقد أعانت على مزج العاطفة بالعقيدة . وقد كتب ألپيوس Alypius فى القرن الرابع مقدمة موسيقية بقيت منها حتى الآن أجزاء هى أهم ما نسترشد به فى قراءة العلامات الموسيقية اليونانية . وقد استبدلت فى ذلك القرن

بالحروف الهجائية التى كانت تمثل بها الأنغام علامات رمزية ؛ ويبدو أن أمبروز هو الذى جاء بهذه العلامات إلى ميلان ، وأن هيلارى Hilary هو الذى أدخلها فى غالة ، وچيروم فى رومة . وألف رومانس Romanus ، الراهب اليونانى فى أواخر القرن الخامس ألفاظ الترانيم التى لا تزال حتى الآن جزءاً من الطقوس الدينية اليونانية ولحنها ؛ وليس ثمة ما يضارع هذه الترانيم فى عمق الشعور وقوة التعبير . وكتب بوئيثيوس مقالا فى الموسيقى لخص فيه نظريات فيثاغورس وارستكسنوس Aristoxenus وبطليموس ؛ وقد ظلت هذه الرسالة تدرس فى جامعتى أكسفورد ، وكمبردج يوم كنا نحن طلاباً (٤٣) .

وبعد ، فإن من واجب الإنسان أن يكون شرقيا إذا شاء أن يفهم الفن الشرقى على حقيقته . وإن المعنى الجوهرى الذى يدركه العقل الغربى من النزعة البيزنطية هو أن الشرق قد سرى فى قلوب اليونان وتغلغل فى أفئدتهم : فى الحكومة الأتوقراطية ، وفى الطبقات المتدرجة الثابتة ، وفى ركود العلم والفلسفة ، وفى الكنيسة الخاضعة لسلطان الدولة ، والشعب الخاضع لسلطان الدين ، وفى الثياب الفخمة والحفلات العظيمة ، والطقوس الدينية ذات الألفاظ الطنانة الرنانة والمناظر الرائعة ، والنغمات الموسيقية الساحرة المتكررة التى تستحوذ على النفوس ؛ وتغمر الحواس بفيض من الألوان البراقة ؛ وأخضع الطبيعة للخيال ، والفن التمثيلى للفن الزخرفى . ولقد كان من شأن الروح اليونانى القديم أن يجد هذا كله غريباً عنه لا يطيقه ، ولكن بلاد اليونان نفسها قد أضحت وقتئذ جزءاً من الشرق . وغلبت على العالم اليونانى كلالة أسيوية فيه فى الوقت الذى كانت فيه بلاد الفرس المتجددة الحيوية ، وكانت قوة الإسلام العظيمة التى لا يكاد العقل يُدرك مداها ، نقول فى الوقت الذى كانت فيه هذه وتلك تنازعانها حياتها نفسها .

الباب السابع

الفــرس

٣٣٤ — ٦٤١

الفصل الأول

المجتمع الساسانى

ومن وراء نهر الفرات أو دجلة كانت تقوم طوال تاريخ اليونان وروما تلك الإمبراطورية التى تكاد تكون خافية على العالم الغربى ، والتى لبثت ألف عام تصد أوروبا المتوسعة وجحافل آسية الهمجية ، لا تنسى قط ما ورثته من مجد الأكيمينيين ، وتنتعش على مهل مما أصابها فى حروب البارثيين ؛ وتحتفظ فى زهو وخيـــلاء بثقافتها الأرستقراطية الفذة تحت حكم ملوكها الساسانيين الأشداء الشجعان ، احتفاظا أمكنها به أن تحوّل فتح المسلمين لإيران إلى نهضة فارسية جليلة الشأن .

وكان لفظ إيران فى القرن الثالث الميلادى أوسع معنى من لفظ إيران أوفارس فى هذه الأيام . فقد كانت ، كما يدل اسمها أرض ، «الآريين» ، وكانت تشمل أفغانستان وبلوخستان ، وسنجديانا ، وبلخ والعراق . ولم تكن فارس ، وهى الاسم القديم لإحدى الولايات الحديثة ، إلا جزءاً صغيراً يقع فى الجنوب الشرقى من هذه الإمبراطورية ، ولكن اليونان والرومان الذين لم يكونوا يعنون بشئون « البرابرة » أطلقوا اسم الجزء على الكل . وكان يخترق إيران فى وسطها من الجنوب الشرقى لجبال هملايا إلى الشمال الغربى لجبال القفقاس حاجز جبلى

يقسم البلاد قسمين ، فى الشرق منه هضبة عالية جدباء ، وفى الغرب وديان خضراء يسقيها النهران التوأمان ، ويجرى ماء فيضانهما الموسمى فى شبكة من القنوات تكسب البلاد الخصب والنماء فتنتج أرضها القمح ، والبلح ، والعنب ، والفاكهة . وكان بين النهرين ، وعلى ضفافهما ، وفى ثنايا التلال ، وواحات الصحراء ، عدد لا حصر له من القرى وعشرات المئات من البلدان وعشرات من المدائن الكبيرة : منها إكباتانا ، والرى ، وموصـل ، واصطخر (برسپوليس القديمة) ، والسوس ، وسلوقية ، وطيسفون (المدائن) العظيمة عاصمة الملوك الساسانيين .

ويصف أميانوس الفرس فى ذلك الوقت بأنهم « يكادون كلهم يكونون نحاف الأجسام ، سمر البشرة إلى حدما . . . لهم لحى على جانب من الظرافة ، وشعر طويل أشعث »[1] . غير أن الطبقات العليا لم تكن ذات شعر أشعث ، ولم يكن أفرادها نحاف الأجسام على الدوام ، وكان يغلب عليهم الجمال ، وكانوا ذوى أنفة وكبرياء ، ودماثة فى الأخلاق ، يميلون إلى الرياضة الشاقة الخطرة ، والثياب الفخمـة . وكان رجالهم يلبسون العمائم على رءوسهم ، والسراويل المنتفخة فى سيقانهم ، والصنادل أو الأحذية ذات الأربطة فى أقدامهم . وكان أغنياؤهم يلبسون معاطف أو جلابيب من الصوف والحرير ويتمنطقون بمناطق يعلقون فيها السيوف . أما الفقراء فكانوا يقنعون بأثواب من نسيج القطن ، أو الشعر ، أو الجلد . وكان النساء يلبسن أحذية طويلة ، وسراويل قصيرة ، وقمصاناً واسعة ، وعباءات أو أثواباً مهفهفة ، ويعقصن شعرهن الأسود من الأمام فى غديرة يتركنها تنوس خلفهن ويزينها بالأزهار . وكانت جميع الطبقات مولعة بالزينة والألوان الجميلة . وكان الكهنة والزرادشتيون المتحمسون يلبسون ثياب القطن الأبيض يرمزون به إلى الطهارة ؛ أما قواد الجند فكانوا يفضلون اللون الأحمر ، وكان الملوك يميزون أنفسهم من سائر الطبقات بالأحذية القصيرة الحمراء ، والسراويل الزرقاء ، وأغطية للرءوس تعلوها كرات منتفخة أو رءوس حيوانات

أو طيور . وكانت الملابس فى بلاد الفرس ، كما كانت في جميع المجتمعات المتحضرة ، تكون نصف الرجل أو أكثر قليلا من نصف المرأة .

وكان الرجل الفارسى العادى المتعلم سريع الانفعال كالرجل الغالى ، شديد التحمس ، كثير التقلب ؛ يغلب عليه الخمول ، ولكنه سريع التيقظ ، يميل بطبعه إلى « الحديث الجنونى ، يسرف فيه إسرافاً ... أميل إلى الدهاء منه إلى الشجاعة ، لا يخافه إلا البعيدون عنه »[٢] — أى حيث يكون أعداء الفرس . وكان فقراؤهم يشربون الجعة ، ولكن الطبقات كلها تقريبا ، بما فيها الآلهة ، كانوا يفضلون النبيذ ؛ فقد كان أتقياء الفرس والمقتصدون منهم يصبونه حسب الطقوس الدينية ، وينتظرون حتى تأتى الآلهة لتشربه ، ثم يشربون هم بعدها الشراب المقدس[٣] . ويصف المؤرخون الفرس فى عصر الساسانيين بأنهم أغلظ أخلاقا مما كانوا فى عهد الأكيمينيين ، وأرق منهم فى عهد البارثيين[٤] ، ولكن قصص پروكپيوس تحملنا على الاعتقاد بأن الفرس ظلوا طوال العهود أحسن أخلاقا من اليونان[٥] . ولقد أخذ أباطرة الروم عن البلاط الفارسى نظم حفلاتهم وطرائقهم الدپلوماسية . وكان ملوكهم المتنافسون يخاطب بعضهم بعضاً بلفظ « الأخ » . ويضمنون للدپلوماسيين الأجانب سلامتهم من الاعتداء ومرورهم سالمين بأرضهم ، ويعفونهم من التفتيش الجمركى والعوائد[٦] . وفى وسعنا أن نرجع التقاليد الدبلوماسية المتبعة فى أوروبا وأمريكا إلى الأساليب التى كانت متبعة فى بلاط ملوك الفرس .

ويقول أميانوس إن « معظم الفرس يسرفون فى الجماع »[٧] ، ولكنه يعترف مع ذلك بأن اللواط والدعارة كانا أقل انتشاراً بينهم مما كانا بين اليونان . وقد امتدح تماليل الفرس لثلاث صفات فيهم فقال : « هم معتدلون فى الطعام ، قنوعون فى علاقاتهم الخاصة وفى العلاقات الزوجية »[٨] . وكانوا يستخدمون كل الوسائل لتشجيع الزواج وزيادة المواليد ، حتى يكون لهم من الأبناء مايسد مطالب الحرب

ولهذا كان إله الحب عندهم هو المريخ لا ڤينوس . وكان الدين يأمر بالزواج ، ويحتفل به احتفالا مصحوبا بطقوس رهيبة ، ومن تعاليمه أن الإخصاب يقوى أهورا مزدا إله النور فى صراعه العالمى مع أهرمان وهو الشيطان فى الديانة الزرادشتية[٩] . وكان رب البيت يعبد أسلافه حول نار الأسرة ، ويطلب الأبناء لكى يضمن لنفسه العناية به وعبادته فيما بعد ، فإذا لم يولد له أبناء من صلبه تبنى ولداً من أبناء غيره . وكان الآباء هم الذين ينظمون عادة زواج أبنائهم يساعدهم فى هذا غالباً موثق رسمى لعقود الزواج ، ولكن المرأة كان فى وسعها أن تتزوج على خلاف رغبة والديها . وكانت البائنات والهبات تقوم بنفقات الزواج المبكر والأبوة المبكرة . وكان يسمح للرجال بتعدد الزوجات ، وكان يُوصى به إذا كانت الزوجة الأولى عاقراً . وكان الزنى منتشراً [١٠] . وكان فى وسع الزوج أن يطلق زوجته إذا خانته ، كما كان فى وسع الزوجة أن تطلق زوجها إذا هجرها أو قسا عليها . وكان التسرى مباحا . وكان لهؤلاء المحظيات كما كان لنظائرهن عنـــد اليونان ، الهتايراى hetairai ، الحرية الكاملة فى أن يسرن أمام الجماهير وأن يحضرن مآدب الرجال[١١] . أما الزوجات الشرعيات فكن فى العادة يبقين فى أجنحة خاصة بهن فى البيوت[١٢] ، وقد ورث المسلمون عن الفرس هذه العادة القديمة . وكانت نساء الفرس ذوات جمال بارع ، ولعله كان من الصواب أن يمنع الرجال من الاختلاط بهن . والنساء فى شاهنامة الفردوسى هن اللائى يبدأن بخطبة الرجال وإغوائهن ، وكانت مفاتن النساء تتغلب على قوانين الرجال .

وكان يستعان على تربية الأبناء بالعقيدة الدينية ، ويبدو أن هذه كان لابد منها لتدعيم سلطان الأبوين . وكانوا يسلون أنفسهم بألعاب الكرة ، والرياضة البدنية ، والشطرنج[١٣] ، ويشتركون منذ نعومة أظفارهم فى وسائل التسلية التى يمارسها الكبار كالضرب بالنبال ، وسباق الخيل ، وحجف الكرة ، والصيد . وكان كل ساسانى يرى فى الموسيقى عونا لابد منه فى شئون الدين ، والحب ،

والحرب . وفى هذا يقول الفردوسى إن الموسيقى وأغانى النساء الجميلات كانت تلازم المآدب وحفلات الاستقبال الملكية[١٤] . وكانت القيثارة ، والناى ، والمزمار ، والقرن ، والطبلة ، وغيرها من الآلات الموسيقية كثيرة عندهم . وتؤكد الرواية المأثورة أن برباد مغنى كسرى أبرويز ألف ٣٦٠ أغنية ، ظل يغنى فى كل ليلة واحدة منها لسيده عاما كاملا[١٥] . وكان للموسيقى كذلك شأن كبير فى التعليم ؛ فقد كان مقر المدارس الابتدائية هو أبنية الهياكل ، وكان الكهنة هم الذين يقومون بالتعليم فيها . أما التعليم العالى فى الآداب ، والطب ، والعلوم ، والفلسفة فكان يتلقى فى دار المجمع العلمى الشهير فى غنديسابور فى سوريانا . وكان أبناء أمراء الإقطاع وحكام الولايات يعيشون فى الغالب بالقرب من الملوك ، وكانوا يتلقون العلم مع أمراء الأسرة المالكة فى مدارس كبرى متصلة بالبلاط[١٦] .

وظلت اللغة الفهلوية الهندى — أوروبية لغة فارس البارثية هى المستعملة فى البلاد . ولم يبق مما كتب بها فى ذلك العهد إلا نحو ٦٠٠,٠٠٠ كلمة كلها تقريبا تبحث فى شئون الدين . لكننا نعلم أنها كانت لغة واسعة[١٧] ؛ غير أن الكهنة كانوا هم حفظتها وناقليها ، ولذلك تركوا الكثير مما كتب بها فى غير الدين يفنى على مر الزمان (ولعلنا قد خدعنا بخطة شبيهة بهذه الخدعة فظننا أن الكثرة الغالبة مما كتب من أدب العصور الوسطى فى العالم المسيحى كان أدبا دينيا) . وكان الملوك الساسانيون ملوكا مستنيرين يناصرون الأدب والفلسفة ، وكان أكثرهم مناصرة لها كسرى أنوشروان ، فقد أمر بترجمة كتب أفلاطون وأرسطو إلى اللغة الفهلوية ، وبتدريس هذه الكتب فى غنديسابور ، بل قرأها هو نفسه . وقد كتب فى عهده كثير من المؤلفات التاريخية لم يبق منها كلها إلا الكرنماكى — أرتخشتر أو أعمال أردشير وهو مزيج من التاريخ والقصص كان هو الأساس الذى استمد منه الفردوسى كتاب الشاهنامة . ولما أغلق جستنيان مدارس أثينة فر سبعة من أساتذتها إلى فارس ووجدوا لهم فى بلاط كسرى ملجأ أمينا .

ولكنهم حنوا فيما بعد إلى أوطانهم ، فاشترط الملك « البربرى » فى المعاهدة التى عقدها مع چستنيان عام ٥٣٣ أن يسمح للحكماء اليونان بالعودة إلى أوطانهم وألا يمسهم أى أذى .

وفى عهد هذا الملك المستنير أصبحت كلية غنديسابور التى أنشئت فى القرن الرابع أو الخامس « أعظم المراكز الثقافية فى ذلك العهد[١٨] » ، وبهرع إليها الطلاب والمدرسون من كافة أنحاء العالم . وكان يؤمها النساطرة المسيحيون ، الذين جاءوا معهم بتراجم سريانية لكتب الطب والفلسفة اليونانية . وجاء إليها أتباع الأفلاطونية الجديدة وبذروا فيها بذور العقائد الصوفية ، وامتزجت فيها علوم الطب الهندية ، والفارسية ، والسورية ، واليونانية ، ونتج عنها مدرسة للعلاج مزدهرة ناجحة[١٩] . وكان المرض حسب النظرية الفارسية ينتج إذا دنس أو تلوث ركن أو أكثر من الأركان أو العناصر الأربعة — النار ، والماء ، والتراب ، والهواء . ويقول أطباء الفرس وكهنتهم إن الصحة العامة تتطلب إحراق كل المواد المتعفنة ، وإن صحة الأفراد تتطلب الطاعة التامة لقانون الطهارة الزرداشتى[٢٠] .

ولسنا نعرف عن علم الفلك عند الفرس فى ذلك الوقت أكثر من أنه قد احتفظ لهم بتقويم منظم ، وأن سنتهم كانت تنقسم إلى اثنى عشر شهراً فى كل منها ثلاثون يوماً ، وأن الشهر كان ينقسم إلى أربعة أسابيع ، اثنان منها يحتوى كل منهما على سبعة أيام واثنان فى كل منهما ثمانية ، وأنهم كانوا يضيفون خمسة أيام فى آخر العام[٢١] . وكان التنجيم والسحر منتشرين فى البلاد ، فلم يكونوا يقدمون على عمل هام دون الرجوع إلى أبراج النجوم ، وكانو يعتقدون أن جميع مصائر الناس على هذه الأرض تحددها النجوم الطيبة والخبيثة التى تحترب فى السماء — كما تحترب الملائكة والشياطين فى النفس البشرية — حرب أهورا مزدا وأهرمان القديمة .

وأعاد الملوك الساسانيون إلى الدين الزرادشتى ما كان له من سلطان ورونق . فوهبت الأراضى والعشور إلى الكهنة ، وأسس نظام الحكم على أساس الدين كما كانت الحال فى أوربا ، وعين كاهن أكبر ذو سلطان لا يفوقه سلطان الملك نفسه رئيساً لطائفة الكهنة المجوس الوراثية ، التى كانت تشرف على جميع نواحى الحياة الذهنية فى فارس إلا القليل منها ، وكانت تنذر كل من تحدثه نفسه بالإثم أو بالخروج على سلطان الدولة بالعذاب الدائم فى الجحيم ؛ وظلت تسيطر على عقول الفرس وعلى جماهير الشعب مدى أربعة قرون[٢٢] . وكانوا من حين إلى حين يحمون الأهلين من عسف الجباة والفقراء من استبداد الحكام[٢٣] . وقد بلغ من ثراء هذه الجماعة أن كان الملوك أنفسهم يستدينون أموالا طائلة من خزائن الهياكل . وكان فى كل بلدة كبيرة معبد للنار تشتعل فيه نار مقدسة يقولون إنها لا تنطفىء أبداً وترمز إلى إله النور . وكانوا يعلمون الناس أن حياة الفضيلة الطاهرة وحدها هى التى تنجى الروح من أهرمان ؛ وكان لا بد للروح فى حربها القائمة على الشيطان من أن تستعين بكهنة المجوس وبما يعرفونه عن الغيب ، وبرقاهم وسحرهم ، ودعواتهم . فإذا ما نالت الروح هذه المعونة سمت إلى درجة القداسة والطهارة ، وخرجت سالمة من محكمة يوم الحساب الرهيبة ، واستمتعت بالنعيم المقيم فى الجنة .

وكانت أديان أخرى أقل منزلة من هذا الدين الرسمى تجد لها مكاناً حوله . فكان مثراس إله الشمس المحبب للبارثيين يعبد بين عدد قليل من أفراد الشعب بوصفه مساعداً لأهورا مزدا . ولكن الكهنة الزرداشتيين كانوا يعدون الخروج على الدين القومى ، كما يعده المسيحيون ، والمسلمون ، واليهود جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام . وشاهد ذلك ما حدث حين قام مانى Mani (حوالى ٢١٦ — ٢٧٦) يدعى أنه رسول رابع مكمل لبوذا ، وزرادشت ، ويسوع ، ويدعو إلى دين قوامه العزوبة ، والسلام ، والهدوء ، إذ صلب بناء على طلب

المجوس ذوى النزعة الحربية القومية ، واضطر أتباعه إلى العمل على نشر دينهم فى خارج البلاد . أما اليهودية والمسيحية فكانتا بوجه عام تلقيان من الملوك والكهنة الساسانيين كثيراً من التسامح ، كما كان البابوات أكثر تسامحاً مع اليهود منهم مع المارقين من الدين المسيحى . وقد وجد كثير من اليهود ملجأ لهم فى الولايات الغربية من الإمبراطورية الفارسية . وكانت المسيحية قد ثبتت دعائمها فى تلك الولايات حين جلس الساسانيون على العرش ، وظلت لا تلقى معارضة منهم حتى أضحت الدين الرسمى لعدوّى الفرس القديمين وهما بلاد اليونان ورومة ؛ فلما أن اشترك قساوستها اشتراكاً فعلياً فى الدفاع عن الأقاليم البيزنطية ضد شابور الثانى ، كما حدث عند نصيبين عام ٣٣٨ ، شرع ملوك الفرس يضطهدونها[٢٤] ، وبدأ المسيحيون فى فارس يجهرون بآمالهم الطبيعية فى انتصار الدولة البيزنطية . وأمر شابور فى عام ٣٤١ بذبح جميع المسيحيين الساكنين فى الإمبراطورية ، ولما أن رأى أن قرى بأكملها من القرى المسيحية قد أقفرت من أهلها أمر بأن يقتصر على قتل القسيسين ، والرهبان ، والراهبات ؛ ولكن ١٦٫٠٠٠ مسيحى قد هلكوا نتيجة لهذا الاضطهاد الذى دام حتى موت شابور (٣٧٩) . ولما جلس يزدجرد الأول على العرش (٣٩٩ — ٤٢٠) رد للمسيحين حريتهم الدينية ، وساعدهم على بناء كنائسهم ، حتى إذا كان عام ٤٢٢ قرر مجلس من أساقفة الفرس استقلال الكنيسة المسيحية الفارسية عن الكنيستين المسيحيتين اليونانية والرومانية .

وفى داخل هذا الإطار المكون من العبادات والمنازعات الدينية ، والمراسيم والأزمات الحكومية والحروب الداخلية والخارجية ، فى داخل هذا الإطار كان الناس يمدون الدولة والكنيسة بمقومات حياتهما — يفلحون الأرض ، ويرعون الماشية والضأن ، ويمارسون الصناعات اليدوية ، ويتبادلون التجارة . وكانت الزراعة عندهم من الواجبات الدينية ؛ فكان الشعب يُعَلَّم أن تنظيف

الفلوات من الأشجار والأعشاب ، وزرع الأرض ، والقضاء على الآفات ، واستئصال الأعشاب الضارة بالنبات ، وإصلاح الأراضى البور ، وتسخير مجارى الماء لرى الأرض — كان الشعب يعلم أن هذه الأعمال المجيدة كلها تضمن انتصار أهورا مزدا فى آخر الأمر على أهرمان . وكان الفلاح الفارسى فى مسيس الحاجة إلى كثير من أسباب السلوى الروحية ، لأنه كان يعمل عادة بوصفه مستأجراً لأرض الأمير الإقطاعى ، ويؤدى ضرائب ورسوماً أخرى قدراً من المحصول يتراوح بين سدسه وثلثه . ونقل الفرس عن الهند حوالى عام ٥٤٠ استخراج السكر من القصب حتى لقد وجد الإمبراطور الشرقى هرقل مخازن ملأى بالسكر فى القصر الملكى بطيسفون (المدائن) (٦٢٧) ؛ ولما فتح العرب بلاد الفرس بعد أربعة عشر عاماً من ذلك الوقت ، عرفوا من فورهم كيف يزرعون القصب ، وأدخلوا زراعته فى مصر وصقلية ، ومراكش ، وأسپانيا ومنها انتشرت فى أوربا[٣٦] . وكانت تربية الحيوانات من أهم الأعمال فى بلاد الفرس ، فلم تكن تفوق الخيل الفارسية إلا الجياد العربية الأصيلة فى تسلسل أنسابها ، وجرأتها ، وجمالها ، وسرعتها . وكان لكل فارسى جواد يعزه كما يعز رستم راكوش ، وقد قدس الفرس الكلب لعظيم نفعه فى حراسة قطعان الماشية والبيوت ، وكان للقطة الفارسية شأن عظيم فى كافة أنحاء البلاد

وتطورت الصناعة فى عهد الساسانيين فانتقلت من المنازل إلى الحوانيت فى المدن . وكثرت نقابات الحرف ، ووجدت فى بعض البلدان جماعات ثورية من الصعاليك[٢٧] ، وأدخل نسج الحرير من الصين ، وسرعان ما انتشرت هذه الصناعة وتقدمت حتى كان الحرير الساسانى يطلب فى كل مكان ، وكان نموذجاً يحتذيه فن النسيج فى بيزنطية ، والصين ، واليابان ؛ وكان تجار الصين يفدون إلى إيران ليبيعوها حريرهم الخام ويشتروا منها الطنافس ، والجواهر ، والأصباغ الحمراء ؛ وعمل الأرمن ، والسوريون ، واليهود على ربط بلاد الفرس ، وبيزنطية ، ورومة

فى سلسلة من التبادل التجارى البطىء . وأعانت الطرق والجسور الصالحة ، التى كانت تتعهدها الدولة بعنايتها ، على إنشاء طائفة من المراكز ، وطرق القوافل التجارية التى ربطت طيسفون بسائر ولايات الدولة ؛ وأنشئت المرافئ فى الخليج الفارسى ، لتيسير التجارة مع الهند . وكانت الأنظمة الحكومية تحدد أثمان الحبوب ، والأدوية وغيرهما من ضروريات الحياة ، وتمنع تخزينها لرفع أثمانها ، واحتكارها[٢٨] . وفى وسعنا أن نقدر ثراء الطبقات العليا من قصة الشريف الذى دعا ألف ضيف إلى وليمة ، فلما جاءوا وجد أنه لا يملك من الصحاف ما يكفى لأكثر من خمسمائة ، فاستطاع أن يستعير الخمسمائة الباقية من جيرانه[٢٩] .

ونظم أمراء الإقطاع ، الذين كانوا يعيشون فى الغالب فى ضياعهم ، طريقة استغلال الأرض ومن عليها ، وألفوا الفيالق من مستأجرى أرضهم ليحاربوا حروب الأمة . وكانوا يتدربون على الحرب بمطاردة الصيد بحماسة وشجاعة ، فكانوا لذلك ضباطاً فى سلاح الفرسان ذوى شهامة ؛ وكانوا هم وجيادهم مسلحين كما كانت جيوش الإقطاع مسلحة فى أوربا فيما بعد ؛ ولكنهم لم يبلغوا ما بلغه الرومان فى فرض النظام على جنودهم ، أو فى استخدام ما عرف فيما بعد من فنون هندسة الحصار والدفاع . وكان يعلو عليهم فى المنزلة الاجتماعية عظماء الأشراف الذين كانوا يتولون حكم الولايات ويرأسون المصالح الحكومية . وما من شك فى أن الإدارة الحكومية كانت حازمة قديرة إلى حد بعيد ؛ وشاهد ذلك أن الخزانة الفارسية كانت فى أغلب الأوقات أكثر عمراناً بالمال من خزائن أباطرة الرومان ، وإن كانت الضرائب فى الدولة الفارسية أقل إرهاقاً مما كانت عليه فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو الغربية . ولقد كان فى خزائن كسرى أبرويز فى عام ٦٢٦ ما قيمته ٤٦٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار أمريكى[٣٠] ، وكان دخله السنوى يقدر بنحو ١٧٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار — وهما مبلغان ضخمان إذا ذكرنا ما كان للفضة والذهب من قوة الشراء فى العصور الوسطى .

وكان سن القوانين من عمل الملوك ، ومستشاريهم ، والمجوس ؛ وكانوا يعتمدون سنها على قوانين الأبستاق القديمة ، وكان يترك للكهنة تفسير هذه القوانين وتنفيذها . ووصف أميانوس ، الذى كان يحارب الفرس ، قضاتهم بأنهم كانوا « رجالا عدولا ، ذوى تجربة ، وعلم بالقوانين[٣١] » . وكان المعروف عن الفرس بوجه عام أنهم يحافظون على الوعد ، وكانت الأيمان التى يقسمونها فى المحاكم تحاط بهالة من التقديس ، وكان الحنث فى اليمين يلقى أشد العقاب فى هذا العالم بحكم القانون ، ويعاقب صاحبه فى الدار الآخرة بوابل من السهام ، والبلط والحجارة . وكان التحكيم الإلهى من الوسائل التى يلجأ إليها لكشف الجرائم ، فكان يطلب إلى المتهمين أن يمشوا على مواد تحمى فى النار حتى تحمر ، أو يخوضوا اللهب ، أو يطعموا الطعام المسموم . وكان وأد الأطفال وإسقاط الأجنة محرمين يعاقب من يرتكبهما بالإعدام ؛ وكان الزانى إذا عرف ينفى من البلاد والزانية يجدع أنفها وتصلم أذناها ؛ وكان فى وسع المتقاضين أن يستأنفوا الأحكام أمام محاكم عليا ؛ ولم يكن الحكم بالإعدام ينفذ إلا إذا نظر فيه الملك وأقره .

وكان الملك يقول إنه يستمد سلطانه من الآلهة ، وإنه وليهم فى الأرض ، وإنه يضارعهم فى قوة أحكامهم ، وكان يلقب نفسه حين تسمح الظروف « ملك الملوك ، وملك الآريين وغير الآريين ، وسيد الكون ، وابن الآلهة[٣٢] » . وأضاف شابور الثانى إلى هذه الألقاب : « أخا الشمس والقمر ، ورفيق النجوم » وكان الملك الساسانى مطلق السلطان من الوجهة النظرية ، ولكنه كان يعمل فى العادة بمشورة وزرائه الذين كانوا يؤلفون مجلساً للدولة . وقد أثنى المسعودى المؤرخ المسلم على ما كان للملوك الساسانيين من إدارة ممتازة ، وعلى سياستهم الحسنة النظام ، وعنايتهم برعاياهم ورخاء بلادهم[٣٣] . ويقول كسرى أنوشروان ، كما جاء فى كتاب ابن خلدون « لولا الجيش لما كان الملك ، ولولا موارد الدولة ما كان الجيش ، ولولا الضرائب ما كانت الموارد ؛ ولولا الزراعة ما كانت الضرائب ،

ولولا الحكومة العادلة ما كانت الزراعة(٣٤) » . وكانت الملكية فى الأوقات العادية وراثية ، ولكن كان فى وسع الملك أن يختار غير ابنه الأكبر ليخلفه على العرش . وجلست ملكتان على العرش فى زمنين مختلفين ؛ وإذا لم يترك الملك من بعده ولياً للعهد من نسله اختار الأشراف ورجال الدين حاكماً على البلاد ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون أن يختاروا أحداً من غير الأسرة المالكة .

وكانت حياة الملك مثقلة بالواجبات والتبعات التى لا آخر لها . فقد كان ينتظر منه أن يخرج للصيد والقنص بلا خوف ، وكان يخرج إليه فى هودج مزركش تجره عشرة من الجمال ، وعليه ثيابه الملكية . وكانت سبعة جمال تحمل عرشه ، ومائة جمل تحمل الشعراء المنشدين . وقد يكون فى ركابه عشرة آلاف من الفرسان ؛ ولكنا إذا صدقنا ما كتب من النقوش الساسانية على الصخور قلنا إنه كان ينبغى له آخر الأمر أن يمتطى صهوة جواد ، ويواجه بنفسه وعلا ، أو غزالا ، أو رئما ، أو جاموساً برياً ، أو نمراً ، أو أسداً ، أو غيرها من الوحوش التى جمعت فى حديقة الملك أو « جنته » . فإذا عاد من الصيد إلى قصره واجه مهام الحكم الشاقة ، وسط ألف من الحشم وفى حفلات لا آخر لها . وكان عليه أن يرتدى ثياباً مثقلة بالجواهر ، وأن يجلس على عرش من الذهب ، ويضع على رأسه تاجاً يبلغ من الثقل حداً لا بد معه أن يعلق على مسافة جد صغيرة ، لا يمكن رؤيتها ، من رأسه الذى لا يستطيع تحريكه . وعلى هذا النحو كان يستقبل الشعراء ، والأضياف ، ويتبع ما لا يحصى من المراسم الشاقة الدقيقة ، ويصدر الأحكام ، ويستقبل الوافدين الذين حددت لهم المواعيد ويتلقى التقريرات . وكان على الذين يدخلون عليه أن يخروا سجداً أمامه ، ويقبلوا الأرض بين يديه ، وألا يقفوا إلا إذا أمرهم بالوقوف ، ولا يتحدثوا إليه إلا وفى فهم منديل خشية أن تعدى أنفاسهم الملك أو تدنسه . فإذا جاء الليل دخل على إحدى زوجاته أو محظياته يبذر فيها بذوره العليا .

الفصل الثانى

الملـكية الساسانية

تقول الرواية الفارسية إن ساسان كان كاهناً فى پرسپوليس (اصطخر) ، وإن ابنه پاپاك Papak كان أميراً صغيراً فى خور ، وإن پاپاك قتل جوزهر ، حاكم الولاية الفارسى ، وأعلن نفسه ملكاً على تلك الولاية ، وأورث سلطانه ابنه شابور ، وإن شابور مات نتيجة لحادثة وقعت فى الوقت المناسب ، فخلفه ابنه أردشير . وأبى أرطبانوس الخامس آخر ملوك الفرس الأرساسيين أو البارثيين أن يعترف بهذه الأسرة المحلية الجديدة ؛ فحاربه أردشير وهزمه (٢٢٤) ، وصار ملك الملوك (٢٢٦) . فلما تم له هذا استبدل بحكم الأرساسيين الإقطاعى المفكك حكماً ملكياً قوياً أداته بيروقراطية مركزة كثيرة الفروع ؛ وكسب تأييد رجال الدين بأن أعاد العقيدة الزرادشتية وأعاد إلى كهنتها سابق سلطانهم ، وأثار كبرياء الشعب بأن أعلن أنه سيقضى على النفوذ الهلنستى فى فارس ، ويثأر لدارا الثانى من ورثة الإسكندر ، ويستعيد كل الأقاليم التى كانت فيما مضى تحت حكم الملوك الأكمينيين . والحق أنه قد بر بوعده هذا أو كاد . فقد قام بحملات خاطفة مدت حدود بلاد الفرس فى الشمال إلى نهر جيحون ، وفى الغرب إلى نهر الفرات ، ووضع التاج قبل أن تدركه المنية فى عام ٢٤١ على رأس ابنه شابور ، وأمره أن يلقى باليونان والرومان فى البحر .

وورث شابور الأول عن أبيه قوته ودهاءه ؛ وتمثله النقوش التى على الصخور بهى الطلعة ، نبيل الملامح ، ولكن هذه النقوش كانت بلا ريب تحيات من صانعيها جرى العرف بأن تكون على هذه الصورة . وقد تلقى شابور تعليما طيباً ،

ونشأ على حب العلم ، ويقال إنه أعجب بحديث أوسطاثيوس Eustathius السوفسطائى سفير اليونان إعجاباً جعله يفكر فى اعتزال الملك ليتفرغ للفلسفة[٣٥] وخالف سميه السابق بأن أطلق الحرية الكاملة لجميع الأديان ، وسمح لمانى بأن يلقى مواعظه الدينية فى بلاطه ؛ وأعلن أن « المجوس ، والمانيين ، واليهود ، والنصارى ، والناس جميعاً أياً كان دينهم يجب أن يتركوا وشأنهم فى جميع أنحاء إمبراطوريته[٣٦] . وواصل ما بدأه أردشير من تنقيح الأبستاق ، فأقنع الكهنة بأن يضموا إلى كتابهم المقدس أبواباً فى غير شئون الدين تشمل علوم ما بعد الطبيعة والفلك ، والطب ، معظمها مأخوذ من بلاد الهند واليونان . وكان سخياً فى مناصرة الفنون ، ولم يبلغ ما بلغه شابور الثانى ، أو كسرى الأول والثانى ، من براعة فى قيادة الجند ، ولكنه كان أقدر الملوك الساسانيين جميعاً فى الشئون الإدارية . وأنشأ له عاصمة جديدة فى شاه بور لا تزال آثارها تحمل اسمه حتى الآن ، وأقام عند ششتار على نهر قارون سداً يعد من أكبر الأعمال الهندسية فى التاريخ القديم . وقد بنى هذا السد من كتل ضخمة من الحجر الأعبل (الجرانيت) ، تكون منها جسر طوله ١٧١٠ قدم ، وعرضه عشرون قدماً . وحول مجرى النهر مؤقتاً لكى يستطاع إقامة البناء ؛ ورصف قاع المجرى عنده رصفاً متيناً ، وأنشئت فيه بوابات لتنظم تصريف المياه . وتقول الرواية المتواترة إن شابور استخدم فى تخطيط السد وبنائه مهندسين وأسرى من الرومان . وقد ظل هذا السد يؤدى الغرض منه حتى هذا القرن[٣٧] . ثم حول شابور اهتمامه على كره منه إلى الحرب والقتال ، فغزا سوريا ، ووصل فى حملته إلى أنطاكية ، ولكنه هزم فى معركة مع جيش رومانى فعقد مع رومة صلحاً (٢٤٤) ، استردت بمقتضاه جميع ما كان قد استولى عليه فى حروبه . غير أنه حقد على أرمينية أن تعاونت عليه مع رومة ، فزحف على تلك البلاد ، وأقام فيها أسرة صديقة لفارس (٢٥٢) ؛ ولما حمى بذلك جناحه الأيمن ، عاد إلى قتال رومة ، فهزم الإمبراطور ڤلبريان وأسره (٢٦٠) ،

ونهب أنطاكية ، واستولى على آلاف من الأسرى سخرهم للعمل فى إيران (٢٦٠) . ثم انضم أدناثوس حاكم تدمر إلى رومة ، فاضطر شابور مرة أخرى إلى الاكتفاء بأن يكون نهر الفرات الحد الفاصل بين أملاك الفرس والرومان .

وخلفه على العرش فيما بين ٢٧٢ و٣٠٢ ملوك لم يرق أحد منهم إلى ما فوق الدرجة الوسطى من الكفاية . ويأتى بعد هـذا هرمزد الثانى (٣٠٢ — ٣٠٩) الذى يشيد التاريخ بحكمه القصير الأجل ، والذى بدأ فيه طائفة من الأعمال النافعة وبسط على البلاد لواء السلم والرخاء . وبذل الملك عناية كبيرة فى ترميم الأبنية العامة ، والمساكن الخاصة ، موجهاً أكبر اهتمامه إلى مساكن الفقراء ، وكان ينفق على هذه الأعمال كلها من أموال الدولة . وأنشأ محكمة جديدة خصها بسماع شكاوى الفقراء ضد الأغنياء ، وكثيراً ما كان يتولى رياستها بنفسه : ولسنا نعرف هل كانت هذه العادات الغريبة هى التى حرمت ابنه من وراثة العرش ؛ وسواء كان ذلك أو لم يكن فقد حدث على أثر وفاة هورمزد أن زج النبلاء بابنه فى السجن ، وأعطوا الملك لابنه الذى لم يولد بعد ، ولقبوه فى ثقة واطمئنان بشابور الثانى ، وأرادوا ألا يتركوا فى الأمر مجالا للشك فتوجوا الجنين بأن علقوا التاج الملكى على رحم أمه(٣٨) .

وبهذه البداية الطيبة حكم شابور الثانى أطول حكم فى تاريخ آسية (٣٠٩ — ٣٧٩) . وقد درب منذ طفولته على الفنون الحربية ، فقوى جسمه وإرادته ، حتى إذا بلغ السادسة عشرة من عمره تولى شئون الملك ونزل إلى ميدان القتال ، فغزا شرق جزيرة العرب وخرب حوالى عشرين قرية ، وقتل آلافاً من الأسرى ، وقاد آلافاً غيرهم إلى الأسر فى حبال ربطها بجروحهم . وفى عام ٣٣٧ شن الحرب على رومة للسيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى بلاد الشرق الأقصى ، وواصلها حتى وفاته تقريباً إذا استثنينا فترات من السلم قصيرة . وكان اعتناق رومة وأرمينية للدين المسيحى سبباً فى ازدياد نيران الحرب شدة على شدتها

كأن الآلهة هي الأخرى قد نزلت إلى الميدان ، وجاءت معها بكل ما يحدثنا عنه هومر من وحشية في القتال . وظل شابور أربعين عاما يقاتل طائفة كبيرة من أباطرة الروم واحداً بعد واحد ، فصده يوليان إلى طيسفون ، ولكنه ارتد بعدئذ ارتداداً غير شريف ؛ واضطر جوفيان أمام تفوق عدوه عليه في الفنون العسكرية أن يعقد مع شابور صلحا نزل له بمقتضاه عن الولايات الرومانية الممتدة على نهر دجلة وعن أرمينية كلها . ولما مات شابور الثاني كانت بلاد الفرس قد بلغت ذروة سلطانها وهيبتها ، وكانت مائة ألف فدان من أرضها قد أصلحت واستخدم في إصلاحها الأسرى من الأعداء .

وانتقل ميدان الحرب في القرن التالي إلى حدود الفرس الشرقية : فقد حدث حوالي عام ٤٢٥ أن استولت على الإقليم المحصور بين نهري سيحون وجيحون جماعات طورانية يطلق عليها اليونان اسم الإفثاليين Ephthalites ، ويلقبون خطأ باسم « الهون البيض » ، استولوا على الإقليم المحصور بين نهري سيحون وجيحون وحاربهم الملك بهرام الخامس الساساني (٤٢٠ — ٤٣٨) ، المعروف باسم الغور — أي « الحمار الوحشي » — لجرأته في أعمال الصيد ، وانتصر عليهم ، ولكنهم بعد وفاته أخذوا ينتشرون في الإقليم لكثرة تناسلهم وتفوقهم في القتال ، وأنشأوا لهم إمبراطورية امتدت من بحر الخزر إلى نهر السند ، وجعلوا عاصمتها جرجان ، وكانت أشهر مدنها بلخ ، وهزموا فيروزشاه وقتلوه (٤٥٩ — ٤٨٤) ، وأرغموا الشاه الذي خلفه على أداء الجزية .

وبينما كان الخطر يتهدد فارس من جهة الشرق ، إذ ضربت الفوضى أطنابها في البلاد ، نتيجة لاضطرار الملكية إلى الكفاح للمحافظة على سلطانها ضد الأشراف ورجال الدين . وفكر كفاذه الأول (٤٨٨ — ٥٣١) في أن يضعف أولئك الأعداء بمناصرة إحدى الحركات الشيوعية ، التي كانت تتخذهم الهدف الأول لهجماتها . وتفصيل ذلك أن أحد رجال الدين الزرادشتيين المدعو مزدق قد

أعلن في عام ٤٩٠ أنه مرسل من عند الله للدعوة إلى عقيدة قديمة مضمونها أن الناس جميعاً يولدون أكفاء ، وأن ليس لأحد من الناس حق طبيعي في أن يمتلك أكثر مما يمتلكه غيره ، وأن الملكية والزواج من البدع التي ابتدعها البشر ، وأنها أخطاء عاقبتها البؤس والشقاء ، وأن السلع جميعها والنساء كلهن يجب أن تكون ملكا مشاعا لجميع الرجال . ويقول عنه أعداؤه إنه كان يجيز السرقة ، والزنى ومضاجعة المحارم ، ويتخذ هذه الأعمال وسيلته الطبيعية لمقاومة الملكية والزواج ، ويقول إنها الطرق المشروعة للوصول إلى المدينة الفاضلة . واستمع إليه الفقراء وبعض الطوائف الأخرى مغتبطين ، ولكن أكبر الظن أن مزدق نفسه قد أدهشه أن يجد ملكا يوافق على آرائه . وبدأ أتباعه ينهبون بيوت الأغنياء ، ثم لا يكتفون بهذا بل يسبون نساءهم أيضاً ، ويأخذون أثمن ما في هذه البيوت ومن فيها من جوار ومحظيات حسان . وثارت ثائرة الأشراف فزجوا كفاده في السجن وأجلسوا أخاه جاماسپ على العرش . وقضى كفاده في « قلعة النسيان » ثلاث سنين فر بعدها من السجن ، وهرب إلى الإفثاليين . ورأى هؤلاء الفرصة سانحة لأن يكون حاكم بلاد الفرس خاضعا لسلطانهم ، فأمدوه بجيش وساعدوه على أخذ طيسفون عنوة . ونزل جاماسپ عن العرش ، وفر الأشراف إلى ضياعهم بالريف ، وأصبح كفاده مرة أخرى ملك الملوك (٤٩٩) . ولما استتب له الأمر غدر بالشيوعيين ، وقتل مزدق وآلافا من أتباعه[٣٩] . ولعل هذه الحركة قد رفعت من شأن العمل اليدوي ، لأن قرارات مجلس الدولة بعدئذ لم يكن يوقعها الأمراء ورجال الدين وحدهم ، بل كان يوقعها معهم رؤساء نقابات الحرف[٤٠] . وحكم كفاده بعد ذلك جيلا آخر ؛ وحارب أصدقاءه الإفثاليين وانتصر عليهم ، وحارب رومة حربا غير حاسمة ، ثم مات وترك العرش لابنه الثاني كسرى أعظم ملوك الساسانيين جميعا .

كان خسرو الأول (« أي صاحب المجد التقي » ٥٣١ — ٥٧٩) يعرف عند اليونان باسم كسروس Chosroes وعند العرب باسم كسرى ؛ ولقبه الفرس

أنوشروان (« الروح الخالدة ») ؛ ولما أن ائتمر به إخوته الأكبر منه سناً ليخلعوه قتل إخوته جميعاً ، وقتل جميع أبنائهم عدا واحداً منهم . ولقبه رعاياه بالعادل » ، ولعله يستحق هذا اللقب إذا فرقنا بين العدالة والرحمة . ويصفه روكپيوس بأنه كان « بارعاً إلى أقصى حد فى تصنع التقى » وفى نكث العهد(٤١) لكن پروكپيوس من ألد أعدائه . ويثنى الطبرى المؤرخ الفارسى الأصل على نفاذ بصيرته ، وعلمه ، وذكائه ، وشجاعته ، وحصافة رأيه » وينطقه بخطبة ألقاها أول ما جلس على العرش ، وهى خطبة قد أحسن المؤرخ اختراعها إن لم يكن صادقاً فى نسبتها إليه(٤٢) . ونظم كسرى الحكومة كلها على أساس جديد واختار أعوانه لكفايتهم بصرف النظر عن طبقتهم ، ورفع منزلة بزرجمهر مربى ولده فجعله من كبار وزرائه ، وقد طبقت شهرة هذا الوزير الآفاق . واستبدل بجنود الإقطاع غير المدربين جيشاً نظامياً دائماً حسن النظام كامل العدة ، وأنشأ نظاماً عادلا للضرائب ، وجمع القوانين الفارسية ونظمها ، وأنشأ الترع والجسور لإصلاح نظام الرى ومد المدن بالماء ، وأصلح الأراضى البور بأن أمد أصحابها بالماشية ، والآلات والبذور . وشجع التجارة ووسع نطاقها ، بإنشاء الجديد من الطرق والجسور ، وإصلاح ما كان قائماً منها وتعهده ، وقصارى القول أنه بذل جهوده العظيمة كلها فى خدمة الشعب والدولة . وشجع الزواج — أو أرغم الناس عليه إرغاماً — لاعتقاده أن بلاد الفرس فى حاجة إلى المزيد من الناس لحرث أرضها وحماية تخومها . وحمل العزاب على الزواج بأن وهب البائنات للزوجات ، وأمر بتعليم أبنائهم على نفقة الدولة(٤٣) . وكان يربى الأطفال اليتامى والفقراء ويعلمهم وينفق عليهم من الأموال العامة ، ويعاقب المرتدين عن الدين بالإعدام ، ولكنه كان يسمح بانتشار المسيحية حتى بين حريمه . وقد قرب إليه الفلاسفة ، والأطباء ، والعلماء ، من بلاد الهند واليونان ، وكان يسره أن يبحث معهم مشاكل الحياة ، والحكم ، والموت . وكان من الموضوعات التى دار حولها البحث ذلك السؤال :

« ما هو أشد أنواع البؤس ؟ » . وأجاب أحد الفلاسفة اليونان عن هذا السؤال بقوله : « هو الشيخوخة المصحوبة بالفقر والبلاهة » ، وأجاب فيلسوف هندى بل هو « العقل القلق فى الجسم السقيم » . وكسب وزير كسرى ثناء جميع المجلس بحق حين قال « أما أنا فاعتقد أن أشق الشقاء أن يرى الإنسان آخرته تقترب منه من غير أن يكون قد مارس الفضيلة »(٤٤) . وكان كسرى يناصر الآداب ، والعلوم ، ويُعين العلماء على متابعة الدرس بالهبات القيمة ، ويمد بالمال المترجمين والمؤرخين . وبلغت جامعة غنديسابور فى أيامه ذروة مجدها . وكان يحرص كل الحرص على حماية الأجانب فى بلاده فكان بلاطه لهذا السبب غاصاً على الدوام بكبار الزائرين من البلاد الأجنبية .

ولما جلس على العرش جهر برغبته فى أن يعقد الصلح مع رومة . ووافق چستنيان على هذه الرغبة لأنه كان يعد العدة لغزو أفريقية وإيطاليا ؛ ووقع « الأخوان » فى عام ٥٣٢ « صلحاً دائماً » . ولما أن سقطت أفريقية وإيطاليا فى يد چستنيان طالب كسرى متفكهاً بقسط من الغنيمة ، وحجته أن بيزنطية لم تكن لتصل إلى هذا النصر لو أن فارس لم تعقد معها الصلح ، فبعث إليه چستنيان ببعض الهدايا القيمة(٤٥) . وفى عام ٥٣٩ أعلن كسرى الحرب على « رومة » بحجة أن چستنيان قد أخل بشروط الصلح ، ويؤيد پروكپيوس هذه التهمة . لكن أكبر الظن أن كسرى قد رأى أن من الحكمة أن يبادر بالهجوم على چستنيان وجيوشه لاتزال مشغولة فى الغرب ، فذلك فى رأيه خير له من أن ينتظر حتى تنتصر بيزنطية ثم توجه قوتها كلها ضد فارس . يضاف إلى هذا أن كسرى قد بدا له ألا بد لبلاد الفرس من امتلاك مناجم الذهب فى طربزون ، وأن يكون لها منفذ على البحر الأسود . ولهذا زحف على سوريا ، وحاصر هيرابوليس ، وأپاميا ، وحلب ، وتركها وشأنها بعد أن افتدت أنفسها بكثير من المال ، وسرعان ما وقف أمام أنطاكية . ولم يبال أهلها به وبقوته فحيوه من فوق

الأسوار بوابل من السهام وقذائف المنجنيقات ، وبوابل آخر من ألفاظ السخرية الوقحة التى اشتهرت بها هذه المدينة فى كافة أنحاء العالم(٤٦) . واستشاط المليك غضباً فهجم على المدينة واستولى عليها عنوة ، ونهب كنوزها ، وأحرق جميع مبانيها عدا كنيستها الكبرى ، وذبح عدداً كبيراً من أهلها ، وساق من بقى منهم ليعمروا « أنطاكية » أخرى فى بلاد الفرس ، ثم نزل مبتهجاً ليستحم فى البحر المتوسط الذى كان فى وقت من الأوقات حد دولة الفرس الغربى . وأرسل چستنيان قائده بليساريوس لينقذ بلاده ، ولكن كسرى عبر الفرات على مهل مثقلا بالغنائم ، وفضل القائد الحصيف ألا يتبعه (٥٤١) . وما من شك فى أن انتهاء الحروب التى قامت بين الفرس والرومان إلى نهاية غير حاسمة إنما يرجع بعضه إلى تعذر إقامة حامية قوية على ناحية العدو من الصحراء السورية أو جبال طوروس ، وإن كان ما أدخل حديثاً من تحسين على وسائل النقل والاتصال قد جعل الحروب الكبيرة فى أمثال تلك الأصقاع مستطاعة فى هذه الأيام . وقام كسرى بعدئذ بثلاث غزوات على آسية الرومانية زحف فيها على تلك البلاد زحفاً سريعاً ، وحاصر عدداً من مدنها ، وأخذ منها الفداء والأسرى ، ونهب ريفها ، ثم ارتد عنها فى أمان (٥٤٢ — ٥٤٣) وأدى له چستنيان عام ٥٤٢ ألفى رطل من الذهب (نحو ٨٤٠٫٠٠٠ دولار أمريكى) ثمناً لهدنة تدوم خمسة أعوام على أن يؤدى إليه بعد انتهائها ٢٦٠٠ رطل أخرى نظير امتدادها خمسة أعوام جديدة وبعد أن دامت الحرب بين العاهلين الطاعنين فى السن جيلا من من الزمان تعهد آخر الأمر (٥٦٢) بأن يحتفظا بالسلم خمسين عاماً ، وتعهد چستنيان بأن يؤدى للفرس ثلاثين ألف قطعة من الذهب فى كل عام (٧٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار أمريكى) ، ونزل كسرى عن حقه فى جميع الأقاليم المتنازع عليها فى بلاد القوقاز والبحر الأسود .

ولكن كسرى لم يفرغ بهذا من حروبه كلها . فقد أرسل حوالى عام ٥٧٠ بناء على طلب الحميريين المقيمين فى الجنوب الغربى من جزيرة العرب جيشاً من

عنده ليخلصهم من الأحباش الذين فتحوا بلادهم . فلما أنجى الفرس الحميريين من الغزاة ، وجد هؤلاء أن بلادهم قد أضحت ولاية فارسية . وكان جستنيان قد عقد حلفاً مع بلاد الحبشة ، ورأى خلفه جستين الثانى أن طرد الفرس للأحباش من جزيرة العرب عمل عدائى موجه له . هذا إلى أن الترك الضاربين على الحدود الشرقية لبلاد الفرس قد اتفقوا سراً أن ينضموا إلى من يهاجمون كسرى . وأعلن جستين الحرب فى عام ٥٧٢ . ونزل كسرى إلى الميدان بنفسه على الرغم من كبر سنه ، واستولى على مدينة دارا الواقعة على الحدود الرومانية ؛ ولكن صحته خانته فهزم لأول مرة حياته (٥٧٨) ، وارتد إلى طيسفون حيث وافته منيته فى عام ٥٧٩ ، ولسنا نعرف سنه بالضبط حين وفاته . وقد امتد حكمه ثمانية وأربعين عاماً كسب فيها كل ما خاضه من الوقائع عدا واقعة واحدة ؛ ووسع حدود إمبراطوريته فى جميع جهاتها ، وجعل بلاد الفرس أقوى منها فى أى عهد آخر بعد عهد دارا الأول ؛ ووهبها نظاماً من الحكم بلغ من شأنه أن العرب حين فتحوا تلك البلاد فيما بعد اتخذوه نظاماً لحكمها دون أن يدخلوا عليه تغييراً يستحق الذكر . ويكاد كسرى أن يكون معاصراً لجستنيان ؛ ولكن معاصريهما مجمعون على أنه أعظم الملكين ، ويعده من جاء بعده من الفرس أقوى من حكم بلادهم فى تاريخها كله وأعظمهم شأناً .

وحكم بعده ابنه هرمز الرابع (٥٧٩ — ٥٨٩) ولكن قائده بهرام قوبين خلعه وأعلن نفسه وصياً على كسرى الثانى ابن هرمز (٥٨٩) ، ثم أعلن نفسه ملكا بعد عام واحد من ذلك الوقت . ولما بلغ كسرى سن الرشد طالب بعرش أبيه ؛ فرفض بهرام طلبه ، ففر كسرى إلى هيرابوليس فى سوريا الرومانية ؛ وعرض عليه الإمبراطور اليونانى موريس أن يعيده إلى ملكه إذا انسحب الفرس من أرمينية . ووافق كسرى على هذا الطلب ؛ وشهدت طيسفون ذلك المنظر العجيب الفذ منظر جيش رومانى يجلس على العرش ملكا فارسياً (٥٩٦) .

وبلغ كسرى أبرويز (الظافر) درجة من السلطان لم يبلغها ملك آخر من ملوك الفرس منذ أيام خشيارشاى، ومهد السبيل لسقوط دولته ؛ ذلك أنه لما قتل فوقاس موريس وجلس مكانه على العرش أعلن أبرويز الحرب على المغتصب (٦٠٣) انتقاما لصديقه ؛ ولكن الواقع أن الحرب لم تكن إلا تجديدا للنزاع القديم . وكانت الدولة البيزنطية قد مزقها الشقاق والتحزب ، فلم تجد جيوش الفرس صعوبة فى الاستيلاء على دارا ، وآميدا ، والرها ، وهيرابوليس ، وحلب ، وأپاميا ، ودمشق (٦٠٥ — ٦١٣) . وزاد هذا النصر من حماسة أبرويز فأعلن الحرب الدينية على المسيحيين ، وانضم ٢٦٫٠٠٠ من اليهود إلى جيشه ، ونهبت جيوشه المتحدة فى عام ٦١٤ أورشليم ، وقتلت ٩٠٫٠٠٠ من المسيحيين[٤٧] ، وأحرقت كثيراً من كنائسها ومن بينها كنيسة الضريح المقدس ، وأخذ الصليب الحق ، وهو أعز أثر على المسيحيين ، إلى بلاد الفرس . وأرسل أبرويز إلى هرقل Heraclius الإمبراطور الجديد رسالة دينية قال فيها : « من كسرى أعظم الآلهة وسيد الأرض كلها إلى هرقل عبده الغبي الذليل : إنك تقول انك تعتمد على إلهك ، فلم إذن لم ينقذ أورشليم من يدى ؟ »[٤٨] . واستولى جيش فارس على الإسكندرية فى عام ٦١٦ ، ولم يحل عام ٦١٩ حتى دخلت مصر كلها فى حوزة ملك الملوك ، وهو ما لم يحدث لها منذ أيام دارا الثانى . وفى هذه الأثناء كان جيش فارسى آخر يجتاح آسية الصغرى ويستولى على خلقيدون (٦١٧) ؛ ولبثت تلك المدينة فى أيدى الفرس عشر سنين وهى التى لم يكن يفصلها عن القسطنطينية إلا مضيق البسفور . وكان أبرويز فى هذه السنين العشر يدمر الكنائس ، وينقل ما فيها من الآثار الفنية والكنوز إلى بلاد الفرس ويفرض على آسية الغربية من الضرائب الفادحة ما نضب منه معينها وما أعجزها عن مقاومة غزو العرب الذى لم يكن بينها وبينه وقتئذ إلا نحو جيل من الزمان .

ثم ترك كسرى تصريف الحرب لقواده ، وعاد ليتقلب فى اللهو والترف

فى قصره بدستجرد (على بعد نحو ستين ميلا من طيسفون) ، وقضى وقته بين الفن والحب : وجمع المهندسين ، والمثالين ، والمصورين ، ليجعل عاصمته الجديدة أعظم شأناً من عاصمته القديمة ، ولينحت صوراً مشابهة لشيرين أجمل زوجاته الثلاثة آلاف وأحبهن إلى قلبه . وشكا الفرس قائلين إنها امرأة مسيحية ، وادعى بعضهم أنها قد أدخلت الملك فى دينها ، وسواء كان هذا أو لم يكن فقد سمح لها والحرب الدينية دائرة رحاها أن تنشئ كثيراً من الكنائس والأديرة . ولكن بلاد الفرس التى عمها الرخاء لكثرة ما أفاء عليها من الأسلاب والأرقاء ، كان فى وسعها أن تغفر لمليكها لهوه وترفه ، وفنه ، وتسامحه الدينى ، وترحب بفتوحه وترى فيها النصر النهائى على بلاد اليونان والرومان ، ولأهورامزدا على المسيح . لقد جوزى الإسكندر أخيراً على فعلته ، وانتقم الفرس من اليونان لهزائمهم فى مرثون ، وسلاميس ، وپلاتية ، وأربيلا .

ولم يكن باقياً للإمبراطورية البيزنطية إلا عدد قليل من الثغور الأسيوية وقليل من أرض إيطاليا ، وأفريقية ، وبلاد اليونان ، وأسطول لم يهزم بعد ، وعاصمة محاصرة جن جنونها من الرعب واليأس . ولبث هرقل عشر سنين ينشئ جيشاً جديداً ودولة جديدة من أنقاض الجيش القديم والدولة القديمة . فلما تم له ذلك لم يحاول عبور البسفور إلى خلقيدون بل تجنب ذلك العمل الكثير النفقة والمشقة ، وأبحر بأسطوله إلى البحر الأسود ثم اخترق أرمينية وهاجم بلاد الفرس من خلفها ، ودمر كلوروميه Clorumia مسقط رأس زرادشت كما ضرب كسرى من قبل مدينة أورشليم ، وأطفأ نارها المقدسة الخالدة (٦٢٤) . وسير إليه كسرى الجيوش يتلو بعضها بعضا ، ولكن هرقل هزمها جميعا ، ولما تقدم اليونان فر كسرى إلى طيسفون . وآلم قواده ما كان يوجهه إليهم من إهانات فانضموا إلى النبلاء وخلعوه ، ثم سجنوه ولم يطعموه إلا الخبز القفار والماء ، وذبحوا ثمانية عشر من أبنائه أمام عينيه ، وانتهى أمره بأن قتله ابن آخر من أبنائه يدعى شيروى (٦٢٨) .

الفصل الثالث

الفن الساسانى

لم يبق من الآثار ما يدل على ثراء ملوك ساسان ومجدهم إلا بقايا الفن الساسانى ، ولكن هذه البقايا تكفى وحدها لأن تزيد إعجابنا بقدرة الفن الفارسى على البقاء من عهد دارا الأكبر واصطخر إلى عهد الشاه عباس وإصفهان ، وبقدرته على التكيف لمواءمة ما يحيط به من الظروف .

فأما ما بقى من العمارة الساسانية فكله غير دينى ، فقد اختفت من الوجود هياكل النار المقدسة ، ولم يبق قائماً إلا القصور الملكية ، وحتى هذه ليست إلا « هياكل ضخمة »[٤٩] قد تجردت من زمن طويل مما كانت تزدان به واجهاتها من حلى مصنوعة من الجص . وأقدم هذه الخربات كلها ما يسمونه قصر أردشير الأول فى فيروزباد القائمة إلى الجنوب الشرقى من شيراز . ولا يعرف أحد تاريخ بنائه ، ويختلف ظن المؤرخين بين ٣٤٠ ق . م ، ٤٦٠ م . ولا تزال قبة هذا البناء الضخمة بعد أن مضى عليها خمسة عشر قرناً تقلب عليها فى خلالها الحر والبرد ، والسرقات والحروب ، لا تزال هذه القبة باقية إلى الآن تغطى بهواً فسيحاً ، تعلو فى الجو مائة قدم ؛ ويبلغ عرضها خمسا وخمسين قدماً . وثمة مدخل ذو قوس يبلغ ارتفاعه تسعا وثمانين قدماً ، وعرضه اثنتين وأربعين ، يقسم المواجهة التى طولها ١٧٠ قدماً قسمين ، وقد تهدمت هذه الواجهة فى هذه الأيام ، وكانت أقواس صغيرة تؤدى من قطرى البهو المستطيل الأوسط إلى قبة دائرية . وقد ابتدعت طريقة فذة ظريفة لحمل ضغط القبة ، فأقيم جدار مزدوج أجوف ربط إطاره الداخلى والخارجى بعقد دائرى وبذلك زاد الجدار الخارجى من قوة الجدار الداخلى ، ثم زيدت قوة الجدار المزدوج مرة أخرى بدعامات من الخارج مكونة

من أنصاف عمد مربعة مسندة من الحجارة الثقيلة وملتصقة بالبناء . ذلك طراز معمارى يختلف كل الاختلاف عن الطراز القديم ذى العمد الذى كان فى پرسپوليس — وهو طراز فج سمج غير ظريف ولكنه قد استخدمت منه أشكال بلغت كمالها فى كنيسة أياصوفيا الّ‍ى أقامها چستنيان .

وهناك غير بعيد من هذا الأثر عند سروستان أثر آخر شبيه به وهو مثله لا يعرف تاريخه ويتكون من واجهة ذات ثلاثة أقواس ، وبهو أوسط كبير ، وحجرات واسعة تعلوها قباب بيضية الشكل ، وأقواس دائرية ، وأنصاف قباب لتقوية البناء . وليس ببعيد أن تكون الدعامات الهيكلية الّتى يسميها المهندسون بالدعامات « الطائرة » المعروفة فى الهندسة القوطية قد تطورت من هذه الأنصاف القباب بأن أزيل منها الهيكل الخارجى الذى تستند إليه[٥١] .

وإلى الشمال الغربى من مدينة السوس توجد بقايا قصر خرب آخر يعرف بالإيوانى خارقه ، وهو أقدم مثل معروف للعقود المستعرضة ذات أضلاع تخترقه من جانب إلى آخر[٥٢] . لكن أروع الآثار الساسانية كلها وأعظمها تأثيراً فى النفس ، أثر بعث لضخامته الرهبة فى قلوب العرب الفاتحين وهو القصر الملكى فى طيسفون وهو الذى يسميه العرب طاق كسرى (الأول) . وربما كان هو البناء الذى وصفه فى عام ٦٣٨ مؤرخ يونانى قال عنه إن چستنيان « بعث إلى كسرى برخام يونانى وصناع مهرة شادوا له قصراً على الطراز الرومانى غير بعيد من طيسفون »[٥٣] . وقد تهدم جناحه الشمالى فى عام ١٨٨٨ ؛ وزالت منه القبة ؛ لكن جدرانه الثلاثة الضخمة ترتفع إلى مائة قدم وخمس أقدام ، وتنقسم واجهة البناء أفقياً إلى خمس بوائك مسدودة . وفى البناء عقد عال أوسط — وهو أعلى العقود الأهليلجية المعروفة وأوسعها ، إذ يبلغ ارتفاعه ٨٥ قدماً وعرضه ٧٢ — يؤدى إلى بهو طوله ١١٥ قدماً وعرضه ٧٥ ، لقد كان الملوك الساسانيون مولعين بالحجرات الواسعة . وهذه الواجهات المخرّبة تحاكى الواجهات الرومانية الّتى لا تبلغ درجة كبرى من

الرشاقة أمثال ملهى مرسلس Marcellus ، وتؤثر فى الناظر إليها بروعتها أكثر مما تبهره بجمالها . لكننا لا نستطيع أن نحكم على الجمال الماضى بالخربات القائمة فى هذه الأيام .

وليس أعظم ما يستهوى الإنسان من الآثار الساسانية هو قصور اللبن المحطمة بل هو النقوش المحفورة على جوانب الجبال الفارسية . وقد تطورت هذه الأشكال الضخمة من النقوش الأكيمينية ، وتراها فى بعض الأحيان مجاورة لها فى مكان واحد ، كأن أصحابها قد أرادوا أن يؤكدوا استمرار قوة الفرس وتكافؤ الملوك الساسانيين والأكيمينيين . وأقدم هذه النقوش الساسانية تمثل أردشير يطأ بقدمه عدوا له مطروحا على الأرض وربما كان هذا العدو آخر الأرساسيين . وأجمل من هذا نقشى رسّم القريب من اصطخر الذى يخلد ذكرى أردشير ، وشابور الأول ، وبهرام الثانى . وقد صور فيه الملوك كبار الأجسام ولكن أجسامهم كأجسام معظم الملوك والسوقة ، يصعب عليهـا أن تنافس أجسام الحيوانات رشاقتها وتناسب أعضائها وشبيه بهـذا نقشى — رجب ، ونقش آخر عند شابور ، فيهما صور حجرية قوية لشابور الأول ، وبهرام الأول والثانى . وفى طاق البستان القريب من كرمنشاه نرى قوسين قائمين على عمودين محفورين حفراً قليل البروز فى الصخور ، ونقوشاً على وجهى الأقواس من الداخل والخارج تمثل شابور الثانى وكسرى أبرويز يصيدان الوحوش . ونرى الفيلة السمينة ، والخنازير البرية تبعث الحياة فى هذا الحجر الأصم ، وقد بذلت فى تصوير أوراق الأشجار عناية كبيرة ، وحفرت تيجان الأعمدة حفراً جميلا . ولسنا ننكر أننا لا نرى فى هذه النقوش ما نراه فى الحركات اليونانية من رشاقة أو فى الخطوط اليونانية من يسر ونعومة ، وأنا لانجد فيها حرصاً شديداً على الفردية ، ولا عناية بفن المنظور ، كما أنها ليس فيها إلا القليل من مجاراة النماذج المألوفة ؛ ولكنها مع هذا لا تقل عن معظم النقوش الكبرى فى رومة الإمبراطورية عظمة وفخامة ، وقوة وحيوية ورجولة .

ويبدو أن هذه النقوش المنحوتة فى الصخر كانت ملونة ، شأنها فى ذلك شأن كثير من زينات القصور ، ولكن هذه الألوان لم يبق منها إلا آثار قليلة . بيد أن أدب الفرس لا يترك مجالا للشك فى أن فن التصوير قد ازدهر فى عصر الساسانيين ؛ ويقول الكتاب إن النبى مانى أنشأ مدرسة للتصوير ؛ ويحدثنا الفردوسى عن كبار رجال الفرس الذين يزينون قصورهم بصور الأبطال الإيرانيين(٥٤) ؛ ويصف الشاعر البحترى ما كان على جدران قصر المدائن من صور ملونة(٥٥) . وكان من عادتهم أنه إذا مات ملك من ملوك الساسانيين استُدعى أعظم مصور فى زمانه لرسم صورة له تضم إلى مجموعة الصور المحفوظة فى الخزانة الملكية(٥٦) .

واشتركت فى فنون التصوير ، والنحت ، والخزف وغيرها من فنون الزينة مع فن المنسوجات الساسانية فى نقوشها ؛ فقد كانت الأقمشة الحريرية ، والمطرزات ، والمنسوجات الموشاة ، والدمقس المشجر ، والأنسجة المزركشة المعلقة على الجدران ، وأغطية الكراسى ، والسرادقات ، والخيام ، والطنافس ، كانت هذه كلها تنسج بمنتهى الصبر والمهارة ، وتصبغ بصبغات ساخنة صفراء ، وزرقاء ، وخضراء . وكان كل فارسى ، عدا الفلاح والكاهن ، يأمل أن يلبس أحسن مما تمكنه طبقته من لبسه ، وكثيراً ما كانت الهدايا تتخذ شكل أثواب فخمة ، وكانت الطنافس الزاهية الألوان من مستلزمات الثراء فى الشرق من أيام الأشوريين الأقدمين . وقطع النسيج الساسانية التى تزيد على العشرين قطعة ، والتى هى كل ما نجا من عوادى الدهر ، هى أغلى قطع النسيج الباقية فى العالم فى هذه الأيام . ولقد كان العالم القديم كله من مصر إلى اليابان حتى فى عصر المنسوجات الساسانية يعجب بها ويسعى لمحاكاتها ؛ وكانت هذه المنسوجات الوثنية فى أيام الحروب الصليبية تفضل على غيرها من المنسوجات لتلف بها مخلفات القديسين المسيحيين . ولما أن استولى هرقل على قصر كسرى أبرويز فى دستجرد كان من أثمن غنائمه أقمشة مطرزة .

برقيقة ، وطنفسة كبيرة(٥٨) . ومن التحف الذائعة الصيت « طنفسة الشتاء » لكسرى أنوشروان . وقد نقشت هذه الطنفسة لتنسيه نقوشها التى تمثل مناظر الربيع والصيف برد الشتاء . كان فيها أزهار وفاكهة منسوجة من الياقوت ، وكانت فيها ماسات تنمو بجوار جدران من الفضة ؛ وجداول من اللؤلؤ فوق أرضية من الذهب(٥٩) ، وكان مما يفخر به هارون الرشيد طنفسة ساسانية كبيرة مرصعة بالجواهر(٦٠) . وقد بلغ من مهارة الفرس أن كانوا يكتبون قصائد الحب على طنافسهم(٦١) .

ولم يبق من الفخار الساسانى إلا قطع قليلة من ذات الفائدة المادية ، لكن فن الخزف كان فناً راقياً فى أيام الملوك الإكيمينيين ، وما من شك فى أنه لم يمح كله من الوجود فى أيام الساسانيين ، لأنه بلغ ذروة الكمال فى إيران الإسلامية . ويظن إيرنست فنلوز Ernest Fenellosa أن بلاد الفرس قد تكون هى المركز الذى انتشر منه فن الميناء حتى فى بلاد الشرق الأقصى(٦٢) ، ولا يزال مورخو الفن يتجادلون هل فارس الساسانية ، أو سوريا ، أو بيزنطية هى التى أنشأت فن الخزف البرّاق ذى الطلاء الذهبى أو الفضى أو النحاسى ، وفن الميناء ذى الحواجز من خيوط معدنية . وكان صناع المعادن الساسانيون يصنعون جراراً ، وأباريق ، وأقداحاً كأنهم يصنعونها إلى جيل من الجبابرة ؛ وكانوا يديرونها على مخارط ، وينقشونها بالإزميل ، أو يحدثون عليها رسوماً بارزة بطرقها من الداخل ، ويتخذون لها أيادى وأفواهاً على شكل حيوانات تختلف من الديكة إلى الآساد . وفى دار الكتب الأهلية بباريس قدح فارسى ذائع الصيت هو « قدح كسرى » ، له رصيعة من البلور المطعم فى شبكة من الذهب المطروق . وتقول الرواية المتواترة إن هذا القدح كان من الهدايا التى بعث بها هارون الرشيد إلى شارلمان . وليس ببعيد أن يكون القوط قد أخذوا هـذا الفن عن الفرس ونقلوه إلى بلاد الغرب(٦٤) .

وكان صانعو الفضة يصنعون صحافاً قيمة ، ويساعدون الصياغ على صنع الحلى للخاصة والسوقة على السواء رجالا كانوا أو نساء . وقد بقيت حتى الآن عدة صحاف من عهد الساسانيين فى المتحف البريطانى وفى لنينغراد ، والمكتبة الأهلية بباريس ، والمتحف الفنى بنيويورك ، وتحمل كلها صور ملوك أو نبلاء فى الصيد ، وحيوانات أكثر إتقاناً من الآدميين . وكانت النقود الساسانية تنافس فى بعض الأحيان النقود الرومانية فى جمال منظرها ، كما تشهد بذلك عملة شابور الأول[٦٥] . والكتب الساسانية نفسها يمكن أن تعد من التحف الفنية . وتصف الروايات المتواترة كيف كان الذهب والفضة يجريان من جلود كتب مانى حين أحرقت فى الميادين العامة[٦٦] . وكانت المواد الثمينة تستخدم أيضاً فى أثاث الساسانيين ، يدل على ذلك أن كسرى الأول كانت له منضدة من الذهب مرصعة بالحجارة الكريمة ، وأن كسرى الثانى أرسل إلى منقذه ، الإمبراطور موريس (أو موريق) ، منضدة من الكهرمان ، قطرها خمس أقدام ، ذات قوائم من الذهب ، ومغلفة بالجواهر[٦٧] .

وملاك القول أن الفن الساسانى يكشف عن جهود كبرى بذلت لإنعاشه بعد أن ظل أربعة قرون آخذاً فى الاضمحلال فى عهد البارثيين . وإذا جاز لنا أن نحكم عليه من بقاياه ، قلنا فى شىء من التردد إنه لا يضارع الفن الإكيمينى فى نبله وفخامته ، أو الفن الفارسى الإسلامى فى قوة ابتكاره ورقته وحسن ذوقه ، ولكنه احتفظ فى النقوش البارزة بكثير مما كان له فى الزمن القديم من قوة تبشر بما بلغته موضوعات التحلية من خصوبة فى مستقبل الأيام . وكان هذا الفن يرحب بالأفكار والأنماط الجديدة ، وقد أوتى كسرى الأول من الحكمة ما جعله يستقدم فنانين ومهندسين من اليونان فى الوقت الذى كان يهزم فيه قواد اليونان العسكريين . وقد وفى الفن الساسانى بما عليه من الدين ، فكان يصدر أشكاله وتحفه شرقاً إلى بلاد الهند ، وإلى التركستان والصين ، وغرباً إلى سوريا وآسية

الصغرى ، والقسطنطينية ، والبلقان ، ومصر ، وأسبانيا . ولعل تأثير هذا الفن كان من العوامل التى حولت اهتمام الفن اليونانى من الصور القديمة إلى الحلى البيزنطية ، واهتمام الفن اللاتينى المسيحى من السقف الخشبية إلى العقود والقباب والجدران المسندة المقامة من الآجر أو الحجر . وانتقلت البواكى وأنصاف القباب العظيمة من العمارة الساسانية إلى المساجد الإسلامية وإلى القصور والأضرحة المغولية . ذلك أن التاريخ لا يضيع فيه شىء : فكل فكرة مبدعة تتاح لها إن عاجلا أو آجلا فرصة تخرج فيها إلى الوجود وتتطور ، وتضيف لونها الجديد إلى شعلة الحياة المتقدة .

الفصل الرابع

فتح العـرب

قتل شروى أباه وتوّج من بعده ملكاً باسم كفاده الثانى ، ثم عقد الصلح مع هرقل ونزل له عن مصر ، وفلسطين ، وسوريا ، وآسية الصغرى ، وغربى الجزيرة ، وأعاد الأسرى الذين أخذهم الفرس إلى بلادهم ، وردّ إلى أورشليم بقايا الصليب المقدس . وابتهج هرقل — وحق له أن يبتهج — بهذا النصر المؤزر ، ولكنه ، لم يكن يعرف أنه فى اليوم الذى أعاد فيه الصليب المقدس إلى موضعه فى الضريح عام ٦٢٩ قد هاجمت سرية من العرب حامية يونانية بالقرب من نهر الأردن . وفى ذلك العام نفسه فشا وباء فاتك فى بلاد الفرس ، أودى بحياة آلاف من أهلها ومنهم الملك نفسه . وعلى أثر موته نودى بابنه أردشير الثالث — ولم يكن قد جاوز السابعة من العمر — ملكاً على الفرس . لكن قائداً يدعى شهر براز قتل الغلام واغتصب العرش ؛ ثم قُتِل شهربراز نفسه بأيدى جنوده ، وجرّ أولئك الجنود جثته فى شوارع المدائن وهم يصيحون : « هذا مصير كل من جلس على عرش بلاد الفرس ولم يكن يجرى فى عروقه الدم الملكى » ، ذلك أن الجماهير أكثر ملكية من الملوك . وسادت وقتئذ الفوضى فى تلك البلاد التى أنهكتها الحروب مدى ستة وعشرين عاماً ، وفشا فى الدولة التفكك الاجتماعى بعد أن عمها الفساد الأخلاقى بتأثير الثروة التى جاءت فى أعقاب النصر الحربى(٦٨) ، وقام تسعة من الحكام يتنازعون عرش البلاد فى خلال أربع سنوات ، ثم اختفوا كلهم مقتولين أو هاربين أو ميتين ميتة طبيعية شاذة . وأعلنت بعض الولايات ، بل بعض المدن نفسها ، استقلالها عن الحكومة المركزية بعد أن عجزت هذه الحكومة عن بسط سـلطانها على البلاد . ووضع

التاج فى عام ٦٣٤ على رأس يزدجرد الثالث سليل بيت ساسان وابن جارية زنجية[٦٩] .

وفى عام ٦٣٢ توفى محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد أن أنشأ دولة عربية جديدة ، وتلقى عُمر خليفته الثانى ، رسالة من المثنى قائده فى سوريا ، يبلغه فيها أن الفوضى ضاربة أطنابها فى بلاد الفرس وأنه قد آن الأوان للاستيلاء عليها[٧٠] . وعهد عمر هذا العمل إلى خالد بن الوليد أعظم قواده جميعاً . وزحف خالد بإزاء الساحل الجنوبى للخليج الفارسى على رأس قوة من العرب البدو الذين ضرستهم الحروب والراغبين أشد الرغبة فى الغنائم[*] ، ثم أرسل رسالة إلى هورمزد حاكم الولاية القائمة على الحدود الفارسية يقول له فيها : « أسلم تسلم » .

ودعاه هورمزد إلى المبارزة وقبل خالد دعوته وقتله . وتغلب المسلمون[٧١] على كل ما واجهوه من مقاومة حتى وصلوا إلى نهر الفرات ؛ ثم استدعى خالد لينقذ جيشاً عربياً فى جبهة أخرى ، وتولى المثنى قيادة العرب ، وعبر النهر على جسر من القوارب : وعهد يزدجرد ، وكان لا يزال شاباً فى الثانية والعشرين من العمر ، بالقيادة العليا إلى رستم والى خراسان ، وأمره أن يجند قوة ضخمة ينقذ بها الإمبراطورية . والتقى الفرس بالعرب فى موقعة الجسر وهزموهم وأخذوا يطاردونهم مطاردة فيها كثير من التهور . وأعاد المثنى تنظيم صفوفه وهزم فى واقعة البويب الجيش الفارسى المختل النظام وأفناه عن آخره تقريباً (٦٢٤) . وكانت خسائر المسلمين فى هذه المعركة فادحة ، فقد مات المثنى متأثراً بجراحه ، ولكن الخليفة أرسل قائداً آخر أقدر منه يدعى سعد بن أبى وقاص على رأس جيش جديد قوامه ثلاثون ألف رجل . ورد يزدجرد على هذا بأن أنزل إلى الميدان جيشاً مؤلفاً من ١٢٠,٠٠٠ من الفرس . وعبر بهم رستم نهر الفرات وعسكر عند القادسية

(*) وكان حقاً على المؤلف أن يضيف إلى ذلك قوله : والعامرة قلوبهم بالدين والراغبين فى الاستشهاد فى سبيله . (المترجم)

حيث دارت معركة من أعظم المعارك الحاسمة فى تاريخ آسية وأشدها هولا ، دامت أربعة أيام . وهبت فى اليوم الرابع عاصفة رملية فى وجوه الفرس ، واغتنم العرب هذه الفرصة وحملوا على أعدائهم الذين أعمتهم الرمال حملة صادقة ، قتل فيها رستم ومزق جيشه شر ممزق (٦٣٦) . وزحف سعد بجنوده دون أن يلقى مقاومة تذكر حتى وصل إلى نهر دجلة ، واجتازوه ودخل المدائن .

وذهل العرب السذج الأشداء حين وقعت أعينهم على القصر الملكى وأدهشتهم عقوده الفخمة ، وبهوه الرخامى العظيم ، وطنافسه الكبيرة ، وعرشه المطعم بالجواهر ، وقضوا أربعة أيام يحاولون فيها جمع غنائمهم . ولعل هذا هو السبب الذى من أجله نهى عمر سعداً عن متابعة الزحف نحو الشرق وقال له إن فى العراق ما يكفى[٧٢]. ووافق سعد على أمر الخليفة وقضى الثلاث السنين التالية يوطد دعائم حكم العرب فى أرض الجزيرة . وكان يزدجرد فى هذه الأثناء ينشئ فى ولاياته الشمالية جيشاً جديداً قوامه ١٥٠٠٠٠ر١٥٠ مقاتل . وبعث عمر لملاقاته ٣٠٠٠٠ر٣٠ من رجاله ، والتقى الجيشان عند نهاوند ، وهزم العرب الفرس بفضل مهارتهم فى الفنون العسكرية فى معركة « فتح الفتوح » وقتل من الفرس فى هذه المعركة ١٠٠٠٠٠ر١٠٠ ضيق عليهم العرب فى مضيق بين جبلين (٦٤١) ؛ وسرعان ما سقطت بلاد الفرس كلها فى أيدى العرب ، وفر يزدجرد إلى بلخ وطلب إلى الصين أن تمد له يد المعونة ؛ ولكن الصين لم تجبه إلى طلبه ، ثم عاد فطلبها إلى الترك ، فأمدوه بقوة صغيرة ، لكن الجنود الترك قتلوه طمعاً فى جواهره حين هم بالزحف ليبدأ الحرب من جديد (٦٥٢) ؛ وبذلك انتهى عهد الساسانيين فى فارس .

المراجع مجملة

Abbott, G. F., Israel in Egypt, London, 1907.
Abbott, Nabia, Two Queens of Baghdad, Univ. of Chicago Press. 1946.
*Abélaed, P., Historia Calamitatum, St Paul, Minn, 1922.
Ouvrages inédits. ed. V. Cousin, Paris, 1836.
Abrahams, J., Chapters on Jewish Literature, Phila., 1899.
Jewish Life in the Middle Ages, Phila., 1896.
Abu Bekr ibn Tufail, The History of Hay ibn Yaqkzan tr. Ockley. N.Y., n.d
Ackerman, Phyllis, Tapestry, the Mirror of Civilization, Oxford Univ. Pres, 1938
Adams, B.. Law of Civilisation and Decay, N. Y., 1921
*Adams, H, Mont St. Mjchel and Chartres, Boston, 1926.
Addison, J. D., Arts and Crafts In the Middle Ages, Boston, 1908.
Ali, Maulana Muhammad, The Religion of Islam, Lahore 1936.
Al Tabari, The Book of Religion and Empire, N., Y., 1922.
Ameer Ali, Syed, The Spirit of Islam, Calcutta, 1900.
Ammianus Marcellinus, Works, Loeb Lib., 1935. 2v.
Andrae, Tor, Mohammed, tr. Menzel N. Y., 1936.
Anglo-Saxon Chronicle. tr. Ingram, Everyman Lib.
Anglo-Savon Poetry, ed. R. K. Gordon Everyman Lib.
Archer, T. A., and Kingsford, C.L, The Crusade, N. Y., 1895.
*Aristotle, Politics' tr. Ellis, Everyman Lib.
Armstrong, Sir Walter, Art in Great Britain and Ireland, London, 1919.
Arnold, M., Essays in Criticism, First Series, N. Y., n. d. Home Lib.
Arnold, Sir T. W., Painting in islam, Oxford 1928.
The Preaching of Islam, N. Y., 1913.
and Guillaume, A.. The Legacy of Islam, Oxford, 1931.
Ashley, W. J., Introduction to English Economic History and Theory, N.Y., 1894f, 2v.
Asiny Palacios, M., Islam and the Divine Comedy, London, 1926
Asser of St. David's, Annals of the Reign of Alfred the Great, in Giles, J.A.
*Aucassin And Nicolette, tr. Mason, Everyman Lib.
Augustine. St.,.The City of God, tr. Healey, London, 1934.
* Confessions, Loeb Lid. 2v.
Letters, Loeb Lib.
Ausonius, Poems, Loeb Lib. 2v.
Averroës, A Decisive Discourse on ..., the Relation Between Religion and Philosophy, and An Exposition of the Methods of Argument Conccerning the Doctrines of Faith, Baroda, n. d.
Aviccuna, Canon Medicinae, Venice, 1908.

Bacon, Rager, Opus majns, tr. Bnrke, Univ. of Penn. Press, 1928. 2v,
Bader, G., Jewish Spiritnal Heroes, N. Y., 1940. 3v.
Boedeker, K., Northern Italy, London, 1913.
A - Baladhuri, Abu -l Abbas Ahmad, Origins of the Islamic State; tr. Hitti, Columbia Univ. Press, 1916.
Barnes, H E., Ecomic History of the Westen World N. Y., 1942.
History of Western Civilization, N. Y 1935. 2v.
Baron, S. W., Social aud Religiona History of the Jews, Colnmbia Univ. Pres, 1937. 3v.
ed , Essays on Maimonides, Columbia Univ. Press, 1941.
Beard, Miriam, History of the Business Man, N. Y., 1938.
Bebel, A., Woman under Socialism, N. Y., 1938.
Becker, C. H., Christianity and Islam, London, 1909
Bede, Ven , Ecclesiastical History of England, ed. King, Loeb Lib.
Beer M., Social Struggles in the Middle Ages, London, 1924.
Belloc, H., Paris, N. Y., 1907.
Benjamin of Tudela, Travels; cf. Komroff, M., Contemporaries of Marco Polo.
Bevan, E.R., and Singer. C., The Legacy of Israel, Oxford, 1927.
Bieber, M., History of the Greek and Roman Theater, Princeton Univ. Press, 1939.
Al - Biruni, Chronology of ancient Nations, tr. Sachan, London, 1879.
India, London, 1910. 2v.
Blok, P. J., History of the People of the Netherlands, N. Y., 1898. 3v.
Boer, T. J. de, History of Philosophy in Islam, London, 1903.
*Boethius, Consolation of Philosophy, Loeb Lib.
Boissier, G. La fin du paganisme, Paris, 1913. 2v.
Boissonnade, P., Life and Work in Medieval Enrope, N. Y., 1927.
Bonaventnre, St., Life of St. Francis, in Little Flowers of St. Francis, Everyman Lib.
Bond, Fr., Gothic Architecture in England. London 1906.
Wood Carving in English Chnrches, London, 1190 2v.
Bouchier, E. S., Life and Letters in Roman Africa, Oxford 1913.
Brehaut, E., An Encyclopedist of the Dark Ages. N. Y., 1912.
Bridges, J. H , Life and Work of Roger Bacon, London, 1914.
Briffault, R., The Mother, N. Y., 1927. 3v.
Bright, W., Age of the Fathers, N. Y., 1903. 2v.
Brittain, A., Women of Early Chistianity, Phila., 1907.
Broglie, Duc, de, St. Ambrose, London, 1899.
Brown, P. Hume, History of Scotland, Cambridge Univ. Press, 1929, 3v.
Browne, Lewis, ed., The Wisdom of Israel N. Y., 1946.
Bryce, Jas., The Holy Roman Empire, N. Y , 1921,

Bukhsh, S. K., The Orient under the Caliphs, translated from A. Von Kremer's *Kulturgeschichte des Orients*, Calutta, 1920.
Studies : Indian and Islamic, London, 1227.

Bulletin of The Iranian Institute, N.Y.

Burton, Sir R. F., The Jew, the Gypsy, and El Islam, Chicago, 1898.
Personal Narrative of a Pilgrimage to al - Madinah and Meccah, London, 1893, 2v.

Bury, J. B., History of the Eastern Roman Empire, London, 1912.
History of the Later Roman Empire, London, 1923. 2v.
Life of St. Patrick, London, 1905.

Butler, P., Women of Medieval France, Phila., 1908.

Calvert, A. F., Cordova, London, 1907.
Moorish Remains in Spain, N Y., 1906.
Seville, London, 1907.

Cambridge AacientHistory, N. Y., 1924. 12v.

Cambrice Medieval History, N.Y., 1924f 8v.

Campbell, D., Arabian Medicine, London 1926. 2v.

Capes, W.W , University Life In Ancient Athens, N. Y., 1922.

Carlyle, R. W., History of Medieval Political Theory in the West, Edinburgh, 1928 5v.

Carlyle Th., Past and Present, in Works, Collier ed., N. Y. 1901. 20v.

Carter, T.F., The invention of Printing in China, N.Y., 1925.

Cassiodorus, Letters, ed. Hodgkin, London, 1886.

Castiglione, A., History of Medicine, N. Y., 1941.

Cotholic Encyclopedia , N.Y.. 1912. 16v.

Chambers, E. K., The Medieval Stage, Oxford, 1903. 2v.

Chapman, C. E., History of Spain, founded on the *Historia de Espana* Rofaei Altamira, N.Y., 1930.

Chardin, Sir J., Travels in Persia, London, 1927.

Chateaubriand, Vicomte de, The Genius of Christianity, Baltimore, n.d.

Clapham, J. H., and Power, Eileen, Cambridge Economic History of Europe, Vol. I, Camb. Univ Press, 1944.

Chrétien de Troys, Arthurian Romances, London, Everyman Lib.

Claudian, Poems, Loeb Lib. 2v.

Clayvijo, Gonalez de, Embassy to Tamberlane, 1403-6. N.Y., 1928.

Clayton, J., Pope Innocent III and His Times, Milwonkee, 1941.

Collingwood, R. G., and Myres, J. L., Roman Britain, Oxford 1937.

Connick, C. J., Adventures in Light and Color N. Y. 1937.

Coulton, G. G., Chaucer and His England, London, 1921.
Five Centuries of Relgion, Camb. Univ. Press, 1923. 3v.
From St. Francis to Dante : a tr. of the Chronicle of Salimbeue, London, 1908
The Inquisition. N.Y., 1929.

Inquisition and Liberty, London 1938.
Life in the Middle ages. Camb. Univ. Press, 1930. 4v.
Medieval Panorama. N. Y., 1944.
The Medieval Science, Camb. Univ. Press, 1930.
The Mèdieval Village. Camb. Univ. Press, 1925.
Social Life in Britain from the Conquest to the Reformation, Camb Univ. Press. 1938.
Cram, R.A., The Substance of Gothic, Boston, 1938.
Creswell., K.A , Early Muslim Architecture, Oxford, 1932. 2v.
Cronyn, G., The Fool of Veuns : the Story of Peire Vidal, N.Y., 1934.
Crump, C.G., and Jacob, E.F., The Legacy of the Middle Ages, Oxford, 1926.
Cunningham, W., The Growth of Egllsh Industry and Commerce, Camb. Univ. Press. 1806.
Cuts. E. L , St. Jerome, London, S.P.C.K , n.d.

Dalton, O.M., Byzantine Art and Archeology, Oxford, 1911.
Dante, Eleven Letters, tr. Latham, Boston, 1891.
De Monarchia, tr. Henry, Boston, 1904.
Il Eourvito, tr. Sayer, London, 1887.
La Commedia, ed. Toynbee, London! 1900.
La Vita Nuova, tr. D. G. Rossetti, Portland, Mc., 1898.
The Vision of (The Divine Comedy). tr. Cary, Everyman Lib.
'D'Arcy, M.C , Thomas Aquinas, London, 1930.
Dasent, G., tr., Story of Burnt Njal, Evryman Lib.
Davis, H. W. C., ed., Medieval England, Oxford, 1928.
Davis Wm. S , Life on a Medieval Baroy, N. Y., 1923.
and West, W. M., Readings in Ancient History, Boston, 1912 2v
Dawson, Christopher, The Making of Europe, N.Y., 1932.
Day, Clive, A History of Commerce, London, 1926.
Dennis, G., Cities and Cemeteries of Etruria, Everyman Lib, 2v.
De Vaux, Baron Caron Carra. Les penseurs de l'islam, Paris 1921. 5v.
De Wulf, M., History of Medieval Philosophy, London, 1925. 2v.
Philosophy and Civilization in the Middle Ages, Princetion Univ Press. 1922.
Dhalla, M. N., Zoroastrian Civilization, Oxorord, 1922.
Diehl, C., Byzantine Portrait. N.Y., 1926.
Manuel d'art Byzantin, Paris, 1910.
Diesendruck, Levi Maimonides and Thomas aquinas, in N.Y. Public Library Pamphlets, v. 372.
Dieulafoy, M. Art in Spain and Portugal, N.Y. 1913.
Dill, Sir S., Roman Society in Gaul in the Merovingian Ages, London 1926.
Romou Society in the Last Century of the Western Empire, London, 1906.

Dillon, E., Glass, N. Y., 1907.
Dimand, M. S., Handbook of Muhammedan Art. N. Y., 1944.
Dopsch, A., Economic and Social Foundetions of European Civilization, N. Y., 1937.
*Doughty, Chas. M. Travels in Arabia Deserta, N. Y., 1923. 2v.
Dozy, R., Spanish Islam, N. Y., 1913.
Draper, J. W., History of the Intellectual Development of Europe, N. Y., 2v.
Druck, D., Yehuda Halevy, N. Y., 1941.
Dubnow, S.M., History of the Jews in Russia and Poland, Phila., 1916. 3v.
DuChaillu, P., Tne Viking Age, N. Y., 1889. 2v.
Duchesne, L., Early History of the Christian Church, London. 1933. 3v.
Dudden. F. H , Gregory the Great, London, 1905. 2v.
Duhem, P., Le systeme du monde, Paris, 1913. 5v.
Eginhard, Life of Charlemagne, N. Y, 1880.
Encyclopaedia Britannica, 14th ed.
Erigena, John Scotus, On the Divisiou of Nature, Book I, Annapolis, Md., 1940.
Eunapius, Lives of the Sophists, in Philostratns, Everyman Lib.
Farmer, H. G , History of Arabian Music, London, 1929.
Faure, E, History of Art. N' Y., 1921. 4v. Vol. III : Medieval Art.
Fenollosa, E. F., Epochs of Chiuese and Iapanese Art. N. Y., 1921. 2v.
Fergusaon, J., History of Arehitecure in All Couutries, London, 1874. 2v.
Fiedler. H. G., ed., Das Oxforder Buch Deutscher Dichunh, Oxford, 1936.
Figgis, J.N., Poiitical Aspects of Str. Augustine's City of God, London, 1921.
Finlay, G., Greece under the Romans, Everyman Lib.
History of Grece, Oxford, 1877. 7v.
Firdonsi, Epic of the Kings, retold by Helen Zimmern, N. Y., 1883.
Shah Nameh, in Gottheil, R., Literature of Persia, N.Y., Vol.I.
Fisher, H. L., The Medieval Empire, London, 1898. 2v.
Foakes-Jackson, F. and Lake, K., Beginning of Christianity, London, 1920. 3v.
Erancke, K , History of German Literature, N. Y. 1901.
Frank, T., ed., Economic Survey of Ancient Rome, Baltimore, 1933f. 5v.
Frazer, Sir J., Adonis, Attis, Osiris, London, 1907.
The Magic Art, N. Y., 1935. 2v.
Freeman, E. A., Historical Essays, First Series, London. 1896.
History of the Norman Conquest of England, Lonpon 1870. 4v.
French Classics, ed. Perier, Paris, Librairie Hatier, n. d.
Friedänder. L Roman Life and Manners under the Early Empire. London. n. d. 4v.

Funk, F. X., Manual of Church History, London, 1910. 2v.
Gabirol, Solomou Ibn, The Improvement of the Moral Qualities, tr. and introd. by Stephen S. Wise, N. Y., 1902.
Selected Religious Poems, tr. Israel Zangwill, Phila. 1923.
Gardiner, E. N., Athletics of the Ancient World, Oxford, 1930.
Gardner, Alice, Julian, Philosopher and Emperor, N. Y., 1895.
Garrison, F., History of Medicine, Phila., 1929.
Gasquet, A., Cardinal, Monastic Life in the Middle Ages, London, 1922.
Geoffrey of Monmouth, British History, in Giles, Six Chronicles.
Gest, A. P., Roman Engineering, N. Y., 1930.
Gesta Francorum, ed. Brehier, Paris, 1924.
Al-Ghazali, Abu Hamid, The Alchemy of Happiness, tr. Field, London, 1910.
Some Religious and Moral Teachings, tr. Nawab Ali, Baroda, 1920.
Gibbon, Ed., Decline and Fall of the Romsn Empire, Everyman Library, 6v.
ed. J. B. Bury, London, 1900. 7v.
Gildas, Works, in Giles, Six Chronicles.
Giles, J. A., Six Old English Chronicles, London, 1848.
Gilson, E., La philosophie au moyen âge, Paris, 1922. 2v.
La hilosophie au moyen âge, Paris. 1947.
Philosophy of St. Bonaventure, N. Y., 1938.
Reason and Revelation in the Middle Ages, N. Y., 1938.
Giraldus Cambrensis, Itinerary through Wales, (and Description of Wales, Everyman Lib.
Glover, T. R., Life and Letters in the Fourth Century, N. Y., 1924.
Gordon, R. K., ed., see Anglo - Saxon Poetry.
Gottheil., R J., ed., Literature of Persia, N. Y., 1900. 2v.
Grabmann, M., Thomas Aquinas, N. Y., 1928.
Graetz, H., History of the Jews, tr. Bella Löwy, Phila., 1891f. 6v.
Greeu. J. R., Conquest of England, London, 1884.
The Making of Englaud, London, 1882.
Short History of the English People, London, 1898. 3v.
Gregory of Tours, History of the Ffanks, tr. Brehaut, N. Y., 1916.
Grousset, R., Civilizations of the East, London, 1931 ; Vol. I : The Near and Middle Eeast.
Grov's Dictionary of Music and Musicians, N. Y., 1928 5v.
Gruuebanm, G. von, Medieval Islam Univ. of Chicago Press, 1946.
Gruner, O.C., Traatise on the Canon of Medicine of Avicenna, London, 1930.
Guibert of Nogent, Antobiography, London, 1925.
Guignebert, C., Christianity Past and Present, N. Y., 1927.
Guillaume, A., The Traditions of Islam, Oxford, 1924.
Guizot, F., History of Civilization, London, 1898. 3v.
History of Frace, London, 1872. 8v.

Halevi, J., Kitab alKhazari, tr. Hirschfeld, London 1931.
Selected Poems, tr. Nina Salaman, Phila., 1928.
Hammerton, J. A., ed., Universal History of the World, London, n.d. 8v.
Haskins, C. H., The Normans in Eurppean History, Boston, 1915.
The Renaissance of the Twelfth Century, Harvard Univ. Press, 1928.
Studies in Medieval Culture, Oxford, 1929.
Hastings, J., ed., Encyclopedia of Religion and Ethics, N. Y., 1928. 12v.
Haverfield, F., Roman Occupation of Britain, Oxford, 1924.
Hazlitt, W. C., The Venetian Republic, London, 1900. 2v.
Headlam, C., Story of Chartres, London, 1908.
Story of Nuremberg, London, 1911.
Hearnshaw, F., Social and Political Ideas of Some Great Medieval Thinkers. N. Y., 1923.
Medteval Contributions to Modern Civilization, N. Y., 1922.
Heath, Sir Thos., History of Greek Mathematics, Oxford, 1921. 2x.
Hebraic Literature, translations from the Talmud, Midrashim, and Cabala, London 1901.
Hebrew Literature, ed. Epiphanins Wilson. N. Y., 1901.
Hefele, C. J., History of the Christian Conncils, Edinburgh, 1894. 5v.
Heitland, W., Agricola, Comb. Univ. Press, 1921.
Hell. Jos, The Arab Civilization, Camb. Univ. Press, 1926.
Higham, T., aud Bowra, C, Oxford Book of Greek Verse, Oxford. 1930.
Himes, N., Medical History of Contaaception, Baltimore, 1936.
Hitler., A., Mein Kampf, N. Y., 1939.
Hitti, P. K., History of the Arabs, London 1937.
Hodgkin, T., Italy and Her Invaders, Oxford, 1892. 7v.
Charlemagne, N. Y., 1902.
Holinshed, Chronicle, Everyman Lib.
Home, G. Roman London, 1926.
Hoover, H., and Gibbons, H.A., Conditions of a Lasting Peace, N.Y., 1939.
Hopkins, C. Edward, The Share of Thomas Aquinas in the Growth of the Witchcraft Delusion, Univ. of Penn., 1940.
Horn, F. W., History of the Literature of the Scandinavian North, Chicago, 1895.
Houtsma, M., ed., Encyclopedia of Islam, London, 1908 - 24.
Howard, C., Sex Worship, Chigago, 1909.
Hulme, E. M., The Midble Ages, N. Y., 1938.
Hume, David, History of England, N. Y., 1891. 6v.
Hume, Martin, The Spanish People, N. Y., 1911.
Hurgronje, C., Mohammedanism, N. Y., 1916.
Husik, I., History of Medieval Jewish Philosophy, N. V., 1930.
Hyde, Douglas, Literary History of Ireland, London, 1899.
Iacopo de Voragine, The Golden Legend, tr. Wm. Caxton, Cambridge Univ. Press. 1914.

Ibn Khaldoun, Les prolégoménes, tr. en français par M. de Slane, Paris. 1934. 8v,

Ibn Khallikan, M., Biographical Dictionary, tr. M. de Slane, Paris 1843, 2v

Inge, W. R., Philosophy of Plotinus, London, 1929 2v,

Irving, W., Alhambra, N. Y., 1925,

. Life of Mahomet, Everyman Lib,

Jackson, Sir T., Byzantine and Romanesque Architectnre, Camb, Univ, Press, 1920. 2v,

Gothic Architecture in France, England, and Italy, Camb. Univ. Press, 1915, 2v,

Jalal ud - Din Rumi, Selected Poems, ed, & tr, R. A. Nicholson, Camb. Univ. Press, 1898,

James, B., Women of England, Phila, 1908.

Jenks, Edw., Law and Politics In the Middle Ages, N. Y., 1898,

Jerome, St., Select Letters, tr, Wright. Loeb Lib.

*Joinville' Jean de, Chronicle of the Crusade of St. Louis, Everyman Lib.

Jordanes, Gothic History Princeton Univ. Press, 1915,

Jörgensen, J., St. Francis of Assis, N. Y., 1940,

Joseph Ben Joshua Ben Meir, Chronicles, London, 1858, 2v.

Joyce, P., Short History of Ireland, London, 1924.

Julian, Works, Loeb Lib. 3v.

Jusserand, J. J, English Wayfaring Life in the Middle Ages, London, 1891.

Justiniani Institutionum Libri Quattuor, ed. Moyle, Oxford Univ. Press, 1888, 2v.

Kantorowicz, E., Frederick the Second, London, 1931,

Kellogg, J. H., Rational Hydrotherapy, Battle Creek, Mich., 1928.

Ker, W. P., Epic and Romance, London, 1897.

Kirstein, L., Dance : a Short History, N. Y., 1953.

Klausnet, J. From Jesus to Paul, N, Y., 1948,

Kluchevsky, V , History of Russia, London, 1912, 3v,

Komoff, M , Contemporaries of Marco Polo, N. Y., 1937,

Kroeger, A., The Minnesinger of Germany. N, Y., 1873.

Lacroix, Paul, Arts of the Middle Ages, London, n. d.

History of Prostitution, N. Y., 1931. 2v.

Manners, Customs, and Dress during the Middle Ages, N. Y., 1876.

Military and Religious Life in the Middle Ages, London, n.d.

Science and Literature in the Miedle Ages, London, n.d.

Lanciani. R., Ancient Rome, Boston, 1889.

Lane, Edw., Arabian Society in the Middle Ages, London, 1883.

Lane - Poole, S., Art of the Sarracens in Egypt, London, 1886.

Cairo, London, 1895.

Saladin, London, 1920

Speceches and Table Talk of the Prophet Mohammed London, 1852.

Story of he Moors in Spaint, N.Y., 1889.

Studies in a Mosque, London, 1883.

Lange, P. H., Music in Western Civilization, N.Y., 1941. A model of scholarship and style.

Lavisse, E., Histoire de France, Paris. 1900f. 18v.

Les, H.C., Historical Sketch of Sacerdodal Celibacy, Boston, 1884.

History of the Auricular Confession, Phila. 1886, 3v.

History of the Inqnisition in the Middle Ages, N.Y., 1888. 3v.

History of the Inquisition in Spain. N.Y., 1906. 4v.

Superstition and Force, Phila., 1892.

Lecky, W.E., History of European Morals, N.Y., 1926. 2v.

Le Stange, G., Baghdad during the Abbasid Caliphate, Oxford, 1924.

Palestine under the Moslems, Boston, 1890.

Lethaby, W. Medieval Art, London, 1904.

Lonnrot, E., Kalevala, Everyman Lib. 2v.

Little, A. G., ed., Roger Bacon Essays' Oxford 914.

Little Flowers of St Francis, Everman Lib.

Lorris, W., and Jean Clopinel de Meung, The Romance of the Rose, London, 1931. 3v.

Lot, F., The End of the Ancient World. N.Y. 1931.

Louis, Paul, Ancient Romeat Work, N Y., 1927.

Lowie, R., Are We Civilized?. N.Y., 1929.

Lützow, Count von, Bohemia, an Historical Sketch, Everyman Lib.

Lyra Graeca, ed. and tr. by J.M. Edmonds, Loeb Lib. 3v.

Mabinogion, tr. Lady Charlotte Guest, Everyman Lib.

Macdonald, D. B., Aspects of Islam, N.Y., 1911.

Development of Muslim Theology, Jurisprudene, and Constitutional Theory, N.Y., 1903.

Religious Attitnde and Life in Islam, Chicago, 1909.

MacLaurin, C., Mere Mortals, N.Y., 1925, 2v.

Macrobii, Opera accedunt integra, London, 1694.

Mahaffy, J.P., Old Greek Education, N.Y., n.d.

Maimondides, Guide to the Perplexed, tr. Friedländer, London, 1885. 3v.

Mishneh Torah; Book I, tr. Hyamson , N.Y., 1937.

Maine, Sir H., Ancient Low, Everyman Lib.

Maitland, S.R.. Dark Ages, London, 1890.

Al-Makkari, Ahmed, History of the Mohammedan Dynasties in Spain, tr. de Gayangos London 1840. 2v.

Mâle, É., L'art religieux du XIIIme siècle en France Paris, 1902.

Malter, H., Saadia Gaon, Phila., 1921.

Mantzius, K., History of Theatrical Art, London, 1903f. 6v.

Marcus Aurelius, Meditations, tr. Long. Boston, 1876.
Marcus, J., The Jew in the Medieval World, Cincinnati, 1938.
Margoliouth, D. S., Cairo, Jerusalem, and Damascus, N.Y., 1907.
Mohammed and the Rise of Islam, N Y., 1905.
Maritain, I., The Angelic Doctor, N.Y., 1940.
Al-Masudi, Abu-l-Hasan, Meadows of Gold and Mines of Gems, tr. Sprenger, London, 1841.
Matthews, B., Development of the Drama, N. Y., 1921.
Movor, J., Economic History of Russia, London, 1925. 2v.
May, Sir T., Democracy in Europe, London, 1877. 2v.
McCobe, J., Crises in the History of the Papacy, N.Y., 1961.
Empresses of Constantinople, Boston, n.d.
St. Augustine and His Ages, N.Y., 1903.
Story of Religions Controversy, Boston, 1929.
McKinuey, H., and Anderson, W., Music in History, Cincinnati, 1940.
Michelet, J., de, History of France, N.Y., 1880. 2v.
Migeon, G., Les arts musulmaus, Paris, 1922. 2v.
Migeon, G., Les arts musulmans, Paris, 1922. 2v.
Milman, H., History of Laiu Christiauity, N. Y., 1860. 8v.
Mirror of Perfection, in Little Flowers of St. Francis.
Molmenti, P., Venice, London, 1906. 6v.
Mommsen, Th., Provinces of the Roman Empire, N.Y., 1887. 2v.
Monroe, P., Source Book of the History of Education for the Greek and Roman Period, N. Y., 1932.
Montalembert. Count de, The Monks of the West, Boston, n.d. 2v.
*Montesquieu, Chas, Borou de, Spirit of Laws, N.Y., 1899. 2v.
Moore, C. H., Development and Character of Gothic Architecture, London, 1889.
Moore, G. F., Judaism in the First Centuries of the Christiau Era, Cambridge, Mass, 1932. 2v.
Morey, Chas, Medieval Art, N. Y., 1294.
Muir, Sir W., The Caliphate, Londou, 1891.
Life of Mohammed, Ediuburgh, 1912.
Müller-Lyer, F., Evolution of Modern Marriage, N.Y., 1930.
Mumford, Lewis, Technics and Civilization, N.Y., 1934.
Munk, S., Mélanges de philosophie juive et arabe, Paris, 1859.
*Müniro, D. C. and Sellery, G.C., Medieval Civilization, N.Y, 1926.
Murray, A. S., History of Greek Sculpture, Loudon, 1890. 2v.

Nenuins, History of the Britons, in Giles, Six Chronicles.
Neuman, A. A., The Jews in Spaiu, Phila, 1942. 2v.
*Newmau, Louis, and Spitz, S., The Talmudic Anthology, N.Y., 1945.
Nicholson, R. A., Literary History of the Arabs, Camb. Univ. Press, 1930.
The Mystics of Islam, Camb. Univ. Press, 1922.
Studies in Islamic Mysticism, Camb. Univ. Press, 1921.
Studies in islamic Poetry Camb. Univ. Press, 1921.

Translations of Eastern Poetry and Prose, Camb. Univ. Press, 1922.

Nickerson, H., The Inquisition, Boston, 1923.

Nietzsche, F., Beyond Good and Evil, N Y., 1923.

Nöldeke, Th., Sketches from Eastern History, Loudou, 1802.

Nun's Rule, beiug the Ancren Riwle modernized, by Jas. Morton, London, 1296.

Oesterley, W., and Box, G., Short Survey of the Literature of Rabbinical and Medieval Judaism, London, 1920.

Ogg, F., Source Book of Medleval History, N.Y., 1907.

O'Leary DeLacy, Arabic Thought aud Its Place iu History, London, 1922.

OMAN, C.W., The Byzantine Empire, London, 1802.

Oxford History of Music Oxford 1929f. 7v.

Paetow, L., J., Gnide to the Study of Medieval History, N.Y., 1931.

Palmer, E.H., The Caliph Haroun Alraschid, N.Y., n.d.

Panofsky, Erwin, Abbot Suger, Princetou, 1948.

Paris, Matthew, English History from the Year 1235 to 1273, tr. Giles, London, 1852. 3v.

Paul The Deacon, History of the Longobards. tr. Foulke, Univ. of Penn., 1907.

Pauphilet, A., ed., Jenx et saplence dn moyen âge, Paris, 1940.

Persiau Art. Souvenir of the Exibition at Burlington House, London, 1931.

Philby, H. St. John, A Pligrim in Arabia Golden Cockerel Press, n.d.

Pickthall, Marmaduke, The Meaning of the Glorious Koran N. Y , 1930.

Pirenue, H , Economic and Social History of Medieval Eurgpe, N.Y., n.d.

History of Europe from the Invasions to the Sixteenth Century, N. Y. 1939.

Medieval Cities, Princeton. 1939.

Mohammed and Charlemagne. N.Y , 1930.

Pirenune, J , Les grands courants de l'histoire universelle, Neuchâtel 1964. 3v.

Pliny The Elder, Natural History, London, 1855. 6v.

Plummer, C., Life and Times of Alfred the Great, Oxford, 1902.

Pokrovsky, M , History of Russia, N.Y., 1931.

Pollock, F., and Maitlaud, F., History of English Law before Edward I, Camb, Univ, 1895. 2v.

*Polo, Marco, Travels, ed Komoroff. N.Y. 1026.

Poole, R. L., Illustrations of the History of Medieval Thought and Learning, N.Y. 1920.

Pope, A.U., Introduction to Persian Art, London, 1930.

Iranian and Armenian Contribution to the Beginnings of Gothic Architecture, Bulletin of the Asia institue, N.Y. 1946.

Masterpieces of Persian Art, N.Y. 1945.

Survery of Persiau Art. Oxford Univ. Press. 1298. 6v.

Porter, A. K., Medieval Architecture, N.Y., 1909. 2v.

Power, Elleen, Medieval People, Boston, 1924.

and Power, Rhada, Cities and Their Stories, Boston, 1927.

Prestage, E., Chivaly, N.Y. 1928.

Procopius, Anecdota, or Secret History' Loeb Lib.

Buildiugs, Loeb Lib.

History of the Wars, Loeb Lib. 5v.

Psellus, M., Chrouographia, French tr. by Emile Rauauld, Paris. n.d.

Quennell, M., Everyday Life in Roman Britain, N.Y. 1925.

Raby, F. J., History of Christian Latin Poetry in the Middle Ages. Oxford, 1927.

History of Secular Latiu Poetry in the Middle ages, Oxford, 1934. 2v.

Ramhaud, A., History of Russia, Boston, 1389. 3v.

Rapaport. S., Tales and Maxims from the Talmud, London, 1910.

Rashdalli, H., The Universities of Europe in the Middle Ages, Oxford, 1936, revised by F. M. Powicke and A. B. Emden. 3v.

Rawlinson, G., The Seveuth Great Oriental Monarchy, Loudon, 1876.

Reese, G., Music iu the Middle Ages, N.Y., 1940.

Rémusat, C. De, Abélard, Faris, 1845. 2v.

Renan, E., Averroès et l'averroïsme, Paris, n.d.

The Christian Church,London, n.d.

Marc Aurèle, Paris, n.d.

Poetry of the Celtic Races, in Harvard Classics, Vol. 38, N. Y., 1938.

Renard, G., Guilds of the Middle Ages, London. 1918.

Richard, E. History of German Civilization, N.Y., 1911.

Rickard, T., Man and Metals, N.Y., 1932. 2v.

Riefstahl, R., The Parish - Wastson Collection of Mohammedan Potteries, N.Y., 1922.

Rihani, The Quatrains of Abu-l-Ala, London, 1904.

Rivoira, G., Lombardic Architecture, London, 1910. 2v.

Moslem Architecture, Oxford, 1918.

Robertson, J. M., Short History of Free Thought, Loudon, 1914. 2v.

Robillard, M., Chartres, Grenoble, n.d.

Rogers, J. E. T. Six Centuries of Work and Wages, N.Y., 1890.

Rostovizeff, M., History of the Ancient World, Oxford, 1928. Vol. II : Rome

Social and Ecouomic History of the Romau Empire, Oxfor, 1926.

Roth, Leou, Spinoza, Descartes, and Mainides, 1924.

Rowbotham, J., The Troubadours and Courts of Love, London, 1895.

Ruskin, J., Stones of Venice, Everyman Lib. 3v.

Russell, B., History of Western Philosphy, N. Y., 1945.
Russell, C. E., Charlemagne, 1930.

Sabatier, P., Life of St. Francis of Assisi, N. Y., 1909.
Sa'di, The Gulistan, in Gottheil, R., Literature of Persia, Vol. II.
The Rose Graden (Gulistan). tr. by L. Cranmer-Byng, London, 1919.
Saladin, H., et Migeon G., Manuel d'art musulmau, Paris, 1907. 2v.
Saliba, D , Étude sur la métaphysique d'Avicenne, Paris, 1926.
Salzmau, L., English Industries of the Middle Ages, Oxford, 1923.
Sandys, Sir J., Companion to Latin Studies, Cambridge, 1925.
Sanger, W., History of Prostitution, N, Y., *1910.*
Sarre, F., Die Kunts des alten Persien, Berlin. *1925.*
Sarton, G., Introduction to the History of Science, Baltimore, *1930* 3v.in 5.
A masterpiece of painstaking scholarship.
Saunders, O. E., History of English Art in the Middle Ages, Oxford, *1932.*
Saxo Grammaticus, Danish History, London, n d. 2v.
Schechter, S, Studies in Judaism, N. Y , *1920.* 3v.
Schevill, F., Siena, N. Y., *1909.*
Schneider, H., The History of World Civilization, N. Y., *1931.* 2v.
Schoenfeld, H., Women of the Teutonic Nations. Phila., *1908.*
Schoenhof, J., History of Money and Prices, N. Y., *1896.*
*Scott-Moncrieff, C. K., The Letters of Abélard and Hèloïse, N. Y., *1926.*
Sedgwick, H. D., Italy in the Thirteenth Century, Boston, *1912.* 2v.
Seebohm, F., The English Village Community, London, *1896.*
Seignobos, C., The Feudal Regime, N. Y., *1920.*
Short, E. H., The Painter In History, London. *1929.*
Shotwell, J. T., and Loomis, L. R., The See of Peter, Columbia Univ. Press, *1927.*

Sidonius Apollinaris, Poems and Letters, Loeb Lib. 2v.
Sigfusson, Saemund, The Elder Edda, London, *1907.*
Sihle, E. G., From Augustus to Augustine, Camb. Univ. Press, *1923.*
Singer, C., ed., Studies in the History and Method of Science, Oxford, *1917*1. 2v.

Smith, Margaret, ed., The Persian Mystics : Attar, London, *1932.*
Smith, Toulmin, English Gilds : the Original Ordinance, London, *1870.*
Socrates, Ecclesiastical History, London, *1892.*
Sozomen, Ecclesiastical History, London, *1855.*
Speculum, A Journal of Medieval Studies, Cambridge, Mass.
Spencer, H., Principles of Sociology, N. Y., *1910.* 3v.
*Spengler, O., Decline of the West, N. Y., 1928. 2v.
Stephence, W. R., Hidebrand and His Times, London, 1914.

Sterling, M. B. The Story of Parzival. N. 1911
Stevens, C. E., Sidonius Apollinaris, Oxford, 1933.
Street, G. E., Gothic Architeure in Spain. London 1869.
Stryygowski, Origin of Christian Church Art, Oxford, 1923.
Stubbs, Wm., Constitutional History of Englaud, Oxford, 1903. 3v.
Sturluson, Śnorri, Heimskringla. The Norse Sagas, Everyman Lib.
Heimskringla : The Olaf Sagas, Everyman Lib.
The Younger Edda, in Sigfusson, S.
Sumner, W. G., Folkways, Boston, 1906.
Sykes, Sir P., History of Persia, London, 1921. 2v.
Symonds, J. A., Studies of the Greek Poets, London, 1920.
Introduction to the Study of Dante, London, 1899.
AL - Tabari, Chrouiqe, Fr. tr. by Zotenberg, Paris, 1867.
Tagore, Sir R., Gitanjali, N. Y., 1928.
Taiue, H., Ancient Regime, N. Y., 1891.
Itay : Florence and Venice. N. Y., 1869.
Talmud, Babylonian, Eng. tr, London, 1935f. 24v.
Tarn, W , Hellenistic Civilization. London, 1927.
Taylor H. O. The Classical Heritage of the Middle Ages, N. Y., 1911.
The Medi val Mind, London, 1927. 2v.
Thatcher. O., and McNeal, E., Source Book for Medieval History, N. Y., 1905.
Thierry, A., History of the Conquest of England by Normans, London, 1847. 2v.
Thomas Aquinas, St., Summa contra Gentiles London, 1024. 4v.
Summa theologica. tr. by Dominican Fathers, London, 1920. 22v.
Thompson, Sir E, Introduction to Greek and Latin Palaeography. Oxford, 1921.
Thompson, J. W.. Economic and Social History of the Middle ages, 300 - 1300, N. Y., 1928.
Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages, N. Y., 1931.
Fendal Germany, Chicago, 1328.
The Middle ages, N. Y., 1931. 2v.
*Thorndike, Lynn, History of Magic and Experimental Science, N. Y., 1929f.
A work of magnificent scholarship, which illuminates every subject that it touches.
Short History of Civilization. N. Y., 1926.
Tisdall, W., Original Sources of the Qur'au.
Tornay, S C., Averroës' Doctrine of the Mind, Philadelphia Review, May, 1943.
*Toynbee, A. J., A Study of History, Ovford, 1935f. 6v.
Traill, H. D, Social England, N. Y., 1902. 6v.

Ueberweg, F., History of Philosophy, N. Y., 1871: 2v.
Usher, A. P., History of Mechanical Inventions, N. Y., 1929.
Al-Utbi, Abul-Nasr, Memoirs of the Emir Sabaktagin and Mahmud of Ghazna, tr. Reynolds, London, 1858.

Vacandard, E., The Inquistion, N. Y., 1908.
*Van Doren, Mark, An Anthology of World Poetry' N. Y., 1928. The best work of its kind.
Vasari, G., Lives of the Painters, Everman Lib. 3v.
Vasiliev, A., History of the Byzantine Empire, Madison, Wis, 1929. 2v.
Vernadsky, G., Kievan Russia, Yale Nniv. Press, 1948.
Villari, P., The Two First Centuries of Florentine History, London, 1908.
*Villehardouin, G. de, Chronicle of the Fourth Crusade, Everyman Lib.
Vinogradoff, P., English Society in the Eleventh Century, Oxford, 1908.
Voltaire, Essay iu the Manners and Morals of Europe, in Works, Vol. XIII, N. Y., 1901.
Vossler, K., Medieval Culture : an Introduction to Dante and His Times, N. Y., 1929. 2v.

*Waddell, Helin, Medieval Latin Lyrics, N. Y., 1942.
* The Wandering Scholers, London, 1927.
* Peter Abélard, N. Y., 1933.
Waren, C., Medieval Sicily, London, 1910.
Walker Trust Report, The Great Palace of the Byzantine Empsrors, Oxford, 1947.
Walsh, J. J., The Popes and Science, N. Y., 1913.
The Thirteenth the Greatest of Centuries. Catholic Summer Shool Press, 1920.
Walther von der Vogelweide, I saw the World, tr. Colvin, London, 1938.
Songs and Sayings, tr. Betts, London, n.d.
Waxman, M., History of Jewish Literature, N. Y., 1930.
Weigall, A., The Paganism in Our Christisnity, N. Y., 1930.
Weir, T.H., Omar Khayam the Poet, N. Y., 1928.
Welch, Alice, of Six Medieval Women, London, 1913.
West, A. F., Alcuin, N.Y., 1916.
Westermarck, E., Origin and Development of the Moral Ideas, London, 1917f. 2v.
Short History of Marriage, N. Y., 1926.
Wherry, E. M., Commentary of the Qur'an, with Sale's tr. and notes, London, 1896. 4v.
White, E. M., Woman in World History, London, n.d.
Wicksteed, P. H., Dante and Aquina, 1913.

William of Malmesbury, Chronicle of the Kings of England, London, 1883.
William of Tyre, Godeffory of Bologne, or the Siege and Conqueste of Jerusalem, tr. Caxton, London, 1893.
Willoughby, W. W., Social Justice, N. Y., 1900.
Winckelmann, J., History of Ancient Art, Boston, 1880, 2v.
Wolfram von Eschenbach, Parzival, tr. Weston, London, 1894, 2v.
Wright, Th., ed., The Book of the Knight of La Tour-Landry, London, 1868.
A History of Domestic Manners and Sentiments in England during the Middle Ages, London, 1902.

Yellin, D., and Abrahams, I., Maimonides, 1903.

Zeitlin, S., Maimonides, N.Y., 1935.
Zimmern, H., The Hansa Towns, N. Y., 1889.

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع المجملة ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد وتتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم «الكتاب» أى الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآيه فى القرآن أو الكتاب المقدس

CHAPTER I

1. Ammianus Marcellinus, xxi, 16.
2. Philostorgius, ii, 9, in Cibbon, *Decline and Fall of the Roman Empire*, II, 78.
3. Sozomen, *Ecclesiastical History*, ii, 3.
4. Lot, Ferdinaud, *End of the Ancient World* 71 ; Bury, J. B., *Histroy of the Later Roman Empire*, 1, 87.
5. *Cambridge Medievdl History*, IV, 748.
6. Ibid., 1, 593.
7. Munro and Sellery *Medieval Civilization*, 87, says 30,000: Bury, op. cit, says 70,000.
8. Dudden, F. H., *Gregery the Great*, I, 129.
9. Duchesne, L., *Early History of the Christian Church*, II, 127.
10. Socrates, *Ecclesiastical History*, i 37-8.
11. Idid., ii, 7 - 11.
12. Boissier, G., *La Fin du paganisme*, I, 68; Duchesne, II, 250
13. Boissier, op. cit., I, 87.
14. Eunapius *Lives of the Sophhists*,
15. Capds, W. W., *University Life iu Ancient Athens*, 66.
16. Boissie, I, 178.
17. Wright, W. C., Introd to Eunapius, I, 11.
18. Cf. Inge, W. R., *Philosopby of Plotinus*, I, 11.
19. In Murray, A. S., *History of Greek Sculpture*, I, 96.
20. In Bo'ssier, I, 96.
21. Ammianus, xxii, 5 ; Duchesne. II, 262.
22. Boissier, I, 102.
23. Socrates, iii, 1.
24. Julian, *Letter to the Athenians*, 278D- 280 C : Ammianus, xvi, 11 - 12.
25. Ammianus, xvl, xvi, 53 ; Duchesne, II, 199.
26. Ammiauus xviii, 1,
27. Ibid., xvi, 10.
28. Boissier, I, 107.
29. Ammianus, xxv 4.
30. Juliau, *Misopogon*, 338B.
31. Socrates, iii, I;Ammianus,xxii, 4.
32. *Misopogon*, 304B.
33. Ammiauus, xvi, 1.
34. Gardner, Alice, *Julian, Philosopher and Emperor 260*.
35. Ammianus, vxii, 7.
36. Eunapius, 477.
37. Julian, Letter 441, in *Works* III.
38. Julian, *To Edicias*, 23, iu *Works*, III.
39. Julian, *Against the Galileans*, 89 A-94A, 106DE, 168B, 351D, 238A, 399D.
40. Julian, *To the Cynic Herakleios*, 205 C.
41. Ibid., 217B.
42. Ibid., 237B.
43. Ammisuus xxii, 12.
44. Lucalin, *Panegyric* iu Boissier, I, 140.
45. Julian, *Letter to a Priest* 305B; *To Arsacius*.
46. Julian *To the High Pries Theodorus*, 16.
47. *Letter to o Priest* 260. D.
48. Ammiauus, xxii, 10.

49. Sozomen, v, 5, 18 ;Julian *Works*, III, 41n.
50. In Boissier, I, 922.
51. Julian, Letter 10 ; Boissier, I, 127.
52. Julin, *Misopgon*, 368C.
53. Ammianus, xxii, 13.
54. Sozomen, vi 2.
55. Ammiauus, xxv. 3.
56. Milman, H. H., *History of Latin Christianity* I, 112 : Sihler, E G., *From Agustus to Agusuline*, 217.
57 Theoderet iii, 28, in Lecky, W. E H., *History of European Morlas*, II, 261.
58. Duchesne, II, 267.

CHAPTER II

1. Dopsch, A. *Economics and Social Fourdation of European Civilliza-tion*, 89.
2. Williamof Malmesbury, *Chronicle of the Kings of England*, i, 4.
3. Lea, H. C., *Superstition and Force*, 451.
4. Boissier, II, 180.
5. Rotovlzeff, M., *Social and Economic History of the Roman*
6. Dill, S., *Roman Empire*, 297.
7. Jordanes, *Gotbic History*, // 247.
8. In Tbompon. J. W., *Economic and Social History of the Middle, Ages*, 106.
9. Jordanes, // 26; Gibbon; III, 38.
10. Ammianus, iv, 31.
11. Socrates, iv, 31.
12. Broglie, Duc de *St. Ambrose*, 120-4.
13 Gibbon, III, 168.
14. Bury, J. B., *History of the Later Roman Empire* I, 129 ; Gibbon, III, 175.
15. Pirenne, H., *Medieval Cities* 36.
16. Lonis, Paul, *Ancient Rome at Work*, 231.
17. Boissier, I, 417 ; Dill, op. cit, 228, 272.
18. Salviauns, *DeGubernvtione Dei*, v, 28, in T., Frank, *Economic Survey of Ancient Rome*, III, 260.
19. Boissier, II, 416.
20. Ibid.
21. Louis, Paul, 235.
22. In Hodgkin, T.; *Italy and Her. Invaders*, I, 423.
23. Augustine, Ep. 232.
24. Salvian, iv 15; vii, *passim*, and excerpts in Heitland, W. E., *Agricola* 423 Boissier II 410, 420, and Bury *Later Román Empire*; 307.
25. In Dill; 56
26. Symmachus. Ep. vi 42 ; ii 46 ; in Dill, 150.
Friedländer, L., *RomanLife and Manners under the Empire*, II, 12 II, 29.
28. Lot, 178 ; Dill 58 ; Friedländer,
29. Ammiānus, xiv, 6.
30. Symmachus Ep. iii 43.
31. Ammianus xxii 10.
32. Ibid , xxi, 1 ; Thorndike, L., *History Of Magic and Experiment Science*, I, 285.
33. Ammianus, xvi 1.
34 Macrobius, *Opera accedunt integrae* Saturnalia *ad fin*.
35. Ibid., i, 11.
36. Claudian; *Poems*, On the consulate of Stilicho" iii 130.
37 Ibid., 107, 158.
38. Boissier, II, 55.
39. erome, Ep. exxv, 11.
40. Lecky, II, 115.
41. Ibid., 109.
42. Sozomen, vi, 33.
43. Lecky, II, 110 ; Noldeke, Th., *Sketches from Eastern History*, 212f.
44. Lecky, II. 118.
45. Taylor, H. O., *Clahsical Herit-age of Middle Ages*, 78.
46. Ibid ; Glove. T. R., *Life and Letters in the Foutb Century*, 349.
47. In Gibbon, III 75.
48. Socrates, vi, 3.
49. Bury, *Later Roman Empire*, I, 183-9.

50. Socrates, vi, 4-5.
51. In Clapham and Power, 116.
52. McCabe, J., *St. Augustine and His Age*, 228.
53. Ibid., 35.
54. Augustine, *City of God*, ii, 14.
57. *Confession*, v, 8.
58. Encylopaedia Britannica, II, 682,
59. McCabe *Angustime*, 254.
60. Catholic Encylopedia, II, 88; Augngustine, *Letiers*, introd., xvi xvlii.
61. Augustine, Ep, 86.
62. Ep. 93.
63. Ep. 173.
64. Ep. 204.
65. Eps, 103, 133.
66. *City of God*. v, 9; vi. 22, 27.
67. Sermon 269.
68. Sermon 165.
69. Duchesne, III, 143.
70. Sermon 131.
71. Ep. 181 A.
72. Comment. iu Joah. Evang. xxix, 6; Sermon 43.
73. In *Cambridge Medieval History*. I, 581.
74. *De Trintiate*, i, 1.
75. *De vera religione*, xviv, 45.
76. Solil. I. 7.
77. *Confessions*, xlil, 16.
78. *City of God*, iv. 27.
80. *De litero arbitrio*, ii, 16.
81. *De Gen. ad litt*, vii 28; De Wulf. *History of Medieval philosophy*, 1, 118; Catholic Encylodedia, I, 90.
82. In De Wulf, I, 117.
Confessions, Book xl.
84. De *Trin*.. x, 10.
85. bid, viii, 6; *Confessions*, x, 6.
86. *De bano conjugali*, x; Figgis J. N., *political Aspects of* St *Augustinès City of God*, 76 Lea, H. C., *Sacerdotal Celibacy*, 47.
87. *Confessions*, x, 30.
88. Ibid. vii. 14; x. 6, 22; xiii, 9.
89. *City of God*, vi, 9.
90. Phippians, iii, 20; Ephesians, ii, 19.
91. Figgis, 46.
92. Marcus Aurelius, *Meditations*. iv, 19.
93. *City of God*, xv, I.
94. Ibid., i, 34.
95. Ibid., xix, 7; xx, 9.
96. Boissier, II, 331.
97. Augustine, *Lettres*, p. 38.
98. Comm. on Psalm cxxii.
99. Funk, F.X., *Manaal of Charch*
100. Frazer, Sir J. G., *Adonis, Attis, Osiris*, 315
101. Ibid., 306.
102. In Boissier, II, 118.
103. Renan, E., *Marc Aurèle*, 629.
104. Duchesne, III, 11.
105. Ibid., 16.
106. Ledky, *Morris*, II, 61.
107. Ibid., 72.
108. Ibid., 83.
109. Ibid.
110. Fisher, H.L., *The Medieval Empire*, I, 14.
111. Guignebert, C., *Christianity Past and Present*, 151.
112. Ambrose, Ep. 2, in Boissisr, II,

CHAPTER IV

1. *Cambridge Ancient History*, XII
2. Haverfield, F., *The Roman Occ*-
G., *Roman Britain*, 104.
upation of Britain, 220; Home,
3. Quennell, M., *Everyday Life in Roman Britain*, 103.
4. Mommsen, Th., *Provinces of the Roman Empire*, I, 211.
5. Bede, *Ecclesiastical History*, v, 24.
6. Gildas, *Chronicle*, xxxiii; *Anglo-Saxou Chronicle*, p. 25.
7. Bede, I, 15; *Anglo-Saxon Chronicle*, 26
8. Collingwood, R. G., and Myres, J., *Roman Britain*, 320.
9. Geoffrey of Monmouth, *British History*, vii-xi.

10, William of Malmesbury, *Chronicle*, 11.
11. Collingwood, 324,
12. Joyce, p. W., *Short History* of *Ireland*, 77.
13. Hxde, 19.
14, Lecky, *Morals*, II. 253.
15. Joyce, 123.
16. Briffault, R., *The Mothers*, III, 230, quotlug De Jubainville, *Le Droit du roi dans l'époche irlandaise*, in *révae archélogique*, XLIII, 332f.
17. Hyde, 71,
18, Ibid., 88,
19. From the seventh-centnry "Voyage of Brand," in Hyde, 69f.
20. Bede, i, 13 ; Bury, J. B., *Life of St. Patrick*. 54,
21. Duchesne, III, 425.
22, Bury, *Patrick*.
23. Nennins, *History of the Britons*, 11, in Giles, *Six Old English Chronicles*. p. 410,
24, Bury, *Potrick*, 172.
25, Ausonius, *Poems, Commemoratio Professorum Burdigalensiam*
26, Waddell, H., *Medival Latin* 32.
27, Ausonius, *Peems, Porentalia*, x.
28, Ibid., Ep. xxii, 23f.
29, Stevens, *Sidonius Apollmaris*, 68-9.
30. Guizot, *History of Civilization*, I, 343,
31. Dill, *Last Century*, 206.
32. Stevens, 134-8.
33. Ibid., 160f.
34. Sidonius Apollinaris, *Pome and. Letters*, Ep. i, 2.
35. In Fraucke, *K. History, of German Literature*, 10
36, Sidonins in Lacroix, P., *Manners, Customs, and Dress*, 514,
37. Gibbon, IV, 66,
38, Gregory of Tonrs, viij, 9.
39. Lea, *Superstition and Force*, 318,
40, Sophocles, *Antigone*, 11, 276-7.
41. Gibbon, IV, 70.
42. Schoenfeld, Hermann, *Women of the Teutonic Nations*, 41 ; Dill, *Roman Soeiety in the Merovingian Age*, 47.
43. Salic law xiv and xli, in Ogg, F., *Source Book of Medieval History*, 63-5.
44. Schoenfeld, 40.
45. Brittain, A., *Women of Early Christiamity* 203.
46, Lot 397.
47. Gregory of Tours ii, 37.
48, Ibid.
49. Id., ii, 40.
50. II, 43.
51, V, 132-6 ; 165.
52. Dill, *Merovingian Age*, 279.
53. Gregory of Tours, vii, 178 ; x, 246.
54. Id., iv, 100.
55, Michelet, J., *History of France*, I, 107.
56. Gregory, introd., p. xxii.
57. Gregory, i 5.
58, II prologue.
59, Gregory, intord., p, xxiv.
60, Guizot, *History of Civilization*, I, 58.
61. Lecky, *Morals*, II. 204.
62. Isidore of seville, *Etymologies*. in Brehanr E., *An Encylopedist of the Dark Ages*, 215.
63. Dieulafory, M., *Art in Spain and Portugal*, 45.
64. Mahaffy, J. P., *Old Greek Education*, 52.
65. Thompson, J.W., *Economic History of the Middle Ages*, 120.
66, Cassiodorus, *Letters, of Variae*, ii, 27.
67. Procopius, v. 1.26.
68. This survives only as a crude abbreviation by Jordanes.
69. Milman, I, 433.

70. Ibid., 439.
71. In Cassiodorus, *Variae*, ii, 28.
72. Milman, I, 442.
78. Boethius, *Consolation of Philosophy*, ii, 3.
74. Ibid., 4.
75. Ibid., iii, 10.
76. Procopius, v.1.

CHAPTER V

1. *Justiniani Institutionum Librt qnattuor*, Introd., I, 63.
Procopins, *Buildings*, i, 7.
2. Procopius, *Anecdota*, viii, 24.
4. John Malalas in Bury, *later Roman Empire*, II, 24.
5. Procopius, *Anecdota*, xv, 11.
6. Id., *History of the Wars*, i, 24.
7. Id., *Buildings*, i, 11.
8. Diehl, C, *Byzantine Portraits*,58
9. Procopius, *Anecdota*, xt,
10. ibid., ix, 50.
11. Bury, *Later Roman Empire*, II,29.
12. Procopius, *Aneceota*, xvit, 5.
18. Diehl, *Portraits*, 70.
14. Bonchier, E., *Life and Letters in Romrn Africa*, 107.
15. Procopius, *History of the Wars*, iv, 6.
16. Ibid., vii, 1.
17. Ibid., 5-8.
18. Lot, 267.
19. Gibbon, IV, 359.
20. Lot. 267.
21. *Justiniani Inst.*, Proemium.
22. Cod. I, xiv, 34.
23. Cod. IV, xliii, 21.
24. Cod. XI, xiviii, 21 ; lxix, 4.
25. Bury, *Later Roman Empire*, II, 406 ; Milman, I, 501.
26. Procopius, *History of the Wors*, vii, 82.
27. In Gibbon, V, 43.
28. Procopius, *Baildings*, i, 1.

CHAPTER IV

1. Frank, *Economic Survy of Ancient Rome*, IV, 152.
2. Rostovtzeff, M., *History of the Ancient World*, II, 353-4.
3. Procopius, *History* viii, 17.
4. Lopez, R. S., in *Speculam*, XX, i, 3, 7, 19.
5. Ibid., 10-12.
6. Novella 122 in Bury *Leter Roman Empire*, II, 356.
7. Dalton O.M., *Byzantine Art*, 50
8. Bury, 357.
9. Dieh, C., *Manuel d'art Byzantin*, 92-6.
10. Hrocopius, *Anecdota*, xvii, 24.
11. Himes, N, *Medical History of Contraception*, 92-6.
12. Boissier, *La fin du paganisme*, I, 168.
13. Gibbon, I 382.
14. Schueicer, H., *History of World Civilization*, II, 640.
15. Castiglione, A, *History of Medicine*, 252 ; Garrisou, F.H., *History of Medciine*, 132.
16. Thorndike, L., *History of Magic and Experimental Science*. I. 147
17. O'Leary, E., *Arabic Thought*,53. 53.
18. Himes, 95.
19. Thorndike, I, 584.
20. Huguetine, *Confessions*, vii, 6.
21. Heath, Sir T., *History of Greek Mathematics*, II, 528.
22. Socrates, vii, 15.
23. Lecky, *Morals*, II, 815.
24. Bury, *Later Roman Empire*,I,217.
25. Duchesne, III. 210.
26. Socrares, vii, 15.
27. Gregory Nazianzen, *Panegyric on St. Basil*, in Monroe, P., *Source Book of the History of Edncetion for the Greek and Rrman Period* 305.
28. Bury, *Later Roman Empire*,I,877.
29. Diehl, *Manuel*, 218.
03. Highsm and Bowrs, *Oxford Book of Greek Verse*, 654.
31. Ibid., 665.
32. Socrates, vii, 48.

33. Procopius, *History*, viii,32; v,3.
34. Winckelmann, J., *History of Ancient Art*, I, 350-1; Finlay, G., *Greece under the Romans*, 195.
35. Strzygowski, J., *Origin of Christian Church Art*, 4-6.
36. Procopius, *Buildings*, i, 10.
37. Ibid., i, 1.
38. Ibid.
39. Ibid., i, 3.
40. Dalton, 258.
41. Lot, 143.
42. Diehl, *Manuel*, 249; Dalton, 579; Lot, 146.
43. Boethius, ix.

CHAPTER VII

1. Ammianus, xxii, 6.
2. Ibid.
3. Dhalla, M. N., *Zoroastrian Civilization*, 371.
4. Rawlinson, G., *Seventh Great Oriental Monarchy*, 29.
5. Procopius, *Persian War*, ix, 19.
6. Bury, *Later Roman Empire*, I, 92.
7. Ammianus, xxiii, 6.
8. Talmud, Berachoth, 8b.
9. Dahlla, 301f.
10. Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 188.
11. Macrobius, *Saturnalia*, vii, 1.
12. Gottheil, R. J., *Literature of Persia*, I, 159.
13. Firdousi, *Epic of the Kings*, retold by Helen Zimmern, 191; Sykes, Sir P., *History of Persia*,
14. Gottheil, 166.
15. Dhalla, 377.
16. Ibid., 305.
17. Browne, E.G., *Literary History of Persia*, I, 107.
18. Sarton, G., *Introd to the History of Science*, I, 435.
19. Browne, E.G., *Arabian Medicine*, 23.
20. Dhalla, 354.
21. Ibid., 362.
22. Ibid., 274; Bury, *Later Roman Empire*, I, 91.
23. Rawlinson, G., *Seventh Great Oriental Monarchy*, 686.
24. Bright, W., *Age of the Fathers*, I, 202.
25. Skes, I, 414.
26. Lowie, R.H., *Are We Civilized?*, 37.
27. Pope, A. U., *Survey of Persian Art* I, 755.
28. Dhalla, 356.
29. Pope, 761.
30. Baron, S.W., *Social and Religious History of the Jews*, I, 256.
31. Ammiauus, xxiii, 6.
32. Pope, 716.
33. Browne, *Literary History*, I, 127.
34. Ibn Khaldun, *Prolègomènes*, I,80. Rawlinson, 61, attributes this saying to Ardashir I.
35. Eunapius, // 466.
36. *Cambridge Ancient History*, XII, 112.
37. Sykes, I, 408.
38. Rawlinson, 141.
39. Browne, *Literary History*, I, 171 Sykes, I, 449, places this massacre in the early years of Khosru I.
40. Pope, 755.
41. Procopius, *History of the Wars* ii, 9.
42. Nöldeke, Th., *Geschichte der Perser . . . aus Tabari*, 160, in De Vaux, *Les Pensears de l'Islam*. I, 92.
43. Rawlinson, 446.
44. Sykes, I, 460.
45. Procopius, *History*, i, 26.
46. Mommsen, *Provinces*, II, 47.
47. Graetz. H., *History of the Jews* III, 18.
48. Sykes, I, 480f.
49. Pope, 524.
50. Creswell, K. A., *Early Muslim Architecuture*, I, 101.
51. Dieulafoy, *Art in Spain*, 13. Ibid., Pope, A. U., *Iranian and Armenian Contributions to the*

Beginnings of Gothic Architecture, 130.

53. Theophylactus Simocatta in Rivoira, O.T., *Moslem Architecture* 114. Herzfeld thought the Ctesiphon palace the work of Shapur. I.
54. Gottheil I, 167.
55. Arnold, Sir T., *Painting in Islam*, 62.
56. Pope, *Sarvey*, I, 717, Dieulafoy, 21.
57. Ackerman, P., in *Bnlletin of the Iranian Institute*, Dec., 1946, p. 42.
58. Pope, A. U., *Introd. to Persian Art*, 144, 168.
59. Sykes, I, 465.
60. Pope, A. U., *Masterpieces of Persian Art*, 182.
61. Pope, *Introd.*, 64.
62. Fenollosa, E., *Epochs of Chinese and Japanese Art*, I, 21.
63. Riefstahl, R. M., *The Parish-Waston Collection of Mohammedan Potteries*, p. viii, Pope, *Survey*, I, 779, Lot, 141.
64. Sir Percy Sykes in Hammerton, J. A., *Universal History of the World*, IV, 2318.
65. Examples in Sarre, F., *Die Kunst des alten Persien*, 134.
66. Pope, *Introd.*, 100.
67. Pope, *Survey*, I, 775.
68. Dhalla, 273.
69. Sykes, I, 490.
70. Browne, *Literary History*, I, 194.
71. Sykes, I, 490.
72. Ibid., 498.

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)